التصوُّف في التاريخ العربي والإسلاميّ

(نشأته، مصادره، تاريخه، تياراته، آثاره)

إعداد الباحث

محمَّد ناهض عبد السَّلام حنُّونة



غزة –فلسطين

ث

التصوُّف في التاريخ العربي والإسلاميّ

(نشأته، مصادره، تاريخه، تياراته، آثاره)

إعداد الباحث

محَمَّد ناهض عبد السَّلام حنُّونة

M١٢٠٠٧@hotmail.com

الطبعة الأولى

–نسخة الكترونية–

(٢٠١٧– ٢٠١٨م)

" إنَّ أساتذة الصُّوفيَّة الذين يؤمنون بوحدة الخالق، وقيم الفروسيَّة، قبلوا الإسلام، ولم يقبلوا ثقافة العرب، لقد أخذنا رحيق الإسلام، وألقينا بقشرته إلى العرب.

الأذكياء فقط هم من يعرفون أننا لسنا مسلمين، والأغبياء يظنوننا مسلمين بالدعوى".

شيخ الطريقة النعمة اللاهيَّة (لقاء تلفزيوني/ قناة الجزيرة).

" ولا تثبُتُ قدمُ الإسلامِ إلا على ظهر التسليم والاستسلام، فمن رامَ علم ما حُظِرَ عَنهُ علمه، ولم يقْنَع بالتسليمِ فَهمُهُ، حَجَبُه مُرامُهُ عن خالص التوحيد، وصافي المعرفة، وصحيح الإيمان. فيتذبذب بين الكفر والإيمان، والتصديق والتكذيب، والإقرار والإنكار، موسوساً تائهاً، شاكاً، زائغاً، لا مؤمناً مصدقاً، ولا جاحداً مكذباً ".

الإمام الطحاوي، طبعة أحمد شاكر (ص ١٤٥).

• إهداء...

أهدي هذا الكتاب إلى كُلِّ من يبحث عن الحقيقة في ظلِّ هذه الأكوام المبعثرة من الآراء والمعتقدات والأفكار الدخيلة والغريبة. وإلى كل من زلَّت به القدم في باب السُّلوك إلى الله عز وجل؛ لأن عقله لم يأخذ غذاءه الكافي من التوحيد الخالص والعقيدة الصافية.

إلى كل من اضطرب في سيره ودار في دائرة الغباء والسذاجة مع المخرفين والمبطلين؛ فانحرف عن الجادة منبهراً بشيوخ الضلال الذين يُغامرون بأديان الناس، ويُتاجرون بالجهالات في سبيل تبرير البدع وتشريعها. إلى كل من فتنوا بالتصوُّف المنُحرف وأشياخه وأذواقه، وطالت ألسنتهم في أهل السُّنة بسوء الأدب وقالة السوء؛ لأنه يحبس عينيه وقلبه عن سماع الحق.

إلى الشباب الحزاورة والجيل الصاعد الذي يرنو إلى أن يدرج مدرج أسلافه، ويقتفي أثر نبيِّه صلى الله عليه وسلم، والله تعالى هو الهادي إلى سواء السَّبيل.

وأخير؛ أقول: اللهُمَّ أرنا بفضلك الحقَّ حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، وثبِّت يا ربِّ على الحقِّ قلوبنا وألسنتنا، وصرِّف على الطاعة جوارحنا وجوانحنا، برحمتك يا أرحم الراحمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا مُحمد وآله وصحبه أجمعين.

محمد ناهض عبد السَّلام حنُّونة

والحمد لله رب العالمين.

• نثرات وومضات ...

" كُلَّما خيَّمت سُحُب البِدَعِ، واحلولكت ظُلُم الجهالة، وخاضَ النَّاسُ لُجُجَ الباطِلِ، أيَّد الله تعالى لهذهِ الأمَّةِ رجالاً، يدعونَ إلى الله على بصيرةٍ، يُنيرونَ الطَّريق، ويُظهرونَ الحقَّ، ويُحيونَ السُّنَّةَ، ويُحاربونَ البدعةَ، حتَّى يُطهِّر اللهُ البلاد والعبادَ بأيديهم".

" في زمنٍ كَثُرَ الشُّطار، والمفسدون، وقُطَّاعُ الطُّرق، وكثُرَ المُخرِّبونَ في المجتمع الإسلاميّ من وراء ستار، وكثرت الآراء الغريبة على العقل الإسلامي، كان لا بُدَّ من بيانٍ صحيح، ومغالبةٍ صريحة لكل من حجبه هواه عن معرفة الحقيقة، وأعماه التقليد عن صفاء الرؤية، لينتهي زمن البدعة والضلال، وتشرق شمس السُّنَّة على ربوع الأرض! ولا نلتفت لأولئك الذين ارتضوا العيش في وسط تلك المنازع الغريبة، وفي أحضان الفرق الضالة، شيعةً وصوفيَّةً ومرجئةً! ".

بقلم

محمد ناهض عبد السلام حنُّونة

غزة –فلسطين

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن التصوُّف من المواضيع التي كثر فيها الكلام، وخاض فيه الخواص والعوام، وهم مختلفون فيه ما بين مؤيد ومعارض، ومصحِّحٍ وناقد، وذلك لما يكتنف هذا المذهب من الغموض والتلبيس، والاختلاف والتعقيد والاضطراب في كثيرٍ من الأمور.

بالإضافة إلى اقتصار الباحثين على دراسة جانبٍ مُعيَّن من عقائد التصوُّف وأفكاره وممارساته، مع إغفال الجوانب الأخرى الهامة فيه كتاريخه، ونشأته، ومصادره، فجاءت دراساتهم بعيدةً كُلَّ البعدِ عن حقيقة التصوُّف، وبقيت جزئيات ثاوية في تعبيرات المتصوفة، كانت بمثابة الخمار الذي يغطي وجه الحق والصواب !.

مع ما ساد في فترة ظهوره من الترف الفكري والمادي، وتأثره بالفلسفات اليونانية والفارسية والرهبنة المسيحية، وبالتالي لا بُدَّ من دراسة توضِّح العوامل التي أدَّت إلى نشأة هذا المذهب، وطبيعة السُّلوك والممارسات والطقوس التي تُعبِّرُ عن فعليّاً عن حقيقة التصوُّف، وأفكاره، ومناهجه، وأهدافه، ووسائله.

وفي الحقيقة: أنَّ التصوُّف ليس له علاقةٌ بالإسلام إطلاقاً، لا في نشأته وظهوره، ولا في أصوله ومصادره، ولا في اشتقاقه وسبب تسميته، وهو قول كثيرٍ من علماء السلف والفقهاء، وهو قول أكثر المتكلمين من أهل السُّنَّةِ والجماعة، ومذهبُ كثيرٍ من المستشرقين [١].

ولقد أتانا رسول الله ﷺ بشريعة بيضاء نقيَّة، يستقيم لها كُلُّ معوج، ويهتدي بها كُلُّ ضال، وقد دلتنا على كل ما يصلح دنيانا وآخرتنا، وقد سلك بنا منهج الاعتدال والوسطية، دون إفراط أو تفريط، ودون إسراف أو تقتير، حيث يقول ﷺ: "بُعثتُ بالحَنيْفِيَّةِ السَّمْحَة"[٢].

وقد أدرك الصحابة رضوان الله عليهم طبيعة هذا المنهج، ومراعاته للتوازن بين متطلبات الدين من جهة، ومتطلبات الدنيا من جهة أخرى، وبين متطلبات الروح والجسد، وبين حقوق الفرد ووجبات المجتمع، فالإسلام دين الحياة والحركة والعمل والجد والاجتهاد، أما التصوُّف فهو أنموذج من الفسق والفتور والكسل وبعبارة أصح (النِّفاق!).

---

(١) مقدمة الفرق الصوفية في الإسلام، سبنسر ترمنجهام، (ص ١٢).

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده (٥/ ٢٦٦)، من حديث أبي أمامة، وحسنه السخاوي في المقاصد (٢١٤).

وقد تبين فساد منهج المتصوفة، بمخالفته هدي الرسول ﷺ أولاً، وبمعرفة وقت حدوثه ثانياً، وقد دلَّ على ذلك قوله ﷺ: "فإنه من يعش، فسيرى اختلافاً كثيراً؛ فعليكم بسنتي، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة"(٣).

والظاهر أن كثيراً من البدع المنتشرة عند المتصوفة وُجدت قبل ظهور مصطلح التصوف؛ فإن التصوف والصوفية لم يُعرف مصطلحاً إلا في نهايات القرن الثاني الهجري.

ومن الصعب أن نجد تفسيرًا مقنعاً لاجتماع صورتي "الصلاح" و"البدعة" في سير المتصوفة، وكذلك أن تجد تأويلاً للمقاصد "السامية"، إذا كان "التطبيق" و"الممارسة" يخالفان تلك المقاصد السامية!

هذا وإن فُسِّرَ التصوُّف بأنَّه مقام الإحسان من الدين! إلا أنَّ المعنى والمدلول والموضوع والحقائق كلها خطوط تؤكد أنهما مفترقان تماماً، وهذا ما تؤكده الدورة التاريخية لهذا المذهب، بداية من القرنين الثالث والرابع الهجريين،

---

(٣) رواه الإمام أبو داود في سننه (٥/ ١٣)، والترمذي (٥/ ٤٤)، وقال: حسن صحيح.

حيث المنصور الحلاج، الذي أعلن عن عقيدته الاتحاديَّة الوجودية؛ فقتل كفراً سنة (٣٠٩هـ)!

فهل شعر الصُّوفيون بأن الشريعة لا تستجيب للحاجيات الروحيَّة للمسلم، حتى جاء التصوف الميتافيزيقي ووضع نظرياته التي وفَّق بها ما بين الوثنية والإسلام؟!.

إن الصورة الفولكلورية التي رسمتها شخصيات القرن الثالث الهجري، اختزلت الكثير من الأدوار التاريخية للحركة الصُّوفية ومعتقداتها، التي يجب الكشف عنها وبيانها !

وما نراه من دفاعٍ مستميت عن ابن عربي والحلاج والبسطامي والشبلي والتلمساني وغيرهم، يجعلنا نتيقن من العلاقة التي نظمت الفرع في عداد الأصل، والتي هي أصل التماثل والتطابق الملاحظ في العبارات وطريقة السير والسلوك، والذي يخفي وراءه اتفاقاً في النحلة، والتقاءً في العقائد والتصورات ..!

وقد يبدو لأوَّلِ وهلةٍ أنَّ التصوُّف يشتمل على معانٍ عقائديَّةٍ عميقة، إلا أنَّه لا يعدو كونه تلاعباً بالألفاظ، ودغدغةً للعواطف، وإيهامٌ مقصود؛ لإدهاش السَّامع، أو لفتح باب الحوار حول حقيقة الأفكار التي يعتنقونها، أو لإرباك التفكير

المنطقي في ذهن السَّامع، سعياً في بناء تصوُّرٍ غير حقيقي لمعانٍ غير منطقيَّة، وهذا يُفسِّر الإجابات المختلفة عن معنى التصوُّف وأصل اشتقاقه، كما سيأتي (٤).

كذلك فإن التسوية بين الأخلاق والتصوُّف، أو بين الزُّهد والتصوُّف هي محاولة عبثية ورديئة، وضعت هذا المذهب في إطاره الغير صحيح !، ولو مال النوريُّ إلى ذلك (٥)، ولا يعني ذلك رفض الجانب الأخلاقي من أيِّ مذهب كان، إذا كان فيه ما يوافق الكتاب والسُّنَّة، ولكنَّ الاتجاه الأخلاقي لم يكن من اختراع التصوُّف، أو من إبداعه الفريد، بل هو شائعٌ في الزمن القديم والحديث، كما أنَّ السلوك الصوُّفي لم يُعبِّر عن الأخلاق تعبيراً صادقاً (٦).

وهذا ما أشار إليه الدكتور عبد الحليم محمود في إحدى كتاباته حيث يقول: "والواقع أننا لو نظرنا إلى كثير من الأشخاص الذين اشتهروا بالسمو في الجانب الأخلاقي الكريم، واتصفوا بأروع الصفات الأخلاقية، واتخذوا الفضيلة مذهباً وشعاراً، فإننا نجدهم أشخاصاً مثاليين في المحيط الأخلاقي وفي المجتمع،

---

(٤) انظر: الأبعاد الصوفية في الإسلام وتاريخ التصوف، آنا ماري شيمل، (ص ١٣، ١٧). والتصوف المنشأ والمصدر، إحسان إلهي ظهير (ص ٤٩).

(٥) انظر: طبقات الصوفية، للسلمي (ص ١٦٧).

(٦) انظر: التصوف في القرنين الثاني والثالث الهجريين، أبو الخير تراسون (ص ٧٤– ٨٥).

ولكن ليس معنى ذلك أنهم لا محالة من الصوفيَّة"، وأضاف قائلاً: "وهذا الحسن البصري (ت ١١٠هـ)، من أروع وأجمل الشخصيات الأخلاقية العالية، ولقد كان مثالاً للشعور الأخلاقي في طهره وصفائه، وكان ينشر الفضيلة بوعظه المؤثر، ومنطقه القوي، وسلوكه المثالي، ومع ذلك فلم يكن الحسن البصريُّ صوفياً بالمعنى الدقيق لكلمة صوفي!"(٧) .

أما تعليل التصوُّف بالزهد، فأمرٌ يخالفه الطوسيُّ نفسه، الذي قال: "إن التصوف لا تنفرد بنوع من العلوم حتى تنسب إليه؛ كالفقهاء إلى الفقه، أو الزهاد إلى الزهد!"(٨) .

وهذا السهروردي يصرح بذلك، فيقول: "التصوف غير الزهد، والزهد غير الفقر، فالتصوف اسمٌ لمعاني الزُّهد والفقر، مع مزيد أوصافٍ أو إضافات لا يمكن بدوها أن يكون الرجل صوفياً وإن كان زاهداً أو فقيراً"(٩) ، "فالزُّهد في الدنيا شيء، والتصوُّف شيءٌ آخر"(١٠).

---

(٧) أبحاث في التصوف، ودراسات عن الإمام الغزالي (١٧٧).

(٨) اللمع، للطوسي (ص ٤٠).

(٩) عوارف المعارف، (ص ٥٤).

(١٠) أبحاث في التصوف، ودراسات عن الإمام الغزالي (١٧٩- ١٨٠).

إن التصوُّف بوصفه حركة فلسفيَّة مثيولوجية، هو خليطٌ من ديانات وفلسفات متعددة، سعت للتمرد على نفوذ الشريعة في الحياة والفكر، نشأ من الحاجة إلى تحويل الإسلام إلى روحانيات أسهمت في تحجير الدين الإسلامي وتقويضه!.

ولذا كان الصوفيون أبعد ما يكونون عن الإخلاص للشرع، وبهذا أصبحت كلمة الصُّوفي في الغرب مرادفة لكلمة "ملحد!"، وحتى في بداياته كان أصحابه معروفون بـ"الزنادقة"! (١١).

وارتبط التصوُّف في بداياته بإيقاظ (وإذكاء) روح الثقافة الفارسيَّة في أبناء فارس، بعد رفضهم الخضوع للحكم الأمويّ (بحجة أنَّهم المسئولون عن قتل الحسين ﷺ بكربلاء!)، لأنهم تعرضوا لأبشع الظلم وأقذره على أيدي الأمويين، وهي الفكرة التي بالغ الفرس والترك في تعميقها، وإنَّ أصداء هذا التاريخ لم تتلاشى بعد!..

(١١) انظر: الأبعاد الصوفية في الإسلام وتاريخ التصوف، آنا ماري شيمل، (ص ١٢٢). والصوفية في ميزان الكتاب والسنة (ص ٤).

ويبدو ذلك الانحلال بدا واضحاً في الأسلوب الجدلي العقيم، والعبارات المنمقة والمتكلفة، والاتجاه نحو العزلة، الذي يضع مسافات (غير حقيقية!) بين خطأ لا حيلة في منعه، وبين ربٍّ عظيمٍ لا يُقنِّط المذنبين من عباده !.

وبدأت حكايات الشيوخ في الوصول إلى درجات روحيَّة عالية، ومقامات إلهيَّة سامية، وعمليات إظهار الورع والتقوى، في الوقت الذي يخفون فيه حرصهم الباطني على كل ما هو دنيوي، ما جعل مبالغة بعضهم في الزهد والورع مدعاة للضحك!، خاصَّة وأنهم أصبحوا في وقت قصير ملاك عقارات أغنياء، والتحقوا بالنظام الإقطاعي، من خلال جمع ثروات أتباعهم، والعطايا التي ألقاها الفقراء والمساكين تحت أقدامهم طلباً للشفاء والبركة !.

وكان لادِّعاء الولاية أثره البالغ على اعتقادات العامة التي خضعت لتأثير كل من (الجذب)، و(الخوارق)، حتَّى وصلوا إلى مدى لا يُصَدَّق في تقديس الأولياء، حيث كانوا يرون فيهم القادة إلى الخلاص الخالد، والسعادة الأبديَّة، وعند دراسة تلك الظواهر بتمعُّن، عندها فقط، سندرك أنَّ التصوُّف يُعدُّ أحد المظاهر الخطيرة في المجتمعات الإسلامية !.

وخلال فترة وجيزة انتشر التصوُّف في العالمين العربي والإسلامي، بطريقة تفسر واقع الغشاوة والعثرة التي عاشته هذه الأمَّة، وترتب على ذلك خمول الفقهاء وتراخيهم، وتراخصهم وتعاميهم عن الشبهات، وانقطاعهم عن دنيا الناس، ما أثمر واقع فكري متأخر، وحضارة في الحضيض، ونخبة علمية قليلة جداً إذا ما قورنت بعصور سالفة ومتقدمة، وكل ذلك يستلزم وجود تغيرات ومؤثرات كان من بينها انتقال المتصوفة من الاعتماد على طريقة الرمز والإشارة في التعبير عن حقائق التصوف ومعتقداته، إلى طريقة التصريح والمواجهة العلنية، والجراءة في الطرح والتعبير(١٢).

وسنرى كيف ارتبط الادعاء الصوفي بالولاية، والتعظيم المبالغ فيه للشيوخ، الذين اضطروا أحياناً إلى المخرقة والدجل وفعل أشياء لا لزوم لها، إن لم تكن مضرَّة لأتباعهم، وعلى الأخص السُّذج منهم، ودعوى أنَّ لهم القدرة على الوهب والسلب، والمنح والمنع، وقطع المسافات الشاسعة في ثوانٍ، وتحمل الآلام والابتلاءات عن المريدين، والتدبير العجيب لأمور الطعام والشراب، على أن

---

(١٢) اهتم المستشرقون بموضوع التصوُّف، وكثرت كتاباتهم حوله، نذكر منها: "التصوُّف" و"آلام الحلاج" كلاهما لماسينيون، و"الصوفية في الإسلام" لنيكلسون، وغيرها، وانظر "مواقف المستشرقين من دراسة الفرق (الصُّوفيّة) عرض ونقد، في ضوء عقيدة أهل السُّنَّةِ والجماعة، رسالة دكتوراة، د. لطيفة بنت عبد العزيز المعيوف.

الصُّوفية مثَّلت في قرنها الخامس وما بعده فرقاً صار المُسلم في عرفها يحتاج إلى طلب انتسابٍ إليها لينتسب إلى دينه، وهذه الفرق أساءت للأعلام، فألحقت بهم حكايات تخريفية، لا يقبلها المنطق، ولا يُقصد منها إلا الإساءة.

وقد كان التصوُّف في كل مراحله حائطاً كبيراً أمام عددٍ غفير من المسلمين عن التفسير الصحيح لمتطلبات الواقع والحياة، وجعل الرُّقي الأخلاقي والقيمي مستحيلاً في نظام الدراويش !.

وفي إحدى مراحل التصوُّف كان التطبيع مع النظام السياسي إحدى أسباب انتعاشه وفورته، وجعلته محاطاً بالأسطوريَّة، مع إضفاء الصفة (الشرفية) على الشيوخ التي تجعله أكثر تعظيماً وشعبيَّة!.

ولذا كان لا بُدَّ أن تواجه حركة التصوُّف بحركةٍ أخرى (سنَّية!)، أكثر تنظيماً ومنهجيَّة للسيطرة على مثل هذه الطوائف المنحلَّة، أو كبحها على الأقل!، والذي لم يكتمل حتى اللحظة..!.

إن مأساة التسوية التي تمت بين أساتذة الشريعة وعلمائها، وشيوخ الحياة الباطنية، لم تستطع أن تُحقِّق توازناً حقيقيَّاً بين الفقهاء والصُّوفيَّة، لأنَّ المشترك صعب التواجد، وقد نسي الصوفيَّة تماماً أنَّ الخلاف الذي دارت قرونه بينهم وبين

أهل السُّنَّةِ طويل جداً، سيما وأنهم يرون فيه أصل الفتنة في الدين، والطريق المباشر لإفساد عقيدة المسلمين!.

وأما القدرة على اندماج الصُّوفيَّة في المجتمع من خلال الوعاظ بعيداً عن الخلافات الفقهية والكلامية، فقد جعل منها مُرَكَّبَات سهلة الذوبان في المجتمع الإسلامي، ما أعطاها طابع القبول لدى العامة والبسطاء، حتى وصلت إلى مقام النفوذ الديني للإسلام في حياة الفرد والسلطة.

ولم يأتِ الإسلام ليدع الأرواح هائمةً تسبح في بحار الفلسفة الصُّوفيَّة (الغنوصية)، بحثاً عن (الإشراق والخلود!)، أو عن عشق إلهيّ عارم في نار مظلمة، مليئة بالجهل والخرافة، وإذا كان الصُّوفيون يبحث عن خارقةٍ يستبينون بها صحَّة ما هم عليه!، ولا يلتفتون إلى ما وراء ذلك من حقوق الأهل والأوطان، فماذا تصنع تلك الخارقة بالأعداء الذين يتربصون بالأمَّةِ الدوائر!، ولن ينتبه هؤلاء إلا بعد وثبةٍ يستيقظ بها المسحور من صرعه، ويرى أن كل ذلك محض خدعة وسراب !.

أما أصحاب القلوب المستعصية على الشفاء، فهم بين عطش وعطش، وسراب وسراب، وسكر لا يفيقون منه أبداً، وهم مقيمون على الجهالة مع أرباب التقصير والبطالة!.

ومن خلال تجارب الكثيرين من الذين سلكوا طريق المتصوفة رأيناهم كيف عاشوا حالاتٍ من التمويه والخديعة والهرطقة التي لا طائل تحتها، والقعقعة التي لا حاصل لها، وهي مجرد أماني ودعاوي، ومخرقة يأباها العقل السديد والفطرة السليمة، ولو بذل صاحبه جهد الأنفاس، وأفنى الأقلام وملأ القرطاس!.

وإن فصَّلوا شنائعهم، وجعلوها رذاذاً في الهواء، وأقسموا بالله جهد أيمانهم أنَّهم منها برآء، فإنَّ الاتهام أسبق إلى الأذهان من البراءة!.

وإذا كنتَ صوفيَّاً، فعليك أن تكون "ابن وقتك"، فتترك الحاضر كله، وتنتظر المنحة من الله سبحانه!، ولا تستشرف المستقبل لأنَّه غيب محض!، وعليك أن تكون يائساً بائساً، تعتزل كافة النَّاس كأنَّك خلقت وحدك، مستسلماً لكل سارق ومارق، لا تفقه شيئاً من أمر دينك أو دنياك!..

وسنرى كيف تناول الصُّوفيون قضايا فكريَّة شائكة بجرأة وتحدي لا مثيل لهما، فطرحوا أفكار أئمة الضلال والانحراف من أمثال الحلاج وابن عربي على أنَّها مسلمات في الطريق الصُّوفي، وقُدِّست كلماتهم وشطحاتهم الكفرية، وقُدِّمت على أنها نوعٌ من الأدب الرفيع، والذوق العالي، وقد فتحوا بذلك أبواب الفساد

في عقائد الأمَّة، وجرَّت المسلمين إلى مستنقعات من الفتن والجهالة لم تخرج منها حتَّى اليوم!.

وأعجب من ذلك ظهور بعض المُلبِّسين (١٣)، اللذين يحتجون بكلام شيخ الإسلام ابن تيمية، وكلام غيره من أهل العلم، في التفصيل الذي يذكرونه في المتصوفة، وما يقترن ببعض أحوالهم، فيثنون عليهم من بعض الوجوه، متناسين الوجه الحقيقي لهذه الطائفة، مع العلم أن شيخ الإسلام ابن تيمية بيَّن أحوالهم المخالفة للشريعة، وردَّ على بدعهم الكثيرة

ويواجه التصوُّف اليوم قضيتين أساسيتين هما (قضية تاريخية) تمثلت في الحرب الدائرة بينه وبين الفقهاء، والشخصيات المختلَّة عقدياً انتظمت بها سلاسل التصوُّف وأفكاره ومعتقداته، و(أزمة قبول) راهنة، قضت على إمكانية بعث التصوُّف من جديد أو محاولة بثِّ أفكاره ومنطلقاته، ولم يبق سبيل لاستمراره سوى العزلة الشعورية، وممارسة نوع من التقية الخفيَّة، تجنباً للمجادلين والمناوئين، وإلا فلا أمل في البقاء!.

---

(١٣) انظر على سبيل المثال: كتاب التصوف بين الإفراط والتفريط، لعبد الله كامل (ص ٢٠٠).

إن هذه الدراسة المتواضعة هي جزءٌ أصيل من الاهتمامات التاريخية للمثقف المسلم، الذي يعيش في وسط بعيد كلَّ البعد عن الموضوعية والشمولية في دراسة الأفكار والمعتقدات، وهي وإن تناولت تاريخ التصوُّف بشكل خاص، إلا أنها تفتح أبواب الاجتهاد مشرعةً في إعادة تقييم التصوُّف وشخصياته، وتكرار النظر فيه، ومعرفة أصول الحركة الصُّوفية، التي اختلف فيها الباحثون، وذهبوا في تأويلها أباديد..

أما التصوُّف المعاصر؛ فقد وجد مادةً سهلة يقفز من خلالها إلى تسنين الطرق، وجعلها أكثر موافقة للشرع، فهو في حالة ركود تام، وأكثر ما يلتزمه هؤلاء في موضوعاتهم هي عمليات تسجيل المواقف، والحشد الجماهيري والشعبي، والتوثيق المنهجي، وتعداد كرامات أولياء الصُّوفيَّة، والتعلق بالعبارات الموافقة للشرع، تاركين وراءهم كل ما له علاقة بالعالم السِّريّ للتصوُّف، وهذا يدعونا مرةً أخرى إلى إعادة الاستقراء والتقييم الموضوعي والشامل للتصوُّف، وصفِّ المواقف بعيداً عن الشطط والغلو والتقصير. والله الموفق لا إله غيره.

وكتبه

أ. محمد بن ناهض بن عبد السَّلام حنُّونة

غزَّة –فلسطين

• أهمية البحث:

وتكمن أهميَّة هذا البحث في النقاط التالية:

١. إثبات وحدة العقيدة الصُّوفيَّة بين أهل التصوُّف جميعاً، ما بين معتدل ومتطرف، وأنَّ امتداد الزمن يصنع فوارق وهميَّة لا حقيقة لها، أدخلت بعض أنماط التصوُّف في نمط آخر يستحق الدفاع عنه، وتكريمه، وتخليده !.

٢. إبراز أهمية الأرضية التاريخية في فهم التاريخ الديني والسياسي للعقيدة الصُّوفيَّة، وكيف استطاع الصُّوفيُّون مجاورة الحركة السياسية التي ساهمت في ظهورهم من وقتٍ لآخر، وتقربهم من تفكير البسطاء في الشارع، وطبيعة علاقاتهم مع الجماعة الشعبية، ومحاولاتهم المستمرة لتحقيق النفوذ، وتأسيس سلطة حكم خفيَّة .

٣. أهمية العمق التاريخي في بحث العقائد الدخيلة التي استشرت في المجتمع الإسلامي في العصور السابقة وفي عصرنا الراهن، من خلال دراسة نماذج حقيقيَّة وواقعيَّة (كالفرق الصُّوفيَّة!) ذات التجارب والخبرات المتنوعة.

٤. بيان أن بحث التصوُّف من الناحية الدينية فحسب، يوقع في الخطأ واللبس، وقد يدخل الدارس في قضايا جدليَّة عقيمة ينتصر فيها العقل تارة، وتنتصر فيها المبادئ والعقائد تارةً أخرى !.

٥. بيان نظرة الحقد التاريخية التي أولاها الصُّوفيَّةُ (ومن تبعهم من أصحاب المذاهب الكلاميَّة!)، لأولئك الفقهاء (الذين تم غلق باب الاجتهاد في وجوههم في إحدى محطات التاريخ الصُّوفي!)..

٦. بيان أن الصراع الديني بين عقيدتي الإسلام والشرك، لم تنته بانتصار الإسلام في عهد رسول الله ﷺ، والخلافة الراشدة، وإنما هو مستمر ما بقي في الدنيا فسحة.

٧. التنبيه على تشابه رءوس الضلال، حتى إذا فهم القارئ قول أحدهم أعانه ذلك على فهم قول الآخرين، واحترز منهم، وتبين ضلالهم، وكثرة ما أوقعوا في الوجود في الضلالات.

٨. بيان المراحل الجدلية التي مرَّ بها التصوُّف، ودربتهم على المغالطة والتمويه، والتلبيس بالقول، والإيهام، من خلال التعبير العبارات الإسلامية عن الإلحادات الفلسفية واليونانية، كما سترى في هذا البحث.

أهداف هذا البحث:

١. توضيح مراحل نشأة التصوُّف وتطوره، وبيان مصادره وأشهر تياراته.

٢. تسليط الضوء على مبادئ التصوُّف وتشريعاته المناقضة للإسلام.

٣. تصحيح عقائد المسلمين من الصُّوفيَّة وغيرهم، في عصرنا الراهن.

٤. بيان الفجوة الشاسعة بين الإسلام وبين التصوُّف استناداً إلى الحقائق التاريخية.

منهجية الباحث:

١. القراءة المتأنِّية والدقيقة لكل ما له صلةٌ بموضوع التصوُّف.

٢. النقل المباشر عن المصادر الصُّوفيَّة، المنشورة والمشهورة، وهي متداولة ومتاحة يمكن للجميع قراءتها، والتأكد منها.

٢. الاحتكام إلى كتاب الله ﷻ، وإلى سنَّة رسوله ﷺ في كل قضيَّة من القضايا المطروحة، ودراستها ببعديها الصُّوفيّ التاريخي، والشرعي الديني.

٣. التحليل الواعي والناقد للأحداث، والعرض المتسلسل والمنطقي لها، مع البعد عن الادعاء والمبالغة.

٤. إتباع المنهج الاستقرائي (التاريخي)، في استقصاء الحقائق التاريخية المؤصلة، ودحض الأكاذيب، ورفض ما تشهد القرائن التاريخية بافترائه، وإتباع المنهج الجدلي العلمي، في الرَّد على المُدَّعين والمبطلين، من أصحاب الأهواء..

وأخيراً أدعو القارئ الكريم أن يُعيد النظر فيما قدَّمناه في كتابنا (تاريخ التصوُّف)، بعينٍ ملؤها الإنصاف، وليراجع النُّصوص مراتٍ ومرات، ليرى قيمة عملنا فيه.

والله أسأل أن يجعل ذلك في صحيفة عملي، وميزان حسناتي، يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون إلا من أتى الله بقلبٍ سليم.

الفصل الأول

التصوُّف ماهيته، واشتقاقه، ومصادره

وفيه خمس مباحث:

المبحث الأول: تعريف التصوف وبيان ماهيته
المبحث الثاني: التصوف في اللغة وبيان اشتقاقه
المبحث الثالث: بدعة الانتساب إلى التصوُّف
المبحث الرابع: مصادر التصوف الإسلامي ونشأته
المبحث الخامس: مصادر التلقي والاستمداد عند الصُّوفية

المبحث الأول

تعريف التصوُّف وبيان ماهيَّته

تحظى قضيَّة التعريف بقدر كبير من الأهميَّة؛ لأن أسماء الجماعات والفئات لا بُدَّ أن تُعلَّل، وتخضع لقانون الاسم والشعار، بعيداً عن الاستحسان والانتقائية، بحيث نتمكن من تمييز الصفات الأساسية التي تميِّز هذا الكيان عن غيره من الكيانات، مع التحديد الحاسم للمبدأ والقانون الذي تنتمي إليه هذه الجماعة (أعني المتصوفة!)، والدافع الذي يقودهم للدفاع عنه بكلِّ حماسة !

وقد وقع اضطراب شديد في محاولة إيجاد تعريف جامع يوضِّح حقيقة هذا المذهب، ويحدد طبيعة المنهاج الذي يسيرون عليه، فكان لكل صوفيٍّ اجتهاده في تعريف التصوُّف والدلالة عليه، مَثَله في ذلك مثل الفلسفة التي تضاربت الآراء في تعريفها تضارباً شديداً، ولما يستقر حتى الآن، على أنَّ لكلٍّ ذوقه الخاص، ومعرفته المختصُّ بها.[١٤]

وسنمرُّ سريعاً على بعض تلك التعريفات، إلى أن نخلص إلى الرأي الراجح في هذا الموضوع، سيما وأنه لا بد من رابط مشترك يجمع بين كل تلك التعريفات.

---

(١٤) صفحات مكثفة، د. كامل الشيبي (ص ١٣).

وبداية لا بد من التنبيه على مجموعة من العوامل التي ساهمت في تعقيد مصطلح التصوف، والتي منها:[١٥]

١. ارتباط التصوُّف بالفلسفة تاريخياً حيث كانت بدايات التصوف مقارنة لبواكير الإنتاج الفلسفي الإسلامي، وارتباطه بالفلسفة نظرياً وعملياً، باعتباره يبحث في حقائق الأشياء وبواطنها، وغايته الفناء عن العالم المادي، والاندماج في حقيقة العالم الروحي، وصولاً إلى حالة الإطلاق والكلية، من خلال حالة التركيز النفسي، والتأمل الباطني، الذي يُفضي إلى عجائب التحريفات، فجعلوا الصلوات الخمس: هي معرفة الأسرار، وصيام رمضان: هو كتمان الأسرار، والحجُّ: هو زيارة الشيوخ المقدسين.

٢. أن عبارات الصوفية في تعريف التصوف مختلفة ومتغيرة ومتنوعة تبعاً لتغير أحوالهم، الناتجة من حالات الغيبة عن الوعي، أو التغير العاطفي الشاذ والغير مألوف، ما يزيد في صعوبة تحديد تعريف دقيق للتصوف.

٣. التطور السريع في كيان التصوف العملي والنظري منذ ظهوره في القرن الثالث الهجري إلى أن وصل إلى أوجه في القرن السابع بحيث يبدوا لنا في كل

(١٥) صفحات مكثفة، د. كامل الشيبي (ص ١٣)، وما بعدها.

قرن موضوعاً مستقلاً تام الاستقلال عن صورته في القرن الذي سبقه، فتصوف القرن السادس مثلاً يبدو في صورة فلسفية إشراقية، كما في حكمة السهروردي، بينما يظهر في القرن الخامس مزاجٌ من الزهد وعلم الكلام والفلسفة التي أخذت تتسرب إليه، وبلغت أوجها على يد ابن سينا (ت٤٢٨هـ/١٠٣٧م)[١٦] الذي كان صوفياً كاملاً في إحدى مراحل حياته.

وهكذا يبدو التصوف في تغير مستمر، خصوصاً إذا بلغ بنا الأمر القرون المتأخرة والعصر الحاضر، حين فقد التصوف أصالته في المشرق، وصار مجموعة من الأفكار الساذجة مقرونة بمظاهر مادية يدعي أصحابها أنها كرامات وخوارق، تدل على صدق توجههم، وثبوت تقدمهم في التصوف!

(١٦) هو: الحسين بن عبد الله بن سينا، أبو علي الرئيس الحكيم، المشهور. قال عنه ابن حجر: "ما أعلمه روى شيئاً من العلم، ولو روى لما حلَّت الرواية عنه؛ نه فلسفيُّ النِّحلة، ضالٌ، لا رضي الله عنه"، وقال ابن أبي الحموي –كما في لسان الميزان–: "اتفق العلماء على أن ابن سينا يقول بقدم العالم، ونفي المعاد الجسماني، ولا ينكر المعاد النفساني، ونقل عنه، أنه قال: إن الله لا يعلم الجزئيات بعلم جزئي، بل بعلم كلي". وقد كفَّره الغزاليُّ في كتابه (المُنقذ من الضلال)، وقد انبرى شيخ الإسلام ابن تيمية في الرد على ابن سينا وأشياعه وكتبه طافحةٌ بالرد عليه، نظر ترجمته في لسان الميزان (٢/ ٢٩١)، وانظر: وفيات الأعيان (٢/ ١٥٧).

٤ . التأملات الباطنية الغير متوقعة، وكثرة التلاعب بالألفاظ اللذان خدما الصُّوفية لفترة طويلة، وساهم في الدفاع عن تعريفاتهم لكثير من الأشياء المُعقَّدة والفلسفية، والمتناقضة مع الدين أحياناً كثيرة.

وبعد هذه المقدمة البسيطة، نعود مرةً أخرى للحديث عن تعريف التصوُّف، والرابط المشترك الذي يوضح لنا حقيقة التصوف، وتعريفه المعبر عن أصوله وقواعده:

يقول القُشيريُّ (تلميذ السُّلمي، ت٤٦٥هـ/ ١٠٧٢م) في رسالته:

"تكلَّم الناس في التصوُّف، ما معناه؟!، وفي الصُّوفيّ من هو؟!، فكلٌّ عبَّر عمَّا وقع له، واستقصاء جميعه يخرجنا عن المقصود من الإيجاز، وسنذكر بعض مقالاتهم فيه على التلويح. وسُئل أبو محمد الحريريّ (ت ٣١١هـ) عن التصوُّف، فقال: الدخول في كل خلقٍ سُنِّي، والخروج من كل خُلقٍ دنيّ. وقال أحدهم: سمعتُ الجنيد (ت ٢٩٧هـ)[١٧] يقول:

(١٧) هو: الجنيد بن محمد بن الجنيد، أبو القاسم الخزاز، ويُقال: القواريري، قال عنه الخطيب: "نشأ ببغداد، وسمع بها الحديث، ثم اشتغل بالعبادة ولازمها، حتى علت سنه، وصار شيخ وقته، وفريد عصره في علم الأحوال والكلام، على لسان الصوفية، وطريقه الوعظ، وله أخبار مشهورة، وكرامات مأثورة". انظر: تاريخ بغداد (٧/ ٢٤١)، وشذرات الذب (٢/ ٢٢٨).

هو أن يميتك الحقُّ عنك، ويحييك به. وقال الحسين بن منصور عن الصُّوفيّ: وحدانيُّ الذات، لا يقبله أحد، ولا يقبل أحداً..."[١٨]

فالقشيري يرى أن كل صوفيّ عرَّف التصوُّف تعريفاً ذاتيَّاً، أو بتعبيره: "كلٌّ عبَّر عمَّا وقع له"، حتى أن القشيري أراح نفسه من ذكر كل تلك التعريفات، واكتفى بذكر بعضها طلباً للإيجاز والاختصار، وقد ذكر القشيريُّ في رسالته أكثر من خمسين أو ستين تعريفاً للتصوُّف عن الصوفيَّة المتقدمين [١٩]، والقشيريُّ مات سنة (٤٦٥هـ).

ثم جاء الشهاب السهروردي؛ ليؤكد أن تعريفات التصوُّف بلغت الألف تعريف، فيقول: "وأقوال المشايخ في ماهية التصُّوف تزيد على الألف قول"[٢٠].

وازدادت تعريفات التصوُّف حتَّى بلغت الألفين في نهاية القرن التاسع، وهو ما يؤكده الشيخ أحمد بن زروق الصُّوفي (ت ٨٩٩هـ/ ١٤٩٣م)، حيث يقول: "حُدَّ التصوُّف، وفُسِّر بوجوهٍ تبلغُ الألفين".[٢١]

---

(١٨) انظر: الرسالة القشيرية (ص ٢١٧).

(١٩) انظر: الرسالة القشيرية (ص ٢٨٠).

(٢٠) عوارف المعارف، عمر بن محمد السهروردي (ص ٦٩).

(٢١) قواعد التصوف، أحمد زروق الفاسي (ص ١٣).

ومن الطبيعي أن تتعاظم تعريفات الصوُّفية كثرةً بعد زمن القشيري، وقد دخل التصوُّف في طور الانتشار، فيقول الحلبي في القرن الحادي عشر: وقد بلغ أقوال المشايخ في بيان ماهية التصوف ما يزيد عن ألف قول(٢٢) ، بل إنها بلغت نحو ألفي تعريف أو أكثر(٢٣) .

وأورد المستشرق الإنجليزي رينولد نيكلسون (٢٤) (**R.Nicholson**) قائمة بتعريفات التصوُّف (**Sufik**) مرتبة ترتيباً زمنياً، وذكر بعضها بالعربية وأخرى بالفارسية(٢٥)، ولا يزال الباب مفتوحاً على مصراعيه لكل من أراد تعريف التصوُّف عند الصُّوفيَّة، وأصدق تعريفٍ يُمكن أن يُقال هو "أن التصوُّف كله اضطراب"(٢٦).

---

(٢٢) النصيحة العلوية، مخطوط (ص ٨٨).

(٢٣) فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام (٢/ ٣٩). وأبو العباس المرسي، لعبد الحليم محمود (ص ٨٤).

(٢٤) رينولد ألين نيكلسن: مستشرق إنجليزي، عالم بالتصوف الإسلامي. ولد سنة (١٨٦٨ م)، وتوفي سنة (١٩٤٥ م)، وتعلم في كمبردج وغيرها. ودرس العربية والفارسية، ودرّسهما. واشترك في نشر (تذكرة الأولياء) للعطار، و(اللمع) للسراج، و(ترجمان الأشواق) مقالات في التصوف لابن عربي. وله كتب بالإنكليزية، منها (تاريخ الآداب العربية) و(متصوفو الإسلام) و(دراسات في التصوف الإسلامي) ترجمه إلى العربية أبو العلا عفيفي. انظر: الأعلام للزركلي (٣/ ٣٩).

(٢٥) في التصوف الإسلامي وتاريخه، نيكلسون، ترجمة: أبو العلا العفيفي (ص ٢٨-٤١، ٦٦-٦٩)

(٢٦) انظر عوارف المعارف؛ للسهروردي (ص ٥٩).

وبعبارةٍ أوضح يختصر لنا أبو بكر محمد بن موسى الواسطيُّ (ت بعد ٣٢٠ هـ) وهو من أصحاب النُّوري والجُنيد هذا الاضطراب؛ فيقول: "كان للقومِ إشارات، ثم صارت حركات، ثم لم يبقَ إلا حسرات"(٢٧).

وآخر هؤلاء هو الصُّوفيُّ المعاصر أبو الوفا التفتازاني الذي يقول: "التصوُّف فلسفة حياة، تهدف إلى الترقي بالنَّفس أخلاقيّاً، وتتحقَّق بواسطة رياضات عملية، تؤدي إلى شعور المرء في بعض الأحيان بالفناء في الحقيقة الأسمى، والعرفان بها ذوقاً لا عقلاً، وثمرتها السعادة الروحية، ويصعب التعبير عن حقيقتها بألفاظ اللغة العادية؛ لأنها وجدانية الطابع والذاتية".(٢٨)

أمَّا عن تفسير كثرة تلك التعريفات، حتى لدى الصُّوفيّ الواحد الذي قد يعرف التصوف بأكثر من تعريف، من غير أن يكون بينها رابط مشترك غالباً، فهو –كما قال أبو العلا عفيفي –أنَّ الصوفيُّ "ابن وقته"، بمعنى أنه ينطق في كل وقتٍ بما يغلب عليه الحال في ذلك الوقت، وبعبارة أخرى يتلوُّنُ مع الخلقِ كما يتلوَّنُ الماء في الإناء (٢٩) .

(٢٧) انظر الطبقات الكبرى للشعراني (١/ ١٠٠).

(٢٨) مدخل إلى التصوف الإسلامي، أبو الوفا التفتازاني (ص ١٠).

(٢٩) شرح الأنفاس الروحانية (ص ١٦).

فذو النون المِصريّ (ت ٨٦٠هـ/ ٨٥٩م)[٣٠] ، باعتباره وريثاً للتراث الغنوصي المصري، غلب على تصوفه الكلام في المعرفة، والتي يُفسِّرها أحياناً "بالحيرة"[٣١]، وهذه المعرفة لا بُدَّ أن يتبعها الشطح، ومن ليس له شطح [٣٢]، فلا يصحُّ أن يكون في عداد العارفين! [٣٣].

ولا شك بأنَّ الحيرة جهلٌ وضلال، فإن الذي لا يعرف ماذا يفعل، وإلى أين يتجه، هو شخصٌ استهوته الشياطين، واجتذبته بأذنابها، حتَّى ما عاد يدري ماذا يريد، وماذا يُراد منه!، وكما قال ابن تيمية: "لم يمدح الحيرة أحدٌ من أهل العلم والإيمان، وإنما امتدحها طائفةٌ من الملاحدة كابن عربي، وأمثاله، الذين هم حيارى، فمدحوا الحيرة"!..[٣٤]

---

(٣٠) ذو النون المصري، هو: ثوبان بن إبراهيم، وقيل: "الغيض"، وأصله من النوبة، ثُمَّ نزل إخميم فأقام بها دهراً، ثُمَّ خرج إلى مصر، رماه الفقهاء بالزندقة. (شرح الأنفاس، ص ٢٤).

(٣١) نفحات الأنس (ص ٣٤).

(٣٢) الشطح: عبارة عن كلمة عليها رائحة رعونة ودعوى، وهي نادرة أن توجد من المحققين، انظر: تحقيق المورد العذب؛ للبكري (ص ١١٢).

(٣٣) شطحات الصوفية، عبد الرحمن بدوي (ص ٢١، ٢٢).

(٣٤) مجموع الرسائل والمسائل، لابن تيمية (٤/ ٥٨).

وفي تصوف أبو يزيد البسطامي الفارسيّ (ت ٨٧٤م) غلب عليه الكلام في الفناء، وفي تصوف رابعة العدوية (القيسية) غلب عليها الكلام في المحبة، وفي تصوف الجنيد غلب عليه الكلام في التوحيد، ولكن ليس معنى هذا أن التصوف منحصرٌ في المعرفة أو الفناء أو المحبة أو التوحيد، ونحو ذلك.

بالإضافة إلى أن بين التعريفات تداخلاً جزئياً أو كليَّاً، يجعل بعضها مكرراً بعبارات مختلفة، وهو ما يجعل خضوعها للتصنيف العلمي أمراً عسيراً[٣٥].

وما ذكره أبو العلا عفيفي، يلخصه الباحث الإيراني قاسم غني القائل: "التصوف أمر قلبي، وهو من جملة الأحاسيس الشخصية، وكل واحد يعتبر التصوف هو ذلك الشيء الذي أدركه وأحس به، ولا يمكن لأحد أن يصف التصوف بوصفٍ جامع مانع يتفق عليه الجميع".[٣٦]

ويعود لنا التفتازاني مرةً أخرى؛ ليُفسِّر حقيقة المذهب الصُّوفي، فيقول: "إن كلمة التصوف وإن كانت شائعة، إلا أنها في نفس الوقت من الكلمات الغامضة، والتي تتعدد مفهومها، وتتباين أحياناً، والسبب في ذلك أن التصوف خطٌّ

---

(٣٥) التصوف الثورة الروحية في الإسلام، أبو العلا عفيفي (ص ٣٨-٣٩).

(٣٦) تاريخ التصوف في الإسلام، قاسم غني (١/٢٧٣)،

مشترك بين ديانات وفلسفات وحضارات متباينة في عصور مختلفة، ومن الطبيعي أن يُعبر كل صوفي عن تجربته في إطار ما يسود مجتمعه من عقائد وأفكار، ويخضع أيضاً لما يسود حضارة عصره من ازدهار أو اضمحلال، فالاختلاف بين كل صوفي وآخر إنما هو في تفسير التجربة ذاتها تحت تأثير الحضارة التي ينتمي إليها كل واحد منهما". (٣٧)

وتجدر الإشارة إلى أنَّ كل هذه المفاهيم والتصوُّرات تعدُّ محاولة من المحاولات الكثيرة المتعطشة إلى ربط التصوُّف بأيِّ فرعٍ من فروع الدين، أو ربطه بأي أصل من أصول الشريعة الإسلاميَّة الحنيفة، على أن كثرة تلك التعريفات وتضاربها، تُنبئ صراحةً عن زيف تلك العلاقة بين التصوُّف والإسلام، وتشطب كل تلك الادعاءات حول كون التصوف هو روح الإسلام وعصارته (٣٨).

ولكن يبقى أن نتساءل عما إذا كان بالإمكان اعتبار التصوُّف علماً كسائر العلوم والمعارف الأخرى له قواعده ومنطلقاته، وأن اختلاف التعريفات وكثرتها، هو مجرد تغايرٌ في الفهوم، أو اختلاف في الإحاطة بأطراف الحقيقة التي

(٣٧) مدخل إلى التصوف الإسلامي، التفتازاني (ص ٣).

(٣٨) الإنسان والإسلام، لمحمد طاهر الحامدي، ومقدمة التعرف لمحمود أمين النووي.

يزعمونها؟![٣٩]، على أن الإجابة جاءت مباغتةً هذه المرة؛ على لسان أبو الحسين أحمد بن محمد النُّورِي (ت ٩٠٧م) –وهو من أقران الجُنيد– الذي يعتبر أنَّ "التصوُّف ليس رسماً، ولا علماً، ولو كان علماً لحُصِّل بالتعليم"[٤٠]، بل إنَّ الجُنيد ليؤكد ذلك بكل سلاسة، فيقول: "ما أخذنا التصوف عن القيل والقال، ولكن عن الجوع، وترك الدنيا، وقطع المألوفات والمستحسنات".[٤١]

ومن خلال استعراض الأقوال السابقة، وتحليلها، يمكننا وضع تصوُّر حقيقي لمفهوم التصوُّف، وإن كان أصحابه لا يتفقون على تعريف جامع لحقيقة هذا المذهب، فنقول: يتضح من العرض السابق أمورٌ منها:

١. أن تعريفات التصوُّف لا تنتهي كثرةً، وتناقضاً واختلافاً، ولا يخلو تعريف من إشارات ودلالات لا يفهما إلا المتمرس بأساليبهم ومناهجهم.

٢. وأن كل صوفي لا يلتزم بتعريف من سبقه للتصوف، فيأتي بتعريف جديد، يعبر عن المعتقد، ويشير إلى السلوك الذي يقصده ويهدف إليه.

(٣٩) عوارف المعارف؛ للسهروردي (ص ٣).

(٤٠) عوارف المعارف؛ للسهروردي (ص ٤).

(٤١) عوارف المعارف؛ للسهروردي (ص ٦١).

٣. أن التصوف في حقيقته فلسفة ذوقية، تهدف إلى السعادة الروحية، وهو التعريف الوحيد الذي ينطبق على مختلف أنواع التصوف، كما يرى ذلك الفتازاني.(٤٢)

ويقيناً فإن أشياخ التصوف الآخرين من المعاصرين لن يوافقوا على تعريفه للتصوف، حتى وإن كانوا أقل ثقافةً أو تصوُّفاً منه، ذلك أن لك صوفي تجربته الخاصة، التي يُعبِّر عنها كما يقول التفتازاني نفسه، أو بتعبير الصوفية: لكل صوفيٍّ (ذوقه) أو بتعبيرنا: لكل صوفيٍّ (هواه).(٤٣)

٤. التصوُّف عاطفة ووجدان، وليس من قبيل المعرفة البرهانية، وبالتالي هي حالة سريعة الزوال، وهي أهم سمات التصوُّف، فالعقل خارج دائرة التصوف، وعداء التصوف للعقل أمرٌ ثابتٌ ومقرَّر.

٥. أن الصُّوفيَّة قد يُسمّون هذا الهوى (ذوقاً) كما عند الأقدمين، أو (تجربة) كما عند المتأخرين، إلا أن الهوى هو المعيار الذي نفسِّر به حقيقة التصوُّف وهو مما يتعارض مع نصوص القرآن الكريم الذي جعل من (الهوى) نقيضاً للعقل،

(٤٢) انظر: مدخل إلى التصوف الإسلامي (ص ٧).

(٤٣) العقائد الدينية في مصر المملوكية (ص ١٥).

بل إنه دعا إلى استعمال العقل للوصول إلى الإيمان الخالص بالله وحده، وتكرر في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، وَ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، ووصف المشركين بأنهم ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾، وبأنَّهم يبعون الهوى بلا عقل، ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا، أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾(الفرقان: ٤٣-٤٤).

٦. ومن الملاحظ أن الاختلاف سمة أساسية من سمات التصوُّف الذي يشمل كل شيء من تعريفه إلى اشتقاقاته ورسومه وشكلياته، حتى يُحسب عمر تلك الاختلافات بعمر التصوُّف نفسه، بل إن الاختلاف مرتبطٌ بعقيدة التصوف نفسه، حتى أن رويم الصُّوفيّ البغدادي (أحد معاصري الجنيد، ت ٣٣٠هـ/٩١٥م) يقول: "ما تزال الصوفية بخير ما تنافروا فإذا اصطلحوا فلا خير فيهم (أو قلَّ دينهم!)"[٤٤].

٧. إن التصوُّف كما يقول التفتازاني نوعان: "ديني، والآخر فلسفي، -وبتعبير آخر إرادي، وغنوصي (Gnosis) -فالتصوُّف الديني ظاهرة مشتركة بين جميع الأديان سواءً في ذلك الأديان السماوية والأديان الشرقية القديمة".[٤٥]

(٤٤) الرسالة القشيرية (ص ٢١٨).

(٤٥) المدخل في التصوف، أبو الوفا التفتازاني (ص ٤).

ومعنى ذلك أن التصوف الديني إذا سيطر عليه الهوى خالف الإسلام الذي لا مكان فيه للاعتقاد في الخرافات وأنصاف الآلهة، فالدِّين إما إخلاصٌ في التوحيد والعقيدة والإيمان، وإما شركٌ قائمٌ على الهوى والتقليد والجهل، ولا يمكن للوسطية أن تجد مكاناً بينهما.

٨. وأنَّ التصوُّف وجد إلى جانب اليهودية والنصرانية وأديان الفرس والهنود والصينيين، وتلك حقيقة تاريخية، تحدَّث عنها القرآن الكريم عند حديثه عن أهل الكتاب ممن حادوا عن الطريق وارتدوا من بعد ما جاءتهم البينات، فاشتد بينهم الاختلاف: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ (البينة: ٤).

وقد جاءت رسالة الإسلام الخاتمة لتدعو إلى الإيمان الخالص بالله وحده وإلى نبذ الخلافات والأهواء حتى بين أصحاب الكتب السابقة: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (النمل: ٧٦)، وقد وقع المسلمون فيما اختلف فيه أهل الكتاب، ليعزز فكرة الهوى وحبِّ تراث الآباء والأجداد، والتي قد تبقى مستورةً حتى تظهر من جديد لتحمل عنوان الدين السائد، وتجد من يدافع عنها، ويربطها باسم الإسلام.

وهكذا كان مولد التصوُّف في الشام والعراق ومصر في القرن الثالث الهجري، ولعل من المفيد أن نسترجع كلمات التفتازاني التي يقول فيها: "التصوف خطٌ مشترك بين ديانات وفلسفات وحضارات متباينة في عصور مختلفة، ومن الطبيعي أن يُعبر كل صوفي عن تجربته في إطار ما يسود مجتمعه من عقائد وأفكار،".[٤٦]

وعليه فلا عجب أن ترى بعض المتصوفة اليوم يُعرفون التصوف بأنه مذهبٌ يقوم مقام الإحسان من الإسلام [٤٧] ، بينما يرى آخرون أنَّ التصوُّف مرادفٌ للزُّهدِ، والانقطاع إلى العبادة[٤٨]، ويرى بعضهم أنَّ التصوُّف هو التألُّه، بمعنى ربط القلب بالله عز وجل[٤٩]، أو أنَّ التصوُّف كلُّه الأخلاق [٥٠].

والحقُّ الذي ندين الله به أنَّ التصوُّف طريقةٌ واحدةٌ سواءً عند المسلمين أو عند غيرهم، ولكن متصوفة المسلمين مزجوا فلسفتهم الإشراقيَّة بالإسلام، وسمُّوا

---

(٤٦) العقائد الدينية في مصر المملوكية (ص ١٨).

(٤٧) انظر: مراحل السلوك الصوفي، د. محمد صحري (ص ٨).

(٤٨) فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام، د. علي عواجي (٧١٨/٢).

(٤٩) الرسالة القشيرية (ص ٢٨١).

(٥٠) انظر: تعريف أبو بكر الكتاني في المنقذ من الضلال، د.عبد الحليم محمود (ص ٢٢٣).

ذلك التصوُّف "سُنِّي"، أو "إسلامي"، أو "برهاني"، وبذلك استطاعوا أن يخدعوا المسلمين، ويجرُّوهم إلى هذه الحلقة!.[٥١]

٥١() الكشف عن حقيقة الصوفيَّة (ص ٣١٥).

المبحث الثاني

التصوُّف في اللغة وبيان اشتقاقه

اختلف العلماء والباحثين في أصل كلمة التصوُّف، واشتقاقها على عدة أقوال، ولا يسلم أحدها من الاعتراض والنقد، إما لاعتمادها على اشتقاق لا يصحُّ في اللغة، أو لاعتمادها على ألفاظٍ عامة لا يجوز تخصيصهم بها؛ لكونها موجودةٌ فيهم وفي غيرهم، أو لأنها تنسبهم إلى أمر تاريخي لا يصح.

ومن الجدير بالذكر أنّ التصوُّف منذ ظهوره في تاريخ المسلمين في القرن الثالث الهجري وإلى الآن، لم يجد اتفاقاً حول اشتقاقه اللغوي في اللغة العربية، على الرغم من كونها لغة قياسية في قواعدها النحوية والصرفية، وهذا منطقيٌّ بإزاء تديُّنٍ جديد يُحاول أن يصل نفسه بالدِّين السائد، مع ما يُعانيه من خلافٍ مستحكم بين أتباعه عن حقيقته وماهيته، وكونه قائماً على الذوق والهوى (٥٢).

وها نحن نذكرها مع بيان ما فيها من الاعتراض والمناقشة، فيما يلي:

(٥٢) العقائد الدينية في مصر المملوكية (ص ١٩).

١. وقيل إنه مشتقٌّ من (الصَّفاء): سموا بذلك؛ لصفاء أسرارهم، وانشراح صدورهم(٥٣)، ومن القائلين بهذا المعنى –كما يزعمون –بشر بن الحارث الحافي (ت ٢٢٧ هـ/ ٨٨١ م)؛ الذي قال: "الصُّوفيُّ من صفا قلبه لله"(٥٤)، وقال الكلاباذي: "قالت طائفةٌ إنما سميت صوفيةً لصفاء أسرارها، ونقاء آثارها"(٥٥)، وهو قول أبو نُعيم في (حليته)(٥٦)، وفريد الدين العطار(٥٧)، وغيرهم.

وقال أبو العباس المرسيّ: "إن الله صافاه، فصُوفي؛ ولذلك سُمِّي الصوفي"(٥٨).

وقد نظم البستي بيتين في هذا المعنى، يقول فيهما:

تنازعَ النَّاسُ في الصُّوفيِّ واختلفوا وظنَّه البعضُ مشتقًّاً من الصُّوفِ

---

(٥٣) التعرف لمذهب أهل التصوُّف، لأبي بكر الكلاباذي (ص ٩، ٢٥)، وانظر أحكام القرآن لابن عربي المالكي(١٦٥/٥). وقواعد التصوف، أحمد زروق (ص ١٩).

(٥٤) التعرف لمذهب أهل التصوف؛ للكلاباذي (ص ١٠).

(٥٥) التعرف لمذهب أهل التصوف؛ للكلاباذي (ص ٥٢).

(٥٦) حلية الأولياء، وطبقات الأصفياء؛ لأبي نعيم (١٧/١).

(٥٧) تذكرة الأولياء، للعطار (ص ٦٨).

(٥٨) قضية التصوف، المدرسة الشاذلية (ص ٢١١).

ولستُ أمنح هذا الاسم غير فتى صفا، فصوفي حتَّى سُمِّي الصُّوفي[٥٩]

وقد ردَّ هذا القول كُلاً من شيخ الإسلام ابن تيمية، وابن خلدون في "مقدمته"[٦٠]، والقشيري، والهويجري، وقالوا: هذا القول بعيدٌ من جهة اللغة والصرف؛ لأن المنسوب إلى الصفاء هو الصَّفائي، وليس الصُّوفيّ [٦١].

كذلك فإن في هذا الوصف تخصيصٌ للصُّوفيَّةِ بأمرٍ عامٍّ بلا دليل، وقد يوجد هذا الوصف فيهم وفي غيرهم، فالصحابة رضوان الله عليهم هم صفوة الأمَّة، وأصفاها قلوباً وفي الصَّفِّ الأول همَّةً، ومع ذلك فإنهم لم يتسمُّوا بالصُّوفيَّة.

وقد حاول الصُّوفيَّة الاعتماد على الصفاء في تعريف التصوُّف، ولاحظ (نيكلسون) ذلك من خلال وجود اثني عشر تعريفاً تعتمد فقط على الصفاء، ويبدوا

(٥٩) انظر: معيد النعم ومبيد النقم؛ للتاج السبكي (ص ١٢٠). وقيل بلفظ آخر:

تخالف الناس في الصوفي واختلفوا.... وكلهم قال قولاً غير معروفِ

ولستُ أمنح هذا الاسم غير فتى..... صافا فصوفي حتَّى سُمِّي الصوفي

(٦٠) انظر: مجموع الفتاوى (١/ ٣٦٩)، ومقدمة ان خلدون (ص ٤٦٧).

(٦١) الرسالة القشيرية، عبد الكريم بن هوازن القشيري (ص ٤٦٤)، وكشف المحجوب للهويجري (ص ٢٢٧).

من ذلك أنَّ الصوفية يحبون الانتساب إلى هذا المعنى، ولكنه في الحقيقة بعيدٌ عن مقتضى اللغة، كما قال القشيريُّ في رسالته.[٦٢]

كذلك أيضاً، فإن هذا الإدِّعاء ليس عليه دليل من الناحية التاريخية، فإن أبا هاشم عثمان بن شريك الكوفي (ت ١٥٠/٧٦٧م) هو أول من أُطلق عليه هذا اللقب، وهذه الحقيقة تفيدنا في تعيين اللفظ الذي يصلح لأن يكون المادة التي اشتق منها التصوف اسمه، فنجد أن إطلاق هذه اللفظة جاء متأخراً على وفاة أبي هاشم، أي بعد سنة (١٥٠هـ)، ما يجعل من مادة (صفا) مجرد تخرصات وتكهنات لحقيقة اشتقاق لفظة (الصوفيّ)، بالإضافة إلى وجود ألفاظ أخرى مرشحة لأن تكون مادة للاشتقاق، وستكون موضع البحث والمناقشة في بقية الأقوال، ولا يخفى على الباحث رغبة الصُّوفيَّة في الارتباط بالصفاء .[٦٣]

(٦٢) الرسالة القشيرية، عبد الكريم بن هوازن القشيري (ص ٢٧٩).

(٦٣) صفحات مكثفة من تاريخ التصوف الإسلامي، د. كامل الشيبي، (ص ٧).

٢. وقيل إنَّه مشتقٌّ من (الصَّف)، لأنهم –على حدِّ زعمهم –في الصَّفِّ الأول بين يدي الله [٦٤] ﷻ، وقد ردَّه شيخ الإسلام ابن تيمية، والقُشيري، وكذلك اللغة تردُّه؛ لأن المنسوب إلى الصَّفِّ هو الصَّفيّ [٦٥].

وكذلك يردُّه أقوال الصُّوفيَّة وأفعالهم، الذين كانوا يكرهون الصَّف الأول في الصّلاة، كما قال الطُّوسي في اللُّمع: "ومن آداب الصوفية أنهم يكرهون الصلاة في الصف الأول" [٦٦].

ويذكر الشعراني ذلك عن شيوخه، فيقول: "وقد كان سيدي أحمد الزاهد، وسيدي محمد المغربي، وسيدي أبو مدين شعيب التلمساني، وسيدي أبو العباس الغمري يصلّون دائماً في آخر صف مساجدهم". [٦٧]

٣. وقيل: التصوُّف منسوبٌ إلى كلمة (سوفيا) (**Sofia**) أي الحكمة؛ وهي الشطر الثاني من كلمة فلسفة اليونانيَّة (**philosophies**)

(٦٤) التعرف لمذهب أهل التصوُّف، لأبي بكر الكلاباذي (ص ١٠).

(٦٥) الرسالة القشيرية، (ص ٤٦٤)، وكشف المحجوب، (ص ٢٢٧)، وفقه التصوف لابن تيمية، زهير شفيق الكبي (ص ١١).

(٦٦) اللمع، للسراج الطوسي (ص ٢٠٨).

(٦٧) الأخلاق المتبولية (١/٣٣٢).

(فيلو/سوفيس)، والتي تعني "حُبُّ الحكمة"[٦٨]، و(سوفيسَ) تعني "الحكيم"، وهو قول الرياضي المؤرخ الفيلسوف أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني (ت ٤٤٠ هـ)، وذلك نظراً أن "الفلاسفة قالوا بالوحدة، وأن الصوفية أول من أدخلوا ذلك في الإسلام، فسموا باسمهم"[٦٩].

وهو قول الكاتب النصراني جرجي بن حبيب زيدان (ت ١٣٣٢ هـ) الذي قال: "وعندنا أنها مشتقة من لفظة يونانية الأصل "صوفيا"، ولُقب الصوفية بذلك نسبةً إلى الحكمة؛ لأنهم كانوا يبحثون فيما يقولونه أو يكتبونه بحثاً فلسفياً، ويؤيد ذلك أنهم لم يظهروا بعلمهم هذا، ولا عرفوا بهذه الصفة إلا بعد ترجمة كتب اليونان، ودخول لفظة الفلسفة منها"[٧٠].

والحكمة، هي: "معرفة الحقيقة الباطنيَّة المستمدَّة من الوجود الكلي للإنسان، وهي درجةٌ روحيَّة فوق عقلية، تبحث في علوم الأسرار والغيبيات والأمور

(٦٨) وهو قول البيروني، انظر قضية التصوف، المنقذ من الضلال، د. عبد الحليم محمود (ص ٣٢-٣٣)، والتصوف المنشأ والمصدر، إحسان إلهي ظهير (ص ٣٢). ونشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، د. علي سامي النشار (٣/ ٤٢).

(٦٩) انظر: تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، لأبي الريحان البيروني، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية – ١٣٧٧ هـ (ص ٢٤، ٢٤).

(٧٠) انظر: تاريخ آداب اللغة العربية، جرجي زيدان (٢/ ٣٦٤).

الخافية، وأكثر ما تستخدمه هو طريقة التعليم الصامت، من خلال الأشكال والرموز والإشارات، التي تهيئي الإنسان روحياً –عن طريق الخواطر والإلهام –لمعرفة الحقيقة"(٧١).

والمتفلسفة يقولون: "الفلسفة هي التشبُّه بالإله على قدر الطاقة"(٧٢)، ويرى المتفلسفة في ذلك أعظم أسباب القرب من الإله الصانع.

ولا ريب أن الفلاسفة بمعزل عن العلم الإلهي، الذي تنال به السعادة الحقيقية، والفوز الأبدي في الآخرة، وعند تحقيق كلامهم نجد أنه يعود إلى أمور مقدرة في الأذهان، لا حقيقة لها في الأعيان(٧٣).

وهؤلاء المتصوفة إن زعموا أنهم لا يخرجون عن الشريعة، فهم غير داخلين فيها أصلاً، فلا يكفي معرفة الحقِّ أو العلم به لتحقيق اللذة أو السعادة، دون أن يكون ذلك قائداً إلى محبة الله عز وجل، واتباع نبيِّه ﷺ، ولا شك أن الفلاسفة أسوأ حالاً من اليهود والنصارى؛ لأنهم جمعوا بين جهل النصارى وضلالهم، وبين فجور اليهود وظلمهم.

---

(٧١) قضية التصوف، المدرسة الشاذلية، د. عبد الحليم محمود (ص ٣٤٠– ٣٤٢).

(٧٢) شرح حديث النزول؛ لابن تيمية (ص ٣١٧).

(٧٣) شرح حديث جبريل؛ لابن تيمية (ص ٤٩٩).

ويبدو أنَّ الحقيقة التي يبحث عنها المتصوفة، ويلهثون وراءها، لا يُمكن تحديدها أو تصورها، وبالتالي فإنها في حكم الأوهام والخيالات الفارهة، ولكَ أن تُسمِّيها: "حكمةً باطنيَّة"، أو "نوراً داخليَّاً"، أو "عشقاً روحيَّاً"، أو حتَّى "عَدَماً"..!.

وقد افترض هذه النسبة أبو الريحان البيروني (ت ٤٤١هـ/١٠٤٩م)، ومن الواضح أن فرضيته هذه جاءت في وقتٍ متأخر عن ظهور هذه الكلمة [٧٤]، والتي كانت تُطلق على من يؤمن أتباعه بوحدة الوجود[٧٥].

ويؤكد ذلك؛ أنَّ لفظ التصوُّف انتشر في بغداد وما حولها في الفترة التي نشطت فيها حركة الترجمة من السريانية إلى العربية، والتي قلبت فيها السين صاداً، وذلك في نهايات القرن الثاني الهجري، بينما لم يُعرف في نفس الفترة في جنوب وغرب العالم الإسلامي، ويُضاف إلى الزمان التشابه في أصل الفكرة عند الصُّوفيَّة واليونان، حيث أفكار الحلول ووحدة الوجود والاتحاد وغير ذلك من الأفكار الفلسفية [٧٦].

(٧٤) صفحات مكثفة، د. كامل الشيبي (ص ٩).

(٧٥) عقيدة الصُّوفيَّة وحدة الوجود الخفية، د. أحمد بن عبد العزيز القصير، (ص ٩٩)، ورجَّح المؤلِّف هذا القول.

(٧٦) دراسات في الفلسفة والتصوُّف، د. صالح الرقب، ود. محمود الشوبكي، (ص ٨).

وكان حقاً علينا أن نتعوذ بالله من هذه الخيالات الكاسدة، والضلالات الفاسدة، كما تعوذ أبو القاسم السُّهيلي بقوله: "نعوذ بالله من قياسٍ فلسفي، وخيالٍ صوفي". (٧٧)

وقد بدأت حركة الترجمة فعلياً في نهايات العصر الأموي، وآتت أكلها في العصر العباسي، وكان لاتساع حركة الترجمة أن نقلت أرسال الفكر اليوناني والفارسي والهندي تأثيره البالغ في الفكر الإسلامي، ولذا رأينا قوماً بعضهم شعراء، وبعضهم كُتَّاب، وبعضهم منتسبون للعلم، قد غزتهم تلك الأفكار، فلم تقوَ على هضمها عقولهم، وهجروا أفكارهم القديمة الصالحة، فاضطربوا، وصاروا حائرين، وعاشوا في فوضى فكرية لا استقرار فيها، ونشأت الفرق الكلاميَّة في هذه الأجواء المفعمة بالجدل والسفسطة، والقرمطة، فبحثوا في مسائل القضاء والقدر، والحكمة من التكليف، وظهر الزنادقة اللذين أعلنوا عن آرائهم المفسدة للجماعة الإسلامية، فأخذوا يتناجون بأمور هادمة للإسلام، ويدبرون الأمر كيداً لأهله، وتهويناً لشأنه، ومنهم من كان يُريد نقض الحكم الإسلامي بالجملة، وإحياء الحكم الفارسي القديم،

(٧٧) انظر: شرح حديث النزول؛ لابن تيمية (ص ٣٥٢).

كما حدث من المُقنَّع الخراساني الذي خرج على الدولة العباسية في عصر المهدي، وكُلٌّ ذلك كان له أثره البالغ في نشأة التصوُّف وظهوره.(٧٨)

وقد جرَّد الخلفاء العباسيين السيف للخارجين المنتفضين من هؤلاء الزنادقة، وجردوا السوط للمفسدين في الجماعة الإسلامية الذين يريدون أن تشيع في المسلمين الإباحية، والخروج عن أوامر الشرع وحظيرة الدين، وجردوا للذين يبثون بين المسلمين العقائد الفاسدة بحجج مموهة- العلماء للرد عليهم(٧٩).

ويقول الدكتور أحمد صبحي منصور: "إن اشتقاق كلمة التصوف أتى من الكلمة اليونانية (**Sophie**)، ومن يقرأ كتاب (آباء مدرسة الإسكندرية الأوائل)، يجد الدليل على أن تصوُّف المسلمين كان متأثراً أشد التأثر بالتصوُّف اليوناني المسيحي قبل الإسلام، وفي هذا الكتاب توضيحٌ لما أصدرته اللاهوتية المسيحية بالإسكندرية -بدون قصد- للجذور التي استقى منها الغزالي، وابن عربي، والرواد الصوفية عناصر فلسفتهم، وفي أن كلمة الغنوصي تعني "العارف"، وغنوصية تعني "المعرفة" التي يكتسبها المرء جرَّاءَ تجربته الروحية الذاتية، وأصلها مذهب كلامي

٧٨() انظر: عبد الله بن المبارك، محمد عثمان جمال، (ص ٢٧). ومالك بن أنس؛ لمحمد أبو زهرة (ص ١٢٥). والشافعي؛ لأبي زهرة (ص ٥٢- ٥٣).

٧٩() انظر: الشافعي؛ لأبي زهرة (ص ٥٣).

قديم في المسيحية يبحث عن معرفة الله، وقد ترجمت الكلمتان، وأطلقتا على الولي العارف (صاحب العدالة الباطنيَّة!)، أو المعرفة الصوفية، بينما بقيت الكلمة اليونانية (**Sophie**) كما هي بنفس اللفظ، والمعنى القريب من الغنوصي.(٨٠)

ويُوضح ذلك الدكتور عبد القادر البحراوي (أستاذ الفلسفة في كلية الآداب ببنها)، فيقول: "والغنوصيَّة هي فلسفة باطنية، غايتها معرفة الله بالحدس، لا بالعقل، يتناقلها المريدون سراً، وظهر الغنوص أولاً في الأديان الفارسية التي عرفها المسلمون باسم (المجوسيَّة)، كما أنَّ لها صبغة يهودية تُعرف بـ"القبالة"، اختلطت بالفلسفة اليونانية عن طريق (فليون السكندري)، ثُمَّ تسللت الغنوصية إلى العالم الإسلامي عند غلاة الشيعة (الإمامية والإسماعيلية)، وما تزال عناصرها –أو بعضها على الأقل– منتشراً عند القاديانية، والبابية، والبهائية، وغيرهم، والغنوص يقول بالثنائية (إله الخير وإله الشر) وبالحلول، والوحي المتجدد"(٨١).

ويؤيد هذا القول الباحث محمد لطفي جمعة، حيث يقول: "ونعتقد أن التصوُّف مشتقٌّ من كلمة ثيوصوفيا اليونانية، ومعناها الحكمة الإلهية، والصوفي هو

---

(٨٠) العقائد الدينية في مصر المملوكية (ص ١٩).

(٨١) هـ الفرق الصوفية في الإسلام (ص ٢٤)، وانظر: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام (١/ ١٨٦– ١٨٧) ط٣، ١٩٦٥م، ودراسات في الفلسفة الإسلامية (ص ١٢٦ – ١٤٧)، الأنجلو ١٩٦٦م.

الحكيم الإلهي، الذي يطلب الحكمة الإلهية، ويسعى لها، وذلك لأن الصوفية كانوا يبحثون فيما يقولونه ويكتبونه بحثاً فلسفياً في سبيل الحقيقة العليا، ومما يؤيد هذا الرأي أن الصوفية لم يظهروا بعلمهم هذا، ولا عُرفوا بهذه الصفة إلا بعد ترجمة كتب اليونان إلى العربة، ودخول لفظ الفلسفة فيها"(٨٢).

ويردُّ هذا القول: أنَّ الصوفية لا يقبلون بمثل هذه النسبة، ولأنَّ الصُّوفيَّة الأوائل كانوا من العُبَّاد وليسوا من الفلاسفة(٨٣)، والصَّحيحُ أنَّ الصُّوفيَّة الأوائل كان فيهم الفلاسفةُ وأهل الكلام.

ويبقى لهذا الفرض ما يُبَرِّرُهُ، وذلك أنه ظهر في القرن الخامس من مزج بين "التصوف" و"الفلسفة"، إلى الحد الذي أطلق فيه عليهم: (متفلسفة المتصوفة)(٨٤)، وهذا يؤكِّدُ وجود مرحلة تأثر فيها التصوف بالثقافات الأخرى، على أن ذلك لا يُعدُّ مانعاً من كون الفلسفة اليونانية والديانة المسيحية مصدران أساسيان من مصادر التصوُّف.

---

(٨٢) تاريخ فلاسفة الإسلام، محمد لطفي جمعة (ص ٢٧٧).

(٨٣) مفهوم التصوف وأنواعه في الميزان الشرعي، د. محمود الشوبكي، بحث في مجلة الجامعة الإسلاميَّة، الجزء: ١٠، العدد الثاني، (ص ٩).

(٨٤) صفحات مكثفة من تاريخ التصوف الإسلامي، د. كامل الشيبي (ص ٩).

ويقول الدكتور عبد الحليم محمود: "وأصل هذه الكلمة (صوفي)، قد اختلف فيه اختلافاً كبيراً، ووضعت فروضٌ متعددٌ، وليس بعضها بأولى من بعض، وكلها غيرُ مقبولة !.. إنها في الحقيقة تسمية (رمزية)، وإذا أردنا تفسيرها، يجب أن نعود إلى القيمة العددية لحروفها، والتي تماثل القيمة العددية لحروف (الحكمة الإلهية)، فيكون الصوفي الحقيقي هو الرجل الذي وصل إلى الحكمة الإلهية، إنه (العارف بالله)، وهي درجة عظمى (كلية) تتعلق بمعرفة الحقيقة".(٨٥)

ويرى الباحث محمد الصادق عرجون أنَّ التصوُّف لقبٌ منقولٌ تعريباً من لغة غير عربية، فهو حادثٌ مع حدوث الألفاظ الدخيلة التي وفدت على العربية مع الأفكار والمعاني والمذاهب والآراء في القرن الثاني من الهجرة، ولم يُعرف معرفةً لَقَبيَّة لطائفة من الناس بعينها قبل ذلك في تاريخ الإسلام، وقد يكون عرض له الشيء من التصرُّف اللساني؛ لصقله تخفيفاً كما عرض لكثير من الألفاظ الوافدة.(٨٦)

(٨٥) قضية التصوف، المدرسة الشاذلية (ص ٣٥٠).

(٨٦) التصوف في الإسلام، منابعه وأطواره، محمد صادق عرجون (ص ٦٣).

٥. وقيل: سموا بذلك نسبة إلى (أهل الصُّفَّة)(٨٧)؛ لقرب أوصافهم من أوصاف أهل الصُّفَّة رضوان الله عليهم، وهو غلط من الناحية الصرفية، لأن المنسوب إلى الصُّفَّةِ هو الصُّفيُّ وليس الصُّوفيّ(٨٨).

يقول الدكتور عبد الحليم محمود: "وقيل: إنه منسوب إلى الصُّفَّة، وهو نسبٌ على غير القياس"(٨٩)، وقد ردَّ هذه النسبة كُلاً من الهويجري، والسهروردي، والقُشيري، وابن الجوزي، وابن خلدون في مقدمته (٩٠)، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: ".. وهو غلط؛ لأنه لو كان كذلك لقيل صفّي"(٩١).

ويكفي في دحض هذا الرأي ورفضه أنه لا يوجد بين صحابة رسول الله ﷺ من يُعتبر منهم أساساً في سلوك هذه الدعوى الصوفية، التي قسمت أصحاب رسول

(٨٧) التعرف لمذهب أهل التصوف، لأبي بكر الكلاباذي (ص ٢٦– ٢٧)، وانظر معراج التشوف إلى حقائق التصوف، أحمد بن عجيبة (ص ٢٦). وقواعد التصوف، أحمد زروق (ص ٢٠).

(٨٨) فقه التصوف لابن تيمية، (ص ١١)، وانظر: قضية التصوف، المنقذ من الضلال (ص ٢٧).

(٨٩) قضية التصوف، المدرسة الشاذلية (ص ٢١١).

(٩٠) انظر: كشف المحجوب (ص ٢٢٧، ٢٣٠)، وعوارف المعارف (ص ٦٢)، والرسالة القشيرية (ص ٣٨٥)، وتلبيس إبليس (ص ٢٠١)، والمقدمة لابن خلدون (ص ٤٦٧).

(٩١) انظر: الصوفية والفقراء؛ لشيخ الإسلام ابن تيمية، تقديم: د. محمد جميل غازي (ص ١١).

الله ﷺ هذا التقسيم؛ الذي جعل بعض أصحابه "متصوف" وبعضهم الآخر "غير متصوف"، ورسول الله بين ظهرانيهم[٩٢].

وأهل الصُّفَّة هم فقراء المهاجرين، الذين لا يجدون منزلاً يسكنون إليه، فكانوا يأوون إلى موضعٍ مُظلَّلٍ في مسجد المدينة يسكنونه [٩٣].

فهي حالةٌ سجلها التاريخ من حياة الصحابة رضوان الله عليهم، كما يوضح ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾(التوبة: ٩٢)، فهم هاجروا من مكة إلى المدينة نصرةً لدينهم، قد تركوا بيوتهم وأموالهم ومتاعهم، وسكنوا في مؤخرة المسجد، ولم يكن ذلك بمحض رغبتهم، ولا حُبَّاً منهم للفقر، ولا اعتزالاً منهم للحياة والعمل فيها، بل هي حالةٌ طارئة أملتها عليهم ظروف الحياة الجديدة.

(٩٢) انظر: الصوفية معتقداً ومسلكاً؛ د. صابر طعيمة، (ص ٢٣).

(٩٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير، (٣/٣٧).

وفي المقابل نجد أنهم لم يستمروا على هذه الحالة، وإنما تركوها فيما بعد، لمَّا انتصر الإسلام، وتحسَّنت أوضاع المسلمين، كما أنَّ أصحاب الصُّفَّة لم ينفردوا عن باق الصحابة بعلومٍ وأفعالٍ يختصُّون بها دون سائر الصَّحابة.[٩٤]

ونحن ندرك الرغبة الجامحة لدى الصوفية في انتسابهم إلى أهل الصفة، بوصفهم سلفاً وقدوةً لهم في الزهد والعبادة، ولكن هذه الرغبة لا بد أن تقترن في الواقع بحقائق تؤكد هذا المعنى، وهذا ما لا نجده عن الصُّوفيَّة، علاوة على ذلك التباين بين لفظتي (صُفِّي) و(صوفي).[٩٥]

والخلاصة: أن نسبة التصوف إلى أهل الصُّفَّة هو محض وَهْمٍ، وادِّعاءٌ لا حقيقة له، وقد اعتقد صحَّة هذه النسبة جماعةٌ منهم:

القشيريُّ الذي يقول في (رسالته): "وإن كانت النسبة إلى الصُّفَّةِ لا تجيء نحو الصُّوفيّ، وهذا وإن كان لا يستقيم من حيث الاشتقاق اللغويّ، ولكنه صحيحٌ

٩٤() تلبيس إبليس، لابن الجوزي، (ص ١٤٦)، والصوفية في نظر الإسلام، سميح عاطف الزين، (ص ١٦).

٩٥() صفحات مكثفة من تاريخ التصوف الإسلامي، د. كامل الشيبي (ص ٨).

من حيثُ المعنى؛ لأن الصوفية يشاكل حالهم حال أولئك، لكونهم متصاحبين، ومتآلفين كأصحاب الصفة" .[٩٦]

وصحَّح القُشيريُّ –أيضاً –نسبتهم إلى الصَّفِّ الأول، فقال: المعنى صحيح، ولكنَّ اللغة لا تقتضي هذه النسبة إلى الصَّفِّ الأول.[٩٧]

ومن المعاصرين الذين أيدوا هذه النِّسبة، الشيخ الشعراوي (رحمه الله) الذي يقول في تفسيره: "أهل الصُّفَّة هم جماعة من أهل الله انقطعوا للعبادة فتناولتهم ألسنة الناس واعترضوا عليهم: لماذا لا يعملون؟، ولماذا لا يشتغلون كباقي الناس؟، بل وذهبوا إلى رسول الله ﷺ يقولون: نريد أن تلتفت إلينا، وأن تترك هؤلاء المجاذيب[٩٨]، فأنزل الله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾(الكهف: ٢٨)، لذلك علينا حينما نرى مثل هؤلاء الذين نُسمِّيهم المجاذيب الذين انقطعوا لعبادة الله أن لا نحتقرهم.

٩٦() الرسالة القشيرية (ص ٢٧٩).

٩٧() المصدر السابق (ص ٢٧٩).

(٩٨) كذا وصفهم وسماهم، وهم برآء من هذا الاسم، بعيدون عن هذا الوصف، وكلام الشعراوي فيه ما فيه من السقطات والزلات، وفي تفسيره من الشطحات الشيء الكثير، غفر الله لنا وله.

ويقول أيضاً: كثيراً ما ترى أهل الدنيا في خِدْمة هؤلاء العباد، ففي يوم من الأيام قُمْنا لصلاة المغرب في مسجد سيدنا الحسين، وكان معنا رجل كبير من رجال الاقتصاد، فإذا به يُخرج مبلغاً من المال ويطلب من العامل صرفه إلى جنيهات، فأتى العامل بالمبلغ في صورة جنيهات من الحجم الصغير، فإذا برجل الاقتصاد الكبير يقول له: لا، لا بُدَّ من جنيهات من الحجم الكبير؛ لأن فلاناً المجذوب على باب الحسين لا يأخذ إلا بالجنيه الكبير....[٩٩]"

فأنت ترى كيف شبَّه الشعراويّ أهل الصُّفَّةِ من صحابة رسول الله ﷺ بمجاذيب الصُّوفيَّةِ الكُسالى، الذين يأكلون أموال النَّاسِ بالباطل، وشتان بين الثرى والثريا!!.

ومن الجدير بالذكر أنَّ الشعرواي ينتسب إلى الطريقة البازيَّة، المنسوبة إلى شمس الدين الباز، وهي طريقةٌ تختصُّ بسلالة آل البيت فقط، أي من نسل الحسن والحسين عليهما السلام، فالشعروايُّ كما ينسب نفسه؛ هو: محمد بن السيد متولي الشعراوي الحسيني من جهة الأب، وأمه السيدة "حبيبة" الحسينية نسباً، وشيوخ هذه الطريقة هم من أسرة الشيخ أحمد سعود، وأما أسرة الشعرواي فهم نوَّاب ونقباء

---

(٩٩) انظر: تفسير الشعراوي – الخواطر، محمد متولي الشعراوي (١٤/ ٨٨٧٥).

على هذه الطريقة، كما نقل الشعراوي اتفاقهم على هذا، وكما يقول الشعراوي: "منهم الشيوخ ومنا النواب".[١٠٠]

ومثله شيخ الشاذلية في حلب المقدَّم (عبد القادر عيسى)، الذي قال: "وأهل الصُّفة هم الرعيل الأول من رجال التصوف، فقد كانت حياتهم التعبدية الخاصَّة، المثل الأعلى الذي استهدفه رجال التصوُّف في العصور الإسلامية".[١٠١]

قال الإمام القرطبيُّ رحمه الله: "ولا حجة لهم في أهل الصفة، فإنهم كانوا فقراء يقعدون في المسجد ما يحرثون ولا يتجرون، ليس لهم كسب ولا مال، إنما هم أضياف الإسلام عند ضيق البلدان، ومع ذلك فإنهم كانوا يحتطبون بالنهار ويسوقون الماء إلى بيت رسول الله ﷺ، ويقرؤون القرآن بالليل ويصلون. هكذا وصفهم البخاري وغيره، فكانوا يتسببون، فلما كثر الفتح وانتشر الإسلام خرجوا وتأمروا –كأبي هريرة وغيره –وما قعدوا".[١٠٢]

---

(١٠٠) الشعراوي يبوح بأسراره الروحية، سعيد أبو العنين (ص ٧ –٩).

(١٠١) حقائق عن التصوف، عبد القادر عيسى (ص ١٠).

(١٠٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله القرطبي (٨/١٠٨).

وفي تفسير المنار: "ويحتج بأهل الصفة أكلة أموال الناس بالباطل من أهل التكايا (الزوايا)[١٠٣]، الذين ينقطعون إليها تاركين للأعمال النافعة، فلا يتعلمون العلم ولا يجاهدون في سبيل الله وليس فيهم صفة من الصفات الخمس التي وصف الله بها أهل الصفة[١٠٤]، وإنما قصارى أمرهم أنهم يأكلون بدينهم، يأكلون الصدقات والأوقاف لأجل أن يعبدوا الله تعالى في هذه المواضع خاصة، فهي لهم كالأديار للنصارى، وهم فيها كالرهبان وإن كان بعضهم يتزوج، فيكلفون من يستضيفونه الذبائح والطعام الكثير، ثم لا يخرجون إلا مثقلين، يسألون فيلحفون، بل يسلبون وينهبون، فإذا منعوا ما أرادوا انتقموا لأنفسهم بكل ما قدروا عليه من أنواع الانتقام، لا حرفة له إلا أكل أموال الناس بالكذب على الله تعالى وادعاء

---

(١٠٣) التكايا: جمع تكيَّة، وهي كلمة تركية، وتعني رباط الصُّوفيَّة، انظر: المعجم الوسيط، (٨٦/١).

(١٠٤) يعني قوله تعالى : ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢٧٣) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة: ٢٧٣-٢٧٤)، والصفات الخمس هي:

١- الإحصار في سبيل الله، أي حبسوا ومنعوا.

٢- وعدم استطاعة السفر للكسب.

٣- يحسبهم الجاهل أغنياء من تعففهم.

٤- يعرفهم الناس بسيماهم.

٥- ولا يلحون في السؤال.

الولاية والقرب منه، وهؤلاء الأشرار الضالون الذين يشبهون أنفسهم بأهل الصفة، ويزعمون أن لأكلهم أموال الناس بالباطل أصلا في الكتاب والسنة، وحاش لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ من ذلك"(١٠٥).

كذلك فإن الانقطاع للعبادةِ منهيٌّ عنه، ويتنافى مع هدي الإسلام الذي يأمر بالعمل، ويحثُّ عليه، ويعدُّه من العبادة، وأخيراً فإن مصطلح أهل الصُّفَّة قد ظهر في المدينة بعد الهجرة، أمَّا سورة الكهف فهي مكيَّة (١٠٦) .

إذن فنسبة الصُّوفيَّةِ إلى أهل الصُّفَّة تُعدُّ مِن الفِرى العظيمة التي زوَّرها الصُّوفيَّةِ على أصحاب رسول الله ﷺ، حيثُ لم يتورَّعوا من نسبةِ البدعةِ إليهم، ما ومن ذلك ما قاله الكلاباذي في وصف الصُّوفيَّةِ: "هم في حياة النبيّ ﷺ أهل صُفَّته، وبعد وفاته خيار أمته"(١٠٧).

---

(١٠٥) انظر: تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، محمد رشيد بن علي، (٣/٧٤)، وما بعدها.

(١٠٦) انظر: مجموع الفتاوى، شيخ الإسلام ابن تيمية، (١١/٦٠).

وقال القرطبيُّ: "هي مكية في قول جميع المفسرين" الجامع لأحكام القرآن (١٠/٣٤٦)، وسبب نزول هذه الآية أن جماعة من المشركين جاءوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فوجدوه قاعداً في جماعةٍ من ضعفاء المسلمين، فقالوا له: إنا نحب أن تجعل مجلسنا تعرف به العرب فضلنا، فنزل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ، بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ (الأنعام: ٥٢) صحيح، رواه ابن ماجه في سننه: ١٨٨٣/٢، برقم: ٤١٢٨.

(١٠٧) التعرف لمذهب أهل التصوف، أبو بكر الكلاباذي (ص ٢٦، ٢٧).

كذلك أبو نعيم في حليته نسب هذه البدعة (التصوُّف) إلى الصحابة وهم منها برآء، فيقول في مقدمة كتابه: "هذا كتابٌ يتضمَّنُ أسامي جماعة، وبعض أحاديثهم وكلامهم من أعلام المتحقِّقين من المتصوفة وأئمتهم، من قرن الصَّحابة والتابعين، وتابعيهم، ممن عرف الأدلة والحقائق، وباشر الأحوال والطرائق"[١٠٨].

(١٠٨) حلية الأولياء، لأبي نعيم، المقدمة، (١/ ٣-٤).

ويرحم الله ابن الجوزيِّ (١٠٩) الذي قال عنه: "ولم يستحِ –يعني أبا نُعيم– أن يذكر في الصُّوفيَّة أبا بكرٍ وعمرَ وعثمان وعليَّاً وسادات الصَّحابةِ"(١١٠).

ولا ندري لِمَ لم يذكر مُعاوية بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص رضوان الله عليهم، لعلهما لم يعرفا الأدلة والحقائق، ولم يُباشرا الأحوال والطرائق، وفي المقابل

---

(١٠٩) هو جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد القرشي التيمي البكري البغدادي، المشهور بابن الجوزي، ينتهي نسبه إلى القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق ، وذكر هو أنه منسوب إلى محلة الجوزة بالبصرة، من كبار علماء الحنابلة، صاحب التصانيف الكثيرة الشهيرة في جميع الفنون، من التفسير، والحديث، والفقه، والزهد، والوعظ، والأخبار، والتاريخ، والطب، وغير ذلك، نعته الذهبيُّ بقوله: "الإمام العلامة الحافظ المفسر شيخ الإسلام مفخر العراق، اشتهر بالوعظ وهو دون العشرين، وهو حامل لواء الوعظ بين علماء الأمة بلا منازع، وكان مجلس وعظه حافلاً هائلاً، يجتمعُ فيه عشرات الألوف، وكان يحضر مجلس وعظه الخلفاء، والملوك، والوزراء، والأمراء، والعلماء، والفقراء، وسائر أصناف الناس، قال عنه ابن تيمية في أجوبته المصرية: "كان الشيخ أبو الفرج كثير التصنيف، والتأليف، وله مصنفات في أمور كثيرة، حتى عددتها فرأيتها أكثر من ألف مصنف، ورأيتُ بعد ذلك ما لم أره"، وقال عنه الذهبيُّ: ما علمتُ أن أحداً من العلماء صنَّفَ ما صنَّف هذا الرجل، وذكر أكثر أهل العلم أن له أكثر من ثلاثمائة مصنف، منها: "زاد المسير" في التفسير، و"جامع المسانيد"، و"المنتظم" في التاريخ، و"تلبيس إبليس"، وغيرها، وساق الذهبي وابن رجب جملةً وافرةً منها، وقد نُقم عليه رحمه الله لميله في بعض المسائل إلى التأويل، وقد تأثر بأبي الوفاء بن عقيل، ومات سنة (٥٩٧هـ)، عن سبعةٍ وثمانين عاماً. انظر: وفيات الأعيان (٣/ ١٤٠)، ومجموع الفتاوى (٥/ ٤٠٠)، وسير أعلام النبلاء (٢١/ ٣٦٥)، والعبر (٤/ ٢٩٨)، والبداية والنهاية (١٣/ ٣)، وشذرات الذهب (٦/ ٥٧٣).

(١١٠) تلبيس إبليس، لابن الجوزي، (ص ٢٦، ٢٧).

نجدُّ غلوَّاً مفرطاً في عليٍّ بن أبي طالب، كذلك فإنه يتورَّع عن ذكر الموضوعات في فضائله، وهي تشبه أخبار الرَّافضة، بل هي من جملة رواياتهم الموثوقة.

هذه أقوال المتقدمين من المتصوفة، وأما المتأخرون فإنهم فاقوا أسلافهم في التزوير والكذب، يقول زكي مبارك: "القرآن هو أقرب الآثار الصُّوفيَّة إلى أذهان النَّاس، وإن جهلوا ذلك، فهم يعدُّونه كتاب تشريع، ونراه كتاب تصوُّف" إلى أن قال: "وكان الرسول ﷺ يتقشَّف تقشُّفاً صوفيَّاً؛ لأنَّه عاش في بيئةٍ صوفيَّة، ويدلُّ على ذلك أنَّه نهيه عن الرهبانيَّة وعن مواصلةِ الصَّومِ، وهو ﷺلم يرغب في الزواج إلا لأنه رأى أناساً يتبتلون"، ويزعم كاذباً "أنَّ النَّبيَّ ﷺ خصَّ حذيفة بن اليمان بعلوم الأسرار والعرفان"، و "أنَّ الرسول كان يكتم أسرار التصوُّف ولا يمنحها غير الخواص" (١١١).

وقد موِّه الصُّوفيَّة الباطل، وألبسوه ثوبَ الحقِّ تغريراً بالعامَّةِ، وتزويراً للحقائق، ومن ذلك ما ذكره الدكتور عبد الحليم محمود، الذي تولّى مشيخة الأزهر، بعد أن تخرَّج من جامعة فرنساوية (جامعة السِّربون)، وقوله: "إنَّ الشيء قد يوجد قبل اسمه الخاص، سواءٌ وجد تحت اسمٍ آخر، أو وجد ولم تكن هناك حاجةٌ لتسميته"، ويقول أيضاً: "والحقُّ أنَّ التصوُّف عربيٌّ إسلاميّ، كما أنَّ القرآن الذي

(١١١) التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق، الجزء: ٢، صفحة رقم: ٧-١٠.

يستمد التصوف منه أصوله من مباشرةً عربيٍّ إسلامي"[١١٢]، ولا أدري أيتهما سبقت الأخرى، هل التصوُّف سبق القرآن، أم القرآن سبق التصوُّف؟!.

٦. قيل إنه مشتقٌّ من (الصُّوف)[١١٣]، واختاره الكثير من الصوفيَّة، وغيرهم[١١٤]، واعترض القشيريُّ على هذه النسبة، فقال: "فذلك وجهٌ، ولكنَّ القومَ لم يختصُّوا بلبس الصُّوفِ"[١١٥]، بينما يرى السهروردي في (عوارفه) أنّ الصُّوفيَّة سُمُّوا بذلك نسبةً إلى ظاهر اللبسة، وأنهم اختاروا لبس الصُّوف؛ لكونه أرفق، ولكونه لباس الأنبياء عليهم السلام.

---

(١١٢) أبحاث في التصوف، عبد الحليم محمود، ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفاته، صفحة رقم: ٢٢٩، ٢٣٠.

(١١٣) المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى وآخرون،(١/ ٥٢٩).

(١١٤) ومن الذين اختاروا هذه النسبة:

١. من الصوفية: الطُّوسي، وأبو طالب المكي، السهروردي، ونجم الدين كبري، وأبو المفاخر يحيى باخرزي.

٢. من العلماء: ابن تيمية، وابن خلدون من المتقدمين، ومن المتأخرين: الأستاذ مصطفى عبد الرازق، وزكي مبارك، وعبد الحليم محمود، وقاسم غني، ومن المستشرقين: مرجليوس، ونيكلسون، وماسينون، ونولدكه، وغيرهم. انظر: التصوف المصدر والمنشأ، إحسان إلهي ظهير (ص ٣٤).

(١١٥) الرسالة القشيرية، عبد الكريم بن هوازن القشيري، (ص ٤٦٤).

فقال: "وهذا الاختيار يلائم ويناسب الاشتقاق؛ لأنه يُقال: (تصوف) إذا لبس الصوف، كما يُقال (تقمَّص) إذا لبس القميص، ولبس الصوف كان غالباً على المتقدمين من سلفهم، فالقول بأنهم سموا صوفية للبسهم الصوف أليق وأقرب إلى التواضع".[١١٦]

ويرجح نجم الدين كبري (٦١٨هـ/ ١٢٢١م) أن كلمة التصوُّف مشتقةٌ من الصوف، وأضاف بأن "أول من لبس الصُّوف هما آدم وحواء؛ لأنهما أول ما نزلا في الدنيا كان عريانين، فنزل جبريل بالخروف، فأخذا منه الصوف، فغزلت حواء، ونسجه آدم ولبسه"[١١٧].

وبيَّن (كبري) أن لكلِّ مقام في التصوُّف لونٌ مخصوص من الصُّوف، فالأسود لمن كان في مقام المجاهدة، والأبيض لمن نقى قلبه عن ذكر الغير، والأزرق لمن اجتاز العالم السفلي، ووصل إلى العالم العلوي بهمته، فيلبسه لأنه لون السماء! [١١٨].

---

(١١٦) عوارف المعارف؛ للسهروردي (ص ٥٩)، وما بعدها.

(١١٧) آداب الصوفية، نجم الدين كبري –فارسي– (ص ٢٨).

(١١٨) المرجع السابق نفسه (ص ٢٨).

وهو أصحُّ الأقوال، وأقربها إلى اللغة، وهو اختيار كثير من العلماء والباحثين [١١٩]، كذلك فإن لبس الصوف وتفضيله على غيره من الثياب يعتبر من الأمور التي اختصَّ بها كثير من الصوفية، وجعلته شعاراً لها، لأنه من وجهة نظرهم يتوافق مع دعاية التقشُّف والخشونة وشظف العيش [١٢٠].

٧. قيل إنه نسبة إلى (الصفوة)[١٢١]: أي باعتبارهم –حسب زعمهم– صفوة الله من خلقه، وأنهم أصحاب توجه روحي، واندفاعهم نحو المثل العليا، وإعراضهم عن حطام الدنيا، وهذه الدعوى تفتقر إلى دليل يجعل منهم نخبة المسلمين، وطائفة الله المختارة [١٢٢]. وهو غلط لأنه لو كان كذلك لقيل صفويّ [١٢٣]، وقيل: إن أصله صفوي، ثمَّ صُحِّف فصار (صُوفيّ) [١٢٤]، وهو بعيد من ناحية اللفظ.

---

(١١٩) انظر: دائرة المعارف الإسلامية، ماسينون، ومصطفى عبد الرازق، (٢٥/١٦).

(١٢٠) أثر الفكر الصوفي في التفسير، بهاء حسن زعرب، رسالة ماجستير، ٢٠١٢م، (ص ٢٠).

(١٢١) وهو قول الصوفي الفارسي عبد العزيز بن محمد النسفي في كتابه (كشف الحقائق)، (ص ٢٠).

(١٢٢) صفحات مكثفة من تاريخ التصوف، د. كامل مصطفى الشيبي (ص ٨).

(١٢٣) انظر: فقه التصوف، ابن تيمية (ص ١١).

(١٢٤) التصوف الإسلامي العربي، (ص ٢٢).

وقريب من هذه النسبة، الانتساب إلى "الصِّفَّة"، و"المصافاة"، و"الاستصفاء"، وكلها احتمالات ضعيفة، فضلاً عن عدم استقامتها على قواعد الصرف واللغة.

٨. وقيل سمموا بذلك نسبة إلى (بني صُوفَة): وهم أعضاء قبيلة يمانية، يُقال إنهم انقطعوا إلى عبادة الله ﷻ، و(صُوفة) اسمٌ أطلق في الجاهلية على جدِّهم الغوث بن مر(١٢٥)، أخي تميم بن مر، وكان هو وأولاده يخدمون الكعبة ويجيزون الحجيج في الجاهلية، أي يفيضون بهم من عرفات، فهؤلاء انقطعوا إلى الله بالعبادة، فمن تشبه بهم فهم الصُّوفيَّة(١٢٦).

وقد ردَّ ذلك ابن تيمية رحمه الله، فقال: "وهذا وإن كان موافقاً للنسب من جهة اللفظ إلا أنه ضعيف أيضاً؛ لأن هؤلاء غير مشهورين ولا معروفين عند أكثر النُّسَّاكِ، ولأنه لو نسب النساك إلى هؤلاء لكان هذا النسب في زمن الصحابة

---

(١٢٥) الغوث بن مر بن أدْ بن طابخة بن إلياس بن مضر، الملقب "بصوفة"، كانت أمه لا يعيش لها ولد، وفي روايةٍ: أنها كانت لا تلد إلا إناثاً، فنذرت إن عاش ولدها، أو رُزقت بولد أن تربط على رأسه صوفة، وتجعله ربيط الكعبة، فكان يخدم الكعبة، ويلي إجازة الحجاج بعد نزولهم من عرفة، وورث عنه ذلك بنوه، وهم يُعرفون ببني صوفة. انظر: تلبيس إبليس (ص ٢٠٠)، والإكمال، لابن ماكولا (٥/٢٢٤)، والأعلام للزركلي (٥/١٢٣).

(١٢٦) تلبيس إبليس، لابن الجوزي، (ص ١٤٥)، وابن الجوزي يرجح هذا القول.

والتابعين وتابعيهم أولى، ولأن غالب من تكلم باسم (الصوفي) لا يعرف هذه القبيلة، ولا يرضى أن يكون مضافاً إلى قبيلة في الجاهلية لا وجود لها في الإسلام"[١٢٧].

ثُم يُقال: إن هذا الرجل المُسمى "صوفة"، والذي ينسب بعضهم إليه لم يكن على دينٍ صحيح، وإن سلك مسلك الزهاد والمتنسكين، حيث لا يستبعد أن يكون هذا مذهباً شخصياً له، أو أنه تلقاه عن بعض الرهبان من أصحاب الديانات الأخرى، وظهور هذه الطائفة بعد المائتين من الهجرة لا تُساعد أصحاب هذا القول! [١٢٨].

٩. وقيل نسبة إلى (الصوفانة)[١٢٩] ، وهي نبتةٌ قصيرةٌ تنبت في الصحراء من تلقاء نفسها، كان الصُّوفيَّةُ يقتاتون عليها، اكتفاءً بها عن متاع الدنيا[١٣٠] ، ولالتزامهم المعنى الذي تدل عليه هذه النبتة من إهمال أنفسهم، وقلة اهتمام الناس بهم، مثلهم في ذلك مثل هذه البقلة، وعلى هذا فإنه لا يستقيم هذا الاشتقاق مع الحقائق العلمية؛ لأنه يتصل بمجرد وجه شبه بين هذا النبات والصوفية لا

---

(١٢٧) مجموع الفتاوي، ابن تيمية، (٦/١١).

(١٢٨) انظر: التصوف والصوفية في مواجهة الإسلام، د. عبد الكريم الخطيب (ص ٧٩).

(١٢٩) انظر صورة الصوفانة، صفحة رقم: .

(١٣٠) تهذيب اللغة؛ محمد بن أحمد الأزهري (٢٤٧/١٢)، ولسان العرب؛ ابن منظور (٢٠٠/٩). وعوارف المعارف؛ للسهروردي (ص ٦٤).

أكثر[١٣١]، وهو أيضاً غلط من الناحية الصرفية؛ لأن المنسوب إليها يُسمَّى صوفانيّ.[١٣٢]

١٠. وقيل نسبة إلى (صوفة القفا) وهي الشعرات النابتة في مؤخرة العنق، وهذه الكلمة مع صلاحيتها لأن تكون مادة لاشتقاق كلمة صوفي من الناحية الصرفية، إلا أن دلالتها المحدودة على التصوف، باعتبارها تعني إهمال حلاقة مؤخر الشعر، تجعل منها مادة غير صالحة لأن تستغرق التصوف كله، لأنها لا تدل على ما تعارف عليه أكثر الصوفية الذين لم يتبعوا هذا التقليد[١٣٣].

١١. وقيل نسبةً إلى (صفوي)، قال أبو سراج الطُّوسيّ في كتابه (اللُّمع) الذي يُعدُّ أقدم مرجعٍ صوفيّ: كان في الأصل صفوي، فاستُثقل ذلك، فقيل صوفي.[١٣٤]

(١٣١) صفحات مكثفة من تاريخ التصوف، د. كامل الشيبي (ص ٨).

(١٣٢) الصوفية والتصوف؛ لابن تيمية (ص ٩).

(١٣٣) صفحات مكثفة من تاريخ التصوف (ص ٩). وقواعد التصوف؛ لأحمد زروق (ص ١٩).

(١٣٤) اللمع، لأبي نصر السراج الطوسي (ص ٤٦).

١٢. وقيل نسبةً إلى (الصُوفَة) المفردة من الصُّوف؛ لأنه مع الله ﷻ؛ كالصُّوفة المطروحة التي لا تدبير لها ولا اختيار[١٣٥]، ومعناها إنما يتناول جانباً بسيطاً من حياة الصُّوفي الذي يهمل اختياره وتدبيره للأمور.[١٣٦]

١٣. ويرى القشيريُّ: أنَّ هذا الاسم ليس له أصلٌ في اللُّغةِ العربيَّة[١٣٧]، أي أنه جامدٌ مولَّد وليس بمشتق، فقال بعد أن ردَّ أغلب الأقوال السابقة: وليس يشهد لهذا الاسم من حيث العربيَّةِ قياسٌ ولا اشتقاق، والأظهر فيه أنَّه كاللقب.[١٣٨]

وهو قول الطُّوسيُّ[١٣٩]، والعروسيُّ[١٤٠]، والمقريء[١٤١]، وعبد القادر عيسى[١٤٢]، وعلة ذلك كما يرى الهويجريُّ (ت ١٠٧٠هـ) المعاصر للقشيريّ –

(١٣٥) قواعد التصوُّف؛ للشيخ أحمد زروق الفاسي (ص ١٩). وإيقاظ الهمم في شرح الحكم؛ لابن عجيبة (ص ٦).

(١٣٦) صفحات مكثفة من تاريخ التصوف، د. كامل الشيبي (ص ١٠).

(١٣٧) تحقيق ما للهند مِن مقولة مقبولة أو مرذولة، محمد بن أحمد البيروني، مجلس دائرة المعارف العثمانية: حيدر آباد، (ص ٢٤).

(١٣٨) الرسالة القشيرية، عبد الكريم بن هوازن القشيري (ص ٤٦٤).

(١٣٩) التصوف الإسلامي العربي (ص ٢٢).

(١٤٠) انظر: نتائج الأفكار القدسية، مصطفى بن محمد العروسي (٣/٤).

(١٤١) انظر: المصباح المنيِّر؛ أحمد بن محمد بن علي الفيومي المقرئ (ص ٢١١).

(١٤٢) حقائق عن التصوف، عبد القادر عيسى (ص ١٠).

وهو من أصحاب هذا الرأي: "أن هذا الاسم (التصوُّف) أعظم من أن يكون له جنسٌ يُشتقُّ منه".[١٤٣]

وإذا كان الأمر كما ذكر القشيريُّ، فلماذا لم يُطلق لقب "الصوفيَّة" على هذه الطائفة دون غيرها من الألقاب، دون اشتقاق أو قياس، أو مشابهةً بين اللقب وحال هذه الطائفة!.

وهل كان هذا اللقب موجوداً في نسبةِ التصوُّفِ إلى صوفة –رجل في الجاهلية –أو سوفيا (Sofia) التي تعني الحكمة، ثم أطلق على هذه الطائفة دون غيرها، أم أنه ظهر فجأة ونسبت إليه طائفةٌ ما دون تشابه بينها وبينه؟!، وبذلك يتبين لنا خطأ دعوى القشيري في كون التصوف لفظة قياسية جامدة غير مشتقة.

وبقي علينا أن نبحث عن الأسباب الذي جعلت القشيري وغيره يرفض نسبة التصوُّف إلى الصُّوف، أو إلى أي أمر آخر غيره، وهو ما لاحظه الباحث أحمد بهجت في كتابه (بحار الحب عند الصوفيَّة)، فقال: "وهذا معناه أن الصوفية يوصدون الباب حتى أمام من يسألهم عن معنى اسمهم. وهذا يدلُّ على أمرٍ من أمور ثلاثة؛ إما أن التصوف هو مذهبٌ سريّ غير معلن الأهداف، وإما أن هناك

(١٤٣) كشف المحجوب للهويجري (ص ٢٣٠).

حيرة وتخبط في فهم معناه ومقاصده، أو أنه متعدد الجوانب؛ كالفنِّ والغنى، وسوف نترك القارئ أن يجد الجواب عن ذلك بنفسه".(١٤٤)

ولعلنا نجد هذه السريَّة فيما ذكره السُّلميُّ عن أبي محمد المرتعش الذي سُئل عن التصوُّف؛ فقال: "الإشكال، والتلبيس، والكتمان".(١٤٥)

١١. وقيل: هو مأخوذٌ من (الاستصفاء) وهو الاختيار والاصطفاء، وهو قول الصُّوفيِّ الشهير عبد الرحمن الجامي الفارسي(ت ٨٩٨هـ)، الذي ذكر ذلك في (نفحاته)، مستدلاً بكلام عبد الله بن خفيف الصوفي الذي قال: "الصوفي من استصفاه الحقُّ لنفسه تودُّداً"(١٤٦).

(١٤٤) بحار الحب عند الصوفية، أحمد بهجت (ص ٣٢).

(١٤٥) طبقات الصوفية، للسلمي (ص ٣٨).

(١٤٦) نفحات الأنس للجامي (ص ١٢).

الترجيح: ومن خلال ما تقدم يمكن القول بأن الثابت هو نسبة الصُّوفيَّةِ إلى الصُّوف، وهو صحيحٌ لغةً كما تقدَّم [١٤٧]،وهو اختيار كثيرٍ من الصُّوفيَّة [١٤٨]، وعليه جماهير أهل العلم [١٤٩].

قال ابن فارس: "(صَوَفَ)، الصاد والواو والفاء أصلٌ واحدٌ صحيح، وهو الصُّوف المعروف، والباب كُلُّه راجعٌ إليه، يُقال كبشٌ أصْوَف، وصَوِفٌ وصائِفٌ وصَافٌ، كُلُّ هذا أن يكون كثير الصُّوفِ"[١٥٠]، وفي المعجم الوسيط: "تصوَّفَ أي صار من الصُّوفيَّةِ".[١٥١]

---

(١٤٧) أثر الفكر الصوفي في التفسير (دراسة ونقد)، بهاء حسن زعرب، رسالة ماجستير، ٢٠١٢م، (ص ١٧).

(١٤٨) ومن هؤلاء الصوفية:

١. السراج الطوسي في كتابه: اللمع، (ص ٤٠).

٢. وأبو حفص عمر بن محمد السهروردي، في كتابه: عوارف المعارف (ص ٤٥).

٣. وابن عجيبة في: معراج التشوف إلى حقائق التصوف، (ص ٢٦).

٤. وعبد الحليم محمود في كتابه: قضية التصوف، المنقذ من الضلال، (ص ٣٤).

(١٤٩) ومن هؤلاء العلماء:

١. شيخ الإسلام ابن تيمية، في: مجموع الفتاوي (٦/١١).

٢. وابن خلدون في: تاريخه (٦١١/١)، فقال: "والأظهر أنه مشتقٌّ من الصُّوف..."، وغيرهما من العلماء والمستشرقين، انظر: التصوف المصدر والمنشأ، إحسان إلهي ظهير، (ص ٣٤).

(١٥٠) معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس (٣٢٢/٣)، وانظر ملحق...

(١٥١) المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى وآخرون، (٥٢٩/١).

وقد رجَّح هذا المعنى شيخ الإسلام ابن تيمية، فقال: وقيل -وهو المعروف -أنه نسبةٌ إلى الصُّوفِ، وعلَّل ذلك بقوله: فإنه أول ما ظهرت الصُّوفيَّة من البصرة (موطن الاعتزال، وبادرة الخوارج، ومنشأ القدرية)[١٥٢]، وأول من بنى دويرة لهم بعض أصحاب عبد الواحد بن زيد (ت بع ١٥٠ هـ)، وعبد الواحد بن زيد من أصحاب الحسن البصريّ، وكان كثير المناكير في الحديث، بل هو متروك الحديث، قال البخاري عنه: تركوه!، وقال النسائي: متروك الحديث، وقال ابن حبان: غلبت عليه العبادة حتى كثرت المناكير في حديث، ورُمي بالقدر، وكان في البصرة مبالغةٌ في الزهد والعبادة والخوف ونحو ذلك ما لم يكن في سائر الأمصار، ولهذا يُقال: فقهٌ كوفيٌّ، وعبادةٌ بصريَّة[١٥٣].

ومع هذه المبالغة في الزهد والعبادة، كانت البصرة من قديم الزمان عشُّ الاعتزال، والمكان الذي فرَّخت فيه الجهميَّة، وظهرت فيه الزنادقة منكري السُنَّةِ

(١٥٢) الخوارج: هم الذين خرجوا على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ممن كانوا معه في حرب صفين، وأشدهم خروجاً ومروقاً عليه، هو: الأشعث بن قيس الكندي، ومسعر بن فدك التميمي، وزيد بن حصين الطائي، ومن أهم فرقهم: الأزارقة، والنجدات، والبهيسية، وغيرها، ويجمعهم القول بالتبري من عثمان وعليّ، ويقدمون ذلك على كل طاعة، ولا يصححون المناكحات إلا بذلك، ويكفرون أصحاب الكبائر، ويرون الخروج على الإمام إذا خالف السنة حقاً واجباً. انظر: الملل والنحل للشهرستاني (ص ٥٠-٥٩).

(١٥٣) انظر: مجموع الفتاوي؛ لابن تيمية (٦/١١)، وسير أعلام النبلاء؛ للذهبي (٧/ ١٧٨).

والآثار، ومعلومٌ أن هؤلاء الزنادقة قد انتحلوا نحلة الاعتزال ستراً لأهوائهم، ولنزعة العقل التي كانوا يميلون إليها، وقد وجدوا في هذا المذهب ستاراً لإخفاء أهوائهم، وطيِّ مفاسدهم بالكتمان، حتَّى تُفرِّخ وتصل غايتها، ومهما يكن من أمر هؤلاء فإنهم ليسوا في شيء من الإيمان وأهله (١٥٤).

وقد كانوا يلبسون الصُّوفَ، ويعدُّونه شعاراً للدلالة على طريقتهم في الزهد والعبادة، والخشونة والتقشف وشظف العيش (١٥٥)، ثُمَّ تركوه بعد ذلك.

ولا شكَّ أنَّ تخصيص النسك والتواضع بلباسٍ مُعيَّن كدروع الصوف ومرقعاته التي ابتدعها المتصوفة، إنما هي شرٌ لا خير فيها؛ لأنها لباس شهوة وشهرة مذمومة(١٥٦) .

---

(١٥٤) انظر: الإمام الشافعي؛ للشيخ محمد أبو زهرة (ص ٢٢٥).

(١٥٥) وإذا كان الصُّوف في زمانهم علامةٌ على الزهد والتواضع والفقر، فالصوف في أزمنة وأمكنة أخرى هو أغلى الثياب وأفخرها، وبذلك يتبين عدم ارتباط الصُّوف بدعاية الزهد والتقشف، إنما يرتبط التقشف بأمر آخر زائدٍ على مجرد اللباس!.

(١٥٦) تفسير المنار، محمد رشيد بن علي رضا، (٨/٣٢١)، وانظر: الجامع لأحكام القرآن؛ لأبي عبد الله القرطبي (٧/١٨٥).

يقول عبد الله الغماري: "ومذهب الشيعة في العقيدة هو مذهب المعتزلة[١٥٧]، إلا قليلاً منهم، كالحاكم وأبي نُعيم، وغيرهما من أهل الحديث الذين تشيَّعوا وهم من أهل السنة، وقد قال الذهبي: إن التشيع والاعتزال قد تآخيا منذ القرن الخامس"[١٥٨].

قال ابن الجوزيّ: "وأنا أكره لبس الفُوَطِ والمرقعات لأربعة وجوه:

أحدها: أنه ليس من لبس السَّلف، وإنَّما كانوا يرقِّعون ضرورةً.

والثاني: أنه يتضمَّن ادِّعاء الفقر، وقد أُمر الإنسانُ أن يُظهر أثر نعم الله عليه.

والثالث: إظهار التزهُّد، وقد أُمرنا بستره.

(١٥٧) المعتزلة: فرقة كلامية، تُعلي من شأن العقل، وتقدمه على النقل، وهم أتباع واصل بن عطاء، الذي اعتزل مجلس الحسن البصري، وقرَّر أن الفاسق في منزلة بين المنزلتين، لا مؤمنٌ ولا كافر، والمعتزلة تنفي صفات الله عز وجل، ويقولون: إن القرآن مخلوق، ويُلقبون بالقدرية؛ قولهم بأن الله لم يخلق أفعال العباد، ولم يُقدرها!. انظر: اعتقادات فرق المسلمين؛ للرازي (ص ٢٧ –٢٨)، والتبصير في الدين (٦٧ –٦٨).

(١٥٨) انظر: الاستقصاء لأدلة تحريم الاستمناء (ص ١٢– ١٣).

والرابع: أنَّه تشبُّهٌ بهؤلاء المتزحزحين عن الشريعة، ومن تشبَّه بقومٍ فهو منهم".[١٥٩]

وقال ابن تيمية: إنَّ طريقتهم ليست مقيَّدةً بلباس الصُّوف، ولا هم أوجبوا ذلك، ولكن أضيفوا إليه لكونه ظاهر حالهم [١٦٠]، وهذا الكلام ليس بصحيح.

وزعم القشيريُّ وجماعةٌ: أنَّ القومَ لم يختصُّوا بلبس الصُّوفِ [١٦١]، وهو غلطٌ، والصَّحيح أنهم مختصون بلباس الصُّوف، وإن كانوا لا يوجبونه، فقد قال ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ) في تاريخه، فقال: "هم في الغالب مختصُّون بلبسه، لما كانوا عليه من مخالفة النَّاسِ في لبس فاخر الثياب إلى لبس الصُّوف".[١٦٢]

وكان الصّحابة يلبسون أجود الثياب وأحسنها، ولم يقتصروا على لبس الصُّوف، ولم يتخذوه شعاراً كما يفعل المتصوفة، وقد كان مالك بن دينار (وهو علم الزهاد) يلبس الثياب الجواد العدنيَّة، وكانت ثياب أحمد جيدة تُشترى بنحوٍ من دينار .[١٦٣]

---

(١٥٩) تلبيس إبليس، ابن الجوزي، (ص ١٧٠)، وانظر: الجامع لأحكام القرآن؛ لأبي عبد الله القرطبي (١٩٧/٧).

(١٦٠) مجموع الفتاوي، ابن تيمية (١١/ ١٦).

(١٦١) الرسالة القشيرية، عبد الكريم بن هوازن القشيري (ص ٤٦٤).

(١٦٢) تاريخ ابن خلدون (١/ ٦١١).

(١٦٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن؛ لأبي عبد الله القرطبي، (٧/ ١٩٥–١٩٨).

وقد كان النَّبيُّ ﷺ يلبس ما تيسر من الثياب، فيلبس الصُّوف تارةً، والقطن تارة، والكتان تارة، وكانت أحبُّ الثياب إليه الحَبِرة (ثياب من كتان أو قطن محبرة مزينة ومخططة)، وقد كان غالب ما يلبسونه من ثياب اليمن؛ لأنها قريبةٌ منهم، وكان يلبس القباطي (وهي الثياب المنسوجة من الكتان)، وكانت تأتي من الشام ومصر.(١٦٤)

وفي سنن أبي داود (١٦٥)، عن عائشة أنها جعلت للنَّبيِّ ﷺ بُردةً من صوف، فلبسها، فلمَّا عَرِقَ وجد ريح الصُّوفِ، طرحها، وكان يُحبُّ الريح الطيب.

وقد سار الصحابة على منهاج النبيِّ ﷺ في اللباس واقتفوا أثره، قال ابن القيِّم: وكان غالب ما يلبسه هو وأصحابه رضوان الله عليهم، ما نُسج من القطن، وربما لبسوا ما نُسج من الصُّوفِ والكتان .(١٦٦)

---

(١٦٤) انظر: زاد المعاد في هدى خير العباد؛ لابن قيم الجوزية، (١/١٤٤).

(١٦٥) صحيح، رواه أبو داود في سننه (٤/٥٤، برقم: ٤٠٧٤)

(١٦٦) انظر: زاد المعاد في هدى خير العباد؛ لابن قيم الجوزية، (١/١٤٤).

ولبس الصُّوف لم يكن مرغوباً بين الصَّحابة، وإنما لجئوا إليه لقلة ذات اليد، ولأنهم لم يجدوا غيره، فإذا تيسر لهم غيره تركوه، قال ابن عبَّاسٍ رضي الله عنه: ثُمَّ جاء الله بالخير ولبسوا غير الصُّوف .(١٦٧)

وقد سُئل الحسن البصريُّ رحمه الله عن لُبس الصُّوف، فقال: إن قوماً جعلوا التواضع فل لباسهم والكبر في صدورهم لقوم سوء، إن أحدهم أشدُّ كِبراً بِمَدرعتهِ من صاحب السرير بسريره، وصاحب المنبر بمنبره .(١٦٨)

ولما سأل أحمد بن أبي الحواري سليمان بن سليمان عن لبس الصُّوف؟ فقال: أيُّ شيءٍ أرادوا بلبس الصُّوف؟ فقال ابن أبي الحواري: التواضع! قال سليمان: وما يتكبر أحدهم إلا إذا لبس الصُّوف، صوِّف قلبك، وليكن ظاهرك قُطنيَّاً!.(١٦٩)

والعبرة أنه متى أظهر الإنسان لباس المتزهدة لدعوى الصلاح، ليشتهر بذلك عند الناس، كان ذلك كبراً ورياءاً، ومن هنا ترك كثيرٌ من السَّلف هذا اللباس، وعدُّوه من لباس الشهرة،

---

(١٦٧) صحيح، رواه أبو داود في سننه: ٩٧/١، برقم: ٣٥٣.

(١٦٨) اختيار الأولى في شرح حديث اختصام الملأ الأعلى؛ لابت رجب (ص ١١١).

(١٦٩) اختيار الأولى في شرح حديث اختصام الملأ الأعلى؛ لابت رجب (ص ١١١).

وخلاصة القول: أنه بات من الراسخ لدى العلماء اليوم أن التصوُّف مشتقٌّ من الصُّوف، وأن القوم مختصُّون بلبسه تمييزاً لأنفسهم عن باقي الطبقات التي أركنت إلى البذخ، وانغمست في الترف، والصُّوفيُّ واحدٌ، والجماعة صوفيَّة، ومن يتوصَّل إلى ذلك متصوف، والجماعة متصوفة (١٧٠).

أمَّا معنى التصُّوف (كما يراه الباحث)؛ فهو :

فلسفة روحيَّة كلاميَّة، تأثرت بعناصر أجنبية كثيرة (شيعية، وفارسيَّة، وغنوصيَّة، ومسيحية، وحتَّى إسلاميَّة)، وتحوَّلت إلى وحدة متماسكة من الأفكار المختلطة، وأصبحت تتبع طريقةً معينة في الرياضات والمجاهدات التي لا تتقيَّد بالشرع، لا في الوسائل والأساليب، ولا في المفاهيم والتصوُّرات، ولا في السلوك والغايات وصولاً إلى حالةٍ من النشوة والوجد أو الرضى عن الذات (**Ekstase**).

فالتصوُّف مذهبٌ فلسفي، باطني، قديم، ولا علاقة له بالدِّين الإسلامي، لا من قريب، ولا من بعيد، ولا تناقض في أنَّ الباطل قد يكتسي بما ظاهره نورٌ من أنوار الحق، بشبهةٍ من الشُّبَه، أو بوجهٍ من الوجوه.

---

(١٧٠) التصوف الإسلامي العربي، عبد اللطيف الطيباوي (ص ٢١، ٢٣).

ويرى الطيباوي أن الصُّوفيَّة ليست من الفرق الإسلاميَّة المعهودة بنظام، أو المخصوصة بمعتقدات، بل هي فرقةٌ يعتريها التغيير، ويتناولها التطوُّر، وتختلف قواعدها ونظمها باختلاف جنسية المتصوف وعصره ومصره [١٧١].

وتقول الدكتورة غادة المقدم ما نصُّه: "وتاريخياً وجد التصوف منذ القِدم عند جميع الأديان السماوية والوثنية كمهذب للنفس الإنسانية، وموجه للمرء نحو الطريق الروحي، يدفعه للخير دون سعي مادي أو معنوي، ويُبعده عن الشر؛ لأنه شر وخطيئة" [١٧٢].

وربما يرتبط تعريف التصوُّف بالفرد ذاته الذي يصبو إلى التحرِّر من كل القيود والأسباب الشرعية والكونيَّة، باحثاً عن عوالم الغيب، مستمداً ذلك من الأديان القديمة، والفلسفات الوثنية، تقول آنا ماري شيمل: "أمَّا أقصى الجبل، حيث موطن طائر السيمورغ (**Sa Murgh**) "الصُّوفي"، فلن يصل إليه على كُلِّ حال، إلا بعض من النُّخبة، ثُمَّ يدركون أنَّهم لم يصلوا إلا لما يجول في خاطرهم" [١٧٣].

---

(١٧١) التصوف الإسلامي العربي، عبد اللطيف الطيباوي (ص ١٣٥).

(١٧٢) الطرق الصوفية في طرابلس (ص ٩٥) ضمن موسوعة تاريخ العرب والعالم.

(١٧٣) الأبعاد الصوفية في الإسلام، آنا ماري شيمل (ص ٥).

وقد ألَّف فريد الدين العطار كتاب "منطق الطَّير"، الذي يُشير من خلاله إلى شخصيَّة سُليمان عليه السلام، الذي كان باستطاعته التحدث إلى طيور الأرواح بلغتها الخاصة، ويجعله ممثلاً للشيخ الصُّوفي!، ويذكر فيه قصَّة "صنعان" الصُّوفيِّ الذي تخلَّى عن تصوُّفه من أجل حُبِّه لامرأة نصرانيَّة!

وقد استخدم ابن سينا موضوع "رحلة الطير"، وذلك الغزالي كتب رسالةً سماها "رحلة الطير"!، والسَّنائي الذي ابتدع "تسبيح الطير!"، وأما نهاية القصَّة فكانت من نسج العطار، وهي أن الثلاثين طائراً الذين قطعوا الرحلة المتعبة ليصلوا إلى السيمورغ (ملك الطيور)، اكتشفوا في النهاية أنَّهم أنفسهم "سيمورغ (=بالفارسية تعني الثلاثين طائراً)"، وتمثل هذه القصة رحلة البحث عن الرُّوح، وهي أغنى تعبير روحاني، يعبر عن اتحاد الرُّوح بالذات المُقدَّسة!، وكأنَّ المجنون لم يعد محتاجاً إلى ليلى الحقيقية؛ لأنَّه اتحدَ بها، وكما وجد الرُّوميُّ شمس الدِّين في نفسه، وبتعبير روزبهان البقلِي الشيرازي الصُّوفيِّ (تلميذ السهروردي، ت ٥٨٤هـ/ ١١٨٨م): "هي رحلة البحث عن الجمال الأزليّ"! .(١٧٤)

(١٧٤) الأبعاد الصوفية في الإسلام، آنا ماري شيمل (ص ٣٤٥).

المبحث الثالث

بدعة الانتساب إلى التصوّف

وهل يجوز الانتسابُ للصُّوفِ، أو التسمِّي به، فيُقالُ: صوفيٌّ، أو متصوِّفٌ؟!

والجواب الذي لا معدل عنه هو أنه: لا يجوز الانتسابُ للصُّوفِ، أو التسمِّي به، فيُقالُ: صوفيٌّ، أو متصوِّفٌ؛ لأمور منها:

١-عدم ظهور دلالة شرعيَّة على وجوب هذه التسمية والنسبة، ولا على استحبابها ورجحانها، ولم يأتِ دليلٌ يجعلها من المهمات الدينية أو التكاليف الشرعيَّة، بالإضافةِ إلى أنَّه لا يترتَّبُ عليها شيءٌ من الأحكام الكليَّة، أو الاعتقادات الأصوليَّة، فلا مزيَّة للصوُّف على غيره من الثِّيّاب إلا مجرَّد كونه يستر العورة، ويُشعر بالدفءِ لابسه.

٢-أنَّ النَّبيَّ ﷺ وهو إمام الزاهدين وقدوتهم، وقدوة السالكين وحجتهم، وكذلك صحبه الكرام رضوان الله عليهم، لم ينتسب واحدٌ منهم إلى الصُّوفِ، ولم يتسمَّ به، ولا أمروا بلبسه، ولا اتخذوه شعاراً، مع ظهور مخالفته للتسمية الشرعيَّة التي سمَّى الله بها عباده المؤمنين، فقال عز وجل: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ

مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾(الحج: ٧٨)، ويستفاد من الآية عدم مشروعيَّة الانتساب الديني إلى غير المسلمين.

٣–أنَّ الصُّوفيَّة فرَّعوا من لبس الصُّوف –وهو مباح –ما لا يلزم، وادَّعوا وجوبه من غير حُجَّةٍ ولا دليل، ولو كان واجباً أو مستحبَّاً لبيَّنه ﷺ، فكيف إذا ثبت عكس ذلك؟!.

٤–المفاسد الشنيعة المترتبة على مثل هذه النسبة، ومعلومٌ بالضرورة أنَّ كل ما ترتب عليه مفسدةٌ دينية واحدة، كان شنيعاً وقبيحاً شرعاً وعقلاً، فكيف إذا بنيت عليه كُلُّ هذه الطامات والمفاسد؟!.

٥–أنَّ هذا الاسم أصبح علامةً على بدعة الرجل، وانحرافه في مسائل السلوك والإتباع، وبخاصَّة في العصور المتأخرة، نظراً لارتباط هؤلاء المنتسبين لهذا الاسم بالبدع الظاهرة (١٧٥).

٦–أن هذا الانتساب، يزيد من فرقة المسلمين، وفيه خروج عن الجماعة الائتلاف، ومفارقة السنة والإتباع، وعامَّة علماء أهل السنة والجماعة والمحققين

---

(١٧٥) ينظر في ذلك: فتوى اللجنة الدائمة للإفتاء، المملكة العربية السعوديَّة (٢/ ٢٦٨– ٢٧٠).

من الراسخين في العلم في هذا الزمان، مطبقين على التحذير من الصُّوفيَّة، والنهي عن سلوك طريقهم، لما فيها من شرك وبدعة وانحرافٍ عظيم [١٧٦].

وفي تناقض لا ينتهي يقول الدكتور عبد الحليم محمود: "أنَّه لا يمكن لأحدٍ أن يُطلق على نفسه أنَّه صُوفيّ، فإن فعل ذلك، فهو جاهلٌ محض!؛ لأنه بذلك يُبرهنُ على أنَّه حقيقة ليس بصوفيّ، وذلك أن هذه الصفة (سِرٌ) بين الصوفي الحقيقي وبين ربّه، ويمكن للإنسان أن يقول عن نفسه إنه متصوف!، ولا يُطلق لفظ صوفيّ إلا على من بلغ الدرجة العليا" [١٧٧].

وبنفس المنطق يُجيب الشيخ عبد القادر عيسى: "ينبغي التفرق بين التصوُّف والصُّوفي، فليس الصُّوفيُّ بانحرافه ممثلاً للتصوُّف، كما أن المسلم بانحرافه لا يُمثِّل الإسلام، والمعترضون لم يُفرِّقوا بين الصُّوفيِّ والتصوف، كما لم يفرقوا بين المسلم والإسلام، فجعلوا بينهما تلازماً، فوقعوا في الكاملين قياساً على المنحرفين" [١٧٨].

---

(١٧٦) نشأة البدع الصوفية، د. فهد الفهيد (ص ١٥– ١٦).

(١٧٧) قضية التصوف، المدرسة الشاذلية، د. عبد الحليم محمود (ص ٣٥٠).

(١٧٨) حقائق عن التصوف، الشيخ عبد القادر عيسى (ص ٦٥).

وللصُّوفيَّة أسماءٌ أخرى مختلفة، أطلقت عليهم بحسب المنطقة الموجودون فيها، وهي:

١. الغرباء أو (المتوحِّدون)؛ سموا بذلك لخروجهم عن الأوطان، وسياحتهم في البلدان، أو لأنهم يتميزون عن بقيَّة الناس بالسعي إلى الكمال، فينتقلون بفكرهم وتأملاتهم من الوسط الطبيعي إلى الجمهورية الكاملة (الرُّوحانيَّة السَّامية) التي يعتقدون بأنها الوطن والمستقر الحقيقي لهم.(١٧٩)

ولذا فإنَّ المتصوفة يرون وجوب الابتعاد عن النَّاس قدر الإمكان، وعدم مخالطتهم إلا لأجل الضروريات؛ حتَّى يبقى المتوحِّد نقيَّاً، بعيداً عن أهل الدُّنيا (المائلين إلى المادة)، لأنهم ليسوا من جنسه، فلا يختلط بهم، بل يجعلون تعلُّقهم بالروحانيِّ المُطلق (شيخ الطريقة!) كما يقولون.(١٨٠)

٢. شكفتية: وهو اسم لهذه الطائفة بخراسان؛ سموا بذلك لكثرة إيوائهم إلى الكهوف والغيران، ولعدم سكنهم في القرى والمدن، والشكفت بلغتهم: الغار والكهف(١٨١).

---

(١٧٩) تاريخ فلاسفة الإسلام، محمد لطفي جمعة (ص ١٠١).

(١٨٠) تاريخ فلاسفة الإسلام، محمد لطفي جمعة (ص ١٠٧).

(١٨١) التعرف لمذهب أهل التصوف، (ص ٢٩).

٣. الجوعيَّة: وهو اسم الطائفة عند أهل الشام، وسموا بذلك؛ لأن الجوع هو أحد أركان طريقتهم في الوصول إلى الحقيقة، والجوع الذي دعا إليه هؤلاء هو الفاحشُ منه، الذي يؤدي إلى ضعف القوة والبدن، ولا شك أن ذلك سيؤثر على العبادة، فقد يتركها هؤلاء بالكلية؛ لأنهم لا يقوون عليها.

وأوّل من تكلم عن فلسفة الجوع هو شقيق البلخي(ت ١٧٤ هـ)[١٨٢] الذي عاش في بدايات القرن التاسع الميلادي، واعتبره سبيلاً للوصول إلى الروحانيَّة أو إلى الكشف والنُّور!، وهم بذلك يتساوون مع رهبان النصارى الذين لا يقتاتون إلا على أقلِّ القليل، وهناك حالات معروفة عن صوفيَّة سقطوا موتى من الجوع.[١٨٣]

٤. الفقراء أو المتسولون (Derwisch) اشتهروا بذلك في البصرة، وسموا بذلك؛ لتخليهم عن الأملاك، وتركهم الكسب، واتجاههم نحو التسوُّل، ولكبار الصُّوفيَّة قصص مأساوية تتحدث عن فقرهم المدقع والشديد، وأهل الشام لا

---

(١٨٢) هو شقيق بن إبراهيم الأزدي البلخي، قال عنه الذهبي: الإمام الزاهد، شيخ خراسان، صحب إبراهيم بن أدهم كثيراً وتأثر به، وهو نزر الرواية –كما قال الذهبي– وكان صاحب ثروة ومال، فتزهد وتصدق بها، وأقبل على طلب العلم، وكان مع زهده من رءوس الغزاة والمجاهدين، واستشهد رحمه الله في غزاة كولان، سنة (١٩٤هـ). انظر: الجرح والتعديل (٤/ ٣٧٣)، وحلية الأولياء (٨/ ٥٨)، وسير أعلام النبلاء (٩/ ٣١٣).

(١٨٣) الأبعاد الصوفية في الإسلام، آنا ماري شيمل (ص ١٣٤).

يفرقون بين الفقر والتصوُّف، وقد جرى خلاف كبيرٌ في القرن التاسع الميلادي حول أيهما أفضل: الغني الشاكر، أم الفقير الصابر، فاتفق الصُّوفيون على أنَّ الفقير الصابر أفضل، بشرط الرضى! (١٨٤).

٥. النوريَّة (الفكرية)؛ لأنهم محضوا أنفسهم للفكر والفلسفة، ولأنَّهم عزفوا بأنفسهم عن الدنيا، فنوَّر الله قلوبهم، وكثيراً ما وصفوا الدُّنيا بأنها مزبلة، أو مرحاض، أو حظيرة كلاب، وأنَّ الذي لا ينأى عنها أحقر من الكلاب!.(١٨٥)

٦. السياحين (الحجيج): سموا بذلك لكثرة سياحتهم، كما نقل ذلك الكلاباذي، فقال: "ولكثرة أسفارهم سموا سياحين"(١٨٦).

(١٨٤) عوارف المعارف، للسهروردي (ص ٦٦). والأبعاد الصوفية في الإسلام، آنا ماري شيمل (ص ١٤٠).

(١٨٥) نفحات الأنس، للجامي (ص ١٣٥).

(١٨٦) التعرف لمذهب أهل التصوف، (ص ٢٩).

المبحث الرابع

مصادر التصوُّف الإسلامي ونشأته

أولاً: النشأة والتطور:

إن دراسة مصادر التصوُّف ونشأته من المواضيع التي حار فيها العلماء، فتوقَّفَ فريقٌ عن القطع بمصدر مُعيَّن للتصوُّف، وقالوا: إنَّ الشُّقة بيننا وبين استكمال خيوط تلك المصادر بعيدةٌ جداً، نظراً للاختلاف الكبير في العقيدة بين مذهب وحدة الوجود وبين مذهب أهل السُّنَّة الصحيح!

ورأى فريقٌ أنَّه من صميم الإسلام (وهو رأي نيكلسون)، الذي يرى أنَّ التصوُّف نشأ نتيجة المبالغة في الشعور بالخطيئة، والخوف الشديد من عقاب الآخرة، مع تأثره بالعناصر الأجنبية فيما بعد [١٨٧].

(١٨٧) مدخل إلى التصوف الإسلامي، أبو الوفا التفتازاني، (ص ٣).

ورأي فريقٌ أن التصوُّف مذهبٌ دخيلٌ على الإسلام، وأنه إما مأخوذٌ من رهبانية الشام (وهو رأي ماركس)، أو من أفلاطونية اليونان الحديثة، ومن زرادتشية الفرس، أو من فيدا الهنود (وهو رأي جونس) .[١٨٨]

وينبغي أن نُشير إلى مجموعة من الحقائق المهمة في تاريخ غُلاة الفِرق، والتي ستفيدنا كثيراً في بحثنا هذا، وهي[١٨٩] :

١) أن الذين اتخذوا الغلو منهجاً وطريقةً في العبادة، إنما غالوا خوفاً على عقائدهم القديمة من أن تندثر وتبلى، فكانوا يبحثون عن وسيط ملازم، يحتفظ بالقديم، ولا يثير حفيظة الجديد، فكان الغلو هو الطريقة التي تضمن ذلك.

٢) أن الغلاة يهتمُّون بالحصول على قاعدة شعبية، تمكنهم من ربط أفكار الغلو بثقافات حاضرة، ليتمكنوا من إيجاد بيئة غير بعيدة عن واقعهم، وأفكارهم التي لم يكادوا يخرجوا منها.

(١٨٨) هـ/ قضية التصوف، المدرسة الشاذلية، د. عبد الحليم محمود (ص ١٧٩)، نقلاً عن (ماسينون) في (دائرة المعارف الإسلامية– الترجمة العربية لكلمة تصوُّف).

(١٨٩) العلويين في بلاد الشام، اميل عباس آل معروف (١/ ١٠).

فصلٌ: في أدبيات البحث في مصادر التصوُّف ونشأته:

إن البحث في مصادر التصوُّف ومنشأه يقتضي البحث في قضيتين هامتين:

الأولى: بيان الأثر الذي تركته تلك المصادر في الفكر الإسلامي في الوقت الذي ظهر فيه التصوُّف.

والثانية: البحث في مدى اتفاق الحقائق المقررة في تلك المصادر والمتصلة بنشأة التصوف، مع التصوُّف نفسه إبان نشأته وتطوره.

وقبل البدء بالحديث عن مصادر التصوُّف، لا بد من بيان أن أفضل طريق للحكم على طائفة معينة، أو أيِّ فئة من الناس هو الحكم المبني على آرائه وأفكاره التي تناقلوها في كتبهم المعتمدة، ورسائلهم الموثوق بها لديهم، وهذه هي الطريقة الصحيحة المستقيمة التي يقتضيها العدل والإنصاف.

ومن خلال البحث الدقيق والمتعمق في مصادر التصوُّف تبيَّن للباحث أن التصوُّف هو خليط من الديانات اليهودية، والمانوية، والمجوسية، والمزدكية، وكذلك الهندوكية والبوذية، وقبل ذلك كله من الفلسفة اليونانية، أو (الأفلاطونية

الحديثة)، وأنَّه لا يمتُّ إلى الإسلام بصلة، وهذه هي خلاصة الاختلاف بين العلماء والباحثين في أصل التصوف، ومأخذه، والتي سنقوم بمناقشتها في هذا الباب.[١٩٠]

على أنَّ هذه النتيجة لم تسلم من معارضة بعض دارسي التصوُّف، الذين اعتبروا أنَّ مثل هذه الأحكام غير دقيقة في ذات المجال، وأنَّها –نفس! –طريقة المستشرقين الذين حاولوا أن يقفوا في الجو الصُّوفي عند المصادر الأجنبية، وأن يجدوا للتراث الصوفي ألواناً شتى عن الأفكار السابقة من الأزمنة المختلفة، واستدلُّوا لذلك بالاضطراب الكبير في محاولة الوصول إلى نتيجة موحدة حول مصدر التصوف ونشأته، وذلك منذ أكثر من قرن ونصف[١٩١].

ويرى الدكتور عبد الحليم محمود أنَّ "ثولك" الذي قال بوثنيَّة التصوُّف ومجوسيته، عدل عن ذلك، وأعلن إسلاميته، ووقع في اضطراب شديد، ومثله "نيكلسون" الذي قال بأفلاطونية التصوُّف، ثم عدل إلى إسلاميته، وعدَّ هذا تناقضاً ظاهراً عند المستشرقين والباحثين حول مصادر التصوف ومنشأه، واعتبر أنَّ هذا الخلاف مصدره المستشرقين، وتبعهم في ذلك الشرقيون، وزعم أنَّ النقاش عن

(١٩٠) التصوف المنشأ والمصدر، إحسان إلهي ظهير (ص ٤٩).

(١٩١) قضية التصوف، المدرسة الشاذلية، د. عبد الحليم محمود (ص ١٦٩).

مصادر التصوُّف هي مشكلةٌ وهمية، وأن الخلاف فيها لا يزال مستمراً لا ينقطع؛ لأنَّ وضع المشكلة خطأ على حدِّ زعمه .[١٩٢]

وبناءً عليه، فقد اختلف العلماء والدارسين في تحديد مصدر التصوف ومنشأه، ولكي يتضح الأمر لا بُدَّ أن نعرض أهم المصادر التي اقتبست منها الصُّوفيَّة، والتي تصطدم اصطداماً صريحاً مع العقيدة الإسلامية الصافية، وسنعرض إلى هذا النثير المتفرق من الأصول والمصادر التي استطاع المتصوفة من تأليف مجموعة متناسقة من العقائد ذات المنطق الفلسفي المتداخل مع الديانات الأخرى، والمتقاطع معها بشكل جوهري، والمزايا التي جعلته كائناً فكرياً مستقلاً، لا يندمج في غيره، ولا ينفصل عنه أيضاً:

(١٩٢) قضية التصوف، المدرسة الشاذلية (ص ١٦٩).

١. المصدر الفارسيَّ الوثني للتصوُّف:

ويرى بعض المستشرقين أمثال: ثوليك (**Tholik**) وبراون (**Broun**)، أنَّ التصوُّف هو تطوُّرٌ للفكر الفارسي في الإسلام، وأنَّ بلد التصوف ومنشأه هي أرض فارس الوثنية، أو فرس تركيا الذين كانوا يقطنون الأناضول حتَّى عهد قريب.(١٩٣)

ودليلهم في ذلك أن كثيراً من المجوس بقي على دينه بعد الفتح الإسلامي، ولقد وجدنا في العهد العباسي زنادقة كبار، يُعلنون آراء مفسدة للجماعة الإسلاميَّة، ويتناجون بأمور هادمة للإسلام، يدبرون الكيد لأهله، ويهوِّنوا من شأنه، ومنهم من كانوا يريدون نقد الحكم الإسلامي برمَّته، وإحياء الحكم الفارسي القديم، كما حدث من المُقنَّع الخراساني، الذي خرج على الدولة العباسيَّة، من بعد عهد المهدي!.(١٩٤)

بالإضافة إلى كون كثير من الصوفيَّة الأوائل من الفرس، من أمثال: معروف بن الفيزران الكرخي (ت ٢٠٠هـ/ ٨١٣م) والذي كان في كلامه وتصرفاته رواسب

(١٩٣) انظر: تاريخ العلويين في بلاد الشام، اميل عباس آل معروف (ص ٢٦).

(١٩٤) أبو حنيفة: حياته، آراؤه، فقهه، لمحمد أبو زهرة (ص ٩٩).

صابئية تشير إلى دينه القديم قبل أن يسلم، خاصة وأن أبواه صابئين، وهو في الأصل من الأهواز، وهي منطقة يجري فيها نهر، على عادة أصحاب هذه الديانة التي لا تسكن إلا على ضفاف الأنهار، ضرورة هذه المادة في ممارسة طقوسهم الدينية، التي سُمُّوا بمقتضاها (بالمغتسلة).

وكان (معروف) في تصوفه ينفر من الماء نفوراً بالغاً، يبلغ حدَّ التطرُّف والعقد النفسية، فكأنه كان يحاربه، ويبتعد عنه بكل ما أوتي من قوة، وذلك في نظرنا ابتعاداً عن كل ما يربطه بالصابئة.. وقد ذكر عنه أنه كان يأتي إلى النهر للوضوء، فيتيمم دون أن يمس الماء !.. وما روي عنه من الكرامات يكاد يتركز في كثير منها حول السيطرة على الماء، فقد روي أنه كان يبطل مفعول الأمواج بأدعيته وتعويذاته، ويتهددها بذكر اسمه عليها !..

أضف إلى ذلك أن شيخ معروف الذي عيَّنه في خرقته الأولى هو (أبو الفضل علي القاري الواسطيّ)، ولكنه ورث الخرقة الرفاعيَّة عن خاله منصور البطائحي (ت ٥٤٠هـ/ ١١٤٥م)..

وكان معروف يرتكز في آرائه على فكرة الفتوَّة (الفارسية) كطريقة في الوصول إلى المعرفة، على أنها نابعةٌ من الداخل، ولا دخل لها بشيء من الخارج!.

وكذلك أبو يزيد طيفور بن عيسى بن سروشان البسطامي (ت٢٦١هـ/٨٧٥م)، الذي كان أبيه وأخواه صوفيان، بينما كان جده "سروشان" مجوسياً (زرداتشياً) ثم أسلم، كذلك كان شيخه في التصوُّف (كردياً)، فكان كلامه يتضمن (الزُّنار) الذي كان حزاماً من الصوف يشدُّه المجوس على أوساطهم، وكانوا يسمونه (الكُستي)، ويظهر الزنار في مثل قول أبي يزيد: "إذا وقفت بين يدي الله فاجعل نفسك بأنك مجوسي تريد أن تقطع الزنار بين يديه"، وهذا لا يعني عدم تأثر البسطامي بالآراء الفلسفية، بل إنه كان واعياً لها، فكان كلامه شبيهاً بفقرات من كلام يعقوب الكندي (ت ٢٥٨هـ) فليسوف العرب، إلا أنه يصدر عن روح صوفية!..

وذكروا من بين شيوخ البسطامي الإمام جعفر الصادق (ت١٤٨هـ/٧٦٥م)، وتذكر كتب التاريخ أن أبا يزيد ولد سنة (١٨٨هـ/٨٠٤م)، وهو دليلٌ كافٍ على نفي التقائهما، ولكن الصُّوفيَّة حاولوا الربط بينهما بدلالات أخرى غير تاريخية، وهي أن جعفر الصادق كان مثالاً يحتذى به في الزهد والفتوة، وتركه الصراعات السياسية، حتى لقد ترجمه أبو عبد الرحمن السُّلمي(ت ٤١٢هـ/

١٠٢١م) في كتابه الضائع "تاريخ الصُّوفيَّة"، واعتمد عليه في تفسيره للقرآن على الطريقة الصوفية[١٩٥].

وأبو تراب عسكر بن حصين النخشبيّ (ت ٢٤٥هـ/ ٨٥٩م)، من أصحاب البَسطاميّ، ويُنسَب إلى "نخشَب"، وهي بلدة بما وراء النَّهر، عُرِّبت فقيل لها "نسف"، ويُقال إنَّه أول من تكلَّم في الأحوال الصُّوفيَّة، والحُبِّ الإلهي (وقيل سري السقطي)، وبهذا يقترب من رابعة البصريَّة، التي توفيت قبله بمدة يسيرة سنة (٨٠١م)،ومن ثمَّ نهشته السِّباع أثناء سياحته في الصحراء!.

وأحمد بن محمد الروذباري (ت ٣٢٠هـ)، الذي يتصل نسبه بكسرى ملك الفرس[١٩٦]، والذي صحب الجنيد الصُّوفي المعروف.

لقد كان بين مجوس الفرس صوفيَّة أطلقوا على أنفسهم ما ترجمته "مُشرق القلب"، أو "الناظر إلى الواحد"، ما يوحي بوجود تشابه كبير بين التصوُّف والتدين الفارسي، الذي يؤمن أتباعه بفكرة النور كأساس للتدين، ويعتبر الإشراق وتنقل النور الإلهي في الملوك من لوازمها.

---

(١٩٥) صفحات مكثفة من تاريخ التصوف، (ص ١٣٣).

(١٩٦) شح أنفاس الرجال الروحانية (ص ٧٤).

وقد قدَّم السهروردي المقتول فلسفة جديدة تعد تطويراً لنظرية الحلاج في وحدة الوجود أو الشهود[١٩٧]، مع إدخال العنصر الفلسفي الإشراقي، والأفكار الفارسية القديمة المتمثلة بالنُّور الإلهي المتنقل.

ولكي نتبين الصلة المتسلسلة بين الإشراقيين والحلوليين نورد نظرية السهروردي التي جاءت في رسالته الفارسية (صغير سيمورغ= صغير العنقاء)[١٩٨] ،

---

(١٩٧) عقيدة وحدة الوجود: خلاصتها اعتقاد أن الوجود واحد، وليس هناك وجود للخالق ووجود للمخلوق، بل وجود ذا هو عين وجود هذا، ولكن لأصحابها في تقريرها عدة مذاهب:

الأول: مذهب ابن عربي، ويقوم على أصلين، أحدهما: أن المعدوم شيء ثابت في العلم والعدم، والمظاهر: هي أعيان ثابتة في العدم، وأما الظاهر: فهو وجود الخلق. والثاني: قوله: إن وجود الأعيان نفس وجود الحق الذي فاض عليها، وابن عربي يفرق بين وجود الشيء وماهيته.

الثاني: مذهب الصدر الرومي، الذي لا يُفرق بين الوجود والماهية، وعنده أن الله هو الوجود المطلق الذي لا يتعين ولا يتميز.

الثالث: مذهب التلمساني، وهو لا يفرق بين ماهية الشيء ووجوده، ولا بين مطلق ومعين، بل عنده ما ثمَّ سواه، ولا بوجه من الوجوه، وإنما الكائنات أمواج البحر في البحر، وهذه المذاهب رتبها شيخ الإسلام ابن تيمية حسب أبعدها ن الحق، وأشدها كفراً، وبعد أن ذكر شيخ الإسلام الأقوال الثلاثة، قال: "ولا ريب أن هذا القول (يعني قول التلمساني) هو أحذق في الكفر والزندقة، فإنه لم يميز بين الوجود والماهية، وجعل المعدوم شيئاً (وهو ابن عربي)، أو التمييز في الخارج بين المطلق والمعين، وجعل المطلق شيئاً وراء المعينات في الذهن (قول الصدر الرومي)، قولان باطلان ضعيفان..". انظر: مجموع الفتاوي (٢/ ١٤٣، ١٦٠- ١٦١، ١٦٩).

(١٩٨) الأبعاد الصوفية في الإسلام، آنا ماري شيمل (ص ٥).

وقد تحدث فيها عن مراتب التوحيد الصُّوفي الذي يبدأ (بالهو) إشارة إلى توحيد المبتدئين، فيبحث عن الله في كل ما هو غائب مجهول، ثم (أنت) وهي الدرجة الثانية من التوحيد والتي تعني معرفة الله بالمشاهدة والخطاب الروحي، وهي درجة أصحاب الفناء (النيرفانا =بالفارسية)، وأصحاب وحدة الوجود، ثم توحيد (الأنا)، وهي درجة الاندماج في الألوهية، وأصحابها هم الحلوليون، إلا أن فارقاً دقيقاً بين الحلوليون وأصحاب الإشراق، تكمن في أن الأنا الأولى التي تعني (الله)، والأنا الثانية التي هي (الإنسان)، فيذكرونها على سبيل المجاز لا الحقيقة حتى يبلغوا نور الأنوار الذي هو الله عز وجل، وعندها لا فرق بين الحلولي والإشراقي؛ إذ الغاية واحدة.

ويرى الخميني وكذلك الصُّوفيَّة قبله؛ كالجنيد وغيره أنَّ نور الأنوار، الذي خُلقت منه جميع المخلوقات، إنما هو نور مُحمَّدٍ وعليٍّ عليهما السلام!، فلم يزالا نورين أوَّلين، انبثقا من العقل المجرَّد الأوَّل (=إذ كان لا شيء من الأشياء)، ولا شيء كُوِّنَ قبلهما من النفوس الكليَّة(١٩٩)، وإليه يرجع كلام سائر المحققين من العرفاء، ورئيس فلاسفة الإسلام (ابن سينا) في (الشفا) وغيره من مسفوراته، والشيخ المقتول (السهروردي)، وغيرهما من أساطين الحكمة وأئمة الفلسفة؛ مثل صدر

(١٩٩) النفوس الكلية: أي العامة المجردة من الصفات، والتي هي المادة الأولى للمخلوقات جميعها.

الدين القونوي، والشيخ الكبير ابن عربي (ت ٦٣٨ هـ)(٢٠٠)، وكمال الدين عبد الرزاق القاشاني(ت ٧٣٠هـ/ ١٣٢٩م) .(٢٠١)

وأوَّل من قال "بالنُّور المحمَّدي" هو سهل التستري (وقيل: هو الحلاج(٢٠٢)) صاحب الفرقة الحلاجية، وقد نقله عنه أبو طالب المكي وهو من أتباع سهل، وكان أبو أحمد الغزالي يعلمه لمريديه، إلى أن جاء إمام الغلاة ابن عربي ونظَّم هذا النور تنظيماً متكاملاً، ومن ثمَّ ظهر ذلك في قصص الموالد، والأشعار، حتَّى قال الرُّوميُّ: "بنور المصطفى شققتُ القمرَ" .(٢٠٣)

وتتميز فكرة السهروردي في عرضه لمراتب ذلك النور بدءاً من نور الأنوار (الذي هو الله ﷻ)، والموجد الأول للأنوار، نازلة منه في درجة تبدأ بالأنوار القاهرة المؤثرة في الكائنات، فتفرز منها السماويات والأرضيات، ثم الأنوار المهيمنة على الأنواع والأجسام، ومن بينها النور المهيمن على الإنسان والذي أطلق عليه

---

(٢٠٠) هو: محمد بن علي بن محمد الحاتمي الطائي الأندلسي، صاحب كتاب فصوص الحكم، قال عنه الذهبي: "صنف التصانيف في تصوف الفلاسفة وأهل الوحدة، فقال أشياء منكرة، عدها طائفة من العلماء مروقاً وزندقة"، انظر: ميزان الاعتدال (٣/ ٦٥٩)، ولسان الميزان (٥/ ٣١١).

(٢٠١) مصباح الهداية إلى الخلافة والولاية (ص ١١٥–١١٩).

(٢٠٢) التصوف في القرنين الثاني والثالث الهجريين، أبو الخير تراسون (ص ١٢٤).

(٢٠٣) الأبعاد الصوفية في الإسلام، آنا ماري شيمل (ص ٢٤٦).

السهروردي اسم (اسفهبذ)، وهو اسم فارسي قديم، كان يُطلق على دهاقين طبرستان في مقابل الأنوار العلوية، وهذه الأنوار السفلية (المظلمة) تبقى متعطشة إلى الأنوار العلوية، حتى تتصل بها في صورة إتحاد روحي، وهي (أي الأنوار العلوية) تضع الإنسان بين حالتي الجذب والسلب، التي تنتج عنه الجاذبية المستمرة التي تحرك هذه العوالم، وتصل بين جميع أجزائه، وكل هذا يذكر بقصيدة ابن سينا العينية في النفس كما لا يخفى.[٢٠٤]

والتي يقول ابن سينا في مطلعها:

هبطتُ إليكَ من المحلِّ الأرفعِ *** حسناءَ ذاتُ تدلُّلٍ وتمنُّعِ

ثم يظهر هذا التقارب في فرقة (الملامتية) التي ظهرت في أواسط القرن الثالث، والتي أشاعت فكرة الاستخفاف بظواهر الشرع، وبالأعراف الاجتماعية، بحيث يُظهر الفسق، وهو ليس بفاسق!، ويترنح كالسكارى، وليس بالسكران!، وكان من أشهر رجالها أبو حفص عمرو بن سلمة النيسابوري (ت٢٧٠هـ/٨٣٣م)، وأبو صالح حمدون بن أحمد القصار (ت٢٧١هـ/٨٣٤م).

---

(٢٠٤) صفحات مكثفة من تاريخ التصوف، (ص ١٥٤).

وتطور هذا الاستخفاف بالمبادئ الدينية والأعراف الاجتماعية إلى ما سمي بعد ذلك (بالشطحات!) والتي تمثل العبارات والجمل التي تحمل ما يناقض الشريعة، فينطق بما ظاهره تأليه الذات البشرية، وهكذا أصبح التصوّف في النهاية كما بدأ قائماً على إلغاء الوجود الإنساني في محاولة منه للاندماج في العالم الروحي.

ونجد قوة هذه الرابطة في التزام الصُّوفيَّة بتقاليد الزهد الفارسي القديم الذي يتصل بالهيئة والملبس، والفتوة التي تعمي مجموعة من التقاليد الإنسانية النابعة من الإيثار والرجولة.[٢٠٥]

ونظرة سريعة على كتاب (الطواسين) للحلاج (=جمع طاسين، بمعنى الفصل الروحاني، أو الآية في رأي خصوم الحلاج)، ستبدي لنا روح من الفتوة المتصلة بالملامة، وفيها تطرف لم نعهده من قبل في العالم الصوفي، فقد كان إبليس وفرعون هما أعظم الفتيان في نظر الحلاج، أما إبليس فقد تربع على عرش الفتوة، لمثالته الشديدة في رفضه السجود لآدم، وذلك حرصاً على كرامة العنصر الأعلى على الأدنى، ولئلا يكون ذلك تسليماً له برجحان الطين على النار!.

---

(٢٠٥) المصدر السابق نفسه (ص ٢٣، ٨٠).

أما فرعون فاعتبره مثلاً على الفتوة على أساس حرصه على نفي الواسطة بين الله وخلقه، لأن الله في نظر الحلاج أرفع شأناً من أن يتعرف عليه عن طريق الأنبياء الذين هم الواسطة بين الملأ الأعلى والعالم المادي(٢٠٦).

ويردُّ هذا القول التفتازاني الذي يرى أن التصوف ازدهر أيضاً على أيدي جماعةٍ ليست بالقليلة من صوفية العرب، من أمثال: ذي النون المصري، ومحيي الدين بن عربي، وعمر بن الفارض (الحموي المصريّ)، وابن عطاء السكندري(٢٠٧).

ولا شك أن ردَّ التفتازاني لم يكن موفقاً في الرَّد، إذ أن ذا النون المصري لم يكن عربياً، وليس له نسب ولاء في العرب، وإنما هو نوبي قبطي، أما ابن عربي وابن الفارض وابن عطاء فقد جاءوا في القرنين السابع والثامن الهجري، حيث اختلطت الأنساب، وشاع الانتساب لأهل البيت، ثم إنهم ليسوا مصدراً ورواداً للتصوف، فقد بدأ التصوف قبلهم بأربعة قرون.(٢٠٨)

(٢٠٦) صفحات مكثفة من تاريخ التصوف، (ص ١٤٢-١٤٣).

(٢٠٧) مدخل إلى التصوف الإسلامي (ص ٣١).

(٢٠٨) العقائد الدينية في مصر المملوكية (ص ٢٠).

وفي السياق التاريخي، يرى بعضُ الباحثين أن التصوُّف الخراساني (الفارسي)، كان يمثل المنهج العدائي الموجه إلى العرب تارةً والإسلام تارة أخرى، وأنه بمثابة انتقام لانهيار الدولة الفارسية على يد الجيوش الإسلامية الفاتحة، وربما تولد ذلك الإحساس لدى الفرس لأن الفاتحين لم يكونوا نماذج حسنة للمبادئ التي ينادون به، وكان أقدم من ذكر هذه الفكرة ابن حزم الأندلسي (ت٤٥٦هـ/١٠٦٤م)، ووصلت إلينا عن طريق المستشرقين، ومنهم: براون في كتابه "تاريخ الأدب في إيران"، بل إن الباحثين الإيرانيين ذكروا هذه الفكرة، باعتبارها حقيقة مسلمة؛ فقد ذكر الأستاذ مهرين في كتاب له مترجم عن الأردية إلى الفارسية ما يلي بالعربية: "لقد ظهر التصوف في إيران في عصر تسلَّط على وطننا فيه عدو قوي، فلما لم يجد الإيرانيون في أنفسهم قدرة على مخالفة الأعداء ومغالبتهم، سلكوا سبيل الهزيمة، واتخذوا القوى الغيبية معتقداً لهم، وألقوا سلاحهم في ميدان تنازع البقاء..

وعلى هذا فقد كان التصوف حينئذ ضرورة، وليس اليوم كالأمس"، وذكر الدكتور قاسم غني من الباحثين الفرس أيضاً هذه الفكرة وأكدها، وكان الجميع في ذلك عيالاً على ابن حزم، دون أن يذكروه.[٢٠٩]

(٢٠٩) صفحات مكثفة في تاريخ التصوف، د. كامل الشيبي (ص ٨٢).

وعلى الرغم مما للفرس من دور كبير في نشأة الغلوِّ (والتصوُّف)، إلا أنَّ العرب كانوا هم الشعب الحاضن لهذا الغلو، والبيئة الخصبة له، ويندر أن نرى قبيلة عربية لم تدل بدلوها في هذه الباطنيَّة!.[٢١٠]

وإذا أردنا أن نُفسِّر التصوُّف بأنَّه رفضٌ للترف المادي الذي غرقت فيه الخلافة العباسيَّة، فعلينا أن نعيد النظر مرةً أخرى إلى الموالي (غير العرب) الذين يمثلون جزءاً لا يستهان به من جيش الخوارج، الذين تشدَّدوا في فهم الدين، وخرجوا على أئمة المسلمين وأمرائهم، والذين كان لهم اجتهادهم الخاص في العبادة، وما أشدَّ نقمتهم على قبائل قريش ومضر، فكان أميرهم الأول هو عبد الله بن وهب الراسبي، أحد الموالي الحاقدين، وسنرى كيف أنَّ عقائد الفُرس وجدت سبيلها في فرق الخوارج وعقائدهم، فرأينا اليزيدية (أتباع يزيد بن أبي أنيسة) الذين ادَّعوا أنَّ الله تعالى يبعث رسولاً من العجم، ينزلُ عليه كتابٌ ينسخ الشريعة المحمدية!.

والميمونية (أتباع العجردي) الذين أباحوا نكاح بنات الأولاد، وبنات الإخوة والأخوات، ومن ذلك نجد أن هذه المبادئ هي من نتاج الفكر الفارسي، إذ الفرس

---

(٢١٠) تاريخ العلويين في بلاد الشام، اميل عباس آل عروف (ص ٣٠).

المجوس؛ هم الذين يحنُّون إلى نبيٍّ من فارس، وهم الذين يُبيحون نكاح بنات الأولاد! .(٢١١)

ويمثل الخوارج عنصراً مهماً من عناصر المُركَّب الصُّوفي، ونظرةٌ فاحصة في سنن الدارمي، تُجلِّي لك ما كان خافياً من قضيَّة الذكر الجماعي، روى الدامِيُّ بإسناده، عن عَمْرُو بْنُ سَلَمة الكوفي، قَالَ:

أنَّ أبا مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ ﷺ، قَالَ لابْنِ مَسعُود: يا أبا عبد الرحمن، إِنِّي رَأَيْتُ فِي الْمَسْجِدِ آنِفًا أَمْرًا أَنْكَرْتُهُ وَلَمْ أَرَ – وَالْحَمْدُ لِلَّهِ – إِلَّا خَيْرًا.

قَالَ: فَمَا هُوَ؟، فَقَالَ: إِنْ عِشْتَ فَسَتَرَاهُ.

قَالَ: رَأَيْتُ فِي الْمَسْجِدِ قَوْمًا حِلَقًا جُلُوسًا يَنْتَظِرُونَ الصَّلَاةَ فِي كُلِّ حَلْقَةٍ رَجُلٌ، وَفِي أَيْدِيهِمْ حصًا.

فَيَقُولُ: كَبِّرُوا مائة، فَيُكَبِّرُونَ مِائَةً، فَيَقُولُ: هَلِّلُوا مِائَةً، فَيُهَلِّلُونَ مِائَةً، وَيَقُولُ: سَبِّحُوا مِائَةً، فَيُسَبِّحُونَ مِائَةً، قَالَ: فَمَاذَا قُلْتَ لَهُمْ؟، قَالَ: مَا قُلْتُ لَهُمْ شَيْئًا انْتِظَارَ رَأْيِكَ، أَوِ انْتظارَ أَمْرِكَ.

---

(٢١١) أبو حنيفة: حياته، وآراؤه، للشيخ محمد أبو زهرة (ص ١٤١– ١٤٢). وانظر: مالك حياته، وآراؤه؛ للشيخ محمد أبو زهرة أيضاً (ص ١٥٣).

قَالَ: "أَفَلَا أَمَرْتَهُمْ أَنْ يَعُدُّوا سَيِّئَاتِهِمْ، وَضَمِنْتَ لَهُمْ أَنْ لَا يَضِيعَ مِنْ حَسَنَاتِهِمْ شيء"، ثُمَّ مَضَى وَمَضَيْنَا مَعَهُ حَتَّى أَتَى حَلْقَةً مِنْ تِلْكَ الْحِلَقِ، فَوَقَفَ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ: "مَا هَذَا الَّذِي أَرَاكُمْ تَصْنَعُونَ؟"، قَالُوا: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ حصًا نَعُدُّ بِهِ التَّكْبِيرَ وَالتَّهْلِيلَ وَالتَّسْبِيحَ.

قَالَ: "فَعُدُّوا سَيِّئَاتِكُمْ، فَأَنَا ضَامِنٌ أَنْ لَا يَضِيعَ مِنْ حَسَنَاتِكُمْ شَيْءٌ وَيْحَكُمْ يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ، مَا أَسْرَعَ هَلَكَتَكُمْ، هَؤُلَاءِ صَحَابَةُ نَبِيِّكُمْ ﷺ مُتَوَافِرُونَ، وَهَذِهِ ثِيَابُهُ لَمْ تَبْلَ، وَآنِيَتُهُ لَمْ تُكْسَرْ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّكُمْ لَعَلَى مِلَّةٍ هِيَ أَهْدَى مِنْ مِلَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، أَوْ مُفْتَتِحُو بَابِ ضَلَالَةٍ"!.

قَالُوا: وَاللَّهِ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ، مَا أَرَدْنَا إِلَّا الْخَيْرَ!.

قَالَ: "وَكَمْ مِنْ مُرِيدٍ لِلْخَيْرِ لَنْ يُصِيبَهُ، إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حَدَّثَنَا أَنَّ "قَوْمًا يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ"، وَايْمُ اللَّهِ مَا أَدْرِي لَعَلَّ أَكْثَرَهُمْ مِنْكُمْ، ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ. فَقَالَ عَمْرُو بْنُ سَلَمَةَ: "رَأَيْنَا عَامَّةَ أُولَئِكَ الْحِلَقِ يُطَاعِنُونَا يَوْمَ النَّهْرَوَانِ مَعَ الْخَوَارِجِ".[٢١٢]

---

(٢١٢) إسناده جيد، سنن الدارمي (١/ ٢٨٦، برقم: ٢١٠).

وفي روايةٍ أخرى من طريق عَطَاءُ بْنُ السَّائِبِ، عَنْ أَبِي الْبَخْتَرِيِّ، قَالَ: أَخْبَرَ رَجُلٌ عَبْدَ اللهِ بْنَ مَسْعُودٍ أَنَّ قَوْمًا يَجْلِسُونَ فِي الْمَسْجِدِ بَعْدَ الْمَغْرِبِ، فِيهِمْ رَجُلٌ يَقُولُ: كَبِّرُوا اللهَ كَذَا وَكَذَا، سَبِّحُوا اللهَ كَذَا وَكَذَا، وَاحْمَدُوا اللهَ كَذَا وَكَذَا.

قَالَ عَبْدُ اللهِ: "فَيَقُولُونَ؟". قَالَ: نَعَمْ.

قَالَ: "فَإِذَا رَأَيْتَهُمْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَأْتِنِي فَأَخْبِرْنِي بِمَجْلِسِهِمْ".

فَأَتَاهُمْ وَعَلَيْهِ بُرْنُسٌ لَهُ فَجَلَسَ (يعني مُتخفِّياً)، فَلَمَّا سَمِعَ مَا يَقُولُونَ قَامَ، وَكَانَ رَجُلًا حَدِيدًا (ذو حِدَّة)، فَقَالَ: "أَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ، وَاللهِ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ لَقَدْ جِئْتُمْ بِبِدْعَةٍ ظُلْمًا، أَوْ لَقَدْ فَضَلْتُمْ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ ﷺ عِلْمًا". وفي رواية (وَإِنَّكُمْ لَمُتَعَلِّقُونَ بِذَنَبِ ضَلَالَةٍ)(٢١٣)، وفي رواية: (إِنَّكُمْ مُتَمَسِّكُونَ بِطَرَفِ ضَلَالَةٍ)(٢١٤).

قَالَ مِعْضَدٌ (رجلٌ من بني تميم): وَاللهِ مَا جِئْنَا بِبِدْعَةٍ ظُلْمًا، وَلَا فَضَلْنَا أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ عِلْمًا.

---

(٢١٣) رواه عبد الرزاق في مصنفه (٣/ ٢٢٠، برقم: ٥٤٠٨)، والطبراني في الكبير (٩/ ١٢٥، برقم: ٨٦٢٩).

(٢١٤) رواه الطبراني في الكبير (٩/ ١٢٨، برقم: ٨٦٣٨).

فَقَالَ عَمْرُو بْنُ عُتْبَةَ بن فرقد: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ، نَسْتَغْفِرُ اللهَ (ثلاثاً)، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَتَفَرَّقُوا. قَالَ: "عَلَيْكُمْ بِالطَّرِيقِ فَالْزَمُوهُ، اتَّبِعُوا وَلَا تَبْتَدِعُوا، فَوَاللهِ لَئِنْ فَعَلْتُمْ لَقَدْ سَبَقْتُمْ سَبْقًا بَعِيدًا، وَلَئِنْ أَخَذْتُمْ يَمِينًا وَشِمَالًا لَتَضِلُّنَّ ضَلَالًا بَعِيدًا".(٢١٥)

وفي روايةٍ، قال: "بلَى وَالَّذِي نَفْسُ ابْنِ مَسْعُودٍ بِيَدِهِ، لَقَدْ فَضَلْتُمْ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ عِلْمًا، أَوْ جِئْتُمْ بِبِدْعَةٍ ظُلْمًا، وَالَّذِي نَفْسُ ابْنِ مَسْعُودٍ بِيَدِهِ لَئِنْ أَخَذْتُمْ آثَارَ الْقَوْمِ لَيَسْبِقُنَّكُمْ سَبْقًا بَعِيدًا، وَلَئِنْ حُرْتُمْ يَمِينًا وَشِمَالًا لَتَضِلُّنَّ ضَلَالًا بَعِيدًا".(٢١٦)

وقد زاد ظهور هذه الأمور في العصر العباسي من وقت أن استقرت الأمور لهذه الدولة، التي قامت على السيوف الفارسية، ومن طبيعة العصر الذي تكثر فيه المنازعات ويضطرم باحتكاك المدنيات المختلفة بعضها ببعض، أن تظهر فيها آراء منحرفة، وأخلاق منحرفة أيضاً، ويكثر الشذوذ الفكري، والاجتماعي، حتى يُصبح الشاذ هو الكثير، والغريب هو المألوف، هو ما آل إليه حال المتصوفة!(٢١٧) .

(٢١٥) رواه أبو نُعيم في الحلية (٤/ ٣٨٠)،

(٢١٦) البدع لابن وضَّاح (١/ ٣٥، برقم: ٩).

(٢١٧) أحمد بن حنبل؛ لأبي زهرة (ص ٤٤).

وقد رأينا التساهل الشديد، والاستهانة منقطعة النظير من فرق المرجئة[٢١٨] عندما أثار الشيعة والخوارج قضيِّة مرتكب الكبيرة، حتَّى صاروا في آخر أدوارهم إلى الإباحة أقرب، فقالوا: لا يضرُّ مع الإيمان معصية، فكلُّ من قال لا إله إلا الله مؤمن، ولو عبد الصليب، أو لزم اليهودية والنصرانية، وأعلن التثليث في دار الإسلام، ومات على ذلك، فهو عندهم مؤمنٌ كُلَّ الإيمان عند الله عزَّ وجل، وهو وليٌّ لله تعالى، ومن أهل الجنَّة، ورتَّبوا على ذلك مسائل، فقالوا: لو قال رجلٌ أعلم أنَّ الله قد فرض الحجَّ إلى الكعبة، ولكن لا أدري أين الكعبة، ولعلها بالهند، كان مؤمناً حقَّاً، ولو نظر إلى شاةٍ، وقال: لعلَّه الخنزير الذي حرَّمه الله في كتابه كان مؤمناً حقَاً !.. والعاقل لا يستجيز من عقله أن يشك في الكعبة إلى أية جهة هي!، وإن الفرق بين الخنزير والشاة ظاهر، ولكنه الانسلاخ من ربقة الدين[٢١٩]، وبهذا المثال نستطيع تفسير عقائد التوحيد عند أئمة المتصوفة من الحلاج، والجنيد، وابن عربي، وغيرهم، وكيف أنهم استهانوا بحقائق الإيمان، ويختصر ذلك كُلَّه ما قاله أحد هؤلاء المستهترين: ألا إن أعلاي شيعي، وأسفلي مرجئ!، وقد دخل في الإرجاء عددٌ كبيرٌ من الشيعة الفرس، واخترع بعضهم مذاهب الإباحة !..

---

(٢١٨) أسست المرجئة على يد يونس بن عُبيد النُّميري، ومن زعمائهم: غسان الكوفي، وعُبيد المكتئب، ومن أقوالهم: "لا تضرُّ مع الإيمان معصية، كما لا تنفع مع الكفر طاعة".

(٢١٩) أبو حنيفة: حياته، وآراؤه، للشيخ محمد أبو زهرة (ص ١٥٣).

وقد ظهر بالبصرة أهل الجبر، الذين قالوا إنَّ الإنسان مجبورٌ في أفعاله، ونسبة الأفعال للإنسان إنما هو على سبيل المجاز، وكانت أفكارهم تُمثِّلُ العقيدة الصُّوفية في أفعال الإنسان، حيث يقولون: إنَّ الإنسان كالريشة في مهبِّ الريح، يسير معها حيث تسير إذ لا اختيار له، فتركوا لأجل ذلك الأسباب، وجعلوا منها حجاباً عن معرفة لله تعالى.

وإن أول من قال بالجبر (القدر) هو بعض اليهود، الذين علموه لبعض المسلمين، وهؤلاء أخذوا ينشرونه، ويُقال إن أول من فعل ذلك هو معبد الجهنيُّ بالبصرة، وعنه أخذ غيلان الدمشقيُّ، ثم دعا إليه الجعد بن درهم [٢٢٠] (وكان مبتدعاً ضالاً له أخبارٌ في الزندقة)، وهو أول من قال بخلق القرآن، وكان يزعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً، ولم يُكلِّم موسى تكليماً [٢٢١]، وقد تلقى هذا الضلال والجبر عن يهودي بالشام، ونشره بين الناس بالبصرة، ثُمَّ تلقاه عنه شيخ المرجئة في عصره الجهم بن صفوان، وذلك في لب العصر الأموي.

---

(٢٢٠) الجعد بن درهم: من موالي بني مروان، سكن دمشق، وكان يتردد على وهب بن مُنبِّه يسأله عن الصفات مشككاً، ثُمَّ خرج على الناس ببدعة خلق القرآن، ونفي الصفات، وأنكر أن يكون الله كلم موسى تكليماً، أو اخذ إبراهيم خليلاً، وقد قبض عليه خالد القسري، وقتله يوم العيد، سنة (١١٤ هـ). انظر: الكامل لابن الأثير (٤/ ٢٥٥).

(٢٢١) انظر: الميزان؛ للذهبي (١/ ٣٩٩).

ومن أخبار الجعد بن درهم في الزندقة: أنه جعل في قارورةٍ تُراباً وماءً، فاستحالَ دوداً وهواماً، فقال: أنا خلقتُ هذا؛ لأني كنتُ سبب كونه، فبلغ ذلك جعفر بن محمد، فقال: ليقل كم هي؟ وكم الذُّكران منها والإناث؟ إن كان خلقه![٢٢٢].

ومن أخبار الجهم بن صفوان في الزندقة، ما رواه أبو نُعيم البلخي وكان معاصراً له، أنه كان لجهم صاحبٌ يكرمه، فإذا هو قد هجره، ووقع فيه؛ فقلت لصاحبه: لقد كان يكرمك، فقال: إنه قد جاء منه ما لا يحتمل، بينما هو يقرأ "طه" والمصحف في حجره، فلما أتى على هذه الآية ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾؛ قال: لو وجدت السبيل إلى أن أحكها من المصحف لفعلت! فاحتملت هذه، ثم إنه بينا هو يقرأ آية؛ إذ قال: ما أظرفَ محمداً حين قالها! ثم بينا هو يقرأ (طسم) القصص، والمصحف في حجره إذ مر بذكر موسى، فدفع المصحف بيديه ورجليه؛ وقال: أيُّ شيءٍ هذا؟ ذكر قصته ههنا فلم يتمها، وذكرها ههنا فلم يُتمَّها!! قال: فوثبتُ عليه .[٢٢٣]

(٢٢٢) لسان الميزان (٢/ ١٠٥).

(٢٢٣) إسناده صحيح، أخرجه البخاري في خلق أفعال العبد، (ص ٧١).

وعن أبي مُعاذ سليمان البلخي، قال: قيل لجهم بن صفوان: صف لنا ربَّك؟ فدخل بيته، ثُمَّ خرج بعد أيامٍ، فقال: هو ذا الهواء مع كل شيء، وفي كل شيء، ولا يخلو منه شيء، فقال أبو معاذ: كذب عدوُّ الله، بل الله جل جلاله على العرش كما وصف نفسه![٢٢٤] ، حتى امرأة جهم كان لها نصيبٌ من التجهُّم، قال رجلٌ عندها: الله على عرشه، فقالت: محدودٌ على محدود!.[٢٢٥]

وقد أظهر الجعد مقالته بخلق القرآن أيام هشام بن عبد الملك الأموي، فأخذه هشام وأرسله إلى خالد القسريّ، وهو أمير العراق، وأمره بقلته، فحبسه خالد ولم يقتله، فبلغ الخبرُ هشاماً، فكتب إلى خالدٍ يلومه، ويعزم عليه أن يقتله، فأخرجه خالدٌ من الحبس بوثاقه، فلما صلّى يوم عيد الأضحى، قال في آخر خطبته: انصرفوا، وضحُّوا يقبل الله منكم، فإني أريد أن أضحي اليوم بالجعد بن درهم، ونزل وذبحه .[٢٢٦]

(٢٢٤) إسناده صحيح، أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات، (ص ٤٢٧- ٤٢٨).

(٢٢٥) انظر: مختصر العلو للذهبي، محمد ناصر الدين الألباني (ص ١٧٠).

(٢٢٦) انظر: الكامل لابن الأثير (٥/ ٢٦٣).

وقد أخذ ذلك الجعد بن درهم عن بيان بن سمعان [٢٢٧]، وقد أخذه أبان عن طالوت [٢٢٨]، عن لبيد بن الأعصم اليهودي الذي سحر النبيَّ ﷺ، ومن ذلك نرى أن هذه النحلة ابتدأت يهودية في عصر النَّبيّ ﷺ، وبقيت إلى عصر الصحابة، ومع ذلك لا نستطيع أن نقول: إن تلك النحلة كانت بذراً يهودياً خالصاً؛ لأنَّ الفرس كانت تجري بينهم هذه الأفكار من قبل، فكانت فكرة الجبر قد طرقتها الزاردشتية، والمانوية، وغيرهم، ولم يترعرع هذا المذهب إلا في خراسان، فإنَّ جهماً زعيم هذه الفرقة التي انتحلت اسمه، ونسبت إليه لم يجد أرضاً صالحةً لدعوته إلا في خراسان وما حولها، فهذه الفرقة فارسية يهودية، وهذه النحلة ليست من العرب في شيء!. [٢٢٩]

(٢٢٧) طالوت: زنديقٌ يُنادي بزندقته، أخذ عن خاله لبيد بن الأعصم –الذي سحر النبيَّ صلى الله عليه وسلم –والذي كان يقول بخلق التوراة، ثم زعم أن القرآن مخلوق، وتلقى بيان بن سمعان عنه ذلك، وعلمه الجعد بن درهم، الذي نقله إلى الجهم بن صفوان، ثم إلى بشر المريسي. انظر: الكامل لابن الأثير (٥/ ٢٩٤).

(٢٢٨) بيان بن سمعان النهدي: ويُقال "أبان" من بني تميم، ظهر بالعراق، وقال بإلهيَّة علي، ثم من بعده ابنه محمد بن الحنفيَّة، ثم في أبي هاشم بن محمد بن الحنفية، ثم من بعده في بيان هذا، وكتب بهذا كتاباً إلى أبي جعفر الباقر، يُخبره بأنه نبيّ، وقد قتله خالدٌ القسري. انظر الملل والنحل (١/ ٢٠٣).

(٢٢٩) أبو حنيفة: حياته، وآراؤه، للشيخ محمد أبو زهرة (ص ١٥٨–١٥٩)

ومن الجدير بالذكر أن الخليفة الأموي مروان بن محمد بن مروان (الملقب بالحمار؛ سمي بذلك لأنه لا يجفُّ له لبد في محاربة الخارجين عليه)، والملقب بالجعديُّ أيضاً نسبةً إلى مؤدبه الجعد بن درهم، أوَّل من قال بخلقِ القرآن، وكان قد تتلمذ له، كان يثير النزعات القبلية، فكان يؤيد اليمانية على القيسية التي ناصرت بني العباس.(٢٣٠)

يقول الشيخ عبد الغني الدقر: "ودخل العنصر الفارسي مع الحكم العباسي، وحمل معه أفكاراً وعقائد في بعضها الزندقة والإلحاد، وفي بعضها انحرافٌ ظاهره الإسلام، وباطنه تمزيق الإسلام، فما ينسى هؤلاء وأمثالهم من هذا العنصر كيف دكَّ الإسلامُ صرحهم القديم، ونقض الملك، واستباح دار المقامة، وحين عجزوا عن النصر، واستأصلتهم الهزيمة، سلكوا سيل المكيدة للإسلام، يُريدون أن يُشتِّتوا شمله بأفكار وعقائد حاولوا بثَّها في المسلمين، فجعل بعضُهم يولِّدَ نحلاً سُنمِّيها إلى زرادشت، ليثني إليها ضعاف النفوس، فكان منها المزدكية، والمانوية،

(٢٣٠) الإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة، عبد الغني الدقر (ص ١٧).

والديصانية[٢٣١]، وادَّعى بعضهم الإسلام، وجعل من أسس إسلامه رفع الثقة بمن حمل رسالة الإسلام، وبثها برونقها وصفائها".[٢٣٢]

وخلاصة القول: "أن هؤلاء الغلاة من المتصوفة جاءوا بأمور لو تدبرها العاقل تبين له أن هؤلاء من أجهل الناس بالأمور الإلهية، وأنهم أعظم الناس قولاً للباطل، مع ما في نفوسهم ونفوس أتباعهم من الدعاوي الهائلة الطويلة العريضة، كما يدعي إخوانهم القرامطة الباطنية[٢٣٣]: أنهم أئمة معصومون مثل الأنبياء، وهم

(٢٣١) الديصانية: "نسبة إلى ميمون بن ديصان المعروف بالقداح، وكان مولى لجعفر بن محمد الصادق، وكان مأ الاهواز (جنوب غرب إيران)، ومنهم: أحمد بن الحسين الملقب "دندان"، وقام هو وميمون بن ديصان بتأسيس مذاهب الباطنية، وهما في سجن والى العراق، ثم ظهرت دعوتهم بعد خلاصهم من السجن من جهة المعروف بدندان، وابتدأ بالدعوة من ناحية (طوز– شمال العراق) فدخل في دينه جماعة من أكراد الجبل مع أهل جبل البدين، ثم رحل ميمون بن ديصان الى ناحية المغرب وانتسب في تلك الناحية الى عقيل بن أبى طالب، وزعم أنه من نسله، فلما دخل في دعوته قومٌ من غلاة الرفض والحلولية منهم، ادعى أنَّه من ولد محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق؛ فقبل الاغبياء ذلك منه (مع أن محمد بن اسماعيل بن جعفر مات ولم يعقب)، ثم ظهر في دعوته إلى دين الباطنية رجلٌ يقال له حمدان قرمط". انظر: الفرق بين الفرق (ص ٢٦٦)

(٢٣٢) أحمد بن حنبل إمام أهل السنة، عبد الغني الدقر (ص ١١ – ١٢).

(٢٣٣) القرامطة: لقبوا بهذا اللقب نسبةً إلى رجلٍ يُقال له: حمدان قرمط، كان أحد دعاتهم في الابتداء، فاستجاب له في دعوته رجال فسموا قرامطة وقرمطية، وكان حمدان هذا من أهل الكوفة، فلقيه أحد دعاة الباطنية، فاعتنق مذهبهم لذلك، ذكرهم الإمام الغزالي في كتابه فضائح الباطنية ضمن فرق الباطنية. انظر: فضائح الباطنية (ص ١٢).

من أجهل الناس وأضلهم وأكفرهم... فإنهم يُقرون بما يزعمونه من "التوحيد" عند التعدد في صفاته الواجبة، وأسمائه، وقيام الحوادث به، وعن كونه جسماً أو جوهراً، ثم هم عند "التحقيق" يجعلونه عين الأجسام المتخيلة الكائنة الفاسدة المتقذرة، ويصفونه بكل نقصٍ كما صرحوا بذلك".(٢٣٤)

يقول شيخ الإسلام في وصف "القرامطة": إنهم طمعوا في تغيير الملة، فمنهم من أظهر إنكار الصانع وأظهر الكفر الصريح، وقاتلوا المسلمين وأخذوا الحجر الأسود كما فعلته قرامطة البحرين، وكان قبلهم قد فعل بابك الخرمي (٢٣٥) مع المسلمين ما هو مشهور، وقد ذكر القاضي أبو بكر محمد بن الطيب بن الباقلاني (ت ٤٠٣ هـ) وغيره من كشف أسرار الباطنية، وهتك أستارهم فإنه كان

---

(٢٣٤) انظر: الإيمان الأوسط لابن تيمية (ص ٥١٢).

(٢٣٥) هو: بابك الخرم، وتنسب إليه البابكية، فرق من الإباحية، ظهر بابك الخرمي في جبل البدين بناحية أذربيجان، وكثر بها أتباعه، فاستباحوا المحرمات، وقتلوا الكثير من المسلمين، فجهز له المأمون جيشاً بقيادة محمد بن حميد الطوسي، فهزم بابك جيش الخليفة، وقتل محمد بن حميد الطوسي، ثم جهز المعتصم جيشاً بقيادة الأفشين، فهزم الأفشين جيش بابك هزيمة منكرة، ونجا بابك، فلم يزل الأفشين يتحيل له حتى أسره، ثم أخذه إلى المعتصم، وأمر بقطع أطرافه، وصلبه، وكان ذلك سنة (٢٢٣ هـ). انظر: مروج الذهب (٤/ ٢٩- ٥٥)، والكامل في التاريخ (٥/ ٢١٧- ٢٤٠- ٢٤٥).

منهم من النفاة الباطنية الخرمية [٢٣٦] ، وصاروا يحتجون في كلامهم وكتبهم بحجج قد ذكرها أرسطو وأتباعه من الفلاسفة [٢٣٧] .

(٢٣٦) الخرمية: من فرق الباطنية التي تنتسب إلى الإسلام، وهم صنفان: صنفٌ كانوا قبل الإسلام، وهم المزدكية، كانوا يستحلون المحرّمات، ويقولون: إن الناس شركةٌ في الأموال والنساء، وهؤلاء قتلهم أنو شروان في زمانه، وصنفٌ ظهر في الإسلام كالبابكية التي نُسبت إلى بابك الخرمي المجوسي الأصل، والمازبارية التي تنسب إلى مازبار الفارسي الأصل. انظر: الفرق بين الفرق (ص ٢٦٦)، والتبصير في الدين (ص ١٣٥).

(٢٣٧) انظر: مجموع الفتاوى؛ لابن تيمية (٥/ ٥٥٨- ٥٥٩).

٢. المصدر المسيحي (النصرانية المحرفة) للتصوُّف:

وذهب بعض الباحثين إلى إن مصدر التصوُّف هو الديانة (المسيحية)، ممثلة بالرهبان النصارى، الذين اعتبروهم النموذج الكامل للتصوف الديني في التجربة والأداء، ويؤيد ذلك التشابه الكبير بين قصص الرهبان النصارى وحكايات الملامتيَّة، واتفاقهم في اللباس، واتخاذ الرُّبط، والخوانق، والعزلة التي أحدثوها، ومشابهتهم لهم في التبتل، وترك النكاح، وأمور أخرى كثيرة.

بالإضافة إلى أن الأخبار الصادقة تُثبت أن النصارى الذين كانوا يعيشون بين المسلمين، ويؤلمهم أن يدخل المسيحيون في دين الله أفواجاً، كانوا يُثيرون أفكاراً غريبةً بين المسلمين، ويتخذون من هذه الأفكار حُججاً لهم يُجادلون بها عن دينهم[٢٣٨].

ومن أصحاب هذا الرأي: ڤون كريمر الألماني (**Von Kremer**)، وإغانتس جولد تسيهر النمساويّ (**Ignaz Goldzieher**) [٢٣٩]، ونيكلسون رينلد" الإنجليزي (**Nilsson**)، وأوليري (**Oliry**)[٢٤٠]، وسبنسر ترمنجهام الإنجليزي

(٢٣٨) انظر: الإمام أحمد؛ لمحمد أبو زهرة (ص ٦٩).

(٢٣٩) انظر: في التصوف الإسلامي وتاريخه، نيكلسون، رينولد، مترجم، (ص رقم: ز).

(٢٤٠) المدخل إلى التصوف الإسلامي (ص ٣٤).

(Spencer Trimingham)[٢٤١] ، وأقرَّ بذلك الباحث الإيراني الدكتور قاسم غني[٢٤٢].

وحجة أصحاب هذا الرأي هي:

١. الصلة التي كانت موجودة بين النصارى والعرب قبل وبعد الإسلام، ولا يستطيع أحد أن يجادل في أن المسيحية كانت منتشرة في الجزيرة العربية عموماً، ومصر خاصَّة، وفي تلك البقاع التي امتدت إليها الفتوحات الإسلاميَّة، وأن حركة الترجمة في العصور الإسلامية نشطت على أيدي النصارى، وقد ثبت تاريخياً أن بعض المسيحيين الذين كانوا في خدمة هشام بن عبد الملك، كانوا يعلمون المسلمين ما يجادلون به في أمر دينهم..

٢. والشبه الشديد بين الصوفية والرهبان، بل إن مؤرخي الفرق والعقائد يذكرون أن بعض متصوفي الإسلام إما أنهم كانوا مسيحيين، وإما أنهم يرجعون في الأصل إلى المسيحية، وأكبر دليل على ذلك ما نجده في كتابات المتصوفة من الحديث عن الزهاد المسيحيين، وتعاليم السيد المسيح[٢٤٣].

---

(٢٤١) الفرق الصوفية في الإسلام، (ص ٢٤).

(٢٤٢) انظر: تاريخ التصوف في الإسلامي، د. قاسم غني (ص ١٠٠).

(٢٤٣) انظر: التصوف الإسلامي العربي (ص ٦٣)، وما بعدها إلى (ص ٧٠).

٣. التشابه الغريب في العقائد بين المتصوفة والنصارى، وذلك في عقيدة الحلول فقولهم في ذلك من جنس قول النصارى في المسيح، ويستدل الصُّوفية بالآية: ﴿وهو الله في السَّماوات والأرض﴾ (الأنعام: ٣)[٢٤٤].

٤. كذلك؛ فإن الحياة الروحية عند كلا الطرفين تمرُّ بثلاث مراحل، وهي "التطهير، والاستنارة، والاتحاد،"، وقد جاء في رسالة بولس المسيحي إلى الكوسليِّين: "حياتنا المستترة مع المسيح في الله"[٢٤٥].

وقد حاول الدكتور عبد الحليم محمود وضع مفارقة بين التصوُّف الإسلامي، والتصوُّف المسيحي في أربع نقاط تتمثل في أنَّ التشابه الخارجي في استعمال بعض التعبيرات، لا يعني التشابه الجوهري والحقيقي بين التصوُّف الإسلامي والمسيحي!.

وأن التصوُّف الإسلامي وإن كان هدفه المعرفة المحضة، إلا أن له ظاهراً (وهو الشريعة) وكلتا الشريعتان مختلفتان!، وأنَّه ليس للمسيحي (شيخٌ) أو سلسلة يستند

(٢٤٤) شرح حديث النزول؛ لابن تيمية (ص ٣١٨).

(٢٤٥) اللاهوت الصوفي؛ الأب تيودور حلاق (ص: ٨).

عليها في تلقي التأثير الروحيِّ للتصوُّف!، وأنَّ هدف التصوُّف الإسلامي المعرفة، بينما يهدف التصوُّف المسيحي إلى الحب! (٢٤٦).

ويبدو أن الحارث المحاسبي من الصوفية الأوائل الذين تأثروا بالديانة المسيحية، وبسيرة السيد المسيح، حتى افتتح أحد كتبه بقصة (باذر) التي ضربها المسيح للأعمال الصالحة التي يقدمها الإنسان على صورة بذرة تختلف باختلاف نتائجها، على أن تعاليم السيِّد المسيح هي مما تناقله الصُّوفية جيلاً بعد جيل، ومن ذلك قول أبي طالب المكيِّ: "ورَوِّينا عن عيسى عليه السلام أنه قال: أجيعوا أكبادكم، واعروا أجسادكم، لعل قلوبكم ترى الله عز وجل" (٢٤٧).

وتكمن أهمية سيدنا عيسى عليه السلام، عند المتصوفة الأوائل أنَّه الوعاءُ الحسِّي لروح الله الطاهر، وقد اتخذوا الصُّوف عن نسَّاك النصارى ورهبانهم، سيما الطائفة "التوحيدية"!.

يقول نيكلسون: "من هنا نرى أن للمسيحية امتدادٌ ضخمٌ في الفلسفة الصُّوفيَّة الإسلامية، والذي بجد في عيسى عليه السلام، المثال الكامل لفلسفة الولاية الصوفية،

---

(٢٤٦) قضية التصوف، المدرسة الشاذلية، د. عبد الحليم محمود (٣٥٣- ٣٥٤).

(٢٤٧) انظر: قوت القلوب؛ لأبي طالب المكي (٢/ ١٦٧).

التي تسمو على درجة النبي في الأنبياء، ولأنه يجد فيه الإنسان الذي وصل إلى مقام القربى، فحلَّ فيه روح الله، ومن هنا أراد الحلاج أن يعيشه ويحياه، ويتحقَّق بحقيقته"[(٢٤٨)].

ويذكر الكلاباذي عن الصوفية أنهم: "قومٌ قد تركوا الدنيا، فخرجوا عن الأوطان، وهجروا الأخدان، وساحوا في البلاد، وأجاعوا الأكباد، واعروا الأجساد!".[(٢٤٩)]

وكذلك فإن لبس الصُّوف –وهو شعار الصُّوفيَّة وعلامتهم المميزة –هو لبس الرهبان النَّصارى[(٢٥٠)]، وأقرَّ بذلك الشعراني حينما نقل في طبقاته عن أبي العالية أنه "كان يكره للرجل زيَّ الرهبان من الصوف، ويقول: زينة المسلمين التجمُّل بلباسهم"[(٢٥١)].

(٢٤٨) الصوفية في الإسلام، لنيكلسون (ص ١٤٠).

(٢٤٩) التعرف لمذهب أهل التصوف، الكلاباذي (ص ٢٩).

(٢٥٠) دراسات في التصوف الإسلامي وتاريخه، نيكلسون، ترجمة أبي العلا العفيفي (ص ٤٢–٤٣).

(٢٥١) الطبقات الكبرى، للشعراني (١/١٣٥).

ومثل ذلك نقل ابن عبد ربه عن فقيه العراق حماد بن أبي سليمان (ت ١٢٠هـ) أنه قال لفرقد بن يعقوب السبخي البصري حينما رآه لابساً الصُّوف: "دع عنك هذه النصرانية"[٢٥٢]. وكان فرقد ينظر في التوراة، ويقول: الشبع أخو الكفر![٢٥٣] .

وقد أنكر سفيان الثوري (ت١٦١هـ) على هذه الطائفة لبس الصُّوف، وعدَّه بدعةً، وكذلك غيره من علماء المسلمين؛ لأنهم اعتبروه رمزاً للمسيحية وعلامة للرياء والسمعة[٢٥٤].

وروى ابن الجوزيّ أن عبد الكريم بن أمية جاء إلى أبي العالية وعليه ثياب صوف، فقال له أبو العالية: "إنما هذه ثيابُ الرهبان، إن المسلمين إذا ائتزروا تجمَّلوا".[٢٥٥]

ويرى نيكلسون أنَّ "الصُّوفية اخذوا الصُّوف شعاراً للزهد والخشوع عن رهبان النَّصارى ونساكهم" .[٢٥٦]

---

(٢٥٢) العقد الفريد، ابن عبد ربه (٣/٣٧٨). ورواها ابن الجوزي بسنده في تلبيس إبليس (ص ٢١٩).

(٢٥٣) الحلية (٣/ ٤٧)، وصفة الصفوة (٣/ ٢٧١).

(٢٥٤) دراسات في التصوف الإسلامي وتاريخه، نيكلسون، ترجمة أبي العلا العفيفي (ص ٤٨).

(٢٥٥) تلبيس إبليس؛ لابن الجوزي (ص ٢١٩– ٢٢٠).

(٢٥٦) في التصوف الإسلامي وتاريخه (ص ٦٦).

وقد ظهر في عهد الدولة الأمويَّة نصارى يُعلِّمون أتباعهم كيف يُجادلون المسلمين في أمور دينهم، مثل (يوحنا الدمشقي) الذي كان في خدمة الأمويين إلى عهد هشام بن عبد الملك، وأثاروا قضايا تُعدُّ نقضاً لمبادئ الدين، وكانوا يلقنون أتباعهم كيفية يجادلون المسلمين، مثل قول يوحنا: إذا سألك العربيُّ: ما تقول في المسيح؟ فقل له: كلمة الله، فإذا قال لك ذلك، فاسأله: هل كلمة الله مخلوقة أم لا؟، وأثاروا قضايا أخرى، مثل: هل الإنسان مُخيَّر أم مُسيَّر؟، وقضايا أخرى كثيرة كتعدد الزوجات، والطلاق، والمُحلِّل، واخترعوا قصة عشق النَّبيِّ ﷺ لزينب بنت جحش!.(٢٥٧)

ودلَّ على ذلك قول الجاحظ (٢٢٥هـ): "أنَّ النصراني يلبس الصُّوف حين يتنسك".(٢٥٨)

ولم يقتصر الأمر على مجرد اللباس وعهود الصمت، بل إن كثيراً من الآداب والمعارف الصوفية يمكن ردُّها إلى أصلٍ مسيحي، ولكن لا بُدَّ رابطة تؤكد صحة تلقي الصُّوفية الأوائل عن رهبان النصارى، وهو ما أثبتته المصادر الصُّوفيَّة وكتب الطبقات.

---

(٢٥٧) مالك بن أنس؛ لمحمد أبو زهرة (ص ١٢٤)، وأحمد (ص ٦٩- ٧٠).

(٢٥٨) الحيوان، عمرو بن عثمان الجاحظ، (١/ ١٠٣).

ومن ذلك ما نقله الشعراني عن سهل بن عبد الله التستري(ت ٢٨٣هـ) أنه اجتمع بالرهبان، وأخذ عنهم المعرفة والسلوك؛ فيقول إن سهلاً كان يقول: "اجتمعتُ بشخصٍ من أصحاب المسيح عليه السلام في ديار قوم عاد، فسلمتُ عليه، فردَّ عليَّ السلام، فرأيتُ عليه جُبَّةً من صوفٍ فيها طراوة، فقال لي: عليَّ من أيامِ المسيح، فتعجبتُ من ذلك!، فقال الراهب: يا سهل إن الأبدال لا تخلق الثياب (أي لا تفسدها بطول المدة)، إنما يخلقها رائحة الذنوب ومطاعم السُّحت، فقلتُ له: فكم لهذه الجبة عليك؟، فقال: لها عليَّ سبعمائة سنة!!".(٢٥٩)

يقولُ الصوفيُّ الشهير عنايت خان (ت ١٩٢٧م): "الصُّوفيَّة هي تعاليم قديمة حول الحكمة والسكينة، وتعود جذورها إلى تقاليد قديمة كانت سائدة في مصر، ولعب التصوُّف دوره في محاكاة تلك التقاليد، فسار نحوها في مملكةٍ من الهدوء والصمت... إن هدف أيَّة مدرسة أو طريقة صوفيَّة هو بلوغ ذلك الكمال، الذي بشَّر به السيد المسيح، والذي ورد حوله في الإنجيل: سوف تكونوا كاملين، كما هو أبوكم في السماء!".(٢٦٠)

(٢٥٩) الطبقات الكبرى للشعراني (١/٧٨). وشرح رجال الأنفاس الروحانية (ص ٧٦).

(٢٦٠) تعاليم المتصوفين (ص ٢٣- ٢٤).

وقد ثبت استماع الصُّوفيَّة إلى نصائح الرهبان، ودروسهم، ومواعظهم، وأخبار رياضاتهم الروحية، وإنصاتهم لهم، والثناء عليهم، وهو أمرٌ لا ينكره إلا جاهلٌ أو معاند، على أنها لم تصدر إلا عن رهبان النصارى، ونقلوا ذلك عن إبراهيم بن أدهم[٢٦١] الذي قال: تعلمت المعرفة من راهب اسمه سمعان!..

ونقلوا عن الخواص أنه أتى راهباً ببلاد الروم وتعلَّم منه الزهد والورع.. ويذكر الشعراني عن بعض أسلاف الصُّوفية محاولتهم تقرير مذهب الرهبان النصارى، وكونهم على الحقِّ والصواب من حيث عموم الرسالة.. ونحن نجد فعلاً كثيراً من أخبار رياضات الرهبان وأقوالهم في ثنايا كتب الصوفية وطبقاتهم.. بل وجاءت

(٢٦١) هو إبراهيم بن أدهم بن منصور بن يزيد بن جابر العجلي، وقيل التميمي البلخي، نزيل الشام، نعته الذهبيُّ بسيد الزُّهاد، وقال عنه ابن كثير: أحد مشاهير العُبّاد وأكابر الزُّهاد، روى عن أبيه، وأبي إسحاق السبيعي، ومنصور بن المعتمر، ومالك بن دينار، والأعمش، ومقاتل بن حيان، ورى عنه رفيقه سقيان الثوري، وشقيق البلخي، وبقية بن الوليد، ومحمد بن يوسف الفريابي، وأبو إسحاق الفزاري، وذكر أبو نُعيم وغيره أنه كان من أبناء الملوك، وأنه كان يعيش في ثراء ورغد عيش، فخرج من ذلك كله، وانصرف للزهد والعبادة والجهاد، وكان طيلة إقامته في الشام –مع أصحابه كشقيق البلخي – يعمل في الحار، وحفظ البساتين، كما ذكر أبو نُعيم وغيره، وكان سخياً جواداً كريم النفس، يقوم على خدمة إخوانه ويكرمهم، وهو قائل العبارة الشهيرة: "والله لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه من النعيم لجالدونا عليه بالسيوف"، وتوفي مرابطاً في إحدى الجزر ببحر الروم، في صائفة سنة (١٦٢هـ). انظر: الجرح والتعديل (٢/ ٨٧)، وحلية الأولياء (٧/ ٣٦٧)، وسير أعلام النبلاء (٧/ ٣٨٧)، والبداية والنهاية (١٠/ ١٣٨).

الأخبار أن الصوفيَّة الأوائل كانوا يستشيرون بعض الرهبان النصارى في أمور دينهم؛ كما يروى عن عبد الواحد بن زيد، والعتابي، وأبي سليمان الداراني.(٢٦٢)

ومن النماذج المسيحية التي سلكت سبيل التصوُّف والتقشُّف، "اوريغن" القديس، الذي يُعدُّ أحد أولياء المسيحية المنقطعين عن الدنيا وملاذها، والذي عاش في الفترة ما بين (١٨٥/٢٥٤هـ).

ويجمع لنا (ول ديورانت) في موسوعته الكبرى (قصة الحضارة) مجموعة من النماذج الصُّوفيَّة في الديانة المسيحية، فيقول: "لما أن أصبحت الكنيسة منظمة تحكم الملايين من بني الإنسان، ولم تعد كما كانت جماعة من المتعبدين الخاشعين، أخذت تنظر إلى الإنسان وما فيه من ضعف نظرة أكثر عطفاً من نظرتها السابقة، ولا ترى ضيراً من أن يستمتع الناس بملاذ الحياة الدنيا، وأن تشاركهم أحيانا في هذا الاستمتاع، غير أن أقلية من المسيحيين كانت ترى في النزول إلى هذا الدرك خيانة للمسيح، واعتزمت أن تجد مكانها في السماء عن طرق الفقر، والعفة، والصلاة، فاعتزلت العالم اعتزالا تاماً.

(٢٦٢) انظر: التصوف المنشأ والمصدر، إحسان إلهي ظهير (ص ٨٨–)، فإن فيه مزيد فائدة. وتاريخ التصوف الإسلامي، للدكتور عبد الرحمن بدوي (ص ٣٣– ٣٥).

ولربما كان مبشرو (أشوكا **Asoka**) (حوالي ٢٥٠ ق . م) قد جاءوا بنظرية البوذية، بنفس قوانينها الأخلاقية، أضف إلى ذلك أنَّ المسيحيون قد أشاروا إلى الحقيقة المطلقة عند المتصوفة (وهي الذات الإلهيَّة)، أو (**Logos**) عند النَّصارى، وهي (براهما) عند الهنود والبوذيين.. ولربما كانت المصطلحات البوذية تختلف في الظاهر عن المصطلحات المسيحية، لكننا حين نغوص إلى الأعماق بما يكفي، نجد أن التيارين يتقاطعان، أو ينبعان من المنبع ذاته!.(٢٦٣)

ولربما كان النساك الذين وجدوا في العالم قبل المسيحية أمثال سرابيس (**Serapes**) في مصر أو جماعات (الإسنيين) في بلاد اليهود قد نقلوا إلى أنطونيوس وباخوم المثل العليا للحياة الدينية الصارمة وأساليب هذه الحياة.

وكان الكثيرون من الناس يرون في الرهبنة ملاذاً من الفوضى والحرب اللذين أعقبا غارات المتبربرين، فلم يكن في الدير ولا في الصومعة الصحراوية ضرائب، أو خدمة عسكرية، أو منازعات حربية، أو كدح ممل.

ولم يكن يطلب إلى الراهب ما يطلب إلى القسيس من مراسم قبل رسامته، وكان يوقن أنه سوف يحظى بالسعادة الأبدية بعد سنين قليلة من حياة السلام.

---

(٢٦٣) انظر: التصوف البوذي والتحليل النفسي، د. ت. سوزوكي (ص ١٠٠).

ويكاد مناخ مصر أن يغري الناس بحياة الأديرة، ولهذا غصت بالبرهان النساك الفرادى والمتجمعين في الأديرة يعيشون في عزلة كما كان يعيش (أنطونيوس)، أو جماعات كما كان يعيش باخوم في تابن (Tabenne)، وأنشئت الأديرة للرجال والنساء على طول ضفتي النيل، وكان بعضها يحتوي نحو ثلاثمئة من الرهبان والراهبات.

وكان أنطونيوس (٢٥١ - ٣٥٦) أشهر النساك الفرادى، وقد أخذ ينتقل من عزلة حتى استقر به المقام على جبل القلزم القريب من شاطئ البحر الأحمر.

وعرف مكانه المعجبون به فحذوا حذوه في تعبده ونسكه، وبنوا صوامعهم في أقرب مكان منه سمح لهم به، حتى امتلأت الصحراء قبل موته بأبنائه الروحيين، وقلما كان يغتسل، وطالت حياته حتى بلغ مائة وخمساً من السنين.

وكان يليه (فيونهارا) الذي كان لا يذوق الطعام إلا مرة واحدة في الأسبوع، ولم يكن طعامه هذا أكثر من بعض أوراق الكرنب، ولم ينقطع خلال هذه المدة عن ممارسة صناعته التي اختص بها وهي صناعة السلال، ولبث ستة أشهر ينام في مستنقع، ويعرض جسمه العريان للذباب السام.

ومن الرهبان من أوفوا على الغاية في أعمال العزلة، من ذلك سرابيون (Serapion) الذي كان يعيش في كهف في قاع هاوية، لم يجرؤ على النزول إليها إلا عدد قليل من الحجاج، ولم يكن يزيد جسمه على بضعة عظام وليس عليه إلا خرقة تستر حقويه، ويغطي الشعر وجهه وكتفيه، ولا تكاد صومعته تتسع لفراشه المكون من لوح من الخشب وبعض أوراق الشجر، ومع هذا فإن هذا الرجل قد عاش من قبل بين أشراف روما.

ومن النساك من كانوا لا يرقدون قط أثناء نومهم ومنهم من كان يداوم على ذلك أربعين عاما مثل بساريون (Bessarion) أو خمسين عاما مثل (باخوم).

ومنهم من تخصصوا في الصمت وظلوا عددا كبيرا من السنين لا تنفرج شفاههم عن كلمة واحدة. ومنهم من كانوا يحملون معهم أوزانا ثقالا أينما ذهبوا. ومنهم من كانوا يشدون أعضاءهم بأطواق أو قيود أو سلاسل. ومنهم من كانوا يفخرون بعدد السنين التي لم ينظروا فيها إلى وجه امرأة. وكان النساك المنفردون جميعهم تقريبا يعيشون على قدر قليل من الطعام، ومنهم من عمروا طويلاً.

ويحدثنا (جيروم) عن رهبان لم يطعموا شيئا غير التين وخبز الشعير، ولما مرض مكاريوس جاءه بعضهم بعنب فلم تطاوعه نفسه على التمتع بهذا الترف، وبعث به

إلى ناسك آخر، وأرسله هذا إلى ثالث حتى طاف العنب جميع الصحراء (كما يؤكد لنا روفينس)، وعاد مرة أخرى كاملا إلى مكاريوس.

وكان الحجاج، الذين جاءوا من جميع أنحاء العالم المسيحي لشاهدوا رهبان الشرق ، يعزون إلى أولئك الرهبان معجزات لا تقل في غرابتها عن معجزات المسيح، فكانوا – كما يقولون – يشفون الأمراض ويطردون الشياطين باللمس أو بالنطق بكلمة، وكانوا يروضون الأفاعي أو الآساد بنظرة أو دعوة، ويعبرون النيل على ظهور التماسيح، وقد أصبحت مخلفات النساك أثمن ما تملكه الكنائس المسيحية ، ولا تزال مدخرة فيها حتى اليوم.

وكان رئيس الدير يطلب إلى الرهبان أن يطيعوه طاعة عمياء، ويمتحن الرهبان الجدد بأوامر مستحيلة التنفيذ يلقيها عليهم، وتقول إحدى القصص إن واحداً من أولئك الرؤساء أمر راهباً جديداً أن يقفز في نار مضطرمة فصدع الراهب الجديد بالأمر، فانشقت النار حتى خرج منها بسلام، وأمر راهب جديد آخر أن يغرس عصا رئيسه في الأرض ويسقيها حتى تخرج أزهراً، فلبث الراهب عدة سنين يذهب إلى نهر النيل على بعد ميلين من الدير يحمل منه الماء ليصبه على العصا، حتى رحمه الله في السنة الثالثة فأزهرت.

وقد أبت العذراء (سلفيا) أن تغسل أي جزء من جسدها عدا أصابعها، وكان في أحد الأديرة النسائية ١٣٠ راهبة لم تستحم واحدة منهن قط أو تغسل قدميها ، ولكن الرهبان أنسوا إلى الماء حوّالي آخر القرن الرابع، وسخر الأب إسكندر من هذا الانحطاط فأخذ يحن إلى تلك الأيام التي لم يكن فيها الرهبان (يغسلون وجوههم قط).

وكان الشرق الأدنى ينافس مصر في عدد رهبانها وراهباتها وعجائب فعالهم، فكانت أنطاكية وبيت المقدس خليتين مليئتين بالصوامع والرهبان والراهبات.

وكانت صحراء سوريا غاصة بالنساك، منهم من كان يشد نفسه بالسلاسل إلى صخرة ثابتة لا تتحرك كما يفعل فقراء الهنود، ومنهم من كان يحتقر هذا النوع المستقر من المساكن، فيقضي حياته في الطواف فوق الجبال يطعم العشب البري.

ويروي لنا المؤرخون أن سمعان العمودي (**Simeon Stylites**) (٣٩٠؟ – ٤٥٩) كان لا يذوق الطعام طوال الصوم الكبير الذي يدوم أربعين يوماً، قد أصر في عام من الأعوام أثناء هذا الصوم كله على أن يوضع في حظيرة وليس معه إلا القليل من الخبز والماء، وأخرج من بين الجدران في يوم عيد الفصح فوجد أنه لم يمس الخبز أو الماء.

وبني سمعان لنفسه في عام ٤٢٢ عموداً عند قلعة سمعان في شمالي سوريا وعاش فوقه، ثم رأى أن هذا اعتدال في الحياة يجلله العار فأخذ يزيد من ارتفاع العمد التي يعيش فوقها حتى جعل مسكنه الدائم فوق عمود يبلغ ارتفاعه ستين قدماً، ولم يكن محيطه في أعلاه يزيد على ثلاثة أقدام، وكان حول قمته سور يمنع القديس من السقوط على الأرض حين ينام.

وكان يلقى من منبره العالي مواعظ على الجماهير التي تحضر لمشاهدته، وكثيراً ما هدى المتبربرين، وعالج المرضى، واشترك في السياسة الكنسية، وجعل المرابين يستحون فينقصون فوائد ما يقرضون من المال إلى ستة في المائة بدل اثني عشر.

وكانت تقواه سبباً في إيجاد طريقة النسك فوق الأعمدة، وهي الطريقة التي دامت اثني عشر قرناً، ولا تزال باقية حتى اليوم بصورة دنيوية خالصة"[٢٦٤] ، ونقل ذلك عدد كبير من الباحثين الغربيين.[٢٦٥]

---

(٢٦٤) انظر: قصة الحضارة، لول ديورانت، ترجمة عربية: محمد بدران، (١٢/ ١١٩ – ١٢٣)، الإدارة الثقافية– جامعة الدول العربية، القاهرة ١٩٦٤م.

(٢٦٥) انظر: التصوف المنشأ والمصدر، إحسان إلهي ظهير (ص ٦٦– ٧٠).

ويردُّ التفتازاني ذلك بقوله: "ونحن وإن كنا لا ننكر تأثر بعض الصوفية المتفلسفين بالمسيحية، على ما نجد عند الحلاج[٢٦٦] المولود بفارس سنة (٢٤٤هـ)، والذي استخدم في تصوفه اصطلاحات مسيحية كالكلمة، واللاهوت، والناسوت، وما إليها، ولكن هذا لم يظهر إلا في وقت متأخر، أواخر القرن الثالث الهجري".[٢٦٧]

وهذه مغالطةٌ أخرى وقع فيها التفتازاني حين برر ظهور مثل هذه المصطلحات في أواخر القرن الثالث الهجري، مع أن بداية التصوف كانت في القرن الثالث الهجري نفسه، فكيف يعتبره وقتاً متأخراً؟!، بل إنه يقول: "شهد القرن الثالث بداية تكون علم التصوف بمعناه الدقيق"[٢٦٨]، هذا مع أنَّ الحلاج قُتل في ٢٦ مارس سنة (٣٠٩هـ/٩٢٢م) ما يجعل العاقل يُفكِّر في طريقة التبرير الغير منطقية عند التفتازاني!.

(٢٦٦) هو الحسين بن منصور الحلاج، سمي حلاجاً لأمرين:

١. قيل: لأنه، ومن قبله أباه، كان يعمل بصناعة (الحلج)، وهو الغزل والنسيج.

٢. وقيل: لأنه كان يخرج الأسرار والمعارف من صدور أصحابها، أي يحلجها ويظهرها ويخرجها.

انظر: التصوف الإسلامي، د. فيصل بدير عون (ص ١٦٢).

(٢٦٧) التصوف الإسلامي العربي (ص ٢٥).

(٢٦٨) المدخل إلى التصوف الإسلامي (ص ١١٢).

ومن المناسب هنا أن نذكر بعض تلك المصطلحات التي استعملها الصوفية فيما بينهم، والتي لا يشك عاقل في كونها أجنبية عن لغة الإسلام ومعانيه، ومقتبسة مأخوذة من المسيحية بألفاظها وحروفها، ومعانيها ومدلولاتها، مثل: "ناموس، رحموت، رهبوت، لاهوت، ناسوت، جبروت، الكلمة، رباني، روحاني، نفساني، جثماني، شعشعاني، وحدانية، فردانية، رهبانية، كيفوفية...".(٢٦٩)

ومع تأثر الحلاج بالروح المسيحية، إلا أنه ينتمي إلى مدرسة السكر الصوفية، فكان كثير الشبه بأبي يزيد البسطاميّ، وخاصَّة في شطحاته التي تعبر عن اندماجه في العالم الروحي، وقد أدى قتل الحلاج إلى إعراض كثير من مؤرخي التصوف وشيوخه عن التطرق إلى هذه الشخصية الصوفية البارزة، ومن تناوله منهم، أعرض عن ذكر العبارات مثار الجدل، وقد صار الحلاج علماً على وحدة الشهود، وكان ذلك أبرز ما قدمه التصوف في القرن الثالث والرابع الهجريين(٢٧٠).

لقد كان الحلاج فارسياً من مدينة البيضاء، التي خرج منها متوجهاً إلى (تستر) في الجنوب الغربي من إيران، والتقى بأبي يزيد البسطامي، ثم قصد إلى بغداد حيث حضر مجالس الجنيد، وبعدها اتجه إلى مكة واتصل بعمرو بن عثمان

---

(٢٦٩) تاريخ التصوف الإسلامي، للدكتور عبد الرحمن بدوي (ص ٣٣٣).

(٢٧٠) صفحات مكثفة من تاريخ التصوف (ص ١٤٠).

المكي (أول من وضع تأليفاً حول درجات المحبة والقرب والأنس، ت ٩٠٩هـ)، الذي كان قاضياً في الطائف، وقفل راجعاً إلى بغداد، وجعل يدعو إلى مذهب كوَّنه لنفسه، ودعا الصُّوفيَّة إلى الأخذ عنه.

وفي تلك الأثناء كانت المجاعات، والاضطرابات السياسية تتطلب كبش فداء وديع، وتُلقى على عاتقه كل هذه المصائب، وقد كان الحلاج معاصراً لبداية الدولة الفاطمية، وكان العباسيون يخشون منه على سلطتهم، خاصَّة وأن له صلة وثيقة بالقرامطة(٢٧١) (أخطر أعداء حكومة بغداد) ، بل إنه كان أحد دعاتهم الموثوقين، وقد تزامن ظهور هذه الفرقة مع محنة الإمام أحمد، وذلك سنة عشرين ومائتين.(٢٧٢)

(٢٧١) القرامطة: فرقة باطنية، تُنسب إلى رجل يُدعى حمدان قرمط، وكان أول أمره مائلاً إلى الزهد، ثم استجاب لأحد دُعاة الباطنية، والتف الأتباع حوله، حتى شكّل خطراً مُحقَّقاً على الخلافة العباسية، وأقاموا دولة لهم في البحرين (الأحساء)، واستمرت قرابة مائة عام، وفي خلالها روعوا الآمنين، وهتكوا حرمات المسلمين، ولهم صنيع وفعلٌ قبيحٌ في الحرم، وهم زنادقة ملحدون، لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ولا يُحلُّون حلالاً، ولا يُحرِّمون حراماً، وهدفهم إبطال الشرائع، ونشر الإلحاد، وهم في غاية الخبث والمكر، ويلبسون على العوام حتى يوقعوهم في شراكهم، كما ذكر ابن الجوزي في كتابه القرامطة (ص ٥١). انظر: فضائح الباطنية؛ لأبي حامد الغزالي (ص ٢٢)، والفرق بين الفرق (ص ٢٩٨).

(٢٧٢) انظر: شرح حديث النزول (ص ٤٣٦).

يقول الدكتور عبد الحليم محمود: "وكان الحلاج ككل صوفيّ، يُحبُّ آل البيت عليهم السلام، وكان آل البيت إذ ذاك يطمحون في أن تكون الدولة له، وكان الحلاج دعايةً قويَّةً لهم، تسير في كُلِّ مكان، وتتجه إلى كُلِّ بلد!، وكان الواجب على بني العباس أن يحافظوا على أمن دولتهم، واستقرارها، فنكَّلوا بالحلاج ..!".(٢٧٣)

وكان مما قيل في سبب إعدامه أنه أرسل رسالة إلى أنصاره في إيران، يقول فيها: "وقد آن الآن أذانك للدولة الغرّاء الفاطمية، الزهراء المحفوفة بأهل الأرض والسماء، وأُذِنَ للفئة الظاهرة بالخروج إلى خراسان، ليكشف الحق قناعه، ويبسط العدل باعه"، فقبض عليه سنة (٣٠١هـ/ ٩١٠م)، وعُلِّق على أحد أبواب بغداد في الكرخ، ثم الرصافة، باعتباره من دعاة القرامطة، ثم أعيد القبض عليه بعد ذلك بثماني سنين، وحكم عليه بالإعدام، وقطعت يداه ورجلاه، ثُمَّ ذُبح، وأُحرق، وذُرّي رماده في دجلة، وسبق كل هذا ضربه ألف سوط.(٢٧٤)

ومما يُنسب إلى الحلاج، أنَّه تمنَّى أن يموت على النصرانيَّة، ورفض لأجل ذلك الموت بمكة أو المدينة؛ ولذلك قال:

---

(٢٧٣) قضية التصوف، المدرسة الشاذلية (ص ٢٥٨).

(٢٧٤) صفحات مكثفة من تاريخ التصوف (ص ١٤٠).

ففي دين الصليب يكون موتي   ولا البطحاء أريد ولا المدينة.[٢٧٥]

ويؤكد ذلك الدكتور عبد القادر محمود حيث يقول: "والحلاج في واقع مذهبه، ينتمي لمذهب الخلاص المسيحي، الذي يؤكد أنَّه لا سعادة إلا في خلاص الرُّوح من حجابه، وهو الجسد، ولهذا سعى لتحطيم هذا الحجاب، وكل الحجب الأخرى من الشعائر والعبادات، التي تقف حاجزاً بينه وبين المعرفة المطلقة".[٢٧٦]

والخلاصة التي نخرج منها، هي أنَّ النصرانية المحرفة تُعدُّ من أهم مصادر التصوُّف؛ ويظهر ذلك جلياً في المتصوفة على الخلوات المظلمة، والنفور عن الناس، والعزوف عن الزواج، وتطهير الروح عن طريق تعذيب الجسد، ولبس الصوف الخشن، وتجويع النفس لتزكيتها، والسياحة في البلدان.

(٢٧٥) أخبار الحلاج (ص ٨٢).

(٢٧٦) الفلسفة الصوفية في الإسلام، عبد القادر محمود (ص ٣٥٥).

٣. المصدر اليهودي للتصوُّف:

لا يمكن بحالٍ من الأحوال تجاهل أبناء الديانات القديمة، وبالأخص اليهوديَّة، التي كانت تتمتع بعلاقات ممتازة مع الطوائف الشيعية (الرحم الأول للتصوُّف)، من أيام عبد الله بن سبأ، وحتَّى ابن نصير (صاحب الطائفة النصيرية[٢٧٧])، مروراً بموسى بن أشيم، الذين كانوا بأجمعهم يهوداً، ومعتنقين للباطنيَّة اليهوديَّة، بحسب كتاب (بحار الأنوار) [٢٧٨].

وقد تساءل بعض العلماء الأوربيين عن أصل الشيعة، وفيها مبادئ لا شك أن بعضها دخيلٌ في الإسلام، فقد ذهب الأستاذ (ولهوسن) إلى أن العقيدة الشيعية

---

(٢٧٧) النصيرية: فرقة باطنية، اختلف في نسبتها، والأقرب أنها تُنسب إلى محمد بن نصير النميري، أحد أصحاب الحسن العسكري الإمام الحادي عشر عند الشيعة الاثني عشرية، وتقوم عقيدتها على تأليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه، واستحلال المحرمات، والقول بتناسخ الأرواح، وإنكار البعث والنشور، وتقديس عبد الرحمن بن ملجم قاتل علي رضي الله عنه؛ لأنه كما يقولون: خلَّص اللاهوت من الناسوت، وهم وسائر الفرق الباطنية أكفر من اليهود والنصارى وكثير من المشركين، وقد كان النصيرية –كسائر فرق الباطنية– عوناً لأعداء الإسلام من التتار والصليبيين، والمستعمرين ضد المسلمين. انظر: الملل والنحل (١/ ٢٢٠)، والفصل لابن حزم (٤/ ١٨٨)، ومجموع الفتاوى (٣٥/ ١٤٥).

(٢٧٨) الفلسفة الصوفية في الإسلام، عبد القادر محمود (ص ٣٥٥).

نبعت من اليهودية أكثر من الفارسية، مستدلاً بأن مؤسسها عبد الله بن سبأ، وهو يهودي!.[٢٧٩]

ويقول (فان فولتن): قد ثبت بالفعل أن مذاهب الشيعة كانت مباءةً للعقائد الآسيوية القديمة، كالبوذية، والمانوية وغيرهما[٢٨٠].

وكان عبد الله بن سبأ اليهودي (من يهود الحيرة) من أشد الدعاة ضد عثمان ﷺ، هو أول من دعا إلى الغلو في عليٍ بن أبي طالب، وآل بيته الكرام، فأخذ ينشر بين الناس أنه وجد في التوراة أن لكلِ نبيٍ وصياً، وأن علياً وصيُّ مُحمَّد، وقال برجعة مُحمَّدٍ إلى الدُّنيا، ويقول: عجبتُ لمن يقول برجعة عيسى، ولا يقول برجعة مُحمَّد!! واستدل على ذلك بقوله تعالى: (إنَّ الذي فرض عليك القُرآن لرادُّكَ إلى معاد)، ثُمَّ تدرج من هذا الحكم إلى القول بألوهيَّة علي ﷺ، ولقد همَّ عليٌّ بقتله لما بلغه ذلك، ولكن نهاه عبد الله بن عباس، وقال: إن قتلته اختلف عليك أصحابك، وأنت عازمٌ على العود لقتال أهل الشام، فنفاه إلى ساباط المدائن.

---

(٢٧٩) الإمام الشافعي، لمحمد أبو زهرة (ص ٩٥).

(٢٨٠) الإمام الشافعي، لمحمد أبو زهرة (ص ٩٥)، نقلاً عن فجر الإسلام، للأستاذ أحمد أمين.

ولما قُتل رضي الله عنه، استغل ابن سبأ محبة الناس لعليٍّ بن أبي طالب، وأخذ ينشر الأكاذيب التي تجود بها مخيلته إضلالاً للناس، وإفساداً، فصار يذكر أن المقتول لم يكن علياً وإنما كان شيطاناً تصوَّر للناس في صورته، وأن عليَّاً صعد إلى السماء كما صعد إليها عيسى بن مريم، وقال: كما كذبت اليهود والنصارى في دعواهما قتل عيسى، كذلك كذبت الخوارج في دعواهم قتل علي، وإنما رأى اليهود والنصارى شخصاً مصلوباً شبهوه بعيسى، كذلك القائلون بقتل عليّ رأوا قتيلاً يُشبه علياً، فظنوا أنه علي، وقد صعد إلى السماء، وإن الرعد صوته، والبرق تبسمه، ومن سمع من السبئيين صوت الرعد، يقول: السلام عليك يا أمير المؤمنين! وقد روى عمر بن شرحبيل أن ابن سبأ قيل له: إن علياً قد قُتل! فقال: "إن جئتمونا بدماغه في صرة لم نُصدِّق بموته، لا يموت حتى ينزل من السماء، ويملك الأرض بحذافيرها!!"[٢٨١] .

وقد أراد ابن سبأ بذلك تفريق هذه الأمة وإفساد دينها ودنياها عليها، كما فعل أمثاله في النصرانيَّة قديماً وحديثاً، وسبب ذلك ما كان من العداوة والقتال بين قومه اليهود وبين النَّبيِّ ﷺ، وقد أظهره الله عليهم، وأخرجهم من جواره في مدينته

(٢٨١) الإمام الشافعي، لمحمد أبو زهرة (ص ٩٧)، نقلاً عن الفرق بين الفرق، للبغدادي.

ودار هجرته، ثم أجلاهم عمر بن الخطاب إلى أرض الشام، فكتم قومه العداوة، وأظهروا الإسلام!.[٢٨٢]

وخلف هؤلاء السبئيين قومٌ من زنادقة الفرس في إدارة الفرقة بين المسلمين باسم التشيُّع[٢٨٣] والغلو في علي وأولاده وأحفاده الطاهرين، وذلك بعد أن تمكن الخليفتين الجليلين أبا بكر وعمر رضي الله عنهما من محاربة الفرس، وفتح بلادهم، فملكوا عرش كسرى، وقضوا على ديانتهم المجوسيَّة، فأوجع ذلك قلوب أمرائهم وزعمائهم من رجال الدين والدنيا، وليس لذي العجز عن الثأر بالقوة الحربية، إلا المكايد السريَّة، فتولّى مهرة رجال الفرس أمرها، وكانوا أجدر بها وأهلها، فمنهم من سعى لإفساد دين العرب الذين انتصروا بتعاليمه، وجمعه لكلمتهم على الفرس وغيرهم. ومنهم من تولى السعي للإفساد السياسي بتحويل الخلافة إلى العلويين،

---

(٢٨٢) السنة والشيعة، لمحمد رشيد رضا (ص ٤– ٥).

(٢٨٣) التشيع: يُقال: تشيع الرجل إذا قال بقول الشيعة، والشيعة: هم الذين شايعوا علياً رضي الله عنه، وفضلوه على أبي بكر وعمر، ومنهم من قال: إنه الإمام بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنص الجلي والخفي، واعتقدوا أن الإمامة لا تخرج عن ولده، وإن خرجت فبظلم، أو تقية منه، أو من أولاده، ويقولون: إن الإمامة من أصول الدين، وإن الأئمة معصومون، وهم فرق كثيرةٌ جداً، وأصول ثلاث: غلاة، وزيدية، وإمامية. انظر: مختار الصحاح (٣٥٣)، والملل والنحل (١/ ١٤٦)، والتبصرة في أصول الدين (ص ١٦).

ولما لم يجدوا منهم –لزهدهم في الدنيا –من يواتيهم على كل عمل، ولو غير مشروعٍ في الدين، حولوها إلى العباسيين!.

ثم صاروا يكيدون للعباسيين بما كان أغرب طرقهم فيه ما قام به البرامكة من جعل جميع إدارة ملك الرشيد وسياساته في أيديهم، حتّى تنبَّه لذلك، فبطش بهم بطشته الكبرى، فكان أذكى من فطن لدسائس البرامكة وإلحاد الشيعة الباطنية، ووقف على دقائقه الإمام القاضي أبو بكر بن العربي الأندلسي كما نوه به في رحلته وفي كتابه (العواصم والقواصم)، ويليه حكيم الإسلام ابن خلدون، فقد أشار إليها في مقدمة تاريخه.[٢٨٤]

ومن أوثق ما يصل الصُّوفيَّة باليهودية المحرفة هي ظاهرة طقوس العبادة (الرقص)، والغلو في التقشُّف، وتحريف الكلام عن مواضعه، ولقد عنون صاحب كتاب (هذه هي الصُّوفيَّة) عنواناً في وسط كتابه؛ قال فيه: "ذكر الصُّوفيَّة بدعة يهوديَّة"، ثُمَّ قال: "جاء في التوراة المُحرَّفة في المزمور التاسع والأربعين بعد المائة، نصٌّ يدعو إلى عبادة الله بالرقص، والدُّف والغناء، جاء فيه: "ليبتهج بنو صهيون بملكهم، ليسبحوا اسمه، برقصٍ بدُفٍّ، وعودٍ، ليرغُوا.. هلِّلوا يا سبحوا الله في قدسه، سبحوه بربابٍ، وعودٍ، سبِّحوهُ بدُفٍّ ورقصٍ، سبحوه بأوتارٍ ومزمارٍ، سبحوه

(٢٨٤) السنة والشيعة، لمحمد رشيد رضا (ص ٦– ٧).

بوضوح الهتاف". ثُمَّ قال المؤلف: "وهكذا يذكر الصُّوفيَّة، وحسبكَ أن ترى حانة صوفيَّةٍ يذكرون بها؛ لتشهد الصلة الوثيقة بين الذكر الصُّوفي، والبدعة الجاهلية اليهودية.."[٢٨٥].

ومن نقاط الالتقاء بين اليهود والصُّوفيَّة، مبدأ تقديس الشيوخ عند الصُّوفيَّة، وتقديم كلامهم على نصوص الشريعة، وإلزام المريد بقبول كل ما يفعله الشيخ وما يصدر عنه، وكل ذلك له جذوره اليهوديَّة، والمتمثلة في تقديس اليهود لأحبارهم تقديساً زائداً، حتى وصلوا بهم إلى مرتبة الأرباب، فيحللون لهم ما شاءوا، ويحرمون عليهم ما شاءوا، مصداقاً لقوله ﷻ:﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (التوبة: ٣١).

ولا شكَّ أن اليهودية والنصرانية دينان أُنزلا من عند الله بالتوحيد الخالص، ومن ثمَّ تحولا على يد أتباعهما إلى ديانتي شرك بالله تعالى، حيث عبدوا مع الله غيره، وحرَّفوا كتب الله، وأدخلوا فيه ما ليس منه، وكتموا ما أنزل الله على أنبيائه، وسرى في الديانتين فهمٌ مغلوط لاصطفاء بني إسرائيل؛ فقالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه! ورسخت فكرة "شعب الله المختار" في أذهان اليهود، وانتقل ذلك إلى

(٢٨٥) تاريخ العلويين في بلاد الشام؛ لإميل عباس آل معروف (ص ٩).

البروتستانتية النصرانية الذين يعتقدون أنهم شيءٌ خاص؛ وصارت ديناً متوارثاً بين الطوائف المنحرفة، الأمر الذي نجده في بعض غلاة المتصوفة أيضاً، والمتمثلة في عقيدة "الإنسان الإلهي".

قال أبو بكر الطرطوشي المالكي: "مذهبُ الصُّوفيَّة بطالةٌ وجهالة وضلالة، وما الإسلام إلا كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ، وأما الرقص والتواجد، فأول من أحدثه أصحاب السَّامريّ لما اتخذ لهم عجلاً، جسداً، له خوار، قاموا يرقصون حواليه، ويتواجدون؛ فهو دين الكفار، وعباد العجل.." إلى أن قال:

"فينبغي للسلطان ونوابه أن يمنعهم من الحضور في المساجد وغيرها، ولا يحلُّ لأحدٍ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يحضر معهم، ولا يُعينهم على باطلهم، هذا مذهب مالك، وأبي حنيفة، والشَّافعيُّ، وأحمد بن حنبل، وغيرهم من أئمَّة المسلمين".[٢٨٦]

---

(٢٨٦) الجامع لأحكام القرآن، أبو العباس القرطبي (١١/ ٢٣٧ – ٢٣٨). وانظر: كشف الرعاع عن محرمات اللهو والسماع، مطبوع بهامش الزواجر لابن حجر (١/ ٥٢).

ويقولُ شيخ الإسلام ابن تيمية: "فمن اتخذ نظير هذا السَّماع عبادةً وقُربةً يتقرَّبُ بها إلى الله، فقد ضاهى هؤلاء في بعض أمورهم"[٢٨٧]، أي: أنهم يتشبهون بالمشركين الذين اتخذوا المكاء والتصدية عبادة.

هذا مع قول أبي علي الروذباري، وقد سُئل عمَّن يسمع الملاهي، ويقول: هي لي حلالٌ لأنِّي قد وصلتُ إلى درجةٍ لا يؤثِّرُ فيَّ اختلافُ الأحوال، فقال: نعم، ولكن إلى سقر![٢٨٨].

وقال العز بن عبد السلام رحمه الله تعالى: "وأما الرقصُ والتصفيقُ، فخفَّةٌ ورعونة، مُشْبِهَةٌ لرعونة الإناث، لا يفعلها إلا راعنٌ أو مُتصنّعٌ كذَّاب!".[٢٨٩]

وقال الإمام القرطبي (ت ٦٧١ هـ): "وأما ما أبتدعه الصوفية في ذلك فمن قبيل ما لا يختلف في تحريمه، لكن النفوس الشهوانية غلبت على كثيرٍ ممن ينسب نفسه إلى الخير، حتى لقد ظهرت في كثيرٍ منهم فعلات المجانين والصبيان، حتى رقصوا بحركات متطابقة وتقطيعات متلاحقة، وانتهى التواقع بقوم منهم إلى أن

---

(٢٨٧) مجموع الفتاوي، لابن تيمية (٣/ ٣٥٩).

(٢٨٨) الاعتصام؛ للشاطبي (ص: ٧٠).

(٢٨٩) قواعد الأحكام؛ للعز بن عبد السلام (٢/ ٢٢٠).

جعلوها من باب القرب وصالح الأعمال، وأن ذلك يثمر سني الأحوال، وهذا على التحقيق من آثار الزندقة، وقول أهل المخرقة والله تعالى المستعان!".[٢٩٠]

وهو قول الإمام ابن الصلاح (ت ٦٤٣ هـ)، والإمام الشاطبي، وغيرهما من أئمة الإسلام وأعلام الهدى.[٢٩١]

وكذلك، تحريف الصُّوفية لكلام الله وشرعه ودينه، فيجعلون لله في كتابه خطابين: خطابٌ ظاهرٌ للعوام، وخطابٌ باطن لا يفهمه إلا المصطفون من عباده (أي: المتصوفة)، وهو عين ما قالته اليهود في توراتهم المحرفة، وكان ذلك ذريعةً لهم للانسلاخ عن ركائز التوحيد وأصول الشريعة !.[٢٩٢]

يقول الباحث محمد لطفي جمعة: "وكان بين طوائف اليهود طائفة تُشبه الصُّوفيَّة عند المسلمين، وهم اللذين نبغوا من الفريسيين، وكان مذهبهم القول بالمبادئ والآداب، وأفعاله؛ كالزهد، والعفة، والتقشف، والتقوى. ونبغت طائفة أخرى، وهي (الصدوقية)، لكنَّها شطَّت وجمحت في نظرية الاختيار الإنساني،

---

(٢٩٠) انظر: الجامع لأحكام القرآن (١١/ ٢٧٠).

(٢٩١) انظر فتاوى ابن الصلاح (٣٠٠ – ٣٠١)، ابن القيم في إغاثة اللهفان (٢٢٨/١). وانظر: تحريم آلات الطرب للألباني (ص: ١٧٠)

(٢٩٢) انظر: التصوف والمتصوفة في مواجهة الإسلام، عبد الكريم الخطيب (٢٨٥).

وانبثقت عنها طائفة (الأسينية)، تقوم على احتقار الغنى، والتغلب على هوى النفس".(٢٩٣)

ولا شكَّ أن هذه اليهوديَّة الصُّوفيَّة مقتبسة من التشيُّع المُغالي، الذي يقول فيه الأستاذ (ولهوسن): إنَّ العقيدة الشيعية نبعت من اليهوديَّة، أكثر مما نبعت من الفارسيَّة، لأنَّ مؤسس مذهب التشيُّع، هو عبد الله بن سبأ، وهو يهودي!.(٢٩٤)

ويرى الأستاذ (دوزي) إلى أنَّ أصل التشيُّع فارسي بحت، فالعرب تدين بالحرية، والفرس يدينون بتوارث الملك، وبالنظرة الإلهيَّة للملك، ولا يعرفون معنى لانتخاب خليفة، وقد مات مُحمَّدٌ ﷺ ولم يترك له ولداً، فأولى النَّاس بعده ابن عمِّه عليُّ بن أبي طالب!.

بينما يرى (فان فلوتن) أنَّه قد ثبت بالفعل أنَّ من مذاهب الشيعة ما كان مباءةً للعقائد الآسيويَّة القديمة، كالبوذيَّة، والمانويَّة، واليهوديَّة، وغيرها.(٢٩٥)

(٢٩٣) تاريخ فلاسفة الإسلام، (ص ١٠).

(٢٩٤) الفرق بن الفرق، عبد القاهر البغدادي (ص ١٤٣).

(٢٩٥) أبو حنيفة: حياته، وآراؤه، للشيخ محمد أبو زهرة، (ص ١٢٦).

والحقُّ الذي لا مرية فيه أنَّ الصُّوفيَّة هي ربيبة التشيُّع المصبوغ بمسحة من اليهودية، والفارسيَّة، والهنديَّة، والمسيحية، ففيه من مذاهب الهنود قضية تناسخ الأرواح التي حُوِّرت إلى قضيَّة الخلافة الرُّوحيَّة، التي تنقل الحقيقة من الشيخ إلى خليفته بالتوارث، وأخذوا من البرهميَّة والمسيحية القديمة مبدأ حلول الإله في الإنسان، وأخذوا من اليهوديَّة أشياء كثيرة جداً.

وقد سار هؤلاء المتصوفة سير اليهود في اعتقادهم بأن الخضر(٢٩٦)، وإلياس، وفنحاس بن العازر بن هارون عليهم السلام، أحياءٌ إلى الآن، وادَّعى بعضهم أنه يلقى إلياس في الفلوات، والخضر في المروج والرياحين، وأنَّه متى ذُكِرَ حضرَ على ذكره(٢٩٧).

يقول الشيخ محمد أبو زهرة مُتحدثاً عن التشيُّع بصبغته اليهودية: "والحق الذي لا مرية فيه أن الشيعة كانت مع تقديسها لآل البيت، كان بعضها مستراداً لكثير من الديانات الأسيوية القديمة، ففيها من المذاهب الهندية مبدأ التناسخ

(٢٩٦) هو: تاليا بن ملكان بن عابر بن أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام، وكنيته أبو محمد، أو أبو عباس، وقد اشتهر بلقب أبي محمد عند العوام، وأما ألقابه: "الخضر"، و"العالم"، و"العبد الصالح"، وأشهرها: الخضر. انظر: مجلس الخضر (ص ٩)، نقلاً عن سفينة البحار (١/ ٢٨٩).

(٢٩٧) أبو حنيفة: حياته، وآراؤه، للشيخ محمد أبو زهرة، (ص ١٢٦- ١٢٧).

(الذي يقول بانتقال الروح من إنسان إلى إنسان غيره)، وقالوا: إن روح الإمام تنتقل إلى الذي يليه، وأخذوا عن البرهمية القديمة، والمسيحية مبدأ حلول الله في الإنسان، وأخذوا من اليهودية شيئاً كثيراً.

وقال في ذلك ابن حزم (أعني عقيدة رجوع الأئمة مأخوذة من اليهودية): سار هؤلاء في سبيل اليهود القائلين إن إلياس عليه السلام، وفنحاس بن العازار بن هارون عليه السلام أحياء إلى اليوم، وسلك في هذا السبيل بعض الصوفية، فزعموا أنَّ الخضر وإلياس حيَّان إلى الآن، وادَّعى بعضهم أنه يلقى إلياس في الفلوات، والخضر في المروج والرياحين، وأنَّه متى ذُكِرَ حضرَ على ذكره (٢٩٨).

وتابعهم في ذلك الشيعة الإمامية، كما جاء في رواياتهم الكثيرة في "سفينة البحار" وغيره، والتي تدل على أن أربعة من الأنبياء أحياء: اثنان في السماء عيسى وإدريس، واثنان في الأرض: الخضر وإلياس، فأما الخضر فإنه في البحر، وأما صاحبه إلياس ففي البر! (٢٩٩) .

---

(٢٩٨) الشافعي: حياته، وآراؤه، للشيخ محمد أبو زهرة، (ص ٩٦– ٩٧).

(٢٩٩) بحار الأنوار (١٣/ ٤٠٢).

وسبب طول حياة الخضر كما يعتقد الصُّوفيون والشيعة هو أنه شرب من ماء (أو عين الحياة) التي في مطلع الشمس، ومن شرب من ماء الحياة لم يمت أبداً!(٣٠٠).

وقيل: لأن آدم عليه السلام دعا له بالحياة، فهو حيٌّ لا يموت، حتى يُنفخ في الصُّور، وإنه يحضر المواسم في كل سنة عند الشيعة، ويحضر الموالد عند الصُّوفية، ويقف بعرفة، ويؤنس الله به وحشة الإمام المهدي عند الشيعة، كذلك يؤنس وحشة الشيوخ في خلواتهم، وأنه من الموالين لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عند الشيعة، وهو من أنصار الفرقتين كما تعتقد كل واحدةٍ منهما ! (٣٠١).

وبنفس الطريقة التي يُلقِّن الصُّوفية والشِّيعةُ أتباعهم نقلاً عن اليهود، يسوقون قصصاً في نبذ المرأة وطرحها، واعتبارها سبباً للخطيئة والبعد عن الله،

---

(٣٠٠) ويذكر الشيعة كما الصُّوفية: أن لخضر شرب من هذه العين وهو في زمن ذو القرنين، لما كان خارجاً معه، فدخل في موضع ظُلمةٍ لا يراه فيها أحد، وسلكوا في تلك الظلمة أربعين يوماً، وأربعين ليلة، وأنه ألقى خرزة حمراء كانت بيده فوقعت في قعير عين الحياة، قال: فنزل إليها، وإذا ماؤها أشدُّ بياضاً من اللبن، وأصفى من الياقوت، وأحلى من العسل، فشرب منه، وخلع ثيابه، فاغتسل منها، ثم لبس ثيابه. انظر: مجلس الخضر، للكاتبة الشيعية فاطمة الجعفر (ص ٢١- ٢٩).

(٣٠١) مجلس الخضر (ص ١٤- ٢٠، ٣٩) نقلاً عن منتخب الأثر (ص ٢٧٧)، وإكمال الدين (ص ٣١٧)، وأصول الكافي (٢/ ٦١) وكنز الفوائد (ص ٢٤٨).

وينقلون مثل ذلك عن الخضر عليه السلام، جاء في "بحار الأنوار": أن والد الخضر "ملكان" زوَّج ابنه "الخضر" بامرأةٍ، فمكثت عنده مُدَّةً لم يقربها، فبعث إليها والده يسألها: هل حملتِ؟ فقالت: إن ابنك ما كشف لي عن ثوب! فأمر بردِّها إلى أهلها، وغضب على ابنه، وأغلق عليه الباب، ووضع عليه الحرس، فمكث ثلاثاً، ثُمَّ فتح عنه، فلم يجد في البيت أحداً!! (٣٠٢).

وهكذا نرى الصُّوفيَّة خليطٌ من الأهواء والملل والنحل القديمة، دخلت على المسلمين؛ لإفساد الإسلام، أو تحت أثير التربية والإِلْف، فدخلوا في الإسلام، ولم يستطيعوا نزع القديم.

---

(٣٠٢) بحار الأنوار (١٣/ ٢٠٢- ٢٠٣).

٤. المصدر الهنديّ (البوذي) للتصوف :

وذهب بعض الباحثين إلى أنَّ مصدر التصوُّف هو أديان الهند الوثنية (البوذية)، وأنَّ التصوُّف هو الشكل الإسلامي لفلسفة الفيدانتا(٣٠٣)، أو اليوغا (رياضة النفس)، مع أنَّ هذه الفلسفات تُمثِّل الانتصار المؤزر على توحيد الإله في الإسلام، وتقرر الشعور بالوحدة الشاملة مع كل شيء بما فيه الإله الحق، والظاهر أنَّ هذه الديانات تلتقي مع الصوفيَّةُ في أنَّ تعذيب الجسد هي الوسيلة الوحيدة إلى تطهير الروح، وظهور الإشراق الإلهي.

بالإضافة إلى التشابه الواضح في عقيدة التناسخ، والتقاء الأرواح، وإلغاء التمايز ومحو الإشارة.

ومن أصحاب هذا الرأي: ماركس هورتين (**Marx Horten**)، وريتشارد هارتمان (**Richard Hartman**)، الذين كانت لهم أسانيدهم القوية في ذلك، والتي منها التشابه الشديد بين الرهبان البوذيين وبين المتصوفة، بالإضافة إلى أن نظرية (الفناء الرُّوحي) المشهورة "**pantheism**" التي دخلت

(٣٠٣) فيدانيت: كتاب يتحدث عن الفلسفة الهندوكية في وحدة الوجود، ويجمع الآلهة في إله واحد.

في نظام التصوُّف تحت تأثير هندي بوذي، والتي أشاعها أبو يزيد البسطامي عن شيخه أبي عليٍّ السندي، الذي تعلم منه الطريقة الهندية في مراقبة الأنفاس، مع كون الأخير حديث عهد بالإسلام، وكذلك تأثر نظام الذكر الصُّوفي ببعض طرائق الهنود.(٣٠٤)

وقد سبق هؤلاء المستشرقين، والقائلين بهذا الرأي من الباحثين، البيروني، حيث قارن بين العقائد الهندية، وعقائد الصُّوفيَّة، في كتابه المشهور: (تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة)، وتوصل البيروني (=وهو أحد دارسي الحضارة الهندية) إلى أنَّ أوجه الشبه بين العقيدتين تتلخص في ثلاث نقاط؛ وهي: الأرواح، وطريق الخلاص، وإلغاء التمايز، ومحو الإشارة.(٣٠٥)

وقد لاحظ البيروني أيضاً وجود تشابه شديد بين أقوال الصُّوفيَّة كالبسطاميّ، والحلاج، والشبلي الذي خفَّ عقله، وبين نصوص كتاب "بينتجل"، وهو الأمر الذي أيده جماعة من المستشرقين مثل: إدوارد براون، ونيكلسون(٣٠٦)، وحتَّى الصُّوفيون أنفسهم يقرُّون بذلك.

---

(٣٠٤) التصوف، لماسينون (ص ٤٩).

(٣٠٥) انظر: التصوف: المنشأ والمصدر، إحسان إلهي ظهير (ص ١٠٣)، وما بعدها.

(٣٠٦) انظر: أضواء على التصوف (ص ٧٣)

يقول البيروني بهذا الصدد: "وإلى بينتجل ذهبت الصُّوفيَّة في الاشتغال بالحق"، ثُمَّ ذكر أمثلةً من أقوال المتصوفة تؤيد ذلك، منها: "ما دُمتَ تُشير فلست بموحد، حتى يستولي الحقُّ على إشارتك، بإخفائها عنك، فلا يبقى مُشيرٌ ولا إشارة"، وبيَّن اتفاقهم في القول بالاتحاد، كجواب أحدهم عن الحقَّ!، "وكيف لا أتحقَّق من هو أنا الإِنِّيَّة، ولا أينيَّة، إن عُدتَ بالعودةِ فَرَّقتَ، وإن أهملتَ فبالإهمالِ حقَّقتَ، وبالاتِّحادِ أَلِّفتَ!؟"، وقول البسطاميّ، حينما سُئل: بِمَ نلتَ ما نلتَ؛ فقال: "إنِّي انسلختُ من نفسي، كما تنسلخ الحيَّةُ من جلدها، ثُمَّ نظرتُ إلى ذاتي، فإذا أنا هو!"(٣٠٧)، ومما سبق نجد أنَّ هناك تطابقاً بين الحلول الصُّوفي، و"النرفانا" الهندية التي من جملة معانيها الاتحاد والحلول.

يقول ول ديورانت (W. Deuorant):"وإذا بحثنا عن خطر نظرية أخذها الصُّوفيَّة من الهنود، وجدنا نظرية وحدة الوجود، إنها أساس وجوهر "الفيدا"، فالإله "براجاتي"، هو خالقٌ وخلق، والعالم فيها ينشأ من العدم، وإنما أجزاؤه أبعاض الإله"(٣٠٨). ويقول الدكتور عبد القادر محمود: "ويبدو أن نظرية وحدة الوجود (الصُّوفيَّة)، واضحة من كتاب "أوبانشباد" على الأخص، حيث يُعبِّرُ أنَّ الله والنفس

(٣٠٧) تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، أبو الريحان البيروني (ص ٤٣).

(٣٠٨) قصة الحضارة، ول ديورانت، ترجمة زكي نجيب محفوظ، (٣/ ٨٤).

الإنسانية شيءٌ واحد، فإن خُيِّل للإنسان أنهما شيئان مختلفان، فما ذاك إلا لأنَّ إدراكه، أضيق من أن يرى اتحادهما!".[٣٠٩]

وقد قرَّر نيكلسون أن البوذيَّة –قبل الفتح الإسلامي للهند في القرن الرابع عشر– كانت لها تأثيرها على التصوُّف الإسلامي، لأنَّ التعاليم البوذية قد شاعت في بلاد الفرس في العصر الجاهلي، كما وجد بعض المعابد البوذية في بلخ إحدى مدن خراسان القديمة، وهي مدينة اشتهرت بعدد من الصوفية، وقد اتخذوها مقاماً لهم" .[٣١٠]

ولا ننسى أن نقطة الالتقاء الظاهرة بين متصوفة المسلمين وصوفيَّة البوذيين، هي طرق التعذيب النفسي، بالسهر والجوع والعري، وهي الطريقة ذاتها التي تمثله الطائفة "الجينية"، و"البرهمية" الهندية، التي تهتم بتطهير الروح، وإطلاقها من وثاق الجسد، وجميع هؤلاء يسعون إلى إفناء الصفات البشرية، وطمس الغرائز الطبيعية، للالتحاق بالعالم الرُّوحي والفناء فيه، وهذا سببٌ رئيس أدى بهم للانزواء والانعزال الكامل عن الحياة والانقطاع عنها..".[٣١١]

(٣٠٩) الفلسفة الصوفية في الإسلام، د. عبد القادر محمود (ص ١١).
(٣١٠) الصوفية في الإسلام، لنيكلسون، ترجمة نور الدين شريبة، (ص ٢١).
(٣١١) فلسفة الحياة الروحية، (ص ٨٧).

كذلك فإن هناك كتاباً تُرجم إلى اللغة العربية باسم (فلسفة راجايوجا) فيه فصلٌ خاص لمقارنة الفلسفة الهندية بالفلسفة الصوفية، بالإضافة إلى طرق الأذكار والأوراد والمجاهدات والرياضات الرُّوحيَّة التي نقلها عن كبار أولياء الصوفية.[٣١٢]

ولكن تأثر المسلمين بالفلسفة الهندية نجده ضئيلاً بالنسبة إلى تأثرهم بالفلسفة اليونانية، ولا نعني بذلك أنه لم يكن للهنود أي أثر في نشأة التصوُّف وتطوره، ولكنه كان عديم الأهمية؛ لأنه جاء في وقت متأخر على نشأة التصوُّف .[٣١٣]

وما استعمال المسابح في الصلوات، وتشييد المقامات إلا مقتبساً عن (البوذية الهندية)، ويرى بعض الباحثين أن قصة إبراهيم بن الأدهم (ت١٦٠هـ/٧٧٧م) الذي قيل إنه ترك العرش والإمارة، وصار صوفياً بناءً على نوازع نفسية وإلهامات من عالم الروح فيما قيل، هي ذاتها قصة (بوذا) (ت ٤٧٨ ق. م) بحذافيرها، ولكنها منقولة، وهي حالة غريبة من الزهد الطارئ يمكن أن نسميها (الزهد المفاجئ)، بالإضافة إلى أن ابن الأدهم، وشقيق البلخي (ت ١٧٤ هـ/ ٨٠٩م) عاشا في بلخ (عاصمة خراسان= وهي العاصمة الرُّوحيَّة للبوذيين)، وأنهما كانا على

(٣١٢) انظر: التصوف: المنشأ والمصدر، إحسان إلهي ظهير (ص ١١٣).

(٣١٣) التصوف الإسلامي العربي، عبد اللطيف الطيباوي (ص ١٠).

اتصال بالبوذية، ويذكر أنه كان في بلخ أقلية بوذية اعترف لها الإسلام بحقوق أهل الذمة، وهي معاملة تتضمن الاعتراف بهذا الدين.(٣١٤)

يقول الباحث الإيراني الدكتور قاسم غني: وإذا ما قارن أحدٌ بين قصة بوذا كما وردت في مدونات البوذيين، بقصة إبراهيم بن أدهم ذات الطابع الأسطوري، الواردة في كتب تراجم العارفين، مثل (حلية الأولياء) للأصفهاني، و(تذكرة الأولياء) للعطار، وجد شبهاً عجيباً بين تلك القصتين يستلفت نظره(٣١٥)، على أن صوفية القرن الثاني قد حاكوا قصة إبراهيم بن الأدهم الذي طلق الدنيا، فترك ولده وزوجه، وتزيا بزيٍّ الدراويش، وبلغ درجة أكابر الصوفية برياضاته الطويلة، وتلك صورة طبق الأصل لما كانوا قد سمعوه عن حياة بوذا!.(٣١٦)

ونجد أثر قصة إبراهيم بن الأدهم (بوذا الصُّوفيَّة) يظهر بجلاء في كلام المتقدمين منهم، وذلك من خلال دعوتهم إلى ترك الزواج، ونهي المريدين عنه، واعتباره انحطاطٌ من العزيمة إلى الرخصة، ودورانٌ حول مظان الاعوجاج، وتقيُّدٌ

---

(٣١٤) التصوف الإسلامي العربي (ص ٤٠-٤١). وصفحات مكثفة من تاريخ التصوف (ص ٨١). وانظر القصة كاملة في التصوف المصدر والمنشأ، لإحسان إلهي ظهير (ص ٥١- ٥٥). والأبعاد الصوفية في الإسلام، آنا ماري شيمل (ص ٤٦).

(٣١٥) انظر: تاريخ التصوف في الإسلام، د. قاسم غني، ترجمة عربية (ص ٢٢٣)،

(٣١٦) المصدر السابق نفسه (ص ٢٢٣)، وما بعدها.

بالأولاد والأزواج[٣١٧] ؛ فينقل الطوسيُّ عن ابن الأدهم قوله: "إذا تزوج الفقير؛ فمثله مثل رجل قد ركب السفينة، يوشك أن يغرق، فإذا ولد له ولد فقد غرق!"[٣١٨]، ونقل السهروردي عنه أنه قال: "من تعوّد أفخاذ النساء لا يفلح".[٣١٩]

ونقل أبو طالب المكي عن أبي سليمان الداراني (ت ٢١٥هـ): "من تزوج فقد ركن إلى الدنيا"[٣٢٠]، ونقل عنه السهروردي في (معارفه) أنه قال: "ما رأيتُ أحداً من أصحابنا تزوج فثبت على مرتبته".[٣٢١]

ونقل الشعراني عن رباح بن عمرو القيسي – من الصوفية الأوائل– أنه قال: "لا يبلغ منازل الصديقين حتى يترك زوجته كأنها أرملة، وأولاده كأنهم أيتام، ويأوي إلى منازل الكلاب"[٣٢٢]، ونقل المكي عن الجنيد البغدادي قوله: "أحب للمريد المبتدئ أن لا يشغل قلبه بالتزوج"[٣٢٣].

---

(٣١٧) انظر: عوارف المعارف، للسهروردي (ص ١٦٤– ١٦٥).

(٣١٨) اللمع، للسراج الطوسي (ص ٢٦٥).

(٣١٩) عوارف المعارف، للسهروردي (ص ١٦٦).

(٣٢٠) قوت القلوب لأبي طالب المكي (١/٢٥٢).

(٣٢١) عوارف المعارف، للسهروردي (ص ١٦٥).

(٣٢٢) طبقات الشعراني (١/٤٦).

(٣٢٣) قوت القلوب؛ لأبي طالب المكي (١/٢٦٧).

أما قصة بوذا؛ فيحكيها (ول ديورانت)، قائلاً: "وفي ظلمة الصباح الباكر، خلف بوذا المدينة على ظهر جواده، يصحبه سائق عربته، وقد تعلق بائساً بذيل الجواد.." ثُمَّ قال: "ووقف عند مكان اسمه "يورفيلا"، يقول: "قلتُ لنفسي إنَّ هذا المكان رائع، وإنَّ هذه الغابة جميلة.."، وههنا في هذا الموضع أخضع نفسه لأشق أنواع التقشف، ولبث ستة أعوام يحاول ممارسة اليوجا، التي كانت قد ظهرت قبل ذلك في ربوع الهند، وعاش على الحبوب والكلأ، ومضى عليه عهدٌ اقتات فيه بالروث، وانتهى إلى أن جعل طعامه حبة من الأرز كل يوم، ولبس ثيابا من الوبر، وانتزع شعر رأسه ولحيته؛ لينزل بنفسه العذاب، وكان يمكث الساعات الطوال واقفاً أو راقداً على الشوك، وكان يترك التراب القذر يتجمع على جسده، حتى يشبه في منظره شجرةً عجوزاً، وكثيراً ما كان يرتاد مكاناً، تُلقى فيه جثث الموتى مكشوفةً ليأكلها الطير، والوحش، فينامُ بين هذه الجثث العفنة، ثُمَّ قال بوذا: "فضمر جسدي ضموراً شديداً.. وكان من أثر تقليل الطعام أن برزت عظام فقراتي..".[٣٢٤]

ويظهر التأثير الهندي في ممارسات الذكر الصُّوفي، الذي يتفق مع مبادئ اليوغا، ويتدرب فيه المريد على (ضبط الأنفاس)، بوصفه قائم على إيقاع التنفس: الزفير والشهيق، مع غلق العيون والشفاه، في مثل: (ها) التي تنتهي بعمق شديد، و(هي)

---

(٣٢٤) قصة الحضارة، ول ديورانت (٣/ ٦٨- ٧٠).

التي تقرأ بصوت خفيض قدر الاستطاعة، و(هو) التي تمتدُّ إلى الأمام وأعلى، كذلك طريقة الجلوس (متربعاً مثلاً)، وواضعاً يديه على ركبتيه في شكل كلمة الله، ويبدأ بالذكر.. وكل ذلك مبنيٌّ للسيطرة على النفس!، ولعلَّ ابن عطاء السكندريِّ هو أوَّل من كتب في هذا الموضوع بإسهاب في كتابه (مفتاح الفلاح)..!.

يقول مصطفى محمود (من الصوفية المعاصرين!): "المتصوف واليوجي والراهب كُلُّهم على دربٍ واحد! وأصحاب منطق واحد! وأسلوب واحد في الحياة، هو الزهد.. اليوجي والراهب والصوفي المسلم يطلبون القرب والوصول بنفس الأسلوب، بالتسابيح، فيدعون الله بأسمائه، وهناك يوغا خاصَّة بالتسابيح، تسمى "المانترا يوجا"، يضع اليوجي في عنقه مسابح طويلة، من ألف حبَّة".

ويعتقد البوذيون: أن (بوذا إميتابا)، أي: بوذا صاحبُ النُّور اللامحدود، والحياة اللامتناهية، قد خلق بتعاطفه ورحمته التي لا حدَّ لها أرضاً طاهرةً، يستطيع كل إنسان بلوغها بفضل رحمته ونعمته، فالتضرُّع البسيط لاسمه مقروناً بالإيمان بفاعليته، يضمن للمؤمن الميلاد من جديد في الأرض الطاهرة، وقد كرَّس بوذا نفسه لإعلان تلك "الحقيقة الكلية" أو "الحقيقة الأزليَّة"، في فلسفته الجديدة (الدهارما) (٣٢٥).

---

(٣٢٥) التصوف البوذي والتحليل النفسي، د. ت. سوزوكي (ص ٢٨، ٥٠).

ويقول عبد القادر عطا: "والذي نراه أن هناك وجوهاً من الشبه قويَّة بين الطريقة النقشبندية، وبين اليوجا الهندية، وحبس النفس في الطريقة النقشبندية، والنفس العميق في الويجا من وجوه الشبه البارزة بينهما، وتركيز المعاني في أجزاء من أجهزة الجسم الباطنة، بغية سريانها في جميع أنحاء الجسد، عملٌ مشترك بين اليوجا والنقشبندية".[٣٢٦]

ويقول التفتازاني: "ومما هو جديرٌ بالذكر أنني لم أعثر على نصوص صريحة تدل على معرفة صوفية المسلمين بعقائد الهنود ورياضاتهم إلا عند الصوفي المتفلسف عبد الحق بن سبعين".[٣٢٧]

ومما سبق، يمكننا القول بأن التصوف مدين للفلسفة الهندية في نشأته وظهوره وتطوره، ومن الحجج التي تؤكد صحة هذا القول:

١ . أن معظم أوائل الصوفية من أصل غير عربي؛ كإبراهيم بن أدهم، وشقيق البلخي، وأبي يزيد البسطامي، ويحيى بن معاذ الرازي، حتَّى الحلاج الفارسي كانت

(٣٢٦) وحدة الوجود عند الصوفية (ص ٣٣٤).

(٣٢٧) المدخل إلى التصوف الإسلامي (ص ٣٧).

إحدى رحلاته إلى بلاد السند، والتي التقى ببعض فلاسفة نلك البلاد، وتعلم منهم السِّحر!.

٢. أن التصوف ظهر أولاً وانتشر في خراسان التي فتحت في عهد بني أمية، ويجب ألا ننسى أن الديانة البوذية انتشرت في شرق إيران أي بلخ وبخارى، وفي بلاد ما وراء النهر قبل الإسلام بأكثر من ألف سنة، وكان لها صوام ومعابد مشهورة ومنتشرة.

٣. أن تركستان قبل الإسلام كانت مركز تلاقي الديانات والثقافات الشرقية والغربية، ومحط أنظار القوافل التجارية، فلما دخل أهلها في الإسلام صبغوه بصبغتهم الصوفية القديمة، ورافق ذلك فرقة تسمَّى (رهبان الزنادقة) الذين وصفهم الجاحظ، بأنهم: فرقة من المانوية الهندية، الذين اعتزلوا الناس في الصوامع والأديرة، وكانوا يسافرون دائماً اثنين اثنين، ولا ينامون ليلتين في مكان واحد، وأن لهم خصالٌ أربع؛ وهي: الطهر والقدس والصدق والمسكنة، ويسلكون في ذلك سبيل الآلام والمشاق الكبيرة.[٣٢٨]

(٣٢٨) تاريخ التصوف في الإسلام، ترجمة عربية، لصادق نشأت (ص ٢٢١ – ٢٢٢).

٤. أن المسلمين أنفسهم يعترفون بوجود الأثر الهندي، وخاصة بعد عمليات الترجمة للكتب والآثار البوذية والتي نشطت خلال القرن الثاني في ظل دولة الخلافة العباسية.

٥. أن الزهد الإسلامي الأول هندي في نزعته وأساليبه، فالرضا فكرة هندية الأصل، واستعمال الزهاد للمخلاة في سياحتهم، واستعمالهم للسبح، عادتان هنديتان.

٥. المصدر اليونانيّ الفلسفي للتصوف:

ويؤيد هذا القول عددٌ كبير من العلماء والمستشرقين، وغيرهم من أمثال عبد العزيز إسلام بولي، ومحمد لطفي جمعة [٣٢٩]، والدكتور محمد كمال جعفر[٣٣٠]، والدكتور مصطفى حلمي[٣٣١]، والدكتور زكي مبارك[٣٣٢]، وغيرهم[٣٣٣].

وقد تسللت هذه الفلسفة إلى العالم الإسلامي أيام أبي جعفر المنصور، الذي تُرجمت له الكتب السريانية والعجمية إلى العربية[٣٣٤]، وانتشرت في عهد المأمون العباسي (١٧٠-٢١٨هـ /٨١٣- ٨٣٣م)[٣٣٥]، الذي تولَّى كبرها، وقد

(٣٢٩) التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق، زكي مبارك (١/ ٥١).

(٣٣٠) انظر مقدمة كتاب المعارضة والرد لسهل التستري.

(٣٣١) انظر: القيم الروحية (ص ٥٨)، وما بعدها.

(٣٣٢) انظر: التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق (١/ ٢٤٩).

(٣٣٣) التصوف المصدر والمنشأ، إحسان إلهي ظهير (ص ١٢٥)، وما بعدها.

(٣٣٤) تاريخ الخلفاء؛ للسيوطي (ص ٢٣٠).

(٣٣٥) هو: عبد الله بن هارون الرشيد، بن محمد المهدي، بن أبي جعفر المنصور العباسي، بُلي بالمعتزلة حتى اعتنق مذهبهم، وحمل الناس على القول بخلق القرآن، قال عنه الذهبي: "دعا إلى القول بخلق القرآن، وبالغ، نسأل الله السلامة"، وقال ابن كثير: "كان فيه تشيُّعٌ، واعتزالٌ، وجهلٌ بالسنة الصحيحة"، وكانت مدة خلافته عشرين سنة وخمسة أشهر. انظر: سير أعلام النبلاء (١٠/ ٢٧٢)، والبداية والنهاية (١٠/ ٢٧٥).

شجعه عليها معتزلة عصره، فرفع المأمون راية الانحراف والوثنيَّة بجوار راية الهداية المعصومة، فنهج أهل الزيغ والباطل في ذلك العصر طريق الفلاسفة والوثنيين في قضايا العقيدة والتوحيد، وبخاصة في مسألة (إثبات وجود الله)، الذي أتاح الانحراف الكامل في العقائد والتصورات، ولا شك أن الوثنية -كمنهج- تأتي بالوثنية كنتائج، الأمر الذي وضع القضايا الأساسية للدين موضع البحث والدراسة، بعد عمليات التشكيك والارتياب، وقد وصل إيمان الأمة في تلك الفترة إلى حدٍّ يكاد أن يكون معدوماً، وما ذاك إلا لتغلغل النهج الفلسفي الوثني في قضايا التوحيد والعقائد[٣٣٦].

وقد أظهر المأمون القول بخلق القرآن سنة (٢١٢هـ)، مُضافاً إلى القول بتفضيل عليٍّ على أبي بكر وعمر، فاشمأزت نفوس الناس منه، وكاد البلد يُفتتن، ولكنه في إعلانه هذا لم يُلزم أحداً فيما أعلنه، وترك الناس أحراراً فيما يعتقدون إلى أن كانت سنة (٢١٨هـ).[٣٣٧]

(٣٣٦) قضية التصوف، المدرسة الشاذلية، د. عبد الحليم محمود (ص ١٨١- ١٨٣).
(٣٣٧) تاريخ السيوطي (ص ٢٠٥)، والطبري (٨/ ٦١٩).

وما تمَّ أمر المأمون إلا بعد قتله لأخيه الأمين بسيوف الفرس، فقويت العناصر غير العربية واشتدت، وكان للفلسفة والعلوم الجديدة في المأمون أعظم ناصر [٣٣٨].

يقول المقدسيُّ في الخليفة المأمون: "وأحيا العلم القدم (التنجيم)، ونقله إلى لسان العرب، وأظهر علم النجوم والفلسفة" [٣٣٩].

ويقول الصفدي: "طلب المأمون من بعض ملوك النصارى، قال: أظنه صاحب جزيرة قبرص، طلب منه خزانة كتب اليونان، وكانت عندهم مجموعة في بيت لا يظهر عليها أحد، فجمع الملك خواصه من ذوي الرأي، واستشارهم في ذلك، فكلهم أشاروا بعدم تجهيزها إليه، إلا مطران واحد قال: جهزها إليهم، فما دخلت هذه العلوم على دولة شرعية إلا أفسدتها وأوقعت بين علمائها"[٣٤٠].

(٣٣٨) الإمام أحمد؛ لمحمد أبو زهرة (ص ٤٤).

(٣٣٩) البدء والتاريخ، للمقدسي (٦/ ١١٢).

(٣٤٠) لوامع الأنوار (١/ ٩). وانظر: الخطط للمقريزي (٢/ ٣٥٧)، وقد ذكر أن المأمون بعث إلى بلاد الروم من عرب له كتب الفلاسفة. وذكر ذلك ابن خلدون في المقدمة ٨٩٣.

ويقول ابن تيمية: "ما أظن الله يغفل عن المأمون، ولا بد أن يعاقبه على ما أدخله على هذه الأمة".[٣٤١]

وأرجع بعض الباحثين؛ كابن خلِّكان صلة المسلمين بالفكر اليوناني إلى أيام خالد بن يزيد بن معاوية الأموي، الذي يُعدُّ من أعلم قريشٍ بفنون الطب والكيمياء، وكان بصيراً بهذين العلمين، متقناً لهما، وقد أخذ هذين العلمين عن رجل من الرهبان يُقال له (مريانس الرُّومي)، الذي تعلَّم منه الرموز والطب، ولكن يبقى النُّمو والاتصال بتلك الفلسفات، ظاهراً في العهد العباسي نظراً لاتساع حركة الترجمة التي نقلت أرسال الفكر اليوناني والفارسي والهندي في تلك الآونة بصورة مريعة في العالم الإسلامي، وقد اضطربت لها عقول الكثيرين، ولم تقوَ على فهمها؛ فأصبحوا حائرين.[٣٤٢]

يقول الدكتور عمر الشيباني: "ومما يدلُّ على اتصال المسلمين بعلوم اليونان في وقت مبكر من العهد الأموي، ما يذكره "لوكلير" (**locler**) مستنداً إلى بعض النصوص التي وصلت إليه – من أن خالد بن يزيد بن معاوية الملقب

---

(٣٤١) تاريخ فلاسفة الإسلام، لطفي جمعة محمد (ص ٢٥٤).

(٣٤٢) أبو حنيفة: حياته، وآراؤه، وفقهه، لمحمد أبو زهرة (ص ٩٨). وانظر: ملك بن أنس؛ لمحمد أبو زهرة (ص ١٢٤).

بحكيم آل مروان، والمتوفي سنة (٨٥هـ/ ٧٠٤م) أمر علماء اليونان الذين كانوا في الإسكندرية بترجمة "الأرغانون" (أي الآلة، وهي مجموعة كتب أرسطو المنطقية[٣٤٣]) من اليونانية إلى العربية، كذلك ترجمت كتب أخرى لأرسطو[٣٤٤]، مثل كتابه في "الخطابة"، وكتابه في"الشعر"، و"كتابه في "الفلسفة الأولى" أو "الإلهيات"، وكتاب في "النفس"، وكتاب "مقالات في علم الحياة"، وكتاب "الأخلاق"، وكتاب "السياسة".

ويذكر ابن النديم أن خالداً هذا كان فاضلاً في نفسه، وله همَّةٌ ومحبَّةٌ للعلوم خطر بباله صنعة (الكيمياء)، فأمر بإحضار جماعةٍ من فلاسفة اليونان، ممن

(٣٤٣) وتشتمل على ستة أبواب ترتبط بالمباحث المنطقية، وهي: المقولات، العبارة، القياس (أو التحليلات الأولى)، البرهان (أو التحليلات الثانية، المواضع الجدلية، الحكمة المموهة (أو الأغاليط).

(٣٤٤) هو: أرسطو بن نيفوماخس الفيثاغورثي، من أهل اسطاخرا، فيلسوف الروم، وعالمها، وخطيبها، وطبيبها، وكان مولده في أول سنة من ملك أردشير بن دارا، ولما بلغ سبع عشرة سنة، تتلمذ على أفلاطون، وتصدر بعده، انتهت إليه فلسفة اليونانيين، وهو خاتم حكمائهم، وسيد علمائهم، وهو واضع التعاليم المنطقية، توفي في آخر أيام الإسكندر، ويُقال: أول ملك بطليموس. انظر: الفهرست لابن النديم (ص ٣٠٧)، وعيون الأنباء في طبقات الأطباء (ص ٨٦).

كان ينزل مدينة مصر وقد تفصَّحَ بالعربيَّة، وأمرهم بنقل الكتب في الصنعة من لسان اليونان والقبط إلى العربية، وهذا أول ما نقل كان في الإسلام من لغة إلى لغة".(٣٤٥)

ولم يكتف المسلمون في هذا العصر عند الترجمة والشرح والتفسير للتراث الفلسفي اليوناني القديم، بل أصبحت لهم إضافاتهم وابتكاراتهم، وتآليفهم الفلسفية المعتبرة، وأصبح لديهم فلاسفة استطاعوا أن يُكونوا لأنفسهم فلسفة عامة وشاملة ومتكاملة.

والحق أن المعاني التي قصدها فلاسفة الإسلام كانت توائم بين التراث الفلسفي اليوناني القديم وبين مطالب الشريعة الإسلامية، ولكنها لم تكن لتخفي النزعة الوثنية التي لا يمكن بحال أن توافق المبادئ الفطرية للدين الإسلامي.

وعليه، فإن حركة الاتصال بالفكر اليوناني قد تمَّ في العصر الإسلامي الأول، وأن الفلسفة اليونانية قد عرفها المسلمون أيام الأمويين، وكانت الترجمة الفعلية لها بدأت قبل الترجمة الرسمية في العصر العباسي الأول، وقد كانت أعمال

(٣٤٥) مقدمة في فلسفة الإسلام، د. عمر الشيباني (ص ٥٤، نقلاً عن محمد عبد الرحمن مرحبا في كتابه (من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية)، منشورات عويدات- بيروت، ١٩٧٠، ص ٢٩٢ -٢٩٣).

الترجمة في العصر الأموي محدودةً جداً، كما أنها ظلت أعمالاً فرديَّة، تنتعش بالأشخاص القائمين بها، وتموتُ بموتهم[٣٤٦] .

ويقول الدكتور عبد الحليم محمود –مؤكداً هذا المعنى: "لقد بدأت حركة الترجمة بدرجة محدودة في العهد الأموي، ثُمَّ توسعت في العهد العباسي، وكان أبرز الخلفاء العباسيين الذين قادوا حركة الترجمة هم: أبو جعفر المنصور، وهارون الرشيد، وعبد الله المأمون، وقد تركزت الترجمة في بداية الأمر حول الكتب التي تتصل بالجانب العملي؛ كالطبِّ مثلاً، أو الكيمياء، أو ما وراء الطبيعة، وأما الأخلاق؛ فإنهم كانوا يتحرجون من ترجمتها اكتفاءً واعتزازاً بما عندهم في ذلك من وحيٍ معصوم! واستمروا على ذلك إلى أن كان عهد المأمون؛ فبدأوا بأمر منه يترجمون في مجال ما وراء الطبيعة، ومجال الأخلاق! وبدأ التفلسف البحت، وبدأنا نلمس فتور الإيمان؛ كأساس من أسس التفلسف، وكنتيجة من نتائجه أيضاً".[٣٤٧]

ويذكر الباحث محمد لطفي جمعة[٣٤٨] أهم الشخصيات التي ترجمت التراث اليوناني والفارسي والقبطي القديم إلى اللغة العربيَّة، من أيام الخليفة

---

(٣٤٦) مقدمة في فلسفة الإسلام، د. عمر الشيباني (ص ٥٤– ٥٥).

(٣٤٧) انظر: الدين والعقل، د. عبد الحليم محمود (ص ٥١).

(٣٤٨) انظر: تاريخ فلاسفة الإسلام (ص ١٦– ١٧).

المنصور، ومنهم: بناء جرجيوس بن بختشيوع السرياني النيسطوري (طبيب الخليفة المنصور)، وأبناء حنين بن إسحاق العبادي (شيخ المترجمين)، وهو من نصارى الحيرة، وابن أخت (حنين): حُبيش الأعسم الدمشقي، وقسطا بن بعلبكي (من نصارى الشام)، وأبناء ماسرجويه (اليهودي السرياني)، وآل ثابت الحراني (من الصابئة)، وأبو بشر متى بن يونس، ويحيى بن عَدِي، وإسطفان بن باسيلي، وموسى بن خالد، وأحمد بن يحيى البلاذري، وومنكه الهندي، وابن دهن الهندي، وابن وحشية وغيرهم.

ويذكر المؤرخون أن المشتغلين بالترجمة بلغ من نشاطهم أنَّهم أعادوا ترجمة بعض الكتب عدة مرات، من مصادر مختلفة، ومقابلة الترجمات بعضها ببعض، للوصول إلى نصٍّ متفقٍ عليه، ومن ذلك ما نقلوه أن ثمانيةً وثمانين ترجمة مختلفة قام بها ثلاث وعشرون ناقلاً لعشرين كتاباً من كتب أرسطو، وذلك في أواخر القرن الثالث للهجرة (التاسع للميلاد) [٣٤٩].

ويقول الشيخ محمد أبو زهرة: "وقد جاءتنا أرسال الفكر اليوناني من عدة طرق، جاءتنا من الفرس الذين كانوا متأثرين باليونانية، وجاءتنا من السريان الذين كانوا أعظم ناقلي فلسفة اليونان في ذلك الإبان، وجاءتنا من اليونانية نفسها، فإن

(٣٤٩) من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية، فيليب حتّي، (ص ٣١٥).

بعض الموالي من كان يجيد اليونانية والعربية، فنقل إلينا طرفاً من أفكارها، فجاءت الفلسفة اليونانية أحياناً خالصة، وأحياناً لابسةً ثوباً فارسياً، وأحياناً مرتديةً بمسوحٍ يهودية ومسيحية عن طري السريان"(٣٥٠).

يقول الدكتور محمد يُسري إبراهيم: "ومعلومٌ أن الحضارة اليونانية كانت حضارة شرك وفحش، فلم يكن شركها منحصراً في جانب الألوهية فحسب؛ بل كان شركاً في الربوبية أيضاً؛ فهذا ربٌّ للجمال، وثانٍ للحب، وثالثٌ للحرب! وهذه الآلهة قلَّ أن تتفق على أمرٍ في الأساطير الإغريقية، فهو تراثٌ قائمٌ على الخصام والصدام؛ فقد كان (زيوس) رب الأرباب –بزعمهم –لا يُكنُّ حباً لزوجته، وهي لا تثق في زوجها !!... وكانت حضارة اليونان حضارة فحشٍ وعُري، تُشير إلى ذلك تماثيلهم المنحوتة، وصورهم المرسومة، وأساطيرهم المدونة، وقصصهم المُسطَّرة الطافحة بصور الشذوذ الجنسي، والانحراف الخلقي الذي كان سمة ذلك المجتمع حتى في الصفوة من مفكرين وفلاسفة" (٣٥١).

ومما هو جديرٌ بالذكر أن الفلسفة اليونانية التي طالتها يد الترجمة العربية، لم تبق على أصالتها، ولا في صفائها اليوناني الذي كتبه مؤلفوها اليونانيون الأصليون

(٣٥٠) الإمام الشافعي، فقهه تاريخه آثاره، لمحمد أبو زهرة (ص ٥٢).

(٣٥١) انظر: قراءة في استراتيجية الغرب لحرب الإسلام، د. محمد يسري إبراهيم (ص ٢٧ –٢٨).

في الرابع قبل الميلاد، بل إن الفلسفة اليونانية المنقولة إلى العربية هي الفلسفة اليونانية التي شرحها فلاسفة الإسكندرية أو (الأفلاطونيون المحدثون) في القرن الرابع بعد الميلاد، ولقد شوه الإسكندرانيون كثيراً من معالم الفلسفة اليونانية، وخاصة معالمها الوثنية التي لا تتمشى مع العقيدة المسيحية، فجعلوها أقرب إلى مدارك الديانة المسيحية؛ حتَّى قال بعض الباحثين: إن الفلسفة اليونانية التي عرفها العرب ونقلوها إلى لغتهم ليست هي فلسفة القرن الرابع قبل الميلاد في "أثينا" – فلسفة أفلاطون وأرسطو– بل هي فلسفة القرن الرابع بعد الميلاد في الإسكندرية، (والواقع أن تلك لم تكن فلسفة)، بل كانت مذهباً مُلفَّقاً من آراء أفلاطون فيما بعد الطبيعة، ومن منطق أرسطو، ومن تعليم الرواقيين في الأخلاق، ومن عدد من عناصر التصوُّف الشرقي، وهذا المذهب يُعرف بالمذهب الإسكندراني أو مذهب ما بعد الأفلاطونيَّة! ومن مؤسسي هذا المذهب "ملخو" المولود في صور، والمشهور بلقب "فوريوس"، وكانت وفاته عما ٣٠٤ للميلاد.

ويعتبر المذهب الإسكندراني هو الذي نقله النصارى السريان إلى المسلمين العرب مباشرة من اللغة اليونانية، أو غير مباشرة بواسطة اللغة السريانية، وهكذا عرف العرب فلسفة أفلاطون في شكلها الهليني المتأخر الممزوج بالصُّوفيَّة

الشرقيَّة، لا في شكلها الهلاني الأصلي (الخالص من الشوائب)، وكذلك حملت فلسفة أرسطو تلميذ أفلاطون إلى العرب بثوب إسكندراني!!.[٣٥٢]

والحقُّ أن فلسفة خاصَّة كانت متأصلة في أهل المشرق، ولما فتح المسلمون بلاد الشام، والعراق، ومصر، وبلاد فارس.

يقول الشيخ محمد أبو زهرة: "إن مدينة الإسكندرية ومدرستها كانت تُشعُّ على العالم بنور العلم، وقد آوى إليها فلاسفة اليونان، واتجهوا في البحث فيها اتجاهاً دينياً، وبحثوا في منشئ الكون، وكان شيخ هذه المدرسة هو (أمينوس) المتوفى سنة (٢٤٢م)، وقد اعتنق في صدر حياته الديانة المسيحية، ثُمَّ ارتدَّ عنها إلى وثنية اليونان الأقدمين، وجاء من بعده تلميذه (أفلوطين)، المتوفي سنة (٢٧٠م)، وقد تعلم في مدرسة الإسكندرية أولاً، ثُمَّ رحل إلى فارس والهند، وهناك استقى ينابيع الصُّوفيَّة الهندية، واطلع على تعاليم بوذا وديانته، وبراهمة الهند وديانتهم، وعرف آراء البوذيين ف بوذا، والبراهنة في كرشنة، وقد عاد بعد ذلك إلى الإسكندرية، وأخذ يُلقي بآرائه على تلاميذه، وجُلُّها يتجه إلى تعرُّف ما وراء الطبيعة، ومنشئ الكون!".[٣٥٣]

(٣٥٢) الإسلام منهج حياة؛ لفيليب حتِّي، (ترجمة فروخ، ص ٢٣٤).

(٣٥٣) محاضرات في النصرانية، لمحمد أبو زهرة (ص ٣٥).

ويرى بعض المستشرقين أن التشابه الصوتي بين كلمة (صوفي) العربية وكلمة (سوفيا) اليونانية هي أولى حلقات هذا الاتصال بين الفلسفتين، بالإضافة إلى الشبه بين كلمة (تصوف)، و(تيو سوفيا)...!.

وهذا القول مردودٌ من الناحية اللغوية؛ لأن حرف (السين) في اليونانية، نقلت إلى العربية كما هي سين لا صاداً، كما أنه لا توجد كلمة في اللغة الآرامية تعد واسطة لانتقال سوفيا إلى صوفي(٣٥٤)، ولذا فلا بد من البحث عن دليل أكثر قوة يؤيد صحة هذا القول !.

ولا بد لي من وضع شهادة ذاتية من داخل هذا المذهب تؤكد هذا المعنى، وأعني بذلك ما نقله الشعراني عن سَيِّدِهِ "أفضل الدين" الذي يقول: "إن كثيراً من كلام الصُّوفيَّة لا يتمشى ظاهره إلا على قواعد المعتزلة والفلاسفة، فالعاقل لا يُبادر إلى الإنكار بمجرد عزو ذلك الكلام إليهم، بل ينظر ويتأمل في أدلتهم التي استندوا إليها، فما كل ما قاله الفلاسفة والمعتزلة في كتبهم يكون باطلاً".(٣٥٥)

---

(٣٥٤) تاريخ التصوف في الإسلام، للدكتور قاسم غني (ص ٦٧-٦٨).

(٣٥٥) الطبقات الكبرى للشعراني (١/١١).

وما نقله السهرورديُّ بسنده عن أبي بكر الوراق في وصف بعض صوفيَّة زمانه، فقال: "إن قوماً دخلوا الخلوة بغير شروطها، وأقبلوا على ذكر من الأذكار، واستجمعوا نفوسهم بالعزلة عن الخلوة، ومنعوا الشواغل من الحواس؛ كفعل الرهابين، والبراهمة، والفلاسفة".[٣٥٦]

ويقول أحد صوفية الهند المعاصرين يوسف بن سليم جشتي: "إن التصوُّف لم يُقتبس، ولم يؤخذ إلا من المنابع الصافية، والمصادر الطاهرة، وعلى رأسها الأفلاطونية المحدثة، التي نشرها أفلوطين السكندري، وفلسفته في الإلهيات تدور على وحدة الوجود، وهذا عين ما كان يؤمن به الشيخ الأكبر ابن عربي وغيره، كما أؤمن به أنا"[٣٥٧].

ويقول محمد أبو الفيض المنوفي (شيخ الطريقة الصوفية المعاصرة): "أكثر الصوفية الأعاجم خلطوا بين الفلسفة الفارسية القديمة، أو الهندية، وما قبسوه عن اليونانية والأفلاطونية الحديثة، وبين تصوفهم الخاص، وقد تأثر أمثال أولئك ببراهمة الهند، والفرس في أزيائهم، وطقوسهم، واعتنقوا قدراً من أفكارهم".[٣٥٨]

---

(٣٥٦) عوارف المعارف؛ للسهروردي المقتول (١/ ٢٣٤).

(٣٥٧) التصوف: المنشأ والمصدر، إحسان إلهي ظهير (ص ١٢٧).

(٣٥٨) جمهرة الأولياء (١/ ٢٦٦).

أما الأفلاطونيَّة الحديثة؛ فتقومُ على ثالوثٍ فلسفيٍّ مُقدَّس، تعتبر الأصول والنماذج الرفيعة لكل ما عداها من بقيَّة الموجودات، وهي: العلَّة الأولى (التي هي أصل كُلِّ موجود)، ثُمَّ العقل الكُلِّي (وهو ليس عرضة للطوارئ أو الفناء)، وأخيراً النفس الكُليَّة، وقد حملت هذه الفلسفة المُحدثة الإسلام على فكرة (وحدة الوجود الشاملة!)، والتي تعني أن ما في هذا الكون –مع كثرته– هو تجلٍّ لشيءٍ واحد، وتفصيلٌ لموجود واحد، هو العلَّةُ الأولى، أو (المعبود المُقدَّس.. وهذا المعبود المُقدَّس هو جوهر الوجود، وهو حالٌّ في هذه الكثرة اللانهائيَّة من هذه الكائنات المُشاهدة .[٣٥٩]

ومن الجدير بالذكر أن الطبقة الساسانية من ملوك فارس، كانوا على مذهب الفلاسفة، وكان أولهم "أزدشير بن بابك بن ساسان"، يقول عنه المسعودي: "وكان أفلاطونيَّ المذهب من أبناك ملوك الطوائف، أفضى ملك أبيه إليه بأرض فارس".[٣٦٠]

(٣٥٩) ليس من الإسلام، الشيخ محمد الغزالي (ص ١٢٩-١٣٣).

(٣٦٠) التنبيه والإشراف؛ للمسعودي (١/ ٤٠).

وملك بعده سابور بن أزدشير؛ يقول المسعودي: "وفي أيامه كان ماني (وهو يوحنا الديلمي النصراني) وإليه تُضاف المانوية، من أصحاب الاثنين".[٣٦١]

يقول القلقشندي في (صبح الأعشى) عن سابور: "وفي أيامه ظهر ماني الزنديق[٣٦٢]، وادعى النبوة، واعتنى بنقل كتب الفلسفة من اللغة اليونانية إلى اللغة الفارسية، ويُقال: إن العود الذي يتغنّى به حدث في أيامه".[٣٦٣]

ولما انتهت نوبة الملك إلى بهرام جور بن يزدجرد (٤٢٠- ٤٣٨م) ملك الفرس، أخذ ماني وسلخه، وحشا بجلده تبناً، وعلَّقه، وقتل أصحابه إلا من هرب، والتحق بالصين، ودعوا إلى دين ماني، وهم لا يرون الذبائح، ولا إيلام الحيوان، ولا

---

(٣٦١) التنبيه والإشراف؛ للمسعودي (١/ ٤٠).

(٣٦٢) الزنديق: لفظ مُعرب عن الفارسية، أطلقه الفرس قديماً على الخارج عن دين الدولة ببدع معينة، أهمها: القول بأزلية العالم، واستعمله المسلمون أولاً في الدلالة على القائلين بالأصلين: النور والظلمة، على مذهب المانوية، وغيرهم من الثنوية، ثم اتسع معناه، فشمل الدهريين، والملحدين، وسائر أصحاب المعتقدات الضالة، بل: أطلق على المتشككين، وكل متحرر من أحكام الدين فكراً وعملاً. انظر: كتاب تاريخ الإلحاد (ص ٢٤)، والموسوعة العربية الميسرة (ص ٩٢٩).

(٣٦٣) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء؛ لأحمد بن علي القلقشندي (٤/ ٣١٣).

يعرفون من الأنبياء إلا عيسى عليه السلام وحده، وهم يُقرون بنبوة زرادشت، ويقولون بنبوة ماني.[٣٦٤]

وفي زمن الملك الفارسي قباذ بن فيروز (ملك ثلاثاً وأربعين سنة)، كان مزدق الموبذ، المتأول كتاب زرادشت، المعروف بـ (الابستاق)، وقد قام بتشويه دين ماني، فادعى النبوة، وأظهر الإباحة، وقد جعل لظاهره باطناً بخلاف ظاهره، يقول المسعودي: "وهو أول من يُعدُّ من أصحاب التأويل والباطن، والعدول عن الظاهر في شريعة زرادشت، وإليه تُضاف المزدقية".[٣٦٥]

ولما ملك أنوشروان شرع بقتل المزدقية، وأباح دماء المانوية، وثبت ملة المجوسيَّة القديمة.[٣٦٦]

---

(٣٦٤) تاريخ العلويين في بلاد الشام، اميل عباس، آل معروف (١/ ٥٤). وانظر: الفصل في الملل والنحل؛ لابن حزم الظاهري (١/ ٣٧).

(٣٦٥) التنبيه والإشراف؛ للمسعودي (١/ ٤٠).

(٣٦٦) المختصر في أخبار البشر؛ لابن كثير (١/ ٣١).

وبهذا نرى الامتزاج الفارسي القديم بالفلسفة اليونانية، ورسوخها عندهم، وظهور مبدأي الظاهر والباطن اللذان هما لُبُّ العقيدة الصُّوفيَّة، ولذا نرى أن الفلسفة هي الوجه الآخر لمذهب الباطنية.(٣٦٧)

ويقول الشيخ محمد الغزالي: "إن عقيدة القوم (الصُّوفيَّة)، كما أنها نادت بالوحدة الشاملة الإغريقية، فقد حملت معها قضية ترتيب الموجودات وانبثاقها عن طريق الفيض، وكذلك في تقلصها وعودتها إلى الأصل الذي فاضت عنه.

وهذه الفكرة هي التي عُرفت بالجدل الصاعد، والجدل النازل، وهي التي خلقت في الفكر الشيعي اتجاه الغلاة، وهم من يُعرفون بالإسماعيلية(٣٦٨)، أو

(٣٦٧) الباطنية: اسمٌ عام تنضوي تحته عدة طوائف تجتمع كلها على أن الدين باطن وظاهر، ولها تأويلات —وإن اختلفت – إلا أنها جميعاً تهدف إلى إبطال الدين، وهدم الشرائع، وإنكار العقائد، ولها عدة أسماء: الإسماعيلية، والملاحدة، والقرامطة، والخرمية، والبابكية، والنصيرية، والمحمرة، وهذه الأسماء وإن كانت عامة، إلا أنها قد تخصُّ بعض فرقها، وسُمُّوا بالباطنية؛ لأنَّ نصوص الشرع عندهم لها ظواهر عند العامة والجُهَّال، وبواطن لا يفهمها إلا العقلاء بزعمهم. انظر: فضائح الباطنية (ص ١١)، والقرامطة لابن الجوزي (ص ٣٥)، والملل والنحل (١/ ٢٢٨).

(٣٦٨) الإسماعيلية: فرقة باطنية، تُنسب إلى إسماعيل بن جعفر الصادق، الذي توفي في حياة والده، وأقاموا لهم عدة دول، منها العبيدية بمصر والمغرب، المسماة زوراً بالدولة (الفاطمية) والتي استمرت زهاء ثلاثمائة سنة، والدولة الصليحية في اليمن، وهي كبقية الفرق الباطنية الأخرى، تسعى إلى هدم الدين، وإلغاء الشرائع، واستباحة المحرمات، وعقائدهم في الألوهية والنبوة والمعاد تكاد تكون صدى لآراء الفلاسفة، ومتفقة كما يقول الغزالي، ومن فروع الإسماعيلية: البهرة، والحشاشين، والآغاخانية،

الباطنية، أو التعليمية، أو الرافضة.. ووُجد بعضهم باسم القرامطة، وبعض آخر باسم الدروز(٣٦٩)، أو الحاكميين في الشام، وبعض ثالثٌ باسم الفاطميين أو العبيديين بمصر، وبعضٌ رابع باسم أصحاب الداعي المطلق في اليمن، وبعضٌ خامس باسم النزاريين في الهند، ومن زعمائهم أغان خان... الخ.

وفكر غلاة الشيعة هؤلاء، قام على الاعتقاد بالتثليث: (الله، ومحمَّد، والإمام)، ويعتقدون أن الإمام حلَّت فيه روح الله، فهو معصوم عن الخطأ في قوله وعمله.. وهذا ما حدث في التصوُّف الذين قالوا بالتثليث-أيضاً -وثالوثهم (الله، ومحمَّد، والقطب، وفي القطب حلَّت روح الله؛ فهو معصومٌ، ساقطةٌ عنه التكاليف، واجبٌ التوسُّلُ به، لأنَّه مُنقذُ البشريَّة..!".(٣٧٠)

والعبيدية، والدروز، والإيزيدية، وقدكانوا مصدر فتنة وحرب وكيد على المسلمين، ذاق المسلمون أيام دويلاتهم الويلات. انظر: مقالات الإسلاميين (١/ ١٠٠)، وفضائح الباطنية (ص ٣٨)، والفرق بين الفرق (ص ١٧٨)، والملل والنحل (١/ ٢٢٦).

(٣٦٩) الدروز: طائفة من غلاة الإسماعيلية الباطنية، ألهوا الحاكم بأمر الله المنصور (٤٩٥-٥٢٤ هـ) في أوائل القرن الخامس الهجري، ومن أعظم دعاتها: حمزة بن علي الزوزني، المؤسس الحقيقي للمذهب الدرزي، وهي تنسب إلى محمد بن إسماعيل الدرزي، وهو داعٍ فارسي من دعاة الباطنية، وكان أول من اشتهر بتقديس الحاكم بأمر الله، معتقداً عياذاً بالله الحلول. انظر: موسوعة التاريخ الإسلامي، د. أحمد شلبي (٥/ ١٢٩-١٣٠ هـ).

(٣٧٠) ليس من الإسلام، الشيخ محمد الغزالي (ص ١٣٠).

ويقول الغزالي: "وقد ذهب كثيرٌ منهم إلى الحلول والوحدة، وملئوا الصُّحف منه؛ مثل: (الهروي) في كتاب المقامات وغيره. وتبعهم ابن عربي، وابن سبعين[٣٧١]، وتلاميذهما: ابن العفيف، وابن الفارض، والنجم الإسرائيلي في قصائدهم، وكان سلفهم مُخالطاً للإسماعيلية، والمتأخرين من الرافضة، والدائنين بالحلول وإلهيَّة الأئمَّة، وهو ما لم يُعرف لأولهم! فأُشرب كُلٌّ واحدٍ من الفريقين مذهب الآخر، واختلط كلامهم، وتشابهت عقائدهم..".[٣٧٢]

ومما سبق نجد أن صلة التصوُّف بالفلسفة اليونانية أمراً لا يمكن إنكاره، وخاصة فيما يتعلق بالأفكار والمعتقدات..!.

وتتلخص الأفكار التي نشرها أفلوطين السكندري في أن تزكية النفس لا يمكن إلا بالتبتل عن العلائق والعالم المادي، وتتدرج في مراتب ثلاث، وهي: "التصفية (التجردVia Purgative)"، و"التجلية (المشاهدة Via contemplative)"، باعتبار أنَّ الوجود في حقيقته مرآةٌ تعكس صفات الذات

(٣٧١) هو: عبد الحق بن إبراهيم بن محمد بن سبعين بن نصر بن فتح بن سبعين العتكي الغافقي، نزيل بجاية، ثم مكة، قال عنه ابن حجر: "اشتهر بالزهد والسلوك، وكانت له بلاغة وبراعة، وتفنُّنٌ في العلو، وكثر أتباعه، وله مقالةٌ في تصوف الاتحادية"، هلك سنة (٦٦٩ هـ). انظر: لسان الميزان (٣/ ٣٩٢)، وشذرات الذهب (٥/ ٣٢٩).

(٣٧٢) ليس من الإسلام، الشيخ محمد الغزالي (ص ١٣٣).

المقدسة، التي تجلت بنورها في هذه الموجودات (الرُّوح الكامنة)، ومن خلال التصفية، يتمكن الصُّوفي من الاطلاع على حقيقة هذه الصفات، والاقتباس من نورها، ويتمكن بعدها من مشاهدة الحقّ. و"التحلية (الكشف Via illuminative)"، التي تعني الاستمداد من ذلك النُّور، والتي لا يمكن الوصول إليه إلا بقطع مراحل ثلاث، وهي: الفن والآداب التي يُراد بها "طلب الحقيقة والجمال"، ومن ثمَّ "العشق"، فـ"الحكمة". وبتعبير ذي النُّونِ: "التحير"، ثُمَّ "الافتقار"، ثُمَّ "الاتصال"[٣٧٣] .

ويحكي لنا أفلوطين عن تجربته في الحصول على الاتحاد بينه وبين هذا الأسمى، بقول: "وقد حدث مراتٌ عديدة أن ارتفعتُ خارج جسدي بحيثُ دخلت نفسي، كنتُ حينئذ أحياء وأظفر باتحاد مع الله، يجب أن أدخل نفسي، ومن هنا أستيقظ، وبهذه اليقظة أتحد بالله، ويجب أن أحجب نفسي عن النُّور الخارجي، لكي أحيا وحدي في النور الباطن".[٣٧٤]

ومنها ما يتعلق بنظرية المعرفة الصُّوفيَّة (gnosis)، والتي استعملها اليونان الثيوصوفيون (Theosophists)، وهي معرفة الله رأساً عن طريق الإشراق

(٣٧٣) حلية الأولياء (٩/ ٣٧٤).

(٣٧٤) الفلسفة الصوفية في الإسلام، (ص ٣٣).

الداخلي (الكشف) الذي لا يحتاج إلى دليل أو برهان، بل يعتبر نوعاً من الإلهام الشبيه بالوحي الإلهي عند الأنبياء.[٣٧٥]

على أن الفلاسفة اليونان كان يعتقدون قبل تهذيب الفلسفة بعقيدة الهنود، التي تقول بأن الأشياء إنما هي شيء واحد، وأنه لا فضل للإنسان على الجماد أو النبات إلا بسبب قربه من العلة الأولى، وكان بعضهم يعتقدون أن الوجود الحقيقي هو العلة نفسها، فوجود هذه الكثرة في حكم الخيال، والحق هو الواحد الأول فقط، وأنه قد تتراءى العلة الأولى بصور مختلفة، وتحل قوتها في أبعاضه، وأن السعادة الحقيقية هي في ترك العلائق والوسائل وصولاً إلى الاتحاد والتشابه مع العلة الأولى، وهو عين ما يقوله الفلاسفة والصُّوفيَّة .[٣٧٦]

بالإضافة إلى الوحدة في الأهداف التي ترمي إليها الفلسفة اليونانية من الارتقاء بالنفس من المستوى المادي الوجودي، إلى المستوى المثالي الذي يحقق الإنسانية الكاملة، وعندها يشعر الإنسان بكونه جزءاً لا يتجزأ من العالم الروحي (وحدة الشهود)، ويشعر الإنسان بما في عالم الأفلاك، بالاصطلاح اليوناني القديم، وبالعالم الروحي عموماً، الذي طمح إليه الفيثاغورثيون، وأفلاطون، والرواقيون،

(٣٧٥) التصوف الإسلامي العربي (ص١٤٢). وصفحات مكثفة من تاريخ التصوف (ص ١٣٨).
(٣٧٦) تاريخ التصوف في الإسلام، ترجمة عربية: صادق نشأت (ص ٦٧– ٦٨).

وأصحاب الفكر الأفلاطوني الحديث، الأمر الذي يحقق وجه الصلة بين الفلسفة اليونانية والتصوُّف ببعده الروحي المثالي.[٣٧٧]

وأما عقيدة أفلوطين؛ فتتلخص في إيمانه بالمنشئ الأول، وهو واجب الوجود، وعنه صدر العقل الأول، كما يصدر الابن عن أبيه؛ كأنَّه يتولَّد منه، ولهذا العقل قوة الإنتاج، ولكن لا يمكن أن يتولَّد عنه شيء، ولكن تنبثق عنه الرُّوح التي هي وحدة الأرواح، وعن هذا الثالوث يصدر كل شيء، ومنه يتولَّدُ كُلُّ شيء!.[٣٧٨]

ومما سبق نجد اتفاقاً بين الأفلاطونية الحديثة واللاهوت المسيحي، وعقائد اليهود التي تفرض وجود وسيط بين الله وخلقه، هما: العقل الكلي، والروح الواحدة!.

وقد لاحظ الباحث الدكتور علي حسن عبد القادر شبهاً ظاهراً بين آراء الجنيد الصوفية، وأفكار الفيلسوف اليوناني أفلوطين (ت٢٠٥م) بحيث يمكن أن

(٣٧٧) صفحات مكثفة من تاريخ التصوف (ص ١١٦).

(٣٧٨) محاضرات في النصرانية؛ لمحمد أبو زهرة (ص ٣٦).

يعد هذا التشابه اتصالاً وأخذاً مباشراً أو بالواسطة من هذا الفيلسوف الصوفي اليوناني.(٣٧٩)

يقول الدكتور النشار: "وقد أثبت البحث العلمي أن كثيراً من الآراء الغنوصية اليونانية والإيرانية قد أثرت في التصوُّف والصُّوفيَّة".(٣٨٠)

وقد عرف المسلمون كثيراً من مؤلفات الفلسفة الأفلاطونية الحديثة قبل نهاية القرن الثالث الهجري، مثل "الإيضاح في الخير المحض" المعروف بـ"العلل"، والذي تُرجم من العربية إلى اللاتينية، وقد وضع عليه توما الإكويني (ت ١٣٤٧هـ) شرحه المشهور".(٣٨١)

ثم ظهرت الكتابات التي كتبها كاهن سوري مجهول الاسم، من تلامذة "استيفن بارصديلي" من رجال القرن الخامس الميلادي، وعنوان الكتابات "الله المقدس"، والمعروف أنا تُرجمت فور ظهورها إلى اللغة السريانية، ثُمَّ إلى اللغة اللاتينية، على يدي "سكوتيس أرجينا"، وأنه لم ينته القرن التاسع الميلادي (الثالث

---

(٣٧٩) المرجع السابق نفسه (ص ١٢٤–١٢٥)، وذكر فيه أوجه التشابه بين فكر الجنيد وأفلوطين في ثمانِ نقاط.

(٣٨٠) نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام (٣/ ٤٥– ٤٦).

(٣٨١) انظر: تاريخ التصوف الإسلامي، للدكتور عبد الرحمن بدوي (ص ٤١– ٤٢).

الهجري)، حتى كانت معروفة في العالم النصراني، من ضفاف دجلة حتى المحيط الأطلنطي". [٣٨٢]

وقد كان أثر ذلك على التصوُّف واضحاً، من خلال كلام الصُّوفيَّة في الفيض الإلهي، والتجليات، وأن السعادة الرُّوحية تتحقق بالتخلص من علائق البدن، وأنَّ النفس الإنسانية إذا استكملت قوتي العلم والعمل تشبهت بالإله، ووصلت إلى كمالها[٣٨٣].

ويرى لدكتور عبد الرحمن بدوي في كتابه (الأفلاطونية المحدثة عند العرب) أن بعض رسائل فلاسفة اليونان من أمثال (هرمس) في رسالته (معاذلة النفس)، والتي تُعدُّ مناجيات للنفس، وتحليلٌ لها، وتأنيبٌ للنفس الأمارة، ودعوة للنفس من أجل التطهر والتقدس، مشابهة لمناجيات مسلمي الصوفية.. بل إن هناك فصولاً منسوبة لأفلاطون وسقراط، معظمها آداب وأقوال تتشابه مع الأقوال المنسوبة إلى كبار الصُّوفيَّة في كتب الطبقات المختلفة (القشيري، السلمي، الشعراني، الهروي، العطار، الجامي...إلخ. [٣٨٤]

---

(٣٨٢) نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام (٣/ ٤٦).

(٣٨٣) الملل والنحل، للشهرستاني، تحقيق عبد العزيز محمد الوكيل (٢/ ٣٨٩).

(٣٨٤) انظر: تاريخ التصوف الإسلامي، للدكتور عبد الرحمن بدوي (ص ٤١– ٤٢).

ونجد الفرق واضحاً بين الجنيد الصُّوفي الواعي لما حوله، والذي عبَّر عن أحواله تعبيراً عقلانياً، مع إضفائه صفة المشروعية على مذهبه، بينما نجد البسطامي غارقاً إلى حقويه في تعبيراته إلى حدِّ السكر والهذيان، هذا مع ثناء الجنيد الكبير على أبي يزيد البسطامي، فرووا عن الجنيد قوله: "أبو يزيد منا منزلة جبريل من الملائكة".(٣٨٥)

يقول التفتازاني: "ونحن لا ننكر الأثر اليوناني على التصوف الإسلامي، فقد وصلت الفلسفة اليونانية عامة والأفلاطونية المحدثة الخاصة إلى صوفية الإسلام عن طريق حركة الترجمة والنقل، أو الاختلاط مع رهبان النصارى في الرها وحرَّان.

وقد خضع المسلمون لسلطان أرسطو بفلسفته الإشراقية، وهو إمام المشائين(٣٨٦)، وكان قد قدمها "عبد المسيح بن ناعمة الحمصي" على أنها أثولوجيا –أي لاهوت– أرسطوطاليس (Theologies' des Aristotle's) في

(٣٨٥) كشف المحجوب للهويجري (ص ٣١٣).

(٣٨٦) الفلاسفة المشائين: هم أرسطو وأتباعه، وسموا بالمشائين؛ لأن أرسطو كان من عادته أن يُلقي الدروس على تلاميذه وهو يتمشى، وهم يمشون خلف، وتبعهم غير واحدٍ من الفلاسفة المنتسبين إلى الإسلام كالفارابي، وابن سينا. انظر: مجموع الفتاوى (٥/ ٩)، وتاريخ الفلسفة اليونانية؛ لأحمد أمين (ص ١١٣).

حين أنها مقتطفات من تاسوعات أفلوطين، ولا يشك أحد في أثر فلسفة أفلوطين السكندري في التصوف الإسلامي، فيما نجده من كلام متفلسفي الصوفية عن المعرفة، والفيض (ترتيب الموجودات).

ونجد ذلك الأثر عند كثير من الصوفية المتفلسفين من أمثال: السهروردي المقتول، ومحيي الدين بن عربي، وابن الفارض، وعبد الحق بن سبعين، وتلميذه الششتري، وعبد الكريم الجيلي، والعفيف التلمساني، والقونوي، وابن هود، والصفار، وابن المظفر، وابن أحلا، وابن ذي سكن، ومن نحا نحوهم، ونلاحظ أن هؤلاء المتفلسفين على الطريقة اليونانية قد استعملوا كثيراً من مصطلحات هذه الفلسفة، مثل: الكلمة، الواحد، العقل الأول، العقل الكلي، العلة، والمعلول، الكلي...الخ".[٣٨٧]

وإذا كان التفتازاني يعترف بالمصدر اليوناني للتصوف عند المسلمين، فإنه ملزمٌ بإثبات المصدر المسيحي الذي حاول إنكاره من قبل، إذ أن مدرسة "أفلوطين السكندري" تمثل المسيحية، كما أنها تمثل اليونانية [٣٨٨].

---

(٣٨٧) المدخل إلى التصوف الإسلامي (ص ٣٩-٤٠). وقواعد التصوف؛ لأحمد زروق (ص ١٢١).

(٣٨٨) العقائد الدينية في مصر المملوكية (ص ٢١).

ويقول الدكتور عمر الشيباني: "أما كتاب "الأثولوجيا" أو "الربوبية" الذي يُصوِّرُ صعود النفس إلى العالم العلوي بالرياضة والتأمُّل، حتَّى تخترق حجب الغيب، وتصل إلى نور الأنوار؛ فإنه عبارة عن مقتطفات من "تاسوعات" أفلوطين (التاسوعة الرابعة، والخامسة، والسادسة)، وقد جمعها مؤلف سرياني، ونقلها إلى العربية عبد المسيح بن ناعمة الحمصي على أنها من مؤلفات أرسطو، وقد بالغ ابن سينا في إنكار ذلك!".[٣٨٩]

وهذا يقودني للإشارة إلى كتاب خطير لرأس الحكمة اليونانية "أرسطو"، وهو كتاب (سر الأسرار) والذي ترجمه إلى العربية "يوحنا بن البطريق" في القرن الثالث الهجري، وهو يبحث اساساً في تدبير السياسة، وقد امتلأ في الوقت نفسه بفصول طويلة في علوم الأسرار، وهي علوم الطلسمات، والنجوم، والسِّحر، وفيه قواعد عديدة يمكن بواسطتها استخراج الغالب والمغلوب في الحروب!.[٣٩٠]

ولا يهمنا إذا كان ابن خلدون يطعن في صحة نسبة هذا الكتاب لأرسطو، بحجة أنَّه بعيدٌ أن منطق أرسطو وطريقته البرهانيَّة تأبيان ذلك! فإننا نجد من

---

(٣٨٩) مقدمة في فلسفة الإسلام، عمر الشيباني، (ص ٥٩).

(٣٩٠) مقدمة في فلسفة الإسلام، عمر الشيباني، (ص ٥٩)، نقلاً عن محمد عبد الرحمن مرحبا في كتابه (من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية، (ص ٣٢٠– ٣٢٢).

المؤرخين غيره من يثبته، ولا نستبعد ميول ابن خلدون الخاصة عند إصداره مثل هذا الحكم !.

ونعود مرةً أخرى إلى الحلاج الذي تأثر أيضاً بالفلسفة الغنوصية (التجربة الروحية) وآرائها في الخلق، فقد كان يرى أن الله أحب ذاته المقدسة، فأدى ذلك إلى إخراج نفسه على صورة إنسان، ثم خلق البشر ومخلوقات العالم، وهذا هو رأي الغنوصيين الذين قالوا: "إن الله ظهر بصورة إنسان قبل إيجاد الناس، ثم خلق البشر على صورته تلك"، وتتجلى تلك الفكرة في نص شعريٍّ له، يمزج فيه الحلاج آدم بالمسيح، فيقول:

سبحان من أظهر ناسوته سرَّ سنا لاهوته الثاقب

ثُمَّ بدا لخلقه ظاهراً في صورة الآكل والشَّارب

حتى لقد عاينه خلقه كلحظ الحاجب بالحاجبِ[٣٩١]

(٣٩١) انظر ديوان الحلاج، ت: ماسينون، (ص ٤١).

فالمقصود من البيت الأول هو آدم الذي تتجلى في ناسوته (أي جسده) الأسماء والصفات الإلهية، فآدم هو الصورة المصغرة للعالم الكبير، وهو سر الله؛ لأن فيه روح الله التي نفخت في الجسد البشري.

أما المقصود بالبيت الثاني، فهو المسيح الذي ظهر به الله مرة أخرى على صورة إنسان يأكل ويشرب، ولكنه يحيي الموتى ويصنع المعجزات، ويتصرف في الكون تصرف من ليس جزءاً منه، فهو على حد تعبير الحلاج: الله ظهر في صورة إنسان، ويبدوا أن البيت الثالث يتصل بالمسيح أيضاً، باعتباره يعكس الفكرة والمنهاج الذي ينبغي للتصوف أن ينصب فيهما.

وتتلخص فكرة الحلاج في أن الإنسان ينبغي عليه أن يتخلص من جسده إذا لزم الأمر، لأنه في الأصل نورٌ شعَّ في جسد آدم، ثم أضاء في جسد المسيح، ثم أنار في جسد الحلاج!.. وكان تطبيقه لهذا المبدأ عملياً بحيث كانت وجهته نحو القتل والصلب طريقاً للتطهير الروحي، والاتجاه نحو المثل الأعلى (٣٩٢)، إلى أن مات مقتولاً في أوائل القرن الرابع.

---

(٣٩٢) صفحات مكثفة من تاريخ التصوف (ص ١٤٥).

ووقفة أخرى مع السهروردي (يحيى بن حبش بن أميرَك= تصغير أمير بالفارسية) المقتول سنة (٥٨٦هـ/ ١١٩٠م)(٣٩٣) وهو رئيس (جماعة الإشراقيين)، والذي ولد في سهرورد غربي إيران في المنطقة الجبلية القريبة من همدان، وكان لهذه القرية اتصال قديم بالتحرر الديني، ووصفت فيما مضى بالزندقة، وظلت هذه القرية عامرة إلى القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)، لما هوجمت وشُرِّد سكانها، ولم يتبقَّ منهم إلا قلة كانت منهم أسرة السهروردي، وبدأ السهروردي في تكوين ثقافته الفلسفية على يد مجد الدين الجَبَلي –نسبة إلى الجبل شمال غربي إيران– ومن هناك توجه السهروردي إلى مراغة (عاصمة أذربيجان) التي أصبحت مركزاً علمياً عظيماً أيام الدولة الإيلخانية، وجعل يتنقل بين الأساتذة هناك، وبعد

---

(٣٩٣) هو الفيلسوف الصُّوفي أبو الفتوح يحيى بن حبش بن أميرك شهاب الدين السهروردي، نسبة إلى سهرورد من العراق العجمي (الكردي)، نعته الذهبي بـ "العلامة، الفيلسوف، السيماوي، المنطقي، من كان يتوقد ذكاءً، إلا أنه قليل الدين"، وقال: "كان أحمق طيَّاشاً مُنحلّاً"، قتل سنة (٥٨٧ هـ).
كان مزدرياً للعلماء، مستهزئاً رقيق الدين، حكم بكفره فقهاء حلب، وكتبوا بذلك كتاباً إلى السلطان العادل صلاح الدين الأيوبي رحمه الله، فأرسل إلى ولده الملك الظاهر غازي ملك حلب يأمره بقلته –وكان السهروردي قد لبَّس على الظاهر، وحظي عنده بمكانة خاصة، فذكر أنه خيَّره بين أنواع القتل، فاختار أن يموت جوعاً، فمُنع عنه الطعام حتى هلك، وقيل: إنه مات مخنوقاً، والأول أشهر، ومن مؤلفاته "التلويحات"، و"اللمعة"، و"هياكل النور"، و"حكمة الإشراق"، وكلها في الفلسفة والضلالات، مات سنة (٥٨٧هـ)، عن ستة وثلاثين عاماً. انظر: وفيات الأعيان (٦/ ٢٦٨)، وسير أعلام النبلاء (٢١/ ٢٠٧)، والعبر (٤/ ٢٩٠).

ذلك ذهب السهروردي إلى أصفهان لدراسة كتاب (بصائر النُّصيرية) للساوي، على يد ظهير الدين الفارسي، وهو تلخيص لمنطق الشفاء لابن سينا، وفي أصفهان ترجم السهروردي (رسالة الطير) لابن سينا إلى الفارسية، ومن هناك ذهب إلى بلاد الروم (تركيا حالياً)، واستقر في ديار بكر، وألّف أول رسالة أظهر فيها استقلاله الإشراقي عن الفلسفة المشائية، واقترابه من الفلسفة الأفلاطونية، وهي رسالة (الألواح العمادية)، ثم توجه إلى الشام وجعل يناظر ويجادل أقرانه الفلاسفة حتى حاز على إعجاب الملك الظاهر ابن صلاح الدين الأيوبي، فاختصَّه بالمودة والتقريب، ولم يصمد السهروردي أمام خصومه الفقهاء الذين رأوا فيه خطراً على الإسلام والمسلمين، خاصَّة وأن الحاجة ملحة للتوحد أمام الغارات الصليبية، وإشغال الناس بهذه الترهات والتفاهات هو تفاهةٌ أخرى من وجهة نظر الفقهاء، ويبدوا أن هذه الاتهامات لاقت اهتماماً من صلاح الدين الأيوبي، الذي أنشأ كتاباً بخط القاضي الفاضل، يوافق فيه على اتهام الفقهاء للسهروردي، فأباح دمه وحكم عليه بالإعدام، ولم يستطع الملك الظاهر إنقاذ صديقه، فقُتل صبراً (تجويعاً) أو خنقاً سنة (٥٨٦هـ/١١٩٠م) [٣٩٤].

---

(٣٩٤) صفحات مكثفة من تاريخ التصوف (ص ١٤٨-١٥٠).

ويبدو أن السهروردي جاء في وقت سقطت فيه الدولة الفاطمية في انقلاب قام به صلاح الدين الأيوبي؛ فكان بذلك يخشى من أي حركة يشتم منها إعادة الحكم الفاطمي إلى سابق عهده، وإذا كان الحلاج يصدر عن نزعة روحية شبيهة بأفكار الإسماعيلية (القرامطة)، فاتهم على أساسها بدعوته إليها، كذلك اعتبر السهروردي من دعاة القرامطة، ومن المتآمرين على الدولة الأيوبية، خاصَّة وأن له كلاماً في التأويلات الباطنية للقرآن، ونظراته في النبوة على صورة لم يألفها المتكلمون من قبل، ويبدوا أن أكثر ما لفت الأنظار إلى السهروردي هو كلامه في العقائد الشيعية القائلة: "لا تخلو الأرض من حجة"، أي مُلهم يكون أعمق فهماً وأكثر اتصالاً بالعالم الروحي من النبي نفسه، ومن ثمَّ قال بتفضيل الولي الصُّوفي على النبي، ويرى الباحثين أن دعوة السهروردي كانت منصبة في الدعوة إلى الإمام الإسماعيلي باعتباره القطب الصوفي، والإمام الشيعي في وقت واحد معاً؛ لأنه باعتقاده من أسرة ذات سمو روحي، خلقها الله قبل آدم للقيام بهذه المهمة، فهو خليفة الله على الأرض، وممثل لقوته وسلطته في هذا العالم [٣٩٥].

أما الفقر الذي كان بادياً على السهروردي فله قصةٌ أخرى، فقد ذكر المؤرخون أنه كان يتحرّاه تحرياً، وزعم أنه لما أزرى أحد المعترضين عليه بفقره،

(٣٩٥) صفحات مكثفة من تاريخ التصوف (ص ١٥٠-١٥١).

وقذارة ثيابه، أخرج للمعترض عليه جوهرةً، قدر ثمنها بثلاثين ألف درهم، ولم يكن من السهروردي إلا أن كسرها أمامه، ومع ما يبدو من تهافت هذه القصة، لاستحالة كسر الجواهر، إلا أن مثل هذه الحكاية تدل على صدور السهروردي عن منهج مرسوم كان من متممات مذهبه الصُّوفي (٣٩٦).

ويذكر ابن العماد الأصفهاني في كتبه "البستان الجامع لتواريخ الزمان" أن الفقهاء في حلب ناظروا السهروردي حول إمكان الله بعث نبي جديد، وأنه قال بذلك، وأن هذا كان أحد الأسباب التي أدت إلى قتله (٣٩٧)، وقد أشار السهروردي إلى ذلك في كتابه "حكمة الإشراق"، فذهب إلى "وجود قطب متوغل في التألُّهِ، لا يخلوا العالم منه، يكون خليفة الله في أرضه، ويتلقى عنه...!" .(٣٩٨)

---

(٣٩٦) صفحات مكثفة من تاريخ التصوف (ص ١٥٢).

(٣٩٧) نقلاً عن الفلسفة الصوفية في الإسلام، لعبد القادر محمود (ص ٥٩٢)، ويوافق الدكتور محمد علي أبو ريان في كتابه "أصول الحكمة الإشراقية" (ص ١٩) على ذلك، ولكنه يدافع عن السهروردي، بأنه قال ذلك حفظاً للقدرة الإلهية من إلحاق النقص بها، فقرر إمكان خلق نبي جديد"، ولا يُقبل هذا التبرير من الدكتور أبو ريان؛ لأن النبوَّة اختتمت بمبعث خاتم الرسل والأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم، وبالخبر الصادق الدال على ذلك.

(٣٩٨) انظر: حكمة الإشراق، (ص ٣٧١).

ويقول في كتابه "هياكل النور" فإذا ما تجردنا عن الملذات الجسمية، تجلى لنا نورٌ إلهي لا ينقطع مدده عنا..!" (٣٩٩) ، وهذا يؤكد حقيقة ما نُسب إليه من التُّهم والآثام.

وقد لخَّص لنا السهروردي المقتول التصوُّف بقوله: "وأما أنوار السلوك في هذه الأزمنة فخميرة الفيثاغوريين، رُفعت إلى أخي أحميم (أي ذي النون المصري)، ومنه نزلت إلى سياد تستُر (أس سهل التستري)، وشيعته، وأما خميرة الخسراونيين في السلوك فهي نازلةٌ إلى سيار بسطام (أبو يزيد البسطامي)، ومن بعده إلى فتى بيضاء (الحلاج)، ومن بعده إلى سيار آمل وخرقان (أبي الحسن الخراقاني)" (٤٠٠).

أضف إلى ذلك الكرامات المنتحلة، والتي هي من لوازم الولي الصُّوفي، الدالة على صدقه وصحة مسلكه، وكما ذُكرت كرامات للصوفية الكبار كذلك نسب للسهروردي جميع ما نسب للحلاج وزيادة، ومن ذلك إظهاره قصوراً على الأفق وإزالتها، وقد ناقش ذلك ابن تيمية وعلَّله فيما بعد، وكذلك كراماته المتعلقة بتصرفه في أعضاء البدن بالخلع والإعادة، وسواءً كان ذلك حقاً أو باطلاً إلا أن مثل هذه الظروف تستوجب إلصاق بعض الكرامات المختلفة التي تحيط شخصية

---

(٣٩٩) انظر: هياكل النور، للسهروردي (ص ٤٤).

(٤٠٠) ولاية الله والطريق إليها، لإبراهيم هلال (ص ١٧١).

السهروردي بشيء من القداسة، مثله في ذلك مثل الشخصيات الصوفية البارزة.[٤٠١]

وقد جمع الراهب السوري "ديونيسيوس الإديوباغي" في القرن الخامس الميلادي كتاباً سمّاه "مبادئ الإلهيات"، والذي وصف فيه إشراق الله على النفوس، ويُسمي الله نوراً؛ فهو النور العقلي، وشمس العقول، وهو جمال المحبة، وجميع الموجودات صادرة عنه، محاكياً في ذلك أفكار السهروردي، أما الشر فهو عدم وجوده، وقد نقل السريان طائفة مختارة من هذا الكتاب، وأسموها "الإيضاح في الخير المحض".[٤٠٢]

ومما لا شكَّ فيه أنَّ "المثنوي" الذي جاء به الرُّومي يضمُّ أفكاراً من الأفلاطونية المحدثة، بالإضافة إلى اقتباساته من التراث المسيحي؛ وكان قد تعرَّف على أفكار ابن عربي بواسطة صهره (صدر الدين القونوي)، وبخاصَّة أنَّ الأفكار (الهيلينية) كانت لا تزال رائجة في مناطق الروم، وبخاصَّة (قونية **Konya**)، التي عاش فيها "أفلاطون" عدة سنوات، وكان أفلاطون ساحراً كبيراً؛ حتَّى سُمِّي نبع ماء

(٤٠١) صفحات مكثفة من تاريخ التصوف (ص ١٥٢).

(٤٠٢) مقدمة في فلسفة الإسلام، د. عمر الشيباني (ص ٥٩).

(بالقرب من بحيرة **pisahr**) في تلك المنطقة بـ"أفلاطون بينارلي" (**Eflaton Pinari**)، أي: نبع أفلاطون!.[٤٠٣]

والخلاصة التي نخرج بها؛ هي: أنَّ الأفكار اليونانية المتمثلة بالغنوصية، والأفلاطونية الحديثة، تُعدُّ من أهم مصادر التصوُّف الشرقي، وهي شبيهةٌ بما يفعله الصُّوفيَّة من أنهم يتوصلون إلى المعرفة من خلال الكشف والشهود، والتركيز على محاربة الجسد، وكما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله متحدثاً عن فلاسفة الصوفية: "فجاء هؤلاء الذين أخرجوا الفلسفة في قالب الولاية، وعبروا عن المتفلسف بالولي، وأخذوا معاني الفلسفة وأظهروها في صور المكاشفة، والخاطبة، وقالوا: إن الولي أعظم من النبي، لأن المعاني المجردة يأخذها عن الله بلا واسطة تخيل لشيء في نفسه، والنبي يأخذها عن الله بواسطة ما يتخيل في نفسه من الصور والأصوات، ولم يكفهم هذا البهتان، حتى ادعوا أن جميع الرسل والأنبياء يستفيدون العلم بالله من مشكاة خاتم الأولياء، الذي هو من أجهل الخلق بالله، وأبعدهم عن دين الله، والعلم بالله عندهم هو العلم بأنه الوجود المطلق الساري في الكائنات، فوجود كل موجود هو عين وجود واجب الوجود.

---

(٤٠٣) الأبعاد الصوفية في الإسلام، آنا ماري شيمل (ص ٣٥٩).

وحقيقة هذا القول هو قول "الدهرية الطبيعية"[٤٠٤] الذين ينكرون أن يكون للعالم مبدع أبدعه، وهو واجب الوجود بنفسه، بل يقولون: العالم نفسه واجب الوجود بنفسه، فحقيقة قول هؤلاء شرٌّ من قول "الدهرية الإلهيين"، الذين يقولون بقدم العالم، ومع ذلك هم يثبتون مبدعاً واجباً بنفسه أبدعه، وكلاهما في طريقي ضلال، لأن علومهم بمعزل عن الوحي المعصوم، وقولهم عائد عند التحقيق إلى قول الدهرية الطبيعيين[٤٠٥].

٦. المصدر الإسلامي للتصوُّف:

ويذهب الصُّوفيَّة، وعددٌ قليلٌ من الباحثين إلى أنَّ التصوُّف مذهبٌ إسلاميٌّ بحت في أشكاله وصوره، ومبادئه ومناهجه، وأصوله وقواعده، مع تأثره بالعناصر الأجنبية من فلسفات وأديان وفِرق من أهمها الشيعة، وفي وقت مبكر من القرن

(٤٠٤) الدهرية: هم طائفة من الأقدمين، جحدوا الصانع المدبر العالم القادر، وزعموا أن العالم لم يزل موجوداً كذلك بنفسه، بلا صانع، ولم يزل الحيوان من النطفة، والنطفة من الحيوان، كذلك كان، وكذلك يكون أبداً". انظر: المنقذ من الضلال (ص ٩٦).

(٤٠٥) الايمان الأوسط لابن تيمية (ص ٥٠٨- ٥٠٩).

الرابع الهجري، كان يُنظر إلى أفكار كُلٍّ من التصوُّف والتشيُّع أنَّها أفكارٌ متشابكة ومتداخلة .[٤٠٦]

ومن تزعم هذا الرأي أبو نصر السراج الطُّوسي، وابن خلدون قديماً[٤٠٧]، ونيكلسون[٤٠٨]، والدكتور محمد مصطفى حلمي[٤٠٩]، والدكتور أحمد السايح الذي يرى أنَّ الدين بدون تصوُّف يكون ناقصاً![٤١٠] ، وأبو العلا العفيفي الذي يرى أنَّ التصوف يمثل العاطفة الدينية الحارَّة للإسلام[٤١١]، وعبد القادر عطا الذي يرى أنَّ التصوُّف هو الملاذ الوحيد للأمَّة لاستعادة مجدها وقوتها الضائعين![٤١٢] ، الرحمن عميرة الذي يدَّعي أن التصوُّف هو روح الإسلام وجوهره، منه ينبع، وإليه ينتسب![٤١٣] ، هكذا قالوا !، وكذلك فإن المتصوفة قاطبة يؤيدون هذا الرأي.[٤١٤]

---

(٤٠٦) الأبعاد الصوفية في الإسلام، آنا ماري شيمل (ص ٥٢).

(٤٠٧) مقدمة ابن خلدون (ص ٣٩٣).

(٤٠٨) مقدمة الجواهر السنية والكرامات الأحمدية، د. أحمد السنية (ص ٧).

(٤٠٩) الحياة الروحية في الإسلام، د. محمد مصطفى حلمي (ص ٢٧).

(٤١٠) مقدمة الجواهر السنية والكرامات الأحمدية، د. أحمد السنية (ص ٧).

(٤١١) التصوف الثورة الروحية في الإسلام (ص ٩٦).

(٤١٢) التصوف في عصر النابلسي (ص ١٨).

(٤١٣) التصوف الإسلامي منهجاً وسلوكاً (ص ٥).

(٤١٤) انظر: تاريخ التصوف الإسلامي، منذ البداية حتى نهاية القرن الثاني، د. عبد الرحمن بدوي (ص ٤٧).

واستدلَّ الطُّوسيُّ على أنَّ التصوُّف كان معروفاً ومشهوراً في القرن الأول، بروايتين:

الأولى: أنَّ الحسن البصري (ت ١١٠ هـ) كان يعرف هذا الاسم، حيث أدرك جماعةً من الصحابة، ورأى صوفياً في الطواف، فأعطاه شيئاً فلم يأخذه !.

ويُجاب عن هذه الرواية أن يُقال: إن الحسن البصري كان قد ولد سنة (٢٠ هـ)، وعاش حتى عام (١١٠ هـ)، وهذا يعني أنه عاش حتى بداية القرن الثاني الهجري، فيحتمل أنه رأى هذا الرجل الصوفي في آخر حياته وليس في أولها، ولكن يُقال إن

.

الثانية: أن سفيان الثوري، قال: "لولا أبو هاشم الصُّوفي ما عرفتُ دقيق الرياء"، غير أنَّ الطُّوسي لم يوضح وجه الدلالة من هذه الرواية، التي أثبت من خلالها أن التصوُّف وُجد في عهدٍ مبكر من الإسلام !.

وعند التدقيق في رواية الطُّوسي الثانية، نجد أنَّ أبا نُعيم في حليته يُسمي أبا هاشمٍ (فُدَيم)، ويقول فيه: "من متقدمي بغداد، جلس إليه سفيان الثوري فحمد طريقته

وملازمته للصفاء والوفاء، لا نحفظ من كلامه شيئاً إلا ما حكاه عنه الثوري أنه قال: ما زلت أرائي وأنا لا أشعر إلى أن جالست أبا هاشم، فأخذت منه ترك الرياء"[(٤١٥)].

بينما ترجم له الخطيب في تاريخه، بـ(أبي هاشم الزاهد)، وقال: "سمعتُ أبا نُعيم يقول: وبلغني أن سفيان الثوري جلس إليه، نظر أبو هاشم إلى شريك القاضي، يخرج من دار يحيى بن خالد، فبكى، وقال: أعوذ بالله من علم لا ينفع"[(٤١٦)].

بينما يرى آخرون أن أبو هاشم هو عثمان بن شريك الكوفي، المتوفى سنة ١٥٠هـ بالشام بعد أن انتقل إليها [(٤١٧)].

وما استدل به الطوسي نجده دليلاً على خلاف قوله، لأن سفيان الثوريّ السُّنِّي وُلِدَ عام (٩٧هـ)، وخرج من الكوفة سنة (١٤٤هـ) فسكن المدينة، وهذا يشير إشارة واضحة بأنَّ التقاءه بأبي هاشم الصُّوفي في القرن الأول الهجري، لا أساس له من الصحة، وقد راج ذلك عند متأخري الصوفية، كأبي نصر الطوسي.

---

(٤١٥) انظر: اللمع للطوسي (ص: ٤٢)، وحلية الأولياء؛ لأبي نعيم (١٠/ ١١٢). وسلم الوصول إلى طبقات الفحول؛ حاجي خليفة (ت ١٠٦٧هـ) (١/ ١٠٦).

(٤١٦) تاريخ بغداد؛ الخطيب البغدادي (١٦/ ٥٧٣، رقم: ٧٦٦١)، ت: بشار.

(٤١٧) نشأة بدع الصوفية، د. فهد الفهيد، (ص ٢٠).

والحق أن هذا اللقاء إن تمَّ فقد كان في القرن الثاني للهجرة، وهو خلاف ادعاء الطوسي أن التصوف وجد في أول عهد الإسلام، ذلك أنَّ أبا هاشم توفي عام (١٥٠هـ)، وأبو هاشم في أواخر المائة الأولى لم يتجاوز عمره ثلاث سنوات؛ إذن لم يكن التصوُّف معروفاً في القرن الأول الهجري![٤١٨] .

بينما استدلَّ الآخرون بأنَّ التصوُّف هو المبالغة في الزهد والتقشف، ومع ذلك فإن الصُّوفيَّة أنفسهم، لا ينكرون تأثرهم بالديانات والفلسفات الأجنبية، التي حاولوا تطويعها وتأويلها وإعادة صياغتها لتلائم البيئة الإسلامية، بحيث أضحى من الصعوبة الفصل بين العناصر الإسلامية وغير الإسلامية[٤١٩] ، بينما يرفض آخرون انتماء التصوُّف إلى غير العرب والمسلمين[٤٢٠] .

ويرى الدكتور عبد الحليم محمود: أن التشابه الذي نراه بين الصوفية وبين ما يماثلها في البيئات الأخرى، هو أمرٌ طبيعيٌّ، لا يحتاج إلى فرض استعارة، ذلك أن جميع العقائد تتحد في جوهرها، وإن اختلفت فيما تلبسه من صور.[٤٢١]

(٤١٨) انظر: موقف ابن تيمية من التصوف والصوفية ،(ص ٨٣).

(٤١٩) التصوف الإسلامي، د. فيصل بدير عون (ص ٦١).

(٤٢٠) قضية التصوف، المدرسة الشاذلية (ص ٣٥٢).

(٤٢١) الفيلسوف المسلم، لعبد الحلي محمود (ص ١٠٤).

يقول أبو الوفا التفتازاني: "من الأدق عدم إطلاق اسم الصُّوفيَّة على زهاد المسلمين حتى أواخر القرن الثاني، وذكر أن مثل هذا الزهد لا تنطبق عليه خصائص التصوف".(٤٢٢)

وفي رأينا أن العناصر الأجنبية لو لم تجد لدى البيئة الإسلامية مجالاً خصباً لقيام التصوُّف لما صحَّت نشأته، ولما كان له وجود في العالم الإسلامي، فإن البذور الأولى للتصوُّف نمت أصلاً بتأثير التيارات الخارجية التي روته، وتلك التيارات كان بوسعها أن تقيم "التصوُّف" بمفردها في المجتمع الإسلامي حتى ولو لم يكن هنالك إسلام !.

وفي الحقيقة أن الأمر الذي دفع إلى القول بإسلاميَّة التصوُّف هو قيام المتقدمين منهم بخلط الفلسفة الصوفية بأصول الكتاب والسُّنَّةِ والآثار، وكان العهد قريبٌ من السَّلف الأوائل، فلم يظهر الفرق جليّاً بين ما هو سُنَّة وما هو بدعة! فأما المتأخرون فكثيرٌ منهم جرَّد ما وضعه المتقدمون، وجعل الأصل ما روي عن متأخري الزُّهاد، وأعرض عن طريق الصحابة والتابعين، كما فعل صاحب (الرسالة) أبو القاسم

(٤٢٢) المدخل إلى التصوف الإسلامي (ص ١٠٧).

القشيري، وأبو بكر محمد بن إسحاق الكلاباذي في (تعرُّفه)، وابن خميس الموصلي في (مناقب الأبرار)، وأبو عبد ارحمن السلمي في (تاريخ الصوفية).[٤٢٣]

فإننا قد نختلف معهم في فهم نصوص القرآن الكريم، والسنة النبوية، وقد لا نقر ما يقررونه ويقولون به، وقد نعترض على أقوال كثيرة نطقوا بها، ما يفسر صعوبة المواءمة بين التصوُّف وبين الإسلام، باعتبارهما مختلفين في الأسس والأهداف والمقاصد.

وقد أصاب موضوع التصوُّف في قرنه الأخير الكثير من عناصر الجدل والضعف، المتمثلة في المناقشة العلمية لحقيقة المذهب وأهم آرائه، وتاريخ نشأته وتطوره، في ضوء جملة من الحقائق الشرعيَّة، والموازين الفقهية الدقيقة، التي لم يجد المتصوفة أمامهما مناصاً إلا أن يعترفوا ويُقرِّوا بخطئهم، ويُجاهروا بتوبتهم، كلما اضمحلَّ بهم الدليل، وأعوزتهم الحُجَّة، ومن أهم الموضوعات الفكرية والسلوكية التي كانت ولا زالت عُرضةً للجدل نتيجة الانحراف الصوفي فيها[٤٢٤]:

١) فكرة الفناء:

---

(٤٢٣) مجموع الفتاوي (١٠/ ٣٦٨).

(٤٢٤) انظر: التصوف من إشكاليه الفهم إلى تيه الممارسة، الأستاذ عيد علاوي (ص ١٣٦).

وفكرة الفناء هي أبعد ما يكون من أخلاق الحياة كما قررها القرآن بآياته، وبينها النبيُّ ﷺ بسلوكه وحديثه، والصحابة بممارساتهم المختلفة التعبدية منها والدنيوية، وإلى جانب فكرة الفناء لا تستقيم مع عقيدة التوحيد.

٢) السلوكيات الشركية المنافية للإسلام:

ولا تزال الطرق الصوفية حتَّى الآن، تُمارس الشرك بأنواعه الجلي منه والخفي، من الطواف حول الأضرحة، وتداول الشطحات الكفرية، وتعليق التمائم والحُجُب، واعتقاد نفع الشيخ وتأثيره، وبركته، وجاهه عند الله، وغير ذلك.

٧. المصدر الشيعي للتصوُّف [٤٢٥]:

تطور حزب الشيعة تطوراً عظيماً بعد حرب صفين ومقتل علي بن أبي طالب ﷺ، وصبغت مبادئ الشيعة السياسية بصبغة دينية، وبعد مقتل علي ظهرت جماعة الشيعة السبئية بقيادة اليهودي عبد الله بن سبأ اليهودي، الذي نادى بالرجعة، فعليٌّ قد صعد إلى السماء، وسينزل إلى الدنيا وينتقم من أعدائه!!.

وفي ضوء الظروف السياسية الخانقة التي مارستها الدولة الأموية على أبناء البيت العلوي، وبخاصَّة بعد مقتل الحسين، اتجهت الفرق الشيعة اتجاهاً دينياً في التشيع، غلب على الجانب السياسي، وتفرعت الشيعة إلى عدة فرق، أشهرها: السبئية، والإمامية، والكيسانية.

وفي أواخر العصر الأموي، ظهرت فرق أخرى شيعية، وكان توجُّه في هذه المرحلة إلى الدعوة السرية، أو ما يسمونه (التقيَّة والكتمان) للعقائد، نتيجة اضطهاد الخلفاء والولاة الأمويين لجماعات الشيعة [٤٢٦].

---

(٤٢٥)

(٤٢٦) أبو عبد الله الشيعي، د. علي حسني الخربوطلي (ص ٧– ٩).

ولما انفرد العباسيون بالخلافة سنة (١٣٢هـ)، قامت ضدهم ثورات علوية متتابعة، أشهرها: ثورة محمد بن الحسن (النفس الزكيَّة)، في عهد الخليفة العباسي الثاني أبي جعفر المنصور، وثورة الحسين بن علي في عهد الخليفة الرابع (محمد الهادي)، وثورتي يحيى وإدريس ابني عبد الله في عهد الخليفة الخامس هارون الرشيد.

وقد تولى أكبر هذه الثورات الزيدية من فرق الشيعة، وإمامها زيد بن علي بن الحسين، الذي خرج على هشام بن عبد الملك بالكوفة، فقتل وصلب بكناسة الكوفة، وتغيرت الزيدية من بعده.

ومن الجدير بالذكر أن زيداً رحمه الله كان ينتحل نحلة المعتزلة، إذ أنه كان ذا صلة بواصل بن عطاء شيخهم، وأخذ عنه آراءها في أصول الدين، وكان يرى أن مرتكب الكبيرة خالدٌ مُخلَّدٌ في النار، ومع ذلك فإن الشيعة كانوا يبغضون واصلاً لأنه لم يكن يُصرِّحُ بأن عليّاً كان معه الحقّ في حروبه التي جرت بينه وبين أصحاب الجمل، وأهل الشام! وهذا أمرٌ لا يُرضي الشيعة، وبهذا ندرك العلاقة الحقيقية بين الشيعة والمعتزلة، وكثيرٌ من الشيعة يذهبون في العقائد مذهب المعتزلة.

ولما قُتل زيدٌ بايع الزيديون ابنه يحيى، ثُمَّ قُتل هو أيضاً، ثُنَّ بويع بعد يحيى محمد الإمام، وإبراهيم الإمام، فقتلهما جعفر المنصور، ول ينتظم أمر الزيدية بعد ذلك، ومالوا عن القول بإمامة المفضول، ثُمَّ أخذوا يطعنون في الصحابة كسائر الشيعة، فذهبت عنهم بذلك أُولى خصائصهم (٤٢٧).

أما الشيعة الإمامية، فقد تولى زعامتها في مطلع العصر العباسي الإمام جعفر الصادق، وهو ابن محمد الباقر، وحفيد الإمام زين العابدين، وقد فضَّل هذا الإمامان الأخيران الركون إلى الهدوء، والاشتغال بالعلم والدين.

وبعد وفاة الصادق (سنة ١٤٨هـ)، انقسم الشيعة الإمامية إلى طائفتين:

طائفةٌ قالت بإمامة موسى الكاظم بن الإمام الصادق، وهو عندهم الإمام السابع، ومن ثَمَّ جعلوا الإمامة في عقبه، فبعد موسى الكاظم انتقلت إلى ابنه علي الرضا، ثم إلى ابنه محمد الجواد، ثم إلى علي الهادي، ثم إلى الحسن العسكري، ثم إلى محمد المنتظر (وهو الإمام الثاني عشر)، وشيعته تنتظر عودته إلى الآن.

أما الطائفة الثانية، فهي طائفة الإمامية الإسماعيلية، التي قالت بإمامة إسماعيل بن جعفر الصادق، وهو أكبر أولاده. ويُقال: إن الصادق قد خلع إسماعيل

---

(٤٢٧) الإمام الشافعي، لمحمد أبو زهرة (ص ١٠٢).

من الإمامة ونصَّب ابنه موسى، نتيجة لأمورٍ نُسبت لإسماعيل، ولكن طائفةً من الشيعة تمسكت بولائها لإسماعيل، ولم تعترف بتحويل الإمامة إلى موسى الكاظم.(٤٢٨)

وفي إطار حديثنا عن مصادر التصوُّف؛ لا بد من الحديث عن الدور الكبير للتشيع المغالي في نشأة التصوُّف وتطوره، فلعلي بن أبي طالب ﷺ مكانة رفيعة عند أئمة وأولياء الصوفية، باعتباره أول الأولياء والمرجع الدائم لهم، وأول من نطق بعلومهم، وأول من ألبس الخِرقة (**KHIRKA**)، وهو رأس السلسلة وقطب الدائرة (على حد زعمهم!).

ولذا نجد أنهم ينسبون للإمام علي كتباً كثيرة، منها: "كتاب الطاعة"، و"كتاب السلوك في أواخر الملوك"، و"كتاب العلامة بمعرفة القيامة"، و"كتاب اللاهوت"!، و"كتاب المعرفة المجهولة"، و"كتاب السر المكنون في معرفة ما كان وما يكون"، و"كتاب الوصايا في معرفة الخفايا"، و"كتاب مبتدأ الخلق"، و"النور والظلمة"، و"كتاب نور القلوب"، ولم يبق من جميع هذه الكتب كتاباً واحداً قط.(٤٢٩)

---

(٤٢٨) الملل والنحل، للشهرستاني (٢/ ٢٨)، وما بعدها.

(٤٢٩) تاريخ العلويين في بلاد الشام، اميل عباس، آل معروف (١/ ٥٧).

يقول ابن عربي (ت٦٣٨هـ/١٢٤١م): "إن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ على علم من الله لا يعلمه غيره، وإنه ضرب على صدره وقال: إن ها هنا لعلوماً جماً، لو وجدت لها حملاً"(٤٣٠).

وقد اعترف بذلك إمام هذه الفرقة (الجنيد)، بكل وضوح وصراحة، كما ذكر ذلك الطُّوسيُّ عنه (٤٣١).

وذكر السَّيوطي أن عليَّ بن أبي طالب هو أول من نهج الطريق، ثم ابنه الحسن (الذي هو أوَّلُ الأقطاب عند الصُّوفية)، وأشهر كلام علي بن أبي طالب في ذلك هو ما أخرجه أبو نُعيم في الحلية عن الكميل بن زياد النَّخعي، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه (٤٣٢) .

يقول السُّيوطيُّ: "فإن قُلتَ كيف يكون الحسنُ أول الأقطاب وقبله أبو بكرٍ وعمر وعثمان وعلي، قلتُ: ظهر لي أن يُقال: معناه أن الحسن أول من كانت له الخلافة الباطنة منفردة عن الظاهرة، فإن القطب هو خليفة النبيِّ ﷺ ووارث الأمر

(٤٣٠) الفتوحات المكية، لابن عربي (١/١٩٩) .

(٤٣١) اللُّمع؛ للطوسي (ص ١٧٩). وانظر: الصلة بين التصوف والتشيع، د. كامل الشيبي (ص ٣٨٠).

(٤٣٢) انظر: تأييد الحقيقة العلية وتشييد الطريقة الشاذلية (ص ١٠- ١١، ٤٤).

من بعده، وكأنَّ الحسن لما ترك الخلافة الظاهرة حقناً لدماء المسلمين، عوَّضه الله الخلافة الباطنة، وأما الخلفاء الأربعة رضي الله عنه فكانت لهم الخلافة الظاهرة والباطنة معاً، ولم يجتمعا لأحدٍ بعدهم إلا أن يكون عمر بن عبد العزيز"(٤٣٣) .

وهذا تخليطٌ باطل، وتقوُّلٌ بلا دليل، وإلا فأين الحسن من بقيَّة العشرة المشهود لهم بالجنَّة، وأهل بدرٍ وغيرهم من السابقين إلى الإسلام.

وهو ما يؤكده الدكتور عبد القادر محمود، حيث يقول: "لقد ظهرت الشيعة في الكوفة، التي كانت محل حزب المعارضة أيام الدولة الأموية، ومنها انتشرت في سائر العراق، ولهذا ظهر التصوف المتطور عن الزهد مباشرة، أول ما ظهر في الكوفة المتشيعة، وكان زهاد الكوفة أول من لبس الصُّوف كرد فعل للأمويين لابسي الحرير، وقاموا بتقليد الرهبان النصارى".(٤٣٤)

وبعد أن ثبت تعلم بعض رجال المتصوفين على يد بعض أئمة الشيعة، مثل: سري السقطي (ت ٢٥٧هـ) الشيعي النُّصيري (٤٣٥)، والذي تتلمذ على معروف الكرخي (ت ٢٠٠هـ)، وهو مولى لعلي بن موسى الرضا.

---

(٤٣٣) انظر: تأييد الحقيقة العلية وتشييد الطريقة الشاذلية (ص ٤٤).

(٤٣٤) الفلسفة الصوفية في الإسلام، د. عبد القادر محمود (ص ٦٠).

(٤٣٥) تاريخ العلويين في بلاد الشام، اميل عباس، آل معروف (ص ٢٠).

يقول الدكتور عبد القادر محمود: "ومعنى هذا أن التصوف قد أفرخ في بيئة التشيع، وكان التشيع مدخل التطور إلى النظريات الفلسفية المنحرفة... وكانت الولاية الصوفية هي الإمامة الشيعية، وتطور الموقف مع الصوفية حتى أصبحت الولاية أخص من النبوة، بل كانت جوهر النبوة، وحتى صار الولي أسمى من النبي بالتبعية حسب زعمهم! [٤٣٦].

ويقول الشيخ الحكيم محمد رشيد رضا: "وإن أكثر البدع والخرافات إنما جاءت من غلاة الشيعة، وهم حماتها ودعاتها، وهي مرتزق زعمائها، وعليها مدار جاههم العريض، ومنهم سرت عدواها إلى طريقة الصوفية الذين ينتسبون إلى آل البيت بالباطل".[٤٣٧]

أضف إلى ذلك أنَّ (مؤسس الدولة الفاطميَّة) أبو عبد الله الشيعي (المقتول على يدي عبيد الله المهدي، بعد أن مهَّد له الخلافة بالمغرب، سنة ٢٩٨هـ)، وقد اشتُهر باسم (الصُّوفي)؛ لأنَّه كان يرتدي الخشن والمُرقَّع من الثياب الصُّوفيَّة، وظلَّ فترةً طويلة بدون زواج، واكتفى بزوجةٍ واحدةٍ في آخر حياته [٤٣٨].

(٤٣٦) الفلسفة الصوفية في الإسلام، عبد القادر محمود (ص ٦٣).

(٤٣٧) السنة والشيعة، محمد رشيد رضا (ص ٢٤).

(٤٣٨) أبو عبد الله الشيعي، د. علي حسني الخربوطلي (ص ١٤، ٤٨، ٧٠).

والمتأمِّلُ في تاريخ الطائفة الإسماعيلية، يجد أنها اتخذت من مدينة (سلميَّة) من أعمال حماة ببلاد الشام، مركزاً لنشر دعوتهم، ومنها يوفدون دعاتهم إلى سائر الأمصار، وكان يُطلق على هؤلاء الدُّعاة اسم (الحجيج)، أو (نواب الأئمَّة)، أو (السياحين)، ونشط هؤلاء الدعاة في بلاد اليمن، والمغرب، وفارس.

كما أنَّ الطائفة الإسماعيلية كانت تشتقُّ تعاليمها من الطائفة الإثنا عشريَّة، سيما وأنَّ مُعظم رجالات الإسماعيلية كانوا من الإثنا عشريَّة، وكان من اليسير حينئذٍ التنقُّل من مذهب شيعي إلى مذهب شيعي آخر.

ومع ظهور الفرقة الإسماعيلية، ظهرت شخصيات شيعية مُغالية، في أواخر المائة الثالثة، إبان خلافة المقتدر العباسي، من أمثال ميمون بن عبد الله القدَّاح (ت ١٧٠هـ)، رأس الفرقة الفاطميَّة (الميمونيَّة= أو القدَّاحيَّة) من الإسماعيلية بأرض المغرب، الذي كان يظهر التشيع ويبطن الزندقة، ويُقال إنَّه أدرك محمد بن إسماعيل بن جعفر، وعنه تلقَّى مذهب الباطنيَّة، وهو أوَّل من اتخذ الأئمَّة المستورين، المُعبَّر عنهم بالأقطاب في شرعة الصُّوفيَّة، وقد نجح القداح في ضمِّ صفوف الشيعة، وتوحيد جهودهم، والانطلاق بالدعوة الإسماعيلية، وتوفير التنظيمات الدقيقة لها.

وقسَّم "القداح" العالم الإسلامي إلى مناطق رئيسية، وجعل على كُلٍّ منها واحداً من أبنائه، أو أحد كبار دعاته المشهورين، وبعد وفاة عبد الله بن ميمون، خلفه ابنه أحمد في قيادة الدعوة، فوجَّه اهتمامه في نشر الدعوة في بلاد اليمن، فبعث إليها سنة (٢٦٨هـ) داعيتين من أكبر دعاتهم، وهما: علي بن الفضل اليماني، ورستم بن الحسين حوشب الكوفي، وأمرهما بلزوم الزُّهد، ودعاية النَّاسِ إلى المهدي، وابن حوشب هو أستاذ أبو عبد الله الشيعي.[٤٣٩]

وعندما تمكن ابن حوشب من نشر الدعوة الإسماعيلية في اليمن، بدأ بإرسال دعاته إلى اليمامة، والبحرين، والسند، والهند، ومصر، والمغرب، وفي هذه الفترة تلقَّى أبو عبد الله الشيعي تعليمه على يد ابن حوشب، وكان أرسله إليه الإمام الإسماعيلي محمد الحبيب، وبعد نضج أبو عبد الله الشيعي وجَّهه ابن حوشب إلى بلاد المغرب، فالتقى بأهل (كتامة المغرب) في موسم الحج، ومضى معهم إلى المغرب الأقصى مروراً بمصر؛ لتبدأ حلقةً جديدة من حلقات التشيُّع الفاطمي الصُّوفي.

---

(٤٣٩) أبو عبد الله الشيعي، د. علي حسني الخربوطلي (ص ١٧– ١٩). والأعلام للزركلي (٧/ ٣٤١).

وقد نجح أبو عبد الله الشيعي في نشر التشيُّع في بلاد المغرب، وبخاصَّة داخل قبائل البربر التي كانت تنظر إلى العرب على أنهم (عناصر غريبة ودخيلة)، ورغبوا في التحرر منهم بأيَّةِ وسيلة، واستطاع، وهذه الروح القومية الانفصالية عند البربر تشبه تلك الروح التي سادت بين الموالي الفرس في المشرق (العراق، وخراسان)، التي دفعتهم للقيام بحركات ثورية ضد الدولة الأموية، ذات النهج العربي الخالص [٤٤٠].

وقد ظهر لنا أنَّ عقيدة الاتحاد والحلول الصُّوفيَّة هي عقيدةٌ شيعيَّةٌ بامتياز، وأوَّلُ من تفوَّه بها هو الخبيث عبد الله بن سبأ اليهودي، الذي تدرَّج في نشر أفكاره الخبيثة بين المسلمين، وأكثر موضوعها عن علي بن أبي طالب ﵁.

فأخذ ينشر أولاً أنه وجدَ في التوراة أن لكلِّ نبيٍّ وصياً، وأن عليٌّ وصيُّ مُحمَّد، وأنَّه خير الأوصياء كما أنَّ مُحمَّداً خيرُ الأنبياء، وهو أوَّلُ من قال بالرجعة فذكر أنَّ مُحمَّداً سيرجع إلى الحياة، وكان يقول: عجبتُ لمن يقول برجعة عيسى إلى الدنيا، ولا يقول برجعة مُحمَّد!.

(٤٤٠) أبو عبد الله الشيعي، د. علي حسني الخربوطلي (ص ٢٤- ٢٥).

ثُمَّ قال بألوهيَّة عليّ بن أبي طالب ﷺ، فهمَّ عليٌّ بقتله، ولكن نهاه عن ذلك عبد الله بن عباس ﷺ، وقال له: "إن قتلته اختلف عليه أصحابك، وأنت عازمٌ على قتال أهل الشام، فنفاه إلى ساباط المدائن، فلما قُتل عليٌّ ﷺ، أخذ ينشر أكاذيبه بين الناس، ويدَّعي أنَّ علياً لم يُقتل، وإنما كان شيطاناً تصوَّر في صورته، وأنَّ عليَّاً صعد إلى السماء، كما صعد إليها عيسى بن مريم، وقال: كذبت الخوارجُ في قتل عليّ، كما كذبت اليهود والنصارى بقتل عيسى بن مريم، وإنَّ عليَّاً قد صعد إلى السماء، وإن الرعد صوته، والبرق سوطه..!.(٤٤١)

وجاء من بعدهم الزُّط "من بلاد السند سكنوا فارس وما حولها"(= يعني أهل المكر والخداع)، وهم قومٌ من شيعة علي بن أبي طالب ﷺ، جاءوا عليَّاً بعد قتاله أهل البصرة، يدعونه إلهاً بلسانهم، وسجدوا له؛ فقال لهم: ويلكن لا تفعلوا إنما أنا مخلوق مثلكم، فأبوا عليه! فخدَّ لهم في الأرض أخاديد، وأوقد ناراً، فكان قُنبر يحمل الرجل بعد الرجل، ويُلقيه على منكبه فيها، ثُم قال:

إني إذا أبصرتُ أمراً مُنكراً ... أوقدتُ ناراً ودعوتُ قنبرا

ثُمَّ احتفرتُ حُفراً فحفرا ... وقنبر يحطم حطماً مُنكراً

---

(٤٤١) أبو حنيفة: حياته، وآراؤه، للشيخ محمد أبو زهرة (ص ١٢٧- ١٢٨).

وكان هؤلاء الزُّط هم لبنة الغلو في بلاد الشام[٤٤٢]، وكان هرمز ملك الفرس قد استعان بهم لمحاربة العرب إبان ظهور الإسلام، مع بدايات القرن السابع الميلادي.

ثُمَّ تبعتهم الكيسانية[٤٤٣] أتباع المختار بن أبي عبيد الثقفي، الذي ظهر في أول الدولة المروانية، وقد قدم من الكوفة حين قدم إليها مسلم بن عقيل من قبل الحسين ﷺ، ليعلم حالها، ويُخبر ابن عمه بأمرها، وقد أحضر عبيد الله بن زياد المختار، وضربه ثُمَّ حبسه إلى أن قُتل الحسين، فشفع له زوج اخته عبد الله بن عمر ﷺ، فأطلق سراحه على أن يخرج من الكوفة، فخرج إلى الحجاز، وقد أثر عنه في أثناء سيره: "سأطلب دم الشهيد المظلوم المقتول سيد المسلمين، وابن بنت سيد المرسلين الحسين بن علي، فوربك لاقتلنّ بقتله عدة من قتل على دم يحيى بن زكريا"، ثُمَّ لحق بابن الزبير وبايعه على أن يوليه أعماله إذا ظهر، وقاتل معه أهل الشام، ثُمَّ رجع إلى الكوفة بعد موت يزيد، وقال للناس: " إن المعدي

---

(٤٤٢) تاريخ العلويين في بلاد الشام، اميل عباس آل معروف (١/ ٦٠).

(٤٤٣) نسبة إلى كيسان، قيل: إنه مولى لعلي رضي الله عنه، وقيل: إنه تلميذ لمحمد بن الحنفية، وقيل: إنه أبو عمرة مولى بجيلة، وقد سمح للمختار أن يدعو باسمه، فكان المختار تابعاً لنحلة الشيعة الكيسانية.

ابن الوصي بعثني إليكم أميناً ووزيراً، وأمرني بقتل الملحدين، والطلب بدم أهل بيته، والدفع عن الضعفاء".

وزعم أنه جاء من قبل مُحمَّد بن الحنفيَّة؛ لأنه وليُّ دم الحسين ﷺ، ولأن مُحمَّداً كان ذا منزلةٍ بين الناس، امتلأت القلوب بمحبته، إذ كان كما يقول الشهرستاني: "كثير العلم، غزير المعرفة، رواد الفكر، مصيب النظر في العواقب، وقد أخبره أبوه أمير المؤمنين علي ﷺ، أخبار الملاحم"، ولكن أعلن محمد بن الحنفية البراءة من المختار على الملأ من الأمة، وعلى مشهد من العامة، إذ بلغته أوهامه وأكاذيبه، وعرف خبيء نياته، ومع تلك البراءة، قد تبع المختار بعضُ الشيعة، وأخذ هو يتكهَّنُ بينهم، ويسجع سجعاً يشبه سجع الكهان، حتَّى رُوي أنه كان يقول: "أما وربِّ البحار، والنخيل والأشجار، والمهامه والقفار، والملائكة الأبرار؛ لأقتلن كل جبار، بكل لدن خطار، ومهند بتار.. حتى إذا أقمتُ عمود الدين، ورأبتُ صدع المسلمين، وشفيتُ غليل صدور المؤمنين، لم يكبر على زوال الدنيا، ولم أحفل بالموت إذا أتى.

وقد أخذ المختار في محاربة أعداء العلويين، وأكثر من القتل الذريع فيهم، ولم يعلم أن أحداً اشترك في قتل الحسين إلا أسكن نأمته، فحبَّبهُ ذلك في نفوس

الشيعة، فالتفوا حوله، وأحاطوا به، وقاتلوا معه، ولكنه هُزِمَ في قتال مصعب بن الزبير، وقتله جيش مصعب .[٤٤٤]

ويعتقد الشيعة الكيسانية بقداسة الإمام، وأنه معصوم من الخطأ، وبرجعة الإمام إلى الدنيا، ويقولون بالبداء (بمعنى أن الله يُغيِّرُ ما يريد تبعاً لتغيُّر علمه للشيء)، فكان المختار يدَّعي معرفته للغيب، فإن وافق ذلك الواقع، جعله دليلاً على دعواه، وإن لم يوافق قال: قد بدا لربكم !! ويعتقدون تناسخ الأرواح (وهو خروج الروح من جسد وحلولها في جسد آخر)، وقد ثبت أن هذه الفكرة مأخوذة من الفلسفة الهندية القديمة.[٤٤٥]

وكان المختار بن أبي عُبيد خارجيَّاً، ثُمَّ تشيَّع، وكانت فرقته تؤمن بأنَّ الإمام شخصٌ مُقدَّس، ويبذلون له الطاعة، ويثقون به الثقة التامَّة، ويعتقدون فيه العصمة عن الخطأ؛ لأنه رمزٌ للعلم الإلهي[٤٤٦].

ويمكننا اعتبار (الكيسانية) إحدى الفرق الصُّوفيَّة المتشيِّعة؛ لقولهم: "إنَّ لكلِّ شيء ظاهراً وباطناً، ولكُلِّ شخصٍ روحاً، ولكلِّ تنزيلٍ تأويلاً، ولكلِّ مثالٍ في

(٤٤٤) الإمام الشافعي: حياته، وآراؤه، للشيخ محمد أبو زهرة (ص ٩٨– ٩٩).

(٤٤٥) الإمام الشافعي: حياته، وآراؤه، للشيخ محمد أبو زهرة (ص ١٠٠).

(٤٤٦) أبو حنيفة: حياته، وآراؤه، للشيخ محمد أبو زهرة (ص ١٣٠).

هذا العالم حقيقةً، والمنتشر في الآفاق من الحكم والأسرار مجتمعٌ في شخص الإنسان، وهو العلم الذي آثر عليٌّ عليه السلام به ابنه محمد بن الحنفيَّة، وكُلُّ من اجتمع فيه هذا العلم؛ فهو الإمام حقَّاً".(٤٤٧)

وتفرَّق الشيعة في الأمصار، وكان من أعظمها فرقتان: الإثنا عشريَّة، والإسماعيلية، أمَّا الإثنا عشريَّة، فيرون أن الخلافة بعد عليٍّ، للحسن، ثُمَّ الحسين، ثُمَّ لابنه علي زين العابدين، ثُمَّ لمحمد الباقر، ثُمَّ لجعفر الصادق، ثُمَّ لموسى الكاظم، ثُمَّ لعليِّ الرِّضا، ثُمَّ لمحمَّد الجواد، ثُمَّ لعليِّ الهادي، ثُمَّ للحسن العسكريّ، ثُمَّ لمحمَّد ابنه، وهو الإمام الثاني عشر، ويقولون بأنَّه دخل السرداب، ولم يخرج منه بعد!.

أمَّا الإسماعيلية (الباطنيَّة)؛ فتقول: إن الإمام بعد جعفر الصادق هو ابنه إسماعيل بنصٍّ من أبيه، وإن كان مات قبل أبيه، ومن ثَمَّ انتقلت الإمامة في عقبه، ثُمَّ انتقلت الإمامة من إسماعيل إلى محمد المكتوم، وهو أول الأئمَّة المستورين، وبعده ابنه محمد الحبيب، وهو آخر الأئمَّة المستورين، وبعده ابنه عبد الله المهدي الذي ملك المغرب، وملك بعده بنوه مصر، وهم الفاطميون!، وقد اضطهد أصحاب

---

(٤٤٧) انظر: أبو حنيفة: حياته، وآراؤه، للشيخ محمد أبو زهرة (ص ١٣١)، والإمام الشافعي؛ لمحمد أبو زهرة (ص ١٠٠)، نقلاً عن الملل والنحل للشهرستاني.

هذه الطائفة؛ ففروا إلى فارس، واختلطت آراؤهم بمذاهب الفرس القديمة، وغيرها، وقام فيها رجالٌ ذوو أهواء يقضون لبانتهم باسم الدِّين، فتوارثوا زعامتها.

وأول ناشري دعوتها رجلٌ يُقال له "ديصان"، أخذها عن عبد الله القداح الشيعي الإمامي (ت ١٨٠هـ)، ونشرها في بلاد فارس، ثُمَّ بدا له أن ينشرها في قلب الدولة العباسيَّة، فجاء إلى البصرة، ودعا النَّاس سرًّاً، وجذب إليه رجالاً من وجهاء اليمن، فاتفقوا على بثِّ دعوتهم في المن، وأرسل رجلين إلى المغرب؛ لسهولة انقيادها للدُّعاةِ، وقال لهما: احرثا الأرض حتَّى يأتي صاحبُ البذر، ثُمَّ سال سيل الدعوة الشيعية في بلاد المغرب، حتى أخذ الفاطميون ملك الأغالبة في إفريقية، ثُمَّ اقتطعوا مصر من الخليفة العباسي على ما هو معلومٌ في التاريخ .(٤٤٨)

ومن الملاحظ أن تعظيم القبور، والبناء عليها، وظهور القباب والمشاهد، ظهر في دولة القرامطة (الشيعية!)، وهم أصل هذا الداء، وتوارثها من بعدهم شرُّ خلفٍ (الصُّوفيَّة!)، وانتشر هذا الداء بعد ذلك في الأمَّة..

(٤٤٨) أبو حنيفة: حياته، وآراؤه، للشيخ محمد أبو زهرة (ص ١٣٤– ١٣٨)، وانظر الشافعي: حياته وآراؤه، وآثاره؛ لأبي زهرة أيضاً (ص ١٠٤).

وقد صرَّح الذهبيُّ، بأن ما يفعل من الشرك عند القبور في مصر، بأنه من آثار الدولة العبيدية؛ فقال: "ولجهلة المصريين فيها اعتقاد يتجاوز الوصف ولا يجوز؛ مما فيه من الشرك، ويسجدون لها، ويلتمسون منها المغفرة، وكان ذلك من دسائس دعاة العبيدية"(٤٤٩).

يقول الشيخ محمد رشيد رضا: "والرافضة يُصرحون في كتبهم أن زيارة قبور الأئمة أفضل من سبعين حجة، ولذلك تراهم يطوفون عليها، ويطلبون جميع حوائجهم منها، وبنوا عليها القباب، وعلقوا عليها كل ما يستطرف، ويوقدون عليها كل ليلة ما يكفي لتنوير مدينة عظيمة، (وهم يحسبون أنهم يُحسنون صُنعاً)"(٤٥٠) .

وفي أواخر القرن الرابع الهجري ظهرت الطريقة (الخصيبية) التابعة للشيخ حسين بن حمدان الخصيبي المصري (ت ٣٥٨هـ)، زعيم الطائفة العلويَّة النصيرية، وهو أحد الذين ربطوا في طريقتهم بين الظاهر والباطن، ومزجوا بين علوم التصوُّف والفلسفة .(٤٥١)

وله قصيدة مشهورةٌ يقول فيها:

---

(٤٤٩) سير أعلام النبلاء؛ للذهبي (١٠/ ١٠٦).

(٤٥٠) السنة والشيعة؛ لمحمد رشد رضا (ص ٦٣- ٦٤).

(٤٥١) سير أعلام النبلاء؛ للذهبي (١٠/ ١٠٦).

رواها راوي التوحـــيد .... جلاّبُ الغَنيماتِ

خصـــيبِي تفرَّسَ فِي ... علـــومٍ فارسيَّاتِ

وأعرب مـــا رواه في ... لغـــاتٍ عربيَّـــاتِ

عن العجمِ عن الأنباط ...عـــن نُبة نوباتِ

رواهـــا عـــن رجـــالٍ لم ... يُشـــابوا بارتياب

بهـــاليلٌ مناجيد ... عبيد الفـــاطميَّاتِ (٤٥٢).

وكذلك ابن عربي الصُّوفيِّ الشهير أفاد الأستاذ الدكتور جهانكبري في كتابه القيم "محيي الدين بن عربي جهره برجسته عرفان إسلامي" نقل عن علماء شيعةٍ كبار أنهم قالوا بتشيعه، وذلك باختصار: "إن عدداً كبيراً من علماء الشيعة يقولون بتشيعه، نكتفي بذكر ثلاثةٍ منهم: السيد بهاء الدين العاملي، والقاضي نور الله الشوشتري الذي روى عن السيد محمد نور بخش قوله في كتابه (مجالس

(٤٥٢) تاريخ العلويين في بلاد الشام؛ اميل عباس آل معروف (١/ ٥٧).

المؤمنين): إنه لم يكن للشيخ الحرية في التعبير عن معتقداته لظروفه الخاصة، وكذلك ميرزا محمد الإخباري المُحدث الشيعي المعروف" (٤٥٣).

ويذكر أهل التأريخ بعض شيوخ الصُّوفيَّة الإماميَّة في القرن الثامن الهجري مثل حيدر بن علي العُبيدي الآملي (ت ٧٨٢ هـ)، والذي أخذ خرقة التصوُّف عن شيخه نور الدين الطهراني، وتلقى المعارف الصُّوفية على يد الشيخ عبد الرحمن بن أحمد المقدسي، وأخذ الخرقة أيضاً عن الشيخ محمد بن أبي بكر السمناني، وأخذ عنه تلقين الذكر والأوراد (٤٥٤).

يقول الشيخ حيدر الآمليُّ: "لقد استلمت الخرقة من عن الشيخ محمد بن أبي بكر السمناني، وهو عن شيخ الشيوخ أبي الحسن بن عمرو بن أبي الحسن، وهو من عماد الدين عمر بن أبي الحسن علي بن محمد حمويه قدس الله سره، وهو ذا الذي أدرك صحبة جده المام محمد بن حموية –قدس الله أرواحهم"(٤٥٥).

وقد جاء في إجازة الآمليُّ بالذكر من شيخه محمد بن أبي بكر السمناني: "هذا الفقير محمد بن أبي بكر السمناني –كتب الله له البقاء الأبدي بعد هذا

(٤٥٣) تصوف الشيعة، نظرة في حياة الآملي (ص: ٧٢– ٧٣).

(٤٥٤) تصوف الشيعة، نظرة في حياة الشيخ حيدر الآملي (ص: ٥٥، ٥٨).

(٤٥٥) تصوف الشيعة، نظرة في حياة الشيخ حيدر الآملي (ص: ٥٩).

العمر الفاني –لقنني الشيخ صالح بن أبي الخير شمس الدين محمد بن علي بن محمد الأصفهاني وهو لقنه الشيخ محمد بن أبي بكر الإسفراييني لقنني ذكر لا غله إلا الله في خانقاه سمساطي ببيت الإخوان بجانب جامع دمشق، وذلك في عيد الفطر سنة ٧٠٣ من الهجرة، وأخذ الإسفراييني عن الشيخ سعيد بن مطهر بن سعد الباذري قدس الله روحه، عن قطب الوقت أبي الجناب نجم الدين أحمد بن محمد بن عبد الله الخيوقي، وهو من الشيخ إسماعيل القصري، وهو من الشيخ محمد بن مانكيل! وهو من الشيخ داود بن محمد (خادم الفقراء؟)، وهو من أبي العباس بن إدريس، وهو من أبي القاسم بن رمضان؟! وهو من أبي أيوب الضرسي، وهو من أبي عبد الله بن عثمان! وهو من أبو يعقوب النهرجوري، وهو من أبو يعقوب السوسي! وهو من عبد الواحد بن زيد، وهو من كميل بن زياد النخعي، وهو عن أمير المؤمنين علي (ع)، وهو من رسول الله (ص)، عن جبريل، عن رب العزة سبحانه"(٤٥٦).

وكذلك ظهر في القرن التاسع الهجري، كالشيخ نعمة الله محمد العلويّ الحَنَفيّ (ت ٨٣٤هـ/ ١٤٣١م) المولود في حلب، وأصله من فارس!، وتشتهر طريقته بالذكر مع التمايل جلوساً، وكان شيعياً اثنا عشرياً، وكان أصحابه يسجدون

(٤٥٦) تصوف الشيعة، نظرة في حياة الشيخ حيدر الآملي (ص: ٦٠).

له!، وساهم إسهاماً كبيراً في نشر التشيُّع في جنوب الهند (في ديكان **Dekkan**)[٤٥٧].

كذلك الشيخ الصُّوفي علي بن عبد العال الكركي (ت ٩٣٧هـ/ ١٥٣١م) الفقيه الإمامي، ترجم له الخوانساري، بقوله: "الشيخ المقدس الفرد البدل سند عصره، ومربي الأعيان الشيخ نور الدين علي بن الشيخ الصالح عبد العالي الشهير به قدس الله روحه".[٤٥٨]

والشيخ الإمامي إبراهيم بن حسين الحسيني الهمداني (ت ١٠٢٦هـ/ ١٦١٧م)، وله تعليقات على كتاب الشفاء والنجاة لابن سينا، وقد جاء في ترجمته: "منار الشريعة ومنير جمالها، ومُحقِّق الحقيقة، ومُفصِّل إجمالها" [٤٥٩].

ومن الجدير بالذكر أن ابن سينا كان هو وأبوه وأخوه من دعاة الإسماعيلية.[٤٦٠]

(٤٥٧) الأعلام؛ للزركلي (٢/ ٢٣٦)، و

(٤٥٨) روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات، الميرزا محمد باقر الموسوي (١/ ٣٠).

(٤٥٩) الأعلام للزركلي (١/ ٣٦)، وانظر: روضات الجنات، الميرزا محمد باقر الموسوي (١/ ٣٠).

(٤٦٠) انظر: سير أعلام النبلاء؛ للذهبي (١٧/ ٥٣١).

والشيخ الفيلسوف الإمامي أحمد بن زين الدين بن إبراهيم الأحسائي البحراني (ت ١٢٤١هـ)، وهو مؤسس مذهب (الكشفية)، نسبةً إلى الكشف والإلهام، وكان يدعيهما، وسمى أتباعه بأصحاب الطريقة (الشيخية)، نسبة إلى الشيخ أحمد المذكور، وله ولأصحابه شطحات وزندقات، وردَّ على بعض فرق المتصوفة في زمانه! (٤٦١)، وقد ردَّ عليهم الشهاب الألوسي في تفسيره (روح المعاني).

وقد ترجم له الخوانساري، بقوله: "أحمد بن زين الدين الإحسائي: ترجمان الحكماء المتألهين، ولسان العرفاء والمتكلمين، غرة الدهر، وفيلسوف العصر، العالم بأسرار المباني والمعاني.. لم يُعهد مثله في حسن الطريقة، وصفاء الحقيقة" (٤٦٢)

والشيخ عمر روشاني التبريزي الخلوتي (ت ١٤٨٧م)، الذي كان يعتقد بقداسة الإمام عليّ، والأئمة الإثنا عشر من بعده، وقد شرع لأتباعه اثنا عشر يوماً يهيمون فيها بالأئمة الاثني عشر، وسماها "أيام الهيام"!.(٤٦٣)

---

(٤٦١) الأعلام للزركلي (١/ ١٢٩).

(٤٦٢) انظر: روضات الجنات، الميرزا محمد باقر الموسوي (١/ ٨٨).

(٤٦٣) الطرق الصوفية في الإسلام، (ص ٩٦).

وهناك بعض الفرق الصُّوفيَّة ذات الامتداد الشيعي العلويّ، ظهرت في القرن التاسع الهجري، مثل: (الحروفيَّة، والبكتاشيَّة، والكبراويَّة، والتوربخشيَّة التابعة لمحمد بن عبد الله ولد التوربخشيِّ الإحسائي الشيعيّ، والخلوتيَّة، والحمويَّة التابعة لسعد الدين بن حمويا الشيعي الفارسيِّ الأصل (ت ٦١٧هـ/ ١٢٢٠م)، والشطاريَّة التابعة لقازان الشطَّاري، والأحمدية، والسنبلية، والسنانية، والأعتباتشية، والشعبانية، والشمسية، والجراحية، والجمالية)، وكان بعضها مؤيداً لابن عربي، ومن الطبيعيِّ إنكار الإمام؛ لأجل المرشد الجديد (القطب)!..[٤٦٤]

وفي الربع الأول من القرن العاشر الهجري ظهرت (اليوسفية) التابعة للشيخ أحمد بن يوسف (المهدي المنتظر!)، في المغرب الأقصى، وهي طريقةٌ تابعة للشاذلية الزورقيَّة، وقد أكد ابن عسكر في (دوحته) أنَّهم: "فعلوا فعل الروافض والشيعة في أئمتهم"[٤٦٥] ، وبخاصة في الشيخ أحمد بن راشد (الصالح)، تلميذ أحمد بن زروق، المريد المخلص لأبي العباس الحضرمي!.

(٤٦٤) الطرق الصوفية في الإسلام، (ص ١٣٢).

(٤٦٥) الدوحة، لابن عسكر (ص ١٢٥).

وظهرت في إيران "المدرسة الأصفهانيَّة للثيوصوفيَّة"، على أيدي صوفيين شيعة، مثل الملا سدرا، والملا هادي الصنبراوي (١٧٩٨– ١٨٧٨م)[٤٦٦] .

بالإضافة إلى أن فكرة "الأولياء" بمراتبهم المختلفة، كانت تجسيداً حقيقياً للمفاهيم الشيعية في "الإمام"، وبذلك نجد أن الصُّوفيَّة قد جُذبوا إلى (عليٍّ بن أبي طالب) كمصدر للتعاليم السِّريَّة (الباطنيَّة)، وإلى الإماميَّة (التي تبنَّت اثني عشر إماماً من أهل بيت النُّبوَّة) آخرهم غاب في سرداب في (سُرَّ من رأى) ولا يزالون ينتظرونه إلى اللحظة، وبدرجة أقل إلى (الإسماعيلية) التي عاشت تحت عباءة التصوُّف

(٤٦٦) الطرق الصوفية في الإسلام، (ص ٢٠٣).

ورعايته، وشكلت خطراً على الدولة السلجوقيَّة في عصر الغزالي، حتَّى أنَّ نظام الملك[٤٦٧] قتل على يد رجلٍ من طائفة "الحشاشين" الإسماعيلية[٤٦٨].

على أن التشيُّع مذهبٌ مختلٌّ عقائدياً، وضع نواته اليهود، وساهمت في تنشئته وتغذيته وتنميته الديانات الفارسية [٤٦٩].

وفي المقابل نجد هجوماً شنيعاً من بعض علماء الشِّيعة مثل: محمد بهاء الدين العاملي (١٠٣٠هـ/ ١٦٢١م) والمعروف شعبياً بالشيخ البهائي، ومحمد باقر المجلس (ت ١١١٠هـ/ ١٦٩٩م) على الصُّوفيَّة، الذين تخاذلوا عن نصرة

(٤٦٧) نظام الملك" أبو علي الحسن بن علي بن إسحاق، قوام الدين الطوسي، ولد ب "نوقان" إحدى مدينتي طوس، سنة (٤٠٨ هـ)، وكان من أولاد الدهاقين بناحية "بيهق"، من نواحي نيسابور، خدم السلطان "ألب أرسلان" ومن بعده ابنه السلطان ملكشاه، وكان عالماً، جواداً، عادلاً، مات بالقرب من نهاوند مقتولاً سنة ٥٨٥ هـ، قتله صبيٌّ ديلميٌّ من الباطنية، في زيِّ الصوفية، جاءه على صورة مستغيثٍ، وضربه بسكينٍ كانت معه يُخفيها، وعمره سبعُ وسبعون سنة. انظر: الكامل؛ لابن الأثير (١٠/ ٢٠٨-٢٠٩)، وشذرات الذهب (٣/ ٣٧٣-٣٧٥)، وتاريخ آل سلجوق؛ لعماد الدين الأصفهاني (ص ٥٨-٦٠).

(٤٦٨) الحشاشين: طائفة إسماعيلية، نزارية، مشرقية، انشقت عن الفاطميين لتدعو إلى إمامة نزار بن المستنصر بالله، وأسسها الحسن بن الصباح، وقد تميزت هذه الطائفة باحتراف القتل والاغتيالات. انظر: أخبار القرامطة، د. سهيل زكار (ص ١٠٤).

(٤٦٩) التصوف: المنشأ والمصدر، إحسان إلهي ظهير (ص ١٣١).

الدولة الصَّفويَّة في إيران (إبان نشأتها) عام (٩٠٣ هـ)[٤٧٠] ضد الدولة العثمانيَّة !.

وقام العلامة الشيعي السيد شهاب الدين النجفي المرعشي (ت ١٤٠١ هـ)، وهو من كبار فقهاء الإمامية بتسليط قلمه على متصوفة الشيعة؛ فقال: "فلما راج متاعهم (الصوفية)، وذاع ذكرهم، وراق سوقهم، تشعبوا فرقاً وشعوباً، وأغفلوا العوام والسفلة بالحديث الموضوع (الطريق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق)... عصمنا الله وإياكم من تسويلات نسجة العرفان، وحبكة الفلسفة والتصوف، وجلعنا وإياكم ممن أناخ المطية بأبواب أهل بيت رسول الله (ص)، ولم يعرف سواهم آمين".

وقال أيضاً بشأن التصوف والشيعة المتصوفين: "وعندي أن مصيبة الصوفية على الإسلام من أعظم المصائب، تهدمت به أركانه، وانثلم به بنيانه، وظهر لي بعد الفحص الأكيد، والتجول في مضامير كلماتهم، والوقوف على ما في خبايا مطالبهم، والعثور على مخبياتهم بعد الاجتماع برؤساء فرقهم، أن الداء سرى إلى الدين من

---

(٤٧٠) الدولة الصفوية: هي أول دولة شيعية قامت في التاريخ، نقلاً عن الدكتور الشيعي "علي شريعتي". انظر: البدوي دراسة نقدية، د. عبد الله صابر (ص ٤٥)، وقد تعاونت الدولة الصفوية مع الاستعمار ضد الدولة العثمانية حتى أسقطوها.

رهبنة النصارى، فتلقاه جمعٌ من العامة كالشبلي، ومعروف، وجنيد، ونحوهم ثم سرى إلى الشيعة حتى رقى شأنهم وعلت راياتهم، بحيثُ ما أبقوا حجراً على حجرٍ من أساس الدين، أوّلوا نصوص الكتاب والسنة، وخالفوا الأحكام الفطرية العقلية، والتزموا بوحدة الوجود بل الموجود"(٤٧١).

وكذلك وجدنا السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠٤ هـ)، وهو من مبرزي علماء الشيعة في هذا القرن ينقم فيها على شطحات المتصوفة الأوائل، فيقول في كتابه (الميزان في تفسير القرآن): "وإذا كان القوم (المتصوفة) يدّعون أموراً من الكرامات، ويتكلمون بأمورٍ تناقض ظواهر الدين، وحكم العقل، مُدّعين أن لها معاني صحيحة لا ينال فهمهما أهل الظاهر، وثقل على الفقهاء وعامة المسلمين سماعها، فأنكروا ذلك عليهم، وقابلوهم بالتبري أو الجلد أو القتل، أو الصلب، أو الطرد أو النفي، كل ذلك لخلاعتهم واسترسالهم في أقوالٍ يسمونها أسار الشريعة، ولو كان الأمر على ما يدعون، وكانت هي لُبُّ الحقيقة، وكانت الظواهر الدينية كالقشر عليها، وكان ينبغي إظهارها والجهر بها، لكان مشرع الشرع

---

(٤٧١) تصوف الشيعة (ص: ١٠٤)، ونقله عن الشيخ جواد طهراني (عرف وصوفي جه مي كوبند؟ نقلاً عن تعليقات آية الله المرعشي على كتاب إحقاق الحق، كتبخانه برزك إسلامي، طبعة السادسة، (ص/ ٣١- ٣٣).

أحقُّ برعاية حالها، وإعلان أمرها كما يعلنون، وإن لم تكن هي الحقُّ، فماذا بعد الحقِّ إلا الضلال"(٤٧٢).

وحتى لا نبتعد كثيراً عن محيي الدين ابن عربي!.. المولود في (مُرسية) بالأندلس سنة (٥٦٠هـ/١١٦٥م)، والذي تعارف الصُّوفية على وصفه بالشيخ الأكبر، المشهور بين المشارقة بالتنكير تمييزاً له عن ابن العربي الإمام المفسِّر، وكلاهما كانا في عصر واحد، بخلاف المغاربة الذين يُسَوُّونَ بينهما في التعريف، وربما نسب ابن عربي نفسه إلى أخواله من الأنصار، فسمَّى نفسه (ابن سُراقة)، اعتزازاً بهم، لأن فيهم الزاهد الشامي الكبير أبو مسلم الخولاني المعارض لحكم معاوية بن أبي سفيان..!.

وتبدو قصة ابن عربي مشابهة لقصة إبراهيم بن الأدهم، التي تشبه بدورها قصة (بوذا).. فعندما كان ابن عربي حاضراً لمجلس شرابٍ دُعي إليه والده (وزير سلطان غرب الأندلس!)، سمع هاتفاً يقول له: "ما لهذا خُلقت!"، وهي ذات العبارة التي روي عن إبراهيم سماعها من جانب قربوس سرجه!، ثم توجه إلى مدينة فاس في المغرب سنة (٥٩٣هـ/١١٩٧م) والتي تعد مركزاً ثقافياً ومجمعاً صوفياً في تلك

---

(٤٧٢) تصوف الشيعة (ص: ١٠٧– ١٠٨)، وعزاه إلى الميزان في تفسير القرآن؛ للطباطبائي (ج: ٥، ص: ٢٨١).

الآونة، وبدأ ابن عربي بسلوك الطريق الصُّوفي بدءاً من مقام النور إلى مقام الخلافة.[٤٧٣]

ويقال: إن ابن عربي استجاب لهذا الحافز، فترك المجلس، وأخذ من راعي السلطان ثيابه، وهام على وجهه كما فعل إبراهيم بن أدهم، حتى وصل إلى مقبرة المدينة، وهناك وجد قبراً مهدماً، فدخله ومكث فيه أربعة أيام، ثم خرج بعدها إلى العالم صوفيًّاً مبشراً برسالته الجديدة.

وبعد هذا التصوف المفاجئ، استمر ابن عربي في التصوف حتى بلغ ما بلغ، وقد أشار ابن عربي إلى هذه الحادثة فقال: "فأقمت بتلك الجبّانة أربعة أيام، فخرجتُ بعدها بهذه العلوم كلها!"، وما ينبغي ملاحظته هو محاولة ابن عربي عقد صلة بينه وبين ابن الأدهم الذي جعل منه مثلاً في الارستقراطية والمجد.[٤٧٤]

وهذا لا يمنع أن نسبر حياة ابن عربي، الذي أحبَّ ابنة الشيخ مكين الدين في مكة، وعندما تمنَّعت عليه وأبت أن تبيع جسدها وعرضها لخطيئة، راح يتوسل إليها وينظم فيها ديوانه (ترجمان الأشواق)، ويؤكد لها فيه أنها هي الرب متجسداً

(٤٧٣) صفحات مكثفة من تاريخ التصوف (ص ١٦٠).

(٤٧٤) صفحات مكثفة من تاريخ التصوف (ص ١٥٩).

في صورة أنثى جميلة، وأنه ما أحبها إلا لأنها تجليات الحقيقة الإلهية، وأنه إذ يشتهيها، فإنما يشتهي فيها أنوثة ربه وجسده الفائر (حاشا لله)، فأبت المرأة إلا أن تكون أنثى شريفة، لا ربّاً، ولا جسداً يحتسي الآثام.(٤٧٥)

ولهذا نجد أن أكثر كلام ابن عربي في شهود الحق سبحانه: "أنه أعظم ما يتجلى شهوده وأكمله في النساء خاصَّة!!".(٤٧٦)

وطاف ابن عربي بلاد المشرق ومصر، وحجَّ في سياحته في بلاد الحجاز، ودخل الشام والموصل، وبغداد، ثم زار حلب واتصلت أثناء ذلك صداقة بينه وبين الملك الظاهر، واستقر في (قونية) من بلاد الروم فترة من الزمن، تزوج خلالها بوالدة الصوفي المشهور صدر الدين القونوي (ت٦٧٢هـ/١٢٧٣م)، واتصلت الأسباب بينه وبين سلطانها، وكانت بينهما رسائل، واستقر به الأمر أخيراً في دمشق، فعاش في ظل الأيوبيين موقراً ممجداً، حتى أنه كان يخدم السلطان بنفسه، وأمضى وقته بالتأليف والبحث إلى أن مات فيها سنة (٦٣٨هـ/١٢٤١م)، وبقي قبره مطموساً

---

(٤٧٥) كتاب: هذه هي الصوفية، لعبد الرحمن الوكيل (ص ٣٩).

(٤٧٦) كتاب: هذه هي الصوفية، لعبد الرحمن الوكيل (ص ٤٠).

حتى اكتشفه في الشام السلطان سليم الأول العثماني، فأمر ببناء الجامع الكبير على قبره، وكان ذلك أحد معالم دمشق المشهورة!.[٤٧٧]

ويذكرون أن ابن عربي كان ذكر عبارة رمزية للدلالة على قبره وتاريخ اكتشافه، ونصها: "عندما يدخل السين في الشين يُكشف عن قبر محيي الدين"، والمقصود عندما يدخل السلطان سليم الأول بلاد الشام، يكشف قبر ابن عربي!.[٤٧٨]

أما عن أبرز أفكار ابن عربي فكانت تعطيل نظرية السهروردي الإشراقية، في الفناء وفناء الفناء، حيث اعتبر أن الله هو الموجود الوحيد في الكون، وأما كثرة الممكنات فهي تبعٌ لوجود الواحد، فالأشياء لا وجود لها أصلاً، وما لا وجود له لا فناء له، والفناء بعد إثبات الوجود شرك على حدِّ تعبير ابن عربي!..

إن وحدة الوجود التي نادى بها ابن عربي صراحةً، مع إنكاره الفناء، ورفضه الشطح جملة وتفصيلاً؛ كان مستندها شعور ابن عربي بالسيادة، وبالحرية المطلقة

(٤٧٧) صفحات مكثفة من تاريخ التصوف (ص ١٦١).

(٤٧٨) تاريخ فلاسفة الإسلام، محمد لطفي جمعة (ص ٢٩٩).

في تفسير الأشياء، مع العلاقات الجيدة مع الحكام والسلاطين، الأمر الذي لم يتمتع به غيره من الصوفية السابقين له..

على أنَّ الدكتور عبد الحليم محمود له تفسيرٌ -أو تبريرٌ- آخر لكلام ابن عربي، يقول فيه: "إن الصوفيَّة الحقيقيون -ومنهم ابن عربي والحلاج- لم يقولوا بوحدة الموجود!، وهم من الذروة من المؤمنين، وحاشاهم أن يقولوا ذلك، والذي قال بذلك هو الفيلسوف اليوناني (هيراقليطس)، وهو رأي (شيلي) في العصور الحديثة.. وما يثبته الصُّوفيَّة هو (الوجود الواحد)... وفرقٌ كبيرٌ بينهما".[٤٧٩]

ثُمَّ صبَّ الدكتور جمَّ نقمته على الإمام الأشعري وأتباعه، الذين كان لهم الأثر الكبير في زعرعة عقائد التصوُّف، فيقول: "وشيءٌ آخر في غاية الأهمية، كان له الأثر الكبير في الخطأ في فهم فكرة التصوُّف عن الوجود الواحد، وهو أن الإمام الأشعري ﷺ رأى في فلسفته الكلامية أن الموجود هو عين الوجود، ولم يوافقه الكثير من الصُّوفيَّة على هذه الفكرة الفلسفية، وهو رأيٌ فلسفي يُخطئ فيه أبو الحسن الأشعريّ أو يُصيب، وما مثله في آرائه الفلسفية إلا مثل غيره في هذا الميدان يُخطئ تارةً ويُصيبُ أخرى"[٤٨٠]، وبعد هذه التخطئة الكبيرة لإمام كبير من

(٤٧٩) قضية التصوف المدرسة الشاذلية (ص ٢٥١- ٢٥٢).

(٤٨٠) قضية التصوف المدرسة الشاذلية (ص ٢٥١- ٢٥٢).

أئمة أهل السُّنَّةِ والجماعةِ، وهو أبو الحسن الأشعري، ولنا أن نتساءل: إذا لم يكن الموجود هو الوجود، فماذا يكونُ إذن ؟!..

وفي كذب صوفيٍّ مستمر، يقول حسن الشطي الصُّوفيّ: "إن الأشعري يقرر أنَّ الوجود كُلَّه يرجعُ إلى جوهر واحد، فيكون ما ذكره قريباً مما ذكره ابن عربي!"(٤٨١)، وهذا من تلبيس الشطي فإن كتابه مليءٌ بالتخريف والكذب، وقد عمد إلى تحريفٌ عقائد أهل السُّنَّة، بنسبة ذلك إلى الإمام الأشعريِّ رحمه الله !..

ويرى الدكتور أن تفسير (وحدة الوجود) لا ينبغي أن يُفسِّره أحدٌ من غير أرباب هذا الشأن، (وهم الصوفيَّة) طبعاً وربعاً، وأنَّ أيَّ تفسيرٍ يستند على كلام الأشعريّ هو تفسيرٌ مغلوطٌ تافهٌ، لا ينبغي الالتفاتُ إليه، أو إعارته أدنى اهتمام، وأن البحث في هذا الموضوع بهذه الطريقة هو بحثٌ غير منطقي، يؤدي إلى سحب الثقة في آراء صاحبه!.(٤٨٢)

وطريقةٌ أخرى في التبرير والدفاع عن الحلاج، تتسم (بالتزوير والتلفيق)، فيقول: "إن هذه الكلمات التي يعزونها للحلاج رضوان الله عليه!، أو إلى غيره لا

---

(٤٨١) النقول الشرعية في الرد على الفرقة الوهابية، حسن الشطي (ص ٨٤).

(٤٨٢) قضية التصوف المدرسة الشاذلية (ص ٢٥٢).

توجد في كتابٍ من كتبه، ولم يخطها قلمه، لقد اخترعوها اختراعاً، ثم وضعوها أساساً تدور عليه أحكامهم بالكفر والإضلال، ويكفي أن يتشبث بها إنسانٌ فيكون في منطق البحث غير أهل للثقة"[٤٨٣]، على أنَّ هذا التبرير ملفَّقٌ أيضاً !.

أما الطريقة الثالثة في التبرير؛ فهي طريقة (البحث عن العدالة)، على أنَّ أجمل ما فيها يشبه وضع الجيفة على رأس الجبل حتَّى لا تتقذرها الأنوف، ويرى الدكتور أنه ينبغي ألا يحكم على هذه القمم الشامخة –على حدِّ تعبيره– أمثال: ابن عربي، والحلاج، وابن الفارض.. من لم يبلغ مداهم أو يُقاربه !، وعدَّ منطق هؤلاء أشبه بالخنافس مع السباع، على حدِّ تعبير بعض شيوخه، أو كالنَّاموس في وجه الجبل على حدِّ تعبير اليافعي.[٤٨٤]

ونقل الطوسي عن الوجيهي أنه قال: سمعت أبا علي الروذباري يقول: سمعت جنيداً يقول : "رضوان الله على أمير المؤمنين علي ﷺ لولا أنه اشتغل بالحروب لأفادنا من علمنا هذا معاني كثيرة، ذاك امرؤ أعطى علم اللّدني، والعلم اللّدني هو العلم الذي خصّ به الخضر ﵇".

(٤٨٣) قضية التصوف المدرسة الشاذلية (ص ٢٥٢، ٢٥٨).

(٤٨٤) قضية التصوف المدرسة الشاذلية (ص ٢٥٨).

ويؤكد الشيعة الإمامية هذا المعنى من التقاء الخضر عليه السلام بعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، وأخذه عنه، ويُضيفون إلى ذلك: شهادة الخضر له بأنَّه وصيٌّ رسول الله ﷺ وخليفته، والقائم بحجته، وشهادته للأئمة التسعة من بعده بالولاية" (٤٨٥).

وإليه تنتسب سلاسل التصوف كلها كما قال محمد معصوم شيرازي الملقب بمعصوم علي شاه: "ولابد لكل سلسلة من سلاسل التصوف من الأزل إلى الأبد، ومن آدم إلى انقراض الدنيا أن تكون متصلة بسيد العالمين وأمير المؤمنين" .

ويتضح لنا من خلال الأمثلة السابقة أثر الفكر الشيعي على التصوف، ومشابهته له في أهم عقائده، واقتباسه منه بدليل ما نرى من أقوالهم في كتبهم المعتمدة، وأفعالهم المشابهة لما عليه الشيعة.

يقول الإمام الخُميني: "وأوصيك أيُّها الأخ الأعز أن لا تُسيء الظنَّ بهؤلاء العرفاء والحكماء (يعني: الصُّوفيَّة)، الذين هُم من خُلَّص شيعة عليٍّ بنُ أبي طالب

---

(٤٨٥) مجلس الخضر، فاطمة الجعفر (ص ٣٥)، نقلاً عن الاحتجاج للطبرسي (١/ ٣٩٦– ٣٩٨).

وأولاده المعومين عليهم السلام، وسُلّاك طريقه المتمسكين بولايتهم، وإيَّاكَ أن تقول عنهم قولاً مُنكراً، أو تسمع إلى ما قيل في حقِّهم؛ فتقع فيما تقع فيه..!".(٤٨٦)

وقد جاء عند الصُّوفيَّة أن الحكمة المحمديَّة انتقلت من بعد النَّبيِّ ﷺ إلى ابن عمِّه، وزوج ابنته، ورابع خلفائه على أمته عليٌّ بن أبي طالب (قتل سنة ٦٦١م)، وكذلك نسبوا لآخرين من أهل بيته وأصحابه أنهم كانوا موهوبين في الكشف الصُّوفيّ..!.(٤٨٧)

ويقول الخميني: "فإن قلت إن الله تعالى ظاهر في الأكوان، ومتلبِّسٌ بلباس الأعيان، صدقت!.. وإن قلتَ: إنه تعالى مُقدَّسٌ عن العالمين، صدقت!".(٤٨٨)

وهذا المعنى ليس بجديد على كلا الفرقتين، فكما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية في هؤلاء: "وكما يقول طائفةٌ منهم إنه الوجود المطلق بشرط الإطلاق عن كل أمرٍ ثبوتي وسلبي، كما يقول ذلك من يقوله من الملاحدة الباطنية، المنتسبين إلى التشيع، والمنتسبين إلى التصوف"(٤٨٩).

(٤٨٦) مصباح الهداية إلى الخلافة والولاية (ص ٦٣- ٦٤).

٤٨٧() الأبعاد الصوفية في الإسلام، آنا ماري شيمل (ص ٣٥).

٤٨٨() مصباح الهداية إلى الخلافة والولاية (ص ٩١).

٤٨٩() شرح حديث النزول؛ لابن تيمية (ص ٩٧).

ومن خلال ما سبق يتبين لنا اختلاف العلماء على تحديد مصدر واحد بعينه للتصوُّف، فبعضهم عدَّه امتدادٌ لفلسفة اليونان الإشراقية، بينما رآه آخرون نواةً للديانة المسيحية، في حين أنه يميل فريقٌ من الباحثين المحققين إلى أن التصوُّف أخذته العرب من الهنود، وبالتالي فإن التصوُّف لم يكن تجربة دينية (مصدرها الإسلام وحده)، بل هو تجربة جمالية فلسفية إشراقيَّة جديدة !.

وخلاصة القول: أنه من الخطأ إرجاع التصوُّف إلى مصدر واحد بعينه، فكل صوفيٍّ تأثر بنشأته، وثقافته، وعليه يمكن القول بأن مصادر التصوف لدى المسلمين تتعدد بتعدد بيئاتهم وثقافاتهم، حتى يمكننا اعتبار الفرعونية مصدراً للتصوف عند المسلمين المصريين خاصة، وقد كان لذي النون المصري (٢٤٥هـ/٨٦٤م) اهتماماته الخاصة بالمعابد الفرعونية، حتى اتهم بالزندقة على هذا الأساس، وحوكم في بغداد، ثم برئت ساحته، وذكر عنه أيضاً أنه كان من طبقة جابر بن حيان في انتحال صناعة الكيمياء، وتقلد علم الباطن.

يقول أستاذ الفلسفة الدكتور عبد اللطيف الطيباوي(٤٩٠): ونحن على يقين من أن ذلك الوسط الذي نشأ فيه التصوُّف وغيره من الحركات المدنية في الإسلام مزيجٌ من جميع العناصر، فيه الهندي، والفارسي، والمصري، والإغريقي... ولكن الثقافة الإغريقية كانت شديدة التأثير في تكييف مجرى تلك النهضات.

---

(٤٩٠) عبد اللطيف الطيباوي: باحث تربوي، ولد في قرية طيبة من قضاء طول كرم بفلسطين المحتلة سنة (١٣٢٨هـ)، درس بالجامعة الأمريكية ببيروت، وكان أثناء دراسته ينشر بحوثاً ومقالات له في مجلات (المقتطف)، و(الكشاف)، وغيرها، نال درجة الدكتوراه في الفلسفة، وتوفي سنة (١٤٠١هـ). انظر: تكملة معجم المؤلفين (ص ٣٢٢).

يقول الشيخ مُحمَّد الغزالي: "وبعد ترجمة الفكر الإغريقي الوثني الفلسفي، والفكر الشرقي الديني الإشراقي، والبرهمي، عُرفت علوم المنطق، والفلسفة الإلهيَّة، والطبيعية، والتنسُّك الإسلامي، واستحدث فيها منذ ذلك العهد أيضاً علوم التصوُّف والسِّحر، والطلسمات، وأسرار الحروف، وتقدَّم أبو نصر الفارابي [٤٩١] في المائة الرابعة في عهد سيف الدولة (وقد تصوَّف في أخريات أيَّامه على يد الصُّوفي العلوي أحمد الدنف([٤٩٢] ، وأبو علي بن سينا في المشرق في عهد نظام المُلك من بني بويه بأصبهان. والقاضي أبو السيد بن رشد، والوزير بن الصانع بالأندلس، إلى جانب آخرين بلغوا الغاية في هذه العلوم، واختصَّ هؤلاء بالشُهرة والذكر، واقتصر كثيرٌ

(٤٩١) هو أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان التركي الفارابي –نسبة إلى فاراب إحدى المدن بأطراف فراس– أحد الفلاسفة الكبار، له مصنفات مشهورة، من ابتغى الهدى منها ضلَّ واحد –كما قال الذهبي– ومن مصنفاته تخرَّج ابن سينا –كما قال ابن خلكان –وقد حكم بكفره وكفر ابن سينا أبو حامد الغزالي، وكان من أعلم الناس بالموسيقى، وكان يقول بالمعاد الروحاني لا الجثماني، اتصل بسيف الدولة الحمداني –الشيعي– فأعجب به، وأكرمه، وله نحو مئة مصنف، منها: آراء المدينة الفاضلة، والموسيقى الكبير، وغيرهما، ومات بدمشق، سنة (٣٣٩ هـ). انظر وفيات الأعيان (٥/ ١٥٣)، وسير أعلام النبلاء (١٥/ ٤١٦)، والعبر (٢/ ٢٥٧).

(٤٩٢) انظر: تاريخ فلاسفة الإسلام، محمد لطفي جمعة (ص ٥٠). وتاريخ العويين في بلاد الشام، اميل عباس آل معروف (١/ ٣٨).

على انتحال التعليم (الكيمياء)، وما ينضاف إليها من علوم النجامة، والسحر والطلسمات".[٤٩٣]

وجملة القول: أن الثقافة اليونانية كانت هي السائدة في البيئة الشرقية، وظلت تتقدم مع الزمن، ويضاف إليها عوامل تختلف باختلاف الأزمان والدوافع، اختلطت بالفلسفة الهندية والفارسية والمصرية، ولكن ظلت هي المسيطرة إلى أن جاء المسلمون الذين نشطوا بعد تمكنهم من الحكم إلى اقتباس ثقافة من سبقهم، فوجدوها متيسرة، وقد ساعدهم على ذلك النساطرة، واليعاقبة، وأتباع زرادشت من

(٤٩٣) ليس من الإسلام، للشيخ محمد الغزالي (ص ١٢٣- ١٢٤).

الفرس، والصابئون[٤٩٤] في حران الذين ترجموا كتب اليونان إلى العربية، وأخيراً اليهود [٤٩٥].

ويقول الشيخ محمد أبو زهرة: "وقد كان العراق قديماً يعجُّ بالمدارس الفلسفية، التي تُدرِّسُ الفلسفات اليونانية، وحكمة أهل فارس، والمذاهب النصرانية التي تُجادلُ في العقائد، وكان العراق بعد الإسلام مزيجاً من أجناس مختلفة، وكان فيه اضطراب وفتن، وآراء تتضارب في السياسية وأصول العقائد، ففيه الشيعة، وفي باديته الخوارج، وفيه النحل المتنازعة والآراء المتضاربة".[٤٩٦]

---

(٤٩٤) الصابئون: مأخوذٌ من سبأ إذا خرج من دين إلى دين، وقال الشهرستاني: صبأ الرجل إذا مال وزاغ، فبحكم ميل هؤلاء عن سنن الحق، وزيغهم عن نهج الأنبياء، يُقال لهم: الصابئة، ويُطلق هذا الاسم على صابئة حران، وهي مركزهم الأكبر، وفيها يمارسون شعائره باللغة السريانية، وقد أفرد الشهرستاني فصلاً في كتابه (الملل والنحل) لشرح أقوالهم، وأسهب في ذلك غاية الإسهاب، وميز بين الصابئة الذين يعبدون بلا واسطة السيارات التي يُقال لها الهياكل، وبين أولئك الذين يعبدون الأوثان التي يصنعها البشر، ويُضيف الشهرستاني: أن للصابئة جميعاً صلواتٌ ثلاث، وهم يغتسلون إذا لامسوا جثة، ويُحرمون أكل لحم الخنزير، والكلاب، والطيور ذات المخالب، وهم لا يختتنون، ولا يُبيحون الطلاق، وينهون عن التعدد. انظر: مختار الصحاح (ص ٣٥٤)، والملل والنحل (٢/ ٥-٥٧).

(٤٩٥) التصوف الإسلامي العربي، عبد اللطيف الطيباوي (ص ٩).

(٤٩٦) أبو حنيفة، محمد أبو زهرة (ص ٢٢).

ومعلومٌ أن العراق يسكنه طوائف من سلائل مختلفة، فبعضهم ينتهي إلى سكان العراق الأقدمين من الكلدان[٤٩٧]، وبعضهم من الفرس، وبعضهم من المجوس، والنصارى، واليهود والعرب، وقد دخل أكثر هؤلاء في الإسلام ورؤوسهم ممتلئة بكل ما في هذه الأديان من تعاليم، ولم تكن أهواءهم إسلاميَّة خالصة، بل كان فيها ميلٌ إلى القديم، وحنينٌ باطنيٌّ إلى الماضي، ولذلك لما اشتدت الفتن في عصر عليٍّ بن أبي طالب، انبعث الأهواء القديمة من مراقدها، واستيقظت من سباتها، وهبَّت من مكامنها، مكشوفةً من غير ستار، وظهر في العراق الخوارج والمعتزلة وغيرها من الفرق، وهلمَّ جرًّا حتى ظهرت الصُّوفيَّة في هذا الجو المفعم بالأهواء والبدع، وفي وسط هذا المزيج من الآراء والنحل، وقد كان سيل الإلحاد والزندقة في الدولة العباسيَّة قد عمَّ العراق وطمّها، حتَّى جاء المأمون فشيَّعهم، وقرَّبهم.[٤٩٨]

ومعلومٌ أنَّ الكثيرين من ذوي الإلحاد قد وجدوا في المعتزلة البيئة المناسبة؛ ليفرِّخوا فيها بأفكارهم وآرائهم ومفاسدهم، سيما أن المعتزلة نفوا الصفات عن

(٤٩٧) الكلدانيون: قومٌ من اليونانيين كانوا يعبدون الكواكب السبعة، وهي: القمر، وعطارد، والزهرة، والشمس، والمريخ، والمشتري، وزحل، ويستقبلون القطب الشمالي للصلاة، وكانت محاريبهم إلى جهته، وهم الذين بنوا مدينة دمشق وأنشأوها أولاً. انظر: البداية والنهاية (١/ ١٣٢، ٩/ ١٤٩).

(٤٩٨) أبو حنيفة: حياته، وآراؤه، للشيخ محمد أبو زهرة (ص ١٦٠- ١٦١، ١٦٧، ١٧٥).

الباري عز وجل، وجعلوه منه شيئاً أشبه ما يكون بالعدم، أو أنه موجودٌ في كل مكان.

واستمرَّ هؤلاء الملاحدة، يدسُّون على الإسلام والمسلمين، حتَّى إذا تبدَّت أغراضهم، وانكشف أمرهم، خرجوا عن الإعتزال وأظهروا حقيقة أمرهم، فابن الراوندي (ت ٢٩٨ هـ)[٤٩٩]، وأبو عيسى الوراق، وأحمد بن حائط، وفضل الحدثي، كلٌّ هؤلاء كانوا ينتمون إلى تلك المدرسة، وكان منهم من أحدثوا الأحداث في الإسلام، وأتوا بالمنكرات، وكان منهم من أستأجره اليهود لإفساد عقيدة المسلمين [٥٠٠]، وتحضرني هنا مقولة أحد الصوفيَّة الحقَّانيَّة، عندما قال: "لا يعرف أحدٌ أن الصُّوفيَّة غير مسلمين إلا الأذكياء من النَّاس"!.

ومن العجيب حقَّاً أن يكون شيخ ابن الراوندي الملحد صوفيٌّ أتقن الاعتزال وحذق فيه، وهو أَبُو مُوْسَى عِيْسَى بنُ الهَيْثَمِ الصُّوْفِيُّ (ت ٢٤٥ هـ)، قال عنه

(٤٩٩) هو: أحمد بن يحيى بن إسحاق الراوندي الزنديق الشهير، قال الحافظ في لسان الميزان: "كان أول من متكلمي المعتزلة، ثم تزندق واشتهر بالإلحاد، وقد صنف كتباً كثيرة يطعن فيها على الإسلام، وأكثر كتبه في الكفريات صنفها لأبي عيسى اليهودي الأهوازي وفي منزل هذا الرجل مات، وله اثنا عشر كتاباً يطعنُ فيها على الشريعة. (انظر: لسان الميزان، لابن حجر: ١/ ٣٢٤)

(٥٠٠) الإمام الشافعي: حياته، وآراؤه، للشيخ محمد أبو زهرة (ص ١٢٨).

الذهبيُّ: "مِنْ كِبَارِ المُعْتَزِلَةِ، وخالفهم في أشياء، وعنه أخذ ابن الراوندي الملحد". (٥٠١)

لقد وُجد في العصر العباسي زنادقة ومجوس يُعلنون آراء مُفسدة للجماعة الإسلاميَّة، ويتناجون بينهم بأمور هادمة للإسلام، ويدبون الأمر كيداً لأهله، وتهويناً لشأنه، ومنهم من كانوا يريدون نقض الحكم الإسلامي، وإحياء الحكم الفارسي، كما حدث من المقنع الخراساني الذي خرج على الدولة العباسية في عهد المهدي. (٥٠٢)

ومن الجدير بالذكر أنَّ الجاحظ (ت ٢٢٥هـ)، وهو أحد أئمة المعتزلة المعروفين ذكر طريقة التصوُّف، وشاهدهم، وناظر بعضهم، ووصمهم بالزندقة، فقال: "ورجالٌ ممن ينتحل الإسلام، يظهرون التقذر من الصيد، ويرون ذلك من القسوة التي تؤدي إلى الاستهانة بدماء الناس، ويرون أن الرحمة شكلٌ واحدٌ؛ فمن لم يرحم الكلب لم يرحم الظبي، ومن لم يرحم الظبي لم يرحم الجدي، ومن لم يرحم العصفور لم يرحم الصَّبي، وأن صغار الأمور تؤدي إلى كبارها، ويرون أنَّه ليس لأحدٍ أن يتهاون بشيءٍ مما يؤدي إلى القسوةِ يوماً ما، وأكثرُ ما سمعتُ هذا الباب، من ناسٍ من الصُّوفيَّة،

---

(٥٠١) انظر: سير أعلام النبلاء، ط– الرسالة (١٠/ ٥٥٢).

(٥٠٢) الإمام أحمد: حياته، وآراؤه، للشيخ محمد أبو زهرة (ص ١٢٠).

ومن النَّصارى، لمضاهاة النَّصارى سبيل الزنادقة في رفض الذبائح، والبغض لإراقة الدماء، والزُّهد في أكل اللِّحمان".(٥٠٣)

وكان من ثمرات هذا التشدُّد أن فقد بعضهم عقله؛ كما حصل لابن عطاء الأدمي البغدادي(٥٠٤)، وأنت ترى كيف كانوا يُنفِّرون مما أباحه الله ﷻ، كقول بعضهم: "مثقالُ ذرَّةٍ من لحمٍ تُقسِّي القلبَ أربعين صباحاً".(٥٠٥)

ويقول أبو زهرة أيضاً: "وطينة العراق ما زالت تنبت أرباب الأهواء، وأصحاب النحل العجيبة، والمذاهب البيعة، وقد كان منهم في أيام الأكاسرة مثل ماني، وديصان، ومزدك، وغيرهم، وترى من هذا أن العراق كان مزدحم الآراء في الإسلام، وفي القديم، وذلك لأنه كان يسكنه من القدم طوائف مختلفة، يبدو فيها اختلاط العقائد المتضاربة، فالديصانية والمانوية ليست إلا مزجاً لثنويَّة المجوس بالمبادئ النصرانية، وهكذا ترى فيها كثيراً مما ظهر من النحل المختلفة، وفي استنباط عقيدةٍ من عقيدتين أو عدة عقائد مختلفة!".(٥٠٦)

---

(٥٠٣) الحيوان؛ لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، (٤/ ٤٧١)

٥٠٤() سير أعلام النبلاء، للذهبي (١٤/ ١٥٣).

٥٠٥() انظر: دراسات في التصوُّف (ص ٦٣).

٥٠٦() أبو حنيفة: حياته، وآراؤه، للشيخ محمد أبو زهرة (ص ٩٥، ١٧١).

وتقول المستشرقة الألمانية (آنا ماري شيميل): ".. وهذه الأفكار البسيطة توجد في كل أنواع التصوف، وقد حاول متصوفون من شتى الأديان شرح خبراتهم الصوفيَّة في ثلاثة أنماط:

أولها: البحث المتواصل عن مصدر هذا الوجود، وعبَّروا عن ذلك بمراحل التَّرقِّي في المعراج الروحي، وأوجبوا على الصُّوفي السياحة في أرجاء الأرض، بحثاً عن الطريق الذي يؤدي به إلى ذلك المصدر، ويمرُّون خلال ذلك بأطوار روحيَّة، يتدرجون ويترقون من خلالها.

ثانيها: تربية النفس بالابتلاءات، وتنقيتها بأنواع الآلام، في سبيل محبة الإله، وتطهير الذات.

ثالثها: الارتكاز على الحُبِّ كقاعدة أساسيَّة ينطلقون من خلالها إلى الاتحاد مع الآلهة، وعبَّروا عن الحُبِّ بلوعة المُحبِّ وشوقهِ إلى التوحُّد، وذلك ظاهرٌ في أشعارهم، وأصبحت صورة مجنون ليلى الذي ضاع عقله وراء محبوبته، نموذجاً للمحب الصُّوفي.[٥٠٧]

(٥٠٧) الأبعاد الصوفية في الإسلام (ص ٧- ٨).

فيترنَّمون بكلماتٍ تنمُّ عن خالصِ الحُبِّ، ثُمَّ يُتبعونها بعد ذلك بتعبيرات لا نجد لها تفسيراً سوى "وحدة الوجود"، و"استبطان الذات"..!.

ويقول الدكتور فيصل بدير عون: إن التصوُّف ليس خاصّاً بالمجتمع الإسلامي دون غيره، ولكنه وجد في أحضان اليهودية والمسيحية، ولدى الفرس واليونانيين، والهنود، ومن الخطأ أن نعتقد أن التصوف الإسلامي نشأ نشأة إسلامية خالصة، وأنه لم يُفد من العناصر الأجنبية؛ لأن هذه النظرة بعيدة كل البعد عن الواقع العملي، وعن روح البحث العلمي، وإنه ليصعب على المرء أن يتصور صوفية المسلمين، وقد جهلوا اليهودية والنصرانية والمعتقدات الفارسية والهندية! (٥٠٨).

وفي هذا الجو المفعم بالفلسفات، في أخريات دولة بني أمية، وبدايات الدولة العباسية، كان التصوُّف هو إحدى النزعات الرُّوحيَّة التي نشأت في بحر الاضطراب الفكري والعقدي.

يقول الشيخ عبد الرحمن عبد الخالق عن التصوف إنَّه: "عقيدة فلسفية نشأت قبل الإسلام في الفلسفة الاستشراقية المنسوبة إلى أفلوطين، والفلسفات

---

(٥٠٨) التصوف الإسلامي الطريق والرجال، د. فيصل بدير عون (ص ١١، ١٣-١٤).

الهندية القديمة، والتي ما زالت عقيدة الهند إلى اليوم، وهي القول بوحدة الوجود" (٥٠٩).

ويرى الشيخ القرضاوي حفظه االله: أن التصوف ظاهرة عالمية، واتجاه تجده في

الأديان عامة، كما أنه في سمته العامة "اتجاه إلى التعمق في الجانب الروحي" (٥١٠)، على اختلاف في التعمق قوة وضعفاً ، كما في الديانة الهندية والمسيحية والمانوية (٥١١).

ويذهب كثيرٌ من الباحثين المعاصرين إلى أنَّ التصوف هو مذهبٌ منحرفٌ، لطائفةٍ ضالة، من أول ما أُحدِثَ، وأنَّه لا تصحُّ نسبته إلى أحدٍ من الصحابة، ولا أئمة التابعين(٥١٢) .

(٥٠٩) الفكر الصُّوفي في ضوء الكتاب والسُّنَّة، عبد الرحمن عبد الخالق (ص ١٨).

(٥١٠) فتاوي معاصرة (١/ ٧٣٤).

(٥١١) الأحاديث الموضوعة عند الصوفية وأثرها على الأمة، د. يوسف فرحات، بحث منشور (مقدمة).

(٥١٢) انظر: تعليق الشيخ حامد الفقي رحمه الله على كتاب العبودية لابن تيمية (ص ١٦، ٢١).

وبعد أن عرضنا الآراء في هذا المبحث، يمكننا القول بأن التصوُّف هو خليطٌ من مصادر مختلفة، لما له من جذور هندية، وفارسية، ويونانية، ويهودية، ونصرانية، وعربية شرقية، وقد عدَّ نيكلسون أن إرجاع التصوُّف إلى مصدر واحد من العبث في مجال البحث![٥١٣] .. وينتهي القول بأنَّ التصوُّف من الناحية النظرية مأخوذٌ من الأفلاطونية الحديثة، وأما من الناحية العملية؛ فمتأثرٌ بالفلسفة الهندية الفارسية.[٥١٤]

(٥١٣) في التصوف الإسلامي وتاريخه، مقدمة أبو العلا العفيفي (ص: د).

(٥١٤) في التصوف الإسلامي وتاريخه، مقدمة أبو العلا العفيفي (ص: ز).

المبحث الخامس

مصادر التلقي والاستمداد عند الصُّوفية:

وللصوفية مصادر ثابتة ومعتمدة في مسائل الاعتقاد والتشريع، وهي كثيرة ومتنوعة، وتعتمد على أساطير وأفكار من أصول دينية سابقة، بالإضافة إلى الخبرات العملية التي ملأت النظام (الكهنوتي) للإسلام!، والمستمدة من تدريبات اليوغا، والرقصات الشعائريَّة (التي اندمجت في أشكال الذكر) والمستمدة من طريقة الرقص الإغريقي تقرباً للآلهة (أبولو) و(ديونيسوس)، وكان علماء العصور الوسطى، يعتبرون الرقص هو حركة الآلهة، أو قباب السماء، وهو صورةٌ من صور الحياة الأبدية [٥١٥].

ويؤيد ذلك طبيعة المسائل التي خاضوا فيها، مثل البحث في القضاء والقدر، وإرادة الإنسان، والتكليف، والجزاء المقبول، والحكمة من التكليف، وكُلُّ هذا الاضطراب العقدي، والأفكار المثيرة للجدل، كان للصُّوفيَّة سهمٌ كبير في تطويرها.

---

(٥١٥) الأبعاد الصوفية للإسلام، آنا ماري شيمل (ص ٢٠٥، ٢٠٩).

على أنهم يزعمون أن طريقتهم مبنية على الكتاب والسُّنّةِ، ومتقيِّدةٌ بها، ولكنهم يتصرفون بما يخالف الكتاب والسُّنَّة، بل وبما يُخالف أصول الشريعة والدِّين، وفي كل ما سنذكره من مصادر التلقي، فإنهم لا يفعلون شيئاً إلا إذا أُمروا به، ولكل شخصٍ منهم شرعةً ومنهاجاً، وكأنَّه نبيٌّ صغير، فسوغوا لأنفسهم شرائع جديدة، ومشارب غريبة، وسكبوها في قوالب مختلفة؛ كما قال ظهير الدين القادري: "أنا لا أفعل شيئا إلا إذا أُمرت به"(٥١٦).

ولهذا قال ابن قيِّم الجوزيَّة: "ومن أحالك على غير سُنَّةِ النَّبيِّ ﷺ؛ فقد أحالك إما على خيالات المتصوفين، أو قياسات المتفلسفين، أو آراء النفسانيين، فليس بعد القرآن وسُنَّة النَّبيِّ ﷺ، إلا شبهات المتكلمين، وآراء المنحرفين، وخيالات المتصوّفين.. ومن فارق الدليل فقد ضلَّ سواء السبيل، ولا دليل إلى الله والجنَّة سوى الكتاب والسُّنَّة، وكُلُّ طريق لم يصحبها دليل القرآن والسُّنَّة؛ فهي طريق الجحيم والشيطان الرجيم"(٥١٧).

---

(٥١٦) الفتح المبين، لظهير الدين القادري (ص ٤٠).

(٥١٧) مدارج السالكين، لابن قيم الجوزية (٢/ ٤٣٨).

وتنقسم مصادر التلقي والاستمداد عند الصُّوفيَّة، إلى قسمين:

أولاً: مصادر ذاتيَّة تأمليَّة:

وتشمل (الكشف) أو (المشاهدة) بأنواعه: الإلهام، والهواتف، ونزول الملك، والمعراج الصُّوفي، والرؤى والمنامات، وقد نشعر بالحرج عندما نرى أناساً صوفيون يعانون من هذه الهلوسات البصريَّة والسمعيَّة، أو عند السماع لحكاياتهم في العوالم الافتراضية أو المتخيلة (المثالية!).

والمشكلة الأساسيَّة ليست في ذات الكشف أو الإلهام لأننا نؤمن بها بطريقة موافقةٍ للشرع، ولكن المشكلة تكمن في مصدر تلك الخبرة، والأساس الذي بُنيت عليه، وكذلك مدى صدق رواياتهم في نقلها، والمواضيع التي لا تمت إلى الدِّين والشريعة بصلة، ولذا ستتناول هذه الموضوعات وفقاً للخطوط المرويَّة عنهم، بعيداً عن الصيغة العاطفية للخيال الغامض!، ونسلط الضوء على الوجه الباطني للتصوُّف من خلالها:

ويعتمد الصوفية على الكشف؛ وهو: الرؤيةً بصريَّة، والسماع الحسِّي، كمصدر وثيق لتلقي الدين والشريعة، ومعرفة أحوال الغيب وعوالمه، والاطَّلاع على اعتقادات الناس وضمائرهم، ومعرفة المُعَذَّبين والمُنعَّمِيْنَ من أصحاب القبور.

ويدخل تحت الكشف الصوفي أربعة أنواع مختلفة، وهي:

أ. الكشف من الله عزَّ وجل، ويشمل (الإلهام، والهواتف، ونزول الملك).

ب. الكشف الرُّوحي، ويشمل (الكشف من النَّبيِّ ﷺ، ومن الخضر عليه السلام).

ج. الكشف الكوني، ويشمل (الرؤى والمنامات، والمعراج الصُّوفي).

د. الكشف العقلي (النظري)، بالمطالعة والقراءة، والمدارسة.

الأول: الكشف من الله عز وجل، وله ثلاث صور:

١ –الإلهام:

وهو ما يُلقى في القلب بطريق الفيض أو (الإشراق)، ويكون من الله تعالى مباشرة [٥١٨]، أو هي المعرفة التي تهجم على قلب الإنسان من حيث لا يدري[٥١٩]، فيعتقدون أنَّ الخالق هو الذي قدَّر كلَّ كلمة من كلمات ذلك الوليِّ (العارف بالله!)، وأنَّه – سبحانه– هو الذي يُلهمه الإجابة، ويرى المتصوفة أن النفس إذا صفت بالمجاهدات، واستطاع المريد أن يتحكم بانفعالاته، وأن يخلص نفسه من شواغلها

(٥١٨) تعريفات الجرجاني، (ص ٢٣).

(٥١٩) مقدمة في فلسفة الإسلام، عمر محمد الشيباني (ص ١٥١).

الحسية، فإن نفسها تنجذب إلى عالم القدس، وتتصل بالملأ الأعلى بسهولة! وبه جعلوا مقام الصوفي فوق مقام النبي حيث يعتقدونَ أنَّ الوَليَّ يأخذ العلم مباشرةً عن الله تعالى، بينما الرسول أو النبيُّ يأخذه من المَلَك الذي يوحي به إليه.

يقول ابن عربي في هذا المعنى: "اعلم أن علومنا وعلوم أصحابنا ليست من طريق الفكر، وإنما هي من الفيض الإلهي"(٥٢٠).

ويقول أيضاً: "إن جميع ما أكتبه في تأليفي ليس هو عن رويَّةٍ وفكر، وإنما هو عن نفث في روعي على يد ملك الإلهام"(٥٢١).

أما الغزالي الذي يُعدُّ أكثر اعتدالاً؛ فيرى أن رتبة الوحي فوق رتبة الإلهام، لأن الوحي –كما يقول: يتولَّدُ من إفاضة العقل الكُلِّي، أما الإلهام؛ فمن إشراق النفس الكلية، والعقل الكلي أشرف وأكمل وأقوى وأقرب إلى البارئ تعالى من النفس الكلية (٥٢٢).

---

(٥٢٠) الفتوحات المكية، ابن عربي، الباب السابع والأربعون (١/٥).

(٥٢١) الفتوحات المكية، ابن عربي، الباب السادس والستون وثلاثمئة.

(٥٢٢) مقدمة في فلسفة الإسلام، عمر محمد الشيباني (ص ١٥٣).

كذلك فإن الوحي ينقطع، وأما الإلهام فلا ينقطع؛ لأن مدد النفس الكلية –كما يقول الغزالي: لا ينقطع لدوام حاجة النفوس إلى التذكير والتجديد![٥٢٣] .

وقد شنَّع السيوطيُّ على أقوامٍ منهم اتخذوا الإلهام المُجرَّد حُجَّةً لهم في السلوك، فيقول: "ويدَّعي أقوامٌ الاعتماد على جميع وساوسه وخواطره ويعمل عليها، ويدَّعي أنها التحقيق، ويرُدُّ بها القواعد الشرعية والأحاديث النبوية، ويزعم أنَّ الفقهاء بعيدون عن هذا الذوق، فليتَ شعري أجاءه من الله جبريل فأخبره أن خاطره معصوم، وأن الفقهاء كلهم حجبوا عن هذا الأمر وإدراك أنه حق! بل هذا خرق لإجماع الناس على أن الخواطر غير معصومة، وأنها لا بُدَّ من عرضها على الكتاب والسنة، وأنه لا بُدَّ من تقديم الاشتغال بهما"[٥٢٤].

٢–الهواتف:

كسماع الخطاب من الله تعالى مباشرةً –عياذًا بالله تعالى–، أو من الملائكة، أو من الجن الصالح، أو من أحد الأولياء، أو حتى الخضر ؛ إمَّا منامًا أو يَقَظَةً.

---

(٥٢٣) مقدمة في فلسفة الإسلام، عمر محمد الشيباني (ص ١٥٤).

(٥٢٤) تأييد الحقيقة العلية؛ للسيوطي (ص ٦٤).

وفي حالة اليَقَظَة: يكون الهتاف –كما يقولون –بواسطة الأذن –كما يعتقدون –وهذا تمامًا يوافق ما تقوله الشيعة الاثنى عشريَّة من الإلهام، ونزول الوحي على قلوب أئمَّتهم الإثنى عشر، ويقول القشيري في هذا المعنى: أنا بالله أنطق، ومن الله أسمع.(٥٢٥)

وقد طلب بعض غلاة الصوفية النبوَّة بذلك، واعتقدوا أنها تُنال بالاكتساب والاجتهاد، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "فكلام الله عندهم هو ما في نفسه من الأصوات، وملائكته هي ما في أنفسهم من الصُّور والأنوار، وهذه الخصال تحصل لغالب أهل الرياضة والصفاء، فلهذا كانت عندهم النبوة مكتسبة".(٥٢٦)

٣. نزول الملك:

فيعتقد الصُّوفيَّة بجواز نزول الملك على الصُّوفي؛ وأنه يتلقى منه الأوامر والنواهي، فلا يفعل شيئاً إلا إذا أمره الملك بذلك، كما يبين ذلك عبد العزيز الدباغ بقوله: "إن الولي ينزل عليه الملك بالأمر والنهي"(٥٢٧).

---

(٥٢٥) الفتوحات الإلهية، ابن عجيبة (ص ٢٥٥).

(٥٢٦) الإيمان الأوسط لابن تيمية (ص ٥٠٢).

(٥٢٧) الإبريز، للدباغ (ص ١٥١).

ثانياً –الكشف الرُّوحي :

وهي درجةٌ لمن وصل إلى كمال النبوة، وعندها يحظى الصُّوفيّ بتكليم أرواح الأنبياء، والالتقاء بالملائكة، والأخذ عن الخضر، ويندرج تحت هذا الكشف نوعان من الكشف، هما:

١. كشف من اللوح المحفوظ:

ويقصدون بذلك اطلاعهم على أقضية الله في خلقه، ومعرفتهم أهل السعادة والشقاوة، وما يحصل للإنسان مدة حياته، ومصيره في الآخرة، قال الشعراني: أنه يُفاض على المريد في أول ليلة من ليالي الفتح بخمسةٍ وعشرين علماً، منها علم أهل السعادة وأهل الشقاوة، ومنها علم عدد الرمال، والنبات، والجماد، وما يخصُّ كلاً مما أودع الله فيه من المنافع، والمضار.[٥٢٨]

٢. كشف من النبيﷺ :

(٥٢٨) حاشية الباجوري على شرح ابن قاسم الغزي (ص ٥).

ويقصدون به مشاهدة روح النَّبيِّ ﷺ، وسماع صوته، وأخذ الأحكام الشرعية عنه ﷺ، أو عن الملائكة الكرام، أو عن أحد أصحابه رضوان الله عليهم، يَقَظَةً أو منامًا، ومعلوم أنَّ هذا من الضلال البعيد –عياذًا بالله تعالى..!

يقول أبو العباس المرسيّ: "وطريقنا هذه هداية، وقد يجذب الله تعالى العبد إليه، فلا يجعل عليه منةً لأستاذ، وقد يجمع شمله برسول الله ﷺ، فيكون آخذاً عنه، وكفى بهذه منَّة"(٥٢٩).

وينقل السُّيوطي "عن عبد الرحيم القنائي أنه كان يقول: لا منَّة لأحدٍ عليَّ –في الطريق– إلا لرسول الله ﷺ، وأن الشيخ مكين الدين الأسمر قال له: أنا ما ربَّاني إلا رسول الله ﷺ"(٥٣٠). ويذكر عن أبي الحسن الشاذلي أنه رأى النبيَّ ﷺ يقظةً، وحمَّله السَّلامَ إلى الشيخ عز الدين بن عبد السلام"!(٥٣١).

وهذا إقحامٌ عجيب للشيخ ابن عبد السلام في هذه القضية الظاهرة في الكذب والإعياء، وبين عز الدين والشاذلي من المفاوز والمراتب ما لا يقطعها الشاذلي ولو سار طول حياته..

---

(٥٢٩) قضية التصوف، المدرسة الشاذلية (ص ٢٦٣). وتأييد الحقيقة العليّة؛ للسيوطي (ص ٤٤).

(٥٣٠) انظر: تأييد الحقيقة العليّة؛ للسيوطي (ص ٤٤).

(٥٣١) انظر: تأييد الحقيقة العليّة؛ للسيوطي (ص ٧٠).

ويقول السيوطيُّ: "وهذا (يعني رؤية النبيِّ ﷺ يقظةً) لا إنكار فيه، وممن نصَّ على إمكان وقوعه من أئمة الشرع: الغزالي، واليافعي، وفي كلام القرطبيِّ إشارةٌ إليه"(٥٣٢).

ويعتبر الدكتور عبد الحليم ذلك أمراً طبيعياً، سيما لمن تمكن في المجال الرُّوحي، وارتبطوا بالملأ الأعلى، فيذكر عن الشاذلي أنَّه سئل عن شيخه؛ فقال: "أما فيما مضى، فكان سيدي عبد السلام بن مشيش، وأما الآن، فأستقي من عشرة أبحر، خمسةٍ سماويَّة، وخمسةٍ أرضية، أما السماويَّة؛ فجبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وعزرائيل، والروح، وأما الأرضية فأبو بكر وعمر وعثمان وعليّ والنَّبيّ ﷺ "(٥٣٣).

ويدَّعي كثيرٌ من الصُّوفيَّة أنهم مأمورين بواسطة الرسول ﷺ بتأسيس طرق جديدة تحمل أسمائهم، ويزعمون تلقِّي الورد الخاص للطريقة عنه ﷺ، كما قال أحدهم عن شيخه:

أورادهُ من رسولِ الله قد رُويَت ... كذا أفعالهُ والسِّرُّ مأثورُ

٣. كشف من الأنبياء عليهم السلام:

---

(٥٣٢) انظر: تأييد الحقيقة العليّة؛ للسيوطي (ص ٧٠).

(٥٣٣) قضية التصوف، المدرسة الشاذلية (ص ١٧١).

وفي ذلك يقول ابن عربي في فصوصه: "اجتمعت روحي بهارون عليه الصلاة والسلام في بعض الوقائع، فقلتُ له: يا نبيَّ الله كيف قُلتَ: ولا تُشمت بي الأعداء حتى تشهدهم، والواحد منا يصل إلى مقامٍ لم يشهد فيه إلا الله، فقال السيد هارون: صحيحٌ ما قلتَ في مشهدكم، وقد نقص علمكم بالله في ذلك المشهد، بقدر ما نقص في شهودكم العالم... قال: فأفادني عليه الصلاة والسلام ما لم يكن عندي! "(٥٣٤) .

٤. كشف من الخضر عليه السلام:

وحيث تكثر حكايات الصوفيّة عن الالتقاء بالخضر، والأخذ عنه، فيأخذون عنه أحكامًا شرعيَّة وعلومًا دينيَّة، إضافة إلى أنهم يدَّعونَ أنه يُعلِّمهم الأوراد والأذكار والمناقِب، حيث إنَّه يمتلك الحكمة، والاسم الأعظم، والمعرفة، التي تمنح الولاية، والقدرة على فعل الأشياء الخارقة.

يقولُ ابن الجوزيِّ رحمه الله: "إن الخضر لو كان حيَّاً لاجتمع بالنبيِّ ﷺ، ولو اجتمع به لورد"(٥٣٥)، وهذا صحيحٌ من جهة الأثر والنظر.

---

(٥٣٤) المورد العذب لذي الورود؛ مصطفى البكري (ص ١٠٣).

(٥٣٥) انظر: تأييد الحقيقة العليّة؛ للسيوطي (ص ٧٠).

يقول الشيخ الصُّوفي محمد إبراهيم: "هناك حقائق اختصَّ الله بها أولياءه، ولم يكن في وسع العقل، والعلم، والتشريع مهما بلغ صاحبها، ولو كان رسولاً أن يكشفها، أو يصل إلى بعض أسرارها، ولكن الأولياء يعرفونها لأن ذلك من علمهم اللدني الذي لم تصل إليه العقول، ولو كان صاحبها رسولاً من كبار رسل الله"(٥٣٦)

.

ومن ذلك ما ذكره الدكتور عبد الحليم محمود عن أبي العباس المرسي، أنَّه كان يقول: وكان لي أربعون سنة، ما حجبت عن رسول الله ﷺ، ولو حجبت عنه طرفة عين ما عددتُ نفسي من جملة المسلمين.. ومن كراماته أنه التقى بالخضر، وصافحه بكفِّه، وأخذ عنه دعاء الأبدال، وعرف منه أرواح المؤمنين المعذَّبة والمنعمة، وكان يقول: "لو جاءني الآن ألف فقيهٍ يجادلونني، ويقولون لي مات الخضر، ما رجعتُ إليهم!" .(٥٣٧)

---

(٥٣٦) حياة السيد البدوي، محمد محمود إبراهيم (ص ٩).

(٥٣٧) قضية التصوف، المدرسة الشاذلية (ص ١٨٥ ١٨٦)، والدعاء هو: "من قال كل صباح: (اللهم اغفر لأمة محمد، وأصلح أمة محمد، وتجاوز عن أمة محمد، واجعلنا من أمة محمد صار من الأبدال)!".

يقول محمد أحمد لوج: "فما من صوفي يريد تشريع ذكر من الأذكار، أو صلاة من الصلوات المبتدعة، إلا ويدَّعي أنه لقي الخضر، وأنه هو الذي أعطاه إياه، وما من أحد منهم يرتكب جريمة خُلقيَّة أو جنائيَّة، أو يهمل فريضةً من فرائض الله، إلا ويوجه منتقديه، بأنَّ صاحب الظاهر ليس من حقه أن ينتقد صاحب المقام الخضري، فمتى ما اشتهر شخصٌ منهم بمخالفة الأوامر والنواهي الشرعيَّة، قالوا عنه: كان خضريَّ المقام، أو كان يسير على سنن الخضر!!"(٥٣٨) .

ولا عجب أن يتشارك الشيعة مع طوائف الصُّوفيَّة في هذا المعتقد الغريب، تقول الكاتبة الشيعية فاطمة الجعفر: "هناك الكثير من الروايات الصحيحة المأثورة عن أئمتنا الأطهار تُبيِّنُ أن الخضر عليه السلام كان حياً في زمانهم، وأنه كان يأتي إليهم، ويجتمع بهم في مناسبات ومواضع عديدة!!"(٥٣٩) .

وتنقل في باب الأذكار التي علمها الخضر لعلي بن أبي طالب، وتلقفها عنه كميل بن زياد، يقول علي رضي الله عنه لكميل بن زياد: "ما من عبدٍ يُحيي ليلة النِّصف من شعبان، ويدعو بدعاء الخضر عليه السلام (يا من لا يشغله سمعٌ عن سمع، يا من لا يُغلِّطُه السائلون، يا من لا يُبرمه إلحاح الملحين، أذقني برد عفوك،

---

(٥٣٨) تقديس الأشخاص في الفكر الصوفي، محمد أحمد لوج (١/ ٣٨٦).

(٥٣٩) مجلس الخضر (ص ٣٠).

وحلاوة رحمتك ومغفرتك)، إلا استجيب له، فادعُ به أدبار الصلوات، وفي كل ليلة جمعة، أو في الشهر مرة، أو في عمرك مرة تُكفى، وتُنصر، وتُرزق!!"[٥٤٠] .

٥. كشفٌ من الصحابة والشيوخ:

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "ودخلت الشياطين في أنواع من ذلك فتارة يأتون الشخص في النوم يقول أحدهم: أنا أبو بكر الصديق وأنا أتوبك لي وأصير شيخك وأنت تتوب الناس لي ويلبسه فيصبح وعلى رأسه ما ألبسه فلا يشك أن الصديق هو الذي جاءه ولا يعلم أنه الشيطان وقد جرى مثل هذا لعدة من المشايخ بالعراق والجزيرة والشام وتارة يقص شعره في النوم فيصبح فيجد شعره مقصوصاً. وتارة يقول: أنا الشيخ فلان فلا يشك أن الشيخ نفسه جاءه وقص شعره، وكثيراً ما يستغيث الرجل بشيخه الحي أو الميت فيأتونه في صورة ذلك الشيخ وقد يخلصونه مما يكره فلا يشك أن الشيخ نفسه جاءه أو أن ملكاً تصور بصورته وجاءه، ولا يعلم أن ذلك الذي تمثل إنما هو الشيطان لما أشرك بالله أضلته الشياطين والملائكة لا تجيب مشركاً"[٥٤١] .

---

(٥٤٠) مجلس الخضر (ص ٣٧)، نقلاً عن بحار الأنوار (٣٩/ ١٣٢).

(٥٤١) مجموع الفتاوى (١٣/ ١٩١-١٩٢).

ثم قال: " وكثيرٌ من الناس رأى من قال إني أنا الخضر وإنما كان جنياً، ولهذا يجري مثل هذا لليهود والنصارى فكثيرا ما يأتيهم في كنائسهم من يقول إنه الخضر وكذلك اليهود يأتيهم في كنائسهم من يقول إنه الخضر، وقد يقول: أنا المسيح أو موسى أو محمد أو أبو بكر أو عمر أو الشيخ فلان فكل هذا قد وقع" (٥٤٢).

ويُذكر في هذا المضمار أن أول من أسس المشيخة الصُّوفية بالعراق بعد انقراض مشايخ الرسالة القشيرية ومن في طبقتهم هو الشيخ أبو بكر بن هوار البطائحي (٥٤٣)، وتكاد تخلو كتب التراجم من تاريخ وفاته ولكن تقدر وفاته في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري. ويذكر انه أول من ألبسه ابو بكر الصديق الخرقة في النوم فاستيقظ فوجدها عليه، وقد كان قبل ذلك شاطراً يقطع الطريق بالبطائح ومعه رفقة يرأسهم، وهو أول من ذلل الأسد والحيات لأهل البطائح، والهواريون قبيلة من الأكراد (٥٤٤) .

---

(٥٤٢) مجموع الفتاوى (١٣/ ١٩٣) بتصرف.

(٥٤٣) انظر: بهجة الاسرار في بعض الجيلاني؛ لأبي الحسن علي بن يوسف الشطنوفي (ص ٢٨٠). والطبقات الكبرى، للشعراني، (١/ ١٨٦).

(٥٤٤) بهجة الأسرار، للشطنوفي (ص ٢٨١ – ٢٨٦).

ثالثاً–الكشف الكوني:

ويتضمن معرفة أسرار الكون، والاطلاع على العوالم الغيبية، بطريقة الكهانة والعرافة، أو الرؤى المنامية، ويعتمد على تطهير النفس بالجوع والعري والخلوة، ويندرج تحتها ثلاثة أقسامٍ، هي:

١. الرؤى والمنامات:

وتُعَد الرؤى والمنامات من أكثر المصادر اعتماداً في الفِكر الصوفي، حيث يزعمون أنهم يتلقَّوْنَ فيها بعض الأحكام الشرعيَّة عن الله تعالى مباشرة عياذًا بالله، أو عن النبي ﷺ، أو عن شيوخ الطرق الصوفية بعد موتهم، وهذا أمرٌ لا يمكن حصره.[٥٤٥]

---

(٥٤٥) انظر: الصوفية وطرقها، ممدوح الحربي (ص ٢٢–٢٣).

ومن تلك الرؤى، ما ذكره عبد الحليم محمود[٥٤٦] عن أبي العباس المرسيّ (ت ٦٨٥هـ/ ١٢٨٧م) أنَّ شيخه الشاذلي لما كان بالقيروان، ودخل الجامع ليلة السابع والعشرين من رمضان، قال: "رأيت الأولياء يتساقطون عليه، كما يتساقط الذباب على العسل"، فلما خرجنا من الجامع، قال الشيخ الشاذلي: "ما كانت البارحة إلا ليلةً عظيمة، وكانت ليلة القدر، ورأيت رسول الله ﷺ، وهو يقول: "يا عليّ طهِّر ثيابك من الدَّنس، تحظى بمدد الله في كُلِّ نفس"، قال: قلتُ يا رسول الله: وما ثيابي؟، قال: "اعلم أنَّ الله قد خلع عليك خمس خُلَع: المحبَّة، والمعرفة، والتوحيد، والإيمان، والإسلام..." [٥٤٧].

٢. المعراج الصُّوفيّ:

وهذا المعراج خاص بالوليّ الصوفي، ويقصدون به عروج روح الولي إلى العالم العلوي والتنقُّل في ملكوت السماء في أيِّ جهة أراد ذلك الوليّ، وأوَّل من قال بالطيران، والمعراج الصُّوفي هو أبو يزيد البسطامي، الذي قال: لي معراج كما

(٥٤٦) وقد عقد فصلاً في كتابه قضية التصوف باسم: "معارجٌ ومَراءٍ"، واعتبر أنَّ الرؤى والمنامات الصوفية إنما هي نتاج للذكر الصُّوفيّ المكثَّف والمستمر، وذكر ستة عشر رؤيا عن الشاذلي (ص ١١٥-١٢٠).

(٥٤٧) قضية التصوف، المدرسة الشاذلية، د. عبد الحليم محمود (ص ١٥).

كان للنَّبيِّ ﷺ معراج، وكان ذلك سبب إخراجه من بسطام[٥٤٨]، ويعتقدون بأن الولي يأتي من الملكوت السماوي العلوي بشتَّى العلوم والأسرار.

وادَّعى أبو يزيد (الكذَّاب) أنَّه عرج إلى السماوات، وتكلَّم مع الرَّب سبحانه وتعالى، وأنَّه الله أراه السبع أرضين وما فيها، وأنَّه رأى الجنان، وعرش الرحمن، ثُمَّ لم يُعجبه شيء!!؛ فيقول: "أدخلني في الفلك الأسفل، فدورني في الملكوت السفلى، فأراني الأراضين، وما تحتها إلى الثرى، ثم أدخلني في الفلك العلوي، فطوَّف بي في السماوات، وأراني ما فيها من الجنان إلى العرش، ثم أوقفني بين يديه؛ فقال لي سلني أيَّ شيء حتَّى أهبُه لك ؟، فقلتُ: يا سيدي ما رأيتُ شيئاً أستحسنه، فأسألك إياه، فقال: أنت عبدي حقَّاً، تعبدني لأجلي؛ لأفعلنَّك بك!!".[٥٤٩]

وقال أبو يزيد أيضاً: "رفعني مرَّةً فأقامني بين يديه، وقال لي: يا أبا يزيد، إن خلقي يُحبُّون أن يروك، فقلتُ: زيِّنِّي بوحدانيتك، وألبسني أنِّيَّتك، وارفعني إلى

(٥٤٨) التصوف في القرنين الثاني والثالث الهجريين، أبو الخير تراسون (ص ١٧٢).
(٥٤٩) قوت القلوب، لأبي طالب المكي (٢/ ٧٠).

أحديَّتك، حتَّى إذا رآني خلقك، قالوا: رأيناك، فتكون أنت ذاك، ولا أكون أنا هنا".[٥٥٠]

وزعم البسطاميُّ، أنَّه خاض بحراً من العلوم لم يستطع الأنبياء أن يخوضوه، وإنما وقفوا بساحله؛ فقال: "خضنا بحراً وقف الأنبياء بساحله"[٥٥١]، وادَّعى أنَّه أُتي بما لم يُؤتَ النبيون من العلم، حينما صرَّح: "معاشر الأنبياء أوتيتم اللقب، وأوتينا ما لم تؤتوه"[٥٥٢]، وحينما قال: "تالله إنَّ لوائي أعظم من لواء مُحمَّد، لوائي من نور تحته الجان والإنس، كُلُّهم من النبيين"[٥٥٣]، وليس بعد الكفر ذنب!.

---

(٥٥٠) اللُّمَع؛ للطوسي (ص ٤٦١).

(٥٥١) جمهرة الأولياء، (١/ ٢٦٦). وينقل السيوطي عن أبي العباس المرسي في تفسير قولة أبي يزيد البسطامي، فقال: "إنما يشكو أبو يزيد بهذا الكلام ضعفه وعجزه عن اللحاق بالأنبياء، ومراده أن الأنبياء خاضوا بحر التوحيد، ووقفوا في الجانب الآخر على ساحل الغرق يدعون الخلق إلى الخوض. أي فلو كنت كاملاً لوقفت حيث وقفوا". انظر: تأييد الحقيقة العلية؛ للسيوطي (ص ٦٩).

(٥٥٢) الإنسان الكامل للجيلي (١/ ١٢٤)

(٥٥٣) المصدر نفسه (١/ ٦).

وكذلك قال أبو الغيث بن جميل الصُّوفي (ت ٦٥١ هـ): "خضتُ بحراً وقف الأنبياء بساحله "(٥٥٤)، ويُذكر أنه تحول من قاطع طريق إلى شيخ صوفي معروف، بعد سماعه لهاتف خفي.

٣- الفراسة والنظر:

ويذكر السُّيوطيُّ في كتابه (تأييد الحقيقة العليَّة): "يُحكى عن بعض المشايخ أن تلميذه حضر وهو جالسٌ في جماعة، وقد ارتفع النهار، فتفرَّس الشيخ أنه في الليلة الذاهبة كان هذا المريد قد ارتكب معصية، فنظر إليه نظر مغضب، ولم يمكنه الإفصاح له بمحضر من الجماعة، فنظر التلميذ إلى الشيخ نظرة منكر، فقام الشيخ وجاء وقبَّل يد المريد، ولم يفهم الجماعة شيئاً، فسُئل الشيخ بعد ذلك فقال: إنه البارحة وقع في الزنا، فنظرت إليه نظرة مغضب لذلك، فنظر إليَّ نظرة عاتب، يقول: لو كان خاطرك معي وإمدادك مصاحبي لما وقع مني ذلك، فأنت المُقصِّر، فقبلتُ يده لصدقه! فإن التقصير مني" (٥٥٥).

(٥٥٤) المورد العذب؛ لمصطفى البكري (ص ١٠٧). وتأوله البكريُّ بقوله: "خاض بحر السُّكر، ووقف الأنبياء بساحله الثاني، يُنقذون الغرقى منه"! وهذا تأويلٌ ظاهر التكلُّف.

(٥٥٥) تأييد الحقيقة العلية وتشييد الطريقة الشاذلية؛ جلال الدين السيوطي (ص ١٣).

قلتُ: فواعجباً من شيخٍ يُقبِّل يد مريدٍ وقع في الفاحشة والزنا، بدلاً من أن ينهره ويدعوه إلى التوبة، ثُمَّ يُقرر في نفوس أتباعه الشرك، وأنه ينفعهم ويضرهم بإمداده، وهذه الطامة الكبرى، ولا عاصم من هذا الإلحاد إلا الله.

رابعاً: الكشف العقلي:

وهو ما يصل إليه الصُّوفيّ من المعرفة بواسطة المطالعة، والتأمل، بما يشبه كلام الفلاسفة ومقاصدهم.

وهو مختلفٌ عن الحدس، الذي هو الإدراك السريع والمفاجئ للموقف أو الحقيقة، من غير حاجة إلى كثير عناء أو إلى تعليم، فتكون المعرفة عن طريق الحس الباطن أو الذوق الروحاني المباشر، وهو قريب من معنى الإلهام أو الكشف الصوفي، ويُعرف الغزالي (الحدس): بأنه انتقال الفكر من المبادئ إلى المطالب بدون واسطة، وهو مأخوذ من الحدس، وهو السرعة في السير، وهي معرفة تقع لصفاء الذهن.

ويشترك الإلهام مع الحدس في أن كُلاً منهما يكون عن طريق الاتصال بالعقل الفعال، وهما من قبيل الإدراك العقلي أو الوجداني المباشر، كما أن كليهما

يتحقق فيه الانتقال السريع من المجهول إلى المعلوم، ومن العقل بالقوة إلى العقل بالفعل.

ويختلف الحدس عن الإلهام في أن صلته بالعلوم عن طريق الحواس وإشراق النفس، بينما الإلهام مُتعلِّقٌ بالحقائق والمُثُل العليا [٥٥٦].

وبما أن التصوف مجاهدة ومشاهدة، فإن تذوقه لا يعتمد كثيراً على النمط العقلي الدراسي، يقول الغزالي: "فإن المجاهدة تفضي إلى المشاهدة ودقائق علوم القلب تنفجر بها ينابيع الحكمة من القلب، وأما الكتب والتعليم، فلا تفي بذلك". [٥٥٧]

وهو ما يؤكده الدكتور عبد الحليم محمود، بقوله: "فليس التصوف ثقافةً كسبية، تتأثر بهذا الاتجاه أو ذاك، وإنما هو ذوق ومشاهدة، يصل الإنسان إليها عن طرق الخلوة والرياضة والمجاهدة والاشتياق بتزكية النفس وتهذيب الأخلاق، والذكر" [٥٥٨].

---

(٥٥٦) مقدمة في فلسفة الإسلام، عمر محمد الشيباني (ص ١٥٠).

(٥٥٧) انظر: إحياء علوم الدين (١/ ٧١)، (١٣/ ٢٣).

(٥٥٨) انظر: المنقذ من الضلال، لعبد الحليم محمود (ص ٢١٧).

ويقول الباحث الإيراني محمد جواد جوهري: "إن معظم من اكتسوا مسوح التصوُّف تركوا عباءات العلم الرسمي إن لم نقل كله، لاشتغالهم بالخوض في غمار الرياضات والمشاهدات، وكشف الحجب، الذي شكل لهم هواجس نفسانية هي من الثقل بمكان، وإن وجدنا بعضهم ينطق بما يومئ إليه التزامه بعبادات الشريعة ومضامينها، فكان القصد الأول لديهم التنائي جداً عمّا قد يلصق بهم من تُهمٍ تقضُّ عليهم مضاجعهم، وتُحرِّم عليهم الراحة والطمأنينة، بيد أن عددهم لم يكن منذ القديم من العصور مؤشراً إلى أن غالبيتهم وأكثريتهم في الأجواء الصوفية أقبلوا على العلم أو طلبه، وإنما أناطوا ما عندهم من العلوم إلى الواردات القلبية والإشراقات الروحية" (٥٥٩).

ويقول جوهري أيضاً: "ما ذهب إليه الصُّوفيَّة في أغلب الأحيان هو أن علم العشق لا يسعه دفترٌ ولا كتاب (كه علم عشق در دفتر نباشد)" (٥٦٠) .

ويقول السُّيوطيُّ في بيان تحريم قراءة كتب أهل التصوُّف: "فإذا كان أهل الطريق ذمُّوا من يشتغل بدقائق الفقه العويصة، التي لا يُحتاج إليها إلا نادراً، فكيف يسمحون للسالك بقراءة هذه الكتب التي لا تدخل لها في السلوك، ولا تربية

(٥٥٩) تصوف الشيعة، نظرة إلى حياة السيد حيدر الآملي وعقائده (ص: ٤٩–٥٠).

(٥٦٠) تصوف الشيعة، نظرة إلى حياة السيد حيدر الآملي وعقائده (ص: ١١١).

المريد، وإنما هي إشارات محضة عن وجدانيات حصلت لهم عند انتهائهم... وليس للسالك حاجةٌ ولا تعويلٌ عليها"[(٥٦١)].

ويقول السيوطيُّ أيضاً: "ولم يُعدّ لأحدٍ من أئمة الطريق قديماً ولا حديثاً عقدُ حلقةٍ لتدريس مثل هذه الكتب وتقريرها كما يُقرر سائر العلوم، وإنما يأخذون المريد بالخلوة والإنفراد وملازمة الأوراد ومجاهدة النفس، ونحوها من وظائفهم المعروفة"[(٥٦٢)].

ويقول السيوطيُّ أيضاً: "وأما عدم الإذن في قراءة هذه الكتب، فنقول: إما أن تكون لا تأويل لها صحيح، فواضحٌ أن قراءة مثل ذلك لا تجوز. أو يكون لها تأويلٌ صحيح ومخلصٌ سائغٌ، وحينئذٍ، فهنا كلامان، أحدهما للقارئ: ونقول له: ما مرادك بقراءتك هذه الكتب؟ أمُجرد فهم العلم؟ فهل أتقنت علوم الشريعة المهمة من الفقه الذي هو تكاليف محضة، والحديث الذي هو آدابٌ سُنيَّة، والتفسير الذي هو معارفُ عليَّة، والآلات التي يتوصل بها إلى فهم ذلك، كلا والله لا أتقنت ذلك ولا بعضه، فهذا خروجٌ عن قانون الأدب والعقل، حيث تترك الاشتغال بالعلم المهم إلى غير المهم، وإذا كان مرادك أن تصير صوفياً محققاً، فوالذي فلق الحبَّة

(٥٦١) انظر: تأييد الحقيقة العلية، وتشييد الطريقة الشاذلية؛ للسيوطي (ص ٦١).

(٥٦٢) انظر: تأييد الحقيقة العلية، وتشييد الطريقة الشاذلية؛ للسيوطي (ص ٦٠).

وبرأ النسمة لو قرأت من هذه الكتب عدد رمل عالج في مدة عمر نوح لم تصر صوفيَّاً، حتى يلج الجمل في سمِّ الخياط... وثانيهما للمقرئ: عليك أن تأخذ المريدين بالآداب التي قررها أهل الطريق، ولا تمكنهم من قراءة هذه الكتب التي هي مضلةٌ للفهوم، على تقدير أن يكون من المحققين العالمين بتأويله على أحسن المسالك"[٥٦٣].

ويُقرر ابن علان (ت ١٠٥٧ هـ) أن الخلوة الصُّوفية من المحدثات والبدع، ومن ثم يعتبر هذه المحدثات من الوسائل التي لها حكم المقاصد، فيقول: "وطرق المشايخ وإن كان فيها بعض محدثات كالخلوات وبعض الأعمال التي فيها من رياضة النفوس ومجاهدتها لكنها تدخل زمام العبودية وللوسائل حكم المقاصد"[٥٦٤] . وجوابه: أن الله لا يُعبد إلا بما شرع، وأن المجاهدات النفسية مهما بلغت لن تسلك بالعبد الطريق الصواب الذي يرتضيه الله سبحانه.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "وهؤلاء الفلاسفة يجعلون النبوة فيضاً من العقل الفعال على نفس النبي، ويجعلون ما يقع في نفسه من الصور هي ملائكة الله، وما يسمعه في نفسه من الأصوات هو كلام الله، ولهذا يجعلون النبوة مكتسبة،

---

(٥٦٣) انظر: تأييد الحقيقة العلية، وتشييد الطريقة الشاذلية؛ للسيوطي (ص ٦٠-٦١).

(٥٦٤) انظر: دليل الفالحين طرق رياض الصالحين (١/ ٣٩).

فإذا استعد الإنسان بالرياضة والتصفية، فاض عليه ما فاض على نفوس الأنبياء!"

.[٥٦٥]

ويقول في موضع آخر: "فيجعلون ما يراه الأنبياء من الملائكة ويسمعونه منهم إنما وجوده في أنفسهم لا في الخارج".[٥٦٦]

---

(٥٦٥) انظر: مجموع الفتاوى (٥/ ٣٥٣).

(٥٦٦) انظر: مجموع الفتاوى (٥/ ٣٥٦).

ثانياً: مصادر نظريَّة علميَّة، وهي تنقسم إلى قسمين:

الأول: كتابات علميَّة (عامَّة):

وهي الكتابات التي تتناول مواضيع التصوُّف بطريقة إجمالية عامة، وتبحث في مسائله، تعريفاً، وتأصيلاً، ودفاعاً وتخفيفاً من ضغوط الفقهاء، وهي كتابات يجمع عليها عامَّة المتصوفة، ولا تختصُّ بطريقة صوفيَّة مُعيَّنة، وتبحث في مواضيع التصوُّف، نشأته، تطوره، رجالاته، كرامات الأولياء، ومما تميَّزت به كتابات مشايخ التصوُّف هو أنَّها زاخرة بالقصص المؤلفة، والأحاديث الموضوعة، "وقد وضعوا لها أسانيد خيالية ليذيعوها في الناس، ونذكر منهم المحاسبي والغزالي".[٥٦٧]

الثاني: كتابات عمليَّة (خاصَّة):

وهي الكتابات التي تختصُّ بالنواحي الفنيَّة والعملية بطريقة مُعيَّنة، وتتحدث عن أبرز الشعائر التي تؤدى فيها، وطريقة أدائها، وتشتمل على وظائف الطريقة كالأوراد، والأحزاب، والصلوات، والتضرعات، والحكم، والقصائد، المشتملة على

(٥٦٧) الكتابة الصوفية "ماهيتها، ومقاصدها"، محمد مفتاح، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، العدد (١٢)، ١٩٩٧م، (ص ٩).

الكثير من العبارات الشركية والحلولية[٥٦٨]، والابتهالات، والمناقب، وآداب زيارة الوليّ!..

ثالثاً:- **كتابات الصُّوفيَّة ورسائلهم:**

وهي كثيرة جداً، على أنَّها ليست نوعاً واحداً، فمنها ما يختصُّ بالتصوُّف المحض، ومنها ما يتحدُّث عن كرامات الشيوخ ومناقبهم (التي لا تخلو من المبالغة والغلو!)، ومنها ما هو مختصٌّ بنوعٍ مُعيَّن من الرقائق، والمواعظ، والأشعار، والقصص، والأدعية، والأحزاب، والأوراد، ومنها المخاطبات والرسائل والأجوبة، التي جمعها مريدوهم، وتشكل مصدراً هاماً لمعرفتنا بالتعاليم والممارسات الصُّوفيَّة.

وتعتبر رسائل الجنيد في عصر التصوف المبكر، نموذجاً للأسلوب الغامض المليء بالإشارات والإرشادات الخفيَّة، كما أنَّ رسائل الحلاج التي كتبها بنفسه، وتلقاها من مريديه، ولا أغفل حقيقةً مفادها أنَّ التصوُّف يُمارس رسالته الخفيَّة بطريق المشافهة والحضور والتلقِّي.

(٥٦٨) انظر: التصوف بين الحق والخلق (ص ١٦٦). ومظاهر الانحرافات عند الصوفية (٣/ ١١٤٩).

وتمتاز اللغة الصُّوفيَّة بالمصطلحات الرمزية، والميل نحو السَّجع، والإكثار من الاستعارات البلاغية، والزخارف الأدبية، وقد اشتملت مصنفاتهم على الحقِّ والباطل، ولا بُدَّ من التمييز بينها، فما وافق الكتاب والسُّنَّة كان حقَّاً، وما خالفهما كان باطلاً، ولا يلزم من ذلك قبول القائل لصحَّة قوله،

وبعض المصنَّفات تذكر أقوال المتصوفة دون نسبةٍ إلى قائلها؛ لأنَّ في كلامه شبهة كفر، وكانوا إذا ضعَّفوا كلام أحدٍ، فإنهم لا يُسمون قائله، ولو كان المُسمَّى عندهم معلوماً!.[٥٦٩]

ويرى الدكتور عبد الحليم محمود أنَّ الصُّوفيّ لا يكون صوفياً بالقراءة أو الدراسة والبحث، ولو كانت هذه القراءة في الكتب الصوفيَّة نفسها، وفي المجال الصُّوفيّ خاصَّة، فكم من قارئٍ لا نصيب له في التصوف، لا في قليله، ولا في كثيره.. ثُمَّ إنه قد يكون الصُّوفيُّ أمياً لم يقرأ فلسفة لوم يجهد نفسه ببحث .[٥٧٠]

وأهم هذه الكتابات: (قوت القلوب)؛ لأبي طالب المكي (ت ٣٨٦هـ)، و(الإحياء) لأبي حامد الغزالي، و(اللُّمع) للطوسي، و(الحلية) لأبي نعيم،

(٥٦٩) شرح أنفاس الرجال الروحانية (ص ١٠٦).

(٥٧٠) قضية التصوف، المدرسة الشاذلية، د. عبد الحليم محمود (ص ١٦٨).

و(الطواسين) للحلاج، و(حكمة الإشراق) للسهروردي، و(التعرف) للكلاباذي (ت ٩٩٠ م)، و(طبقات الصوفية) للسُّلمي، و(الرسالة) للقشيري، و(صفوة التصوف) لمحمد بن طاهر المقدسي، و(المخاطبات) لعبد الجبار النفري المتصوف العراقي(ت ٩٦٥هـ)، و(الاعتلاج)، و(المطارحات).

١ . أما عن (القوت): فهو لأبي طالب المكيِّ (تلميذ ابن سالم، الذي أخذ الخرقة عن سهل التستريّ)؛ وهو أحد أقدم المراجع الصُّوفيَّة، وأول عمل نموذجي للتصوُّف، وأكثرها اعتماداً، يقول الجامي في وصفه: "مجمع أسرار الحقيقة، ولم يصنف مثله في دقائق الطريقة".(٥٧١)

وقال عنه الشاذلي: "عليكم بالقوت فإنه قوت"(٥٧٢)، وقال أيضاً: "كتابُ القوت يُورثك النُّور"(٥٧٣)، وكان سهلٌ التستريِّ أوَّل من أسَّس لنظريَّة (النُّور المحمَّدي) التي هي أساس تقديس النَّبيِّ في الفكر الصُّوفي، والتي يمكن مساواتها "بالعقل الفعّال (صانع الصور المعقولة)" في الفلسفة اليونانية، وقام أبو الحسن بن

---

(٥٧١) الطرق الصوفية، د. عبد الله السهلي، (ص٧١).

(٥٧٢) قضية التصوف، المدرسة الشاذلية، د. عبد الحليم محمود (ص ٤٨).

(٥٧٣) قضية التصوف، المدرسة الشاذلية، د. عبد الحليم محمود (ص ٢٠١). وقواعد التصوف، لأحمد بن زروق (ص ١٠٩).

سالم (ت ٣٦٠ هـ)[٥٧٤] بتوسيع تعاليم هذه النظرية، وسُمِّيت مدرسته بـ(السَّالميَّة)[٥٧٥]، وكان أبو طالب المكِّي أحد مريديها المخلصين!.[٥٧٦]

ويؤيد ذلك الدكتور زكي مبارك، الذي أقرَّ بأنَّ الحقيقة المحمديَّة، تعود في أصولها إلى العقائد النصرانية؛ فيقول: "والواقع أنَّ الحقيقة المحمدية، أسطورة من الأساطير، وهي مأخوذة من النظرية النصرانية، كما أنَّ النظرية النصرانية مأخوذة من الفلسفة اليونانية، التي تُقسِّم القوى إلى عقول".[٥٧٧]

ومن الجدير بالذكر أن طائفة "السَّالمية" اشتهرت بعقائد الحلول، وقد أنكر عليها القاضي أبو يعلى وغيره، وأصحاب الأشعري وغيره، ممن نازعهم، واشتهر من

---

(٥٧٤) هو: أحمد بن محمد بن سالم، أبو الحسن، قال عنه ابن العماد: "الزاهد البصري، شيخ السالمية، كانت له أحوال ومجاهدات، وعنه أخذ الأستاذ أبو طالب- صاحب القوت، وهو آخر أصحاب سهل التستري وفاةً". انظر: شذرات الذهب (٣/ ٣٦).

(٥٧٥) السالمية: فرقة كلامية، ذات نزعة صوفية، تُنسب إلى محمد بن سالم المتوفى سنة (٢٩٧ هـ)، وابنه: أحمد بن سالم المتوفى سنة (٣٥٠ هـ)، تتلمذ الأب محمد بن سالم على سهل بن عبد الله التستري، ومن أشهر رجال السالمية: أبو طالب المكي، صاحب "قوت القلوب". انظر: المعتمد في أصول الدين (ص ٣٩٠)، ونشأة الفكر الفلسفي؛ للنشار (١/ ٣٩٤)، ودائرة المعارف الإسلامية (١١/ ٦٩).

(٥٧٦) أبعاد التصوف في الإسلام، آنا ماري شيمل (ص ٦٨).

(٥٧٧) التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق (١/ ٢١٠-٢١١).

هذه الطائفة (أعني السالمية) أبو علي الأهوازي (ت ٤٤٦ هـ)(٥٧٨) الذي صنَّف كتاباً في مثالب أبي الحسن الأشعري، ومن أجل ذلك تلكَّم ابن عساكر في هذا الأهوازيِّ.(٥٧٩)

وكذلك ذكر الخطيب البغدادي في "تاريخه" أن جماعة من العلماء أنكروا بعض ما وقع في كلام أبي طالب في الصفات، وما وقع في كلام أبي طالب من الحلول سرى بعضه إلى غيره من الشيوخ الذين أخذوا عنه كأبي الحكم بن برجان ونحوه (٥٨٠).

وقال الشعرانيُّ –مؤلف كتاب اللوافح أعني مخازي الصُّوفيَّة–: "وكانت صور مجاهداتي لنفسي من غير شيخ، أنني كنتُ أطالع كتب القوم كرسالة القشيري،

---

(٥٧٨) هو الحسين بن علي بن إبراهيم بن يزداد، أبو علي الأهوازي، قال عنه الذهبي: "المقرئ، صاحب التصانيف، ومقرئ الشام، قرأ على جماعة لا يُعرفون إلا من جهته، وروى الكثير، وصنَّف كتاباً في الصفات، لو لم يجمعه لكان خيراً له، فإنه أتى فيه بالموضوعات، وفضائح، وكان يحطُّ على الأشعري، وجمع تأليفاً في ثلبه"، وقال ابن عساكر –كما في لسان الميزان: "كان مذهبه مذهب السالمية، يقول بالظاهر، ويتمسك بالأحاديث الضعيفة، لتقوية مذهبه". انظر: ميزان الاعتدال (١/ ٥١٢)، ولسان الميزان (٢/ ٢٣٧).

(٥٧٩) انظر: شرح حديث النزول؛ لابن تيمية (ص ٣٤٣-٣٤٤).

(٥٨٠) انظر: شرح حديث النزول؛ لابن تيمية (ص ٣٤٤).

و(عوارف المعارف) للشهاب السهروردي، والقوت لأبي طالب المكيّ، والإحياء للغزالي، ونحو ذلك، وأعمل بما ينقدح لي من طريق الفهم..."[٥٨١] .

وقال عنه ابن كثير: "ذكر فيه أحاديث لا أصل لها، حتَّى بدَّعَهُ الناس وهجروه"[٥٨٢].

وقال ابن الجوزي: "وصنف لهم أبو طالب المكي قوت القلوب، فذكر فيه الأحاديث الباطلة، وما لا يستند فيه من أصل من صلوات الأيام والليالي، وغير ذلك من الموضوع، وذكر فيه الاعتقاد الفاسد، وردد فيه قول –قال بعض المكاشفين– وهذا كلام فارغ، وذكر فيه عن بعض الصوفية: إن الله ﷻ يتجلى (أي يظهر) لأوليائه في الدنيا.

ولما قدم بغداد، وجلس للوعظ خلَّط في كلامه، فحفظ عنه قوله: ليس على المخلوق أضرُّ من الخالق، فبدَّعه الناس وهجروه"، وذكره الخطيب فقال: له كتاب القوت، ذكر فيه على لسان الصوفية أشياء مستبشعة في الصفات.

---

(٥٨١) لطائف المنن والأحلاق، للشعراني (١/ ٤٨).

(٥٨٢) دراسات في الفرق الصوفية نشأتها وأطوارها، (ص ٩٠–٩١).

وقد تأثر أبو حامد الغزاليُّ (ت ٥٠٥هـ/ ١١١١م) بالقوت حتى كاد ينقل جميع ما فيه إلى الإحياء، يقول محمود عرنوس: "إن الغزالي كاد ينقل قوت القلوب لأبي طالب المكي بنصه، في كتاب الإحياء"، بل إن القوت هو من أوائل الكتب التي طالعها الغزالي في بدايات تصوفه، يقول الغزالي عن نفسه: "فابتدأت بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم مثل قوت القلوب".

ويرى الدكتور عبد المنعم الحفني: "أن القوت هو المرجع الثبت في التصوف، تأثر به الغزالي، واقتبس منه الكثير السهروردي في كتابه (عوارف المعارف)"[(٥٨٣)] .

يقول الشاطبي: "ولأبي طالب آراء خالف فيها العلماء، حتى أنه ربما خالف الإجماع في بعض المواضع، لكن له كلام حسن في الوعظ والتذكير والرقائق، فإذا احتاج الطلبة إلى كتاب طالعوه متحرزين، وأما العوام فلا يحل لهم مطالعته".

وشيوخ الطرق الصوفية يعتمدون في كتبهم على (الإحياء)، و(القوت)، فقد كان الشاذلي يقول لتلاميذه: "إذا عرضت لكم إلى الله حاجة فتوسلوا إليه بالإمام

(٥٨٣) الطرق الصوفية، د. عبد الله السهلي، (ص٧١).

أبي حامد"[٥٨٤]، وسواءً كان هذا النصُّ صحيحاً أم منتحلاً إلا أنه يعكس مدى تأثر الصوفية بكتاب (الإحياء).

وكان الشَّاذُلي يقرئ الكتابين، ويحثُّ على قراءتهما، ويقول: "كتاب الإحياء يورثك العلم، وكتاب القوت يورثك النُّور".[٥٨٥]

ولا يخفى ما في الكتابين من أحاديث موضوعة ومكذوبة عن رسول الله ﷺ، وعلوم لم ينطق بها أحدٌ من السلف، بل هي مستقاةٌ من الفلسفات والكشوف، حتى زعموا أن الإمام النووي قال في الأحياء: "لو عدمت كتب الإسلام، وبقي الإحياء لأغنى عما ذهب" وأنه قال: "يكاد الإحياء أن يكون قرآناً" .[٥٨٦]

يقول الشيخ محمد أبو زهرة: "وقد كان في كتاب أبي طالب، كما كان في تابعه –كتاب إحياء علوم الدين للغزالي– الأخبار الضعيفة، بل الأخبار الموضوعة، وقد تصدَّى لبيان ضعف الضعيف، ووضع الموضوع المخرجون لأحاديث رسول الله ﷺ، وإذا كان هذا الشأن لأحاديث رسول الله، فكيف يكون الشأن في أخبار

(٥٨٤) تأييد الحقيقة العلية، للسيوطي (ص ١٨).

(٥٨٥) قضية التصوف، المدرسة الشاذلية، د. عبد الحليم محمود (ص ٤٨). وانظر: تأييد الحقيقة العلية، للسيوطي (ص ١٨).

(٥٨٦) الطرق الصوفية، د. عبد الله السهلي، (ص٧٦–٨٠).

غيره ممن ليس له هذه المكانة من الدين"(٥٨٧)، فحريٌّ بنا ألا نُصدِّق كل ما ينقله أبو طالب في "قوته" من أخبار، سيما إن كانت مُتعلقة بالأئمَّةِ الأعلام؛ كالفقهاء الأربعة وغيرهم.

ومن الجدير بالذكر أن نتعرف إلى مدى ضعف الملكة الفقهية عند أبي طالب المكيّ، والذي يتغنَّى أصحابه بالفقه شعاراً لهم، وهم أبعد الناس عنه، فهو يُشكك ويطعن في نسبة كتاب الأُمِّ للشَّافعيِّ فينسبه للبويطي، ويتَّهِمُ الرَّبيعَ بالتدليس، ومن ثَمَّ ينسبه إلى نفسه !! فقال في "قوته" ما نصُّه: "أخمل البويطيُّ رحمه الله نفسه، واعتزل بالبويطة من سواد مصر، وصنَّف كتاب الأم الذي يُنسب الآن إلى الربيع بن سليمان ويُعرف به، وإنما هو جمع البويطي ولم يذكر نفسه فيه، وأخرجه إلى الربيع، فزاد فيه وأظهره، وسمعه الناس منه".

والداهية الكبرى أنَّ الغزاليَّ قد أخذ هذا النص على خطئه، ووضعه في كتابه الإحياء (٢/ ١٦٦) من غير أن يتبين مصدره، فقال: "وآثر البويطي الزهد والخمول ولم يُعجبه الجمع والجلوس في الحلقة، فاشتغل بالعبادة، وصنَّف كتاب

(٥٨٧) الإمام الشافعي؛ لمحمد أبو زهرة (ص ١٦٧).

الأم الذي يُنسب الآن إلى الربيع بن سليمان، ويُعرف به"، وقد كان قوت القلوب ثاني الكتابين الذين أخذ عنهما الإحياء، والأول: الرسالة للقشيري .[٥٨٨]

وقد تلقَّف هذه الفرية عن الغزالي الدكتور زكي مبارك حيث ألَّف كتاباً سمّاه "إصلاح أشنع خطأ في تاريخ التشريع الإسلامي" زعم فيه أن كتاب "الأُم" لم يؤلفه الشَّافعي، وإنما ألَّفه البويطي، وتصرَّف فيه الربيع بن سليمان"، وهذا من التدليس والتزوير الممنهج والمتسلسل ربما عن غفلة وخطأ، أو عن عمدٍ وقصد، وهو خطأ شنيع وقع فيه أحمد أمين –أيضاً– في كتابه "ضُحى الإسلام" (٢/ ٢٣٠)، ولا ندري من يأتي بعده لينفخ في هذا الهراء والتمويه، ويجعل منه حقيقة لا تقبل الشك![٥٨٩] .

(٥٨٨) الإمام الشافعي؛ لمحمد أبو زهرة (ص ١٦٥).

(٥٨٩) انظر: مقدمة أحمد صقر على كتاب "المناقب للبيهقي: ١/ ٣١– ٤٢).

٢. وكتاب (التعرُّف لمذهب أهل التصوُّف) للكلاباذي، الذي زعم كاتبه –وهو من أبناء القرن الرابع –أن التصوُّف هو مذهب الصحابة والتابعين؛ وأنهم أول الناطقين بعلومه وفنونه، وأنهم مواجيد القوم، وأنهم الذين ابتدعوا هذه المقامات، وذكر جملةً صالحةً من الصحابة العُبَّاد والزُّهاد، غير أنه لم يثبت عن واحدٍ منهم أنَّه تصوَّف على طريقة هؤلاء المبتدعة، وهذا ظاهرٌ فيما أورده في كتابه من أحوالٍ عجيبة مخالفة للكتاب والسُّنة.

٣. وكتاب (الإحياء= إحياء علوم الدِّين!)؛ لأبي حامد الغزاليّ، المولود في طوس سنة (٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م)، بعد تولي السلاجقة الحكم في بغداد بثلاثة أعوام، وله أيضاً (المحبَّة و الشوق) الذي وضع فيه شيئاً من تجربته الخاصَّة في التصوُّف، كذلك كتاب (مشكاة الأنوار)، والذي يُعدُّ بحثاً متطوراً في الفلسفة الصُّوفيَّة، ويفُسِّر فيه آية النور بشكل غنوصي بحت، ويكشف عن الحجب السبعين التي هي دون النُّور الإلهي، وقد اعتمد كثيرٌ من الصُّوفيَّة المتأخرين على هذا الكتاب أكثر من الإحياء!.

يقول ابن الجوزي: وجاء أبو حامد الغزالي، فصنَّف لهم كتاب (الإحياء) على طريقة القوم، وملأه بالأحاديث الباطلة، وهو لا يعلم بطلانها، وتكلم في علم المكاشفة وخرج عن قانون الفقه، وتكلم بما هو من جنس كلام الباطنية، وأتى

بالعجائب والغرائب في كتابه (المفصح بالأحوال)، وزعم أن الصوفية يرون الملائكة وأرواح الأنبياء يقظة، ويسمعون أصواتهم، ويقتبسون منهم فوائد، ثم يترقى حالهم من مشاهدة الصورة إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق"(٥٩٠).

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: " الإحياء فيه فوائد كثيرة، لكن فيه مواد مذمومة فإن فيه مواد فاسدة من كلام الفلاسفة تتعلق بالتوحيد والنبوة والمعاد، وقد أنكر أئمة الدين على أبي حامد هذا في كتبه، وقالوا: أمرضه الشفاء، يعنون (كتاب الشفاء) لابن سينا في الفلسفة، وفي الإحياء أحاديث وآثار ضعيفة، بل موضوعة : كثيرة، وفيه أشياء من أغاليط الصوفية وترهاتهم، وفيه مع ذلك من كلام في أعمال القلوب الموافق للكتاب والسنة، وأما ما فيه من الكلام في (المهلكات) مثل الكلام على الكبر والعجب والحسد فغالبه منقول من كلام الحارث المحاسبي في(الرعاية)، ومنه ما هو مقبول وما هو مردود".(٥٩١)

وقال ابن الجوزي : "وإني لأتعجب من أبي حامد كيف يأمر بهذه الأشياء التي تخالف الشريعة، كيف يحل القيام على الرأس طول الليل، وكيف يحل إضاعة

---

(٥٩٠) تلبيس إبليس، لابن الجوزي (ص ١٥٦– ١٦٠).

(٥٩١) مجموع الفتاوى، ابن تيمية، (٥٥١/١٠).

المال، وكيف يحل السؤال لمن يقدر على الكسب، فما أرخص ما باع أبو حامد الفقه بالتصوف، وسبحان من أخرجه من دائرة الفقه بتصنيفه كتاب (الإحياء).[٥٩٢]

وكان الشَّاذُليُّ يُعظِّمُ الغزاليّ و(إحياءه) أيما تعظيم، حتى قال عنه: "كتابُ الإحياءِ يُورثكَ النُور"، وكان كثيراً ما يقول: "إنَّا لنشهد له بالصِّديقيَّة العُظمى"[٥٩٣]، على أننا لا نذمُّ الرجل بأكثر مما جاء به !.

ومن المعروف أنَّ أبا حامد الغزالي سلك طريق التصوُّف منفرداً، دون التتلمذ على شيخٍ من شيوخ التصوُّف، أو حتَّى الإنضمام إلى فرقة من فرقهم، ومن الأمور المتفق عليها في الطريق الصُّوفي ضرورة الأخذ عن شيخ! وبالتالي كانت خبرة الغزالي مستقاةً من الكتب، لا من شيوخ التصوُّف!!.[٥٩٤]

أما الرَّدُ على كتاب (الإحياء)؛ فكان أوَّل من تصدَّى له هو تلمذيه الإمام أبو بكر محمد بن العربي (ت ٤٥٣هـ/ ١١٤٨م)، الذي قال في كتابه (شرح الأسماء الحسنى): "شيخنا أبو حامد، دخل في جوف الفلسفة، ثُمَّ أراد أن يخرج،

(٥٩٢) تلبيس إبليس، ابن الجوزي، (ص٣٦٠).

(٥٩٣) قضية التصوف، المدرسة الشاذلية، د. عبد الحليم محمود (ص ٢٠١).

(٥٩٤) هـ الطرق الصوفية في الإسلام (ص ٢٦).

فلم يُحسن!"، وفي رواية: "قد بلع الفلاسفة وأراد أن يتقيأهم فما استطاع"![٥٩٥]، وقد أفتى علماء السُّنَّة بالمغرب العربي بوجوب تحريقه، وعلى رأسهم قاضي القضاة بقرطبة محمد بن علي بن حمدين القرطبي (ت ٥٠٨هـ)، سمَّاه كثيرٌ منهم؛ بـ(إماتة علوم الدِّين)!.

والإمام المازري في كتابه (الكشف والإنباء عن كتاب الإحياء)!، وكذلك ردَّ عليه الإمام أبو بكر الطرطوشي، وابن تيمية في (التسعينية)، وأبو الحسن المرغيناني رفيقه في (مشكاة الأنوار)، وردَّ عليه الشيخ أبو البيان، وأبو عمرو بن الصلاح، والنوويُّ، وابن عقيل، وابن الجوزي، وأبو محمد المقدسي، وحذَّر من كلامه في ذلك .[٥٩٦]

وذكر ابن الأبار محمد بن عبد الله البلنسي (ت ٦٥٨هـ) في معجم أبي علي الصدفي: "الشيخ أبي حامد، ذو الأنباء الشنيعة، والتصانيف العظيمة، غلا في طريقة التصوُّف، وتجرد لنصرة مذهبهم، وصار داعيةً في ذلك، وألَّف فيه تواليفه

---

(٥٩٥) سير أعلام النبلاء، محمد بن عثمان الذهبي (١٤/ ٢٦٩). وانظر: القول المبين؛ عبد اللطيف آل الشيخ (ص ٦٣).

(٥٩٦) القول المبين، عبد اللطيف آل الشيخ (ص ٧).

المشهورة، أخذ عليه فيها في مواضع، وساءت به ظنون الأمَّة، (والله أعلم بسرِّه!)، ونفذ أمر السلطان عندنا بحرق كتبه، والبعد عنها، فامتُثل ذلك".[٥٩٧]

وقد ألَّف الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن آل الشَّيخ (ت **١٢٩٣**هـ) رسالةً يُحذِّر منها من كتاب الإحياء للغزالي، سُمِّيت (القول المبين في التحذير من إحياء علوم الدين)[٥٩٨] ، وكان من أهم المآخذ على الكتاب: أن الإحياء قد سلك فيه الغزالي طريقة الفلاسفة والمتكلمين في كثير من المباحث الإلهيَّة والدينية، والتي يعتبر بعضها خروجاً عن دائرة الإسلام، حتَّى قال ابن عقيل (من الحنابلة): كثيرٌ من مباحثه زندقةٌ خالصة، لا يُقبل لصاحبها صرفٌ ولا عدل[٥٩٩].

وكذلك نجد أن الإمام ابن الجوزي رحمه الله ينتقد كتاب الإحياء؛ فيقول: "وضعه –أي الغزالي –على مذهب الصوفية، وترك فيه قانون الفقه"، وقبّح بعض ما يورده الغزالي من حكايات حتى قال: "وقد جمعتُ أغلاط الكتاب وسميته إعلام الأحياء بأغلاط الإحياء"، وانتقد إيراد الأحاديث

(٥٩٧) معجم أبو عليّ الصدفي، محمد بن عبد الله البلنسي، من اسمه في حرف العين، (ص ٢٩٤).

(٥٩٨) وقد ذكر المُحقِّق أنَّ هذه الرسالة، لم يكن لها عنوانٌ مُعيَّن، وإنما هي فتوى من الشيخ عبد اللطيف بلا عنوان، فسماها (القول المبين). انتهى. (انظر ص ٣٥).

(٥٩٩) القول المبين، عبد اللطيف آل الشيخ (ص ٦، ٤٣ – ٤٤).

الموضوعة فيه، وقال: "وكان بعض الناس شغف بكتاب الإحياء فأعلمته بعيوبه ثم كتبته له فأسقطت ما يصلح إسقاطه وزدت ما يصلح أن يزاد"[٦٠٠].

ولأبي حامد كتبٌ أخرى مثل: (المضنون به على غير أهله!)، وهو أحد الكتب الباطنية، التي أظهر فيها الغزالي اتفاقه مع الفلاسفة على قدم العالم، وقول فيه بأن الذات العلية تعلم الأشياء إجمالاً لا تفصيلاً، أي: تحيط بالكليات لا بالجزئيات، وأنها مجردة عن الصفات، وهو موجود بصحبة أربع رسائل للغزالي في المكتبة الوطنية بباريس (المكتبة الإمبراطورية سابقاً).[٦٠١]

وقد قال فيه ابن تيمية: "ومن العلماء من يكذبون ثبوته عنه[٦٠٢]، وأما أهل الخبرة به؛ فيعلمون أنَّ هذا كله كلامه، لعلمهم بمواد كلامه، ومشابهة بعضه بعضاً!"[٦٠٣].

---

(٦٠٠) المنتظم؛ لابن الجوزي (٩/ ١٦٩-١٧٠).

(٦٠١) انظر: فهرست الحاج خليفة، طبعة الموسيو فلوجل (٥/ ١٩٠). وناظر: تاريخ فلاسفة الإسلام، محمد لطفي جمعة (ص ٨٧).

(٦٠٢) ومنهم كمال الدين محمد بن عبد الله الشهرزوري (ت ٥٧٢هـ). انظر القول المبين (ص ٥٤).

(٦٠٣) نقض المنطق، شيخ الإسلام ابن تيمية (ص ٥٥).

يقول الشيخ عبد اللطيف في ذمِّ تصانيف أبي حامد في علوم التصوُّف والفلسفة: "وقد يكون أطربك، وهزَّ أعطافك وحرَّكك، فيفةٌ مُنتة!، وزندقةٌ مُبهمَة!، أُخرجيت في قالب الأحاديث النبويَّة، والعبارات السَّلفيَّة، فرحم الله عبداً، عرف نفسه، ولم يغترَّ بجاهه، وأناب إلى الله، وخاف الطَّرد عن بابه، والإبعاد عن جنابه..".

وله أيضاً (سرُّ العالمين، وكشفُ ما في الدَّارين!)، الذي قال فيه، عند حديث: "من كُنتُ مولاه فعليٌّ مولاه": أنَّ عُمر ﷺ، قال: "بَخٍ بَخٍ، أصبحت مولى كُلِّ مؤمنٍ ومؤمنة"، يقول: وهذا تسليمٌ ورضا، ثُمَّ بعد هذا غلبَ عليه الهوى؛ حُباً للرياسةِ، وعَقْدِ البنودِ، وأمر الخلافةِ ونهيها، فحملهم على الخلاف، فنبذوه وراء ظهورهم، واشتروا به ثمناً قليلاً!!"، وهذا يدلُّ على الروح الشيعية العالية لدى الغزالي، والتي نصر بها مذهب الإماميَّة[٦٠٤]، الأمر الذي دفع الإمام الذهبي لأن يتساءل: "وما أدري ما عذره في هذا الظاهر أنَّه رجع عنه..؟، هذا إن لم يكن من وضعه!، ففي هذا التأليف من البلايا لا تُستطاب!"

٣. وكذلك أقدمها (اللُّمع) لأبي نصر عبد الله بن علي السَّراج الطُّوسي (ت ٩٨٨م) من طوس شرق إيران، وكان تلميذاً لابن الخفيف (الذي مات عن

(٦٠٤) القول المبين، عبد اللطيف آل الشيخ (ص ٥١).

عمر يناهز المائة تقريباً)، الذي قال فيه ابن الجوزي: "وصنَّف لهم أبو نصر السراج كتاباً سماه لمع الصوفية، وذكر فيه من الاعتقاد المرذول".[(٦٠٥)]

وأراد السراج من كتابه "اللمع" إلى تنبيه المريد والسالك إلى ما لا يجوز أن يُصرِّح به من العلوم؛ كالفناء عن العبودية والبشرية، والحلول بالأنوار والشواهد، وقد أيده السُّلميُّ في كتاب "الغلطات"، والغزاليُّ في "الإحياء"[(٦٠٦)].

٤. و(الحلية) لأبي نُعيم الأصبهاني (ت ٤٣٠ هـ)، الذي قال فيه ابن الجوزي: "وجاء أبو نعيم الأصبهاني، فصنف لهم كتاب الحلية، وذكر في حدود التصوف أشياء منكرة قبيحة، ولم يستحِ أن يذكر في الصُّوفيَّة أبا بكر وعمر وعثمان وعليّاً، وسادات الصحابة رضي الله عنهم، فذكر عنهم العجب، وذكر منهم شريحاً القاضي، والحسن البصري، وأبو سليمان الداراني (ت ٢١٥هـ)، والقاضي عياض، وسفيان الثوري، وأحمد بن حنبل!!"[(٦٠٧)].

ويبدو أن أبو نُعيم كان متأثراً بأحد أجداده لأبيه، وهو محمد بن يوسف بن معدان البناء الأصبهاني (ت ٢٨٦ هـ)، وله مصنفات جيِّدة في الزُّهد منها:

---

(٦٠٥) تلبيس إبليس، ابن الجوزي، (ص٣٦٠).

(٦٠٦) تاريخ فلاسفة الإسلام، محمد لطفي جمعة (ص ٢٨٨).

(٦٠٧) تلبيس إبليس، لابن الجوزي، (ص ٢٦، ٢٧).

"معاملات القلوب"، و"الصبر"، وهو شيخُ أبو الحسن عليّ بن سهل بن محمد الأصبهاني (ت ٣٠٧ هـ) الذي كان يُكاتب الجُنيد [٦٠٨]، وذكر ذلك أبو نُعيم في مقدمة كتابه (الحلية)، فيقول: "فقد كان جدِّي محمد بن يوسف البنا أحد من نشر الله به ذكر بعض المنقطعين إليه، وعمَّر به أحوال كثيرٍ من المُقبلين عليه"، وذكر الذهبيُّ أن جدَّ أبي نُعيم روى حديثاً واحداً مُنكراً [٦٠٩].

ولكن يُحسب لأبي نُعيم أنه كان المنتسبين إلى التصوف من غير أهله [٦١٠].

٥. وكذلك كتب أبي عبد الرحمن محمد بن الحسين السُّلميُّ (ت ١٠٢١م)، مثل: (طبقات الصوفيَّة)، الذي استكمله عبد الله الأنصاريّ (ت ١٠٨٩م) بعد نصف قرن من وفاة السُّلمي، وقد طورد الأنصاري من قبل السلاجقة، فطرده الوزير الأكبر نظام الملك من هرات لتخليطه، وكلامه في التصوُّف.

---

(٦٠٨) انظر: تاريخ الإسلام؛ للذهبي (٧/ ١٢٠).

(٦٠٩) انظر: سير أعلام النبلاء؛ للذهبي (٩/ ١٢٦)، وتشييد الحقيقة العلية للسيوطي ().

(٦١٠) حلية الاولياء، لأبي نُعيم الأصبهاني (١/ ٤).

٦. وألَّف أبو إسماعيل الأنصاريِّ الهروي (ت ٤٨١ هـ)[٦١١] كتابه الشهير (منازل السائرين)، و(المناجاة)، كما أنَّه ترجم كتاب السُّلمي إلى الفارسية بلغة أهل هراة.

وقال عنه ابن تيمية: "وأما أبو إسماعيل الأنصاري صاحب (منازل السائرين)؛ فليس في كلامه شيء من الحلول العام لكن في كلامه شيءٌ من الحلول الخاص في حق العبد العارف الواصل إلى ما سماه هو: (مقام التوحيد)، وقد باح منه بما لم يبح به أبو طالب لكن كنى عنه، وأما " الحلول العام " ففي كلام أبي طالب قطعة كبيرة منه، مع تبريه من لفظ الحلول[٦١٢]، وهو واقعٌ فيه لا محالة، وهو لازم بعض قوله !.

وفي القرن الخامس عشر راجع الجامي ترجمات السُّلمي، واستكملها في كتابه (نفحات الأنس)، وأضاف إليه التيارات الصُّوفيَّة التي نشأت في زمانه، وألَّف كتابه (اللوائح) على منوال (المناجاة) للأنصاري..

---

(٦١١) هو: عبد الله بن محمد بن علي الأنصاري، الهروي، من ذرية أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه، قال عنه الذهبي: "الحافظ الإمام الزاهد"، وقال صاحب طبقات الحنابلة: "كان إمام أهل السنة بهراة، ويُسمى بـ"خطيب العجم"، لتبحر علمه، وفصاحته ونبله، وكان شديداً على الأشعرية"، انظر ترجمته في تذكرة الحفاظ (٣/ ١١٨٣)، وطبقات الحنابلة (٢/ ٣٤٧).

(٦١٢) مجموع الفتاوى؛ لابن تيمية (٥/ ٤٨٥).

وفي الجزء الشرقي من إيران –أيضاً– ظهر كتاب (كشف المحجوب) للهويجري بالفارسية، الذي أصبح من الكتب المشهورة والمعتمدة عند الصُّوفيَّة.

وذكر السُّلميّ في (طبقاته): الفضيل، وإبراهيم بن أدهم، ومعروفاً الكرخي، والحقيقة أنَّ هؤلاء كانوا زُهَّاداً ولم يكونوا صوفيَّة !.. وله (الحقائق) في التفسير .[(٦١٣)]

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "وكتاب (طبقات الصُّوفيَّة) مليءٌ بالكذب، واشتهر السُّلميُّ عند كثيرٍ من أهل العلم أنَّه كان يضع الحكايات للصُّوفيَّة!"[(٦١٤)] ، واعتذر له بعضهم عن تلك الحكايات بقلة حفظه وإتقانه للروايات، فدخل عليه ما دخل، والحقُّ أن هذه أعذارٌ لا تُقبل!.

٧. وصنَّف لهم عبد الكريم بن هوازن القشيري كتاب (الرسالة) في العام (١٠٤٦م) تقريباً، فذكر فيها أساليب الرياضة الرُّوحيَّة، وجاء بعجائب الكلام في الفناء والبقاء، والقبض والبسط، والوقت والحال، والوجد والوجود، والجمع

(٦١٣) الأبعاد الصوفية في الإسلام، آنا ماري شيمل (ص ٩٩، ١٤٦).

(٦١٤) مجموع الفتاوى (١١/ ٤٢)، (١/ ٣٣٣).

والتفرقة، والصحو والسكر... إلى غير ذلك من التخليط الذي ليس بشيء[٦١٥]، وتفسير تلك المقامات والأحوال أعجب من العجب، ويظهر هذا التخليط في الاختلاف في عدة تلك المقامات، وطريقة تسلسلها وترتيبها، وتقسيماتها (كالصَّبر قسموه إلى: متصبِّرٍ، وصابرٍ، وصبَّار!)[٦١٦]، وطريقة توالدها من بعضها البعض (كالمحبة من المعرفة، أو المعرفة من المحبَّة)، وأسلوب وصفها وتعريفها، والفروق التي لا تكاد تكون واضحة بينهما، وتكلُّف تعريف كُلِّ واحدٍ منها، وخلط ذلك كُلِّه بالفلسفة، واختلافهم في كون هذه المرتبة حالاً أو مقاماً (كالخوف والرجاء) مثلاً؟!.[٦١٧]

فيعدُّها ذو النون: "الإيمان، والطاعة، والرجاء، والمحبة، والألم والتوكل".[٦١٨]

---

(٦١٥) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "ومن زعم أن المشاهد لتوحيد الربوبية يدخل إلى مقام الجمع والفناء، فلا يشهد فرقاً، فإنه غالط، بل لا بُدَّ من الفرق فإنه أمرٌ ضروريٌّ، وسوءاً سموا ذلك اصطلاماً، أو محواً، أو فناءً، أو غشيّاً، أو ضعفاً، فالأمر كذلك، ولكن إذا خرج عن الفرق الشرعي، بقي في الفرق الطبعي، فيبقى مُتبعاً لهواه لا مُطيعاً لمولاه، ومن لم يُفرق بين المأمور والمحظور، فقد خرج من دين الإسلام". [شرح حديث ذي النون، ص: ٢٥- ٢٦].

(٦١٦) اللُّمع؛ للنصير الطوسي (ص ٧٦).

(٦١٧) التصوُّف في القرنين الثاني والثالث الهجريين، أبو الخير تراسون (ص ٢٠٢).

(٦١٨) حلية الأولياء (٩/ ٣٧٤).

ويعدها معاصره يحيى بن معاذ: "التوبة، ثم الزهد، ثم الخوف، ثم الشوق، ثم المحبة، ثم المعرفة".[٦١٩]

ويسردها سهل التستريّ (وهو يصغر يحيى بن معاذ بسنوات قلائل): "إجابة النداء والتوجه إلى الله، ثم التوبة، فالعفو، فالخلوة، فالثبات، فالتفكر، فالمعرفة، فالكلام، فالاصطفاء، فالصحبة"[٦٢٠]، ويعدُّها العطار: "الشوق والمحبة، والمعرفة، والاستغناء، والتوحيد، والحيرة، والفقر"[٦٢١].

٨. وجاء محمد بن طاهر المقدسي (ت ٥٠٧ هـ)، فصنَّف لهم (صفوة التصوف)، فذكر فيه أشياء يستحيي العاقل من ذكرها، وكان شيخنا أبو الفضل بن ناصر، يقول: كان ابن طاهر يذهب مذهب الإباحة. قال: وصنف كتاباً في جواز النظر إلى المردان، ونسب إلى الأئمة الكبار ما لا يجوز، وقد انتقده الإمام ابن الجوزي رحمه الله، بأنه يستشهد على مذاهب الصوفية "بالأحاديث التي لا تناسب

---

(٦١٩) حلية الأولياء (١٠/ ٦٤).

(٦٢٠) إحياء علوم الدين (٤/ ٤٣).

(٦٢١) منطق الطير، نقلاً عن الأبعاد الصوفية في الإسلام، آنا ماري شيمل، (ص ١٤١).

ما يحتج له من نصرة الصوفية" [٦٢٢]، وهذا يدلُّ على الغلو عند ابن طاهر المقدسي.

٩. أما عن (حكمة الإشراق) للسهروردي، فقد وضع فيها فلسفته الجديدة، متأثراً برسالة (حيٍّ بن يقظان) التي شرحها أحد فلاسفة اليهود في القرن الرابع عشر، يُدعى (موسى الزبوني)[٦٢٣] ، وحكمة الإشراق تعني أن الأنوار المعقولة تبتدي للصُّوفي بعد رحلة مجاهدات كبيرة، وقد نشرها هنري كوربان في إيران سنة (١٩٥٢م)، وله كتبٌ أخرى مثل: (هياكل النور)، و(أصوات أجنحة جبرائيل)، و(الغربة الغريبة)، وهي رسالة تشبه رسالة حي بن يقظان لابن سينا، وابن طفيل أيضاً، و(رسالة في اعتقاد الحكماء)، و(أدب المريدين)، و(صغير سيمورغ)، (=وسيمورغ لفظ فارسي يقابل العنقاء عند العرب؛ وهو طائر خرافي يقترن دائماً ببحث الإنسان عن الخلود)، وهي رسالة فارسية تبحث في الوجود[٦٢٤]، و(التلويحات) الذي كان من جملة شروحاته شرح ابن الإسرائيلي، الذي ألف كتاباً

---

(٦٢٢) المنتظم؛ لابن الجوزي (٩/ ١٧٨).

(٦٢٣) تاريخ فلاسفة الإسلام، محمد لطفي جمعة (ص ٩٩).

(٦٢٤) صفحات مكثفة في تاريخ التصوف (ص ١٥٣).

في الرد على الإسلام في القرن السابع الهجري، وأقام عليه قائمة الفقهاء في بغداد.[٦٢٥]

١٠. وكتب ابن سينا[٦٢٦] في ذلك كتابه (الإشارات والتنبيهات)، يقول الدكتور عبد الحليم محمود: "وابن سينا درس التصوُّف في كتبه الأصلية، وخالط الصُّوفيَّة، وتحدَّث إليهم، وكتب في التصوُّف فصولاً توَّج بها كتابه الذي كان يعتزُّ به، وهو كتاب (الإشارات والتنبيهات)"[٦٢٧] ، ولا يعنينا إن كان ابن سينا صوفيًّاً أم لا، فإن ما يعنينا هو أنَّه خاض غمار هذا العلم وكتب في دقائقه.

ومما أُثر عن ابن سينا قوله:

وتَحسَبُ أنَّك جُرمٌ صَغيرٌ   وفيكَ انطوى العالمُ الأكبرُ

(٦٢٥) صفحات مكثفة في تاريخ التصوف (ص ١٥٤).

(٦٢٦) هو أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا البلخي، الملقب بالشيخ الرئيس، صاحب تصانيف الطب، والفلسفة، والمنطق، كان أبوه من دعاة الإسماعيلية، وكان هو رأس الفلاسفة المنتسبين للإسلام، من مصنفاته "القانون" في الطب، و"الشفاء" في الحكمة، و"أسرار الحكمة المشرقية"، و"الإشارات"، و"نقاء المغرب"، وغيرها، ويعد ملاحدة الفلاسفة، وكفره الغزالي مع الفلاسفة القائلين بقدم العالم، وعدم علم الله بالجزئيات، وإنكار المعاد الجسماني، وتوفي ابن سينا سنة (٤٢٨هـ) بهمذان، انظر: تهافت الفلاسفة (ص ٣٠٦)، وسير أعلام النبلاء (١٧/ ٥٣١)، والبداية والنهاية (١٢/ ٤٢).

٦٢٧() قضية التصوف، المدرسة الشاذليَّة (ص١٦٨).

وهذا البيت يُعبِّر عن الحالة الرُّوحيَّة التي وصل إليها ابن سينا، متأثراً في ذلك بالمعرفة العقلية والتأمل الباطني عند الفلاسفة القدماء، ابتداءً بفيثاغورث، ومروراً بأفلاطون، اللَّذين تأثرا بطقوس معبد (أبولون) (**Apolon**= إله النُّور أو الإله المهندس عند اليونان القدماء، وهو المبدأ المشرق الذي تنبعث منه كل المعارف والفنون)، وهي طقوسٌ هنديَّة فارسية، ثبتت في كتاب الفيدا (**Veda =** أقدم مجموعة من النصوص الدينية باللغة السنسكريتية، وتشتمل على مجموعة من الأناشيد الموجهة إلى الآلهة) الهندي، وكتاب (الآفشتا) الفارسي، وهي كتبٌ دينية مقدسة، وتذكر هذه الكتب أنَّ اسم ذلك المعبد الذي يضمُّ أبولون هو (بِثْيُوس= هو الاسم القديم لدلفي، ويعني المركز العام)، وفي هيكله حجرٌ يُسمَّى (أومفالوس= وهو رمزٌ لمركز العالم الذي هو الإنسان، وذلك للصلة بين العالم الأكبر والعالم الأصغر أي الإنسان، ويعتقدون أنَّه سقط من السماء إلى المعبد!)، وأن (بيثيا= وتعني الجارية، هي التي كانت تتلقى وحي الآلهة)، أعلنت أن سقراط هو أحكم الرجال، وقد وصول هذا الاعتقاد إلى الأفلاطونية الحديثة ممثلة بمدرسة (الإسكندرية)، كما ظهر ذلك الأمر عند الفيثاغورثيين الجدد [٦٢٨].

---

(٦٢٨) صفحات مكثفة في تاريخ التصوف (ص ٣٤١– ٣٤٦).

ويذكر أن أبو حامد الغزالي كان قصد في كتابه "تهافت الفلاسفة" الحط على ابن سينا، والتشنيع عليه، مع أنَّ الاثنان صنوان لطريقة في الزهد واحدة!.

وينقم السيوطيُّ على ابن سينا تصوُّفه أيضاً تبعاً لسلفه الغزاليِّ، فيقول: "وممن ركب له تصوُّفاً على مذهب الفلاسفة ابن سينا، ذلك الأعمى القلب والبصيرة..."[٦٢٩].

١٠. و(الفتوحات المكية)، و(ترجمان الأشواق)، و(فصوص الحكم)، لابن عربي، والذي زعم أنه كتبه بأمر من النبي ﷺ[٦٣٠]، ويذكر في كتابه أجوبه عن كلام الحكيم الترمذي[٦٣١].

(٦٢٩) تأييد الحقيقة العلية، للسيوطي (ص ٦٤).

(٦٣٠) يقول ابن عربي: "أما بعد؛ فإني رأيت رسول الله ﷺ في مشرةٍ أُريتها في العشر الأواخر من محرم، سنة سبعٍ وثلاثين وستمائة بمحروسة دمشق، وبيده ﷺ كتابٌ؛ فقال: (هذا كتاب فصوص الحكم خُذه، واخرج به إلى الناس ينتفعوا به)! فقلتُ: السمعُ والطاعة لله ولرسوله ولأولي الأمر منّا كما أُمرنا".
انظر: فصوص الحكم لابن عربي، دار الكتاب العربي بيروت، ١٩٨٠م، (ص: ٤٧-٤٨).

(٦٣١) مصباح الهداية إلى الخلافة والولاية، الخمني (ص ٩٤).

بل يقول ابن عربي: "والله ما كتبتُ في الفتوحات المكية حرفاً إلا عن إملاءٍ إلهي، أو إلقاءٍ رباني، أو نفثٍ روحاني، أو روحٍ كياني" (٦٣٢).

وقد تأثر ابن عربي في كتاباته بمذهب البراهمة، وفلسفة فليون اليهودي في وحدة الوجود، وبفكرة الحلول عند المسيحيين الغنوصيين، فضلاً عن تأثره بابن سينا، وبالقرامطة الإسماعيلية، وبإخوان الصفا، وغيرهم من الغُلاة ممن وقعوا تحت تأثير الفلسفة والفكر الأجنبي، وتصوُّفوا في أخريات أيامهم (٦٣٣)، ومن كتب ابن عربي في وحدة الوجود الشاملة اقتبس شعراء التُّرك والفرس في أشعارهم ونثرهم (٦٣٤).

وقد حازت كتابات ابن عربي على التعليق، والتنقيح، والشرح، والتحليل والتفكيك، أكثر من غيرها من كتب المتصوفة، ونالت حظَّها الوافر من الدراسة عند

(٦٣٢) الفتوحات المكية لابن عربي (٣/ ٤٥٦).

(٦٣٣) ليس من الإسلام، للشيخ محمد الغزالي (ص ١٢٤). وانظر: تاريخ فلاسفة الإسلام، محمد لطفي جمعة (ص ٥٤).

(٦٣٤) تصوف الشيعة (ص: ٦٨)، نقلاً عن تعليق أبي العلا العفيفي على فصوص الحكم (ص: ٧-٩).

مسلمي العرب والترك، وعند أهل الإمامة من فارس، وقد عدَّها بعض الباحثين أفضل من (إحياء) الغزالي![٦٣٥].

وزعم الصُّوفيَّة أنَّ ابن عربي لما فرغ من (فتوحاته المكيَّة)، فرَّق ورقه على ظهر الكعبة، فمكث سنةً لم يُطر منها الريح ورقة، ولا بلَّت الأمطار منها صفحة، قال: "فسلامة تلك الأوراق من المطر والريح مع مكثها سنة على السطح من الكرامات الباهرة، الدالة على إخلاصه في تأليف هذا الكتاب..!"، وأنَّى له ذلك، وهو عنه بمنأى![٦٣٦] .

يقول المزيدي: "ولم يؤذن لأحدٍ من أولياء هذه الأمة بإظهار بعض هذه الأسرار إلا الشيخ الأكبر، والكبريت الأحمر، الإمام الختم، حجة الله على أوليائه، محمد بن علي الطائي، (المولود بإسبانيا!)، ومن عداه أُمِرَ بالسكوت، أو بالرمز لا غير، فلسان الطريقة فوق لسان الشريعة، وفوقه لسان المعرفة، وفوقه لسان الحقيقة،

(٦٣٥) تاريخ فلاسفة الإسلام، محمد لطفي جمعة –مقدمة وتمهيد– (ص ١٠).

(٦٣٦) انظر: جامع المقال في إثبات كرامات الأولياء؛ أحمد المزيدي، نقلاً عن السهم القوي في نحر كل غبي وغوي، لأحمد بن محمد السجاعي (ت ١١٩٧هـ)، (ص ٤٠٦).

وهو ممن ورثوا: "ما عرف قدري غير ربِّي!"(٦٣٧) ، ويبدو أن شيئاً طرق عقل الطائي حتَّى جاء بهذه التخاريف، والأباطيل من جوف قبرٍ كان يسكنه في المغرب!.

وبلغ من سفه الصُّوفيَّة الواهنة علماً وعملاً؛ قولهم:" فإننا لا نعتبر أحداً من مشايخ الإسلام حُجَّةً على الشيخ الأكبر، فإن كانوا هم مشائخ الإسلام، فهو شيخ الإسلام، والإيقان، والإحسان، وما فوقه من مراتب الدين..!"(٦٣٨).

وقولهم: "وليس واحدٌ من غيرنا (المُحمَّديين) حُجَّةٌ علينا، وإنما نحنُ حُجَّةٌ على غيرنا"، ويعتذر صاحب (جمع المقال) عن هذه الفظاظة والفحش، والقدح في أهل الشريعة، بأنهم إنما يبينون مرتبة القوم، وما هم عليه من الحقيقة المحمدية (٦٣٩).

وفي ضوء تفسير المبهم من كلام ابن عربي يُطلُّ علينا أحد المتغافلين كالشيخ محمد بن شاكر بن أحمد الكتبي، بنظرية (الشاذ) الذي لا يفهمه إلا المتغلغلين في عقيدة القوم، أو المفتوح عليه من الله –وأنا أستبعد الأخير– فالشاذ عند الصُّوفيَّة هي ظاهرة نفسانية تجلت بكلام مبهم، ينتقده أهل السنة وغير

---

(٦٣٧) انظر: جامع المقال في إثبات كرامات الأولياء؛ أحمد المزيدي، هامش (ص ٤٠٧– ٤٠٨).
(٦٣٨) انظر: جامع المقال في إثبات كرامات الأولياء؛ أحمد المزيدي، هامش (ص ٤١٣).
(٦٣٩) انظر: جامع المقال في إثبات كرامات الأولياء؛ أحمد المزيدي، هامش (ص ٤١٣).

الراسخين!، ثم يقول: "الذي نفهمه من كلام ابن عربي حسن، والمشكل علينا نكل أمره إلى الله تعالى، وما كلفنا اتباعه، ولا العمل بما قاله"(٦٤٠).

ومن طريف ما يُذكر أن ابن عربي أرجع ما في كتبه من التأويلات الباطنية، والإشارات الصُّوفية إلى علم الكتاب!؛ فيقول في ديوانه ترجمان الأشواق؛ فيقول:

كل ما أذكره من طللٍ ... أو ربوع أو معانٍ، كل ما

أو خليلٍ أو رحيلٍ أو رُبىً ... أو رياضٍ أو غياضٍ أو حِمى

أو نساءٍ كاعباتٍ نُهَّدٍ ... طالعات كشموسٍ أو دُمى

وكذا إن قلت: ها أو قلت يا ... وألا إن جاء فيه أو أما

وكذا إن قلت هي أو قلت هو ... أو همُ أو هنَّ جمعا أو هما

كل ما أذكره مما جرى ... ذكره أو مثله أن تفهما

منه أسرار وأنوار جلت ... أو علت جاء بها رب السما

لفؤادي أو فؤاد من له مثل ... ما لي من شروط العلماء

(٦٤٠) تاريخ فلاسفة الإسلام، محمد لطفي جمعة (ص ٢٨٨).

صفة قدسية علوية ... أعلمت أن لصدقي قدما

فاصرف الخاطر عن ظاهرها ... واطلب الباطن حتى تعلما [٦٤١].

١٢. و(ختم الأولياء) للحكيم الترمذي محمد بن علي، وقد سبَّب هذا الكتاب فتنةً كبيرةً، وأحدث هزة في الجو الثقافي العام للعالم الإسلامي، بما تضمنه من آراء شاذة، وأفكار مولّدة غريبة لم يسبق للمسلمين أن تحدثوا بها، وهو الكتاب الذي أثار اهتمام محيي الدين بن عربي، فأفرد له كتاباً خاصَّاً ادَّعى فيه أن الولاية أعظم من النبوة، وأن خاتم الأولياء أعظم من خاتم الأنبياء، وأن الولي يأخذ عن الله بلا واسطة، والنبي يأخذ بواسطة الملك، وأن الملائكة عنده: هي ما يتصور في نفس النبيّ، أو الوليِّ من الأشكال النورانية الخيالية، فالملائكة هي ما يتخيله في نفسه، والنبي يتلقى بواسطة هذا التخيل، أما الولي فيتلقى هذه المعارف بلا تخيُّل، ولذا كان الوليُّ عنده أعظم من النبي!، وأفرد لكل ذلك صفحات وصفحات من كتاب (الفتوحات)، وقد كان هذا الكتابُ مفقوداً إلى عهدٍ قريب، حتى عثر عليه الأستاذ عثمان يحيى، فطبعه في بيروت طبعة محققة.[٦٤٢]

---

(٦٤١) تصوف الشيعة، نظرة إلى حياة الآملي (ص: ٩٨)، نقلاً عن علائق الأشواق (ص: ٥).

(٦٤٢) قضية التصوف، المدرسة الشاذلية، د. عبد الحليم محمود (ص ٤٧).

ويرى الدكتور عبد الحليم الصُّوفي[٦٤٣]، أنَّ كتاب (ختم الأولياء) أثار اهتمام الصُّوفيَّة وغيرهم، وأنَّه أحدث حيوية وحياة ونقاشاً في الجوّ الفكري والصوفي، ثُمَّ يقول: "وإنَّ كتاباً يُثير اهتمام الإمام الكبير ابن عربي إثارة بالغة، فيكتب عنه غير مرة؛ لهو كتابٌ فذ".[٦٤٤]

ويذكر أنَّ أبا الحسن الشاذلي وتلميذه المرسي، ومن بعده ابن عطاء (مؤلف أوَّل رسالةٍ في الذكر الصُّوفي!) كانوا يُعظِّمون الإمام محمد بن عليّ الترمذي، وكان لكلامه عندهم الحظوة التامة، وكان الشاذُليّ يقول عنه: "إنه أحد الأوتاد الأربعة".[٦٤٥]

يقول الذهبيُّ رحمه الله: "أخرجوا الحكيم من ترمذ، وشهدوا عليه بالكفر، وذلك بسبب تصنيفه كتاب (ختم الولاية)، وكتاب (علل الشريعة)، وكان يقول بأن للأولياء خاتماً كالأنبياء لهم خاتم، وكان يُفضّل الولاية على النبوة".[٦٤٦]

---

(٦٤٣) هو الدكتور عبد الحليم محمود.

(٦٤٤) قضية التصوف، المدرسة الشاذلية، د. عبد الحليم محمود (ص ٢٠١).

(٦٤٥) قضية التصوف، المدرسة الشاذلية، د. عبد الحليم محمود (ص ٢٠١).

(٦٤٦) انظر: سير أعلام النبلاء، محمد بن الحسين الذهبي (١٣/ ٤٣٩-٤٤٢).

ومن الممكن أن تكون أفكار الترمذي هي نفس أفكار الفلسفة اليونانية التي تسربت إلى الصُّوفيَّة، سيما وأن ثروته اللغويَّة (الظاهرة في كتاباته) غنيَّة بالتقارير الفلسفية، ويعتبر الترمذيُّ وهو من أبناء القرن العاشر، مؤسس نظرية ترتيب مقامات الشيخ الصُّوفي، من "القطب" أو "الغوث الأعظم"، إلى الأولياء المتصرفين في الكون بحسب درجاتهم، وجعل للأولياء خاتم، كما أنَّ للأنبياء خاتم !.

١٣. (الطبقات الكبرى) في تراجم الصُّوفيَّة، لعبد الوهاب بن أحمد الشعرانيُّ (ت ٩٧٣هـ/ ١٥٦٥م)، وقد ذكر فيه من المخازي والترهات ما نترفع عن ذكره، وأخذت كتب الشعراني طابعاً عامَّاً في المجتمع المصري، باعتباره إماماً للتصوُّف في عصره، وقد تلقى تدريبه الصُّوفي على يد علي الخواص (ت ١٥٣٢م) الأميُّ (=الذي لا يعرف القراءة ولا الكتابة)، والمستنير! (بطريقة وهبيَّة!)، وكان أرشده إلى التخلص من كل الكتب والرسائل الفقهيَّة والعلميَّة التي يحتفظ بها، وكان له شيخان آخران، أسبق من الخواص، هما: علي المرصفي (ت ٩٣٣/ ١٥٢٧م)، ومحمد الشناوي (ت ٩٣٢هـ).

وللشعرانيِّ أيضاً: (البحر المورود)، و(الميزان في المذاهب الثمانية عشر)، و(لطائف المنن)، الذي يخبرنا فيه عن المعجزات وأرواح الأولياء وعالم الرؤى

والعجائب، وعالم مسكونٍ بالجنَّ!، الذين يحضرون محاضراته بآذان مفتوحة، وغيرها.

١٤. ووضع لهم تاج الدين ابن عطاء الله الإسكندراني (ت ٧٠٩هـ) كتباً مثل (الحكم العطائية)، و(تاج العروس وقمع النفوس)، و(لطائف المنن في مناقب أبي العباس المرسي وشيخه أبي الحسن الشاذلي).

١٥. وكتب الصُّوفي: جمال الدين عبد الرزاق الكاشاني (ت ٧٣٠هـ)، كتابيه (اصطلاحات الصوفية)، و(رسالة في القضاء والقدر).

١٦. وعفيف الدين عبد الله بن أسعد اليافعي (ت ٧٦٨هـ)، وضع لهم كتاب (روض الرياحين)، و(أسنى المفاخر في مناقب الشيخ عبد القادر)، و(مرآة الجنان وعبرة اليقظان).

١٧. ووضع قطب الدين عبد الكريم بن إبراهيم بن سبط عبد القادر الجيلي (ت ٨٢٦هـ) مؤلفاته، مثل (الناموس الأعظم والناموس الأقدم) في أربعين مجلداً، و(الإنسان الكامل في معرفة الأوائل والأواخر)، ونسبها للشيخ عبد القادر الجيلي (ت ٥٦٢ هـ).

١٨. والشيخ عبد الرحمن البسطامي الحنفي الحروفي (ت ٨٥٨هـ) صاحب (الفوائح المسكية في الفواتح المكية)، و(مناهج التوسل في مباهج الترسل)، وغيرها.

١٩. والشيخ ابن أبي بكر الجزولي السملالي، المتوفى في أواخر القرن التاسع، وهو صاحب كتاب (دلائل الخيرات، وشوارق الأنوار في ذكر الصلاة على المختار)، وهو كتاب مشهور ومتداول.

أوراد الصُّوفيَّة وصلواتهم:

ونظرةٌ سريعة على الأحزاب والأوراد المأثورة عن أولياء الصُّوفيَّة، والتي أصبحت مرتبطة بأوقات وأيام معيَّنة، أو ببعض المناسبات الدينية، والتي يجب أداؤها بطريقة معيَّنة، لئلا يتعرض الذاكر لمخاطر روحية أو نفسية شديدة، وهي غالباً ما تكون مسجوعة، مع ملاحظة وجود عبارات غير مفهومة، وطلاسم غريبة بعيدة كل البُعد عن ذكر الله تعالى، وأهم ما يُلاحظ أن أذكارهم وصلواتهم في أغلبها تعويذات وتحصينات، تُشير إلى أنهم أصحاب دعوةٍ سريَّة تواجه خصوماً، وتتوقع شراً.(٦٤٧)

(٦٤٧) انظر: السيد البدوي، د. عبد الله صابر (ص ٦٢).

ومن هذه الأحزاب والأوراد: (ورد الستار) عند الخلوتيَّة، و(جوهر الكمال) للتيجانيَّة، و(الأنموذج) للبكتاشيَّة، (والصلوات الكبرى) للمشيشية، و(قصائد منوعة) عد الحنظلية، ومنها: (حزبُ الفتحِ)، و(حزبُ البحر) الذي هو أشبه ما يكون بتعويذة سحريَّة![٦٤٨] ، و(حزبُ الآيات)، و(حزبُ البَرّ)، و(حزبُ الشيخ) للشَّاذُلي والتي ترتبط ألفاظها ومدلولاتها بآيات قرآنية وطلاسم سحريَّة.

يقول الدكتور عبد الحليم محمود: "وله حزبُ الفتحِ، ويُسمَّى بحزبِ الأنوار، وهو الحزب الذي فتح الله به على أبي الحسن"[٦٤٩]، وكان الشاذلي يوصي أصحابه بقراءة حزب البحر، ويقول لهم: "حفظوه أولادكم، فإن فيه اسم الله الأعظم".[٦٥٠]

وقد ردَّ شيخ الإسلام ابن تيمية على أوراد الشاذلي المبتدعة، فقد جاء في "حزب البحر" قول الشاذلي: "بسم الله بابنا، وتبارك حيطاننا، ويس سقفنا".[٦٥١]

(٦٤٨) الطرق الصوفية في الإسلام، سبنسر ترمنجهام، (ص ٣١٩).

(٦٤٩) قضية التصوف، المدرسة الشاذليَّة (ص ١٣٤، ١٣٨، ١٤١، ١٤٦، ١٥٤).

(٦٥٠) قضية التصوف، المدرسة الشاذليَّة (ص ١٨٣).

(٦٥١) الرد على أبي الحسن الشاذلي في حزبه؛ لابن تيمية، للدكتورة سمية علي (ص ٦٦).

ورد عليه ابن تيمية بقوله: "إن جعل كلام الله بمنزلة الباب والسقف والحيطان يحتاج مثله إلى أثر، وإلا فهو بدعة، وقد يُفهم من ذلك انتقاص حرمته".[٦٥٢]

وقال الشاذلي أيضاً: "وسخَّر لنا هذا البحر، وكلُّ بحرٍ هو لك، والأرض والسماء، والملك، والملكوت، وبحر الدنيا، وبحر الآخرة"، وردَّ عليه ابن تيمية، بقوله: "ومن أين في الآخرة من بحرٍ غير جهنَّم؟!".[٦٥٣]

كذلك جاء عن الرِّفاعي من مصنفات مثل: (حكم الرِّفاعي، والمشرب الرائق = وهي رسائل وجهها لمريده عبد السميع الهاشمي)، و(النظام الخاص لأهل الاختصاص)، و(الفجر المنير في السلوك وآدابه)، و(البرهان المؤيد)، وله من الأحزاب والأوراد: (الحزب الكبير)، و(الحزب الصغير)، و(حزب الحصن)، و(حزب الستر)، و(حزب البركات)، و(حزب الأسرار)، و(الفتوح)، و(ورد الفيوضات)..

(٦٥٢) الرد على أبي الحسن الشاذلي في حزبه؛ لابن تيمية، للدكتورة سمية علي (ص ٦٦).

(٦٥٣) الرد على أبي الحسن الشاذلي في حزبه؛ لابن تيمية، للدكتورة سمية علي (ص ٥٨).

ومن الصلوات البدعية المعاصرة: (الصلوات الحجيرية)؛ لمؤلفها فتحي سعيد الحجيري، وفيها: "اللهم صلِّ على سيدنا محمد ألف الأولية النورانية، وباء البسملة في مبتدئ المعارف، وتاء التجلي، وثاء الثناء، وجيم جمال جلال صفات كمالك.. وقاف الحقائق، ولام لوحك المحيط، وميم مددك الفياض.. واللهم صلِّ على سيدنا محمد نقطة باء البدء في عالم الابتداء، وكعبة المرسلين والأنبياء، والذات المحمود البهاء".(٦٥٤)

كذلك (صلاة الفاتح)، المنسوبة للشيخ البكري، والمعروفة عند الطائفة التجانية، التي يزعم صاحب كتاب (رماح حزب الرحيم) بأنَّها نزلت من السماء على قلب التيجاني؛ فيقول الفوتي الطوري مؤلف الكتاب: "ويجب أن يعتقد الذكر لها أنها من كلام الله"، وصيغتها المعروفة: "اللهمَّ صلِّ على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق، والخاتم لما سبق، ناصر الحق بالحق، الهادي إلى صراطك المستقيم، وعلى آله حقَّ قدره ومقداره العظيم"(٦٥٥)، ويقول مؤلف (الدرة الخريدة): "ويعتقد المصلي أنها في صحيفةٍ من نور أُنزلت بأقلام قدرةٍ إلهيَّة، وليست من أليف زيدٍ ولا عمرو، بل هي من كلامه سبحانه وتعالى".(٦٥٦)

(٦٥٤) الصلوات الحجيرية، فتحي سعيد الحجيري الشاذلي (ص ٤–٨، ١١).

(٦٥٥) رماح حزب الرحيم (٢/ ١٣٩)، وانظر طبقات الشعراني (١/ ١٤٥).

(٦٥٦) الدرة الخريدة (٤/ ١٢٨).

رابعاً –المصنَّفات الشيعية في التصوُّف:

وقد وضع بعض شيعة المتصوفة كتباً في التصوُّف مثل (مصباح الهداية إلى الخلافة والولاية) للخُميني، و(البوارق الملكوتية)؛ للقاضي سعيد القُمِّي، و(نصِّ النصوص في شرح الفصوص)؛ للسيد حيدر علي الآملي، وهناك مصنفات أخرى للشيعة في هذا الباب، وفيما ذكرناه كفاية.

وبعد هذا العرض الموجز عن مصادر الصوفية في النشأة والتطور، والتلقي والاستمداد، نخلص إلى ما يلي:

١. أن التصوف فكر نشأ في بيئة إسلامية، عن فلسفات وأديان غير إسلامية، فاستمد عقيدته وفكره من الأمم السابقة.

٢. لم يتخذ المتصوفة الكتاب والسنة مصدراً أساسي للتلقي، بل لكل فكر وعقيدة مما سبقهم من الأمم أثر على اعتقادهم.

٣. ليس لأفعال الصوفية وأقوالهم ارتباط وصلة بما في السنة النبوية من أفعال للرسول ﷺ، ولما كان عليه صحابته في القرون المفضلة.

٤. للتشيع أثر كبير على المتصوفة، وهناك ارتباط واسع بينهما في الاعتقاد كما بينا سابقاً.

٥. للصوفية كتب كثيرة تعتمد عليها وتأخذ منها أمور دينها حتى عدوها كالمصحف لهم، وأهمها وأشهرها كتابي الفتوحات لابن عربي، والإحياء للغزالي.

المبحث السادس

طبقات الصُّوفية

يحاول المؤرخون تقسيم الصُّوفيَّة إلى طبقات، وكُلٌّ طبقة تختصُّ بنوعٍ مُعيَّن من المعرفة والعلوم، والشخصيات البارزة، وإليك بيانها:

الطبقة الأولى "التصوُّف البِدعي" (٢٠٠ -٣٠٠ هـ):

وامتدت من القرن الثالث إلى أواسط القرن الرابع، حيث ظهر في هذا الطور أبو يزيد البسطامي (٢٦١هـ)، وهو أول من تكلم في الفناء (٦٥٧).

---

(٦٥٧) الفناء كلمة مبهمة، تحتمل أوجهاً ثلاثة، ذكرها شيخ الإسلام ابن تيمية، وهي:

أ- فناء الإرادة: وتعني الفناء عن إرادة ما سوى الله، بحيث لا يُحبُّ إلا الله، ولا يعبد إلا إياه.

ب- فناء السِّوى: وهو أن لا يخطر في قلب العبد إلا الله، ويحصل ذلك لكثير من السالكين، لفرط انجذاب قلوبهم إلى ذكر الله ومحبته، وضعف قلوبهم عن شهود غير الله، فلا يخطر بقلوبهم إلا لله. قال ابن تيمية: "وهذا الفناء كُلُّه فيه نقص، وأكابر الأولياء لم يقعوا في هذا الفناء، ونبينا إمام هؤلاء وأكملهم، ولهذا لما عرج به إلى السماوات وعاين ما هنالك من الآيات وأوحى إليه ما أوحي من أنواع المناجاة، أصبح فيهم وهو لم يتغير حاله". انظر: مجموع الفتاوي(٥/ ٢٠٦)، وما بعدها.

ج- فناء الوجود: وهو أن يشهد أنه لا موجود إلا الله، وأن وجود الخالق هو وجود المخلوق، فلا فرق بين العبد والرب، وهو فناء أهل الضلال والاتحاد. انظر: دراسات في التصوف والفلسفة (ص ١٣٢)، وما بعدها.

ومن أعلام هذه الطبقة: الجنيد بن محمد (ت ٢٩٧هـ/ ٩١١م)، وأبو حمزة الصُّوفيّ البزاز البغدادي (ت ٢٨٩هـ) الذي شهد الناس عليه بالزندقة والحلولية، وأخرجوه من طرطوس بسبب ذلك، وكان من أصحاب الجنيد، ومات قبله، وصحب السُّرِّي السقطي، ونصر بن رجاء وهو من أقران الجنيد [٦٥٨]، ومن أخباره ما قاله السراج الطوسي: "وبلغني عن أبي حمزة أنه دخل دار الحارث المحاسبي، فصاحت الشاة مع، فشهقَ شهقةً، وقال: لبيك سيدي! فغضب الحارث، وعمد إلى سكين، وقال: إن لم تتب من هذا الذي أنت فيه أذبحك". [٦٥٩]

وروى أبو نُعيم في "الحلية" عن أبي عبد الله الرملي يقول: "تكلم أبو حمزة في جامع طرسوس فقبلوه، فبينا هو ذات يوم يتكلم إذ صاح غرابٌ على سطح الجامع فزعق أبو حمزة وقال: "لبيك لبيك، فنسبوه إلى الزندقة وقالوا: حلولي زنديق، فشهدوا وأخرج وبيع فرسه بالمناداة على باب الجامع، هذا فرس الزنديق!، فذكر أبو عمرو البصري، قال: ابتعته والناس وراءه يخرجونه من باب الشام" [٦٦٠].

(٦٥٨) انظر: شكوى الغريب (ص ٢١، ٢٢).

(٦٥٩) انظر: اللمع للطوسي (ص ٤٩٥)، وتلبيس إبليس؛ لابن الجوزي (ص ٢١٠).

(٦٦٠) انظر: حلية الأولياء (١٠/ ٣٢١).

وأحمد بن أبي الحواريّ، الذي شهد النَّاس عليه بقوله: "إن الأولياء أفضل من الأنبياء"[٦٦١]، وهرب من دمشق، وجاور بمكة حتَّى كتب إليه السُّلطان أن يرجع، فرجع !.

وأبو سليمان الداراني، وأبو عبد الله محمد بن الفضل البلخي[٦٦٢] ، وأبو الحسن بن شمعون[٦٦٣]، وأبو بكر الزَّقاق[٦٦٤]، وأبو الحسين النوري(ت ٢٩٥هـ)[٦٦٥]، وأبو أحمد المغازلي [٦٦٦]، وجعفر بن محمد الخلدي (ت

(٦٦١) تلبيس إبليس، لابن الجوزي (ص ٢٠٧).

(٦٦٢) هو: محمد بن الفضل بن العباس، أبو عبد الله، البلخي، صوفي شهير، من أجلة مشايخ خراسان، أخرج من بلخ، فدخل سمرقند، ومات فيها سنة (٣١٩هـ). الأعلام (٦/٣٣٠).

(٦٦٣) هو: حمد بن أحمد بن شمعون الواعظ، كبير القدر، وله مقالاتٌ تُخالف طريقة السَّلف، وحكى ابن حزم أنه زعم أن الاسم الأعظم سبعةٌ وثلاثون حرفاً من غير حروف المعجم. انظر: ميزان الاعتدال (٣/٤٦٦)، وشكوى الغريب (ص ٢٢).

(٦٦٤) هو: محمد بن عبد الله الزقاق، من شيوخ الصوفية الكبار، مات سنة (٣١٠هـ). تاريخ الإسلام (١٩٦/٧).

(٦٦٥) هو: أحمد بن محمد النُّوري البغدادي، روى عنه السري السقطي، وكان الجنيد يُعظمه، ومات قبله.

(٦٦٦) هو: أبو أحمد المغازلي، حكى عنه أبو جعفر الخلدي انظر: تاريخ بغداد (٦٠٤/١٦).

٣٤٨هـ)(٦٦٧)، وأبو محمد الجريريّ(٦٦٨)، وأبو الحسين عمرو بن عثمان المصريّ، وموسى الأشجُّ وهو أول من تكلم بالبصرة في علوم الشَّوق والمحبة والتوكل.

ومن شيوخ البصرة: فهران الرفَّاء، وأبو جعفر الصيدلاني، وأبو الحسن بن سالم، وهو من أصحاب التستري، وإليه تنسب السَّالميَّة، وأبو على الأسواريّ، وأبو بكر بن عبد العزيز، وأبو سعيد القلانسي النيسابوري، ويحيى بن معاذ الرازي (مؤلف أول أناشيد الرقص الصوفيَّة المعروفة)، والتي يقول فيها:

دققنا الأرض بالرقص على غيب معانيك.

ولا عيب على الرقص لعبدٍ هائم فيك.

وهذا دقُّنا الأرضَ إذا طفنا بواديك! (٦٦٩) .

---

(٦٦٧) هو: أبو محمد جعفر بن نصير الخلدي، صحب النُّوري، ورويماً، ولازم الجُنيد، وهو من تلامذة إبراهيم الخوَّاص، وهو أحد عجائب بغداد الثلاثة، وهم: الشبلي، والخلدي، وعبد الله بن محمد المرتعش(ت ٣٢٨هـ)، وكلهم من الصوفيَّة. (انظر السير، للذهبي: ١٥/ ٢٣٠).

(٦٦٨) هو: أحمد بن محمد بن الحسين الجريريّ، صحب الجنيد وكان يُعظمه،

(٦٦٩) حلية الأولياء، لأبي نعيم (١٠/ ٦١).

ويذكر السُّيوطيُّ أن معاذاً الرازيَّ هذا أولُ من جلس على الكرسيِّ بين مُريديه، وكذلك فعل أبو حمزة البغدادي في زمن الجُنيد، وكانوا يعيبون عليهم ذلك؛ لأنه لم يكن ذلك من سيرة العارفين الذين يتكلمون في علم المعرفة واليقين، وإنما كان جلوسهم الاحتباء، وإنما يجلس متربعاً النُّحاةُ وأهل اللُّغةِ وأبناء الدُّنيا من علماء المفتين وهي جلسة المتكبرين، ومن التواضع الاجتماع في الجلسة (٦٧٠).

وأبو عثمان سعيد بن عثمان الرازي، ومنصور بن عمار الوشنجي، وأبو بكر الشاشي، وأبو سعيد الأعلم، وأبو بكر الدبيلي، وأبو العباس أحمد بن محمد الدينوري، وأبو عبيد الطوسي، وأبو عليٍّ محمد بن عبد الوهاب الثقفي، وعلي الطيَّان، ويُمنيُّ الفَسويَّان (٦٧١).

ومن كبارهم: أحمد بن وهب الزيات، وعبد الله السائح، وسمنون بن حمزة (ت ٢٩٧هـ)، وأبو سعيد القرشي، وأبو الحسن بن حديق، وزكريا بن محارب، وأبو علي الوراق، وأبو علي بن زيزا، وهو من كبار أصحاب الجنيد، وأبو القاسم الدقاق، وكانا يتكلمان في علوم الخطرات، وأبو محمد المرتعش الخراساني، وأبو علي

(٦٧٠) تأييد الحقيقة العلية وتشييد الطريقة الشاذلية (ص ٢٣).

(٦٧١) انظر: شكوى الغريب (ص ٢٢، ٢٣).

السلمي، وعليٍّ الحمَّال وهو القائل: "ذهبت حقائق التصوُّف وبقيت شرائطها، وجاءت طائفةٌ يطلبون الراحة ويتوهمون ذلك معرفة، فإنا لله وإنا إليه راجعون.[٦٧٢]

وأبو هاشم الزاهد، وإبراهيم بن فاتك، وكان الجنيد يكرمه[٦٧٣]، وأحمد بن عطاء الروذباري، وأبو الفيض ذو النون المصري، وشقيق البلخي، وهو أول من تحدث عن فلسفة الجوع[٦٧٤]، أبو سليمان عبد الرحمن بن أحمد العبسي المعروف (بالدارائي)، وأخوه داود بن أحمد، وسهل التستري، وأبو عبد الله بن مالك، وله رسالةٌ معروفة، وأبو الأديان وأبو الليث المغربي، وأبو سعيد الفنوني، وهو من كبار صوفيَّة البصرة، وأبو حاتم العطَّار، وجميل بن الحسن العتكي، وأبو جعفر محمد بن إسماعيل الوساوسي، وأبو بشر بن منصور، وعثمان بن صخر العقيلي، وأبو سعيد العصفريُّ، وسليمان الحفّار، وأبو ثُوابة القرشي، وأبو يعقوب الأيلي، وعبد الله بن عفَّان، وأبو عبد الله البصري، ومحمد بن أبي عائشة.

وعبد العزيز البحراني، وأبو الحسن علي بن بابويه، وأبو بكر الواسطي، والربيع بن عبد الحمن، وهو القائل: "إن لله عباداً هم في الدنيا مكتئبون، وإلى

(٦٧٢) انظر: شكوى الغريب (ص ٢٣).

(٦٧٣) انظر: شكوى الغريب (ص ٢٣، ٢٤).

(٦٧٤) الأبعاد الصوفية في الإسلام، آنا ماري شيمل (ص ١٣٢).

الآخرة متطلعون، قد نفذت أبصار قلوبهم في الملكوت، فرأت عظيم الثواب، فازدادت بذلك جِدّاً.."[٦٧٥] .

وعمرو بن عثمان المكي (ت ٢٩١هـ) الذي ألبس الحلاج الخرقة الصوفية بيده في البصرة[٦٧٦]، ومعلومٌ أنَّ بدعة الخرقة حدثت عند بعض المشايخ المتصوفة من أهل خراسان والعراق، كما قال ابن تيمية رحمه الله: "وقد عقل بالنقل المتواتر أن الصحابة لم يكونوا يلبسون الخِرَق، ولا يَقُصُّونَ شعورهم، ولا التَّابعونَ، ولكن هذا فَعَلَهُ بعضُ مشايخ المشرق من المتأخرين، وقد علم كل من له علم بأحوال الصحابة أنه لم يكن فيهم من يلبس سراويل، لا يَسقي ملحاً، ولا يختصُّ أحدٌ بطريقةٍ تُسمَّى الفتوَّة"[٦٧٧].

وبالنسبة إلى سند الخرقة، فقد قال ابن الجوزيِّ: "وقد قرروا أن هذه المُرقَّعة لا تلبس إلا من يد شيخ، وجعلوا لها إسناداً مُتَّصِلاً، كُلُّه كذبٌ، ومحال..

(٦٧٥) انظر: شكوى الغريب (ص ٢٤).

(٦٧٦) التصوف الإسلامي، د. فيصل عون (ص ١٦٢).

(٦٧٧) منهاج السُّنَّة؛ لابن تيمية (٨/ ٤٧). وانظر: مجموع الفتاوي (١/ ٥١١).

انظروا إخواني عصمنا الله وإياكم من تلبيس إبليس إلى تلاعب هؤلاء الجهلة بالشريعة، وإجماع مشايخهم الذي لا يُساوي بعرة".(٦٧٨)

أما عن سند هذه الخرقة المزعومة، فيقول يونس "المدعو بأزبك الصُّوفي": قال الفقيه الشيخ أحمد بن محمد الطواشي الصوفي، قال: سمعتُ شيخي الحجاج بن الحسن بن الحسين الصوفي، قال: سمعتُ من شيخي عيسى بن الحسن السيقلي، قال: سمعتُ من شيخي أحمد بن محمد السيقلي الأصبهاني بثغر الإسكندرية، قال: سمعتُ الشيخ الأخ علي البقال، قال: سمعت الشيخ عبد الرحمن بن الإمام أحمد جميل، قال: سمعتُ من الشيخ موسى الأشعري، قال: سمعتُ من شيخي الحسن بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، قال: قال رسول الله ﷺ: لما أُسري بي إلى السماوات العلى، وسمعت كلام العلي الأعلى، وفرغتُ من المخاطبة، أخذ بيدي أخي جبريل عليه السلام، وأدخلني الجنة وجاء بي إلى قصرٍ من ياقوتةٍ حمراء، ففتح القصر، وأخرج لي منه صندوقاً من نور، ففتح الصندوق، وقال لي: يا محمد إن الله سبحانه أمرني البسه لك، فلا تودعه إلا عند

(٦٧٨) انظر: تلبيس إبليس (ص ٢٣٦).

مستحقيه؛ فلبسه النبيُّ ﷺ وخرج به من الجنة، وكان يقول لنا الفقر فخري، وفخر أمتي من بعدي إلى يوم القيامة! .[٦٧٩]

يقول صاحب (الجواهر السنية): "ثُمَّ ألبسه النبيُّ ﷺ لأبي بكر رضي الله تعالى عنه، ثم لعمر، ثم لعثمان، ثم لعلي كرم الله وجهه، ثم لأنس بن مالك، ثم لبسه منه عمران بن حصين، ثم لبسه منه الحسن البصري، ثم لبسه منه حبيب العجمي، ومنه تفرَّعت طريق الخرقة"[٦٨٠].

ولنا أن نتساءل عن هذه الخرقة التي طالت كل هذه المدة، ولم تبلَ، ولم تذوب، ناهيك عن هذا النسب المنتحل، والحديث المكذوب، الذي لا نعرفه من حديث رسول الله ﷺ، وحاشاه أن يكون قال ذلك.

ومنهم: أبو عبد الله السِّندي، وهو من أصحاب أبي يزيد، وأبو بكر الزنجاني، وإبراهيم بن يحيى التبريزي، وأبو العباس السَّمّان، وحاتم الأصم (تلميذ شقيق البلخي، ت/ ٨٥١م)[٦٨١] ، وأبو يزيد البسطاميُّ، وأبو الفتوح أحمد بن

---

(٦٧٩) انظر: الجواهر السنية والكرامات الأحمدية؛ لعبد الصمد الأحمدي (ص ٤١– ٤٢).

(٦٨٠) انظر: الجواهر السنية والكرامات الأحمدية؛ لعبد الصمد الأحمدي (ص ٤١– ٤٢).

(٦٨١) هو حاتم بن عنوان بن يوسف البلخي، نعته الذهبيُّ بقوله: الزاهد، القدوة، الرباني... الواعظ، الناطق بالحكمة... له كلامٌ جليل في الزهد والمواعظ والحكم، وكان يُقال له لقمانُ هذه الأُمَّة"، وهو

محمد الغزالي النيسابوري (تلميذ أبو علي القرمزي الطُّوسي، ت ٥٢٠هـ/ ١١٢٦م) وهو الأخر الأصغر لأبي حامد الغزالي، وجعفر النَّسوي، وأبو الحسين أحمد بن محمد الخوارزميّ، وعبد الله بن منازل، وأبو نصر فتح النَّدى، وأبو بكر الطمستاني، وأبو الحسين بن هند الفسوي، وأبو إسحاق إبراهيم الدبَّاغ، والحسن بن حمويه، وأبو بكر محمد بن الجوري، وأبو عبد الله محمد بن إبراهيم الخشوعيّ[٦٨٢]، وأبو عبد الله النجار، وابن بطة، وهما من أصحاب عليّ بن سهل، وأحمد بن شعيب، وعُبيد الملقب بالمجنون، فهؤلاء كلهم كانوا يتكلمون في هذه العلوم، وكلهم انقرضوا قبل الثلاثمائة، وقيل: منهم من كان بعدها.[٦٨٣].

الطبقة الثانية "التصُّوف الفلسفي" (٣٠٠ – ٤٠٠ هـ):

وتُعد هذه المرحلة من أخطر مراحل الصوفيَّة، حيث تسرَّبت إليه الأفكار الوثنية، والفلسفات اليونانية والفارسية والهندية وغيرها، التي أخرجت التصوُّف من

أحد الذين صحبوا شقيقاً البلخي، وذكر أنه اجتمع بالإمام أحمد رحمه الله ببغداد، وأن الإمام سأله عن أشياء! مات سنة (٢٣٧هـ). انظر: الجرح والتعديل (٣/ ٢٦٠)، وحلية الأولياء (٨/ ٧٣)، وتاريخ بغداد (٨/ ٢٤١)، وسير أعلام النبلاء (١١/ ٤٨٤).

(٦٨٢) انظر: شكوى الغريب (ص ٢٤).

(٦٨٣) انظر: شكوى الغريب (ص ٢٥).

دائرة الإسلام، من خلال عقيدة وحدة الوجود والحلول والاتحاد، وغير ذلك من المعتقدات الكفرية [٦٨٤] .

كذلك فإن هذا النوع من التصوُّف هو الأساس الذي قام عليه الفكر الصُّوفي كله فيما بعد، واستحدثت في هذه المرحلة الكثير من المصطلحات الدينية الفلسفية والتي تتمثل في الشطحات، وأحوال الفناء والحلول والاتحاد، والإشراق، والتحقق بالحق، وهي خارجة عن الإسلام عقيدةً وعلماً وفكراً.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وأقوال هؤلاء شر من أقوال النصارى، وفيها من التناقض من جنس ما في أقوال النصارى؛ ولهذا يقولون بالحلول تارة، وبالاتحاد أخرى وبالوحدة تارة، فإنه مذهب متناقض في نفسه؛ ولهذا يلبسون على من لم يفهمه. فهذا كله كفر باطناً وظاهراً بإجماع كل مسلم، ومن شك في كفر هؤلاء بعد معرفة قولهم ومعرفة دين الإسلام فهو كافر؛ كمن يشك في كفر اليهود والنصارى والمشركين" .[٦٨٥]

---

(٦٨٤) انظر: الصوفية: نشأتها، وتطورها، صفحة رقم: ٣١.

٦٨٥() انظر: مجموع الفتاوي، ابن تيمية، الجزء: ٢، صفحة رقم: ٣٦٨.

وقال الإمام الذَّهبيُّ: "أسأل الله السّلامة من شَطَحات الصُّوفية، وأعوذ بالله من كُفْريات صوفيّة الفلاسفة الَّذِين تستَّروا في الظّاهر بالإسلام، ويعملون عَلَى هدْمه في الباطن، وربطوا العَوَالم برُبَط ورُموز الصّوفيّة، مع عباراتهم العَذْبَة، وسَيْرهم الغريب، وأسلوبهم العجيب، وأذواقهم الجلفة التي تجرُّ إلى الانسلاخ والفَنَاء، والمَحْو والوحدة، وغير ذَلِكَ.

قَالَ الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ (الأنعام: **١٥٣**)، يعني طريق الكتاب والسنة المحمدية. ثُمَّ قَالَ: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ (الأنعام: **١٥٣**). فيا مسلمين بالله، تعالوا نبْكي عَلَى الكتاب والسنة وأهلها. اللَّهُمَّ أَجِرْنا في مصيبتنا، فقد عاد الإِسْلام والسنة غريبين، فلا قوة إِلا بالله العلي العظيم [٦٨٦].

(٦٨٦) انظر: تاريخ الإسلام، الذهبي (٢١/٢٧٨).

ومن أعلام التصوُّف الفلسفي: الحلاج [٦٨٧]، وابن عربي (ت في دمشق ٦٣٨هـ/ ١٢٤٠م)، وابن سبعين (ت في مكة ٦٦٩هـ/ ١٢٧٠م)، وابن الفارض [٦٨٨]، وغيرهما.

(٦٨٧) هو: الحسين بن منصور الحلاج، ولد بفاس سنة (٢٤٤هـ)، صوفيٌّ، متكلم، وله اتصالٌ بالقرامطة، وله شطحات كثيرة، من أهل الحلول والاتحاد، اتهم بالزندقة، وكثرت الوشايات به على المقتدر العباسي، فأمر بالقبض عليه، فسجن وعذب وضرب، قال ابن خلكان: وقطعت أطرافه الأربع، ثُمَّ حُزَّ رأسه، وأحرقت جثته، ولما صارت رماداً ألقيت في دجلة، ونصب الرأس على جسر بغداد. الأعلام (٢/ ٢٦٠).

(٦٨٨) ابن الفارض (٥٧٦–٦٣٢هـ): عمر بن علي بن مرشد بن علي الحمي الأصل، المصري المولد والدار والوفاة، من أشعر المتصوفين، ويلقب بسلطان العاشقين.

قال الذهبيُّ: "صاحب الاتحاد الذي قد ملأ به التائيَّة، فإن لم يكن في قصدته تلك صريح الاتحاد الذي لا حيلة في وجوده، فما في العالم زندقة ولا ضلال، فيا أئمة الدين ألا تغضبون لله. انتهى.

وقال الحافظ ابن حجر: "سألت شيخنا الإمام سراج الدين البلقيني عن ابن عربي، فبادر بالجواب بأنه كافر، فسألته عن ابن الفارض، فقال: لا أحب أن أتكلم فيه. قلتُ (يعني ابن حجر): فما الفرق بينهما والموضع واحد، وأنشدته من التائية، فقطع عليَّ بعد انشاد عدة أبيات، بقوله: هذا كفرٌ هذا كفر!.

وألف البقاعيُّ كتاباً في تكفيره، وأسماه: (الفارض لتكفير ابن الفارض). انظر: سير أعلام النبلاء، الجزء: ٢٢، صفحة رقم: ٣٦٨، ولسان الميزان (٤/ ٣١٨)، ونظم الدرر (٨/ ٦٢١)، والأعلام (٥/٥٥–٥٦).

وقد حاول الخُميني وضع قاعدة تبرير تجاه شطحات الصُّوفيَّة، بقوله: "فإن إتباع المتشابهات من كلماتهم، من غير التجسُّسِ لمرامي كلامهم، يوجب الخروج عن طور التوحيد، والإلحاد بأسماء الله..".(٦٨٩)

وقد بيَّن شيخ الإسلام ابن تيمية فساد قول هؤلاء المتفلسفة، فقال: "والمتفلسفة أسوأ حالاً من اليهود والنصارى، فإنهم جمعوا بين جهل هؤلاء وضلالهم، وبين فجور هؤلاء وظلمهم، فصار فيهم من الجهل والظلم ما ليس في اليهود ولا النصارى.

حتى جعلوا السعادة في مجرد أن يعلموا الحقائق، حتى يصير الإنسان عالماً، معقولاً، مطابقاً للعالم الموجود، ثم لم ينالوا من معرفة الله وأسمائه وصفاته، وملائكته، وكتبه، ورسله، وخلقه وأمره إلا شيئاً نزراً قليلاً، فكان جهلهم أعظم من علمهم، وضلالهم أكبر من هداهم، وكانوا مترددين بين الجهل البسيط والجهل المركب.

فإن كلامهم في الطبيعيات والرياضات لا يُفيد كمال النفس وصلاحها وزكاها، وإنما يحصل ذلك بالعلم الإلهي (العقائد)، وكلامهم فيه يشبه لحم جمل

٦٨٩() مصباح الهداية إلى الخلافة والولاية (ص ٦٢).

غث على رأس جبل وعر، لا سهلٌ فيرتقى، ولا سمين فينتقل، فإن كلامهم في "واجب الوجود" ما بين حقٍّ قليل، وباطل فاسد كثير!!".[٦٩٠]

الفصل الثاني

نشأة التصوُّف الإسلامي وتطوُّره

٦٩٠() انظر: الإيمان الأوسط لابن تيمية (ص ٤٩٨- ٤٩٩)، والنجاة لابن سينا (٣/ ٢٩٢).

وفيه خمس مباحث:

المبحث الأول: علاقة التصوُّف بالإسلام
المبحث الثاني السِّمات العامَّة للصُّوفية
المبحث الثالث: بدايات الحركة الصُّوفية في المجتمع الإسلامي
المبحث الرابع: انتشار التصوُّف في العالم الإسلامي
المبحث الخامس: من الفلسفة والتشيُّع إلى التصوُّف

المبحث الأول

علاقة التصوُّف بالإسلام

وبعد كل ما ذكرناه نطرح التساؤلات التالية، هل يمكن أن يكون التصوُّف فرعاً من فروع الإسلام؟، وكيف انتشر التصوف داخل البيئة الإسلامية مع وضوح النصوص القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة ؟ .

يقول الله ﷻ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾(المائدة: ٣)، ومعنى ذلك أن دين الإسلام قد اكتمل بنزول القرآن وتمامه، فلا مجال لأي أحدٍ من البشر أن يُضيف لدين الله الذي أكمله شيئاً من خارجه سواءً في العبادات أو المعاملات أو الآداب والأخلاق أو الاعتقادات والتصورات.

وبناءً عليه؛ فإن كان التصوُّف يضيف للإسلام شيئاً، فهو مرذولٌ غير مقبولٍ، لأن تلك الإضافة إن كانت ضمن ما قرَّره كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ، فلا تُعدُّ إضافة لأنها موجودٌ من قبل، وإن كانت مخالفة لما جاء فيهما، فهي مرفوضة وليست من الإسلام في شيء.

إن التصوف إذا اتفق مع الإسلام في شيء، فلا حاجة بنا إلى التصوُّف في ذلك الشيء؛ لأنَّ لديننا الأصل وهو دين الله ﷻ، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(الأنعام: ١٥٣).

وإن كان التصوُّف يختلف مع الإسلام، فلا حاجة لنا بذلك التصوُّف الذي يبعدنا عن ديننا الذي ارتضاه لنا ربُّنا، وهذه قضيَّةٌ واضحة لا تحتاج إلى جهد كبير لفهمها، فإما أن تكون مسلماً لله ﷻ في دينه وشرعه وأحكامه أو لا تكون كذلك؟!..

وإذا كان المشرِّع هو الله ﷻ وحده، والنَّبيُّ ﷺ مطالبٌ بالانقياد التام لهذه الشريعة، وسياسة العباد بما فيها، فلا يملك أحدٌ أن يشرع لأتباعه حسبما يوجهه هواه أو ذوقه أو حاله، كما في التشريع الصُّوفيّ البشري.

ولكي لا يتسنى لأحدٍ معارضة هذا التشريع الصوفيّ الجديد، أو إنكاره وحسم مادته، اتجه الصُّوفيَّة إلى مصدر إلهي يمنح الصوُّفيّ المشرع قداسة خاصَّة تجعله يقول ويفعل كل ما يريد عن إرادة وعلم من الله، فبإدعاء الكشف، والعلم

اللدني، أو الوحي الخاص، تنتهي كل تلك المعارضات، بالإضافةً إلى ادِّعاء الكرامات التي تُعدُّ من لوازم التصوُّف، والتي يحيض عندها المتصوفة!.

وورد لفظ التصوُّف لأوَّل مرة في تراث المسلمين في كتاب الجاحظ (البيان والتبيين)(٦٩١)، ولقد أصاب ابن خلدون عندما قال عن التصوف إنه من العلوم "الحادثة في ملة المسلمين"(٦٩٢)، وخطَّأ ابن خلدون كل من اعتبر التصُّوف علماً، وليس التصوُّف بعلم، حيث لا مجال للعقل فيه، ولا منهج يسيرون عليه، وإنما هو ذوقٌ وهوى، ودين جديد ظهر بعد الإسلام بقرنين.(٦٩٣)

والتصوُّف نوعان: "أحدهما دينيّ، والآخر فلسفي"، كما يقول التفتازاني، فإذا كان التصوُّف الديني يناقض دين الإسلام، فإن التصوف الفلسفي مرفوضٌ بالقطع!!.

ومن خلال استعراضنا لمصادر التصوُّف، نستطيع القول بأن التصوف قد تأثر بمصادر مجوسية، وهندية، ومسيحية، ويونانية، فكيف يكون ذلك الوليد ذو الآباء الكثيرين ابناً للإسلام الذي لا مصدر له إلا كتاب الله ﷻ وسُنَّة رسوله ﷺ،

---

(٦٩١) الخطط (١/ ٦٣، ٣٨٦، ٣٨٧).

(٦٩٢) المقدمة (٢/ ٤٦٧).

(٦٩٣) العقائد الدينية في مصر المملوكية (ص ٢٤).

ولعلكم تتساءلون، هل كان الإسلام بحاجة إلى أن يُكمِّله المجوس وعُبَّادُ البقرِ والوثنيون؟!.[٦٩٤]

ويرى الدكتور قاسم غني أنَّ الإسلام: بعقيدته البسيطة في الوحدانية التي يقتنع بها العقل بفطرته لم يكن ليظهر عنه تصوُّف، وما في التصوُّف هي النظريات المعقدة... فلم يلقَ الإسلام داخل الجزيرة العربية تأويلاً فلسفياً ولا صوفياً، ولكن بدخول أهل الحضارات والديانات الذين تناولوه بالتفسير والتأويل.[٦٩٥]

إن التصوُّف مذهب بشري، يستمد مشروعيته من مجموع تلك الفلسفات البشرية، بالإضافة إلى آراء معتنقيه وأتباعه فيه، وكل صوفيٍّ يمثل التصوُّف الذي يدين به، وهو يختلف عن الإسلام الذي يستمد مشروعيته من الوحي: كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، الذي هو بمثابة الحاكم على آراء البشر واعتقاداتهم وطريقة حياتهم، والقانون الذي ينظم سيرهم، والدين الذي يجب أن يدينوا به.

(٦٩٤) العقائد الدينية في مصر المملوكية (ص ٢٤).

(٦٩٥) التصوف الثورة الروحية (ص ٥٧-٥٩).

المبحث الثاني

السِّمات العامَّة للصُّوفية

وعلى كل حال، فإن ثمَّة أمور عامة نستطيع أن نقول: إنها تجمع أصول الفلسفة الصُّوفيَّة وعقائدها، وهي:

١. أن الصوفيون جميعاً يعتقدون (بتوحيد الوجود) أو (الوجود الواحد)، بحيث لا يميزون بين الحق، باعتبار أنَّه الوجود المطلق الثابت، والذي يمثل النُّور المحض، وبين كل ما عداه من الموجودات، التي هي خليط من النور والظلمة معاً، وتعتبر أوهاماً وأعراضاً لا حقيقة لها في الوجود الصُّوفي، وتشارك الإله في النُّور بقدر اقترابها منه.

٢. أن مصدر المعرفة هو أمر آخر غير الحس والعقل والشرع، كالحدس مثلاً، وهو ما يجده الصُّوفيُّ في نفسه من إشراقات إلهية، وفيوضات روحية، وقد يكون الذوق الذي يُحسُّ به بمجموع كيانه، وقد يكون البصيرة القلبية وتوابعها من الكشف والإلهام.

المبحث الثالث

بدايات الحركة الصُّوفية في المجتمع الإسلامي

إنَّ التصوُّف لم يُعرف في زمن النَّبيِّ ﷺ، وصحابته الكرام رضوان الله عنهم، ولا في زمن التَّابعين وأتباعهم رحمهم الله تعالى، بل كان أهله يُعرفون بالزهاد والنُّساك، والبكائين، ولم يُعرف أحدٌ باسم الصُّوفيَّة حتى أواخر القرن الثاني الهجري، ونقل التكلم به عن غير واحدٍ من الأئمَّة كالإمام أحمد بن حنبل(٦٩٦)، وغيره.

ويعتبر الكثيرون أن الزهد مرحلة انتقالية أدت إلى ظهور التصوُّف في القرن الثالث الهجري، ومنهم ابن الجوزي الذي فرَّق بين الزُّهد والتصوُّف، فقال: "...إلا أن الصُّوفيَّة انفردوا عن الزُّهاد بصفات وأحوال، والتصوُّف طريقةٌ كان ابتداؤه الزُّهد الكُلِّي، ثُمَّ ترخَّص المنتسبون إليها بالسّماع والرقص؛ فمال إليهم طلاب الآخرة من العوام لما يُظهرونه من التزهُّد، ومال إليهم طلاب الدُّنيا لما يرون عندهم من الراحة واللعب" (٦٩٧).

---

(٦٩٦) ومن هؤلاء المتصوفة من كان يحضر مجلس الإمام أحمد بن حنبل من أمثال: محمد بن إبراهيم بن حمزة البغدادي، فكان إذا جرت مسألةٌ من مسائل القوم في مجلسه، قال له: ما تقول فيها يا صوفيّ؟!. انظر: سير السلف الصالحين، إسماعيل بن محمد الأصفهاني (ص ١٢٧٦).

(٦٩٧) تلبيس إبليس، ابن الجوزي (ص ١٥٥).

ويؤيد هذه الفكرة التفتازاني –الصوفي والباحث المعاصر– الذي جعل للزهد مراحل وصل إليها، اعتبرها بين الزهد والتصوُّف، وعدَّ من روادها: إبراهيم بن أدهم، والفضيل بن عياض، ورابعة العدويَّة، ولم يعتبرهم صوفيَّة بالمعنى الدقيق للتصوُّف الذي ظهر في القرن الثالث.(٦٩٨)

بينما يرى كثيرٌ من الباحثين أن هناك فروقاً أساسيَّة بين الزهد والتصوف، وأن لكلٍّ من الزهد والتصوُّف عوامله الخاصة التي أدت إلى نشأته وظهوره وتطوره منفرداً عن الآخر، ومن أبرز الأدلة التي يستندون إليها في استقلالية الزهد عن التصوُّف في النشأة والظهور، هو استمرار الزهد بمعزلٍ عن الصُّوفيَّة(٦٩٩)، وهو ما يؤيده الباحث ويميل إليه.

ونرى هذه التفرقة بوضوح فيما عابه الغزاليّ على زهاد عصره في مغالاتهم في أمور الدين وتشديدهم في أعمال الجوارح(٧٠٠)، وفي المقابل نجده يهاجم الصُّوفيَّة المعاصرين له، الذين نقضوا عُرى الدين بدعوى وصولهم للحق واتحادهم

---

(٦٩٨) مدخل إلى التصوف الإسلامي (١٠٦–١٠٧، ١١٢–١١٣).

(٦٩٩) العقائد الدينية في مصر المملوكية (ص ٢٦).

(٧٠٠) إحياء علوم لدين (٣/٣٤١–٣٤٣).

به[٧٠١]، مما يدل على وجود فارق جوهري بين الطائفتين في المعتقد والسلوك، فالزُّهاد يتشدَّدون في الصلاة، والصُّوفيَّة ينكرونها؛ لأنهم جزءٌ من الله، وبعبارة الغزالي: "وصلوا إلى الحقّ!".

وقد تميَّز عصر الغزالي بتقرير التصوُّف كحركة دينية مُتَّبعة، ولكن!.. لو كان الزهد حركة انتقالية لذاب الزُّهاد في الحركة الصُّوفيَّة الجديدة المعترف بها، ولانتقلت حركة الزهد إلى متحف التاريخ عندما توطدت الحركة الصُّوفيَّة...

وفي الحقيقة أنَّه مع انتشار التيار الصُّوفيّ وتمدده في تلك الحقبة، فإن حركة الزُّهد لا زالت مستمرة كطريقة مباينة ومنفصلة عن التصوُّف، هذا على الرغم من تناقص أعداد الزُّهاد، إلا أن وجودهم ظل قائماً حتى بعد أن تمَّت للتصوُّف السيادة المطلقة في العصر العثماني[٧٠٢]، فالجبرتِّي يذكر مثلاً زاهداً في القرن الثاني عشر الهجري، وهو الشيخ مصطفى العزيزي (ت ١١٥٤هـ)، وقال فيه: "كان أزهد أهل زمانه في الورع والتقشف، في المأكل والملبس، والتواضع وحسن الخلق... ولا يرى لنفسه مقاماً، ولا يرضى بتقبيل يده، ويكره ذلك، وكان إذا دخل

---

(٧٠١) الإحياء (٣/١٩٩، ٣٤٤-٣٤٧).

(٧٠٢) العقائد الدينية في مصر المملوكية (ص ٢٦).

على طلابه للدرس، لا يقوم لدخوله أحد، وإذا تم الدرس قام في الحال وذهب إلى داره". [٧٠٣]

كذلك، فإن أغلب الزهاد في العصر المملوكيّ من العلماء والفقهاء، كانت لهم سمات وصفات تخالف سمات وصفات الشيخ الصوفيّ، ثُمَّ إن الزهد منذ بدايته إلى يومنا هذا لم يلقَ من الإنكار والاعتراض ما لقيه التصوُّف في بداياته وحتى اليوم، ما يدل على اختلاف طبيعتهما إلى درجة لا يُقبل معها أن يكون أحدهما حركةً انتقاليَّةً للآخر.

لقد بدأ التصوُّف بالشطح الفلسفة والخروج عن قوانين الشريعة، مما أدى إلى اضطهاد روَّاد التصوُّف، بينما حظي الزُّهد بالحفاوة التامة والقبول المطلق عند العامة والخاصَّة، لا سيما وأنَّه مُقرَّرٌ بنصِّ الشارِع الحكيم، الذي أمر بالزُّهد في الدنيا، والزهد فيما أيدي النَّاس.

والصُّوفيَّة الأوائل هم سبب الخلط بين التصوُّف والزُّهد، إذ أنهم في اندفاعهم لتقرير مذهبهم، وحمايتهم من المجتمع، جعلوا من أوائل الزُّهاد المسلمين روَّاداً لحركة التصوُّف الناشئة فيما بعد، مع أنَّه لم تُحفظ عن أولئك الزُّهاد شطحات،

(٧٠٣) عجائب الآثار (٢/٣٦).

من أمثال: الحسن البصري، وسفيان الثوري، وسعيد بن جبير، وهؤلاء كانوا محطّ أنظار الصُّوفيَّة الذين ما تورعوا عن نسبة ما جاءوا به من المحدثات والبدع إليهم .

يقول الدكتور عبد اللطيف الطيباوي: "أضف إلى ذلك أن الحسن البصري لم يكن صوفيّاً عريقاً، وإنما كان من زعماء المتبتلين الزهاد، ورئيساً للمجالس الجدلية الفكرية، ولم يضعه القشيريُّ في رسالته بين مشائخ الطريقة، حتى أن اسمه لم يرد في كل الرسالة سوى خمس مرات، وأما زعمهم أن التصوُّف وُجد في عهد الرسول، فاختلاق متصوفة العهد الأخير، تبريراً لأعمالهم، وإرجاعاً لها إلى عهد الرسول، واستناداً على مماشاة سنته الرضية".(٧٠٤)

لقد كان الحسن البصري من أروع الشخصيات الأخلاقية العالية، وكان مثلاً صادقاً في الطهر والصفاء ونشر الفضيلة، وكان صاحب موعظة مؤثرة، ومنطق قوي، وسلوك مثالي، ومع ذلك لم يكن الحسن البصريّ صوفياً !.

وفي الفترة التي أحسَّ الصُّوفيَّة فيها بالخطر، قاموا بوضع قواعد وتعريفات للتصوُّف، في محاولة لربطه بالزُّهد، ولم يتوقف الصُّوفيَّة عند هذا الحد من تعريف الزُّهد والكلام حوله حتى عادت لعنة الخلاف والاختلاف على مفاهيم الزهد طبقاً

---

(٧٠٤) التصوف الإسلامي العربي، د. عبد اللطيف الطيباوي (ص ٢١-٢٢).

لعادة الصُّوفيَّةِ في: (الاتفاق على الاختلاف) حول كل شيء، يقول القشيري: "أنَّ الصُّوفيَّة تكلموا في معنى الزهد، فكلٌّ نطقَ عن وقته وأشار إلى حدِّه".[٧٠٥]

وجاء الغزاليُّ ليوفِّق بين كل تلك الأقوال في الزُّهد، فأورد بعض أقاويلهم، ثم قال كالمتعب: "...وفي الزهد أقاويلٌ وراء ما نقلناه، فلم نرَ في نقلها فائدة، فإن من طلب كشف حقائق الأمور من أقاويل الناس، رآها مختلفة، فلا يستفيد إلا الحيرة".[٧٠٦]

وليصل الغزالي بين التصوف والزهد، قام بتقسيم الزهد إلى درجات، الأولى: زهد الخائفين من العذاب، والثانية: زهد الراغبين في الجنة، ثم جعل الدرجة العليا: الزهد فيما عدا الله، فلا يلتفت إلى جنة ولا نار، بل يستغرق في الله تعالى، ويزهد فيما عداه.[٧٠٧]

وهذا التقسيم الصوفي يُنافي الأساس الذي يقوم عليه الزهد، وهو الرغبة في الجنة، والخوف من النار، وهذا دليل آخر يؤكد الفارق بين المذهبين.

---

(٧٠٥) الرسالة القشيرية (ص ٩٤).

(٧٠٦) إحياء علوم الدين (٤/٩٧).

(٧٠٧) إحياء علوم الدين (٤/١٩٥-١٩٦).

إن الاستبداد والظلم الذي مارسه الأمويين في حق الموالي (غير العرب)، الذين كانوا يأملون بقسط كبير من الحرية والمساواة في ظل الدولة الإسلامية، بالإضافة إلى حالة الاقتتال الداخلي بين الصحابة أيام الفتنة، وزد على ذلك ما تميَّز به الموالي من التفوق في العلم والثقافة، بينما انشغل العرب بالحكم والسياسة والحرب، كل ذلك ساهم في صناعة ثورة سلبية صامتة تتمثل في حركة الزهد في الكوفة والبصرة، بينما تنعم دمشق بالحكم والثروة، ثم تمتلئ دمشق زهداً بعد تحول الثروة والحكم عنها إلى بغداد.

وظل الزهد في المجتمع الإسلامي قائماً بقيام أسبابه المتمثلة في استمرار الظلم، والملك العضود في الدولة العباسيَّة، وحتى مع تمتع بعض الموالي بوضع أفضل، إلا أن شأن الملك العضود القهر، والبطش، وسوء توزيع الثروات، وحرمان الأكثرية ومعاناتهم .[٧٠٨]

ونشطت في هذه الفترة النزعة القومية للموالي، وخاصَّة من أبناء الفرس، فأيقظ عرق الرَّدة النائم فيهم، ووجد الفرس ضالتهم في قيام الدولة العباسيَّة بمساعدتهم، فتطلعوا إلى إتمام استقلالها بالردة عن الإسلام، فكثر في العصر

---

(٧٠٨) العقائد الدينية في الدولة المملوكية (ص ٢٨).

العباسيّ الأول وجود الزنادقة، لولا أن العباسيين بقوتهم استأصلوا حركة الردة، وقضوا عليها سياسياً.

بينما التفت الفرس إلى حاضنة أخرى تُغذِّي تلك النزعة لقومية، وتتبنى حركة الكره للعرب وبخاصَّة بني أميَّة، فخلطوا كل ذلك بأغراض سياسية قومية، فواجهوا الشدة من بني العباس، إلا أن التشيُّع على أية حال قد أرسى للتصوف قواعده وأسسه التي يقوم عليها، وورث التصوُّف عقائد التشيُّع، ورسومه، ويظهر أثر الفرس في العقائد الشيعية المتطرفة في عقيدة (حقِّ الملك الإلهي)، و(حلول الله في جسد الإمام)، وعلاقة الفرس بالعرب مشهورة سواء كانت اجتماعية أم سياسية، مشهورة منذ عصور الجاهلية.[٧٠٩]

ومن الواضح أنَّ أبرز ما يتميز به العصر الأموي هو العصبيَّة الشديدة، التي تطاير شررها في المشرق؛ "فلقد كان في الأمويين نزعةٌ عربيَّةٌ شديدة، أحيوا بها شيئاً كثيراً من تراث العرب قبل الإسلام، وهذا التراث قد يكون فيه المحمود الذي لا يُذم، ولكنهم غلوا غلواً شديداً وصلوا به إلى درجة التعصُّب على غير العرب، وهضم حقوقهم، وهم في الشرع سواء مع سائر المسلمين، فلا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى، ولكن أوقع الأمويون بالموالي ظلماً شديداً، حتَّى لقد حرموهم

(٧٠٩) التصوف الإسلامي العربي، عبد اللطيف الطيباوي (ص ١٠).

حقوقهم في غنائم الجيش إذا غزوا، وخالفوا بذلك شرعة الله التي شرعها في الغنائم".[٧١٠]

وقد اشتدَّ احتقار العرب لهؤلاء الموالي والاستهانة بهم؛ فسمُّوا غير العربي أعجمياً، وابن العربي من الأَمَةِ (هجيناً!)، حتَّى إنَّ بعض هؤلاء الموالي "اعتقدوا أنَّ اعتناقهم للإسلام لم يُسَوِّ بينهم وبين العرب، ولا غرو فإن المسلمين من غير العرب قد ألحقوا بعد اعتناقهم الإسلام ببعض القبائل العربية، ليكونوا موالي لتلك القبائل، ونظر العرب الذين كانوا لا يحترمون سوى مهنة الحرب إلى هؤلاء الموالي نظرة الاحتقار، لامتهانهم طبقة العمال الذين نشأ منهم هؤلاء الموالي".[٧١١]

ومن الطبيعي أن تُقابل هذه العصبية الأمويَّة (العربيَّة) العنيفة الممقوتة، بعصبيَّة أخرى فارسيَّة من بعض الموالي، وأن تنتشر الشعوبية الفارسيَّة في تحقير العرب وذكر مثالبهم، بَيد أنَّ هذه النزعة التي حاربها الأمويون تحولت إلى دعاية ضد بني أميَّة، وجعلت الموالي يسمون في تقويض الحكم الأموي واندثاره، ولكن مع ظهور الدولة العباسية اختفت تلك الحياة العربية، والتقاليد العصبيَّة، وانتشرت في الأمَّة التقاليد العجميَّة، وعادات الموالي، وسرت في الدولة الروح العجمية،

(٧١٠) أبو حنيفة النعمان، محمد أبو زهرة (ص ٨٠).

(٧١١) تاريخ الإسلام السياسي (٢/ ١٢).

وأصيبت بعللها وعيوبها؛ فأصبح بيت المال غنيمةً لبني العباس ونظرائهم على المناطق، وأحيط الخلفاء العباسيون بجماعةٍ من الشعراء المحترفين، والندماء المتزلفين المتملقين، وفُرِّقت أموال الصدقات على غير مستحقيها بسخاء، ونشأت طبقة مترفة أقبلت على اللهو والبذخ وتبذير الأموال في الحلال والحرام، وأغدقت الهدايا والهبات بغير حساب والتي هي حقٌّ خالص للمسلمين، وأصبحت بغداد منتجعاً يعجُّ بالمجون والصفاقة وقلة الدِّين.[٧١٢]

يُضاف إلى ذلك تخفُّفه (أي التصوُّف) من أوزار السياسة وعدم الخوض فيها، فبدأ (التصوُّف) كحركة دينية عقدية أكثر برودةً وسلميَّةً من الأعاجم، الذين تتلمذوا على يد أساطين الشيعة، (فمعروف الكرخيّ) الرائد الصُّوفيّ أسلم على يد الإمام الرِّضى، وهو من مواليه، و(معروف) هو أستاذ (السري السَّقطيّ)، الذي هو أستاذ (الجنيد) الملقب بسيِّد الطائفة الصُّوفيَّة.

ثم دخلت الخلافة العباسيَّة في طور الضعف حين تحكم فيهم الأتراك، فاستفاد المتصوفة من ضعف العباسيين، فتشكلت خلايا التصوُّف من شيخ ومريدين، وتمت الاتصالات فيما بينهم في مصر والعراق والحجاز والشام عبر ما يُسمَّى (السياحة الصُّوفيَّة)، ورفعوا راية الحُبِّ الإلهي، ليستروا خبيئتهم من عقائد

(٧١٢) عبد الله بن المبارك، محمد عثمان جمال، (ص ٢٢- ٢٣).

الاتحاد والحلول، وعلى الرغم من حالة الضعف التي تعاني منها الدولة العباسية إلا أنها لم تسمح بمثل هذه العقائد، فلاحقت رواد التصوف بالمحاكمات، والنفي والاضطهاد، حتَّى اضطر الجنيد إلى أن يُعلن أنَّ طريقته منوطةً بالكتاب والسُّنَّة[٧١٣]، وفي الوقت ذاته يُدرِّس التصوُّف الحقيقي في عقر داره بين المخلصين من تلاميذه، وذلك بعد أن يقفل باب داره -ويضع المفتاح تحت وركه- خوفاً من أن يتهموه بالزندقة، ومع ذلك لم ينجُ من الاتهام بسبب كلمة قالها، مما جعله يتستر بالفقه ويختفي، وحوكم سمنون بن حمزة (ت ٢٩٧ هـ/ ٩٠٠م)، والذي شهر نفسه بـ "سمنون الكذّاب"[٧١٤] ، وذو النون المصري، وسهل التستريّ (ت٢٨٣هـ)، وبلغ اضطهاد الصُّوفيَّة ذروته بقتل الحلاج -تلميذ التستري والجنيد الذي نفر من كلامه- سنة(٣٠١هـ)[٧١٥].

---

(٧١٣) الرسالة القشيرية، (ص ٣٢).

(٧١٤) هو سمنون بن حمزة الخوّاص البصريّ، أبو القاسم الصُّوفي، صحب سرياً السقطي، ومحمد بن علي القصاب، ورسول، وكان من أصحاب مذهب الحُب الإلهي في البصرة، سكن بغداد، ومات قبل الجنيد، وكان من أبياته المشهورة التي تاب بسببها:

وليس لي في سواكَ حظٌّ ... فكيف ما شئتَ فامتحنِّي!

فابتُلي بعُسر البول، فجعل يطوف على مكاتب الصِّبيان، يقول لهم: "ادعوا لعمِّكُم الكذَّاب"!.

[انظر: تاريخ بغداد: ٩/ ٢٣٤- ٢٣٧، وحيلة الأولياء: ١٠/ ٣١٠**]**.

(٧١٥) الطبقات الكبرى للشعراني (١٠، ١٣-١٤).

ويحكى أنه بعد سجن الحلاج بمدة، جاءه رسول من ابن عطاء يرجوه الرجوع عن قوله في اعتقاد الحلول (وهي عقيدة القرامطة الذين اتصل بهم، وكانت له معهم مراسلات)؛ لكي ينجو من القتل، فرفض كما رفض سقراط الهرب من السجن، فبكى ابن عطاء، وقال: "لقد ضاع الحلاج"[٧١٦].

ويبدو أن الحلاج كان ميالاً في بدايات حياته إلى الاتجاه الشيعي، ولعل ظروفه الأسرية قد دفعته إلى ذلك، حيث أن زوجته أم الحسين بنت أبي يعقوب الأقطع البصري دفعته إلى ذلك، وكانت زوجته من جماعة (الكرنبائيين)، وهي الجماعة التي كانت تحت إمرة بني مجاشع الشيعية.. ومن الملاحظ أن أنصار الحلاج جلهم من النصارى، وبعضهم ممن أسلم حديثاً، وكانوا ينتمون في أصل نشأتهم إلى أصل إيراني أو آرامي[٧١٧].

ولذا نجد أنَّ الشيعة بالغوا في الثناء على "الحلاج"، وجعلوه مثلاً للإنسان المستضعف والثائر أيضاً في عصر الجبابرة والطواغيت –بحسب زعمهم–!، حتَّى جاء في آخر الزمان روح الله بن (المقتول) مصطفى الموسوي الخُميني القُمِّي (أستاذ العصر في العرفان)!، ليعيد إلى التصوُّف بريقه ولمعانه، بعد أن تلقَّاه على

---

(٧١٦) التصوف الإسلامي العربي، عبد اللطيف الطيباوي (ص ١٦٢).

(٧١٧) التصوف الإسلامي، د. فيصل عون (ص ١٦٣، ١٦٥).

يدِ الصُّوفيّ الإمامي (العارف الكامل) محمد علي بن ميرزا الشاه آبادي الأصفهاني (ت١٣٣٤/ ١٩١٦م).

والإمامِيّ الصُّوفيِّ العارف آقا محمد رضا القمشه، الذي وضع مقدِّمة لشرح فصوص ابن عربي، والصُّوفيّ خواجه عبد الله الأنصاري!![٧١٨] .

وفي عهد الدولة الصَّفويَّة برز صوفيَّة شيعةٌ آخرون، مثل الشيخ محمد باقر (ت ١٦٣١م)، والقاضي سعيد الكومي (ت ١٦٦١م)، والملا صدر الشيرازي (ت ١٠٥٠هـ/ ١٦٤٠م)...[٧١٩]

والذي سعى في قتل الحلاج هو الوزير الكبير أبو الفضل حامد بن العبَّاس الخراساني (ت ٣١١هـ)، وزير المقتدر، وكان رجلاً ديِّناً، صالحاً، كثير النفقات، قال عنه الذَّهبيُّ: "وَلِحَامِدٍ أَثَرٌ صَالِحٌ فِي إِهلاَكِ حُسَيْنٍ الحَلاَّجِ يَدلُّ عَلَى إِسْلاَمٍ وَخَيْرٍ".[٧٢٠].

---

(٧١٨) مصباح الهداية إلى الخلافة والولاية، الخميني (ص ٨- ٩، ٤٥).

(٧١٩) الطرق الصوفية في الإسلام، سبنسر ترمنجهام (ص ١٥٩).

(٧٢٠) سير أعلام النبلاء، محمد بن الحسين الذهبي (١٤/ ٣٥٦).

يقول الكاتب الإيراني محمد جواد جوهري: "إن الصُّوفية قد قاسوا طويلاً من المحن والفتن، التي انجروا إليها من خلال شطحات ودعاوي أظهروها، ممّا هدى أصحاب السياسة الشرعية إلى ما يجري في بواطنهم؛ فأخذوهم أخذاً ذريعاً، وأصدق شاهدٍ على هذا مصير الحلاج المُفعم بالعظات والعبر لمن خلفوه من متصوفة، وغيرهم، ولربما تنصل عددٌ غير قليلٍ من الصوفية عن الشطح، حذر التورط فيما تُخشى عواقبه، ومنهم من مارسوا الشطح بعد بذل غية جهده أن يتملص شطحه من المحركات الإثارية، وهم يكتمون في أنفسهم نفس الأشياء التي طفت على لسان الحلاج، وهم يتأسفون لذلك النكال المؤلم الذي أُذيقه الرجل! فهذا هو حافظ الشيرازي لا يُعرف له جريمةً غير إفشاء الأسرار الإلهية، بيد أن هذا كله لا يفي دلياً مبرراً حتى لدى الصوفية أنفسهم؛ لأن يبوحوا بمثل هذه الأسرار!!" (٧٢١).

ولا يزال الجنيد زعمياً للمعتدلين من الصُّوفيَّة بسبب ما اشتهر عنه من إعلان تمسكه بالكتاب والسُّنِّةِ، حتى من أنكر على الصُّوفيَّة بعد ذلك، خدعته أقوال الجنيد التي قالها تقيةً، حتَّى أن ابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ) اعتبره حُجَّةً على

(٧٢١) تصوف الشيعة، نظرة إلى حياة السيد حيدر الآملي (ص: ١٠١).

الصُّوفيَّة(٧٢٢) في عصره الذين أعلنوا عن عقيدتهم الحلولية والاتحادية، على أن الجنيد كان ينهى مريديه عن صحبة العلماء أو الأخذ عنهم، فكان يقول: " المريد الصادق غنيٌّ عن علم العلماء، وإذا أراد الله بالمريد خيراً، أوقعه إلى الصوفية، ومنعه صحبة القراء"(٧٢٣).

ومع ذلك فإن الجنيد حفظ عنه بعض الأقوال القليلة التي تشي بعقيدته الحقيقية التي امتنع عن إظهارها خوفاً على نفسه، فهو يرى أن العارف الصُّوفيّ هو: "من نطق عن سرِّك، وأنت ساكت"(٧٢٤)، أي يعلم ما في سريرتك، وما تخفيه في صدرك، فسنَّ للصُّوفيَّة ادَّعاء الكشف أو علم الغيب، ولما سُئل عن مصدر هذه الأقوال، فأجاب: "أنها من جلوسه بين يدي الله ثلاثين سنة، أسفل تلك الدرجة، وأومأ إلى درجة ـسُلَّمـ في داره"(٧٢٥)، فأرسى مقولة العلم اللدُّنيّ والوحي، وهذا يُقرِّر أنَّ مسيلمة الحنفيّ ليس وحده الكذَّاب!!.

(٧٢٢) تلبيس إبليس، (١٥٨، ١٦٢).

(٧٢٣) طبقات الشعراني (١/٨٤).

(٧٢٤) الرسالة القشيرية، (ص ٣١).

(٧٢٥) الرسالة القشيرية، (ص ٣٢).

فالتصوُّف المعتدل لا يختلف عن ادعاءات مسيلمة وأصحابه في قضايا الوحي والنبوة، والفارق الوحيد أن مسيلمة جاء في عصر قوة المسلمين، بينما جاء الجنيد في عصر الوهن والضعف الذي اعترى الدولة العباسيَّة، في ظل قوة الشَّعوبيَّة وتدهور العرب، حتى أن مصرع الحلاج زعيم الصُّوفيَّة المتطرفين لم يمت إلا بدوافع سياسية أكثر منها دينية، وذلك بعد محاكمة زادت على العشر سنوات!.

وبمرور الزمن تغيَّرت الظروف لصالح الصُّوفيَّة، فتضاءل الإنكار عليه، وزاد انتشاره، وبدأ يأخذ دوره في اضطهاد خصومه من الفقهاء، فتبدلَّت الآية، وبدأت دورة أخرى من دورات الصراع الديني.[٧٢٦]

ومن خلال العرض السَّابق، يمكننا إجمال العوامل التي أدَّت إلى ظهور التصوُّف ونشأته، وساعدت على تطوُّره ونمائه، وهي كما يلي:

١ . الظروف السياسية المضطربة، والتي كان لها دورٌ كبير في نشأة التصوُّف وتطوره، فالفتن الداخلية التي بدأت بمقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفّان، ومن ثمَّ الاقتتال بين الصحابة (علي ومعاوية)، وما نتج عنها من الفرق المختلفة والمتناحرة، وتمكن الأمويين –بعد ذلك– من استلام زمام قيادة الأمة الإسلامية،

(٧٢٦) العقائد الدينية في الدولة المملوكية (ص ٣٢).

مع انتشار حركة الفتوحات في البلدان، ودخول العجم في الإسلام، والاستبداد الكبير الذي مارسه الأمويون في الحكم، واستئثار العرب بالأموال والمتاع دونهم، ونشاط الفكر الفلسفي في المجتمع لشرقي، كل ذلك أدى إلى إيثار بعض الموالي لحياة العزلة، مع إضمار الكراهية الشديدة لبني أميَّة، والعرب من ورائهم، مع الرغبة في العودة إلى أديانهم القديمة .[٧٢٧]

٢. الظروف الاقتصادية الصعبة التي عاشها الموالي في ظل الدولة الأموية، ولا سيما عندما يرى المعدم المال والنعمة في يد غيره، مع شعوره بالحرمان، ما يجعل من التصوُّف ملجأً لكثير من المضطهدين والمحرومين، الذين حُرموا من نعيم الدنيا ومتاعها، لعلَّهم يظفرون بنعيم الآخرة .[٧٢٨]

٣. التأثر الكبير بالفلسفة الأفلاطونية اليونانية المحدثة، وكان أرسطو – تلميذ أفلوطين– يترأس هذا النوع من الفلسفة عند المسلمين، وقد ترجمت كتبه إلى العربية، وأشدها تأثيراً في حياة المتصوفة كتابه المدعو (**Theology of Aristotle**)، وكذلك كتابات ديونيسيوس (**Dionysius**) الذي تنصر على يد بولس، ذات تأثير كبير أيضاً، حتى قيل: "كان ديونيسيوس معروفاً من دجلة إلى

---

(٧٢٧) التصوف في مصر والمغرب، جاد الله (ص ١٢٣).

(٧٢٨) انظر: معيد النعم ومبيد النقم، التاج السبكي (ص ١١٩).

المحيط الأطلسي"، واستفاد الصُّوفيَّة من هذه الكتابات، التي تعد مصدراً للاهوت الصوفي في المسيحية، وخاصّة ذو النون المصريّ الذي استقى منها نظريات الإشراق أو الفيض (Emanation) والمعرفة الصُّوفيَّة، والتي تمثل (الفلسفة الصُّوفيَّة) بأبعادها العقدية والوجدانية... ولا يستطيع رجال الصُّوفيَّة –والبراهين واضحة على اختلاطهم بل وانغماسهم في تلك الثقافات والفلسفات– أن يخرجوا منها سالمين، إلا أن يأتوا بمعجزة تثبت عكس ذلك، والمعجزات (الصُّوفيَّة) في البحث العلمي مرفوضة!!.[٧٢٩]

ومن خلال تتبع بعض أقوال المتصوفة في المعرفة نجد أن الفلسفة حاضرة لا يمكن استغفالها أو استبعاد تأثيرها، وذلك في مثل قول معروف الكرخي: "التصوُّف معرفة الحقائق الإلهية".

وكذلك الرأي القائل بأن الكون سائر على نظام النور والظلام، فيرى أن المعرفة: "هي التحرر من ربقة الظلام"، وصولاً إلى النور الذي يمثل الحقيقة الراهنة، ونجد ذلك في اعتقاد الرفاعية بـ(الحجب السبعين الوهميَّة!) التي تحجب الله عن عالم المادة، وهي منقولة عن نظرية المعرفة أيضاً (تمر الروح أثناء دخولها جسم الإنسان في هذه الحجب، نصفها الداخلي –الحجب– نور، ونصفها الخارجي

(٧٢٩) التصوف الإسلامي العربي (ص ٣٨– ٣٩).

ظلام، وكلما مرت هذه الروح في منطقة ظلام تكونت (خصلة إنسانية)، وإذا مرت في منطقة نور تكونت (خصلة آلهة)...[٧٣٠]

٤ . التأثر الكبير بالرهبنة المسيحية (النصرانية)، حيث تلقى المتصوفة بعض علومهم عن رجال النصرانية ورهبانها، وأخذت آيات من الإنجيل تظهر في أقوالهم، وذكر ابن العماد في (شذراته) عن أبي نصر السرّاج الطّوسي، شيخ الصوفية، وصاحب كتاب (اللمع في التصوف) أنه قال: خرجت مع أبي عبد الله الرّوذباري (ت ٣٦٩هـ) لنلقى أنبليا الراهب بصُوْر، فتقدمنا إلى ديره، وقلنا له: ما الذي حبسك هاهنا؟ قال: أسرتني حلاوة قول الناس لي يا راهب!.[٧٣١]

وكانت أديرة (حران) و(الرها) صلة الاتصال بين المسلمين والثقافة اليونانية، ويعتقد كثير من الباحثين أن لباس الصُّوف، ونذور الصمت، وحلقات الذكر كل ذلك من أصل نصراني.

وأما الأثر المهم الذي تركته النصرانية في حياة التصوّف فهي (نظرية الحُب الإلهي)، وخذ لذلك مثلاً قصَّة المسيح أنه مرَّ بثلاثة نحلت أجسامهم، واصفرت

(٧٣٠) التصوف الإسلامي العربي (ص ٤٠).

(٧٣١) شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ابن العماد الحنبلي (٤/٤١٣).

وجوههم، فسألهم عن حالهم تلك، فأجابوه "خوفاً من النار"، فقال: إنكم لتخافون شيئاً مخلوقاً، وخليقٌ بالله أن يُخلِّص من يخشاه. ثم مرّ بثلاثة آخرين أشد ضعفاً من الأولين وأكثر اصفراراً، فسألهم عن حالهم، فأجابوه: "شوقاً إلى الجنة"، فرد عليهم: رغبتم في شيء مخلوق، وجدير بالله أن يمُنَّ على من يرجوه، وأخيراً مرَّ على ثلاثة في غاية النحول والاصفرار، فسألهم عن حالهم، فأجابوا: "محبة في الله"، فهتف المسيح: "أنتم أقرب الناس إلى الله(٧٣٢)، وهو عين ما نسبة الصُّوفية إلى زاهدة البصرة "رابعة العدوية" فزعموا أنها قالت: "لم أعبدك شوقاً إلى جنتك ولا خوفاً من نارك، وإنما عبدتك حُبَّاً فيك"(٧٣٣).

٥. التأثر الكبير بالفكر الشيعي الرافضي، ويظهر ذلك من خلال عقيدة (الأقطاب) الشيعية، وقد أصاب ابن خلدون حين قال بعد أن نقل رأي ابن سينا في تعاقب الأقطاب كتعاقب البقاء عند الشيعة: "حتى أنهم –المتصوفة– لما

(٧٣٢) التصوف الإسلامي العربي (ص ٣٧–٣٨).

(٧٣٣) يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "ومن قال من هؤلاء: لم أعبدك شوقاً إلى جنتك ولا خوفاً من نارك، فهو يظنُّ أن الجنَّة اسمٌ لما يُتمتعُ فيه من المخلوقات، والنَّارُ اسمٌ لما لا عذاب فيه إلا ألم المخلوقات، وهذا قصورٌ وتصيرٌ منهم عن فهم مُسمى الجنة، بل كُلُّ ما أعدَّه الله لأوليائه فهو من الجنة، والنظر إليه من الجنة، ولهذا كان أفضل الخلق يسأل الله الجنَّة، ويستعيذ به من النار".
[انظر: شرح حديث تفري الكروب، ص: ٢٢ –٢٣].

اسندوا لباس الخرقة ليجعلوه أصلاً لطريقتهم رفعوه إلى عليٍّ ﷺ، وهو من هذا المعنى –أي تقليد الشيعة– وإلا فعليٌّ لم يختص من بين الصحابة بتخلية أو طريقة... وإن هؤلاء المتأخرين من المتصوفة المتكلمين بالكشف وفيما وراء الحس توغلوا في ذلك، فذهب (الكثيرون) إلى الحلول والوحدة، وملئوا الصحف من مثل ابن عربي وابن الفارض... ثم خالطوا الإسماعيلية المتأخرين من الرافضة الدائنين أيضاً بالحلول وإلهية الأئمة مذهباً لم يُعرف لأولهم، فأشرب كل واحد من الفريقين مذهب الآخر، واختلط كلامهم، وتشابهت عقائدهم، وظهر في كلام المتصوفة (القطب) ومعناه رأس العارفين، ويزعمون أنه لا يساويه أحدٌ في مقامه في المعرفة، حتى يقبضه الله، ثم يورث مقامه لآخر من أهل العرفان"[٧٣٤].

٧٣٤() المقدمة، ابن خلدون (ص ٣٩٢–٣٩٤).

المبحث الرابع

انتشار التصوُّف في العالم الإسلامي

وحتى نضع الأمور في نصابها، فإن التصوُّف الديني ظهر في مجتمع إسلاميٍّ محافظ، يرفض المساس بالمبادئ، أو التعرُّض لأسس الدين وقواعده، فواجه الكثير من العنت، شأنه في ذلك شأن المرتدين، فقتل الحلاج لأنه أعلن عقيدته صراحة، فاضطر الآخرون إلى إيجاد نوع من الموائمة بين عقيدتين (الإسلام والتصوُّف)، فاخترعوا لذلك توحيداً خاصَّاً، يبدأ (بتوحيد العوام)، ويقصدون به الإسلام، وينتهي (بتوحيد الخواص)، ويعنون به وحدة الوجود، على أن بعض الباحثين يرى التفريق بين عقائد الاتحاد والحلول ووحدة الوجود، فيقولون: أنَّ الاتحاد هو صعود العبد إلى الله، والحلول هو نزول بالألوهية إلى العبد، بينما يتوسع أصحاب وحدة الوجود، فيجعلونها حقَّاً لكل البشرِ بل وللجمادات أيضاً، فهي –على حد تعبيرهم– صورٌ يتراءى فيها الخالق في خلقه.(٧٣٥)

يقول ابن الجوزيّ: "أول من تكلم في بلدته عن ترتيب الأحوال ومقامات أهل الولاية، ذو النُّون المصريّ، فأنكر عليه ذلك عبد الله بن الحكم، وكان رئيس

(٧٣٥) العقائد الدينية في الدولة المملوكية (ص ٤٩).

مصر، وكان يذهب مذهب مالك، وهجره لذلك علماء مصر لما شاع خبره أنه أحدث علماً لم يتكلم فيه السَّلف حتى رموه بالزندقة". ووشى به أهل مصر إلى الخليفة؛ فحُمل إلى خليفة بغداد في جماعةٍ مغلولاً، فسجنهُ مُدَّةً، ثُمَّ قُدِّمَ للقتل، فأظهر توبته، فتركه الخليفة !، روى صاحب الأنفاس أن يوسف بن الحسين الرازي (ت ٣٠٤ هـ) دخل على شيخه ذو النون المصريِّ، فقال: ما يقول النَّاسُ (أهل إخميم) فيَّ؟، قال: يقولون "زنديق" [٧٣٦].

ويرى (أوليري): أن التصوُّف بدأ بتكوين عقائده وفلسفته منذ عهد ذي النون المصري، وانتهى هذا الدور بقيام جلال الدين الرومي، وأما ما جاء بعد هذه الفترة، فشرحٌ وتعليق لا غير[٧٣٧]، أو بعبارة أدق هو نزاعٌ وعراكٌ مع أهل السنَّة والجماعة.

وقال السُّلمي: وأُخْرِجَ أبو سليمان الداراني (ت ٢١٥هـ) من دمشق، وقالوا: إنه يزعم أنه يرى الملائكة، وأنهم يكلمونه.

---

(٧٣٦) شرح رجال الأنفاس الروحانية (ص ٣١).

(٧٣٧) التصوف الإسلامي العربي، عبد اللطيف الطيباوي (ص ١٥).

وشهد قومٌ على أحمد بن أبي الحواري: أنه يُفضِّلُ الأولياء على الأنبياء، فهرب من دمشق إلى مكة.

وأنكر أهل بسطام على أبي يزيد البسطامي ما كان يقوله، حيث أنه ذكر للحسين ان عيسى أنه يقول: لي معراجٌ، كما كان للنَّبيِّ ﷺ معراج، فأخرجوه من بسطام، وأقام بمكة سنتين، ثم رجع إلى جرجان...

وحكى رجلٌ عن سهل التستريّ أنه يقول: أن الملائكة والجن والشياطين يحضرونه، وأنه يتكلم عليهم، فأنكر ذلك عليه العوام حتى نسبوه إلى القبائح، فخرج إلى البصرة، ومات فيها... وتكلَّم الحارث المحاسبيُّ في شيء من الكلام والصِّفات (يعني في الاعتزال، وخلق القرآن)، فهجره أحمد بن حنبل، فاختفى إلى أن مات.(٧٣٨)

وكان للمحاسبيِّ دورٌ كبير في تطوير اللغة الفنيِّة لدى الصُّوفيَّة، وذلك بفضل دخوله في علم الكلام والفلسفة، واعتناقه لمذهب لاعتزال.

ولما سئل أبو زرعة عبيد الله بن عبد الكريم الرازي (ت ٢٦٤ هـ) رحمه الله –تلميذ الإمام أحمد– عن كتب الحارث المحاسبي؛ فقال: إياك وهذه الكتب!

---

(٧٣٨) تلبيس إبليس (ص ١٦٢،١٦١).

فقيل له: فيها عبرة، فقال: من لم يكن له عبرةٌ من كتاب الله ﷻ، فليس له في هذه الكتب عبرة[٧٣٩]. وفي رواية: "إياك وهذه الكتب، هذه كتب بدع وضلالات، عليك بالأثر تجد غُنيَة، هل بلغكم أن مالكاً والثوري والأوزاعي صنَّفوا في الخطرات والوساوس، وهذه الأشياء؟ هؤلاء (يعني الصوفية) قومٌ خالفوا أهل العلم، يأتوننا مرة بالحارث المحاسبي، ومرة بعبد الرحيم الدبيلي، ومرة بحاتم الأصم، ومرة بشقيق، ثم قال: ما أسرع النَّاس إلى البدع!".[٧٤٠]

وأخذ التستريّ عن خاله محمد بن سوَّار البصري الصُّوفيِّ، والتقى بذي النُّون المصري،

واستطاع الجنيد وتلامذته الحفاظ على رمق التصوُّف الذي عاش وسط النفوذ الحنبلي الذي سيطر على الخلافة العباسيَّة منذ عهد المتوكل العباسيّ، ما مكنهم من اضطهاد الشيعة والصُّوفيَّة وأهل الكتاب، ثم ضعفت قبضة الخلافة العباسية، وتفرَّقت إلى ولايات مختلفة، وتكاثر الأمراء والمتغلبون داخل بغداد

---

(٧٣٩) تلبيس إبليس (ص ١٦٧). وانظر: الآداب الشرعية؛ لابن مفلح (٢/ ٨٨).

(٧٤٠) انظر: ترجمة المحاسبي في: طبقات الصوفية للسلمي (ص ٥٨)، والحلية (١٠/ ٧٣)، وتاريخ بغداد (٨/ ٢١١)، وفيات الأعيان (٢/ ٥٧)، البداية والنهاية (١٠/ ٣٤٥)، سير أعلام النبلاء (١٢/ ١١٠)، وانظر: تاريخ التصوف؛ لقاسم غني (ص ٦٢٢)، وتلبيس إبليس (ص ٢٠٦).

وخارجها، وانتشرت الاضطرابات السياسية، وازداد الظلم، وبنفس القدر ازداد أتباع التصوُّف، وكثرت مدارسهم، وتشابكت وسائل الاتصال بينهم عبر الأقطار، فازدهرت السياحة الصُّوفيَّة تنشر المبادئ، والأفكار، والأخبار، والمنامات والكرامات، وتجتذب طوائف العوام، وأصبح المتغلب على الحكم في الدويلات والولايات يضيق بالفقيه الحنبلي الذي يقول هذا حلال وهذا حرام، وأضحى يميل إلى الشيخ الصُّوفيّ الذي يحرق له البخور، ويرى كل الأفعال (صالحة أو طالحة) مصدرها من الله، ولا سبيل للاعتراض عليها، بالإضافة إلى محاولة جعل التصوُّف حليفاً مخلصاً بعد أن عانى من ويلات الدولة العباسية، ومن هنا بدأ التحالف بين الصُّوفيَّة والحكام، ونما تيار التصوُّف برعاية الحكام والأمراء الجدد.

وكانت هذه هي الفرصة الذهبية أمام العوام الراغبين في نيل حظوة عند الأمير أو الحاكم الجديد، فدخل كثيرٌ منهم في التصوُّف ليصيروا شيوخاً، بدون تعب في طلب العلم الظاهر، وإنما بمجرد ادعاء الولاية، وترديد أقوال الشطح وعقائد التصوُّف، واستمر الأمر على هذه الحالة، على أنهم لم يعدموا منكراً عليهم، وعلى أفعالهم وأقوالهم، إلى أن جاء الغزاليّ الذي هزم الفقهاء والمتكلمين، وأعلن عن التصوف مذهباً إسلامياً صرفاً، وما بين (تُقية) الجنيد، ونفاق الغزالي نجح التوفيق بين الإسلام والتصوُّف بطريقة تفتقر إلى المصداقية أو العدل والإنصاف.

وكان الجنيد، وهو (رأس الطائفة الصُّوفية)، مع الغزالي الذي يُعدُّ (حجَّة الصُّوفية)، هما أبطال هذه المرحلة من مراحل التاريخ الديني للعقيدة الصُّوفيَّة، ثُمَّ تقرَّر التصوُّف مذهباً إسلامياً على يد الغزالي، وتحول الإنكار، من إنكار على التصوُّف كمبدأ إلى إنكار على الصُّوفيَّةِ المنحرفين، فبعد أن اكتملت العقيدة الصوفيَّة الأساسيَّة في (وحدة الوجود) في مؤلفات ابن عربي، شيخ الصُّوفيَّة الأكبر، واجه أتباع ابن عربي كثيراً من الإنكار، وأحرقوا كتابه (الفصوص) أكثر من مرة، ودمروا قبره مرات، وأعيد بناؤه مرات، ومع ذلك تزايد أتباعه، وكثرت الشروح على الفصوص، بمثل ما حظي به سابقه (إحياء علوم الدين) للغزالي... وبذلك تهيَّأ بذلك الجو للمرحلة الثانية، وهي مرحلة التوسُّع والانتشار، بعد أن استقرَّ في الأذهان أنه لا تعارض بين الإسلام والتصوُّف، وعزل متطرفي الصوفية عن الحياة الدينية، ونستطيع أن نقول: لقد حصل التصوف على أكثر مما يحلم به، وهو يرتدي زيَّ الإسلام في تلك الحقبة، وأيُّ محاولةٍ لنزع هذا الزي أو خلعه ستفقده الكثير من الأتباع، وربما يندثر ويصبح أثراً بعد عين... ولعلَّ عنوان هذه المرحلة الأبرز هو تحويل قائد الإسلام وشعائره إلى مظاهر صوفيَّة بحتة، ليس للإسلام فيها إلا مجرد الاسم والشكل، وإذا ضاع الشكل الإسلامي الذي ينخدع به الكثيرون، ضاع على التصوُّف تحقيق مكاسب حققها في قرون، وناضل في سبيلها أعيان الصُّوفيَّة،

ولذلك نجد تمسكاً كبيراً بالشكل الإسلامي، الذي مثَّل الإطار الجامع في هذه المرحلة.

ولا يخفى ما وصولاً إلى المرحلة الثالثة (في العصر المملوكي) وهي التحلل اسماً وفعلاً من الإسلام، على يد بعض الصُّوفيَّة، الذين ادَّعوا النبوَّة، أو الإلهية، وطافوا البلاد دعاةً لنحلتهم، وقد أتيح للشرك أن ينتصر تحت رداء التصوُّف، بل وأن يفرض عقيدته (وحدة الوجود) في دولةٍ تدين بالإسلام رسمياً، ومعلومٌ أن وحدة الوجود أكثر أنواع الكفر والشرك تطرفاً.

ولقد عاد الشِّركُ بصورته الأولى إلى دورته الثانية، ليحتلَّ مدن العالم الإسلاميّ باسم التصوُّف، وأعني بذلك زمن انتشار هذا الوباء في العصر المملوكي، حيث الحملة الشرسة التي شُنَّت على العلماء والفقهاء، وحالة الاضطهاد المزرية على كل من أنكر عليهم، ومن العوامل التي ساعدت على انتشار التصوُّف في تلك الحقبة، بالإضافة إلى حال الضعف التي عانت منها الدولة العباسية:

١. دخول الصُّوفيَّة وانتظامهم في المسلك الفقهي، ما أتاح لهم الفرصة في التدريس والكتابة وشرح المذاهب الفقهية، مع التنافس والتصارع الشديدين ضد علماء المذهب في المسائل التي تخالف أصول المذهب وقواعد الدين.

٢. إهمال العلماء للجانب الرُّوحي والعامل القلبيّ في الشروح والمصنفات الفقهية، ما جعل نظرتهم قاصرةً على استقراء الحركات الظاهرية في العبادات، في حين أنهم تركوا هذا المجال للصوُّفية ليعبثوا فيه، ويمارسوا دورهم في بثِّ العقائد المنحرفة بين جماهير المسلمين، والعوام من البسطاء وجُهَّال النَّاس.

٣. الهبوط الحاد في الاتجاه العلمي النقدي، وتقاعس الحركة التنويرية العقلانية بين عموم المسلمين، والتي يفترض أن تناقش ادعاءات التصوُّف الخرافية، بالجدل، والمنطق، والقواعد الأصولية، والفقهية، ونصوص الكتاب والسُّنَّة.

٤. إسقاط العقل تبعاً لعمليات إسقاط الفلسفة العقلانية، والتي خاض الغزاليُّ الشوط الأكبر في محاولة التصدِّي لها، مما ساعده على كسب تعاطف العامَّة، والتفافهم من حوله، فلم يعد في السَّاحة إلا الغزاليّ والتصوُّف، والاتجاه الذوقي طريقاً المعرفة، وانتهت الأمور إلى أن قام الغزاليّ بقفل باب الاجتهاد، وحجر على العقل مناقشة الادعاءات الصُّوفيَّة، وقرَّر الصُّلح بين الإسلام والتصوُّف في كتابه "الإحياء"، والذي بعثر فيه –وبمهارة– عقائد التصوُّف، وسط أكوامٍ من الأحاديث الموضوعة، بعضها كما يقول العراقيّ: "لا أصل له"، وربما كانت للغزاليِّ يدٌ في وضع بعضها، ثم يترقي في مراتب تأويل الآيات للوصول إلى حالة مقبولة من تشريع التصوُّف أو تصويف الشريعة.

ولا شك أن للغزالي أسلوبه الوجداني العاطفي في الموعظة والرقائق، التي ربما كان صادقاً مخلصاً في أدائها، وكان لها تأثيرها الواضح في عقائد النَّاس وأفكارهم، وجذب عقول الفقهاء والكبار، وكان كتاب "الإحياء" منهجاً جديداً للفقه أبهر بشموليته واتساعه كبار الفقهاء؛ ليشمل فقه الباطن وعلومه من الخطرات والوساوس والرياء والإخلاص، إلا أن بين هذه الموضوعات البريئة تكمن عقيدةٌ صوفيَّة متناثرة، تختبئ بين السطور، وتختلط بالعناوين البراقة والمتوهجة، مثل: التوكل، والزهد، والحب إلخ!.

٥. انفتاح الصُّوفيَّة على العوام وترغيبهم في التصوُّف عن طريق إقامة حفلات السَّماع والطرب، ولا تزال هذه الطريقة فعَّالةً في جذب الكثير من النَّاس إلى حلق التصوُّف، يقول ابن الجوزي: "والتصوُّف طريقةٌ كان ابتداؤه الزُّهد الكُلِّي، ثُمَّ ترخَّص المنتسبون إليها بالسَّماع والرَّقص، فمال إليهم طلاب الآخرة من العوام لما يُظهرونه من الزُّهد، ومال إليهم طلاب الدُّنيا لما يرون عندهم من الراحة واللعب"(٧٤١).

٦. عدم اشتراط العلم في مجال التصوُّف، ما أدى بالكثرة الكاثرة من عوام المسلمين إلى الانخراط في صفوف الصُّوفيَّة، بل إنهم وقفوا موقفاً مُعادياً من العلم

---

(٧٤١) تلبيس إبليس، ابن الجوزي (ص ١٥٥).

وأهله، وزعموا أنهم مختصُّون بالعلم اللدُّنّيّ الذي يأتي من الله بلا واسطة، أو تعب، أو مذاكرة، وسهَّل هذا الادِّعاء على كثير من النَّاس سلوك هذا الطريق، وأتاح الفرصة لعدد غير قليل ادِّعاء الكرامات والمشاهدات، والاتصال بالخضر، والتلقي عنه.

٧. المرونة الكافية التي اتصف بها أساطين التصوُّف، والتي تمكنوا من خلالها من تحويل غضب الرأي العام ضد شطحات الصُّوفيَّة إلى غضب ضدَّ أشخاصٍ مُعيَّنين، بل ومتفرقين من الصُّوفيَّة!، مع عدم المساس بمبدأ التصوُّف ذاته.

أضف إلى ذلك محاولات بعض شيوخ التصوُّف انتقاد صوفيَّة عصره، واتهامهم بكل نقيصة؛ ليدافع عن مبدأ التصوُّف ذاته، وأذكر منهم القشيريّ، الذي يقول في رسالته: "إنَّ المحققين من هذه الطائفة –الصُّوفيَّة– انقرض أكثرهم، ولم يبقَ في زماننا هذا من الطائفة إلا أثرهم... مضى الشيوخ الذين كان بهم اهتداء، وقلَّ الشباب الذين كان لهم بسيرتهم اقتداء، وزال الورع واشتد الطمع، وارتحل عن القلوب حرمة الشريعة، فعدُّوا قلة المبالاة بالدِّين أوثق ذريعة، فاستخفوا بأداء العبادات، وركضوا في ميدان الغفلات، وركنوا إلى اتباع الشهوات، وقلت مبالاتهم بتعاطي المحظورات... ثُمَّ لم يرضوا بما تعاطوه من سوء هذه الفعال، حتى أشاروا إلى أعلى الحقائق والأحوال، وادعوا أنهم تحررا عن رق الأغلال، وتحقَّقوا بحقائق

الوصال... وأنهم كوشفوا بأسرار الأحديَّة، واخُتِطفُوا عنه بالكليَّة، وزالت عنهم أحكام البشريَّة"إلخ.

وهكذا نجد أنَّ القشيري يرمي مُعاصريه في القرن الخامس بكلِّ نقيصة، من أهمالهم الفرائض، إلى ادِّعائهم الألوهيَّة (الحلولية)، ثُمَّ يتحدَّث عن الأسباب التي دفعته إلى ذمِّ صوفيَّة زمانه، فيقول: "وما كنت لأبسط لسان الإنكار إلى هذه الغاية، غيرةً على هذه الطريقة أن يُذكر أهله بسوء، أو يجدُ مخالفٌ لثلبهم مساغاً، ولكن البلوى في هذه الديار بالمخالفين لهذه الطريقة والمنكرين عليها شديدة...فعلقت هذه الرسالة إليكم!".[٧٤٢]

ومن خلال كلام القشيريّ، نجد أن الباعث الأساس على تأليف (الرسالة)، بل وذم معاصريه من الصُّوفية، هي حركة الرفض العارمة التي داهمت التصوُّف بشيوخه ومريديه، وذلك لسوء سيرتهم، وانحراف مسلكهم، ولولا ذلك ما أطلق لسانه في صوفيَّة زمانه الذين يعتبرهم خارجين عن أصول وقواعد ومبادئ التصوُّف!.

ومع ذلك، فإننا نجد في الرسالة من أقوال الشيوخ المعتدلين ما يهدم التصوُّف، ويجعله نقيضاً للإسلام.

---

(٧٤٢) الرسالة القشيرية، (ص ٤-٥).

وصارت لغة الاتهام والذم للصوفيَّة المعاصرين هي سُنَّةٌ مُتَّبعة عند الشيوخ الجُدد، وفي المقابل نجد أنهم يشيدوا بمن سبقهم، حفاظاً على مبدأ التصوُّف، وليواجهوا إنكار الفقهاء –الأعداء التقليديين للمتصوفة –بإنكار مثله، ولو كان شكليَّاً غير حقيقيّ!

وعلى نفس الطريقة سار الغزاليّ (ت ٥٠٥هـ)، فأنكر على صوفيَّة عصره! [٧٤٣]، بل امتد انكاره ليطال الزهاد والعلماء، والعُبَّاد عامَّة، والفقهاء خاصَّة، وأصحاب الحديث، وعلماء الكلام، والنحاة على وجه الخصوص.[٧٤٤]

ومع ذلك، فالغزالي يُقرِّرُ عقيدة الصُّوفيَّة في الاتحاد والعشق الإلهي، ويستدل بتأويلات باطنيَّة للنُّصوص، ويدعِّمها بشطحات من سبقه من الصُّوفيَّة [٧٤٥].

وحتى السهروردي (ت ٦٢٨هـ) صاحب (حكمة الإشراق) أنكر على صوفيَّة عصره، فيقول: "ثُمَّ إنَّ إيثاري لهدي هؤلاء القوم، وحداني أن أذبَّ عن هذه العصابة بهذه الصبابة، وأؤلف أبواباً في الحقائق والآداب، معرفة عن وجه الصواب

---

(٧٤٣) الإحياء (٣/٣٤٣، ١٩٩).

(٧٤٤) إحياء علوم الدين (٣/٣٠١-٣٠٢، ٣٣٣-٣٤١، ٢٥٧-٢٥٨).

(٧٤٥) إحياء علوم الدين (٣/٢٣-٢٥، ٢٤٢-٢٤٦).

الذي اعتمدوه.. حيث كثر المتشبهون، وتستَّر بزيِّهم المتسترون، وفسدت أعمالهم، وسبق إلى قلب من لا يعرف أصول سلفهم سوء ظن، وكاد لا يسلم من وقيعةٍ فيهم وطعن، ظناً منه أن حاصلهم راجعٌ إلى مجرَّد رسم، وتخصُّصهم عائدٌ إلى مطلق اسم". [٧٤٦]

وصار "إحياء علوم الدِّين" كتاب الصُّوفيَّة الأول، وحجتهم في تقرير مذهبهم في العالم الإسلامي، وانحصر الإنكار على أشخاص الصُّوفيَّة المتطرفين الذين هاجمهم الغزالي في الأحياء أحياناً، والتمس لهم الأعذار والحجج أحياناً أخرى، ما جعل الأمر واسعاً في نظر الغزاليّ.

٨. إنشاء الطُّرق الصُّوفيَّة، والتي كان لها الدور الأول في نشر التصوُّف بين مختلف فئات المجتمع، حتى متطرفي الصُّوفية لم يتورعوا عن إنشاء طرق خاصَّة بهم، للدعاية إلى مذهبهم، كالطريقة الأكبرية، نسبةً لابن عربي، والسبيعينية، نسبةً لابن سبعين المرسيّ.

وإذا كان أئمة الصُّوفيَّة قد بدأوا بالهجوم على بعض الصُّوفيَّة منهم؛ ليسدوا الطريق على خصومهم من الفقهاء، فإن جهدهم توجه أيضاً على اجتذاب العامَّة من

---

(٧٤٦) عوارف المعارف، السهروردي (١/ ١١).

مختلف طوائف المجتمع، وتمثَّل ذلك في (إنشاء الطُّرق الصُّوفيَّة) التي ستكون بمثابة الحاضنة والأم الصُّوفيَّة لمختلف طوائف النَّاس وطبقاتهم.

المبحث الخامس

من الفلسفة والتشيُّع إلى التصوُّف

لقد كانت مصر والشام والعراق هي مراكز للفلسفات اليونانية والشرقية بمذاهبها المتعددة، من وثنية وإلهية، وقد سبق للفلسفة وأن عمَّقت الخلاف بين المسيحيين حول طبيعة المسيح، وأصبحت الفلسفة جزءاً من المسيحية، وعند الفتح خفت صوت الفلسفة، ثم استيقظت في صورة جدال احتدم بين المسلمين والمسيحيين في عصر (المأمون)، واضطر المسلمون لتعلُّم الفلسفة؛ كي يردُّوا بها على المسيحيين الذين حذقوا أساليب الفلاسفة في الجدل والسفسطائية.

وكان يمكن لهم الاستغناء بالقرآن الكريم، وقد حوى كثيراً من الحوار مع أهل الكتاب، إلا أنهم وقد تعلموا الفلسفة وقعوا في هواها، وعملت الفلسفة على بعث المذاهب الدينية القديمة، وأهمها وحدة الوجود...

وأوائل الذين اشتهروا بهذا الاسم (الصُّوفيّ)، هم من أهل الانحراف المطعون في دينهم وأمانتهم، وكُلُّهم من أهل الكوفة، وهي بلد التشيُّع والرَّفضِ والغلوِّ، وهذا الرأي في تحديد نشأتهم هو قول جمهور أهل العلم والمستشرقين،

إلا من شذَّ من المتصوّفة المنحرفين[٧٤٧]، الذين لا يألون جهداً في تصحيح مذهبهم، وربطه بعصر النَّبيِّ ﷺ، ولو زوراً وكذباً، وذلك دأبهم !..

ولا بد من الإشارة إلى أن الكوفة مُصِّرت سنة (١٦هـ/٦٣٧م) بعد أن كانت معسكراً للجيش الإسلامي الفاتح، وكانت المكان المناسب لنزول القبائل القريبة من (الحيرة) عاصمة المناذرة[٧٤٨]، وكانت (الحيرة) محمية فارسية في العراق، في مقابل دولة الغساسنة في الشام التي كانت محمية رومانية، وقد سكن الكوفة من العرب أغلبية يمانية وأقلية حجازية، يُضاف إليها فريقٌ من الفرس الذين انضموا إلى الجيش العربي بعد القادسية، ونزلوا المدينة الجديدة بعد تمصيرها، ودخولهم في الإسلام.

وقد انطبع في أذهان الكوفيين فكرة الرعب الجماعي من عذاب الآخرة والتي يمكن تفسيرها بطبيعة التشكيل المجتمعي، حيث أن غالبية المجتمع الكوفي هم من اليمانيين المشهورين بالعاطفة والحماسة الدينية، بالإضافة إلى الأحداث

(٧٤٧) انظر اللُّمع للسراج الطوسي (٣٨٧هـ)، وقد عقد باباً (للرَّدِ على من قال لم نسمع بذكر الصُّوفيَّةِ، وأنه اسمٌ محدثٌ) (ص ٤٢، ٤٣)، وانظر التعرف لمذهب أهل التصوف، لأبي بكر الكلاباذي (٣٨٠هـ)، (ص ٢٦، ٢٧).

(٧٤٨) المناذرة هم: ملوك الدولة العربية التي سبقت ظهور الإسلام، وكانوا يقطنون في (الحيرة) جنوبي العراق.

الجسام مثل: قتل علي بن أبي طالب في الكوفة، وعصيان الكوفيين له حتى أثار حفيظته عليهم، واعتداء الكوفيين على الحسن، وخذلانهم له في تحقيق أهدافه التي سعى من أجلها، ما دعاه إلى التنازل عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان، وما أعقب ذلك من دعوتهم الحماسية للحسين بن علي ﷺ ومن ثم خذلانهم له، وقتله والتمثيل به بأيدي أنصاره من الكوفيين الذين بايعوه بالرغبة والرهبة.

ثم ظهر (التوابون) بقيادة سليمان بن صُرَد الخزاعي الذي اختار قتل النفس، والتضحية بها تكفيراً عن هذه الفعلة الشنيعة، مستدلاً بالآية ﴿فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خيرٌ لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم﴾(البقرة: ٥١)، مع رفضه التحالف مع المختار بن أبي عبيد، الذي كان يخطط للانتقام من قتلة الحسين، وقتلهم واحداً واحداً، وحاول أن ينشئ مُلكاً، بينما كان معاوية يرى أن يترك الأمر شُورى بين المسلمين، ما أدى إلى حالة رفض عارمة، أدت إلى نشوب حرب أهلية جديدة في العالم الإسلامي كله، وكان من نتائج ذلك احتلال مصعب بن الزبير الكوفة، وقتله للمختار وآلافاً ممن كانوا معه في يوم واحد، وتلا ذلك أن قُتل مصعب وعاد الأمر إلى الأمويين، وقامت موجةٌ جديدة من المذابح والمظالم التي قاستها الكوفة على يد الحجاج ومن جاء بعده من العمال.

ولم يتوقف الأمر عند ذلك بل ما لبثت الكوفة أن ناصرت زيد بن عليّ بن الحسين، ثم تخلت عنه وتركته يُقتل، وكذلك فعلت مع عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب الذي كاد يبلغ غايته في إرساء قواعد دولته، غير أنه فقد حياته أخيراً في سجن أبي مسلم الخراساني.

وكان أبو مسلم الخراساني يعتبر رأس الزندقة الموجهة ضد الإسلام، وكانت جهوده الظاهريَّة تنصبُّ لإقامة الدولة العباسيَّة، ولكنه في قرارة نفسه يهدف إلى بعث الدولة الفارسية القديمة في ثوب إسلامي جديد، بحيث يُصبح الموالي الفرس في هذه الدولة، هم أصحاب السلطة الحقيقية.

وقد اعتمد أبو مسلم في محاربته للدولة الأمويَّة على الموالي من الفرس، اللذين كان كثيرٌ منهم أعداء ألداء للإسلام، ومن الساخطين على الحكم الأموي، كما أبدى أبو مسلم روحاً شعوبية واضحة، وقتل آلافاً من العرب في خراسان، وامتزجت الدولة العباسيَّة بتيارات الشعوبية، وبالتعاليم المجوسيَّة الإلحادية، وبتعاليم الفرق المتطرفة، واستطاع هزيمة مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين في موقعة (الزاب)، ثُمَّ تعقَّبه إلى مصر، حيث قتله، ثُمَّ قامت الدولة العباسيَّة سنة (١٣٢هـ).[٧٤٩]

---

(٧٤٩) أبو عبد الله الشيعي، د. (ص ٦٩- ٧٠).

ونتيجة لهذا التفاعل بين كل هذه العوامل النفسية والاجتماعية والسياسية ظهر في الكوفة نزوع حاد نحو العزلة والتقشف، بالإضافة إلى مشاعر الحقد الكبيرة على الدولة الأموية، والمعارضة الشديدة لها.

ومن لطيف ما يذكر أنه روي عن هشام بين عبد الملك، وأخيه سليمان، أنهما استحبا لرعيتهما في الأمصار الإسلامية أن يلبسوا الخز، وهو قماشٌ نصفه صوفٌ ونصفه حرير، وبخاصَّة سليمان الذي ولي الخلافة قبل عمر بن عبد العزيز الذي حكم بين سنتي (٩٩ -١٠١هـ/ ٧١٧-٧٦٩م)، وكان هذا أيضاً فعل هشام بن عبد الملك الذي حكم في الفترة ما بين سنة (١٠٥-١٢٥/٧٢٧-٧٤٣م)، وسلك الناس جميعاً مسلكه في ذلك، وقد وجد أهل الكوفة فرصةً سانحة للتعبير عن معارضتهم لسياسة بني أمية من خلال لبس الصُّوف، وهكذا دخل الصُّوف عالم التصوُّف، وصار علماً عليه بهذه الصُّورة .[٧٥٠]

وكانت البصرة أيضاً توأماً متشابهاً مع الكوفة في التمصير وفي النازلة (السكان)، وحتى في العناصر الفارسية والأجنبية التي شاركت العرب في الإقامة فيها، غير أن نسبة هؤلاء في البصرة كانت أكثر منها في الكوفة، وكما ورثت الكوفة (الحيرة)، ورثت البصرة ميناء الأيلة القديم، وبالتالي كانت البصرة مكاناً تجتمع فيه

(٧٥٠) انظر: صفحات مكثفة من تاريخ التصوف الإسلامي، د. كامل الشيبي (ص ٥١)، وما بعدها.

الأجناس المختلفة، من ثقافات متعددة، وأفكار متباينة، الأمر الذي يجعل منها الحاضنة الأولى لكل الأفكار الوافدة والمعتقدات الجديدة، ومن هنا كانت البصرة تسمى أرض الهند لاتصالها تحديداً بهذا البلد، فإذا لاحظنا ذلك كله، أدركنا لماذا ظهرت الزندقة في البصرة، وكذلك الفلسفة البحتة المتمثلة في الكندي البصري، وحركة إخوان الصفا، وأكثر من ذلك أن المعتزلة الأولين وحتى الخوارج كانوا من هذا المكان، يضاف إلى ذلك حالة الاستقرار الشبه دائم، وضعف المشاركة في الأحداث السياسية، وحالة الرخاء الاقتصادي، التي أثمرت جماعةً من المنحلين والمتفسخين أخلاقياً، سموا بالسفهاء، وانطبعت البصرة بالحب والعشق الإلهي الذي أصبح ركناً أساسياً في المذهب الصُّوفي فيما بعد.(٧٥١)

نعود إلى التصوُّف الذي نصَّ الإمام ابن الجوزيِّ على أنَّه ظهر أواخر المائة الثانية للهجرة(٧٥٢)، ومن ثمَّ شاع استعماله في القرن الثالث الهجري.

---

(٧٥١) المصدر السابق نفسه (ص ٦١–٦٢)، وما بعدها.

(٧٥٢) انظر: تلبيس إبليس، لابن الجوزي (ص ٢٠١).

ويؤكد ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) حيث يقول: "إنَّ لفظ الصُّوفيَّةِ لم يكن مشهوراً في القرون الثلاثة المفضَّلة، وإنما اشتهر التكلُّم به بعد ذلك"(٧٥٣).

ويُشير ابن تيمية رحمه الله إلى نقولات ذكرت عن بعض الأئمة في التصوف، ولكنه أوردها بصيغة التضعيف، إشارةً إلى أنه لا يثبت منها شيء، وأنها موضع شكٍّ لديه؛ فقال: "وقد نُقل عن غير واحدٍ من الأئمة من الشيوخ كالإمام أحمد بن حنبل، وأبي سليمان الدارمي، وغيرهما، وقد رُوي عن سفيان الثوري أنه تكلم به، وبعضهم يذكر عن الحسن البصري"(٧٥٤).

وبمثل ذلك قال ابن خلدون، غير أنَّه عدَّ أصلها هو العكوف على العبادة، والانقطاع إلى الله عزَّ وجل، والإعراض عن زُخرف وزينتها، قال: "وكان ذلك عامَّاً في الصحابة والسَّلف، ولمَّا نشأ الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده، وجنح النَّاس إلى مخالطتها، اختصَّ المقبلون على الله باسم الصُّوفيَّة(٧٥٥).

(٧٥٣) مجموع الفتاوى؛ لابن تيمية (٥/١١). وشكوى الغريب، عيد القضاة الهمذاني (ص ١٧).

(٧٥٤) مجموع الفتاوى؛ لابن تيمية (٥/١١).

(٧٥٥) انظر: مقدمة ابن خلدون (ص ٤٧٦).

وتعقَّب الشيخ محمد الغزالي ابن خلدون في توصيفه؛ فقال: "وكلام ابن خلدون هذا مُشوَّشٌ مُضَّرب، وقد علمتَ موقف الإسلام من الدُّنيا والزُّهد فيها، وموقفه من الرهبانيَّة، والأخذ بها... وقد علمتَ أن أيَّ تعليمٍ يُخلُّ بقوى الأمَّة الماديَّة، ويُمكِّنُ غيرها من التفوُّق عليها؛ فهو خيانةٌ لله، ولرسوله ﷺ [٧٥٦]".

وقال السهرورديُّ: "وهذا الاسم لم يكن في زمن رسول الله ﷺ، وقيل: كان في زمن التابعين" [٧٥٧].

وزعم القشيريُّ أن التصوُّف اشتهر قبل المائتين من الهجرة[٧٥٨]، وهي دعوى تفتقر إلى الدليل، وأما الهويجري –أحد صوفيَّةُ القرن الحادي عشر– فيذكر أن التصوف كان موجوداً في زمن رسول الله ﷺ، وباسمه، واستدل بحديث موضوع مكذوب على رسول الله ﷺ، أنه قال: (من سمع صوت أهل التصوُّف فلا يؤمن على دعائهم إلا كتب عند الله من الغافلين)[٧٥٩] .

---

(٧٥٦) ليس من الإسلام، للشيخ محمد الغزالي (ص ١٧٨).

(٧٥٧) عوارف المعارف، للسهروردي (ص ٧٥).

(٧٥٨) الرسالة القشيرية (٥٣/١).

(٧٥٩) كشف المحجوب للهويجري (ص ٢٢٧).

وهذا يدلُّ على أنَّه مذهبٌ مُحدَثٌ في الدِّين، ولا أصل له في شريعة مُحمَّدٍ ﷺ، ولا صلة له بالإسلام لا من قريب ولا من بعيد. يقول الشيخ عبد الغني الدِّقر: "وأحدث في أواخر القرن الثاني من العصر العباسي التصوف، ولم يكن هذا الاسم معروفاً، وإنما كان الزُّهد، وكان مفهوم الزُّهد عدم إشغال القلب بأمور الدنيا، وإن كان الزاهد ذا غنى، أو ذا هيئةٍ أو ثوبٍ حسن، واشتغاله بتحرِّي الحلال، وطاعة الله ورسوله ﷺ، ومراقبته في السرِّ والإعلان، وما كان الزُّهد تكلُّفاً، ولا فلسفةً، ولا مصطلحات، ولا قواعد".(٧٦٠)

وأطلق اسم التصوُّفِ في بداياته على أفرادٍ مُعيَّنين في النِّصف الثاني من القرن الثاني للهجرة، وهؤلاء هم:

١. أبو هاشم عثمان بن شريك الصُّوفي الكوفيّ (١٥٠هـ/٧٦٧م).

٢. وجابر بن حيَّان الكوفي (٢٠٨هـ/٧٦٧م).

٣. وعبدك أو عبد الكريم، الصُّوفيّ [عبيد بالفارسية] (٢١٠هـ/٨٢٥م)(٧٦١).

---

(٧٦٠) الإمام مالك بن أنس (إمام دار الهجرة)، عبد الغني الدقر (ص ٢٠).

(٧٦١) انظر: دائرة المعارف الإسلاميَّة (٥/٢٦٦).

ثُمَّ شاع استعماله بعد فترةٍ من الزَّمن، واستقر التصوُّف نهائياً على معروف بن الفيزران الكرخي(ت ٢٠٠هـ/٨١٥م)[٧٦٢] .

ويُرجِّح كحالة أنَّ أول مَن نُعت بالصُّوفيّ هو أبو حيَّان السُّكوني، بينما يرى عين القضاة الهمذاني أنَّ عبدك هو أوَّل من نعت بذلك اللقب، وأنَّه كان قبل بشر بن الحارث الحافي (ت ٢٢٧هـ)، والسُّريّ بن المُفلسِ السَّقطي(ت ٢٥١هـ).

أمَّا صيغة الجمع (الصوفيَّة) فإنها ظهرت فيما انتهى إليه عمر كحالة عام (١٩٩هـ)[٧٦٣]، وهو العام الذي دخل فيه الإمام الشَّافعيُّ[٧٦٤] (ت ٢٠٤هـ)

(٧٦٢) صفحات مكثفة من تاريخ التصوف، د. كامل الشيبي (ص ١٠٠).

(٧٦٣) شكوى الغريب، عين القضاة الهمداني (ص ١٨).

(٧٦٤) محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع، الإمام، عالم العصر، ناصر الحديث، فقيه الملة، أبو عبد الله القرشي، ثم المطلبي، الشافعي، المكي، توفي رحمه الله تعالى، سنة (٢٠٤هـ). (سير أعلام النبلاء: ٥/١٠).

مصر، وقال مقولته المشهورة: "تركتُ بغداد وقد أحدث الزنادقة فيها شيءٌ يسمونه السَّماع، أو "التغبير"[(٧٦٥)]، يصدون به الناس عن القرآن"[(٧٦٦)].

والزنادقة عند الشَّافعيّ هم المتصوفة، وكانت قضية (السماع)[(٧٦٧)] جديدةٌ لديهم، بينما كان أمر الزنادقة معلوماً قبل ذلك[(٧٦٨)]، بدليل قول الشافعيِّ عنهم: "لو أنَّ رجلاً تصوَّف أول النهار، لا يأتي الظهر حتى يكون أحمق!".

ومن الأدلة على أنَّ مسألة السماع (الذي هو اللحن والغناء) كانت معروفة في القرن الثالث الهجري، وأنَّ مُعظم المتصوفين اهتمُّوا به اهتماماً كبيراً، وأعدُّوا له

(٧٦٥) التغبير: هو شعر يزهد في الدنيا يغنى به مغن فيضرب بعض الحاضرين بقضيب على نطع أو مخدة، أو على جلد، على توقيع غنائه كما قال ابن القيم وغيره. وقد يضم إلى ذلك الصوت إما التصفيق باليدين، وإما الضرب على الفخذ أو على الدف أو الطبل، ومن فعل هذه الملاهي على وجه الديانة والتقرب لله عز وجل؛ فلا ريب في ضلالته وجهالته. انظر: تحريم آلات الطرب (ص: ١٦٣، ١٦٧- ١٦٨)

(٧٦٦) انظر: التصوف في القرنين الثاني والثالث الهجريين، لأبي الخير تراسون (ص ١٦٠، ٣٣٧). والتصوف والمجتمع؛ لعبد اللطيف الشاذلي (ص ١٠٥)، وهذا القولُ متواترٌ عن الشَّافعي رضي الله عنه.

(٧٦٧) ويُسمى السماع أو الغناء في اللغة العربية "بالقول"، والغناء بالفارسي والتركي يسمونه "الملمع". انظر: تحفة النظار؛ لابن بطوطة (١/ ٣٣٣).

(٧٦٨) الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة، عبد الرحمن عبد الخالق (ص ٣٣).

فصولاً وأبواباً خاصَّة في مؤلفاتهم، مثل ما صنع السِّراج في اللُّمع[٧٦٩]، والقشيري في رسالته،[٧٧٠] والسهروردي في عوارف المعارف[٧٧١]، حتَّى الغزاليُّ في الإحياء [٧٧٢].

والسماع الصُّوفي، هو: نوع من الحركة مع النغم والإيقاع أثناء الذكر.

وغايته حصول التوافق والانسجام بين الروح والجسد، من خلال تجريد النغم، وهو إحدى رخص التصوُّف. وأما الرقص عند التواجد، فمتعلِّقٌ بالنوع العنيف من الواردات، الحاصلة للواجد والموجب للحركة والانزعاج والاضطراب!. وهو مقسَّمٌ على الجوارح بحسبها، فالاهتزاز للرأس، والمراوحة لليدين، والقفز للقدمين، والدوران للأكتاف مع الصدر والبطن..الخ.[٧٧٣]

ويقول الدكتور فهد الفهيد: السَّماع الصُّوفي، هو التقرب إلى الله تعالى بسماع الأناشيد، والأبيات الغزليَّة، أو الوعظية الملحنة، فيها ذكر الهجر والوصل،

---

(٧٦٩) انظر (ص ٣٣٨- ٣٧٤) من الكتاب المذكور.

(٧٧٠) انظر (ص ٣٣٥- ٣٥٠).

(٧٧١) انظر (ص ١٢٤- ١٤٧).

(٧٧٢) انظر (ص ١٩٢- ٢٣٠).

(٧٧٣) انظر: التصوف، والبدعة في المغرب، عبد الله نجمي (ص ٢٧١).

والقرب والبعد، والعذاب والملامة، والعذل واللوم، والحب والعشق، والحبيب والمعشوق، والقدود والخدود، والحسن والجمال، والخمر والكؤوس، والساقي والسيقان، مع الآلات وبدونها، مكاءً وتصدية، وهذا حال هؤلاء الصوفية، وهذا سماعهم، ويعرضون عن سماع القرآن والأحاديث.(٧٧٤)

وقيل: إن صيغة الجمع (الصوفية) ظهرت عام (١٨٩هـ/٨١٤م) في خبر فتنةٍ قامت بالإسكندرية، فكانت نشأته مقارنة لنشأة التشيُّع الذي ظهر في الكوفة، وكان عبد الصُّوفي هو آخر أئمته، وهو أحد القائلين بأن الإمامة بالإرث والتعيين، وكان لا يأكل اللحم، وتوفي ببغداد حوالي (٢١٠هـ/٨٢٥م)، وإذن فكلمة صوفيّ كانت أول أمرها مقصورة على الكوفة.(٧٧٥)

فأمَّا أبو هاشم الكوفي، فقد أثنى عليه أبو نُعيم في الحلية وقال: "كان من مُتَقَدِّمِي الْبَغْدَادِيِّينَ بِالنُّسُكِ وَالتَّحْقِيقِ بِالتَّصَوُّفِ"(٧٧٦)، في حين أنَّ المصادر

(٧٧٤) انظر: نشأة البدع الصوفية: د. فهد الفهيد، (ص ٥٢).

(٧٧٥) دائرة المعارف الإسلامية، (٦/٤١٩)، ودائرة المعارف العربية، مادة تصوف (٥/٢٦٦).

(٧٧٦) حلية الأولياء، لأبي نعيم (١٠/٢١٢).

الشيعية تذكره بالطعن والتجريح الشديدين، وقد أطلقوا عليه لقب: "مخترع الصُّوفيَّة"[٧٧٧].

وهو أول من بنى خانقاه للمنقطعين من الصُّوفيَّة في الرملة (بفلسطين)[٧٧٨]، وذلك بأمر من الأمير النصراني في تلك المنطقة، الذي رأى جماعة من الصُّوفيَّة في بلاده يجتمعون ويأكلون معاً، فسُرَّ بما رآه من أخلاقهم ومعاملاتهم، وسألهم: هل لكم مكانٌ تجتمعون فيه؟، فقالوا: لا، فأمر ببناء تلك الزاوية![٧٧٩] .

وكان يلبس لباساً طويلاً من الصُّوف تقليداً للطوائف المسيحية، ولا بد أنه فعل ذلك تأثراً وتأسياً بالديارات المسيحية في بلاد الشام التي كانت من المراكز المسيحية المعروفة في ذلك الوقت[٧٨٠].

(٧٧٧) الصلة بين التصوف والتشيع، كامل الشيبي (٢/٢٩١).

(٧٧٨) عبادة القبور عند غلاة الصوفية عرض ونقد، عرض ونقد، عبير الدهشان، رسالة ماجستير (ص ٨).

(٧٧٩) نفحات الأنس للجامي، (ص ٣١-٣٢).

(٧٨٠) صفحات مكثفة في تاريخ التصوف، د. كامل الشيبي (ص ٧٧).

وقيل في أبي هاشم الصوفي (ت ١٥٠ هـ): إنه من شيوخ النفاق، جبرياً في الظاهر، وباطنياً دهرياً في الباطن، وأنه يقول بالحلول والاتحاد، وأنه كان فاسد العقيدة، يسعى بين المسلمين بإثارة الاضطرابات في الإسلام! (٧٨١).

وأمَّا جابر بن حيَّان (ت ١٦١ هـ)(٧٨٢) ، فكان يُدعى جابر الصُّوفي، فعدَّه الشِّيعةُ من أعيانهم وكبرائهم، وأنَّه أحد الأبواب (وهو المتكلم باسم الإمام عند الشيعة)(٧٨٣) ، من أصحاب جعفر الصَّادق (الإمام السادس عند الشيعة الإثنا عشريَّة)، وأنَّه كان يخدمه، ويتعلَّمُ منه، وأنَّه ألَّف في الزُّهدِ والمواعظ، كما ألَف في التشيُّعِ وعلومه(٧٨٤) .

يقول ابن خلدون: "ثُم ظهر بالشرق جابر بن حيان كبير السَّحرة في هذه الملَّة؛ فتصفح كتب القوم المترجمة من السريانية، ولغة أهل القبط وبابل، واستخرج

(٧٨١) انظر: الموسوعة الصوفية، د. عبد المنعم الحفني (ص ٣٤٢).

(٧٨٢) ترجم له الزركليُّ في (الأعلام: ٢/ ١٠٣)، بقوله: "فيلسوف كيميائي، كان يُعرف بالصُّوفيّ"، وذكره ابن خلكان، وصاحب نوادر الأخبار.

(٧٨٣) الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة (ص ٤١٣).

(٧٨٤) انظر كتاب: الصلة بين التصوف والتشيع، د. كامل الشيبي (ص ١٠٥).

منها صناعة الكيمياء، وأكثر الكلام في علوم السيمياء[٧٨٥] ، وتوابعها، ووضع فيها وفي غيرها التآليف، ثم جاء مسلمة بن أحمد المجريطي (ت ٣٩٨هـ) إمام أهل الأندلس في العلوم الرياضية والسحريات؛ فلخَّص جميع تلك الكتب، بما فيها كتب جابر بن حيان، وهذبها، وجمع طرقها في كتابه الذي سمَّاه (غاية الحكيم)، ولم يكتب أحدٌ في هذا العلم بعده!"[٧٨٦] .

---

(٧٨٥) علم السيمياء: يُطلق هذا الاسم على ما هو غير الحقيقي من السحر، وهو المشهور، وحاصله إحداث مثالات خيالية في الجو لا وجود لها في الحس.. وحاصله أن يركب الساحر أشياء من الخواص، أو الأدهان، أو المائعات، أو كلمات خاصة، توجب بعض تخيلات خاصة... وفي هذا الباب حكايات كثيرة عن ابن سينا والسهروردي المقتول، وغيرهم من المتصوفة. وقيل: هي لفظ عبراني مُعرَّب، أصله سيم يه، أي: اسم الله، أو العلم الإلهي. انظر: كشف الظنون (٢/ ١٠٢٠). وأبجد العلوم لصديق حسن خان القنوجي (٢/ ٣٣٢).

ويرى د. محمد يحيى الهاشمي في كتابه "الكيمياء في التفكير الإسلامي" (ص ٢١): أن السيميا تحتوي على كيفية تحويل المعادن، و(إكسير الحياة) هي تلك المادة التي تُطيل الحياة بزعمهم، وأن الكيمياء بمعنى السيميا تتمشى مع الأفلاطونية الحديثة جنباً إلى جنب، ولها ناحيتان: ناحية تجريبية، وأخرى نظرية شديدة العلاقة بفكرة الوحي والإلهام، وهذا هو السر على ما يظهر بعلاقة السيمياء بالصوفية والتدين الشرقي، وكل من الصوفية والأفلاطونية يميلُ إلى الإلهام والباطن والفيض. وقد يُطلق بعضهم السيمياء على الكيمياء القديمة، التي كانت تهدف إلى تحويل المعادن الرخيصة إلى ذهب.

وانظر: نشأة العلوم الطبيعية عند المسلمين في العصر الأمور (ص ٩٩).

(٧٨٦) ليس من الإسلام، للشيخ محمد الغزالي، (ص ٤١٤- ٤١٥).

وأمَّا عبدك، أو عبد الكريم، أو محمد فقد كان زاهداً متصوِّفاً، وكان شيعيًّاً غالياً في التشيُّع، وكان آخر شيخ لفرقة نصف شيعية ونصف صوفيَّة، تأسست في الكوفة، وكان مقدَّماً للشيعة[٧٨٧]، وقد ذكر محمد بن أحمد الملطي الشافعي في كتابه (التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع) أن "عبدك" كان رأس فرقةٍ من فرق الزنادقة[٧٨٨]، وذكر من صفات هذه الفرقة تحريم ما في الدنيا إلا لقوت، وأنها لا تحل إلا بإمام عادل، وإلا فهي حرام، ومعاملة أهلها حرام، واسم هذه الطائفة (العبدكية)؛ لأن عبدك وضع لهم هذا، ودعاهم إليه، وأمرهم بتصديقه.[٧٨٩]

ويترجم له ماسينون (Louis Massignon) [٧٩٠] المستشرق الفرنسي، بقوله: "عبدك! صاحب عزلة بغدادي، وهو أول من لقب بالصُّوفيّ، وكان

(٧٨٧) الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة (ص ١١٤).

(٧٨٨) التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع (ص ١٠٧-١٠٨).

(٧٨٩) نشأة البدع الصوفية، د. فهد الفهيد (ص ٢٠).

(٧٩٠) لويس ماسينون: مستشرق فرنسي، من أعضاء المجمعين العربيين في دمشق والقاهرة. ولد بباريس سنة (١٨٨٣ م)، وتوفي سنة (١٩٦٢ م) بباريس. تعلم العربية والفارسية والتركية والألمانية والإنكليزية وعني بالآثار القديمة، واستهواه التصوف، فكتب عن "مصطلحات الصوفية" و "أخبار الحلاج" و "ديوان الحلاج" مع ترجمته إلى الفرنسية و "الطواسين" للحلاج، وتشبع بآرائه. وكتب عن "ابن سبعين" الصوفي الأندلسي وعن "سلمان الفارسيّ" واتجه إلى فكرة توحيد الديانات الكتابية الثلاث. ونشر "منتخبات من نصوص عربية خاصة، وكان من موظفي وزارة المستعمرات في شبابه، ثم " مستشاراً" لها بقية حياته، ويعتبر هذا المستشرق من أخطر المستشرقين الفرنسيين الذين مروا على

المنطقة، وقد تعرف على كبار المستشرقين أمثال (جولد زيهر)، و(سنوك هر جرونجه)، و(لو شاتيليه) الذي هو أحب أساتذته إليه في الاستشرقا، وقصد بغداد حيث صادف العالم (الألوسي)، ثم عاد إلى القاهرة عام (١٩٠٩م)، واستمع إلى دروس الأزهر بالزي الأزهري، وانتدبته الجامعة المصرية أستاذاً لتاريخ الفلسفية ما بين (١٩١٢ –١٩١٣م)، ثم رحل إلى الحجاز، والقاهرة، والقدس (١٩١٧م – ١٩١٩م)، وأقام في القدس وبيروت وحلب ودمشق والأستانة، ثم رجع إلى باريس وحصل على الدكتوراه عام (١٩٢٢م)، وتولى تحرير مجلة "العالم الإسلامي" ذات الطابع التنصيري

(١٩١٩م) ومجلات أخرى. وهو مع هذا رجل عسكري؛ فهو مستشار وزارة المستعمرات الفرنسية في شئون شمالي أفريقيا وقد خدم بالجيش الفرنسي خمس مرات في الحرب العالمية الأولى، وهو أستاذ جامعي حيث حاضر في تاريخ الفلسفة أربعين محاضرة، وتدريسه كان في (الكوليج دي فرانس) وقد كان عضواً في عدد من المجامع فهو عضو في "الجمعية الآسيوية"، و"المجمع العلمي العربي" في دمشق (١٩٢٠م)، و"المجمع اللغوي المصري" منذ إنشائه (١٩٣٣م) .

وأبرز ما تتميز به هذه الشخصية الطابع التنصيري، فهو الراعي الروحي للجمعيات التبشيرية الفرنسية في مصر، ووضع اتجاهه التنصيري البارز في خدمة السياسة الاستعمارية الفرنسية حينذاك .وما تخصصه في "الفلسفة والتصوف" (الحلاجي)، وتأليفه فيهما سوى لتوظيفهما في النشاط التنصيري السياسي الظاهر والخفي، وتدعيماً للتصوف الغالي، فقد كتب عن: "آلام الحلاج المقتول"، و"مذهب الحلاجية" (١٩٠٩م)، و"الحلاج والشيطان في نظر اليزيدية"، وكتابا "اليزيدية المقدسان" (١٩١١م) وتاريخ تأليف رسائل إخوان الصفا (١٩١٣م)، وأربعة نصوص متعلقة بالحلاج (١٩١٤م)، وآلام الحلاج شهيد التصوف في الإسلام ، وهي أول رسالة دكتوراه من السوربون (١٩٢٢م)، والتجربة الصوفية والأساليب الأدبية (١٩٢٧م). وفي الفلسفة بالإضافة إلى ما سبق: "تاريخ المصطلحات الفلسفية بالعربية" ما زالت مخطوطة، وتحقيق "ترجمة ابن سينا لابن سبعين"، "وابن سبعين والنقد النفساني" (١٩٢٨م) والفلسفة وما وراء الطبيعة في التصوف الحلاجي (١٩٥٠م). واتسعت دراساته في الفرق

الباطنية وبعض جوانبها مثل: القرامطة، والخطابية، والمتنبي والعصر الإسماعيلي في الإسلام (١٩٣٥م)، وإمام العصر الإسماعيلي في الإسلام (١٩٣٦م)، وثبت مراجع عن القرامطة (١٩٣٩م). ودراسته

الإسلامية والفكرية قليلة مثل: "المسيح في الأناجيل حسب الغزالي" (١٩٣٢م)، والزمن في التفكير

الإسلامي (١٩٥٣م)، وأهل الكهف في المسيحية والإسلام (١٩٥٥م)، وتاريخ العلم عند العرب (١٩٥٧م).

لقد كان ماسينون مستعمراً نشطا يؤمن بالسياسة الاستعمارية للمارشال "ليوتي" في المغرب، وعمل على تنفيذها لتأييد سياسته (البربرية) في مراكش، بعد أن وجد ما يسوغها من الناحية الفكرية، ليس هذا فحسب، بل قام بتأييد الاستراتيجية الفرنسية لدمج المغرب مع فرنسا، ولم يكتف بما قامه في

المغرب العربي وإنما لحق بسورية واتصل بأهل الساحل السوري وجبال العلويين، وكاد يقنعهم بولاء فرنسا لهم وبولائهم لفرنسا، وإمكان فصلهم عن جسم سورية بدولة خاصة بهم، وتعزل سورية في مناطق داخلية لا يربطها بالعالم ساحلها أو بحرها، والعجب أن هذا الرجل هو الذي أثر في مسيرة شيخ

الأزهر "عبد الحليم محمود" وأقنعه بدراسة التصوف في جامعة السوربون، وهو الذي أقنع الدكتور "عثمان

يحيى" بكتابة الدكتوراه حول مؤلفات ابن عربي وتاريخها في سفر ضخم وصل إلى تسعمائة صفحة، وأشرف على الرسالة بنفسه، أما تمويل الأطروحة فكان من المركز القومي للبحوث العلمية في باريس ومنظمة اليونسكو، وترجم هذه الأطروحة إلى العربية مفتي مصر د. أحمد الطيب. وقد كتب د. عبد الرحمن بدوي ترجمة مفصلة عن جوانب عديدة في شخصيته وحياته ودراساته وتدريسه!

هذا اللفظ يدلُّ على بعض زهاد الشيعة بالكوفة، وعلى رهط من الثائرين بالإسكندرية، وقد يُعدُّ من الزنادقة بسبب امتناعه عن أكل اللحم، ويريد الأستاذ أنه أول من لقب بالصوفي في بغداد، ولم يكن السالكون لطريق الله في الأعصار السالفة والقرون الأولى يعرفون باسم التصوف، وإنما الصُّوفيُّ لفظٌ اشتهر في القرن الثالث، وأول من سمي ببغداد بهذا الاسم هو عبدك الصوفي، وهو من كبار المشائخ وقدمائهم، وكان قبل بشر بن الحارث الحافي، والسري بن المفلس السقطي، وغيرهم".[٧٩١]

ولذلك كان للتشيُّع دوره البارز في نشأة التصوُّف وتطوره، وذلك عن طريق إسنادهم الإمامة الروحية لعليٍّ بن أبي طالب، واعتقادهم بأنه مستودع العلم اللدني، وإليه تعود الأسرار الإلهية الكاملة، حتى أدى الأمر إلى تأليهه[٧٩٢] .

انظر: الأعلام للزركلي (٥/ ٢٤٧)، ومستشرقون (سياسيون –جامعيون –مجمعيون) تأليف: نذير حمدان (ص ١٩٣ –٢١١)، وعبد الحميد بن باديس حياته وآثاره؛ للدكتور عمار الطالبي (١/ ٥٠).

(٧٩١) التصوف، لماسينون، ومصطفى عبد الرازق (ص ٥٥–٥٦).

(٧٩٢) نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، د. سامي النشار (٢/ ١٤).

وهذه أوليات ومقدمات تؤكد أن التصوف دخيلٌ على الإسلام، أنشأه الزنادقة، والرافضة، اللذين عرفوا بالكيد للمسلمين قديماً.[٧٩٣]

ثم ما زال الأمر ينمى والأشياخ يضعون لهم أوضاعاً ويتكلمون بواقعاتهم، مع ما اتفق لهم من بُعدِهم عن العلماء، بل ورؤيتهم لما هم عليه أوفى العلوم وأشرفها، حتَّى سموه العلم الباطن، وجعلوا علم الشريعة العلم الظاهر .[٧٩٤]

ومعنى هذا أن علم الباطن هو التصوُّف بعينه[٧٩٥]، والذي هو مزيجٌ بين التشيُّع (الباطني) والفلسفات الوثنيَّة والمسيحية، وقد تحدَّث الإمام الغزالي عن العلم الباطن بعد ذلك، وسماه "علم المكاشفة"[٧٩٦]، ووصفه بقوله: "ولا رخصة في إيداعه الكتب" .[٧٩٧]

(٧٩٣) التصوف المنشأ والمصدر؛ لإحسان إلهي ظهير (ص ٤٩)، وما بعدها. والفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة، لعبد الرحمن عبد الخالق (ص ٤٥، ٦٧)، وما بعدها. وهذه هي الصوفية؛ لعبد الرحمن الوكيل.

(٧٩٤) انظر: تلبيس إبليس، ابن الجوزي، (ص: ١٥٨).

(٧٩٥) انظر: والتصوف المنشأ والمصدر، (ص: ٢٤٨).

(٧٩٦) انظر: إحياء علوم الدين (١/١٩). التعرف على مذهب أهل التصوُّف (ص: ٨٧).

(٧٩٧) انظر: إحياء علوم الدين (١/٤).

ويقول الدكتور عبد القادر محمود صاحب كتاب التصوُّف: "لقد ظهرت الشيعة في الكوفة التي كانت مكان حزب المعارضة منذ أيام الدولة الأموية، ومنها انتشرت في سائر العراق، ولهذا ظهر التصوُّف".[٧٩٨]

وخلاصة القول: أن الجميع متفقون على حداثة هذا الاسم، وعدم وجوده في عهد رسول الله ﷺ، وأصحابه رضوان الله عليهم، والسلف الصالحين.

٧٩٨() الفلسفة الصوفية في الإسلام (ص ٦٠).

الفصل الثالث

التطُّور التاريخي لحركة التصُّوف

وفيه سبع مباحث:

مقدمة تاريخية موجزة.
المبحث الأول: التصوُّف في القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي
المبحث الثاني: التصوُّف في القرن الرابع الهجريّ/ العاشر الميلادي
المبحث الثالث: التصوُّف في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي
المبحث الرابع: التصوُّف في القرنين السَّابع والثامن الهجريين/ الثاني عشر والثالث عشر الميلادي
المبحث الخامس: التصوُّف في العصر المملوكيّ
المبحث السادس: التصوُّف في القرن التاسع الهجري/ الرابع عشر
المبحث السابع: التصوُّف في القرن العاشر الهجري/ الخامس عشر الميلادي

تمهيد:

منذ بدء القرن الثالث الهجري- أي في خلافة المأمون -بدأت الولايات البعيدة في إيران تستقلُّ استقلالاً ذاتياً عن مركز الخلافة في بغداد، وتتشكل فيها دويلاتٌ لا تتبع بغداد إلا بالاسم فقط؛ ففي خراسان تشكلت الدولة الطاهرية نسبةً إلى طاهر بن الحسين قائد جيوش المأمون من سنة (٢٠٥ هـ) إلى سنة (٢٥٩ هـ) وكانت عاصمتها نيسابور، وحاولت هذه الدولة أن تستولي على طبرستان، وجيلان ولكنها فشلت، واستنصر أهل طبرستان وجيلان رجلاً علوياً من الرَّي اسمه الحسن بن زيد بن محمد من أولاد الحسين رضي الله عنه، وذلك سنة (٢٥٠ هـ)، فهزموا جيوش الطاهرية، وتشكل مكانها الدولة الزيدية في طبرستان وجيلان، من سنة (٢٥٠ هـ) إلى سنة (٣١٦ هـ)، واستقدم الحسن بن زيد من الري ابن عمه إدريس بن موسى، ومعه أخوه داود بن موسى بن عبد الله، ثم حلَّت الدولة الزيارية نسبةً إلى مرداويج بن زيار من الديلم، من سنة (٣١٦ هـ) إلى سنة (٤٣٣ هـ) محل الدولة الزيدية، ثم قامت بعد ذلك دولة البويهيين في سنة (٣٢٠ هـ)، واستمرت حتى سنة (٤٧٧ هـ)، عاصمتها "شيراز" في جنوبي إيران، وأصل "البويهيين" من بلاد الديلم، وكانوا يدينون بالمذهب الشيعي، وقد سيطروا على جميع مناطق إيران تقريباً، وامتدت سيطرتهم إلى مدينة بغداد (عاصمة الخلافة العباسية)، وأخذوا

يتحكمون في الخلفاء، فيعزلونهم وينصبونهم كما يشاءون ويريدون، ولم يعد للخليفة العباسي من الأمر شيء، سوى ذكر اسمه في خطبة الجمعة مقترناً باسم السلطان من آل بويه [٧٩٩].

وفي سنة (٤٣٢ هـ) قامت دولة السلاجقة التي استمرت حتى سنة (٥٨٣ هـ)، وعاصمتها مدينة "الري"، ثُمَّ "أصفهان"، وقد حلت هذه الدولة مكان دولة السامانيين والغزنويين في خراسان وما وراء النهر، ومكان دولة البويهيين في إيران والعراق، كما قضى على الدولة الزيارية في طبرستان وجيلان سنة (٤٣٣ هـ)، كما امتدت أيضاً إلى الروم في آسيا الصُّغرى (الأناضول)، وأصل السلاجقة من قبائل الأتراك (الغُز)، وقد اتسع سلطانهم حتى دخلوا بغداد سنة (٤٧٧ هـ) بقيادة السلطان طغرل بك، وقصوا على دولة البويهيين نهائياً"[٨٠٠].

وظهر في عهد السلطان السلجوقي ملكشاه[٨٠١] رجلٌ فارسيٌّ من مدينة طوس (مشهد الآن) وإن ادَّعى غير ذلك، واسمه الحسن بن الصباح، وكان يعتنق

---

(٧٩٩) انظر: موسوعة التاريخ الإسلامي لأحمد شلبي (٨/ ٦٠)، والبداية والنهاية لابن كثير (١١/ ٤٤)، والكامل لابن الأثير (٧/ ١٣٠ – ١٣٣)، ومروج الذهب للمسعودي (٢/ ٢١٤).

(٨٠٠) انظر: سلاجقة إيران والعراق، للدكتور عبد المنعم محمد حسنين (ص: ٣٥).

(٨٠١) ملكشاه: جلال الدولة، أبو الفتح ملكشاه بن السلطان ألب أرسلان بن محمد بن جغر بيك السلجوقي، ولد سنة ٤٤٧ هـ، وكان حسن السيرة، حفر الأنهار، وشد القناطر، وعمر ببغداد جامعاً

المذهب الإسماعيلي الباطني، وعمل مع وزير السلطان نظام الملك، ثم رحل في سنة (٤٦٩ هـ/ ١٠٧٦م) من الريِّ إلى أصفهان وأذربيجان، ثم زار بلاد الشام، ودخل مص في سنة (٤٧١ هـ)، حيث درس المذهب الإسماعيلي في دار الحكمة التي أسسها الحاكم بأمر الله في القاهرة، وعاد منها إلى إيران سنة (٤٧٣ هـ/ ١٠٨٠م)، وأخذ يدعو إلى المذهب الإسماعيلي فاستجاب له كثيرون، واستطاع هو وجماعته أن يؤسسوا في بلاد الديلم دولة الحشاشين أو الفدَّاويّة، وذلك سنة (٤٨٣ هـ)، وكان يُعوِّد أتباعه على "الحشيش" بمقدار، كما نقل ذلك الرحالة الإيطالي ماركو بولو (**Marco Polo**)، وانتقلت هذه الكلمة إلى اللغات الأجنبية وأصبحت (**assassins**) ولكن أصبح معناها القتلة أو السفاحين؛ لأن حسن الصباح كان قد اعتمد مبدأ اغتيال خصومه غيلةً وغدراً بطرقٍ شتى، حتى بثَّ الرعب والخوف في قلوب معاصريه، وصار الأمهات يُخوفن أولادهنَّ بشيخ الجبل، واستمر ذلك إلى وقتٍ قريبٍ في بلاد الشام.

وقد استولى هؤلاء الحشاشون على أكثر من مائة قلعة تنتشر في جبال "البرز" التي تمتدُّ من أذربيجان إلى جنوبي قزوين نحو إقليم كرمان، وكانت هذه

كبيراً، وأسقط المكوس، وشاع في زمنه الأمن، ورخصت الأسعار، توفي سنة ٤٨٥ هـ. وبموت ملكشاه انتهى العصر السلجوقي الأول، الذي أطلق عليه المؤرخون "العصر الذهبي للدولة السلجوقية". انظر ترجمته في سير أعلام النبلاء (١٩/ ٥٤)، والعالم الإسلامي في العصر العباسي (ص ٦٠١).

القلاع تتحكم بطرق المواصلات والبرد والقوافل، فبثوا الرعب في قلوب الناس، وكانوا يغتالون كل من وقف في طريقهم، وقد حاول السلاجقة القضاء عليهم ولكنهم فشلوا بسبب منعة تلك القلاع التي كانوا يتحصنون بها، مع وفرة الطعام والشراب، ثم يدهمهم الشتاء بثلوجه وبرده القارص، فيضطرون إلى فك الحصار عنها.

وقد اغتالوا في العاشر من رمضان سنة (٤٨٥ هـ/ ١٠٩٢م) نظام الملك وزير السلطان السلجوقي "ملكشاه"، وبعده بشهر مات السلطان "ملكشاه" مسموماً، وبموته تنازع ابنيه على ملكه ابنه الأكبر "بركيارق" من جهة، وابنه الأصغر "محمود"، كما تنازع "بركيارق" مع عمه "تاج الدولة تتش" والي دمشق، وانتهى النزاع موت "محمود" ومصرع "تتش" في المعركة قرب الري، واستتباب الأمر "لبركيارق" سنة (٤٨٨ هـ)[٨٠٢].

كما اغتالوا الأمير "أَنْر" في سنة (٤٩٢ هـ)، والوزير فخر الملك في سنة (٥٠٠ هـ) [٨٠٣]، كما أقدموا على قتل الملك مودود صاحب الموصل سنة (٥٠٧ هـ)[٨٠٤]، وقتلوا أيضاً الخليفة العباسي المسترشد سنة (٥٢٩ هـ)، وحاولوا اغتيال

(٨٠٢) انظر: سلاجقة إيران والعراق، للدكتور عبد المنعم محمد حسنين (ص: ٨٨).

(٨٠٣) انظر: المنتظم؛ لابن الجوزي (١٧/ ١١٧)، والبداية والنهاية لابن كثير (١٢/ ١٦٧).

(٨٠٤) انظر: البداية والنهاية لابن كثير (١٢/ ١٧٦).

نور الدين زنكي سنة (٥٤٨ هـ)، كما حاولوا اغتيال صلاح الدين الأيوبي في بلاد الشام مرتين، واستولوا على قلاع مصياف، والرصافة، وقدموس، ولكن الله سبحانه نجَّاه منهم، وفي سنة (٥٥٢ هـ) أغار الباطنية على حجاج خراسان، وقتلوهم جميعاً، فلم يبقى منهم أحد(٨٠٥).

وقد اتخذ الحسن الصباح لنفسه لقب (داعي الدعاة) الذي يمثل دور وزارة الإعلام في العصر الحديث، وكان وظيفته هو الدعاية للمذهب الباطني، وأسقط عن أتباعه التكاليف، وكان من مناصري الفرقة (النزارية) من الإسماعيلية التي انشقت عن الدولة الفاطمية في مصر بعد وفاة المستنصر بالله حفيد الحكام بأمر الله في سنة (٤٨٧ هـ)، ومات الحسن الصباح سنة (٥١٨ هـ)، وحلَّ محله خلفاءه من بعده، إلى أن انتهت دولتهم في إيران على يد هولاكو سنة (٦٥٤ هـ/ ١٢٥٧م)، عندما اجتاح ايران فخرَّب قلاعهم، وشردهم في البلاد، كما قاتلهم الظاهر بيبرس سنة (٦٧٠ هـ/ ١٢٧٢ م)، فلجأت شرذمتهم إلى الهند، وأخذ رؤساؤهم يتسمون بآغاخان فكان في سنة (١٢٣٣ هـ) آغاخان الأول، ثم الثاني، فالثالث، والآن هم تحت إمرة آغاخان الرابع "كريم" (٨٠٦).

---

(٨٠٥) انظر: البداية والنهاية لابن كثير (١٢/ ٢٣٦).

(٨٠٦) انظر: سلاجقة إيران والعراق، للدكتور عبد المنعم محمد حسنين (ص: ٩٠).

المبحث الأول

التصوُّف في القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي (البدايات)

وتعدُّ هذه المرحلة من أهم وأخطر المراحل في تاريخ التصوُّف الإسلامي، والتي برز فيها عدد من المتصوفة الأفذاذ الذين تمكنوا من الحفاظ على التصوُّف كاتجاه أو ظاهرة، له قواعده وأهدافه ومصطلحاته، وقد قابلت الحركة الصُّوفيَّة في البدايات عقبات كثيرة، حيث أنها نمت في غابة من الأفكار والاتجاهات، سعت كلها للقضاء عليها، فلم تعدم منكراً من المتكلمين، والفقهاء وحتى الفلاسفة، والنحويون، والسياسيون وغيرهم، وفي المقابل لم يتمكن الصُّوفيُّون من الدفاع عن شرعية وجودهم، لأنه قوبل بالهجوم والاستنكار من كل الاتجاهات، التي كانت له بالمرصاد... وما كان من الصُّوفيَّة إلا أن دفعوا الثمن غالياً من أرواحهم ودمائهم وأموالهم من أجل إرساء مبادئ التصوُّف وقواعده(٨٠٧).

كما أن التصوف عُرف بنظام الحلقات والاجتماعات السريَّة المغلقة، ثم أخذوا ينتظمون في طوائف وطرق والتي من أهمها (السَّقطيَّة) نسبة إلى السري السقطي، و(الجنيدية) نسبة إلى الجنيد بن محمد، و(النُّوريَّة) نسبة إلى أبي أحمد

(٨٠٧) التصوف الإسلامي، د. فيصل بدير عون (ص ٩).

بن محمَّد الحسين النُّوري (أول من سنَّ شعر العشق الصُّوفي!)، والتي كان لها الدور الكبير في نشر الفكر الصُّوفيِّ بين المسلمين، وأصبحوا طائفة مستقلة لها أتباعها وفكرها، ومهامها السياسية والاجتماعية.

ولئلا يظهر التصوُّف بمظهر شاذ عن روح الإسلام، أو مناقض للاتجاهات الإسلامية التقليدية، أصرَّ الجنيد على ربطه بالكتاب والسنة، فقال: "علمنا مضبوط بالكتاب والسنة، من لم يقرأ الكتاب ولم يكتب الحديث، لا يقتدى به"، قال ذلك ليجنب الصوفية مواقف قد يظهرون فيها بمظهر غير شرعي، ومن ثمَّ فقد أضفى عليه الصبغة الفلسفية التي تتيح للصُّوفي إقامة الحجج على أساس عقلاني، يزيد من يقين المريد الصُّوفي، واقتناعه بجدوى ما يفعله، ويسمح له بالخوض في كثير من الجدالات والنقاشات مع الفقهاء والفرق الكلامية الأخرى.

ولا بد من الإشارة إلى أن بغداد كانت مليئة بالفقهاء الذين يعتبرون حراساً للدين، ومركزاً للخلافة التي تتحمل مسؤولية الدفاع عن العقائد الإسلامية، والتراث الديني، إلا أن بعض الصوفيون الذين اشتبكت أمورهم بالقضايا السياسية، تعرضوا للقتل والتعذيب، فكان قتلهم أقرب إلى العقوبة السياسية منها إلى التعزير الديني، على أننا لا نقلل من قيمة الدولة في الحفاظ على هيبة الشريعة وعقائد المسلمين.

ومن أعلام القرن الثالث الذين فتكوا بالتصوف في بداياته: فقيه بغداد الإمام أحمد بن محمد بن مرداس الباهلي البصري المعروف بـ"غلام خليل"، الذي أنكر على المتصوفة ابتداعهم لقضية الحب الإلهي، وكان إماماً مُعظَّماً، وأحد أئمة الحنابلة الذين قادوا الصراع الفكري والديني مع المتصوفة، وما يُهمنا في هذا المقام هو الإشارة إلى تلك المحنة العظيمة التي وقعت للصوفية بسببه، والمعروفة بمحنة "غلام خليل"، وكان ذلك سنة (٢٦٢ هـ)، إذ جاء غلام خليل، واتهم الصوفية بالزندقة، وشغَّب عليهم العامة، وسعى عند الخليفة، فأمر بالقبض على عدد كبير من الصوفية، بلغوا نيفاً وسبعين، وانتهت المحنة بقتل بعضهم، وهروب البعض، وتبرئة البعض الآخر.[٨٠٨]

قال أبو نُعيم: سمعت عمر البناء، البغدادي بمكة يحكي: لما كانت محنة غلام الخليل ونسب الصوفية إلى الزندقة والحلول، وكانوا يقولون: إن الله عز وجل يُعشق ويَعشق، وهو مذهب الحلوليين، فأمر الخليفة بالقبض عليهم، فأخذ في جملة من أخذ أبو الحسين النوري في جماعة فأدخلوا على الخليفة، فأمر بضرب أعناقهم، فتقدم أبو الحسين النوري مبتدراً إلى السياف ليضرب عنقه؛ فقال له السياف: ما دعاك إلى الابتدار إلى القتل من بين أصحابك؟، فقال: آثرت حياتهم

(٨٠٨) ظهور الإسلام؛ لأحمد أمين (ص٣/ ٣١٣).

على حياتي هذه اللحظة، فتوقف السياف والحاضرون عن قتله، ورفع أمره إلى الخليفة، فرد أمرهم إلى قاضي القضاة وكان يلي القضاء يومئذ إسماعيل بن إسحاق فقدم إليه النوري فسأله عن مسائل في العبادات والطهارة والصلاة، فأجابه، ثم أمر بتخليتهم"[٨٠٩].

أولاً- عصر الجُنيد وذي النون والحلاج:

ولا يخفى على الباحثين والدارسين مدى الاضطهاد الشديد الذي تعرض له الصُّوفيَّة في عصر الجنيد والحلاج، وواجه الصُّوفيَّة هذا الاضطهاد بمبدأ (التُّقية) الشِّيعيّ، أي إظهار الإسلام وإبطان التصوُّف، وبهذه الطريقة استطاع الجنيد أن يظهر للناس أن هناك تصوفاً معتدلاً يتزعمه الجنيد، وتصوُّفاً متطرفاً يتزعمه الحلاج، وهو ما استقر في أذهان الناس واعتقدوا صحته وصوابه، والواقع أنه لا خلاف بين المدرستين في العقائد، واستطاع الجنيد بلباقة حديثه، وحسن تصرفه، واختياره للموضوعات، وقدرته على تحوير الألفاظ، بالإضافة إلى عقيدة التُّقية أن يخدع الكثيرين من المنكرين على الصُّوفيَّة كابن تيمية، وابن الجوزي، والبقاعيّ[٨١٠].

---

(٨٠٩) سير أعلام النبلاء (١٣/ ٢٨٤)، وتلبيس إبليس (ص ٢١١).

(٨١٠) العقائد الدينية في مصر المملوكية (ص ٥١).

وقيل في ترجمة الجنيد أنَّهم شهدوا عليه حين كان يُقرِّرُ في علم التوحيد (عقيدة التصوُّف)، ثُم إنه تستَّر واختفى[٨١١] ، أي أنَّ الجنيد عقدت له محاكمة على شطحات ظهرت منه، فاضطر للتستر بالفقه، وأخفى اجتماعاته مع الصُّوفيَّة، وفي هذه الأثناء بلغ اضطهاد الصُّوفيَّة ذروته بصلب الحلاج، كان الجنيد يقول كثيراً للشبليّ: "لا تُفشِ سرَّ الله تعالى بين المحجوبين"[٨١٢]، يعني أنه كان يأمر الشبليّ، وهو أشبه الصُّوفيَّةِ بالحلاج، بألا يُصرح بعقيدته بين المسلمين!.

وأبو بكر الشبلي هو القائل:

أنا غريقٌ والهوى قاتلي ... يا دولتي عودي إلى الرأسِ

وقد كان الغالب على سكان ذلك الزمان هو الدعوة النصيرية!.[٨١٣]

ويُصرِّح الكلاباذي بذلك في روايته عن الجنيد أنه قال للشبلي: "نحن حبّرنا هذا العلم تحبيراً، ثُمَّ خبأناه في السراديب، فجئتَ أنتَ فأظهرته على رءوس الملأ، فقال: أنا أقول، وأنا أسمع، فهل في الدارين غيري"[٨١٤].

(٨١١) الطبقات الكبرى، الشعراني (١/١٣-١٤).

(٨١٢) الطبقات الكبرى، الشعراني (١/١٠).

(٨١٣) تاريخ العلويين في بلاد الشام، اميل عباس آل معروف (١/ ١٢).

(٨١٤) التعرف لمذهب أهل التصوف؛ للكلاباذي (ص ١٧٢).

وكان أبو بكر (دلف بن جحدر) الشبليُّ (٣٣٤هـ/٩٤٥م) يُقرُّ بوضوح اتفاقه مع عقيدة الحلاج الحلولية، فيقول: "كنتُ والحلاج شيئاً واحداً إلا أنَّه أباح وكتمت"[٨١٥]، وهذا هو الفارق الحقيقي الذي عصم دم الشبلي بإشارة من الجنيد، بينما أودى بحياة الحلاج الذي لم يكن يعرف منهج الجنيد الجديد في السريَّة والكتمان!.

على أن الجنيد كثيراً ما كان يثني على الشبلي أمام مريديه وأتباعه، الذين حفظوا عنه مقولته الشهيرة: "لكل قومٍ تاج، وتاج هذا القوم الشبلي".[٨١٦]

وأصدر الجنيد أوامره بأنه لا ينبغي للفقير (الصُّوفيّ) قراءة كتب التوحيد الخاص (توحيد الصُّوفيَّة) إلا بين المصدقين لأهل الطريق أو المسلِّمين لهم[٨١٧]، يقصد المعتقدين فيهم، وطبق الجنيد هذا المبدأ على نفسه، فكان: "لا يتكلم قط في علم التوحيد إلا في قعر بيته بعد أن يُغلق أبواب داره، ويأخذ مفاتيحها تحت

(٨١٥) التصوف والفلسفة، ستيس (ص ٢٥٨). وصفحات مكثفة من تاريخ التصوف، د. كامل مصطفى الشيبي (ص ١٤٠، ١٤١).

(٨١٦) نفحات الأنس، للجامي (ص ١٨٠).

(٨١٧) الطبقات الكبرى، الشعراني (١/١٤).

وركه، ويقول: أتحبون أن يُكذِّب الناسُ أولياء الله تعالى وخاصته، ويرمونهم بالزندقة والكفر". [٨١٨]

ومعنى ذلك أنه كانت للصوفية اجتماعات سريَّة متفرِّقة، تؤمها خلايا المريدين وشيخ، وفيها كانوا يقرءون (كتاب التوحيد الخاص)، أي أن عقائد التصوُّف قد دونت منذ عهدها المبكر، إلا أننا لم نعثر على مؤلَّفٍ كاملٍ للجنيد؛ إذ أنه في غمرة تمسكه بالتقية أوصى حين موته بأن "يُدفن جميع ما هو منسوبٌ إليه من عمله"[٨١٩]، فلم يُحفظ عن الجنيد إلا القليل من الآراء الصُّوفيَّة –مع أنَّه سيِّدُ الطائفة!– حتى أنَّ كل الطرق الصُّوفيَّة المتأخرة تنتهي بالخرقة إليه!

وقد ترجم له الديلميّ بقوله: "الجنيد بن محمد الخراز القواريري، إمام أهل الخرقة، بهلوان العارفين.."[٨٢٠]، والحمد لله على نعمة العقل والدِّين..!!.

(٨١٨) الطبقات الكبرى، الشعراني (١٠/١).

(٨١٩) الطبقات الكبرى، الشعراني (٧٣/١).

(٨٢٠) شرح الأنفاس الروحانية، (ص ٩).

ونقل الشعراني عن الجنيد أنه "كان يستر كلام أهل الطريق عمن ليس منهم، وكان يستتر بالفقه والإفتاء على مذهب أبي ثور، وكان إذا تكلم في علوم القوم أغلق باب داره، وجعل مفتاحه تحت وركه"[(٨٢١)].

ومع ذلك لم يسكت الفقهاء على الجُنيد وأصحابه، حتَّى قام عليه جماعةٌ من الفقهاء، واتهموه بالزندقة عند الخليفة جعفر المقتدر، فأمر بضرب أعناقهم جميعاً، فقتلوا إلا الجنيد الذي تستَّر بالفقه، على مذهب أبي ثور!.

وإذا كان للجنيد كلامٌ خاصٌّ مع أتباعه في اجتماعتهم السرية، فإنه حرص على نقاء صفحته أمام عامَّة النَّاس وعلمائها، فأعلن تمسكه بالإسلام، وشاع عنه إعلانه التقيد بالكتاب والسُّنَّة، فقال: "مذهبنا هذا مقيَّدٌ بأصول الكتاب والسُّنَّةِ"، و"من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث لا يُقتدى به في هذا الأمر"[(٨٢٢)].

وكانت هذه الدعايات بمثابة الفخ الذي وقع فيه ألد أعداء التصوُّف وخصومه من أمثال ابن الجوزي الذي ردَّد كلمات الجنيد، وهو يقول: "وقد كان أوائل الصُّوفيَّة يقرون بأن التعويل على الكتاب والسُّنَّة"[(٨٢٣)].

---

(٨٢١) اليواقيت والجواهر؛ للشعراني (٢/ ٩٣).

(٨٢٢) الرسالة القشيرية (ص ٣٢).

(٨٢٣) تلبيس إبليس (ص ١٦٢).

ومن خلال الأقوال التي حُفظت عن الجنيد نستطيع التعرُّف على عقيدته الصُّوفيَّة، ومن ذلك قوله في التوحيد: "هو إفراد القِدم عن الحدوث"(٨٢٤)، و"هو الخروج من رسوم الزمانيَّة، إلى سعة فناء السرمديَّة"(٨٢٥)، ويقصد بذلك الخروج عن أحكام البشرية، إلى الألوهية الباقية بلا نهاية، وهو توحيد الخاصَّة، ولكن الجنيد –خوفَ الاضطهاد– أعلن في موضعٍ آخر أن التوحيد "هو إفراد الموحَّد بتحقيق وحدانيته ..."، وعلَّق الطوسيُّ بأن ذلك هو توحيد العامَّة، ويقصد به جمهور المسلمين، أما توحيد الخاصَّة، فيُعبِّر عنه الجنيد بما ذكرنا، وبقوله: "أن يكون العبد –أي الصُّوفيّ– شبحاً بين يدي الله ﷻ..."، و"التوحيد الصادق هو نسيان التوحيد"(٨٢٦)، وهو حال يصير فيه ذوو الأبصار عمياناً، والعاقلون حيارى!(٨٢٧) .

والتعمُّق في فهم هذا التعريف، يُفضي إلى أن غاية هذا التوحيد هو الاتحاد والذوبان الرُّوحي في الخالق، بحيث يكون شبحاً تتحكم فيه "روح الله وقدرته"... ويقول الجنيد أيضاً: "التوحيد هو أن تضمحل فيه الرُّسوم، وتندرج فيه العلوم، ويكون الله تعالى كما لم يزل"، وهو تعبيرٌ آخر عن عقيدة وحدة الوجود الجنيدية.

---

(٨٢٤) كشف المحجوب للهويجري (ص ٢٨١).

(٨٢٥) اللمع، أبو نصر الطوسي (ص ٤٩).

(٨٢٦) شرح شطحيات (ص ٣٨٣).

(٨٢٧) اللمع (ص ٣٣).

وكذلك فعل ذو النُّون المصريّ (ت ٢٤٥ هـ)، الذي حُمل إلى بغداد معتقلاً، ومهدداً بالموت، ومتهماً بالزندقة[٨٢٨] ، فاضطر إلى أن يجعل التوحيد الإسلاميّ درجةً في العقيدة الصُّوفيَّة، ونقل ذلك الطُّوسي، فقال: "فالجوابان اللذان لذي النون والجنيد عن التوحيد، هما ظاهران، أجابا عن توحيد العامة"[٨٢٩]، أي جعلوا دين الله (توحيد العامة) من الدرجة الثانية، أو درجة دنيا من الإسلام...

ومهما يكن من أمر الجنيد وذي النون، فقد سنَّا طريقةً للحفاظ على حياتهم وعقائدهم الصُّوفيَّة، مهَّدت الطريق لمن خلفهم لأن يسيروا عليها، بيد أن بعضهم كان مُجدِّداً بعض الشيء في طريقة نفاقه... مع احتفاظه بالعقيدة الثابتة.

ولكن هل تاب الجُنيد عن السَّماع والتصوُّف ؟! هذا الأمر لم يتضح بعد، ولكن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى ذكر في باب السَّماع: "أنه قد حضره طائفة من شيوخ الصُّوفية وأكابرهم ثم تابوا منه ورجعوا عنه، قال: وكان الجنيد – رحمه الله تعالى –لا يحضره في آخر عمره، ويقول: من تكلف السماع فتن به،

(٨٢٨) الطبقات الكبرى، الشعراني (١٣/١).

(٨٢٩) اللمع، نصر الدين الطوسي (ص ٤٩).

ومن صادفه السماع استراح به أي من قصد السماع صار مفتونا وأما من سمع بيتاً يناسب حاله بلا اقتصاد؛ فهذا يستريح به"[٨٣٠].

وبوضوح تام يُعبِّر "رويم بن محمد الصُّوفيِّ الشيبانيّ (ت ٣٠٣هـ)"، عن حقيقة التصوُّف، فيقول: "ما هذا الأمر–يقصد التصوُّف–إلا ببذل الرُّوح، فإن أمكنك الدخول فيه مع هذا وإلا فلا تشتغل بترهات الصُّوفيَّة"[٨٣١]، وإن كان هذا نوعٌ من الإنكار على عامة الصُّوفيَّة، فإنه في المقابل يهدف إلى سلامة الدِّين الصُّوفي، بأن لا يدخله من لا يعتقد فيه.

ولم يكن التباعد المكاني ليحول دون الاتصال بين روَّاد التصوُّف الأوائل، فقد سهَّلت السياحة الصُّوفيَّة، والمراسلات السريَّة، سبل الاتصال والتفاهم بينهم... ويكفي أن نمثل لذلك بيوسف بن الحسين –شيخ الرَّي– الذي يقطن في الشرق الإسلاميّ، ومع ذلك فقد صحي ذا النُّون المصريّ[٨٣٢]، وكان يُراسلُ الجنيد في بغداد[٨٣٣]... وتأثره بالاثنين واضح[٨٣٤]، وقد اتهم يوسف بن الحسين بالزندقة

(٨٣٠) مجموع الفتاوى (١١/ ٥٣٤).

(٨٣١) الرسالة القشيرية (ص ٣٥). وشرح رجال الأنفاس الروحانية (ص ٤٠).

(٨٣٢) الطبقات الكبرى للشعراني (١/٧٧).

(٨٣٣) الرسالة القشيرية (ص ٣٧).

(٨٣٤) انظر: الُّمع، (ص ٥٠–٥١).

جانب مواطنيه في الرَّي[٨٣٥]، مع أنه لم يبخل على الصُّوفيَّة المعاصرين له بالإنكار عليهم، فقال: "رأيتُ آفات الصُّوفيَّة في صُحبة الأحداث، ومعاشرة الأضداد –يقصد اللُّواط– ورفق النسوان –يقصد الزِّنا).[٨٣٦] .

ومن العجيب ثناء السُّلمي عليه، بقوله: "كان يوسف بن الحسين! أوحد في طريقته في اسقاط الجاه وترك التصنع واستعمال الاخلاص"[٨٣٧].

وبالغ بعضهم في (التُّقية)، وبخاصَّة إذا اختلطت عليه الأمور، وربما وقع في التناقض في الأمر الواحد، وسبب ذلك أنَّه ظلَّ يُنافقُ حتَّى نافق نفسه، وخدعها، ومن هذا الصِّنف، كان أبو سعيد الخرَّاز(ت ٢٦٨هـ)، الذي أسرف في التُّقية خوفاً من الاتهام بالكفر، حتى وصل به الأمر إلى اتهام التصوُّف نفسه دون أن يدري... يقول أبو سعيد: "كل باطن يخالفه ظاهر فهو باطل"[٨٣٨] ، أي أنه يحكم على التصوُّف بالبطلان، من وجهة نظرنا على الأقل، إذ كان مبدؤه هو الكتمان والتُّقية!... وامتد هذا الحكم ليشمل أبا سعيد نفسه، حيث يقول لهم (أي

---

(٨٣٥) الطبقات الكبرى (٧٨/١).

(٨٣٦) الرسالة القشيرية (ص ٣٧).

(٨٣٧) طبقات الصوفية، للسلمي (ص ١٨٥).

(٨٣٨) الرسالة القشيرية (ص ٣٨).

الصُّوفيَّة): "للصوفيَّة لسانان؛ لسانٌ ظاهر وباطن، فلسان الظاهر يُكلِّمُ أجسامهم، ولسان الباطن يُناجي أرواحهم".[٨٣٩]

وكان الخراز "أول من تكلَّم في علم الفناء والبقاء"[٨٤٠]، وقد حاول بعض العلماء إيجاد معنىً صحيح لهذه الكلمة، واعتبرها من الكلمات المبهمة التي تحتمل معانٍ عدَّة، ومن هؤلاء شيخ الإسلام ابن تيمية الذي قال: وهذه الكلمة تحتمل أوجهاً ثلاثة، وهي:

أ- فناء الإرادة: وتعني الفناء عن إرادة ما سوى الله، بحيث لا يُحبُّ أحداً إلا الله، ولا يرى لأحدٍ عليه فضلاً إلا الله، وهي تحقيقٌ لمعنى الإخلاص، بحيث لا يعبد إلا الله ﷻ، وهي موافقةٌ لتوحيد العامَّة من وجهة نظر الباحث.

ب- فناء السِّوى: وهو أن لا يخطر في قلب العبد إلا الله، ويحصل ذلك لكثير من السالكين، لفرط انجذاب قلوبهم إلى ذكر الله ومحبته، وضعف قلوبهم عن شهود غير الله، فلا يخطر بقلوبهم إلا لله.

---

(٨٣٩) الطبقات الكبرى (٧٨/١).

(٨٤٠) الطبقات الكبرى (٧٨/١).

قال ابن تيمية: "وهذا الفناء (يقصد فناء السِّوى) كُلُّه فيه نقص، وأكابر الأولياء لم يقعوا في هذا الفناء، ونبينا ﷺ إمام هؤلاء وأكملهم، ولهذا لما عرج به إلى السماوات وعاين ما هنالك من الآيات وأوحى إليه ما أوحي من أنواع المناجاة، أصبح فيهم وهو لم يتغير حاله"[٨٤١].

ج- فناء الوجود: وهو أن يشهد أنه لا موجود إلا الله، وأن وجود الخالق هو وجود المخلوق، فلا فرق بين العبد والرب، وهو فناء أهل الضلال والاتحاد، بل قل: هو توحيد الخاصَّة[٨٤٢] .

ولكن ماذا لو تركنا الخراز نفسه، ليُفسِّر لنا (الفناء)، بالمفهوم الصُّوفيّ، حيث يقول: "أن يخفيهم عن أنفسهم في أنفسهم، ويظهرهم لنفسه سبحانه وتعالى"[٨٤٣]، ثُمَّ هو صاحب كتاب (السِّر) في عقيدة الصُّوفيَّة... واستطاع الخراز -بنفاقه- أن يتجنَّب الخلاف مع صوفيَّة عصره، وأن ينجو من الإنكار عليه، فيقول: "صحبتُ الصُّوفيَّة ما صحبتُ، فما وقع بيني وبينهم خلاف".[٨٤٤]

---

(٨٤١) انظر: مجموع الفتاوي (٥/ ٢٠٦)، وما بعدها.

(٨٤٢) انظر: مجموع الفتاوي (٥/ ٢٠٦)، وما بعدها. دراسات في التصوف والفلسفة (ص ١٣٢)، وما بعدها.

(٨٤٣) الطبقات الكبرى للشعراني (٧٩/١).

(٨٤٤) الرسالة القشيرية (ص ٣٨).

ولا شكَّ أن شدة ما تعرض له الصوفية الأوائل، جعلهم ينتقلون من الصراحة المطلقة في تقرير عقيدة (وحدة الوجود) إلى مجرد الإشارة إليها، وربما عبروا عن ذلك بالتوحيد، أو الفناء، كما قالوا: "الوحدانية بقاء الحق بفناء كل ما دون"، بل ويزعمون أنَّ "ليس في التوحيد خلقٌ، وما وحَّد الله غير الله"[٨٤٥]، ومعنى ذلك أن الوجود الحقيقي واحد، ولا خلق هناك، وإنما الخالق فقط، وكل ما يسبح الله فهو الله نفسه... ولا شك أن الوحدانية السابقة أكثر مرونة من الاتحاد، بحيث يمن تأويلها إذا ما تعرَّض أحدهم إلى القهر والتعذيب والضرب، وربما القتل!...

ولا زال كبار المتصوفة يوصون أتباعهم بالسرِّ والكتمان؛ يقول الصوفي الشهير عبد السلام الفيتوري في كتابه (الوصية الكبرى): "إخواني، وسنذكر لكم كلاماً في المغيبات لكن يجب الإمساك عنها إلا لأهله الذين يكتمونه، ولا ينبغي إظهاره للسفهاء الذين يلحقون به إلى الأمراء والجبابرة وأهل الدُّنيا".[٨٤٦]

ويذكر الشعراني عن أحد العارفين قوله: "نحن قومٌ يحرم النظر في كتبنا على من لم يكن من أهل طريقنا، وكذلك لا يجوز لأحد أن ينقل كلامنا إلا لمن يؤمن به، فمن نقله إلى من لا يؤمن به دخل هو والمنقول إليه جهنم الإنكار، وقد

---

(٨٤٥) اللُّمع (ص ٥٢).

(٨٤٦) الوصية الكبرى؛ لعبد السلام الأسمر الفيتوري (ص ١٠٥).

صرح بذلك أهل الله تعالى على رءوس الأشهاد، وقالوا: من باحَ بالسِّرِّ استحقَّ القتل".[(٨٤٧)]

ويقول آخرهم، وهو الدكتور جودة المهدي: "ومن ثَمَّ نعلنها بكل وضوح وقوة وصراحة: إنه ينبغي لمن لم يذق مشرب القوم أن لا يخوض في بحارهم، وإلا فإن مصيره الغرق والهلاك، فإن دستور القوم: (من ذاقَ عرف، ومن حُرِمَ انحرف) !!"[(٨٤٨)].

ولي أن أقف مع أحد أعلام الزهد في هذا القرن، وأحد المحسوبين على التصوف بحسب السُّلمي، وهو يحيى بن معاذ الرازي (ت٢٥٨هـ)، وكان أطلق مقولته الشهيرة: "اجتنبت صحبة ثلاثة أصناف من الناس: العلماء الغافلين، والقراء المداهنين، والمتصوفة الجاهلين" [(٨٤٩)].

(٨٤٧) اليواقيت والجواهر؛ للشعراني (ص ١٧).

(٨٤٨) السيد أحمد البدوي ليس جاسوساً ولا شيعياً، (ص ١٠).

(٨٤٩) طبقات الصوفية، للسلمي (ص ١١٣).

المبحث الثاني

التصوُّف في القرن الرابع الهجريّ/ العاشر الميلادي

(التصوُّف في عصر القشيريٌّ)

استطاع الصُّوفيَّة تغليف عقائدهم بعبارات ومصطلحات، وربما رموز تستلزم التأويل والاختلاف، إلا أن التصوُّف دخل في طور الانتشار والتمدد، واجتذب إليه طوائف من النَّاس، جُلُّهم من العامَّة، مع انحطاط مستمر في المستوى العلمي للشيوخ، وترديد مستمر لعبارات الصُّوفيَّة السابقين، مع محاولاتهم المعتادة في اختراع العبارات التي تُعبِّر عن حقيقة التصوُّف وجوهره، وبخاصَّة (عقيدة الاتحاد)، ولكن المهارة والدِّقة لم تُسعفهم، فجاءت أقوالهم صريحةً جداً في التعبير عن تلك العقيدة، وليس أدلَّ على ذلك من أقوال القشيريِّ الذي جاء في القرن الخامس، لينكر على عوام الصُّوفيَّة كلامهم في الاتحاد والحلول، فيقول: " مضى الشيوخ الذين كان بهم اهتداء"، ووصف صوفيَّة عصره بأشنع الصفات، من إهمالهم للشريعة، ومبالغتهم في الانحراف، فقال: "ثم لم يرضوا بما تعاطوه من سوء هذه الفعال حتى أشاروا إلى أعلى الحقائق..."، يعني أنهم ادعو الاتحاد، تشبُّهاً بمن سبقهم، وهذا ما ينكره القشيريُّ على أجلاف عصره، ويقول: "وادعوا أنهم تحرروا

عن رق الأغلال، وتحقَّقوا بحقائق الوصال، وأنهم قائمون بالحق، تجري عليه أحكامه وهم محو..."، وأنهم: "كوشفوا بأسرار الأحدية، واختطفوا عنهم بالكليَّة، وزالت عنهم أحكام البشريَّة، وبقوا بأنوار الصمدانيَّة"، ثُمَّ يذكر السَّبب في تأليف كتابه (الرسالة)، وهو الإنكار على هؤلاء المدَّعين، والثناء على أوائل الصُّوفيَّة السابقين: "وما كنت لأبسط لسان الإنكار إلى هذه الغاية، غيرةً على هذه الطريقة أن يُذكر أهله بسوء، أو يجدُ مخالفٌ لثلبهم مساغاً، ولكن البلوى في هذه الديار بالمخالفين لهذه الطريقة والمنكرين عليها شديدة...فعلقت هذه الرسالة إليكم!" (٨٥٠).

وصار الإنكار الصُّوفيّ تقليداً، فكلُّ شيخٍ ينكر على معاصريه، ويشيد بالسابقين، فالطُّوسيّ أنكر على معاصريه وأشاد بسابقيه، وجاء القشيريّ بعده، فأشاد بمن أنكر عليه الطُّوسيّ، ثم جاء الغزاليّ، فأشاد بمن أنكر عليه القشيري! ... وكذلك فعل الشعراني في نهاية العصر المملوكيّ... وكل ذلك حمايةً للطريق الصُّوفيّ، ومحاولة للفصل بين التصوُّف كمبدأ يحاولون حمايته من الإنكار، وأشخاص صوفيون هم محل إنكار المعاصرين لهم..

(٨٥٠) الرسالة القشيرية، (ص ٤-٥).

ولا يفوتني القول بأن القشيري (٤٦٥هـ) (تلميذ أبي علي الدقاق، ت ١٠١٦م) كان أستاذ أبي علي الفارمذي، الذي تتلمذ له الغزالي، على أن محاولات القشيري كانت امتداداً، واستمراراً لمحاولات غيره من المتصوفة المعاصرين له، والذين حاولوا إظهار التصوُّف بثوب المتشرِّع، مثل: السِّراج (ت ٣٧٨هـ)، والكلاباذي (ت ٣٨٠هـ)، وأبي طالب المكي (ت ٣٨٦هـ)، وأحمد بن مُحمَّد بن عطاء الآدمي (ت ٣١٩هـ)، والسُّلمي (تلميذ أبو سهل محمد بن سليمان الصعلوكي المبعوث على رأس المائة الرابعة![٨٥١]) ، والتي كللت بالنجاح الهائل الذي حققه الغزالي، للتوفيق بين الفقه والتصوُّف، وذلك بتأثير كتاباته التي تركزت على ربط التصوف بالقرآن والسنة [٨٥٢] .

وأجدني أقف مع أبي حامد الغزاليّ –وهو الفيلسوف الحصيف– كيف استطاع أن يخدع نفسه، بأن ينكر على أوباش الصوفيَّة في عصره، ثم يناقض نفسه بالثناء على حملة الفكر نفسه ممن سبقه، بل كيف سمح لنفسه بتقرير العقائد ذاتها في صفحة، وإنكارها في صفحة أخرى بعدها ؟!!...

---

(٨٥١) انظر: تأييد الحقيقة العليَّة وتشييد الطريقة الشاذلية (ص ١٦)، نقلاً عن أصحابه.

(٨٥٢) أربع رسائل في التصوف، للقشيري (ص ٤).

ولا شك أن هذه الطريقة في التناقض، كانت سبباً لكسب كثير من الفقهاء المعارضين، بحيث ينكر على طائفة من الصُّوفيَّة في عدة أسطر، ثم يُعيد الثناء عليهم، وتأويل كلامهم في صفحات كثيرة أخرى، بل إنه لم يترك أحداً ينجو من إنكاره، فأنكر على الزهاد والعباد والفقهاء والمتكلمين والمحدثين في أمور سلوكية لا ينجو منها إنسان مهما كان، وفعل الغزاليُّ ذلك جزاءً وفاقاً؛ ليثبت أنه لا تخلو طائفة من العيوب والنقائص، وكأنه يقول بلسان حاله: اتركوا الصُّوفيَّة وشأنهم، ولا تنكروا عليهم !!.

ونكتفي بذكر ما قاله الغزاليُّ في العبَّاد والعلماء، فيقول في العبَّاد: "جمعُ عابد، إنهم أجراء متعبون"، يعني أنهم يعملون بأجر، فاتعبوا أنفسهم، ولو ادعوا الاتحاد لسقط عنهم التكليف واستراحوا. ويقول في العلماء: "إنهم بالحديث عن الله محجوبون"[٨٥٣]، يقصد بذلك أن اشتغالهم بالعلم الظاهري حجبهم عن معرفة الله، وتلقي المعارف الإلهيَّة.

(٨٥٣) إحياء علوم الدين (٣/٣٤٥).

ولكي تتضح في أذهاننا صورة الهوة السحيقة التي كانت بين المتصوفة والفقهاء، نذكر مقولة الإمام الخطابي [٨٥٤] المتوفى سنة (٣٨٨هـ) في المتصوفة، فيقول: "أهل التصوُّف والتبطُّل، فإنهم جهالٌ لا يتعلمون، ومردةٌ لا ينقادون، قد ملك الشيطان قيادهم، فهم والعلم على تضادٍ وخلاف"[٨٥٥]، ولعل نظرات عابرة في تحفة القرن الرابع كتاب (تلبيس إبليس) لابن الجوزي، كفاية لمعرفة مدى عمق هذا الخلاف والتنافر، الذي حاول القشيري رأب صدعه[٨٥٦].

وهذا المطهر المقدسي (ت ٣٥٥ هـ) عندما يتكلم عن الصوفية لا يأتي لهم بحسنة واحدة، ما يعكس نظرة الفقهاء المنافرة للتصوف. وأجدني أقف مع الشاعر الصُّوفي علي بن عبد الرحيم القناد (ت ٣٣٠ هـ) الذي ينعى على التصوف ما آل إليه حال الصوفية إلى مجرد لبس الخرق والصياح والتواجد فيقول:

أهل التصوف قد مضـوا ... صـار التصـوف مخرقـه

---

(٨٥٤) هو: حمد بن محمد بن إبراهيم بن خطاب البستي الخطابي، صاحب التصانيف، قال عنه الذهبي: "الإمام العلامة، المفيد، المحدث، الرحال". انظر: تذكرة الحفاظ (٣/ ١٠١٢)، وطبقات الحفاظ (ص ٤٠٣).

(٨٥٥) العزلة، لأبي سليمان الخطابي (ص ٩٢).

(٨٥٦) مقدمة أربع رسائل في التصوف (ص ٤).

صار التصوف صَيْحــة .... وتَواجُـدا ومُـطَبَّقَــه

مضت العلوم فلا علـوم... ولا قلـوبٌ مشرقـه

كذبتــك نفسك ليس ذا ... سَنَن الطـريـق المُخْلَقه

حتى تكون بعيــن مَـن ... عنـه العيــون المُحــدِقَـه

تجري عليك صروفـه ... وهمـوم سِـرّك مُطرقـه[٨٥٧].

وقد حدث في وقت متأخر من القرن الرابع ما يُسمَّى بالخوانق والأربطة والزوايا الصُّوفيَّة التي تُعقد فيها جلساتهم واجتماعاتهم[٨٥٨]، وذلك بعد أن قرَّر شيوخ الصوفية بعد القرن الثاني الهجري بوجوب أن يربط المريد نفسه بشيخ، وإلا فإمامه الشيطان !.[٨٥٩]

ويقول الرحالة ابن جبير (محمَّد بن أحمد الكناني، ت٦١٤هـ/ ١٢١٧م) في وصف تلك الخوانق: "وأما الرباطات التي يسمونها الخوانق فكثيرة، وهي مباني

(٨٥٧) اللُّمع للطوسي (ص ٢٨).
(٨٥٨) الخطط، للمقريزي (٢/ ٤١٤).
(٨٥٩) مقدمة أربع رسائل في التصوف (ص ٩- ١٠).

الصُّوفيَّة، وهي قصور مزخرفة، يطَّردُ في جميعها الماء على أحسن منظر يُبصر، وهي مرتبطة غالباً بأضرحة الأولياء"(٨٦٠).

وقد أرسل السيوطي عن أبي إسحاق الشيرازي: أنه قال في ترجمة الفقيه الشافعي المعروف أحمد بن عمر بن سُريج (٣٠٦ هـ)، أحد كبار الشافعيَّة في عصره أنه كان يحضر مجلس الجُنيد ويسمع كلامه، ثُمَّ يقول: أشهد أن لهذا الكلام صولةً ليست بصولة مبطل!(٨٦١).

وهذا خبرٌ نقطع بكذبه، سيما وأن سيرة الشيخ ابن سُريج معروفة في التزام السُّنة واجتناب البدعة، وقد قيل فيه: "بعث الله ابن سريج في المئة الثالثة فنصر السنة وخذل البدع"(٨٦٢)، وإذا كان ابن سريجٍ يُجالس الجُنيد (صاحب الحلاج) فلا يمكن أن يكون قد خفي عليه أمر الحلاج، كما يروي السيوطيُّ بغير إسنادٍ أنه: لما استفتي ابن سُريجٍ عن الحلاج، قال: هذا رجلٌ خفي عنِّي حاله، فلا أقول فيه شيئاً! (٨٦٣) .

---

(٨٦٠) اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك، محمد بن أحمد الكناني (ص ٢٢١).

(٨٦١) انظر: تأييد الحقيقة العلية (ص ٥٤).

(٨٦٢) انظر: الأعلام للزركلي (١/ ١٨٥).

(٨٦٣) انظر: تأييد الحقيقة العلية (ص ٥٧).

وكان ابن سريج على مذهب السَّلَف في الصفات، يؤمن بها ولا يُؤَوّلها، ويُمِرُّها كما جاءت[٨٦٤] ، فكيف لمن هذا حاله من العدالة والديانة أن يجالس المتصوفة فضلاً عن أن يسمع كلامهم ؟!، ولا شكَّ أن ذمَّة الصُّوفيين تتسع لمثل هذه النقولات، والحقُّ أنه لم ينقل أحدٌ من أهل السِّيَر أن ابن سريج جالس الجُنيد سوى ما جاء به السُّيوطيُّ مرسلاً من غير زمام.

ثُمَّ إن صلاح وتقوى ابن سُريج لم يكتسبها من مجالسة الجُنيد أو غيره، وإنما كان ذلك بتربية جدِّه سُريج الذي كان مشهوراً بالعلم والصلاح، ونسبته إليه واضحةٌ كالشمس في رابعة النَّهار، ومن أشبه أباه فما ظلم.

ومن العجيب حقاً أن ينقل ابن السُّبكي في الطبقات: عن أبي العباس ابن سريج أنه تكلَّم يوماً فأعجب به بعض الحاضرين، فقال ابن سريج هذا ببركة مجالستي للجنيد![٨٦٥]، وفي لفظٍ عند السُّيوطي: هذا ببركة مجالستي لأبي القاسم القُشيريّ صاحب الرسالة!![٨٦٦] .

---

(٨٦٤) انظر: تأييد الحقيقة العلية (ص ٥٤).

(٨٦٥) تأييد الحقيقة العلية وتشييد الطريقة الشاذلية (ص ٥٤).

(٨٦٦) تأييد الحقيقة العلية وتشييد الطريقة الشاذلية (ص ٥٤).

فأيُّ اللفظين نُصدِّق، وعلى أيِّ القولين نعتمد؟ أم أنها أخبارٌ متساقطة ومتناقضة، ولا نعرف أحداً من الأئمة ترجم لابن سريج بصحبة الجُنيد، فإن كان صحب القشيري فهذا الخبر لا نشكُّ في كذبه؛ لأن ابن سريج (**٢٤٩- ٣٠٦ هـ**) لا يُمكن أن يجتمع بالقُشيري (**٣٧٦- ٤٦٥ هـ**)، لأن بين وفاة الأول وولادة الثاني سبعين سنة، ثُمَّ إن حقَّ ابن سُريج أن يُقدَّم على القُشيري وهو سابقٌ عليه، فكيف يجتمع به ويسمع منه، ويُخبر عن بركة القشيري الذي سيولد بعد وفاته بسبعين سنة، وهذا والله هو العجب العُجاب، فيا لله من كذب المتصوفة.

والغرض المقصود من ذلك يبدوا واضحاً وهو بيان أن القُشيري وابنه أو الجُنيد وغيرهما محفوفين بعناية القضاة وفقهاء المسلمين، وأن تقديمهم على غيرهم مما لا يختلف فيه اثنان، وهذا ما نجزم بأنها ادِّعاءاتٌ مجرَّدة، وأن كُلَّ ذلك باطلٌ لم يكن، فإذا سمعنا ابن السبكي يحكي في طبقاته عن ابن السمعاني: أن القشيري أو ابنه أبو النصر عبد الرحيم كان يحضره أئمة الفقه والقضاة لأجل كونه صوفيّاً مُتمرساً، علمنا أن هذا القول بعيدٌ في سياق التاريخ والنظر(٨٦٧)، ومن ذلك ما نقله السيوطي من مجالسة أبي إسحاق الشيرازي (أحد أعلام الشافعية في عصره) لأبي

(٨٦٧) تأييد الحقيقة العلية وتشييد الطريقة الشاذلية (ص ٥٤).

نصر القشيري، ليأخذ عنه علم الكلام![٨٦٨] ، ثُمَّ نقله عن القيسراني، أن أبا إسحاق الشيرازي يُبيح السَّماع الصُّوفي![٨٦٩] .

ومن الجدير بالذكر أن عبد الرحيم بن أبي القاسم القشيري (ت ٥١٤ هـ) استطاع بدهائه وجرأته أن يُذكي الفتنة بين فقهاء الحنابلة والشافعية، أثناء وعظه ببغداد، وكان يغضُّ من الحنابلة ويتعصَّب للأشاعرة، حتى كاد الناس يقتتلون بالسيُّوف، فاستدعاه نظام الملك إلى أصبهان (إطفاءً لنار الفتنة ببغداد والتي وقعت بسببه)[٨٧٠] ، وهذا يُثبت دور التصوُّف في إذكاء نار الفتنة بين الفقهاء، والذي أفضى في نهاية الأمر إلى إحلال التصوُّف الوعظي كمشروع بديل لطريقة الفقهاء في تقرير الدين.

ونمضي إلى أعتاب القرن السابع الهجري، لنَقُدَّ ثوب ابن عطاء الذي يقول في لطائف المنن: أنه سمع ابن دقيق العيد يقول: ما رأيتُ أعرف بالله من أبي

(٨٦٨) تأييد الحقيقة العلية وتشييد الطريقة الشاذلية (ص ٦١).

(٨٦٩) تأييد الحقيقة العلية وتشييد الطريقة الشاذلية (ص ٧٣).

(٨٧٠) انظر: الأعلام للزركلي (٣/ ٣٤٦).

الحسن الشاذلي![٨٧١]، وهذا مُستبعدٌ جداً، سيما من ابن دقيق العيد الذي طالما أنكر على الصُّوفيين أحوالهم وأفعالهم، وحصلت له فتنةٌ بسببهم.

ومثله ما نقله السيوطيُّ: أن الشيخ زكي الدين عبد العظيم المنذري (شيخ ابن دقيق العيد) اجتمع بابن الفارض، وسمع شعره، وذكره في معجمه، ولم يصفه بسوء العقيدة![٨٧٢]، بينما وصفه وليُّ الدين العراقي، بأن: "الاتحاد في شعره ظاهر"[٨٧٣].

والناظر إلى الصورة الكاملة التي ترد فيها مثل هذه الحكايات السقيمة والمفتراة، يعرف الغاية التي يُقصد بها إذلال الفقهاء وعلماء الشريعة، وكونهم يردون مجالس المبتدعة على أعقابهم، يثنون الرُّكب، مُسلِّمين لهؤلاء الطواغيت (الشيوخ) أحوالهم المُنكرة، حتى ينقل ابن عطاء السكندري أن العلامة شمس الدين محمد بن أبي بكر الأيكي (ت ٧٢٦هـ) كان يذلُّ لأبي العباس المرسي عندما يجلس بين يديه، وهذا ما ينقضه السيوطيُّ في حُسن المُحاضرة، حيث يقول: "إنه قدم من

(٨٧١) تأييد الحقيقة العلية وتشييد الطريقة الشاذلية (ص ٥٥).

(٨٧٢) انظر: تأييد الحقيقة العلية (ص ٥٦).

(٨٧٣) انظر: تأييد الحقيقة العلية (ص ٥٩).

دمشق إلى مصر فولي مشيخة الشيوخ بها، فتكلم فيه الصوفية، فرجع إلى دمشق"[٨٧٤]، ولا يتكلم الصُّوفية إلا فيمن خالف بدعتهم ونقض بيضتهم.

(٨٧٤) انظر: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة؛ للسيوطي (١/ ٥٤٣).

المبحث الثالث

التصوُّف في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي

(الدولة الزنكيَّة والأيوبية):

كان المناخ العام في هذه الفترة التي قامت فيها الحروب الصليبية(٨٧٥) في غاية التدني والانحطاط، فذاع الوهن والضعف بين أبناء العالم الإسلامي، بسبب قيام خلافتين في الشرق، إحداهما سُنيَّة في بغداد، والأخرى شيعية في مصر، وقد

(٨٧٥) وكانت بداية الحروب الصليبية في القرن الخامس الهجري باستيلاء النصارى الحاقدين على مدينة طليطلة من بلاد الأندلس سنة (٤٧٨ هـ)، ثم جزيرة صقلية سنة (٤٨٤ هـ)، ومن ثمَّ شن الصليبيون حروباً كثيرة مع بدايات القرن السادس، وكان من أهمها الحرب الصليبية الأولى، سنة (٤٨٩ هـ)، والتي كان من أهم نتائجها الاستيلاء على بيت المقدس، ثم تلتها الحرب الصليبية الثانية، سنة (٥٤٢ هـ) والتي فشلت فشلاً ذريعاً، وانهزم فيها الصليبيين، ثم الحرب الصليبية الثالثة سنة (٥٨٨ هـ) والتي انتهت بعقد صلح الرملة بين صلاح الدين الأيوبي وريتشارد قلب الأسد، وأصبحت فلسطين أرضاً إسلامية، ثم كانت الحرب الصليبية الرابعة سنة (٥٩٩ هـ)، والتي كانت هدفها تجارياً، ثم تلتها حروب صليبية أخرى، إلى أن هزمهم صلاح الدين الأيوبي في معركة "حطين" سنة (٥٧٥ هـ)، وأخذ يطاردهم حتى أخرجهم من بيت المقدس سنة (٥٨٣ هـ).

انظر: موسوعة التاريخ الإسلامي، د. أحمد شلبي (٥/ ٥٩٢ -٦٣٤)، وتاريخ الإسلام، حسن إبراهيم حسن (٤/ ٢٤٥ -٢٥٢).

انهكتهما مشاكلهما الداخلية، والتي استنفدت كل قواها البشرية والمادية في الوقت الذي كان الاجتياح الصليبي يهدد بلاد الشام[٨٧٦] .

أضف إلى ذلك المصائب الخارجية التي عصفت بالعالم الإسلامي، من قيام ثائرة أسبانيا ضد حكامها المسلمين، ودور بطرس الناسك في تحريض الغرب على الحروب الصليبية، وحالة الغليان الفكري والاجتماعي بين مدرستي المعتزلة والأشعرية، والذي قام نظام الملك وزير الملكشاه السلجوقي بتأسيس (المدرسة النظامية) وفي بغداد، وغيرها من المدارس، لتقوم بدورها في مجادلة المعتزلة وتناهضها.

وقد عجزت هاتين الخلافتين عن القيام بواجبهما في التصدي لهذا الغزو الصليبي، وتطهير البلاد منه، بالإضافة إلى حالة النزاع المستمر بين الملوك والأمراء، الأمر الذي خلق جواً من الفوضى والارتباك، وصارت الدولة الإسلاميَّة مدخلاً سهلاً لكل طامع.

الأمر الذي حدا بالكثير من الناس إلى اعتناق التصوُّف، نظراً لفشله في الحياة الدُّنيا، أو لأنه لا يجد ما يعتاش منه، حيث أن الأزمات الاقتصادية والظروف

---

(٨٧٦) الروضتين في أخبار الدولتين، أبو شامة (٢/١).

الصعبة التي تعرضت لها بلاد الشام في ذلك العصر، بالإضافة إلى الكوارث الطبيعية المدمرة من الزلازل والمجاعات والجدب والقحط والجفاف، والتي أهلكت الحرث والنسل، فانتشر بسببها الفقر والمجاعة وحدث الغلاء، دفعت الكثير من الناس لاتخاذ التصوُّف وسيلةً من وسائل الارتزاق، خاصَّةً وقد كانت بيوت الصُّوفيَّة غنيَّةً بالخيرات، بسبب كثرة أوقافها، وما يغدقه عليه السلاطين والأغنياء من أموال وخيرات في حين يتركون باقي أفراد الشعب في كد وضنك...! [٨٧٧].

وبناءً على ما سبق، فإن العلاقات بين السلاطين والصُّوفيَّة كانت حميمة إبان الغزو الصليبي لعالم الإسلامي، وتظهر هذه العلاقات من خلال الرعاية الرسميَّة لتلك الطرق، وتشجيع إنشاء مؤسسات موازية للمدارس والمعاهد، من الخانقات والتكايا.

أولاً: تأثر سلاطين الدولة الزنكية والأيوبية بالتصوُّف والصُّوفيَّة على النحو التالي:

١. نور الدين محمود بن زنكيّ (حكم في الفترة ١١٤٦– ١١٧٣م)، الذي تأثر جداً بالشيخ الصُّوفي عمر الملا، لدرجة أن جعله مرجعاً رسمياً في بلاد

(٨٧٧) الروضتين في أخبار الدولتين، أبو شامة (١/٢).

الموصل، حيث أمر الولاة والأمراء بألا يقضوا أمراً حتى يعلم به الملا عمر، فما أمرهم بشيء إلا امتثلوه، وبنى له أكبر جامعٍ بالموصل، وكان يحضر الموالد والاحتفالات الصُّوفيَّة معه، وكان يستشيره ويكاتبه.[٨٧٨]

كما حظي بمثل هذه العلاقة بعض الطرق الصوُّفية على الرغم من الخرافات والبدع المستشرية بينهم، ومنها الفرقة الملامتيَّة في بلاد الشام، وشيخها أبو يزيد الخراساني، الذي كان يأكل من الدوزرة (التسوُّل)، وكان زنكي يُقبل عليه إقبالاً عظيماً؛ لاعتقاده أنه لا يرتكب شيئاً يُخالف الدين[٨٧٩]، بل إنه أغدق عليهم الأموال، وبنى لهم العمائر، وأوقف عليهم الأوقاف[٨٨٠]، وكانوا متنعمين جداً، ما دفع ابن جبير إلى أن يصفهم بملوك الأرض من شدة إقبالهم على الدُّنيا، فيقول: "وهذه الطائفة (الصُّوفيَّة) هم الملوك بهذه البلاد؛ فقد كفاهم الأمير مؤنة الدنيا، وأسكنهم قصوراً تذكرهم بقصور الجنان".[٨٨١]

---

(٨٧٨) البداية والنهاية، ابن كثير (٢٦٣/١٢، ٢٨٢). والروضتين؛ لأبي شامة (١١٦/١). وسنا البرق، للبنداري (ص ٥٢).

(٨٧٩) تاريخ إربل، ابن المستوفي (٢٦٥/١). ولكواكب الدرية، ابن قاضي شهبة (ص ٣٦).

(٨٨٠) خطط الشام، كرد علي (٩٠/٥).

(٨٨١) الرحلة، ابن جبير (ص ٢٢١).

كما كانت نساء السلاطين يتبرعن للصُّوفيَّة، من حيثُ كُنَّ يتخذن ذلك قربةً عند الله تعالى، ومنهنَّ "الخاتون عصمت"، زوجة نور الدين زنكي (ت ٥٦٩ هـ) [٨٨٢] ، والتي تزوجها صلاح الدين، من بعد وفاة سيده، وأوقفت الخانقاة (الخانوتيَّة) غربي دمشق[٨٨٣] .

وقد شجَّع الصُّوفيَّة كلاً من الحكّام، والأمراء، والأغنياء باتخاذهم وسيلةً يتقربون بها إلى الله، فأغدقوا عليهم الأموال والصدقات، وساهموا في بناء الخانقاهات والزوايا، ما أدى إلى انتعاش التصوُّف إبَّان الحروب الصليبية..[٨٨٤] !.

٢. السلطان صلاح الدِّين الأيوبيّ الذي كان يعتقد في الشيخ الخبوشاني، ويحرص على زيارته قبل أن يخرج في غزواته ضد أعدائه[٨٨٥]، وكان يغدق على الصُّوفيَّة ومشائخهم الأموال الطائلة، ويجري لهم في كلِّ يومٍ طعاماً لحماً

(٨٨٢) نور الدين زنكي: هو نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي، ولد سنة (٥١١ هـ) بحلب، ونشأ بكفالة والدته، وتعلم القرآن والفروسية، والرمي، وكان شهماً شجاعاً، ذا همة عالية، وسيرته محمودة مع رعيته، وكان مجاهداً للنصارى، آمراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر، محباً للعلماء والصالحين، مبغضاً للظلم، صحيح الاعتقاد، توفي سنة (٥٦٩ هـ). انظر: البداية والنهاية لابن كثير (١٢/ ٢٨٦، ٢٧٧).

(٨٨٣) العسجد المسبوك، الغساني (١/١٩٧).

(٨٨٤) الحركة الصوفية في بلاد الشام خلال الحروب الصليبية، علي حشيش (ص ١٤٩).

(٨٨٥) وفيات الأعيان، ابن خلكان (٤/٢٣٩).

وخبزاً[٨٨٦]، خاصَّة وأن لهم دوراً كبيراً في القضاء على الدولة الزنكية في بلاد الشام، في مقابل قيام الدولة الأيوبية على أنقاضها !.

وقد كان الصُّوفيَّة في تلك الحقبة يحظون بمكانة اجتماعية مرموقة، وحاضنة شعبية كبيرة، حرص الأيوبيون على الاستفادة منها في دعم نظامهم السياسي، وبهذا نخلص إلى أن العلاقة بين المتصوفة والسلطة قائمة على المنفعة المتبادلة، فهي بالنسبة للسلطان تتعلق بوجوده الشرعيّ، والحفاظ على استقراره، وبالنسبة للمتصوفة ترتبط بمصلح مادية اجتماعية، والحظوة لدى الحكام [٨٨٧].

وربما استعمل السلاطين الصُّوفيَّة كسفراء ووسطاء سياسيين، حيث أن صلاح الدين كان يطمع أن تكون مصر والشام تحت إمرته، وكان أمراء البيت الزنكي في بلاد الشام، عقبة إزاء هذا الطموح الجامح، فأرسل الخليفة في بغداد الشيخ الصُّوفيّ صدر الدين عبد الرحيم –الذي متهماً بميله إلى صلاح الدين – ليصلح بينه وبين عز الدين صاحب الموصل، والذي يرى نفسه الوريث الشرعي لنور الدين زنكي (ت ٥٦٩ هـ)، وأن صلاح الدين غاصبٌ لحقِّهم[٨٨٨].

٨٨٦() الخطط، للمقريزي (٤١٥/٢).

(٨٨٧) الصوفية والسياسة، حسن (ص ٨٥).

(٨٨٨) تاريخ ابن الوردي (٩٢/٢). والسلوك، للمقريزي (١٩٨/١).

وكذلك فعل الملك المعظم عيسى مع الشيخ الصُّوفيّ محمد بن أبي الفتح، الذي أرسله إلى جلال الدين بن خوارزم شاه، يستعينه على أخوية الكامل، والأشرف، اللذين اتفقا ضده، فأجابه بالسمع والطاعة، ولما عاد الصُّوفيُّ محمد بن أبي الفتح من مهمة التأليب، أضاف إليه الملك المعظم لقب (مشيخة الشيوخ) (٨٨٩).

وقد لعب الصُّوفيَّة دوراً كبيرة إبَّان الحروب الصليبية، أهمها إثارة الرأي العام، ضد الغزاة الصليبيين، واستنهاض الهمم للخروج لقتالهم، كما أن لأربطتهم دور إيجابيّاً في رصد تحركات العدو، وحراسة الحدود، والقتال أحياناً كما حصل في (حطِّين) و(عين جالوت) و(فتح بيت المقدس)، وقد أفادتهم هذه الجهود في ترسيخ العلاقة مع السلاطين سيما صلاح الدين.

ولعلَّ الدافع الرئيس لمشاركتهم في القتال، هو شدة حنقهم، ورغبتهم العارمة في الثأر والانتقام من الصليبيين الذين قتلوا شيوخهم، وإخوانهم المجاورين ببيت المقدس، وهو ما أدركه السلطان صلاح الدِّين الأيوبي، واستغلَّه لصالحه في عمليات الحشد والتعبئة، وتكثير الجنود سيما بعد معركة حطين، فأمر بإحضار

(٨٨٩) الوصايا، ابن عربي (ص ٢٥٧). البطولة والفداء، أسعد الخطيب (ص ١١٦).

عناصر الإسبتاريَّة، والداويَّة من الصليبيين، وأمر الصُّوفيَّة بذبحهم، فقتلوا جميعاً بحضرة السلطان[٨٩٠] .

والحقيقة التي لا يجوز إنكارها أن الصليبيين ما تجاسروا على غزو بلاد الشام إلا من بعد من تأكدوا من ضعف الخلافة العباسيَّة، وتشرذم الدولة الزنكية، والنزاع بين أمرائها، علاوةً على صراع الخلافة الفاطميَّة الدائم مع الخلافة العباسيَّة، والدولة الزنكيَّة [٨٩١].

وبعد وفاة السلطان صلاح الدين الأيوبي، كان التاريخ حافلاً بالأحداث الجسام، والدسائس، والمؤامرات، والخيانات بين أبناء البيت الأيوبي من ناحية، وبين الصليبيون الذين يقيمون في بعض الثغور الشامية، منهزين الفرص للإنقضاض كلما أحسوا بالضعف، أو بانشغال الأيوبيين فيما بينهم بالنزاع على السلطة.[٨٩٢]

ونجد أن قرقوش بن عبد الله الأسدي (قائد الجند)، وكذلك مظفر الدين كوكبرى الكرديّ (صهر صلاح الدين الأيوبي ت ١٢٣٣م) قد بنيا خانقاوات

---

(٨٩٠) جهاد المسلمين في العصور الصليبية، فايد عاشور (ص ٩٢). والحركة الصليبية (٣٩٨/١).

(٨٩١) الكامل في التاريخ، ابن الأثير (٤٩٤/٨-٤٩٥). والمختصر في تاريخ البشر، أبو الفداء (٣٠/٢).

(٨٩٢) تاريخ مختصر الدول، ابن العبري (١٩٥-١٩٦).

للصُّوفيَّة في إربل وفي حلب، وقد استخدمت في أيام الأعياد؛ لجذب الكثير من الجموع التي اعجبت بما يُقدَّم فيها من الطعام والشراب وسبل الراحة والمصروف.(٨٩٣)

٣. الأشرف موسى بن الملك العادل الأيوبيّ، الذي كان يُعظِّم الصُّوفيَّة، إلى الدرجة التي جعلته يوصي بأن يُدفن في خرقة أحدهم.(٨٩٤)

٤. والملك الناصر داود، صاحب الكرك، كان يُعظِّم الصُّوفيَّة، حتى اتخذ صاحباً له منهم، وهو عبد الحق المغربي، والذي كان منجمه الخاص!.(٨٩٥)

٥. والملك الأمجد، صاحب بعلبك، والي كان يتردد إلى الزوايا والخوانق، وبخاصَّة زاوية الصُّوفي "عبد الله اليونيني"(٨٩٦)، وكان إذا دخل الأمجد الزاوية يجلس بين يدي اليونيني كهيئة الذليل، فيسمعه كلاماً شديداً، وهو يمثل كل ما يقوله!.(٨٩٧)

---

(٨٩٣) الطرق الصوفية في الإسلام، سبنسر ترمنجهام (ص ٤٣).

(٨٩٤) مرآة الجنان، اليافعي (٦٩/٤). والبداية والنهاية، لابن كثير (١٤٧/١٣).

(٨٩٥) مفرج الكروب، ابن واصل (٣٣٠/٤).

(٨٩٦) عبد الله اليونيني (أو اليوناني) من أتباع أحمد البدوي، ومن أصحاب السطوح. انظر: الجواهر السنية والكرامات الأحمدية (ص ٥٦).

(٨٩٧) العبر، الذهبي (١٧٣/٣). والبداية والنهاية، ابن كثير (٩٤/١٣).

٦. والملك غازي، صاحب حلب، الذي يعتقد في الشيخ الصُّوفي "ابن عربي"، وقد كان يتردد عليه، ويتلقى منه التوجيه والارشاد.[٨٩٨]

وفي المقابل نجد أن الإمام الغزاليّ وهو حجَّة الصُّوفيَّة على الإسلام، لم يُشارك في الحروب الصليبية، لا قتالاً ولا تحريضاً، خاصَّة وأنه شهد سقوط القدس في أيدي الفرنجة، وعاش اثنتي عشرة سنة بعد ذلك، ولم ينبس ببنت شفة، بل ولم يُشر إلى هذا الحادث العظيم، ولو أنه أهاب بسكان العراق، وفارس، وبلاد التُّرك؛ لنصرة إخوانهم في الشام، لنفر مئات الألوف منهم للجهاد والقتال... وما غفلة الغزاليِّ عن ذاك إلا لأنه كان في ذلك الحين قد انقلب صوفيّاً، أو اقتنع على الأقل بأن الصُّوفيَّة سبيلٌ من سبل الحياة السعيدة، التي لا ينبغي استهلاكها في المعارك والقتال..[٨٩٩]

ويقول زكي مبارك: "بينما كان بطرس الناسك (قائد الحملة الشعبية إلى بلاد الشام) يقضي ليلة ونهاره في إعداد الخطب، وتحبير الرسائل لحث أوروبا على

---

(٨٩٨) تلخيص الكشف والبيان في حوادث الزمان، أبو شامة (ص ١٤٥).

(٨٩٩) التصوف في الإسلام، د. عمر فروخ (٩-١٠).

امتلاك أقطار المسلمين، كان الغزاليُّ غارقاً في خلوته، منكبّاً على أوراده، لا يعرف ما يجب عليه من الدعوة إلى الجهاد!".[٩٠٠]

وكيف يكون ذلك، وهو العالم الفقيه، وصاحب الكلمة المسموعة، والصيت المدوي، والذي لا يجوز له أن يجهل ما يجب أن يُقال في زمن الإغارة على أهل الإسلام؟!!... وعلى الرغم من تضمن كتاباته للجهاد بشكله النظري، إلا أنه لا يُذكر له أيَّ دور في التحريض أو الجهاد لحقيقي والعملي !... ويرى الباحث أن الصراع النفسي الداخلي الذي عانى منه الغزالي، كان له كبير الأثر على عزلته وعدم مشاركته في التحريض ضد الصليبيين.. على أنه ليس مبرراً مقبولاً، مع عدم إمكانية التغاضي عنه..

ثانياً: عصر أبي حامد الغزالي (٤٥٠-٥٠٥هـ):

وقد دخلت العقيدة الصُّوفية طوراً جديداً بفضل الغزاليّ، وإذا كان الجنيد بعقليته ودهائه استطاع أن يحافظ على التصوُّف من الأعاصير المهلكة، وأن يحتل رأس الهرم الصُّوفيّ، باعتباره سيِّد الطائفة، فإن الغزاليّ استطاع أن يضفي على التصوُّف صبغة الشرعية، وأن يُقرِّب بينه وبين مذهب أهل السُّنَّة في خطوة جريئة،

(٩٠٠) الأخلاق عند الغزالي، د. زكي مبارك (ص ١٧).

لم يكن لها أن تتمَّ إلا بشخصيَّة الغزالي، الذي تمتع في عصره بزعامة الفقهاء والمتكلمين، مع تقدير الحكام والعوام له، خاصَّة وأنه تتلمذ على يد إمام الحرمين الجويني في علوم الفلسفة والمنطق والجدل، والذي يدين له الغزاليُّ بالفضل في تكوينه العلمي والمعرفي، ثم اتجه إلى نظام الملك ليناظر العلماء بحضرته ويتفوق عليهم، فحظي بولاية التدريس في المدرسة النظامية في بغداد، فازدادت شهرته..

ثم أصيب (بالتصوُّف!)، فاعتكف بالجامع الأمويّ بدمشق، وصنَّف أشهر كتبه (الإحياء)، وقضى آخر عمره بطوس، يوزع أوقاته بين مدرسة الفقهاء، وخانقاه الصُّوفيَّة.

ويبدوا أن تعاطف الغزالي مع الصُّوفيَّة كان في أخريات حياة شيخه إمام الحرمين الجويني، الذي كان يمتعض من الغزالي في الباطن، وإن كان يُظهر غير ذلك... وربما منعت هيبة إمام الحرمين الغزاليّ من إعلانه تصوُّفه، خاصَّة وأنَّ الجوينيّ –إمام الحرمين– كان يحتقر الصُّوفيَّة، وقد قال فيهم: "ما شغل هؤلاء إلا الأكل والشُّرب والرَّقص"(٩٠١) .

(٩٠١) التعريف بالإحياء، العيدروس (ص ٤٩).

وكان إمام الحرمين الجويني رحمه الله يُحرِّمُ الوقف عليهم، ونقل ابن الصلاح عنه: "أنه أبطل الوقف على الصوفية؛ لأنه لا حقَّ لهم فيه يوقف عليه"[٩٠٢]، وصحَّف بعضهم كلمة الإمام، فجعل كلامه: "لا حدَّ لهم يُوقف عليه"، فحدَّ الحدَّ، وصحَّح الوقف، وهذا عجيب أيضاً !.

وبعد موت الجوينيّ، وخلو الجو للغزاليّ، واشتهاره في حاضر العالم الاسلامي –بغداد–وتصدُّره للعلماء فيها، أعلن الغزاليُّ تصوُّفه، وألَّف كتابه (الإحياء)، ولم يكن ذلك ليمرَّ دون ثورة عارمة للفقهاء، الذين "طعنوا فيه، ونهوا عن قراءته ومطالعته، وافتوا بإطراحه ومنابذته، ونسبوا ممليه (كاتبه) إلى ضلال وإضلال، ورموا منتحليه وقُرَّاءه بالزيغ عن الشريعة"[٩٠٣].

ومع أنهم (الفقهاء) كانوا دون الغزاليّ في الشهرة والنفوذ، وربما العلم، إلا أن إنكارهم لم يكن بدافع الغيرة والحسد كما يُفسِّره البعض، وما يهمنا هنا هو السَّبب الحقيقي لقيام مثل هذه الثورة، والذي يكمن في رفض التصوُّف، حتَّى أنهم أفتوا بتكفيره، وأحرقوا كتابه "الإحياء" في مواضع شتَّى من البلاد الإسلاميَّة[٩٠٤] ،

---

(٩٠٢) فتاوى ابن الصلاح (١/ ٣٧١).

(٩٠٣) روض الرياحين، اليافعي (ص ١٤).

(٩٠٤) الطبقات الكبرى، الشعراني (١/ ١٠).

فإنه لما وصلت مصنفات الغزالي إلى بلاد المغرب أمر السلطان علي بن يوسف بن تاشفين بإحراق كتب الغزالي[٩٠٥] .

ويُذكر أن يوسف بن تاشفين (ت ٥٠٠هـ) أحد رجال دولة المرابطين (الفقهاء) في المغرب كان أحد الذين أنقذوا دولة الإسلام في الأندلس، ضد غزو النصارى، فألحق بهم الهزيمة النكراء في موقعة "الزلاقة" سنة (٤٧٩ هـ)، وواصل علي بن يوسف مسيرة والده، واستطاع أن يوقع النصارى في هزيمةً مريرة في إقليش سنة (٥٠٢ هـ) وهذه المعركة من أكبر المعارك بعد موقعة "الزلاقة"[٩٠٦].

وكان من شيوخ المغرب الذين أفتوا بحرقها أبو الحسن ابن حرزهم، وكذلك أفتى القاضي عياض أبو الفضل بن موسى بن عياض (ت ٥٤٤ هـ) بإحراق كتب الغزالي"[٩٠٧].

مما اضطر الغزاليّ إلى تصنيف مؤلفات ورسائل للرَّد على منكري كتابه، ومنها: "إشكالات الإحياء"، وفيه يقول مستهيناً بخصومه: "أدلة الطريق هم العلماء ورثة الأنبياء، وقد شغر منهم الزمان، ولم يبقَ إلا المترسمون، وقد استحوذ على

(٩٠٥) طبقات الشافعية؛ للسبكي (٦/ ٢١٩).

(٩٠٦) انظر: شذرات الذهب؛ لابن العماد، (٣/ ٢٦٢)، وتاريخ الإسلام للذهبي (٤/ ١٢٧).

(٩٠٧) شذرات الذهب؛ لابن العماد، (٦/ ٢٢٧).

أكثرهم الشيطان"[٩٠٨]، وهكذا استطاع الغزاليّ أن يُبرِّر إحياءه وتصوُّفه، بأنَّ يهاجم العلماء ويصفهم، بالشكليات الفارغة، والمراسيم الظاهرية!.

واستطاع الصُّوفيون في تلك الفترة أن يجدوا من يُدافع عنهم، باسم العلم، والدِّين، والفقه، وفي المقابل لم يترك الصُّوفيون الغزاليّ يواجه كل تلك القوى العلميَّة الفذَّة، بل رفعوا من قدره إلى الغاية القصوى، وغالوا في الثناء عليه، حتَّى عدُّوه مجدد المائة الخامسة[٩٠٩]، ووقفوا بجانبه حتَّى في المنامات التي حرصت على أن تجعل النَّبيَّ ﷺ يبارك الغزالي، و(الإحياء)، ويهين المعترضين عليه.[٩١٠]

وقد تعرض (التاج) السُّبكيّ (ت ٧٧١هـ/ ١٣٧٠م) لبعض تلك المنامات، فذكر منام أبي الحسن ابن حرزهم، قال فيه: لما وقف ابن حرزهم على الْإِحْيَاء تَأمل فِيهِ ثمَّ قال هذا بِدعَة مُخَالف للسّنة، وكان شيخاً مُطاعاً في بلاد المغرب فَأمر بإحضاره وإحراقه، فرأى النَّبِيّ ﷺ، وأبو حامد الغزالي قَائِم وبيده الإحياء، فقال: يا رسول الله هَذَا خصمي!، قال: فنظر رسول الله ﷺ في الإحياء ورقة ورقة إلى آخِره، ثمَّ قال: والله إن هذا شيء حسن!، ثم أمر بتجريد أبي الحسن ابن حرزهم وضربه

(٩٠٨) إشكالات الإحياء–على هامش الإحياء، (ص ٦٨).

(٩٠٩) التعريف بالإحياء، العيدروس، (ص ٣٤).

(٩١٠) التعريف بالإحياء، العيدروس على هامش الإحياء (ص ١٢–١٣).

حدَّ المفتري، واستيقظ الفقيه ليجد أثر الجلد على جسمه، وانتهت تلك الأسطورة بتصوُّفه على يد أبو مدين شعيب (٥٩٤هـ/ ١١٩٨م)، الذي فتح له ستَّة أقفال من المعرفة، وبقي القفل السابع الذي فتح على يد أبي يعزى [٩١١].

هذا مع أن (ابن حرزهم) لم يكن رأس المنكرين على الغزاليّ، كما تصوره تلك الأسطورة، فقد كان ابن رشد (ت ١١٩٨م)[٩١٢] هو خصم الغزالي، وزعيم المنكرين عليه في المغرب.[٩١٣]

وذكر عبد الغني النابلسي في كتابه (كشف النُّور)، عن الشيخ عبد الله بن زين الإشبيلي أنَّه قرأ ليلةً تأليف أبي القاسم بن أحمد في الردِّ على الغزالي، فعميَ!!، فسجد لله، وتضرَّع وأقسم أن لا يقرأه أبداً، فعاد إليه بصره!.

وتتابعت الرؤى الصُّوفيَّة في تعظيم الإحياء حتَّى عند الرسل والأنبياء!، فروى الجامي في (نفحاته): "أنَّ الشاذلي رأى في منامه النَّبيَّ يتفاخر بالغزالي أمام

(٩١١) طبقات الشافعية الكبرى، التاج السبكي (٦/٢٥٩). وانظر: جمع المقال في إثبات كرامات الأولياء، أحمد فريد المزيدي (ص ٢٣).

(٩١٢) هو: محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن رشد القرطبي المالكي، قال عنه ابن العماد: أتقن الطب، وأقبل على الكلام والفلسفة، حتى صار يُضرب به المثل فيها. انظر شذرات الذهب (٤/ ٣٢٠).

(٩١٣) الطبقات الكبرى، الشعراني (١/١٠).

موسى وعيسى.."[٩١٤]، ولكن هل سيستمر الإعجاب الذي تعكسه رؤيا الشاذلي، في المنام؟، أم هي مجرد مجموعة من الحلول لبعض المشاكل العقديَّة والفلسفيَّة المستعصية؟!.

أما ابن حرزهم فهو شخصيَّةٌ مجهولة، جعله الصُّوفيَة بطلاً في منام لكي يحقق غرضهم في تعظيم (الإحياء)، ويُعقِّب المتصوفة على هذه القصة بقولهم: "ولولا أن هذا الشيخ أدركه اللطف والعناية، للقي العذاب والنكال في الآخرة"!.

هذا مع ما رواه العيدروس نقلاً عن السمعانيّ: "أن بعضهم رأى فيما يرى النَّائم كأنَّ الشمس طلعت من مغربها، مع تعبير ثقات المحدثين ببدعة تحدث، فحدثت في جميع المغرب بدعة إحراق إحياء علوم الدين"[٩١٥]، ولماذا لم يعبروا تلك الرؤى في بدعة الإحياء نفسه مثلاً؟!!..

ويظل (إحياء علوم الدِّين) من أخطر كتب الصُّوفيَّة؛ وتكمن خطورته في أنه لم يقتصر على التصوُّف كما فعل الطُّوسي في (اللُّمع)، أو القشيريُّ في (الرسالة) قبل الغزالي، وكما فعل ابن عربي في (الفتوحات المكية)، و(الفصوص) فيما بعد...

---

(٩١٤) نفحات الأنس (ص ٣٧٣).

(٩١٥) التعريف بالإحياء، العيدروس (ص ٢٩).

ولكن الغزالي قام بحشد كافَّة علوم الدِّين لخدمة هدفه الأصليّ من تأليف الكتاب ألا وهو "تقرير التصوُّف كمذهب إسلامي متخصِّص في أمور الباطن"، يقول الغزاليّ: "... وإذا تكلَّم الفقيه في غمر الدنيا– أي تكلم في صفات القلب وأحكام الآخرة– فقد تطفَّل"[٩١٦].

ونجد الغزاليّ يرتدي أحياناً ثوب الفقه؛ ليهاجم المتكلمين، ويعتبر أن هذا العلم من البدع[٩١٧]، وعلم الكلام هو الابن المدلل للفلسفة، ومعلومٌ أنه ألَّف كتاب (تهافت الفلاسفة) الذي ينقم فيه على "ابن سينا"، في اتجاهه العقلي الأرسطي، مع أن العقيدة الصُّوفيَّة عند الغزالي مستقاة من الفلسفات الغنوصية اليونانية؛ ففي كتاب (التهافت) أنكر على الفلاسفة إنكارهم لحشر الأجساد بعد الموت، وشنع عليهم بإثباتهم الثواب والعقاب للنفوس خاصَّة دون الأجساد، ثُمَّ قال في أول كتاب "الميزان" أن هذا الاعتقاد هو اعتقاد شيوخ الصُّوفيَّة على القطع، ثُمَّ يقول في كتاب "المنقذ من الضلال" إن اعتقاده هو كاعتقاد الصُّوفيَّة، وإن أمره إنما وقف على ذلك، بعد طول البحث!

---

(٩١٦) الإحياء (١/١٩).

(٩١٧) الإحياء (١/١٩).

وهذا النوع من التناقض والتردد في كتب الغزالي كثيرٌ لمن تصفحها، وأمعن النظر فيها، أضف إلى ذلك الأسلوب الجدلي الفلسفي الذي استعمله الغزالي في شرح عقائد الصُّوفيَّة[٩١٨].

وكان الرد صارخاً هذه المرة من الفيلسوف الفقيه ابن رشد، الذي وضع كتاب (تهافت التهافت)، وأراد به إسقاط ونقض (التهافت) للغزالي، فسكنت ثائرة الأخير!.[٩١٩]

على أن ابن رشد يُعدُّ أحد أعلام التصوُّف العقلي، والذي جعله بديلاً عن خرفات التصوُّف الروحاني، الذي قال به الغزالي [٩٢٠] .

وما تضمنه "الإحياء" من الأحاديث الضعيفة والموضوعة تُعدُّ من أكبر المطاعن التي ووجه بها الغزاليُّ في كتاب الإحياء، ولم تجدي كافة المحاولات في الدفاع عن "الإحياء"، وتبقى الفائدة الوحيدة للإحياء هي إثبات العقيدة الصُّوفيَّة بما فيها من التصديق بأولياء الصُّوفيَّة، والإيمان بأن العلم درجات، والفقه درجات،

---

(٩١٨) تاريخ فلاسفة الإسلام، محمد لطفي جمعة (ص ١٢٠).

(٩١٩) تاريخ فلاسفة الإسلام، محمد لطفي جمعة (ص ١٦٤).

(٩٢٠) تاريخ فلاسفة الإسلام، محمد لطفي جمعة (ص ١٨٠).

والتوحيد درجات أدناها (التوحيد الإسلاميّ)، وأعلاها (التوحيد الصُّوفيّ) المتمثل في وحدة الوجود، وهو نفس التقسيم الذي تابع فيه الغزاليّ شيخه الجنيد!...

أما التوحيد فيُقدِّمه الغزاليّ بأنه "من علوم المكاشفة"، وبذلك يسدُّ الطريق مقدماً أمام الفقهاء، وهم محرومون منه؛ لأنه من العلم الذي يكاشف الله به أولياءه، ثُمَّ يُقسم التوحيد إلى أربع مراتب، فيقول: "للتوحيد أربع مراتب، وهو ينقسم إلى لب، وإلى لب اللب، وإلى قشر، وإلى قشر القشر، فالرتبة الأولى من التوحيد، هو توحيد المنافقين، وهو أن يقول الإنسان بلسانه لا إله إلا الله، وقلبه غافلٌ عنه، أو منكر له، ويعصم ذلك صاحبه في الدنيا عن السّيف.. والثانية: توحيد العوام والمتكلمين، وهو أن يصدق بمعنى اللفظ قلبه، ويحفظ ذلك صاحبه من العذاب في الآخرة إن توفي عليه.. والثالثة: توحيد المقربين، وهو أن يشاهد الأشياء على كثرتها وتعددها صادرة عن الواحد الأحد، بمعنى أنه لا يشاهد إلا فاعلاً واحداً، ويشاهد ذلك بطريق الكشف، بواسطة نور الحق.. والرابعة: توحيد الصِّديقين: وهي أن لا يرى في الوجود إلا واحداً، وهو مقام الفناء عند الصُّوفية، فيفنى عن رؤية نفسه والخلق، ويستغرق في رؤية الخالق..".[٩٢١]

ولنا ملاحظات على كلام الغزاليّ في التوحيد، وهي:

---

(٩٢١) الإحياء (٤/٢١١، ٢١٢).

١ . أنه جعل توحيد المنافقين، درجة في التوحيد، وهو مخالفٌ لفعل الجنيد عندما جعل توحيد العوام (ولو من صالحي المسلمين) هو أول مراتب التوحيد، وكلاهما متفقان على أن توحيد العوام هو أدنى من التوحيد الصُّوفي الخاص .

٢ . أنه جعل المرتبتين الثالثة والرابعة خاصَّة بالصُّوفيَّة ممن "شاهد التوحيد بطريق الكشف، بواسطة نور الحق"، بينما لا يمكن للفقهاء والمتكلمين –من غير المتصوفة– الوصول إلى هذه المراتب في التوحيد؛ لأن التوحيد في المرتبة الثالثة قائمٌ على الكشف، أي علم الغيب، وهو للصوفية خاصة دون سائر النَّاس.

٣. أن سند الغزالي في العقيدة الصوفية قائمٌ على الكشف أو الوحي (الإلهام أو المنام) اذي يتلقاه الصُّوفيّ من لدن ربِّه، ومعنى ذلك أن هذه العقيدة الجديدة لم يكن للمسلمين الأوائل علمٌ بها قبل هؤلاء المتصوفة.

٤ . أن المرتبة الثالثة في التوحيد الصُّوفيّ –وحدة الفاعل– بمعنى أن كل ما يصدر عن إرادة الإنسان من أفعال، إنما يصدر في الحقيقة عن الله تعالى، ولا شك أن القول بالجبرية من أسس العقيدة الصُّوفيَّة، التي تجعل الله الروح المسيطر، والكامن في المظاهر الحسيَّة، وذلك يتناقض مع الثواب والعقاب، والجنة والنار،

ولعلّ هذه المقولة جعلت بعض الصُّوفيَّة، يعبد الله لذاته، لا لجنته ولا لناره، لأنه لا يرى فاعلاً في الحقيقة إلا الله !...

٥. أن الغزاليّ يُقرِّر عقيدة (وحدة الوجود) في قالب فلسفي، باسم التوحيد، فيرى أن الذوات مع كثرتها ليست إلا وجوداً واحداً، وذاتاً واحدة، وبالطبع لن يرى الصُّوفيُّ نفسه لأنه مستغرقٌ في الفناء، فيرى الله في كل شيء متى أراد ذلك !...

٦. لم يتخلَّ الغزاليُّ عن كتابه (الإحياء) على الرغم من موجة الإنكار العارمة على عقيدته الصُّوفيَّة، بل جعلها من مقاما التصوُّف عنده في كتاب (إشكالات الإحياء) الذي ردَّ فيه على خصومه من الفقهاء والعلماء، يقول الغزاليُّ في مقام المشاهدة إنها: "ثلاثة: (مشاهدة بالحق) وهي رؤية الأشياء بدلائل التوحيد، و(مشاهدة للحق) وهي رؤية الحق في الأشياء، و(مشاهدة الحق)، وهي حقيقة اليقين بلا ارتياب"[٩٢٢]، فالمشاهدة الأولى: إسلامية. والثانية: تعبر عن الاتحاد. والأخيرة عن وحدة الوجود المطلقة[٩٢٣]، ومن ثم نجد الغزاليّ يحذر من الكتابة في هذا النوع من التوحيد؛ لأنه لا تتعلق به أحكام شرعيَّة عمليَّة، بل إن من يفعل ذلك فقد كفر، يقول الغزاليُّ: "فاعلم أن هذه غاية علوم المكاشفة، وأسرار هذا

(٩٢٢) إشكالات الإحياء (ص ٦٤).

(٩٢٣) انظر: العقائد الدينية في الدولة المملوكية، (ص ٦٦)، وما بعدها.

العلم لا يجوز أن تسطر في كتاب، فقد قال العارفون: إفشاء سرِّ الربوبية كفر، ثم هو غير متعلِّق بعلم المعاملة[٩٢٤] أي الفقه..

وانتصرت دعوة الغزالي الذي حاول التوفيق بين التصوُّف والإسلام، فأصبح فيما بعد حجة للتصوُّف على الإسلام.. أي أنَّه استطاع أن يجعل التصوُّف هو الصورة الإسلاميِّة المتسامحة بما فيه من شرك ودجل، ووحدة وجود، والذي وضع الإسلام في أدنى درجات الدِّين، ونصَّب نفسه على رأس ولكن جذوة الصِّراع بين الحق والباطل لا يمكن أن تنطفئ، وموجة الإنكار لا تزال قويَّةً لم تضعف..

أما ردَّة الفعل الصُّوفيَّة تجاه إنكار الفقهاء فلا أكثر من أن يرددوا عبارات الغزاليّ: "العلم حجاب، والجدل عمل النفس"، وأن الاتحاد "لا يلوح إلا من الباطن بمكاشفة نور الحق"... والمهم أن عصر الغزاليّ أصيب بوباء الشطح، حتَّى "ترك جماعةٌ من أهل الفلاحة فلاحتهم، وأهل الحياكة حياكتهم"[٩٢٥]، وتصوَّفوا بمجرد نطق كلمات منه، وقد استشرى الأمر حتى أثار استياء الغزالي، واضطره إلى الإنكار عليهم أن يصلوا لهذا المستوى الذي هو قصرٌ على الأعيان دون الأوباش ... ومعنى ذلك أن رصيد التصوُّف من العامة قد كثر وفاض إلى حدٍّ أزعج الغزاليّ

(٩٢٤) إحياء علوم الدين (٤/٢١٢، ٢١٣).

(٩٢٥) إحياء علوم الدين (١/٣٢).

نفسه، فاستنكف أن يوضع في خندق واحد مع طغام الفلاحين، والحائكين، وفي نفس الوقت الذي يتحدث الغزاليُّ باسم هذا القطيع من البشر، يفلسف لهم عقائدهم، ويضفي عليهم أواصر الصلة بالإسلام.. ولا أدل على ذلك من أن الغزاليّ انتصر بهم على خصومه من الفقهاء والعلماء الذين ثاروا عليه بعد كتابه (الإحياء).

ولأن وباء الشطح (الاتحاد) في زمانه "استطار شرره، وعظم في العوام ضرره"، ما جعله مضطراً إلى الإفتاء بأنَّ: "قتل الواحد من هؤلاء أفضل من أحياء عشرة أنفس"، وإذا دققنا في الدافع الحقيقي الذي جعل الغزاليّ يهبُّ لقتلهم، وهو العالم والفيلسوف، وأحد الخاصة المقربين من الحكام، لوجدنا أن المصلحة العليا للتصوُّف تقتضي ذلك، وهي الصلح والاتفاق بين الإسلام والتصوُّف، فلا بأس بتقديم بعض القرابين على مذبح معاهدة الصلح، ولكلِّ صلحٍ ضحايا...

بينما لم يُفتِ الغزاليّ بجواز قتل أبي يزيد البسطاميّ، فاعتذر عنه تارةً، وبرأه تارةً أخرى، فيقول: "وأما أبو يزيد البسطامي فلا يصح عنه ما يُحكى، وإن سُمع منه، فلعل ذلك حكاية عن الله عز وجل في ما كلام يردده في نفسه..."[(٩٢٦)]، عذرٌ أقبح من ذنب..

(٩٢٦) إحياء علوم الدين (١/٣٢).

ثم أصبح الغزاليّ بالعامة أكثر جرأة، وصنف في التصوُّف (مشكاة الأنوار)، الذي أعلن فيه بصراحة عقائد التصوُّف، من خلال وحدة الوجود، وتتابعت كتابته، ولولا العامة ما كانت شهرته، وما اشتهرت مصنفاته حتَّى اليوم..

وطبَّق الغزالي نظريته الجديدة في الموائمة بين (الإسلام والتصوُّف)، فابتنى مدرسة للفقهاء في (طوس) مسقط رأسه، إلى جانب خانقاه للصوُّفيَّة، وعاش بقيَّة عمره يُشرف على المدرسة والخانقاه، ليصبح الفقه والفقهاء في خدمة التصوف المعبِّر عن دين العامة الجديد.

وبفضل جهود الغزالي الصوفية وجدنا من فقهاء العصور المتأخرة من يجعل من القوانين الفقهية خادماً ذليلاً لطامات الصوفية ودواهيها، وأمثلة ذلك كثيرة، منها:

ما قاله الباجوري في حاشيته على ابن قاسم الغزي: "ولو كان ولياً لله تعالى وأمكنه أن يكون في مكة بخطوة واحدة مثلاً لم يلزمه النسك، لأن الشارع إنما يعول على الأمور الظاهرة""[٩٢٧]، وهذا غريبٌ في قانون الفقه والدين.

---

(٩٢٧) شرح الباجوري على ابن قاسم الغزي (١/ ٥٩٧).

كذلك قوله في موضعٍ آخر: "ولو غسَّل –يعني الميِّتُ –نفسه كرامةً كفى، كما وقع لسيدي أحمد البدوي، أمدنا الله من مدده، ولا يُقال المخاطب بذلك غيره، فكيف بفعله؟!! لأننا نقول: إنما خوطب به غيره لعجزه، فحيث اقتدر عليه اكتفى! ومثله لو غسل الميِّتَ ميِّتٌ آخر كرامةً! فإنه يكفي ولا يُكره!!"[٩٢٨].

وكذلك قول الباجوري: "ويُكره تقبيل الأعتاب عند الدخول لزيارة الأولياء (يعني المقبورين)، إلا إن قصد به التبرُّك بهم فلا يكره، وإذا عجز عن ذلك لازدحامٍ ونحوه، كاختلاط الرجال بالنساء كما يقع في زيارة سيدي أحمد البدوي، وقف في مكانٍ يتمكن فيه من الوقوف بلا مشقة، وأشار بيده أو نحوها ثُمَّ قبَّل ذلك، فقد صرَّحوا؟ بأنه إذا عجز عن استلام الحجر الأسود، يُسنُّ له أن يُشير بيده، أو عصا ثُمَّ يُقبِّلها"[٩٢٩]. وإن لم يكن هذا غلوّاً، وضلالاً مُبيناً، فما في الدنيا غلوٌّ ولا ضلال ؟!!.

ومن الجدير بالذكر أنَّ تطور الولاية في المفهوم الصُّوفي، بدأ يظهر مع نهاية القرن الثالث وبدايات القرن الرابع الهجري، وهو الوقت الذي كتب فيه الخراز، وسهل التستري، والحكيم الترمذي في حقيقة الولاية، وفق نظام طبقي

---

(٩٢٨) شرح الباجوري على ابن قاسم الغزي (١/ ٤٧٠).

(٩٢٩) شرح الباجوري على ابن قاسم الغزي (١/ ٤٨٨).

كامل، على أنَّ الترمذيّ هو أوَّل من نظَّر لفكرة الأولياء، و"الختم"، وجرى ذكرها على لسان (أبو عليّ السالمي)، الذي جعل لهم أوصافاً، غير التي نعرفها من الإيمان والتقوى[٩٣٠].

وجعلوا "أولياء الله كالعرائس التي لا يراهنَّ إلا أقرب المقربين"[٩٣١]، فهم يعرفون بعضهم البعض، ولا يعرفهم أحدٌ من غيرهم، وهم قوام العالم!.

ورتبوا لذلك أحكاماً، فجعلوا الإيمان بالأولياء: هو الإقرار لهم بالولاية، ولأحوالهم بالتسليم، وعدم الاعتراض على مذاهبهم ومسالكهم؛ لأنَّ الله قدَّس أسرارهم[٩٣٢].

يقول الحكيم الترمذي: فأعلى مراتب الأولياء يُسمى (القطب)، أو (الغوث الأعظم) ويعد مركز الطاقة الروحية، ويحيط به ثلاثة (نقباء)، وأربعة (أوتاد) يجوبون

(٩٣٠) نفحات الأنس (ص ١٢١).

(٩٣١) شرح المثنوي (٧/ ٤٢).

(٩٣٢) جمع المقال في إثبات الكرامات بعد الانتقال، أحمد فريد المزيدي (ص ٥٨).

الكون في كل ليلة!، وسبعة (أبرار)، وأربعون (أبدال)، وثلاثمائة (أخيار)، وأربعة آلاف من (الأولياء المحققين) .(٩٣٣)

ويذكر روزبهان البقلي توليفة أخرى لطبقات الأولياء، ثلاثمائة وليّ على قلب آدم ﷺ، وأربعين على قلب موسى، وخمسة على قلب جبريل، وثلاثة على قلب ميكائيل، ثُمَّ واحدٌ قلبه على قلب إسرافيل (وهو الغوث)!.

ويضيف بعضهم إلى هؤلاء أربعة أنبياء مقيمين في السماء، وهم: إدريس، والخضر، وإلياس، وعيسى، وبذلك فإنه يصل العدد الكوني لهؤلاء الأولياء (٣٦٠ وليّاً!). ويرى أحمد السرهندي النقشبندي (من صوفية القرن العاشر الهجري، ت ١٦٢٤م)، أنَّه وصل إلى درجة (القيوم) هو وثلاثة من خلفه، وهي مرتبة أعلى من الغوث أو القطب!.

وفي القرن السابع الهجري، وصل الاعتقاد في الغوث والقطب مبلغه، حتى ساد أنَّه المرجع الديني الأوحد لدى المؤمنين، وإنكاره هو كفرٌ بالشريعة!، ويعبر

(٩٣٣) انظر: انظر الأبعاد الصوفية في الإسلام، (ص ٢٣٠) ، نقلاً عن الفتوحات المكية؛ لابن عربي.

الروميُّ عن ذلك بقوله: "من لم يعرف إمامه فهو كافر"[٩٣٤]، وبهذا يمكننا إيجاد قاسم آخر مشترك بين الصُّوفيَّة والشيعة الذي يعتقدون بالإمام الغائب!.

ومن الجدير بالذكر أن ديوان المثنوي أحد المصادر المعروفة عند الشيعة.

المبحث الرابع

التصوُّف في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي

لا يخفى على الباحثين ما ساد في العالم الإسلامي مع بدايات القرن الخامس من الانحلال والتفكك في النسيج الاجتماعي والأخلاقي في دولة الخلافة العباسية، مع كثرة المنازعات والاضطرابات بينهم وبين السلاجقة الأتراك من جهة، ومع دولة العبيديين بمصر والشام وشمال أفريقية من جهة أخرى، والإسماعيلية الباطنية في إيران، والدويلات المتناحرة في اليمن، وملوك الطوائف في الأندلس، والصليبيين في أطراف الشام وفلسطين، كل ذلك أدى إلى ضعف الخلافة العباسية في السيطرة على الأمور.

(٩٣٤) المثنوي (٢/ ٣٣٢٥).

أضف إلى ذلك ما كان من سوء الأحوال المعيشية والاجتماعية التي أدت إلى انتشار ثقافة النهب والسلب والفساد بين أفراد المجتمع، وإقبال العامة والفقهاء على الطرق المشروعة وغير المشروعة للتكسب، والاهتمام المتزايد للناس بمتطلبات حياتهم الضرورية، وتزامن هذا الفساد مع شيوع ألوان من اللهو كمصارعة الحمام، وانتشار الملاهي والجواري والمغنيات، فكل هذه الظروف هيأت لانهيار منظومة القيم، وأصبح المجتمع بيئةً خصبة لاستفحال البدع والمنكرات، وكثرة المتصوفة والعابثين[٩٣٥].

وكان هذا القرن هو بداية لظهور فكرة "التفقه" ثم "التصوف" التي كانت تمر بفترات متفاوتة يعتريها النشاط والفتور. وكان أبو حامد الغزالي (ت ٥٠٥ هـ) من أشهر من دفع إلى إحياء هذا التوجه في نهايات القرن الخامس وبدايات القرن السادس الهجري، وكان لحركة الغزالي تأثيراً وضحاً في متفقهة بغداد والعالم الإسلامي، حيث ظهرت توأمة عجيبة بين الفقه والتصوف فيما يشبه التحالف [٩٣٦] (**alliance**).

---

(٩٣٥) انظر: البداية والنهاية؛ لابن كثير (١٢/ ١٠٥).

(٩٣٦) انظر: متصوفة بغداد في القرن السادس الهجري، عمر سليم التل (ص ٨٨).

ولا شك أن شهرة "الغزالي" الفقهية أسهمت بدرجة كبيرة في جعله قدوةً لأعدادٍ كبيرة من فقهاء عصره، من حيث اقتفاؤهم أثره في التفقه ثم "التصوف"، حتى صار ذلك تياراً ملحوظاً في القرن السادس الهجري، وبما أن الغزالي فقيهٌ أصلاً ومعترف به من قبل الدولة السلجوقية، فقد صار التلازم الذي أحدثه بين علوم الشريعة والتصوف تلازماً مؤسسياً تمثل لاحقاً في ظاهرة بناء الرباط بجانب المدرسة في المجتمعات الإسلامية(٩٣٧) .

وقبل ذلك كان الصوفية يعيشون في مرحلة تشبه العزلة الاجتماعية، حيث كان لهم جماعاتهم الخاصة ذات العدد القليل، وكان يندر أن يتولى أحد منهم منصباً رسمياً، بل على العكس كان الواحد منهم إذا اتجه نحو التصوف اعتزل منصبه إن كان من أولي المناصب، كما فعل الشبلي (ت٣٣٤هـ) وكان حاجب الأمير الموفق(٩٣٨) ، وكما فعل أبو علي الروذباري (ت٣٢٢هـ) وكان من أبناء الوزراء والرؤساء والكتبة (٩٣٩) .

(٩٣٧) انظر: متصوفة بغداد في القرن السادس الهجري، عمر سليم التل (ص ٨٤).
(٩٣٨) طبقات الصوفية، للسلمي (ص ٣٣٧). وصفة الصفوة؛ لابن الجوزي (٢/ ٤٥٦).
(٩٣٩) تاريخ بغداد (١/ ٣٤٧) ، وطبقات الشافعية الكبرى، للسبكي (٣/ ٤٨).

كذلك أسهم موقف الفقهاء المعادي للصوفية في عزلهم عن المشاركة الفاعلة في الحياة الاجتماعية والرسمية طوال الفترة السابقة، الأمر الذي اختلف بالكلية مع حلول دولة السلاجقة الأتراك، الذين شجعوا طوائف الفقهاء للانتظام في سلك هذه الطائفة، وكان لهذا التشجيع أثره في تلاقح والتقاء الصوفية بالفقهاء، ولا يشك الباحث في استعمال الصوفية لعلومهم للتقرب من أرباب السلطة، سيما كثرة مدحهم للسلاطين، والتحدث في خصومهم في المواعظ وغيرها.

وقد نال التصوف دفعة قوية على يد الوزير نظام الملك، ودفع الخلفاء العباسيون بهذا الاتجاه عبر بناء الربط الصوفية، وإعلاء مكانة "شيخ الشيوخ"، وبناء رباطه قبل سنة ٤٥٠ هـ، وتسلّم عدد من الصوفية مناصب رسمية، وكان ذلك في الثلث الأخير من القرن السادس الهجري، وقد تصاعد ذلك أكثر ما تصاعد في عهد الخليفة الناصر لدين الله (٥٧٥ – ٦٢٢هـ)، وبدأ انضمام جماهير الناس إلى التصوف حتى غدا التصوف حالة شعبية مُعاشة يومياً.

وبعد عشر سنين من دخول السلاجقة إلى بغداد شرع نظام الملك ببناء المدرسة النظامية التي افتتحت رسمياً سنة (٤٥٩ هـ) على مسافة قريبة من رباط

"شيخ الشيوخ"، وكان معظم أساتذة النظامية المعينون من قبل نظام الملك شافعية ذوي ميول أشعرية وصوفية[٩٤٠] .

وكان "شيخ الشيوخ" الصوفي له علاقة مباشرة مع الخليفة العباسي منذ فترة مبكرة من القرن السادس الهجري، وكان يتمتع بحرمة كبيرة، حتى أن الخليفة الناصر أمر بأن لا يعترض لأحد اعتصم به ولو كان عليه المال والدم! وكان "شيخ الشيوخ" بمثابة السفير والوسيط الرسمي للدولة بين الخليفة وبين نظرائه من الأمراء والخلفاء، وكان أغلب أوقاتهم يدورون على أبواب الملوك ويقتفون آثارهم.

ويكاد لا يوجد صوفي ممن حمل لقب شيخ الشيوخ إلا وأرسل في سفارات خارج بغداد، فقد أرسل الشيخ عبد الوهاب بن سكينة (ت٦٠٧هـ) إلى دمشق في سنة (٥٨٥هـ)[٩٤١] ، وأرسل ابنه شيخ الشيوخ عبد الواحد (ت٦٠٨هـ) في سفارة إلى جزيرة كاس (أوكيش أوقيس)[٩٤٢] ، وروسل بأخيه شيخ الشيوخ عبد الرزاق بن عبد الوهاب (ت٦٣٥هـ) إلى الاطراف[٩٤٣] . كما أُرسل الشيخ شهاب الدين

---

(٩٤٠) انظر: متصوفة بغداد في القرن السادس الهجري، عمر سليم التل (ص ٣٠٨).

(٩٤١) تاريخ الإسلام، للذهبي (٤٣/ ٢٥٥).

(٩٤٢) الكامل، لابن الأثير، (١٠/ ٣٥٧) ، ذيل تاريخ بغداد؛ لابن النجار (١/ ١٥٢- ١٣٥) ، وتاريخ الإسلام للذهبي (٤٣/ ٣٩٨).

(٩٤٣) الوافي بالوفيات، للصفدي (١٨/ ٢٤٨).

السهروردي (ت٦٣٢هـ) رسولاً إلى الشام من الديوان مرات وإلى خوارزم شاه وغيره من ملوك الأطراف[٩٤٤] .

كما أُرسل عبد الوهاب بن الشيخ عبد القادر (ت٥٩٣هـ) رسولاً إلى الشام [٩٤٥]، ومن تلاميذ أبي النجيب السهروردي أنفذ أبو المحاسن عمر بن علي الدمشقي (ت٥٧٥هـ) رسولاً إلى نور الدين محمود[٩٤٦] ، وانفذ الامام نجم الدين التفليسي الصوفي ثابت بن تاوان (ت٦٣١هـ) رسولاً إلى مصر، وهو من كبار اصحاب الشهاب السهروردي[٩٤٧] .

وقد شكر الصوفية ذلك للخلفاء؛ وفقد ان علي بن مكارم الصوفي (ت٦٢٣هـ) يحج في كل سنة عن الخليفة المستضيء بأمر الله[٩٤٨] ، كما حج عثمان بن محمد البندنيجي (ت٦٥١هـ) عن ام الخليفة الناصر ثلاثين سنة، وكان من اصحاب الشهاب السهروردي[٩٤٩] .

---

(٩٤٤) ذيل تاريخ بغداد؛ لابن النجار (٥/ ١١١-١١٢).

(٩٤٥) تاريخ الاسلام، للذهبي (٤٢/ ١٣٥) ، الذيل على طبقات الحنابلة، لابن رجب (١/ ٣٨٩).

(٩٤٦) المختصر المحتاج إليه، للذهبي (ص ٢٨٣-٢٨٤).

(٩٤٧) تاريخ الاسلام، للذهبي (٤٦/ ٥٨).

(٩٤٨) ذيل تاريخ بغداد، لابن النجار (٤/ ١٢٤).

(٩٤٩) تلخيص مجمع الآداب، لابن الفوطي (٤/ ٤٩٧-٤٩٨).

وأما عن نظام الملك محمد بن حسين الوزير (ت ٤٨٨ هـ)، فقد كان يُوطئ العوام والصالحين مجلسه، ويدين بحب الصلحاء والزهاد، وعلى الرغم من ذلك فقد كانت طريقتهم أقرب إلى طريقة السَّلف منها إلى مسلك الطرقية المبتدعة الذين أدخلوا تغييرات جوهرية على نظام التصوُّف، وبحثوا في تأصيل هذا المذهب فقهياً وعقائدياً بما يتوافق مع المنهج الأشعري السائد في دولة الخلافة، حتى كاد أن يكون أكثر صوفية القرن السادس الهجري ذوي خلفيات فقهية، وكان من نتائج هذا التوجه أن خفت حدة موقف الفقهاء المشكك تجاه الصوفية.

وقد اختلفت المصادر في مدى صحة خبر اتصال الغزالي بمحمد بن عبد الله بن تومرت البربري (ت٥٢٤هـ) الذي وصل في أسفاره إلى العراق واجتمع بعدد من علمائها، فأشار ابن الأثير إلى الخبر ولكنه نفى صحته(٩٥٠) ، بينما أكد الذهبي الخبر (٩٥١).

وما يُهمنا هنا ليس البحث في صدق الخبر أو عدمه، وإنما هو مدى تأثير الغزالي على الحياة الشعبية في بغداد وما حولها؛ حتى لدى الصوفية الوافدين من المغرب؛ كأبي الحسن الشاذلي، وابن عربي الحاتمي، وأبي العباس المرسي.

---

(٩٥٠) الكامل؛ لابن الأثير (٩/ ١٩٥).

(٩٥١) تاريخ الاسلام؛ للذهبي (٣٦/ ١٠٦).

ويُذكر أن محمد بن تومرت كان يدَّعي أنه المهدي المنتظر، وكان يُظهر التعبد والزهد والورع، الذي طاف حول البلدان، وسعى في تأسيس دولة "الموحدين"، ولكن جيشه هُزم على يد قائد الجيش المرابطي علي بن تاشفين، وكانت هذه الهزيمة صدمةً عنيفة لابن تومرت الذي انتابه المرض، ومات قهراً سنة (٥٢٤ هـ)(٩٥٢).

وخلال هذه الفترة زاد إنشاء الربط الصوفية، والتي ترتبط مباشرةً برباط "شيخ الشيوخ" أبي سعد أحمد بن محمد بن دوست النيسابوري (ت ٤٧٧ أو ٤٧٩هـ)، والتي نظمت حركة التصوُّف ببغداد، ومكَّنت الدولة من السيطرة عليها، من خلال قنوات رسمية ومقبولة شعبياً، ومع ذلك فقد بقي كثير من الصوفية خارج هذه الربط، كما لم تكن كل الربط ذات صلة رسمية، فقد كان أفراد من المشايخ ينشئون ربطاً لإيواء مريديهم وخدمهم.

ولعلَّ اهتمام الأمراء والخلفاء فيما يأتي سببه خشيتهم من كل رجل يلتف حوله الناس، سيما وأن دولة الخلافة تتهددها الأخطار من كل حدب وصوب، وقد كان الناس يعتقدون في أيِّ إنسان يُظهر لهم كرامةً من الكرامات، أو يُنقل عنه أخبار تُمجده، وترفعه، وكان الناس يقصدون المتصوفة ليستمعوا إلى مواعظهم

---

(٩٥٢) انظر: تاريخ الدول الإسلامية، ومعجم الأسر الحاكمة (١/ ٥٣).

ويتبركوا بدعائهم، ويتوبوا على أيديهم، وكان ذلك مظهراً يومياً ثابتاً من مظاهر الحياة الاجتماعية.

ومن الجدير بالذكر أن أبا سعد أوصى قبل موته بأن يستخلف ابنه "إسماعيل" (ت ٥٤١ هـ) مكانه فاستخلف وهو ابن اثنتي عشرة سنة[٩٥٣] ، وقد توالى على مشيخة رباط شيخ الشيوخ أبناء أبي سعد النيسابوري حتى وفاة آخرهم سنة (٥٩٦ هـ)، ثم ولي المشيخة أبناء عبد الوهاب بن سكينة سبط اسماعيل بن ابي سعد، كما وليها الشهاب السهروردي وعلي بن النيّار (ت ٦٥٦ هـ) الذي عرض عليه الخليفة المستعصم الوزارة فأبى، وكان ابن النيار قبل ذلك مؤدباً للمستعصم منذ صغره [٩٥٤] !.

وكانت هذه الفترة خصبةً جداً لظهور الحكايات الشعبية، ورواية كرامات الشيوخ، والحديث عن المغيبات، وتداولها كجزء من الحياة العامة، وإحاطتها بجانب من القداسة والحُرمة، ما يجعل تكذيبها ضرباً من الكفر، وخروجاً من الإسلام، وزيادة المجالس الوعظية على حساب مجالس الفقه والحديث، وهذا

(٩٥٣) المنتظم؛ لابن الجوزي (٩/ ١١).

(٩٥٤) انظر: متصوفة بغداد في القرن السادس، عمر سليم التل (ص ٣١٣) ، نقلاً عن الحوادث، مجهول، (ص ٢٢٨-٢٢٩).

الأمر مرتبط بظهور دين الصُّوفية، الذي ساهم السلاطين والسلاجقة في دعمه في ظل الجهل المطبق بأحكام الشريعة، وغياب علماء الدين المجددين عن ساحة العوام.

وكان لهذه الأمور الأثر الكبير على الفقهاء والعلماء في تلك الفترة الذين كانوا يرغبون في التفات الناس إليهم، والأخذ عنهم، فكان لا بُدَّ لهم من صُحبةٍ صوفية يُعرفون ويشتهرون بها على رءوس العامة، وكان من الصعب إيجاد توجهٍ فقهيٍّ مُستقل، لأن العامة قد تشرَّبت التصوف، واعتقدت في شيوخه.

ويصعب تصور التصوف في القرن السادس الهجري بدون كرامات، كذلك فإن تصور مجتمع تلك الفترة يبقي تصوراً قاصراً إذا لم يؤخذ بعين الاعتبار دور الكرامات فيه وأثرها في الفعل التاريخي، وذلك بصرف النظر عن موقف المؤرخ تجاه الكرامات الصوفية، سلبياً كان أم إيجابياً، ويؤكد هذا القول حقيقةُ مفادها أنه لا يكاد مصدر من المصادر التاريخية يخلو من ذكر أصحاب الكرامات، الأمر الذي يدل على أن الكرامات كانت عنصراً ثابتاً من العناصر النفسية و الفكرية لأهل تلك الفترة، وبالتالي فإنها تدخل في الفعل التاريخي لهم[٩٥٥].

(٩٥٥) متصوفة بغداد في القرن السادس الهجري، عمر سليم التل (ص ١٤٥).

ويبدو أن الفقيه إذا كان صوفياً وذا كرامات ظاهرة وكلمات مسجوعة، فإنه يصبح قدوة في المجتمع يقتدى الناس به ويتمثل الناسُ أقواله وأشعاره وحكاياته، ويُشار إليه بالبنان.

ويؤكد كلامنا بعض فقهاء ومحدثي القرن الخامس عرفوا بالانقطاع إلى رباط شيخ الشيوخ أبي سعد، مثل المفتي الصوفي أبي حفص عمر بن عبد السلام (ت ٤٢٦ هـ)، ومثل الشريف أبي نصر محمد بن محمد بن علي الهاشمي (ت ٤٧٩ هـ) مسند العراق في وقته.

ولكن يبقى أن نُشير إلى أن كثيراً من فقهاء ذلك الزمان لم يسلكوا طريق التصوف، مع مشاركتهم في بعض الممارسات الصُّوفية، وبذلك لا يمكن نسبتهم إلى طريقٍ صوفيٍّ بعينه، أو يُقال عنهم أنهم متصوفة.

ويذكر أن رباط أبي سعد الصوفي أحرقته العوام في أحداث سنة (٤٥٠هـ) في زمن "البساسيري" (ت ٤٥١هـ)، وقد تتلمذ أبو سعد لأبي سعيد بن أبي الخير شيخ الصوفية في خرسان، وخصص له القائم بأمر الله موضعاً ليبني فيه الرباط وذلك بعد التماس منه، فبنى الرباط وجمع الأصحاب. وفي سنة (٤٦٦ هـ) هدم

الرباط بسبب الغرق، فأعاده أجود مما كان، وقد سن أبو سعد للصوفية اكل خبز "الخشكار" بدلاً من الخبز النقي(٩٥٦).

ويذكر أنه كانت لأبي سعد منزلة كبيرة عند السلطان، كما كانت له صلة بالخليفة، ومما يشير إلى ذلك قيامه بعمارة تربة معروف الكرخي بعدما احترقت سنة ٤٥٩ هـ وذلك بأمر من الخليفة(٩٥٧) .

وهذا يوضح ان لقب شيخ الشيوخ إنما هو لقب رسمي وليس لقباً شعبياً، ويبدو انه لقب مستحدث في الخلافة العباسية، وقد يكون استحداثه ترافق مع دخول السلاجقة بغداد سنة (٤٤٧ هـ)، أو بعيدها، وذلك يدل على أن التصوف قد صار له مكانة رسمية في بغداد منذ ذلك الحين. ابي نصر عبد الرحيم ابن الاستاذ أبي القاسم القشيري الذي قدم بغداد سنة (٤٦٩ هـ) وجلس للوعظ في المدرسة النظامية ورباط شيخ الشيوخ والذي كان محور فتنة جرت له مع الحنابلة بسبب تكلمه على مذهب الاشعري، وقد كان من المتعصبين له يومها شيخ الشيوخ ابو سعد (٩٥٨).

---

(٩٥٦) المنتظم في أخبار الملوك والأمم؛ لابن الجوزي (٩/ ١١).

(٩٥٧) ابن الاثير، الكامل (٨/ ٤٥٠).

(٩٥٨) الكامل في التاريخ؛ لابن الأثير، (٨/ ٤١٣). وفيات الاعيان؛ لابن خلكان (٣/ ٢٠٨)

وقد ورد ذكر هذه الفتنة آنفاً، وكان من سكان رباط شيخ الشيوخ المستقرين فيه أحمد بن علي بن الحسين ابو بكر الطريثيثي المعروف بابن زهراء المقرئ الصوفي (ت ٤٩٧هـ)، وكان قد تتلمذ في التصوف إلى أبي سعيد بن ابي الخير شيخ الصوفية بنيسابور، فهو اذن وشيخ الشيوخ ابو سعد قد تتلمذا لنفس الاستاذ في التصوف، وكان الطريثيثي يؤذن كل ليلة على سطح رباط أبي سعد (٩٥٩).

وطرأ على التصوف بعض التغييرات الطفيفة، التي لا تمسُّ جوهر التصوف وعقيدته، مثل البحث فيمن هو "مؤهل" للمشيخة الصوفية، ومن هو "غير مؤهل"،

بالإضافة إلى المكوس التي فُرضت على أهل بغداد من قبل سلاطين السلاجقة، إلى الصراعات المذهبية بين السُّنة والشيعة؛ ففي سنة (٤٠٨ هـ) حصل نزاعٌ بين أهل السنة وأهل محلة الكرخ الشيعة، وتُعد "الكرخ" هي معقل التشيع العلوي في بغداد، وكان بني رفاعة العلويين الذين ينتسب إليهم السيد أحمد الرفاعي

---

(٩٥٩) المنتظم؛ لابن الجوزي (٩/ ١٣٨-١٣٩).

علوياً من تلك المنطقة، والذي تنسب إليه الطريقة الرفاعية المعروفة، ولكثرة هذه الفتن نزلوا بمنطقة "البطائح" جنوب العراق[٩٦٠] .

وقد كان الغالب على متصوفة بغداد أنهم من أصول أعجمية، فكثير منهم ولد خارج بغداد وإن كان استوطنها أو نشأ فيها، وربما كان لهذا صلة بالأحداث التي انتهت بزوال سيطرة البويهيين وابتداء سيطرة السلاجقة منذ دخولهم بغداد سنة (٤٤٧ هـ)، وقد كان لأبي القاسم القشيري الذ دخل بغداد سنة (٤٤٨ هـ)، وابنه عبد الرحيم من بعده، دوراً في النهوض بمذهب الأشعري في بغداد في القرن الخامس الهجري، وهو ما أدى لاحقاً إلى احتكاكات مع حنابلة بغداد.

وتجدد هذا الصراع بين السنة والشيعة في سنة (٤٣٣ هـ)، وسنة (٤٤٤ هـ)، وسنة (٤٤٥ هـ)، وفي سنة (٤٦١ هـ) حصل نزاعٌ في دمشق بين المغاربة "أصحاب الفاطميين" والمشارقة "أصحاب العباسيين"، حتى رموا بيوت بعضهم بعضاً بالنار؛ مما أدى إلى احتراق المسجد الأموي في دمشق، وكانت أبرز المظاهر الشعبية للتشيع في بغداد الإعلان بشتم الصحابة رضوان الله عليهم كما حدث

(٩٦٠) البطائح: أرض واسعة بين واسط والبصرة يغلب عليها الماء وفيها معاقل لمن جار عن طاعة السلطان. انظر: معجم البلدان، لياقوت الحموي، (١/ ٤٥٠ – ٤٥١).

مثلاً في سنة (٥٦١ هـ)، وسنة (٥٧١ هـ)، وسنة (٥٥٧ هـ)، وكان ذلك يستفز أشد مشاعر العداء لدى أهل السنة، فتقع الفتن بين الفريقين.

وكان تشيع بعض رجال الدولة العباسية سبباً في ظهور الرفض وبالتالي الفتن المذهبية، فقد كان يزدن التركي (ت ٥٦٨ هـ) احد كبار الأمراء الذين تحكموا في الدولة وانتشر بسببه الرفض[٩٦١]، وانتشر الرفض أيضاً في زمن "ابن الصاحب" استاذ دار الخليفة الناصر (٥٧٥ – ٦٢٢ هـ)، وقد بلغ ابن الصاحب من النفوذ والتحكم في الدولة حداً لم يتجاسر معه أحد أن ينكر على الرافضة حتى أفضى الأمر إلى خروج بعض فقهاء بغداد منها كأستاذ النظامية رضي الدين القزويني[٩٦٢].

وكان من عادة الشيعة في يوم عاشوراء أن يهجروا الأسواق ويعلنوا بالنوح على أهل البيت والإنشاد لاسيما في ناحية المختارة ومحلة "الكرخ"، وكان ذلك من معاني ظهور التشيع في بغداد، ويبدو أن الشيعة عموماً تأثروا سلبياً بزوال الخلافة الفاطمية بمصر على يد صلاح الدين الأيوبي سنة (٥٦٧ هـ)، قال ابن الجوزي: "وانكمد الروافض وكانت مصر يخطب لهم بها إلى هذا الأوان" (٩٦٣)،

---

(٩٦١) المنتظم؛ لابن الجوزي، (١٠، / ٢٤٢).

(٩٦٢) شذور العقود؛ لابن الجوزي، (ص ٣١٣).

(٩٦٣) المنتظم؛ لابن الجوزي، (١٠/ ٢٣٧).

وبعد أربع سنوات أمر المستضيء (٥٦٦ – ٥٧٥ هـ) بتقوية يد ابن الجوزي ضد كل من ينتقص من الصحابة(٩٦٤).

هذا عدا ما كان يقع بين مذاهب أهل السنة من فتنٍ وقتلٍ وسلبٍ ونهبٍ لأتفه الأسباب، فكانت تقع الفتن بين الحنابلة والحنفية من أجل الاختلاف على تفسير آيةٍ من القرآن الكريم، أو من أجل شرب النبيذ، وتقع الفتن بين الحنابلة والشافعية من أجل الجهر بالبسملة في "الصلاة الجهرية".

وعندما توفي أبو الحسن الأشعري سنة (٣٢٤ هـ) اضطر أصحابه إلى إخفاء مكان قبره عن الحنابلة خوفاً من أن ينبشوه، لأنهم كانوا يعتقدون أنه يقف مع المعتزلة ضدهم، وفي سنة (٤٤٥ هـ) أُعلن بنيسابور لعن أبي الحسن الأشعري؛ فضج من ذلك أبو القاسم القشيري (ت ٤٦٥ هـ)، وعمل رسالة سماها "شكاية أهل السنة لما نالهم من المحنة"، وكان ذلك في عهد السلطان السلجوقي طغرلبك، ولم يستجب السلطان لشكاية القشيري(٩٦٥)، وقد سُعي بالقشيري إلى الولاة حتى أدى ذلك إلى رفع مجالسه وتفرق شمل اصحابه، واضطر إلى مفارقة بلده، فوصل على اثرها إلى بغداد فورد على الخليفة القائم بأمر الله، ولقي في بغداد القبول

---

(٩٦٤) المنتظم؛ لابن الجوزي، (١٠،/ ٢٥٩).

(٩٦٥) المنتظم؛ لابن الجوزي(٨/ ١٥٧–١٥٨).

وعقد له المجلس في منازله المختصة به، ثم خرج الأمر بإعزازه و إكرامه فعاد إلى نيسابور.

وفي سنة (٤٤٧ هـ) تبادل الشافعية والحنابلة الهجمات والقتل والسلب والنهب بسبب اختلافهم في الجهر بـ"بسم لله الرحمن الرحيم" في الصلاة.

وفي سنة (٥٤٦ هـ) قد حدثت فتنةٌ في جامع "المنصور" ببغداد بين الحنابلة والشافعية أيضاً، كل ذلك يدلُّ على أنانيَّةِ بعض علماء أهل السنة، وعلى جهل العامة.

وفي السنوات (٤٦٩، و٤٧٠، و٤٧٥ هـ) حصلت فتنٌ كثيرةُ بين الحنابلة والأشاعرة في بغداد، لا سيما بعد افتتاح وزير الملك السلجوقي (٤٥٦– ٤٨٥ هـ) مدرسته النظامية التي كرَّت هذه الخصومات، وقد وقعت أكبر هذه الفتن بين الحنابلة والأشاعرة سنة (٤٦٩ هـ) أي بعد عشر سنوات من بناء المدرسة النظامية (٩٦٦)، هذا مع أن أكثر أهل السنة ببغداد هم من الحنابلة، وذلك عندما ورد إلى بغداد الصوفي الأشعري أبو نصر بن الأستاذ أبي القاسم القشيري وجلس في

(٩٦٦) المنتظم؛ لابن الجوزي، (٨/ ٣٠٥).

المدرسة النظامية وأخذ يذم الحنابلة و ينسبهم إلى التجسيم، و تعصب له أبو سعد الصوفي شيخ الشيوخ، والشيخ أبو إسحاق الشيرازي أستاذ النظامية ببغداد.

وغلب التصوُّف على الأشاعرة في ذلك الوقت؛ حتى تشكل تيار صوفي أشعري، أسسته مدرستان "مدرسة نظام الملك"، و"رباط شيخ الشيوخ"، وانتقل كثيرٌ من الحنابلة إلى المذهب الأشعري المعزز بالجرايات والأموال والوظائف، وهو ما ذكره شيخ الحنابلة في وقته أبو الوفاء بن عقيل (ت **٥١٣** هـ)[٩٦٧] .

وتشعر الروايات التي توردها المصادر بأن هنالك تحالفاً بين الخليفة والحنابلة من جهة، وبين السلطنة السلجوقية والأشاعرة من جهة أخرى، لقدكانت هذه الاحتكاكات المذهبية تنطوي على توترات سياسية بين الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية [٩٦٨].

وكل هذه المؤشرات تدلُّ على طبيعة العلاقة المتوترة بين المؤسستين – مؤسسة الخلافة ومؤسسة السلطنة – والتي كانت تدار عبر مؤسسات اجتماعية مثل المدرسة النظامية، والربط الصوفية، وغيرها.

---

(٩٦٧) المنتظم؛ لابن الجوزي، (٩/ ٩٣).

(٩٦٨) متصوفة بغداد في القرن السادس الهجري؛ عمر سليم التل (ص ٧٠- ٧١).

وبعد وفاة نظام الملك –مؤجج الفتنة بين الأشاعرة والحنابلة، وأحد المعتقدين بالولاية الصُّوفية –تخلّت السلطنة السلجوقية تدريجياً عن دعم الأشاعرة إلى أن مُحي – بموافقة السلطان – اسم الأشعري المكتوب على المدرسة النظامية وكتب مكانه اسم الشافعي وذلك سنة ٥٢١ هـ[٩٦٩]، وذلك على أثر الفتنة التي حصلت بين أحد ممثلي "الصوفية الأشعرية" أبي الفتوح الإسفراييني (ت ٥٣٨هـ)، وأحد مدرسي النظامية الذي وقف مع الحنابلة [٩٧٠].

وكان من عادة الحنابلة إذا شيعوا جنازة أحد فقهائهم ان يصيحوا: "هذا يوم سني حنبلي، لا قشيري ولا أشعري "[٩٧١].

ويبدو أن بعض الحنابلة اعتبروا ظهور الشيخ عبد القادر الجيلي (ت٥٦١ هـ) سنة (٥٢١هـ) وجلوسه للوعظ، وتشبث الناس به انتصاراً للحنابلة على الأشاعرة [٩٧٢].

(٩٦٩) المنتظم؛ لابن الجوزي (١٠/ ١٠٧).
(٩٧٠) المصدر نفسه، (١٠/ ١٠٦– ١٠٧).
(٩٧١) المصدر نفسه، (١٠/ ١٠٦).
(٩٧٢) المصدر نفسه، (١٠/ ١٠٧).

ولا شكَّ أن ظهور الشيخ الجيلاني خفف من حدة مواقف بعض الفقهاء الحنابلة تجاه التصوف، وهو أمر آذن بعلاقة أكثر سلاسة بين المذاهب الفقهية وبخاصة مذهبي الحنابلة والشافعية، سيما وأن أكثر التعصُّبات المذهبية تجري من تحت ستار التصوف.

لكن موقف الحنابلة من التصوف لا يزال متوتراً، ولكن لم يكن يتسم بالخصومة المفتوحة، بل كانت خصومة مقيدة بمظاهر مُعيَّنة استنكروها من الصوفية، كانت تُمثل "بدعاً" ظاهرة، لا يمكن قبولها.

ولم يكن للخلاف المذهبي أثرٌ في انتشار التصوُّف بين العامة، لأن التصوف مدعومٌ مباشرةً من الخلافة العباسية آنذاك، وقد صنف الجيلي كتاب "الغنية لطالبي طريق الحق"، وجمع تلاميذه مما دونوه من كلامه في مجالسه كتاب "فتوح الغيب"[٩٧٣]، وكتاب "الفتح الرباني والفيض الرحماني".

وبوفاة أبي الفتوح الإسفراييني سنة (٥٣٨ هـ) بعد إخراجه من بغداد، هدأت وتيرة الخصومة بين الحنابلة والأشاعرة، حيث وقعت بعدها حادثتان: إحداهما بسبب ابن شقران الصوفي (ت٥٦١هـ) الذي منع من الوعظ بسبب نصره مذهب

---

(٩٧٣) الذيل على طبقات الحنابلة، لابن رجب الحنبلي (١/ ٢٩٦).

الأشعري[٩٧٤]، والثانية سنة (٥٥٦ هـ) عندما جلس أبو الخير القزويني في جامع القصر وتعصب له الأشاعرة[٩٧٥].

واشتدت هذه الفتن بعدما ألف أحد الحنابلة أبو يعلى (توفي سنة ٤٥٨ هـ) كتاب "الصفات"، حيثُ أُلصقت بالحنابلة تُهمة التجسيم، أي أنهم يجعلون لله تعالى أعضاء وأجزاء، ونتيجة ذلك ضعف المذهب الحنبلي، وأخذ الناس ينفضون عنه، وكاد ينقض لولا أن تجدد بعد ذلك على يد الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى.

وفي سنة (٣٢٣ هـ) هجم الحنابلة على بيوت الأحناف فكسَّروا ونهبوا وأحرقوا حتى اضطر الخليفة الراضي (٣٢٢ -٣٢٩ هـ) إلى إصدار بيانٍ يُنذر الحنابلة فيه بالقتل، وفي سنة (٣٢٧ هـ) حصل نزاعٌ بين الحنابلة والأحناف أيضاً بسبب اختلافهم في تفسير الآية (٧٩) من سورة الإسراء.

---

(٩٧٤) المنتظم، ابن الجوزي (١٠/ ٢١٩).

(٩٧٥) المنتظم، ابن الجوزي (١٠/ ٢٠٠).

ومع نهايات القرن الخامس الهجري كان الخلاف والانقسام قد وقع بين السلاجقة[٩٧٦] بعد وفاة ملكشاه في سنة (٤٨٥ هـ) فاشتعلت الحروب بين "بركيارق" و"محمود" ولدي ملكشاه، ثم بين" بركيارق" وعمه "تتش"، ثم بين "سنجر بن ملكشاه"، وابن أخيه "محمود بن محمد بن ملكشاه"، ثم بين "محمود" وأخيه "مسعود"، ثم وقعت الحرب بين "مسعود "سلطان الموصل[٩٧٧]، والخليفة العباسي

---

(٩٧٦) السلاجقة: طائفة من الأتراك "الغز" نزحوا من تركستان، وحطوا رحالهم في مناطق تقع بين بلاد ما وراء النهر والبلاد التي كانت تسكنها طائفة "الخرلخ" التركية المسلمة، وباتت بذلك تجاور الدولة الإسلامية التي استقلت في غيران "الساسانية، والغزنوية، والخانية"، وتنسب السلاجقة إلى سلجوق بن دقاق أو "تقاق" أو "تاقاق" أحد رؤساء الأتراك الذي تولى قيادتها، ووحد كلمة أبنائها، والسلاجقة كثيرو العدد والعدة، ومؤسس هذه الدولة هو "طغرل بك" محمد بن ميكائيل بن سلجوق، الذي دخل بغداد سنة (٤٤٧ هـ)، وكان أزال ملك بني بويه، وتوفي بالري، سنة (٤٥٥ هـ)، وقد أثار السلاجقة الحمية التي فقدها المسلمين؛ فردوا البيزنطيين الغاصبين على أعقابهم، وأنشأوا جيلاً قويَّ الإيمان، ماضِ العزم، هزم الصليبيين، لا سيما موقعة "ملا ذكرد" أو "ملا زجرد" سنة (٤٦٣ هـ) والتي تعتبر نقطة تحول في تاريخ العالم الإسلامي بصفة عامة، وظلت دولتهم زهاء ثلاثة قرون في "خراسان"، و"كرمان"، و"الشام"، و"العراق"، و"الأناضول". وبعد وفاة "طغرل بك" خلفه على السلطنة الملك العادل –عضد الدولة– "ألب أرسلان" محمد بن السلطان جغر بيك داود بن ميكائيل بن سلجوق سنة (٤٥٥ هـ)، واشتهر وزيره المعروف "نظام الملك" الحسن بن علي، قوام الدولة الطوسي، انظر: السلاجقة في التاريخ والحضارة، د. أحمد كمال الدين حلمي، (ص ٢١)، والنجوم الزاهرة (٥/ ٩٢).

(٩٧٧) مسعود السلجوقي: السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه السلجوقي، ولد سنة ٥٠٢ هـ، وكان حسن الأخلاق، كثير المزاح، عفيفاً كريماً، أراق الخمور من مساكن أصحاب السلطان، وتوفي

"المسترشد بالله" فدارت الدائرة على الخليفة المسترشد، وكان شجاعاً خطيباً، محبباً إلى الخاصة والعامة، وهو آخر الخلفاء رؤي خطيباً، ولكن جيوشه انكسرت أمام جيوش "مسعود" في رمضان سنة (٥٢٩ هـ/ ١١٣٤ م)، فأسره مسعود، ووضعه في خيمة في معسكره، فضجَّت العامة في بغداد لأسر الخليفة حتى أمر "سنجر" ابن أخيه "مسعود" أن يُطلق سراحه، ولكن أحد الإسماعيلية استغلَّ وجود الخليفة في الخيمة بدون حراسة، فدخل عليه وقتله، ثم تجددت الحرب بين "مسعود" و"الراشد بالله"، ثم بينه وبين "المقتفي لأمر الله"، وهكذا فتنٌ واضطراباتٌ لا تنتهي.

وبعد هذا العصر الذهبي للسلاجقة بدأ عصر سنجر بن السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي وإخوته في بلاد فارس والمشرق وما وراء النهر في الفترة ما بين (٤٨٥ – ٥٥٢ هـ)، والتي تميَّزت بكثرة الانقسامات بين أبناء البت السلجوقي الواحد؛ فتولى أخيه السلطان "محمود بن ملكشاه هذه السلطنة من (٤٩٨ – ٥١١ هـ) وكان يتمركز في بلاد العراق وما حولها، ثم تجدد الصراع بين "محمود بن محمد ملكشاه" وعمِّه "سنجر" حاكم سلاجقة خراسان وما وراء النهر،

بهمذان مصاباً بالحُمّى، سنة ٥٤٧ هـ. انظر: الكامل لابن الأثير (١١/ ١٦٠ – ١٦١)، والنجوم الزاهرة (٥/ ٣٠٣).

وأصبح في هذه الفترة سلطانان للسلاجقة، وتحارب المعسكران سنة (**٥١٣ هـ**)، وانتصر "سنجر"، وفرَّ "محمود" لاجئاً إلى أصفهان، واستطاع سنجر أن يُخمد الفتن والثورات في عهده، والتي وقت سنة (**٥٢٤ هـ**)، وسنة (**٥٣٣ هـ**).

وزادت حدة هذه الصراعات مع بدايات القرن السادس الهجري، فكثر التنازع والاختلاف بين السلاجقة الأتراك والخلفاء العباسيين، وحوصرت بغداد أكثر من مرة، وتفرَّق المسلمون شيعاً بعضهم يناهض بعضاً، وانقسمت دولة الخلافة إلى دويلات هنا وهناك، مع كثرة الاضطرابات السياسية، وكثرة الطامعين في السلطة من الأعداء، لا سيما الباطنية والصليبيين، والطامعين من الأمراء، والمعادين للخلافة، وأصبحت دولة الخلافة تتآكل من داخلها، واستمرَّ الحال بين مدٍّ وجزر، بين جميع الطوائف، حتى سقطت الدولة العباسية.

١-ففي عهد القائم بأمر الله عبد الله العباسي (استخلف سنة ٤٢٢ هـ وحتى ٤٦٧ هـ)، ويذكر في هذا المقام أن بعض سلاطين السلاجقة صاهر الخلفاء العباسيين بدوافع سياسية، فقد تزوج الخليفة القائم بأمر الله من ابنة أخي السلطان طغرلبك سنة ٤٤٨هـ(٩٧٨)، وكان السلطان طغرلبك أول أمير أعجمي يقترن بأميرة

(٩٧٨) المنتظم، لابن الجوزي (٨/ ١٦٩- ١٧٠).

عباسية عندما تزوج من ابنة القائم بأمر الله سنة ٤٥٥هـ[٩٧٩]، وكذلك كان القائم يحضر عند الصُّوفي أبي الحسن علي بن عمر القزويني (ت ٤٤٣ هـ)، وكان يغيّر زيه ويحضر عنده، بالحربية ويكثر غشيانه على تلك الحال.

٢-ثم المقتدي بأمر الله عبد الله بن محمد بن عبد الله القائم بأمر الله (٤٦٧ – ٤٨٧هـ)، وتزوج الخليفة المقتدي بابنة السلطان ملكشاه سنة ٤٧٩هـ[٩٨٠] والذي كان يطمح إلى نقل الخلافة إلى حفيده "جعفر" بن المقتدي ليجتمع في قبضته السلطنة و الخلافة، لكن لم يتم له ما أراد[٩٨١].

وكان من أوائل المتصوفة المعدودين في عهد المقتدي: أبو الفتوح أحمد الغزالي (ت ٥٢٠ هـ)، أخو أبي حامد الغزالي (ت ٥٠٥ هـ)، وقد درس بالمدرسة النظامية نيابة عن أخيه أبي حامد لما ترك التدريس، واختصر كتاب "الإحياء" في مجلد سماه "لباب الأحياء"، وله مصنف آخر سماه "الذخيرة في علم البصيرة"، وكتاب "سوانح" باللغة الفارسية، كما دونت مجالس وعظه في أربع مجلدات [٩٨٢].

---

(٩٧٩) المنتظم، لابن الجوزي (٨/ ٢٢٩).

(٩٨٠) المنتظم، لابن الجوزي (٩/ ٢٩).

(٩٨١) تطور السلطنة، للجالودي (ص ٨١) .

(٩٨٢) انظر: الوافي بالوفيات للصـــفدي (٨/ ٧٦)، وطبقات الصـــوفية للمناوي (١/ ٦٤٩)، والأبعاد الصوفية، شيميل (ص ٣٣٢).

وقد انتقد ابن الجوزي رحمه الله الصوفي أحمد الغزالي (ت٥٢٠هـ)؛ فقال: "إلا أن الغالب على كلامه التخليط ورواية الأحاديث الموضوعة والحكايات الفارغة والمعاني الفاسدة "(٩٨٣)، ووصف مجالسه بأن "فيها العجائب والمنقولات المتخرصة والمعاني التي لا توافق الشريعة، وهذه المحنة تعمّ أكثر القصاص، بل كلهم، لبعدهم عن معرفة الصحيح، ثم اختيارهم ما ينفق على العوام كيفما اتفق" (٩٨٤).

ومن الجدير بالذكر أن أبرز تلامذة أبي الفتوح الغزالي هو عين القضاة الميانجي (ت ٥٢٥ هـ)، صاحب كتاب "زبدة الحقائق" في التصوف، وكتاب "البحث عن معنى البعث"، والذي حمل إلى بغداد ثم رد إلى همذان وصلب بها، وذلك عندما قصده الوزير الدركزيني بألفاظٍ شنيعة، فكتب جماعة من العلماء بإباحة دمه (٩٨٥).

---

(٩٨٣) المنتظم؛ لابن الجوزي (٩/ ٢٦٠-٢٦١).

(٩٨٤) المنتظم؛ لابن الجوزي (٩/ ٢٢٢).

(٩٨٥) معجم الأدباء (٤/ ١٥٥٠). والوافي بالوفيات، للصفدي (١٧/ ٢٩١).

قال ابن قاضي شهبة: وصنف كتباً على طريقة الفلاسفة والباطنية، فحمل إلى بغداد مقيداً. وسُجِنَ، ثم رُدَّ إلى همذان وصلب فيها. وقال الذهبي: صلب على ألفاظ كفرية، بينما يرى السُّبكي أنه قُتل ظلماً![٩٨٦] .

وقال ابن الفوطي الشيباني (ت ٧٢٣ هـ): "وكان من تلاميذ عمر الخيامي وخلط كلام الحكماء بكلام الصوفية، وقصده أبو القاسم الوزير الدركزيني، وعقد عليه محضراً، وحمله إلى بغداد مقيّدا، وكتب أيام حبسه بها "شكوى الغريب عن الأوطان إلى علماء البلدان"، وصلب بهمذان"[٩٨٧].

٣–عهد الخليفة العباسي المستظهر بالله أحمد بن المقتدي (كانت خلافته من سنة ٤٨٧ – ٥١٢ هـ) وقد تزوج بخاتون بنت ملكشاه سنة (٥٠٢هـ)[٩٨٨].

وقد قعت في عهده أول فتنةٍ بين السنة والروافض، وظهرت أحداثٌ عظيمة في البلاد الإسلامية، فالباطنية في الشرق، والصليبيون في الغرب، وكانت أيامه أيام اضطراب وحروب، ولم يكن يملك من الخلافة إلا اسمها؛ لأن السلطة كانت بيد

---

(٩٨٦) انظر: الأعلام للزركلي (٤/ ١٢٣).

(٩٨٧) انظر: مجمع الآداب؛ لابن الفوطي (٤/ ٣٨٩).

(٩٨٨) المنتظم، لابن الجوزي (٩/ ١٥٩)، ومعجم الأدباء للحموي (٤/ ١٥٥١).

أمراء الجند ورؤساء القبائل، وترتب على هذا قيام الفتنة والتنافس بين سلاطين السلاجقة، فعاث الجند فساداً في بغداد، وصادروا الأموال، ونُهبت المتاجر، وذاق الناس آلام الجوع والخوف (٩٨٩).

واشتهر في عهده حمَّاد بن مُسلم الدبّاس (ت ٥٢٥ هـ)، أبو عبد الله الرحبي، نسبةً إلى رحبة الشام، وكان سكن بغداد بالمظفرية إلى أن مات بها، وكان له معملٌ للدبسِ يسكنُ فيه، ويُقال: إنه سمع من أبي الفضل أحمد بن الحسن بن خيرون (ت ٤٨٨ هـ)، وكان أُميَّاً لا يكتب، وكتب أصحابه من كلامه نحواً من مائة جزء، وكان يتكلم في آفات الأعمال.

وتخرَّج به عددٌ من الشُّيوخ منهم: أبو الفتح ابن الصابوني محمود بن أحمد (ت ٥٨١ هـ) وكان له رباط ببغداد، ولما قدم دمشق قاصداً مصر جاءه السلطان نور الدين محمود لزيارته، وسأله الإقامة بدمشق لكنه اعتذر(٩٩٠) .

(٩٨٩) المنتظم، لابن الجوزي (٩/ ١٤١).

(٩٩٠) انظر: تاريخ الإسلام؛ للذهبي، (٤١/ ١٢٩-١٣٠).

وأبو علي الحسن بن مسلم الفارسي (ت ٥٩٤ هـ)، وقد "تردد إليه الإمام الناصر لدين الله وزاره، وكان يعتقد فيه"، وكان أبو الفرج بن الجوزي يبالغ في تعظيمه (٩٩١).

وأبو حفص الهمذاني عمر بن محمد (ت ٥٥٤ هـ) وكان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر لا تأخذه في الله لومة لائم، وقد اشتغل بالعبادة ودعوة الخلق إلى الحق (٩٩٢).

وعبد القادر الجيلاني (ت ٥٦١ هـ)، والذي كان في نهاية أمره يفوق حمَّاد الدباس.

وقال ابن الجوزي رحمه الله: "كان حمّاد الدّبَاس على طريقة التّصوّف، يدّعي المعرفة والمكاشفة وعلوم الباطن، وكان عاريًا عن علم الشَّرْع فلم ينفق إلّا على الْجُهّال.

وكان ابن عَقِيل ينفّر النّاس عنه، حتى بلغه عنه أنه يعطي كلّ من يشكو الْحُمَّى لوزةً وزبيبة ليأكلها ويبرأ، فبعث إليه ابن عَقِيل: إنْ عُدْت إلى مثل هذا ضربتُ

---

(٩٩١) تاريخ الإسلام؛ للذهبي، (٤٢/ ١٥٨– ١٥٩).

(٩٩٢) تاريخ الإسلام؛ للذهبي (٣٨/ ١٥١ – ١٥٢).

عُنقَك، فكان يقول: ابن عَقِيل عدوّي، وصار النّاس يَنْذُرُون له النُّذُور فيقبل أموالهم ويأكل منها، ثمّ ترك ذلك، وصار يأخذ بالمنامات" (٩٩٣) ، ولكن الباحث عمر التل، يرى أنه: "ربما استفز الفقيه ابن عقيل إقبال طلبة العلوم الشرعية على الشيخ الصوفي حماد، كالشيخ عبد القادر الجيلي، والشيخ ابي النجيب السهروردي، والشيخ عدي بن مسافر" (٩٩٤)، ولكن هذا تفسير لا دليل عليه، سيما وأن السبب واضحٌ في حكاية ابن الجوزي رحمه الله.

ويُشكل على كلام ابن الجوزي، ما قاله أحمد بن صالح الجيلي (ت ٥٦٥ هـ) في وصف حمّاد الدباس في قوله: "وزاول أكثر المِهَن والصّنائع في طلب الحلال"!(٩٩٥) ، ولكن يزول هذا الإشكال حينما نعلم أن أحمد الجيلي هذا ولد بعد وفاة الدبّاس بخمسة أعوام.

بقي أن نقول: إن ابن الأثير وأبو المظفَّر بن قزغليّ (ت ٦٥٤ هـ) "سبط بن الجوزي" في تاريخيهما نقما على ابن الجوزيّ، انتقاده وحطّه على الشَيخ حمّاد،

(٩٩٣) انظر: المنتظم؛ لابن الجوزي (١٠/ ٢٢– ٢٣)، وتاريخ الإسلام، للذهبي، ت بشار (١١/ ٤٣٠).

(٩٩٤) متصوفة بغداد في القرن السادس الهجري، عمر سليم التل (ص ٣٣١).

(٩٩٥) انظر: تاريخ الإسلام، ت بشار (١١/ ٤٣٠).

فقال أبو المظفَّر: ولو لم يكن لحمّاد من الفضائل الّتي اتّصف بها في زهادته وطريقته، إلّا أن الشيخ عبد القادر أحد تلامذته![٩٩٦] .

ويبدو أن الذهبيَّ رحمه الله كانت طريقته في السِّيَر ألا يتعرض لمن شُهر بالصَّلاح، ولو صُوفياً، ولذلك نراه عند أورد كلام ابن الجوزي، قال: "قاتله الله"، ولكن الذهبيَّ لم يُصب في ذمِّ الإمام ابن الجوزي رحمه الله، وأهل مكَّة أدرى بشعابها.

ويُذكر هنا أن الذهبي (ت ٧٤٨ هـ) لبس الخرقة السهروردية عن طريق أحد تلاميذ السهروردي [٩٩٧]، وكانت خرقة السهروردي في ذلك الوقت مشتهرةٌ جداً، وكان يُجاز بها كل من يطلبها، ولكنها كانت تختصُّ بفقهاء ذلك الزمان وعلمائه، وممن لبسها أيضاً، قطب الدين محمد بن أحمد بن القسطلاني (٦١٤–٦٨٦هـ)، وغيره الكثير.

ولكن الذهبيُّ في "الميزان" عندما ترجم لأبي المظفر بن قزغلي، قال: وألف كتاب مرآة الزمان، فتراه يأتي فيه بمناكير الحكايات، وما أظنه بثقة فيما

(٩٩٦) انظر: تاريخ الإسلام، ت بشار (١١/ ٤٣١).

(٩٩٧) تاريخ الإسلام، للذهبي (٤٦/ ١١٥).

ينقله، بل يجنف ويجازف، ثم إنه ترفض. وله مؤلف في ذلك. نسأل الله العافية"(٩٩٨).

وألان الذهبيُّ القول في "أبي المظفر" سبط ابن الجوزي في كتابه "تاريخ الإسلام"، ووصفه بالواعظ والفقيه؛ ثم إنه قال فيه: وكان حنبلياً، فانتقل إلى الحنفيّة، ولبس الخِرقة من عَبْد الوهاب ابن سُكينة.. إلى أن ترفَّض والعياذ بالله"(٩٩٩).

ولننظر إلى دفاع يوسف بن قزغلي (ت ٦٥٤ هـ) في كتابه "مرآة الزمان"؛ عن "حمَّاد بنُ مُسْلم الرَّحْبي الدَّبَّاس"؛ حيث يقول: شيخ الشيخ عبد القادر وغيره، ذكره جدي رحمه الله في "المنتظم"، ثم يقول: وأما تعرض ابن عقيل لهذا الرَّجل الصالح، فلو ستر ابن عقيل نفسه كان أصلح، فإن الرَّجل كان من الأبدال، وقد أدركتُ جماعة من الأكابر يحكون عن الشيخ عبد القادر عن حماد من الكرامات ما يشبه المتواتر.

وأما حديث اللَّوْزة والزَّبيبة فهذه عادةُ المشايخ في حسن الظَّنِّ بهم، وقد رأينا جماعة فعلوا ذلك فعوفوا، وأما قوله: إنَّ النَّاس كانوا يأتون إليه، فيقول الرَّجل:

---

(٩٩٨) انظر: الميزان؛ للذهبي (٤/ ٤٧١).

(٩٩٩) انظر: تاريخ الإسلام؛ للذهبي (١٤/ ٧٦٧).

رأيتُ إنسانًا يقول: احملْ إلى حماد كذا وكذا، فهذا شيء لا تعلُّقٌ له به، وأن الله يلهمهم ذلك في المنام الذي هو من جنس الوحي في حق"(١٠٠٠).

يبقى علينا أن نُناقش شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله (ت ٧٢٨ هـ) الذي يعدُّ الدبَّاس من أكابر الصوفية في زمانه؛ مع أن الإمام ابن الجوزي وشيخه ابن عقيل قد تكلَّما فيه، وهم أقرب إلى الدباس زمناً من ابن تيمية رحمة الله على الجميع.

ومما يلفت الانتباه أن المصادر لا تذكر أن الشيخ حماد الدباس كان له "رباط"، ولا تذكر محل اجتماعه بتلامذته، فلا يُدرى ما إذا كان له موقف تجاه الرباطات الصوفية في بغداد آنذاك، مع أن كثيراً من تلامذته اتخذوا رباطات أقاموا فيها مع تلاميذهم، ولكنها كانت رباطات مقامة بمبادرات فردية منهم، ولم تكن السلطة هي التي بادرت إلى إنشائها(١٠٠١).

ولكن قد يُقال في هذا المقام إن شيخ الإسلام كان يُحاول ترميم التصوُّف الشعبي لا نقضه من أساسه، أو يتجنب الصراع البارد بينه وبين المتصوفة، سيما

(١٠٠٠) انظر: مرآة الزمان؛ ليوسف بن قزغلي (٢٠/ ٢٣٦).

(١٠٠١) انظر: التصوف في القرن السادس الهجري، عمر سليم التل (ص ٩٧).

وأنه اتخذ الطابع الفقهي، بعد تصوُّف كثيرٍ من فقهاء زمانه، وكان للتصوف أثره في (تضخيم الخلاف الفقهي)؛ ولذا نجده يتأول العبارات المنسوبة للجيلاني -وأكثرها منحولٌ عليه، ويتغاضى عن أخبار الدبَّاس، ويعتبرها في حيِّز العدم، ولعلَّه نُقل له من أخبار الدبَّاس ما جعله ينفي عنه الخرافات والبدع التي أُلصقت به هو أيضاً فيكون ذكره تبعاً لذكر تلميذه "عبد القادر"، أو أنه جعل كلامه شاهداً في باب الاعتقاد على من أراد الاحتجاج عليه من الصوفيين، وقد وجدتُ ذلك في كثيرٍ من عباراته في مجموع الفتاوى وغيرها.

ومثال ذلك؛ قوله في "مجموع الفتاوى: "وكان عبد القادر رحمه الله يعظم الأمر والنهي ويوصي باتباع ذلك وينهى عن الاحتجاج بالقدر وكذلك شيخه حماد الدباس"(١٠٠٢).

ويقول أيضاً في مجموع الفتاوى: "وأمر الشيخ عبد القادر وشيخه حماد الدباس وغيرهما من المشايخ أهل الاستقامة أنهم لا يسوغون للسالك ولو طار في الهواء أو مشى على الماء أن يخرج عن الأمر والنهي الشرعيين بل عليه أن يفعل

(١٠٠٢) انظر: مجموع الفتاوى؛ لابن تيمية (٨/ ٣٠٦).

المأمور ويدع المحظور إلى أن يموت وهذا هو الحق الذي دل عليه الكتاب والسنة وإجماع السلف"(١٠٠٣).

ويقول في موضعٍ آخر: "كان الشيخ عبد القادر ونحوه من المشايخ المستقيمين يوصون في عامة كلامهم بهذين الأصلين: المسارعة إلى فعل المأمور والتقاعد عن فعل المحظور والصبر والرضا بالأمر المقدور"(١٠٠٤).

وما يظهر لي والله أعلم أن هذه الطريقة خاصَّةٌ بشيخ الإسلام في التعامل مع التناقض الصوفي الظاهر: بين طبيعة الخطاب المنمق والأخبار المتواترة عنهم في الاستهتزاء بالشريعة، والحطِّ على الفقهاء، وهو ما يُقال في مثل: حمَّاد الدبَّاس، وأبو يزيد البسطامي، والجُنيد بن محمد، وغيرهم.

ومما ينبغي حكايته هنا ما ذكره ابن الجوزي رحمه الله في حوادث سنة (٤٦٥ هـ) في كتابه "المنتظم" (١٦/ ١٤٤) أن الشيخ أبو الوفاء بن عقيل (ت ٥١٣ هـ) أعلن توبته من مذاهب المتصوفة، والمعتزلة، وكان صنَّف في شبابه كتاباً في الترحم على الحلاج واعتقد فيه أنه من أهل الدين والزهد والكرامات، "وتأول

(١٠٠٣) انظر: مجموع الفتاوى؛ لابن تيمية (١٠/ ٥١٦).

(١٠٠٤) انظر: مجموع الفتاوى؛ لابن تيمية (١٠/ ٦٦٨).

فيه أقواله وأفعاله وفسر أسراره واعتذر له"، ونصر ذلك في جزء عمله، وأردا الحنابلة الإيقاع به فاختفى، ثم تاب، وقال: وأنا تائب إلى الله تعالى منه، وأنه قتل -يعني كفراً- بإجماع أهل عصره، وأتوب إليه من مخالطة المبتدعة والمعتزلة وغيرهم، ومكاثرتهم، والترحم عليهم، والتعظيم لهم، فإن ذلك كله حرام، ولا يحل لمسلم فعله.

ويقول ابن الجوزي على لسان أبي الوفاء بن عقيل: "... فأوذيت من اصحابي حتى طلّ الدم، وأوذيت من دولة النظام بالطلب والحبس"[١٠٠٥].

ويقول الباحث عمر التل: "لقد اجتمع على ابن عقيل عداوة أصحابه الحنابلة وخصومة السلاجقة، إذ يبدو أنه حاول استعمال أفكار المعتزلة لمواجهة أشعرية الشافعية ممثلين في المدرسة النظامية المستجدة، فاستثار بذلك أصحابه الحنابلة وخصومه الأشاعرة الذين كان نظام الملك يتبنى مواقفهم، ثم أراد التصوف ليدفع به افكار المعتزلة لينجو من نقمة نظام الملك فتضاعفت عليه نقمة الحنابلة، حيث استثارت كتاباته ذكريات الموقف بين

(١٠٠٥) المنتظم، لابن الجوزي (٩/ ٢١٣).

ابن حنبل والمعتزلة، وذكريات موقف المعتزلة والحنابلة تجاه التصوف"[١٠٠٦].

ومما ينبغي الإشارة إليه أن المعتزلة في القرن السادس الهجري كانت لهم مدرسة فكرية متكاملة، وقد اشتهروا بتقديس العقل واعتباره المصدر الأول للاعتقاد، ومن أشهر دعاتهم في تلك الفترة الإمام الزمخشري رحمه الله (ت ٥٣٨ هـ).

ويُقال: إن الشيخ عبد القادر الجيلي دخل في صحبة الدباس منذ سنة (٤٩٩ هـ)[١٠٠٧]، وكذلك أخذ عنه الشيخ أبو النجيب عبد القاهر السهروردي (ت ٥٦٣ هـ)، صاحب كتاب "آداب المريدين"، وهو من أوائل شيوخه [١٠٠٨]، والذي سار على نهج الجيلي في طريقة تصوف الفقهاء، كما صحبه عدي بن مسافر الهكاري الذي تُنسب إليه الطائفة العدوية[١٠٠٩].

(١٠٠٦) متصوفة بغداد في القرن السادس الهجري، عمر سليم التل (ص ٣٣٠).

(١٠٠٧) مرآة الزمان، سبط ابن الجوزي (٨/ ١٣٨) وبهجة الأسرار، الشطنوفي (ص ٣٠٩، ١١٤).

(١٠٠٨) بهجة الأسرار، الشطنوفي (ص ٣١٢).

(١٠٠٩) وفيات الأعيان؛ لابن خلكان (٣/ ٢٥٤). تاريخ الإسلام للذهبي (٣٨/ ٢٣٣).

ويبدو أنه كان لظهور الجيلي في ذلك الوقت أهمية فيما يتصل بالعلاقة بين الاشاعرة والحنابلة أشار إليها ابن الجوزي حيث قال: "وظهر عبد القادر فجلس في الحلبة[١٠١٠] فتشبث به أهل السنة وانتصروا بحسن اعتقاد الناس به"[١٠١١].

ويفهم من ذلك ان ابن الجوزي قد غمز الشيخ الجيلاني حينما نسب انتصار أهل السنة إلى حسن اعتقاد الناس به فقط، كما يفهم منه أن الجيلاني أنقذ التصوف من الاحتكاكات التي كانت قائمة بين الحنابلة والأشاعرة.

وقد غالي العامَّةُ في الجيلاني جداً، حتى شاع بينهم أن الجيلاني كان أحد الأربعة الذين يبرئون الأكمه والأبرص ويحيون الموتى!، وهم بقا بن بطو (ت ٥٥٣ هـ)، وأبو سعد القيلوي، وعلي بن الهيتي (ت ٥٦٤هـ)، والشيخ عبد القادر، ويذكرون أيضاً أنه كان أحد الأربعة "الذين يتصرفون في قبورهم تصرف الأحياء" وهم معروف الكرخي، وعقيل المنبجي، وحياة بن قيس الحراني (ت ٥٨١ هـ)، والشيخ الجيلي [١٠١٢].

(١٠١٠) الحلبة: محلة واسعة في شرقي بغداد عند باب الأزج، (انظر: معجم البلدان: ٢/ ٢٩٠).

(١٠١١) المنتظم؛ لابن الجوزي (١٠/ ٧)، ومرآة الزمان؛ يوسف بن قزغلي (٨/ ١٢٤)، تاريخ الإسلام؛ للذهبي (٣٦/ ١٠).

(١٠١٢) بهجة الأسرار، للشطنوفي (ص ١٣٣، ١٣٤، ٣١٧)، وقلائد الجواهر، للتادفي (ص ٨٠). الطبقات الكبرى، للمناوي (١/ ٦٧٦).

ويبدو أن الجيلاني نفسه سعى أن تكون له حظوة في قلوب العامة، عن طريق اشتهاره بين الناس بمعرفة الخطرات وحديث النفس، وهو أحد العوامل التي جذبت الناس عامتهم وخاصتهم نحو عبد القادر، الأمر الذي هال الخلفاء العباسيين في تلك الفترة كالمستنجد بالله.

وقد ذكر الشطنوفي أن سبب تصنيفه لكتاب "بهجة الأسرار" الذي جمعه في مناقب الشيخ عبد القادر إنما كان لإظهار معنى قول الشيخ الجيلي في أحد مجالسه في بغداد "قدمي هذه على رقبة كل وليّ لله" [١٠١٣]، وكان في مجلسه حينها عامة مشايخ العراق، وكبار رجال الدولة من أمثال عز الدين محمد بن الوزير أبي المظفر ابن هبيرة، واستاذ الدار عبد الله بن هبة الله، و حاجب الباب مجد الدين بن الصاحب وغيرهم، وبينما يورد الشطنوفي الروايات الكثيرة التي يستشهد بها على أن هذا القول الصادر عن الجيلي إنما أمر به أمراً إظهاراً لمقام القطب الغوث[١٠١٤]، وهو مقام ندر أن يعلن عنه رجل على رؤوس الأشهاد، بينما اعتبره الشهاب السهروردي (ت ٦٣٢هـ) حالة سُكرٍ صوفية، لا يُحاسب المرء عليها !،

(١٠١٣) بهجة الاسرار، للشطنوفي (ص ٣).

(١٠١٤) بهجة الاسرار، للشطنوفي (ص ٥-٣٩)، وانظر ايضاً في تفسير معنى القطب الغوث نفس المصدر، (ص ٤١، ٤٣، ١٦٠، ٣٢٩، ٤٨٠، وغيرها).

وللخليفة المستنجد بالله لقاءات مع الشيخ عبد القادر حيث كان يقصده ليلاً في مدرسته وقد شهد له كرامات فيها مواعظ للخليفة.

وبصرف النظر عن صدق تلك الحكايات والكرامات أو كذبها، إلاّ أن ورودها في كتب المناقب وبعض كتب التراجم هو ما يهمّ الباحث من حيث أنها حكايات كانت تشكل عنصراً من عناصر الذهنية العامة الشعبية آنذاك[١٠١٥].

وقد انتهى إلى الشيخ حماد الدباس رياسة تربية المريدين، وانتمى إليه معظم مشايخ بغداد وصوفييهم في وقته[١٠١٦].

٤-الخليفة المسترشد بالله الفضل بن المستظهر بالله (تولى الخلافة سنة ٥١٣ هـ واستمر حتى قتلته الباطنية سنة ٥٢٩ هـ)، قطعوه قطعاً بعد أن دامت خلافته سبعة عشر عاماً[١٠١٧].

وفي هذه الفترة ظهرت الكتابات الصوفية بشكل واضح، وبخاصة كتابة مواعظ الشيوخ ومجالسهم، ومن أبرز هذه الأعمال ما دونه أبو المعالي سعد بن

(١٠١٥) متصوفة بغداد في القرن السادس الهجري، عمر سليم التل (ص ١٢٥).

(١٠١٦) الطبقات الكبرى، للشعراني (١، ص ١٨٩.

(١٠١٧) البداية والنهاية لان كثير (١٢/ ٢٢٣).

علي الكتبي (ت ٥٦٨هـ) من كلام شيخه أبي عبد الله محمد بن عبد الملك الفارقي (ت ٥٦٤ هـ)[١٠١٨]، ولكن الفارقيَّ في ترجمته يُذكر بالورع والزُّهد ولا يُذكر بالتصوف!، ولعلَّه أحد صوفية الفقهاء، حتى قال الذهبيُّ فيه: "لم يجيء بعد الشيخ عبد القادر مثل الفارقي"[١٠١٩].

كما دون الكتبي مواعظ العبادي الواعظ في كتاب سماه "النور البادي من كلام العبادي"، ومن ذلك أيضاً ما جمعه يحيى بن عبد الملك من كلام الشيخ حماد الدباس بعد وفاته[١٠٢٠]، وكانت أكثر مجالس الوعظ التي وصلت إلينا هي مجالس الشيخ عبد القادر الجيلي، على كثرة الوعاظ في زمانه.

لكن يلاحظ في مواعظ الجيلي، وغيره أنها لم تركز بما فيه الكفاية على نقد المؤسسة الحاكمة سواء كانت السلطنة السلجوقية أو الخلافة العباسية، بالرغم من وجود نتف هنا وهناك، بحيث كانت جلّ المواعظ موجهاً إلى عامة الناس والفقهاء والوعاظ والصوفية ممن انحرفوا عن الصراط أو عرف عنه النفاق أو الجهل بما يدعون الناس إليه.

(١٠١٨) تاريخ الاسلام، للذهبي (٣٩/ ٢٠٩).

(١٠١٩) سير أعلام النبلاء، للذهبي (٢٠/ ٥٠١).

(١٠٢٠) انظر: بهجة الأسرار؛ للشطنوفي (ص ٥٤).

وكان المحو الرئيسي لمواعظ الجيلاني تدور حول ضبط واصلاح معاني التوحيد والاخلاص الرائجة في زمانه، والتي من شأنها أن تُحدث تغييراً حقيقياً في ذلك الزمان الذي انتشرت فيه البدعة، وراج سوقها.

٥-ثم الخليفة الراشد بالله (بويع بالخلافة سنة ٥٢٩ هـ): وفي عهده ظهر الرفض قليلاً، وكانت مدة خلافته قصيرةٌ جداً، دامت أحد عشر شهراً، وقد صدرت فتوى بخلعه سنة (٥٢٩ هـ)، وذلك بعد الخلاف الذي حصل بينه وبين السلطان السلجوقي "مسعود"، حيث جمع "مسعود" الفقهاء والقضاة، وأمر الفقهاء بإصدار فتوى بخلعه؛ فخلع يوم الاثنين سنة (٥٣٠ هـ)، واستدعى المقتفي ابن المستظهر وبايعه بالخلافة[١٠٢١]، ثم قُتل الراشد بالله غيلةً على أيدي بعض الباطنيين[١٠٢٢].

٦-ومن بعده تم اختيار أخيه المقتفي لأمر الله محمد بن المستظهر من قبل "مسعود السلجوقي" بعد خلع الخليفة الراشد سنة (٥٣٠ هـ)، واستمر في الخلافة حتى سنة (٥٥٥ هـ)، وعقد للمقتفي (٥٣٠ - ٥٥٥هـ) على أخت السلطان مسعود (٥٢٧ - ٥٤٧هـ) سنة٥٣١هـ أي في السنة التالية لتوليه الخلافة

(١٠٢١) انظر: البداية والنهاية؛ لابن كثير (١٢/ ٢١٠)، والنجوم الزاهرة (٥/ ٢٥٨).

(١٠٢٢) انظر: البداية والنهاية؛ لابن كثير (١٢/ ٢٢٤).

[١٠٢٣]، وتزوج السلطان مسعود من ابنة الخليفة المقتفي سنة ٥٣٤هـ[١٠٢٤]، وقد كانت أكثر تلك المصاهرات فاشلة بسبب توتر العلاقات بين الخلفاء والسلاطين، بل كانت سبباً لتعميق الخصومة بينهم.

وقد كان قطاع من الصوفية يتأثر بتذبذب العلاقة بين الخليفة والسلطان، كما حدث عند وفاة السلطان مسعود (ت٥٤٧هـ) حيث قام الخليفة "المقتفي" بمعاقبة كل من كان له صلة بالسلطان كالغزنوي الواعظ، وابي النجيب السهروردي [١٠٢٥].

٥-ثم المستنجد بالله يوسف بن المقتفي لأمر الله، الذي بويع بالخلافة سنة (٥٥٥ -٥٥٦ هـ)، وكانت خلافته فترةً استقلت فيها الخلافة عن السلاجقة.

وفي عهده أزال المظالم، وكان شديداً على أهل العبث والفساد والوشاية بين الناس، وتوفي رحمه الله سنة (٥٥٦ هـ) [١٠٢٦].

(١٠٢٣) المنتظم، لابن الجوزي (١٠/ ٦٧).

(١٠٢٤) المنتظم، لابن الجوزي (١٠/ ٨٥). والكامل؛ لابن الأثير (٩/ ٣١٦).

(١٠٢٥) شذرات الذهب، لابن العماد (٦/ ٢٦٤).

(١٠٢٦) انظر: شذرات الذهب، لابن العماد (٥/ ٣٨٦)، والبداية والنهاية لابن كثير (١٢/ ٢٦٢)، والكامل لابن الأثير (١١/ ٣٦٢)..

وقد استحدث المستنجد بالله بدعةً منكرةً، وذلك في مستهل رجب من كل سنة ابتداءً من (٥٥٩ هـ). احتفالاً رسمياً للصوفية، فيدعو إليه والفقهاء والصوفية والقراء والوعاظ وصوفية الربط، وكان يدعى له أرباب الدولة والأمراء، وتوزع فيه الخلع على كل من حضر، وبعدها يُغادر من يُغادر، ويبيت الصوفية على سماع الإنشاد، ويبدو أن هذا الرسم استمر طيلة الفترة المتبقية من القرن السادس الهجري، وكان موعد هذا الحفل في الأيام الأولى من شهر رجب في كل سنة [١٠٢٧]، ويبدو أن هذا الإعلان عن رعايتها للتصوف تزامن مع بدايات اضمحلال النفوذ السلجوقي في بغداد، وهذا يؤكد ما ذكر في بداية هذا الفصل من أن حدوث صراع غالباً ما يلجئ الخلافة القائمة إلى استقطاب الدعم الشعبي لها – والمتمثل في هذه الحالة بحركة التصوف – وذلك ترسيخاً وتجديداً لشرعيتها في المجتمع[١٠٢٨].

٦–ثم المستضيء بالله الحسن بن المستنجد بالله، والذي بويع بالخلافة سنة (٥٥٦ هـ)، وكان مُحارباً للبدع، وفي خلافته ضعف الرفض ببغداد، وانقرضت الدولة العُبيدية بمصر على يد القائد المجاهد صلاح الدين يوسف بن أيوب الأيوبي

(١٠٢٧) المنتظم، لابن الجوزي (١٠/ ٢٠٨، ٢١١، ٢٢٠ – ٢٢١، ٢٥٢، ٢٥٧، ٢٦٤، ٢٧١).

(١٠٢٨) انظر: متصوفة بغداد في القرن السادس الهجري؛ عمر سليم التل (ص ٣١٣).

(ت ٥٨٩ هـ)، الذي قطع الخطبة للخليفة الفاطمي وأقامها للمستضيء بالله (١٠٢٩).

ومن الجدير بالذكر أن علاقة صلاح الدين الأيوبي بالتصوف هي استمرار – إلى حد كبير – لعلاقة نور الدين زنكي به، ولكن اقبال نور الدين على الصوفية كان أكبر من اقبال صلاح الدين عليهم، وقد كانت لصلاح الدين علاقات جيدة مع بعض المتصوفة مثل شيخ الشيوخ عبد الرحيم، كان له صلة بعبد السلام بن يوسف الجماهيري الصوفي البغدادي الذي قدم دمشق سنة ٥٧١هـ وحضر صلاح الدين مجلس وعظه، ثم رجع إلى بغداد (١٠٣٠) .

ولعل الوضع الأمني الخطير والتجهز لحرب الصليبيين قد شغلت صلاح الدين الأيوبي أكثر من أن يتمسح بالمتصوفة الذين شغلوا العامة بالخرافات والأساطير الشعبية.

إن صلاح الدين الذي أنقذ الله به القدس من يد الصليبيين الحاقدين، لم يكن شخصيةً معجزةً تملك عصا سحرية تستطيع قلب الموازين وإحداث

(١٠٢٩) انظر: المنتظم؛ لابن الجوزي (١٨/ ١٩١) ، ومتصوفة بغداد في القرن السادس الهجري؛ عمر سليم التل (ص ٣٢٥).

(١٠٣٠) الروضتين في اخبار الدولتين، لأبي شامة المقدسي، (٢/ ٤٢٠-٤٢١).

المعجزات، وإنما كان قائداً مؤمناً، شجاعاً، مُحنكاً، نادى بصوته القوي، فاستجابت له الأمة الحية، والتفَّت حوله، ولبَّت ندائه، وهبَّت وراءه طالبةً إحدى الحُسنيين، إما النصر وإما الشهادة(١٠٣١) .

٧-ثم الناصر لدين الله أحمد بن المستضيء بأمر الله، الذي بويع بالخلافة سنة (٥٧٥ هـ)، ولم يزل خليفةً حتى توفي سنة (٦٢٢ هـ)، وفي عهده حاول الروافض إعادة الدولة العبيدية الشيعية، وكان له دورٌ في تنظيم الفتوة، وإنشاء الرُّبط الصوفية، وكان له اعتقادٌ في شيوخهم.

وللخليفة الناصر اهتمام بالتصوف لا يضاهيه اهتمام أحد من الخلفاء قبله ولا بعده، ويبدو أنه كان يسعى من خلال هذا الاهتمام إلى تثبيت أكان الخلافة، وهنا يمكن تفسير التجاءه إلى دعم التصوُّف، حتى أنه كان ينفق على بناء القباب على قبور من اشتهر منهم، ففي سنة (٥٨٠ هـ) أقامت أم الخليفة "الناصر" على قبر ابن الهيتي مشهداً وبنت رباطاً، وعمل له قبة أوقفت عليها قرية تدر على القبة خمسماية دينار في السنة، ويُقال إنه ورث القطبانية من عبد القادر الجيلاني(١٠٣٢) ، وانتظم العديد من وزراء الخليفة ورجال دولته في سلك التصوف وعرف عن بعضهم

(١٠٣١) الشيخ عبد القادر الجيلاني، د. سعيد القحطاني (ص ١٤).

(١٠٣٢) مضار الحقائق، ابن شاهنشاه، (ص ٢٠٥)، وبهجة الأسرار للشطنوفي (ص ٣٦٨).

صلات قوية به منذ فترة مبكرة من القرن السادس الهجري، وبالجملة فقد أقبل كثير من خدم دار الخلافة وجواريها ومماليك الخليفة على التصوف.

وكان الخلفاء العباسيون كالريشة في مهب الريح، يُحركهم غلمان ونساء الأتراك، مع تسلط سلاطين البويهيين والسلاجقة على شئون الخلافة، أضف إلى ذلك حركة الاغتيال المنظمة التي قام بها الباطنيون (الحشاشين) ضد القادة، والزعماء، والفقهاء في الدولة العباسية، وقطع الطريق أمام قوافل الحجيج، والحركة التجارية، كذلك كانت هذه الفترة حاضناً لكثير من المبتدعة، وفرق الزنادقة كالإسماعيلية، والخرمية، والراوندية، والبابكية، والسبعية، والتعليمية، الذين حرَّفوا ظواهر الشرع إلى تأويلات تُخرجه عن كونه ديناً يجب اعتقاده؛ وقد بلغ من خطرهم ما حدى بالوزير نظام الملك إلى إفراد جزء كبير من كتابه "سياست نامه" لشرح عقائدهم ومخاطرهم للسلطان السلجوقي، وقد ربط بينهم وبين الحركات الشعوبية الفارسية، التي سعت إلى تقويض الإسلام من داخله، و كتب أبو حامد الغزالي (ت ٥٠٥ هـ) للخليفة المستظهر كتاباً في "الرد على الباطنية".

وبالرغم من أن السلاجقة " جددوا ما اندرس من هيبة الخلافة؛ "لأنها في نظرهم قوام الدين والدنيا وبها سكون الدهماء ونظام الأحوال كلها، إلاّ أنهم جردوا

الخلافة من كل سلطة[١٠٣٣]، ولكن يبقى أن يُقال: قد خفّت وطأة الخطر الباطني عن بغداد بعد زوال الهيمنة السلجوقية عنها.

وكان سلاطين السلاجقة يتدخلون في تنصيب وعزل وزراء الخلفاء، وحرص السلاجقة على إبقاء الخلفاء العباسيين منزوعي السلاح، كي يبقوا في حاجةٍ دائمة إلى حماية السلاطين السلاجقة، وقد ضعف نفوذ وزراء الخلافة بضعف نفوذ الخليفة نفسه، وكانت مرتبة وزير الخليفة دون مرتبة وزير السلطان خلال فترة السلاطين الكبار طغرلبك (ت **٤٥٥**هـ) وألب ارسلان (ت **٤٦٥** هـ) وملكشاه (ت **٤٨٥** هـ)[١٠٣٤].

ولم يكن السلاطين السلاجقة يحسنون اللغة العربية وإنما يتحدثون التركية والفارسية [١٠٣٥]، ومع ذلك فقد اعتبروا بغداد عاصمة ثانية لهم، بينما كانت العاصمة الأولى نيسابور في زمن "طغرلبك"، والري في زمن "ألب أرسلان"،

(١٠٣٣) تطور السلطنة، للجالودي (ص١١٠).

(١٠٣٤) تطور السلطنة، للجالودي (ص ١٠٩– ١١٠).

(١٠٣٥) خارطة بغداد، مصطفى جواد (ص ١٥١ – ١٥٢).

وأصفهان في زمن "ملكشاه" وولديه "محمود" و"بركياروق"، وكانوا ينيبون عنهم من يقوم مقامهم في حكم العراق وإدارة شؤونه[١٠٣٦].

وفي هذه المرحلة الصعبة من تاريخ أمتنا ازدادت عناية العباسيين بالتصوف؛ لإزالة السيطرة السلجوقية على أطراف الحكم، ولتثبيت وتوسيع القاعدة الشعبية بما يُشبه النفع المتبادل بين الطرفين في العالم الإسلامي، وكان هذا التوجه نتيجةً لسعة انتشار التصوُّف بين الناس، وتأثيره في حياتهم، واستمر دعم العباسيين للمتصوفة حتى بعد زوال الهيمنة السلجوقية على بغداد في أواخر النصف الأول من القرن السادس الهجري.

وكان وزير السلطنة السلجوقية "نظام الملك" (ت ٤٨٥ هـ) أو "خواجا برزك" شديد الاعتناء بالتصوف في زمانه، كما انتعشت الأشعرية على يديه، وترك كثيرٌ من أصحاب المذاهب مذاهبهم وتوثقوا بمذهب الشافعي والأشعري[١٠٣٧]، وبالرغم من أن مذهب سلاطين السلاجقة كان حنفياً إلا أن مذهب نظام الملك كان شافعياً[١٠٣٨].

(١٠٣٦) تطور السلطنة، للجالودي (ص ١٠٤).

(١٠٣٧) المنتظم، لابن الجوزي (٩/ ٦٨).

(١٠٣٨) سياست نامه، نظام الملك (ص ١٣٤).

وقد اصطدمت هذه النظامية ذات الميل الأشعري في بدايتها مع حنابلة بغداد حيث معقل الحنابلة، وكان للمتصوفة يد عابثة في إطالة أمد هذا التوتر الفقهي، وامتداد الخصومة بين الحنابلة والأشاعرة نظراً لتصوف معظم الأشاعرة الشافعيين المبعوثين من نظام الملك، ومما زاد الشعور بأن للتصوف علاقة بتلك الخصومة أنه في الفتنة التي وقعت بين الأشاعرة والحنابلة سنة (٤٦٩ هـ). وقف شيخ الشيوخ أبو سعد الصوفي إلى جانب ابن القشيري الصوفي الأشعري المبعوث للوعظ في بغداد، كما انضم إليهما في هذه الفتنة استاذ النظامية آنذاك أبو إسحق الشيرازي(١٠٣٩).

وربما كان من أسباب وقف النظامية على المذهب الشافعي سعة انتشار المذهب في المشرق الاسلامي حيث مقر الدولة السلجوقية في الشام ومصر، ولم يكن القضاء والخطابة في غيرهم من أصحاب المذاهب(١٠٤٠) .

وكان نظام الملك مغرماً بشيوخ التصوف" حتى عُدّ مريداً لأبي سعيد بن أبي الخير"(١٠٤١)، وسارع "نظام الملك" بإنشاء المدرسة النظامية في بغداد بعد

(١٠٣٩) المنتظم، لابن الجوزي (٨/ ٤١٣).

(١٠٤٠) طبقات الشافعية الكبرى، للسبكي (١/ ٣٢٦).

(١٠٤١) سياست نامه، نظام الملك، (ص١٧) (مقدمة الدكتور غلام حسين يوسفي).

سنة واحدة من تسلم نظام الملك الوزارة للسلاجقة، أي في سنة **٤٥٧** هـ[١٠٤٢]، وافتتحتها سنة (**٤٥٩** هـ)، ويبدو أن توجهات السلطان المذهبية – حيث كان يتبع المذهب الحنفي –قد فرضت على العميد أبي سعد المستوفي أن يسابق الوزير في إنشاء مدرسة للمذهب الحنفي في مشهد الإمام ابي حنيفة، وافتتاحها قبيل افتتاح النظامية في نفس السنة[١٠٤٣]، الأمر الذي دفع حنابلة بغداد لإنشاء أول مدرسة لهم وهي المدرسة التي عرفت لاحقاً بمدرسة الشيخ عبد القادر الجيلي، وبالرغم من الدور الكبير الذي قامت به المدرسة النظامية إلاّ أنه قد يكون من مساوئها أنها وطدت المنحى المذهبي في إنشاء المدارس نظراً لوقفها على المذهب الشافعي مما دفع أهل المذاهب الأخرى إلى إنشاء مدارس خاصة بمذاهبهم[١٠٤٤].

وقد ترافق إنشاء المدرسة النظامية في بغداد مع إنشاء رباط "شيخ الشيوخ" أبي سعد النيسابوري الصوفي، وكانت بينه وبين نظام الملك مودة كبيرة ، الأمر الذي يؤكد توجهات نظام الملك الشافعية الصوفية، كما يؤكد الظاهرة التي راجت في القرن السادس الهجري والمتمثلة ببناء الرباط الصوفي جنب المدرسة، وكانت "نظامية" بغداد بُنيت بإشارةٍ من أبي سعدٍ الصُّوفي، الذي تولى الإشراف عليها

(١٠٤٢) المنتظم، لابن الجوزي (٨/ ٢٣٨).

(١٠٤٣) المنتظم، لابن الجوزي (٨/ ٢٤٥).

(١٠٤٤) سياست نامه، نظام الملك، (ص ١٩) (مقدمة الدكتور غلام حسين يوسفي).

بنفسه[١٠٤٥]، ثم إن أبا سعد أنفق من نفس المال الذي بنى به النظامية لبناء "الرباطات للصوفية"، واشترى الضياع والخانات والبساتين والدور، ووقف جميع ذلك على الصوفية، ويعتبر أبو سعد هذا من ممثلي الصوفية الأشعرية"، الأمر الذي يؤكد مرة أخرى التقاء ميوله وتوجهاته مع توجهات الوزير نظام الملك!.

ومما كان يزيد من ضيق أهل بغداد بالسلاجقة إكراههم على إظهار معالم الفرح والزينة في مناسبات تخص السلاطين وأقرباءهم، واستفز رجال العلم والوعاظ ظهور المنكرات خلال تلك الاحتفالات مثل استشراء الخمور ظاهراً و "ظهور القينات والمعازف و المخانيث"[١٠٤٦]، وفي سنة (٤٨٦ هـ) أخرج السلاجقة الرجل الصالح الذي أحبه أهل بغداد أردشير بن منصور العبادي من بغداد بسبب تكلمه في الربا التي فرضها السلاجقة على البغداديين[١٠٤٧]، وغيرها مما كان يوسّع الشقة بين الحكم السلجوقي واهل بغداد.

(١٠٤٥) ورد عند الطرطوشي أنه أبو سعيد الصوفي والأصح أنه ابو سعد الصوفي وهو أول من لقب بشيخ الشيوخ، الذي تولى بناء أوقاف النظامية ببغداد، انظر المنتظم؛ لابن الجوزي، (٩/ ١١)، والكامل؛ لابن الاثير، (٨/ ٤٥٠). وقد أجمعت كتب التراجم على أنه أبو سعد وليس ابا سعيد .

(١٠٤٦) المنتظم؛ لابن الجوزي (٩/ ٢١٨، ١٠/ ٧٢، ٨٤- ٨٥، ٨٩، ١٠٢- ١٠٣، ١١٧).

(١٠٤٧) المنتظم، لابن الجوزي (٩/ ٧٦).

وقد بلغ الأمر حدّاً دفع رجالاً مثل ابن الكواز الزاهد (ت٥٤٣هـ) إلى أن يهدد السلطان مسعود بأنه إن لم ينته عن تلك المنكرات فسوف يجمع الناس في الجوامع ويشكوه إلى الله، فانتهى السلطان[١٠٤٨] ، ونرى أن استجابة سلاطين السلاجقة ببعض الزهاد لم يكن ورعاً منهم، وإنما كانوا يهاب من التفاف الناس حول بعض الزهاد في ذلك الوقت، فكانت السياسة تملي عليهم الاستجابة لمطالبهم.

ونلاحظ هذا الأمر في مواعظ الشيخ عبد القادر الجيلي (ت ٥٦١هـ) التي ألقاها في بداية العقد الرابع من القرن السادس الهجري ما يصرح بحالة ذلك الزمان من شيوع الرياء والنفاق والظلم وكثرة الشبهة والحرام وكفران النعم "والاستعانة بها على الفسق والفجور" [١٠٤٩].

وفي خضم صراع الخلافة والسلطنة، ضرب سلاطين السلاجقة الحصار على بغداد أربع مرات خلال القرن السادس الهجري ففي سنة (٥٢١ هـ) حاصرها السلطان "محمود" زمن المسترشد [١٠٥٠]، وسنة (٥٣٠ هـ) حاصرها "مسعود"

(١٠٤٨) المنتظم، لابن الجوزي (١٠/ ٨٤– ٨٥)، وذيل تاريخ بغداد لابن النجار (٥/ ٢٨– ٢٩).

(١٠٤٩) الفتح الرباني؛ للجيلاني، (ص ١٥، ١٩).

(١٠٥٠) المنتظم، لابن الجوزي (٩/ ٢– ٣).

الراشد[١٠٥١]، وسنة (٥٤٣هـ) حاصرها "أمراء الجيوش المتمردين" على السلطان مسعود[١٠٥٢]، وفي سنة (٥٥٢هـ) حاصرها "محمد شاه" المطالب بالسلطنة[١٠٥٣]، ويستدل من تواريخ تلك الحصارات على بداية سعي الخلفاء الجاد للإستقلال بالخلافة عن الهيمنة السلجوقية من جهة، وبداية ضعف ثم زوال هيمنة السلاجقة على شؤون بغداد.

وبعد موت السلطان ملكشاه، ووزيره نظام الملك في سنة (ت٤٨٥هـ) بدأت مرحلة ضعف السلطنة السلجوقية، وذلك بفعل عدد من العوامل كان أهمها تنافس أبناء البيت السلجوقي على السلطنة، والفراغ السياسي في صفوف المسلمين بالشام والعراق، وبلاد فارس ومناطق آسيا الصغرى[١٠٥٤]، بينما انتعشت الخلافة العباسية وسعت لاستعادة سلطانها ورفع الهيمنة السلجوقية، وتزايدت حوادث الاغتيال التي كان الباطنية ينفذونها ضد بعض الخلفاء والسلاطين والأمراء والوزراء، كما توزعت جهود السلاجقة بفعل صراعهم مع البيزنطيين وبعدهم مع الفرنج الغزاة

(١٠٥١) المنتظم، لابن الجوزي (٩/ ٥٧- ٥٨).

(١٠٥٢) المنتظم، لابن الجوزي (٩/ ١٣٢- ١٣٣).

(١٠٥٣) المنتظم، لابن الجوزي (٩/ ١٦٩).

(١٠٥٤) مرآة الزمان، سبط ابن الجوزي (١/ ٦٣).

مما أوقف الفتوحات السلجوقية التي أدت بدورها إلى انخفاض واردات الأمراء الإقطاعيين[١٠٥٥].

وبموت السلطان مسعود سنة (٥٤٧ هـ) "مات معه سعادة البيت السلجوقي ولم يقم له بعده راية يعتد بها ولا يُلتفت إليها"؛ واستظهر الخليفة المقتفي على داره ودور أصحاب السلطان ببغداد، وجمع الرجال والعساكر وأكثر التجنيد، وملك عسكر الخليفة الحلة والكوفة وواسط[١٠٥٦].

وعلى إثر انتصار ابن هبيرة وزير المقتفي على أصحاب السلطان في معركة "بجمزا" سنة (٥٤٩هـ) تمكن المقتفي من إنهاء الوجود السلجوقي في العراق، وهكذا جدد معالم الإمامة ومهد رسوم الخلافة، وباشر الأمور بنفسه، وغزا غير مرة في جنوده، وكان وزيره يحيى بن هبيرة خير عون له في إقامة حشمة الدولة العباسية وقطع أطماع ملوك السلاجقة في بغداد.

وكانت آخر المحاولات السلجوقية للعودة إلى بغداد محاولة السلطان طغرل بك (٥٧٣ – ٥٩٠ هـ) سنة (٥٨٣ هـ) حينما أرسل إلى الخليفة الناصر يطلب

(١٠٥٥) تطور السلطنة؛ للجالودي (ص ٨٤– ٨٦).

(١٠٥٦) الكامل؛ لابن الأثير (٩/ ٣٧٣ – ٣٧٤).

عمارة دار السلطنة فهدمت إلى الأرض وعفا أثرها[١٠٥٧]؛ ثم استنجد الناصر بخوارزم شاه "تكش" ضد "طغرل" فحاربه وقضى عليه وارسل رأسه إلى بغداد سنة (٥٩٠ هـ) وذلك مقابل تقليد الخليفة له بلاد الري التي كان طغرل يملكها، ومن ثمَّ حاول خوارزم شاه محمد بن "تكش" أن يفعل عندما بايع رجلاً علوياً من ترمذ واصطحبه مع جيشه لغزو بغداد بحجة تنصيبه خليفة مكان الناصر[١٠٥٨].

وبرز في هذا القرن ثُلَّةٌ مباركة من علماء السَّلف الذين ردُّوا على المتصوفة، ومنهم:

١- الإمام أبو بكر محمد بن الوليد الطرطوشي المالكي الأندلسي (٤٥١ - ٥٢٠ هـ)، والذي ردَّ على "إحياء" الغزالي، وقد بيَّن حال الغزالي في رسالته التي بعث بها إلى ابن المُظفَّر؛ فقال: "إلى ابن مظفر فأما ما ذكرت من أمر الغزالي فرأيت الرجل وكلمته فرأيته رجلا من أهل العلم قد نهضت به فضائله واجتمع فيه العقل والفهم وممارسة العلوم طول زمانه، ثم بدا له الانصراف عن طريق العلماء ودخل في غمار العمال، ثم تصوف فهجر العلوم وأهلها ودخل في علوم الخواطر وأرباب القلوب ووساوس الشيطان، ثم شابها بآراء الفلاسفة ورموز الحلاج وجعل

(١٠٥٧) الكامل؛ لابن الأثير (١٠/ ١٦٣- ١٦٤).

(١٠٥٨) تاريخ الشعوب الإسلامية، بروكلمان (ص ٣٨٠ - ٣٨١).

يطعن على الفقهاء والمتكلمين، ولقد كاد ينسلخ من الدين فلما عمل الإحياء عمد يتكلم في علوم الأحوال، ومرامز الصوفية، وكان غير أنيسٍ بها، ولا خبير بمعرفتها فسقط على أم رأسه وشحن كتابه بالموضوعات انتهى"[١٠٥٩].

وله كتاب "الحوادث والبدع"، ورسالة في "تحريم السماع"، وغيرها، وقد تفقه على جُملةٍ من مشايخ الأندلس كأبي الوليد الباجي، وأبو محمد بن حزم، ودرس على يد أبي بكر الشاشي، وأبي العباس أحمد الجرجاني، وأبي محمد رزق الله التميمي، وأبي عبد الله الحُميدي.

ومن تلاميذه: القاضي أبو بكر بن العربي المالكي الذي قال عنه: "وكان ملء السمع والبصر"، وأبو بكر محمد بن الحسين الميورقي، وأبو علي الحسن بن علي الأنصاري، وإبراهيم بن صالح المرادي، وأبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي، وابن تومرت مؤسس الدولة الموحدية، وسند بن عنان الأزدي أكبر تلاميذ الطرطوشي، وأبو طاهر السلفي، وغيرهم من الأعلام.

٢- أبو الحسن محمد بن عبد الملك الكَرَجي الشافعي (٤٥٨ - ٥٣٢ هـ)، وقد أخذ عن أبي منصور محمد بن أحمد الأصبهاني، وأبي إسحاق الشيرازي،

(١٠٥٩) طبقات الشافعية (٦/ ٢٤٣).

وأبي الحسن بن علاف، وغيرهم. وروى عنه ابن السمعاني، وأبو موسى بن المديني، وغيرهما، وله "الفصول في اعتقاد الأئمة الفحول"، وقد ردَّ فيه على المبتدعة عموماً، والمتصوفة على وجه الخصوص، وذكر ابن العماد أن له قصيدةً مشهورةً في السنة نحو مائتي بيت، شرح فيها عقيدة السلف(١٠٦٠).

٣- أبو القاسم إسماعيل بن محمد التيمي الطلحي الملقب بـ"قوام السُّنة".

وفي خاتمة هذا الفصل يجدر التنويه إلى ان المدائح النبوية نشأت في النصف الثاني من القرن السادس الهجري، فكان النحوي المعروف بـ "ملك النحاة" الحسن بن أبي الحسن (ت ٥٦٨هـ) أول شاعر يمدح الرسول بعدد من القصائد يبلغ الستّ (١٠٦١).

ويذكر الباحث سعيد بن مسفر القحطاني بعض المخالفات التي كانت سائدة في ذلك العصر إبان قيام الخلافة العباسية، من معظم الخلفاء العباسيين، والتي منها(١٠٦٢):

(١٠٦٠) شذرات الذهب (٤/ ١٠٠).

(١٠٦١) انظر: الشعر العراقي؛ للسوداني (ص ٢١٤- ٢١٥).

(١٠٦٢) انظر: الشيخ عبد القادر الجيلاني وآراؤه الاعتقادية (ص ١٧-).

١-الإسراف في الأموال العامة، وتبديد مقدرات وثروات الأمة، وصرفها في غير المصارف الشرعية، وإنفاقها على الشعراء والمداحين، الذين كان الأولى بهم أن يُحثى في وجوههم التراب، بالإضافة إلى المبالغة في ترف العيش وبناء القصور.

٢-توليتهم لمن ليس أهلاً للولاية ممن رقَّ دينه، وقلَّت كفاءته، واعتمادهم في الغالب على الأعاجم ممن لا يوثق بدينهم، وتوليتهم أهم الولايات، ووضعهم في المناصب القيادية الحساسة التي كان الأجدر بها الصلاح والتوى؛ لأن في إسناد الأمانات إلى غير أهلها خيانةٌ للأمة، وإضاعةٌ لأمنها، وأمانها، وتعريضها للضعف والانهيار.

٣-تقريبهم لأهل الفسق والمجون في مجالسهم ونواديهم، والابتعاد عن مجالسة الصالحين وعقلاء الأمة من أهل العلم والفضل ممن يحمل هموم الأمة ويرعى مصالحها.

المبحث الخامس:

التصوُّف في القرن السَّابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي

وفي العصر المملوكيّ [١٠٦٣] تعاظمت سيطرة التصوُّف على الحالة العامَّة للمجتمع الإسلامي، وأثَّر تأثيراً بالغاً في الحياة السياسية والحضارية والدينية والأخلاقية، فظهر الاعتقاد في الشيوخ وكراماتهم، وهذا يدلُّ على عمق ذلك التأثير في عقول الناس وأفكارهم، ومع جبروت السلطة المملوكيَّة إلا أن السلطان كان يعتقد في التصوُّف، ويخضع للشيخ الصُّوفي يلتمس منه الرضى والبركة...

فتحوَّل التصوُّف من طور النقد والإنكار إلى مجرد ترديد لعقائد السابقين، ووضع المصنفات في شرح أقوالهم، وتطبيق تعاليمهم، ومن ثَمَّ ركَّز المتصوفة المملوكيين على إنشاء الطرق الصُّوفيَّة، وتفرُّعها بحسب شهرة الشيخ وكثرة أتباعه، فتفرَّعت الشاذلية، والأحمدية، والسطوحيَّة وغيرها إلى عدة طرق، تفرعت بدورها، وهكذا...

ومع كثرة هذه الطُّرق إلا أنه لا يوجد فارق حقيقي بينها، سوى في طريقة الأذكار، ولون المرقعات، ونصوص الأوراد، وأسماء الشيوخ، ومع هذه الكثرة في الطرق إلا أنَّ التصوُّف لم يُعدم المعارضين له، والمنكرين عليه، بل زاد تسلُّط

(١٠٦٣) بدأ العصر المملوكي، بعد انتهاء الدولة الأيوبية سنة (٦٣٨هـ/١٢٣٠م)، وهو العام الذي تولت فيه شجرة الدر جارية الملك الصالح نجم الدين أيوب حكم البلاد. انظر: تاريخ الدولة الإسلامية، دحلان، (ص ٩٩).

الفقهاء والعلماء عليه، خاصَّةً وهو في حالة ازدياد مريع، وحالة عجيبة من تقديس الشيوخ، وقلّة الثقافة بين الأتباع والمريدين.

وقد اشتهر السِّحر والتنجيم والعرافة بين الطُّرق الصُّوفيَّة في هذه المرحلة، وهذا التطوُّر الكبير مرتبطٌ بمدى تأثر الناس بكرامات المشايخ، واعتقادهم في أصحابها، وكان للشيخ الصُّوفي أبو العباس أحمد بن علي بن يوسف البوني المغربي (ت ٦٢٢هـ/ ١٢٢٣م) بصمةٌ كبيرة في أعمال الشعوذة والسِّحر، وكان له الفضل في الترتيب والتنظيم المنهجي نهائياً لعلوم العرافة والتنجيم والتوسُّل السحري في كتبه الكثيرة، والتي منها (شمس المعارف الكبرى)، الأمر الذي أدخل مثل هذه الأعمال في كثير من ممارسات أصحاب الطرق، حتى بين أكثرها براءة والتزاماً (إن قلنا بذلك)، وكان استقرار البوني ووفاته بالقاهرة !..

ويُقرِّرُ أحمد زروق منهجيَّة البوني، بقوله: "واللُّطف موجودٌ بها (أي: الأذكار)، ودخول باب الذكر من حيثُ الطِّباع أمكنُ وأيسرُ، ولهذا الأصل، أسَّس الشيخ أبو العباس، ومن نحا نحوه في ذكر الأسماء وخواصها، [تسخيراً لها في

الأغراض الدنيوية]، فاسترق النفوس، بملائمها طبعاً، نفعٌ دينيٌّ مشروع!"[١٠٦٤]، وبعبارة أخرى: "استجلاب النُّفوس بمساعدة طبعها، أحرى لتقريب نفعها".[١٠٦٥]

ويقول: "كل اسمٍ أو ذكرٍ فخاصيته من معناه، وتصريفه في مقتضاه، وسرُّه في عدده، وإجابته على قدرِ همَّة صاحبه!".[١٠٦٦]

ومقارنة صغيرة بين التصوُّف في بداياته (القرن الثالث)، والعصر المملوكي، يظهر الفرق بجلاء... فالجنيد اضطر إلى التستر بالفقه، والاختفاء في داره لكي يقول لأتباعه: "العارف (أو العرَّاف) هو: من نطق عن سرِّك، وأنت ساكت"[١٠٦٧]، وأنَّ علم التصوُّف جاءه من الله أسفل درج داره، أما في العصر المملوكيّ، فقد قال إبراهيم الدُّسوقيّ (ت ٦٨٧هـ/ ١٢٨٨م): "أنا بيدي أبواب النَّار أغلقتها، وبيدي جنَّةُ الفردوس فتحتها، ومن زارني أسكنته جنة الفردوس... يا ولدي إن صحَّ عهدك معي، فأنا منك قريب غير بعيد، وأنا في ذهنك، وأنا في سمعك، وأنا في

(١٠٦٤) قواعد التصوف، أحمد زروق، القاعدة [١٢٣]، (ص ١٦٩).

(١٠٦٥) قواعد التصوف، أحمد زروق، القاعدة [١٣٥]، (ص ١٨٣).

(١٠٦٦) قواعد التصوف، أحمد زروق، القاعدة [١٢٤]، (ص ١٧٠).

(١٠٦٧) الرسالة القشيرية، (ص ٣١)، شرح الأنفاس الروحانية (ص ١٥).

طرفك، وأنا في جميع حواسك الظاهرة والباطنة"[١٠٦٨]، وكانوا يسجلون ذلك عنه افتخاراً به، والأمر أكبر مما يظنون!...

وهذا يُشبه صوفية "جوشو" البوذية، عندما سأله أحدهم: أنت شخصٌ طاهرٌ وورِع، فأين ستجد نفسك بعد وفاتك؟، فأجاب "جوشو" الزِّنّي: أمضي إلى الجحيم قبلكم جميعاً!، فصعق السائل وقال: كيف يمكن ذلك، فأجاب "جوشو": إن لم أذهب أولاً إلى جهنم، فمن سيكون منتظراً هناك لإنقاذ أناسٍ مثلك؟!.[١٠٦٩]

وإذا كان الحلاج قد دفع حياته ثمناً لإحدى شطحاته التي هي بمثابة سوء أدب مع الله ﷻ، فإن العصر المملوكي يعتبر أمثال هذه الشطحات من مستلزمات الولاية الصُّوفيَّة، يقول الشعراني عن معاصره الشيخ أبي السعود الخارجي: "وكان رضي الله عنه له شطحات عظيمة".[١٠٧٠]

(١٠٦٨) الطبقات الكبرى، الشعراني (١٥٣/١، ١٥٧).

(١٠٦٩) التصوف البوذي والتحليل التنفس، د. ت. سوزوكي (١٦٢– ١٦٣).

(١٠٧٠) الطبقات الكبرى، الشعراني (١١٨/٢).

ومن الجدير بالذكر أنَّ المماليك لم يكونوا يهتمُّون للدِّين، وإنما كانت غايتهم الاستيلاء على السلطة بأيِّ شكلٍ كان(١٠٧١)، ومن صور تأثُّر المماليك بالتصوُّف وشيوخه:

٧. الظاهر بيبرس؛ الذي استطاع بدهائه وسطوته أن يوجد مكاناً للشيخ خضر بن أبي بكر الكردي، والذي سمح له بفعل ما يريد في مملكته، مع تغاضيه عن انحلاله الخلقي؛ لأنه يعتق في ولايته، وفي معرفته للغيب(١٠٧٢).

واشتهرت في هذه الفترة الأربطة النسائيَّة، وبخاصَّة في بغداد، وكان من أشهرها رباط فاطمة الرازيَّة (ت ١١٥٧م)، ورباط البغداديَّة، الذي بنته ابنة الملك الظاهر بيبرس سنة (١٢٨٥م)، من أجل الشيخة زينب بنت أبي البركة المعروفة ببنت البغدادية، وكان لها أتباع كُثر من النساء!.(١٠٧٣)

أضف إلى ذلك أنَّ محمد بن سعيد البوصيري (ت ٦٩٦هـ)، عاش في عصر بيبرس، واشتهر بقصيدته المسماة (بالبردة) التي شرحها زكريا الأنصاري (ت

(١٠٧١) تاريخ العلوين في بلاد الشام (١/ ١١).

(١٠٧٢) نهاية الإرب، للنويري، مخطوط (٤١/٢٨، ١١٩-١٢٠)، وتاريخ ابن كثير (٢٦٥/١٣، ١٧٨).

(١٠٧٣) الطرق الصوفية في الإسلام، سبنسر ترمنجهام (ص ٤٥).

٦٢٩هـ) في (الزبدة الرائقة)، والأزهري (ت ٩٠٥هـ) في (التحفة اللطيفة)، وشرحها الملا علي القاري (ت ١١١٤هـ) في (الزبدة)، وشرحها إبراهيم الباجوري (ت ١٢٧٧هـ) في مختصر له، كذلك شرحها يوسف النبهاني (ت ١٣٥٠هـ)، وله (المحمدية)، والتي شرحها عبد الغني النابلسي فيما بعد..

٨. والسلطان قلاوون الذي كان يحرص على إحياء وحضور الاحتفالات الصُّوفيَّة، ويشارك فيها بسخاء[١٠٧٤]، وسار على نهجه ابنه الأشرف خليل، الذي اهتم بالصُّوفيَّة، وجعلهم ضمن حاشيته، لاستشارتهم فيما يجدُّ من الأحداث، وحفاظاً على مملكته واستقرار بلاده.[١٠٧٥]

٩. وهذا (برقوق) الذي يضرب به المثل في الحنكة السياسية، كان يخضع للمجاذيب الصوفيين، حتى أن أحدهم وهو الزهوري: "كان يبصقُ في وجهه"[١٠٧٦]، وعندما افتتح مدرسته الجامعة أعطاه مجذوب (طوباً) ليضعه في

(١٠٧٤) التصوف في مصر والمغرب (ص ٢٤٥).

(١٠٧٥) الأنس الجليل، العليمي (٢/٩١).

(١٠٧٦) إنباء الغمر (٢/٥٧)، والنجوم الزاهرة (١٣/١٠).

البناء، فوضعه في قنديل وعلَّقه في المحراب، يقول ابن إياس في القرن العاشر: "فهي باقيةٌ في القنديل إلى الآن".[١٠٧٧]

١٠. وبلغ من تسلُّط الصُّوفية على أمراء المماليك اعتبار أن من يرى الخروج عن طاعة الشيخ، فقد أتى بمعصيةٍ يجب عليه التوبة منها فوراً... وكل أمير لا يفرح قلبه ولا ينشرح صدره بالخروج عن جميع وظائفه وماله وسلطانه ونسائه وإمائه وعبيده إذا أمره شيخه بذلك، فلا يصلح للفقير –أي الصُّوفيّ– أن يصحبه...

١١. وبلغ من ذل المماليك أمام الأشياخ، ويعتبره المتصوفة من الآداب، ألا يرى الأمير فضلاً له على شيخه بما يرسله إلى زاويته من أصناف الأطعمة... وإذا طرده شيخه فعليه أن يستجيب له، وألا يبرح بابه، بل يظل ملازماً له، حتى يرضى عنه شيخه، وعليه أن يوالي من يواليه، وأن يُعادي من يُعاديه، (فمن يعادي الشيخ فقد عادى الله)... وأن يأمن شيخه على عياله وحريمه، ولو اختلى بهم، ولا يخطر بباله أنه ينظر إلى إحداهن بشهوة، وإلا فقد أساء الأدب على الشيخ... وأن يرى العم التي يعيش فيها من بركة شيخه، وأن يرضى بحكم شيخه كما يرضى العبد

(١٠٧٧) تاريخ ابن إياس، ت: محمد مصطفى (١/٣٧٣).

بحكم سيده... وأن يخلص النية كلما أراد الخروج لزيارة شيخه، فلا تكون لعلَّةٍ دنيوية أو أخرويَّة.(١٠٧٨)

ومن خلال ما سبق نخلص إلى أن التصوُّف قد تمكن من رأس الدولة المملوكيَّة ودبَّ في جميع مفاصلها، وأنَّ الشيخ الصُّوفي كان يحتل مرتبةً سامية تبلغ مرتبة الآلهة في العرف الدِّيني، بحيث يكون لهم حق التصرف المطلق والغير مشروط داخل الدولة الإسلامية، وحالة الذُّل التي عاشها أمراء المماليك تحت رحمة الشيخ الصُّوفي، بقواعده الغريبة، وطبقاً لمسؤلياته اللا محدودة...

وقد فرض التصوُّف نفسه على أنشطة الدولة العلمية والفنيَّة والعمليَّة، ودارت الحركة الفكرية للعصر المملوكي حول شرح المتون وإعادة تلخيصها دون ابتكار أو تجديد، وفرض التصوُّف نفسه علماً بين المناهج العلمية في مؤسسات الدولة، وتصوَّف العلماء، وتقهقر مستواهم الفكري، ومنع المجتهدون من مناقشة التصوُّف، بل وطورد كل من تجرَّأ على الاعتراض على الصُّوفيَّة، كما حدث لشيخ الإسلام ابن تيمية ومدرسته...

(١٠٧٨) إرشاد المغفلين، الشعراني، مخطوط (١٣٨-١٣٩).

وفي نفس الوقت ازداد تقديس الأولياء الصوفيِّين الأميِّين (أصحاب السجادة، والكرسيِّ المُقدَّس)، وكان تقديس المماليك للمجاذيب أكبر ما يعبر عن احتقار العصر المملوكي للعقل...

ومن أبرز الأنشطة الدينية والاجتماعة التي كانت تمارس في الشارع المملوكي، على أعين العلماء والقضاة، التوسُّل بالأولياء، وليس من المهم معرفة شخصية ذلك الوليّ، بقدر ما كان الاهتمام بنفس التوسُّل، فقد كان يُقصد الوليّ الميت من كافة الجهات لأجل التبرُّك، والتوسُّل، وطلب الحوائج...

ومن هؤلاء (عبدٌ أسود) اشتهر بالولاية، فتوافدوا عليه من كل مكان يعني في عصر المماليك[١٠٧٩]... بل إن (طفلة صغيرة) بقليوب اشتهرت بالولاية، فتوجَّه النَّاسُ إليها أفواجاً، فبلغ كرى –أجرة– كل حمار من القاهرة إلى قليوب دينار أشرفيّ، وتوجَّه إليها جماعةٌ من الخاصكيَّة، والأمراء والأعيان.[١٠٨٠]

ولا نجد أبلغ من وصف أبي المحاسن في اعتقاد الناس بالمجذوب الشيخ (يحيى الصنافيري)، الذي يقول فيه: "أجمع الناس على اعتقاده وهو لا يفيق من

(١٠٧٩) تاريخ ابن إياس (٢/٢٧٧).

(١٠٨٠) تاريخ ابن إياس (٤/١٦٥).

سكرته، وكان الناس يتوافدون إليه أفواجاً أفواجاً من بين عالم وقاض وأمير ورئيس، ولا يلتفت إليهم، ولما زاد ترداد الناس عليه، صار يرميهم بالحجارة، فلم يردهم ذلك عنه، رغبة في التماس بركته، ففر منهم وساح في الجبال".(١٠٨١)

وكان شمس الدين الحنفي إذا حلق رأسه، تقاتل الناس على شعره يتبركون به، ويجعلونه ذخيرةً عندهم(١٠٨٢)، واقتتل الناس على الشيخ الدشطوطي يتبركون به.(١٠٨٣)

وكان الشيخ محمد الديروطيّ لا يكاد يمشي وحده، بل يتبعه الناس، ومن لم يصل إليه رمى بردائه على الشيخ حتَّى تمسَّ الشيخ، ثم يردُّه إليه ويمسح به وجهه(١٠٨٤)، ورأى الشعراني ذلك المنظر، فعقب عليه: "كما يفعلُ النَّاس بكسوة الكعبة".(١٠٨٥)

(١٠٨١) المنهل الصافي، مخطوط (٥/٤٨١). والنجوم الزاهرة (١١/١١٨-١١٩).

(١٠٨٢) الطبقات الكبرى، الشعراني (٢/١٨٣).

(١٠٨٣) شذرات الذهب، ابن العماد الحنبلي (٨/١٣٠).

(١٠٨٤) الكواكب السائرة، نجم الدين ابن الغزي، (١/٨٤-٨٥).

(١٠٨٥) تنبيه المغترين، الشعراني (ص ٩٣-٩٤).

وذكر الشعرانيّ أنه دخل الجامع الأزهر ليصلي على جنازة فأكب الناس عليه يقبلون يده، ويخضعون له، وشيعوه حتَّى الباب، حتى صاروا أكثر من الحاضرين في الجنازة.[١٠٨٦]

وإذا مات الصُّوفيّ تنافس النَّاس في الحصول على ماء غسله للتبرُّك به[١٠٨٧]، وشراء أثوابه التي مات فيها لتكون حرزاً[١٠٨٨]، ولما مات الشيخ الشناوي، اقتتل الناس على النعش، وذهلت عقولهم من عظم المصيبة به، وقد دُفن في غفلةٍ عنهم.[١٠٨٩]

ولا تزال قضية ابن عربي من أبرز القضايا التي احتدم حولها الصراع في العصر المملوكي، ما بين مؤيد ومعارض، وقد انضمَّ إلى المعارضين بعض الصُّوفيَّة... ذلك الإنكار الذي استمر على ابن عربي حتى عصر الشعراني في القرن العاشر.. وهذا الإنكار الصُّوفي يأتي في سياقين لا ثالث لهما:

(١٠٨٦) لطائف المنن، الشعراني (ص ٢٦٣).

(١٠٨٧) تحفة الأحباب، السخاوي (ص ٣٧٠).

(١٠٨٨) طبقات الشافعية، التاج السبكي (١٢٧/٦).

(١٠٨٩) الطبقات الكبرى، الشعراني (١١٧/٢).

الأول: الإنكار بدافع الغيرة والحقد على ابن عربي الفيلسوف الذائع الصيت، والصُّوفيّ المشهور بين صوفيون يفتقرون إلى مثل علمه، وشهرته.

الثاني: الإنكار بدافع الخداع والتمويه، حفاظاً على مذهب التصوُّف، وحتى لا يصل إنكار الفقهاء إلى حدٍّ يؤثر على دين التصوُّف وأساسه.

هذا ولم يتمكن الشعراني من إخفاء إعجابه وشغفه بشخصية ابن عربيّ، خاصَّةً وبعد أن قام بتلخيص آرائه في كتابي (اليواقيت والجواهر)، و(الكبريت الأحمر)، وفي المقابل نجد من الصُّوفيَّة من ينكر على ابن عربيّ، وهذا أمرٌ طبيعي في مذهب طبيعته النفاق، ومن الممكن –أيضاً– أن يكون المنكرون حاقدون على ابن عربي، من أمثال: الصُّوفيّ إبراهيم بن معضاد الجعبريّ(ت ٦٨٧هـ) الذي يصف ابن عربيّ، بقوله: "رأيتُ شيخاً نجساً، يكذِّبُ بكلِّ كتابٍ أنزله الله، وبكلِّ نبيٍّ أرسله الله"، وذكر عنه أنه: "يقول بقِدم العالم، ولا يُحرِّمُ فرجاً"[(١٠٩٠)].

ومع ذلك، فالجعبريُّ سالف الذكر لم يسلم من الإنكار عليه، فذكر الشعرانيّ أن القضاة، عقدوا له مجلساً لمنعه من الوعظ، "وقالوا إنه يلحن في القرآن

(١٠٩٠) مجموع الرسائل والمسائل، ابن تيمية (٤/٧٦). وتنبيه الغبي، البقاعي (ص ١٧٨).

وفي الحديث"، ويبدو من شعره وكلماته[١٠٩١] أنه يتمتع بجهل زائد، وهذا يُفسِّر لنا موقفه السَّابق من ابن عربيّ، صاحب العشرات من المؤلفات..

وحظي ابن عربي بنقمة العز بن عبد السلام، فروى تلميذه ابن دقيق العيد، أنه سأل شيخه ابن عبد السلام عن ابن عربي، فقال: "هو شيخ سوء، كذَّاب، يقول بقدم العالم، ولا يُحرِّم فرجاً".[١٠٩٢]

يقول الشعرانيّ: "وكان الشيخ عز الدين ابن عبد السلام شيخ الإسلام، يحطُّ كثيراً عليه، فلما صحب الشيخ أبا الحسن الشاذلي، وعرف أحوال القوم، صار يترجمه بالولاية، والعرفان.."[١٠٩٣] ، وإن كان هذا حقيقيّاً، فقد تناقض ابن عبد السلام مع تاريخه الطويل في الانتصار لدين الله، من أجل أنه التقي بأبي الحسن الشاذلي، وصار مريداً له، وسبحان الله ربِّ العالمين !...

ومن ثمَّ طال الإنكار "ابن سبعين" الذي هو أكبر تلامذة ابن عربيّ، وكان معاصراً للعسقلاني (ت٦٨٦هـ) الذي صنف كتاباً في الرد على الاتحادية، بدأ فيه

(١٠٩١) الطبقات الكبرى، الشعرانيّ (١/١٧٧).

(١٠٩٢) تنبيه الغبي إلى تكفير ابن عربي، (ص ١٥١، ١٥٢).

(١٠٩٣) الطبقات الكبرى، الشعراني (١/١٦٣).

بالحلاج، وختم بالعفيف التلمساني، "وقد فوِّضت له مشيخة دار الحديث الكامليَّة بالقاهرة".[١٠٩٤]

وقد شهد القرن السابع تكون أشهر الطُّرق الصُّوفيَّة في مصر وأشياخها: أحمد البدوي (ت ٦٧٥هـ)، وإبراهيم الدُّسوقيّ(ت ٦٧٦هـ)، وأبو الحسن الشاذلي (ت ٦٥٦هـ).. وكان تأثير ابن عربي فيهم واضحاً..

فالبدوي يُعبِّر عن الاتحاد:

وباسطني عمداً فطاب خطابه ... فيا طيبها من حضرة صمدانية

فغيبني عني فصرتُ بلا أنا.... دهشتُ بمرآةٍ ووحَّدتُ وحدتي[١٠٩٥]

وشأنه في ذلك شأن ابن الفارض في تائيته.. حتى أنه (البدويّ) زار قبر الحلاج [١٠٩٦] في رحلته إلى العراق، وهو من أشهر القائلين بالحلول والاتحاد..

(١٠٩٤) شذرات الذهب (٥/٣٩٧).

(١٠٩٥) الجواهر السنية، عبد الصمد (ص ٩٣، ١٤٥).

(١٠٩٦) الجواهر السنية، عبد الصمد (ص ٩). والطبقات الكبرى للشعراني (١/١٥٦). وقد اشتهر زيارة قبر الحلاج المقتول بالزندقة سنة (٣١٩ هـ) بين متأخري الصُّوفيَّة، ويعدون ذلك قُربةً من القُرب، وطاعة من الطاعات.

أما الدُّسوقي فقد قيل فيه: "إنه يذهب إلى أكثر ما ذهب إليه الحلاج، فهو يقول: أنه عين الله، في حين أن الحلاج قد سمّى نفسه الحق"[١٠٩٧]، وليس في ذلك تحامل على الدسوقي الذي يقول في تائيته:

تجلى لي المحبوب في كل وجهة ... فشاهدته في كل معنى وصورةِ

وخاطبني منِّي بكشف سرائري ... فقال أتدري من أنا فقلت منيتي

فأنت منائي بل أنا أنت دائماً ... إذا كنت أنت اليوم عين حقيقتي

فقال كذلك الأمر لكنه إذا ... تعيَّنتِ الأشياء كنتَ كنسختي

فأوصلتُ ذاتي باتحادي بذاته ... لذاتٍ بديمومة سرمدية[١٠٩٨]

وهكذا يقرر الدُّسوقي نسبته الحقيقية، بأنه يتحد بالله، وأنه يشاهد الله في كل الكائنات المادية والمعنوية، ولم يتوقف الدسوقي عن إعلان عقديته نظماً حتى أبانها نثراً، وهو القائل: "أنا كل وليٍّ في الأرض، خلعته بيدي، ألبس منهم من شئت،

(١٠٩٧) دائرة المعارف الإسلامية (٩/٢١٨).

(١٠٩٨) الطبقات الكبرى، الشعراني (١/١٥٨).

أنا في السماء شاهدت ربِّي، وعلى الكرسيِّ خاطبته، أنا بيدي أبواب النار غلقتها، وبيدي جنة الفردوس فتحتها، من زارني أسكنته الفردوس...".[١٠٩٩]

أما الشاذلي، فقد اكتسب الشهرة بالاعتدال، وأنه أقرب الطرق الصوفية إلى أهل السُّنَّة، وأبعدها عن مدرسة ابن عربي الاتحادية، ومع ذلك لم ينجو من الإنكار، شأنه في ذلك كشأن سائر الصُّوفيِّة المتطرفين في العصر المملوكيّ؛ لأنه كلما زاد الادِّعاء زاد الإنكار، يقول الشعراني عن سبب مجيء الشاذلي إلى مصر: "وأخرجوا أبا الحسن الشاذلي رضي الله عنه من بلاد المغرب بجماعته، ثم كاتبوا نائب الإسكندرية بأنه سيقدم عليكم مغربيٌّ زنديق، وقد أخرجناه من بلادنا فالحذر الحذر من الاجتماع عليه، فجاء الشيخ إلى الإسكندرية، فوجد أهلها يسبُّونه، ثُمَّ وشوا به إلى السلطان، ولم يزل في الأذى حتَّى حجَّ بالنَّاس".[١١٠٠]

وفي المقابل نجد أنَّ التفتازاني يقول: "كان تصوف الشاذلي والمرسي وابن عطاء–وهم أركان المدرسة الشاذلية– مبتعداً تماماً عن مدرسة ابن عربي في وحدة الوجود، فلم يكن واحدٌ منهم قائلاً بهذا المذهب، ولكن هذا لا يعني أنه لم تكن صلات بين مدرسة ابن عربي والمدرسة الشاذلية، فالمدرستان تفرعتا عن أستاذ

(١٠٩٩) الطبقات الكبرى، الشعراني (١/١٥٧). وجوهرة الدسوقي (ص ٩٩).

(١١٠٠) الطبقات الكبرى، الشعراني (١/١٠).

مغربيٍّ واحد هو (أبو مدين الغوث شعيب بن الحسين التلمسانيّ) المتوفى سنة (٥٩٤هـ/ ١١٩٧م)، وهو الذي يُمثِّل مذهب الفناء في التوحيد خير تمثيل، وتتلمذ عليه ابن عربي وكثيرٌ من شيوخ الشاذلي، ثم هناك إلى جانب هذا اتصال بين الشاذلي وبين بعض أصحاب ابن عربي، وقع في مصر، وتبادل فيه الطرفان الكلام في حقائق التصوُّف".[١١٠١]

ومن خلال ما تقدم، يتبين لنا الصلات الوثيقة بين مدرسة ابن عربيّ والمدرسة الشاذلية، ويؤكد التفتازاني ذلك، بقوله: "ولم يطعن الشاذلي والمرسي وابن عطاء في القائلين بالوحدة والحلول، ولا في حكيم الإشراق السهروردي المقتول، الذي كان المرسي أحياناً يتمثل ببعض شعره في الحب، ولا في أبي يزيد البسطامي...".[١١٠٢]

ومن المناسب استعراض بعض عقائد الشاذلي فيما كتبه تلميذه ابن عطاء في كتابه (لطائف المنن)، حيث يقول الشاذلي: "الصُّوفيّ هو من يرى الخلق لا موجودين ولا معدومين.."، ويقول: "إنا لا نرى أحداً من الخلق، وهل في الوجود أحدٌ سوى الملك الحق؟!، وإن كان لابد فكالهباء في الهواء إن فتشته لم تجده

(١١٠١) ابن عطاء الله وتصوفه، التفتازاني (ص ٤٦).

(١١٠٢) ابن عطاء الله وتصوفه، التفتازاني (ص ٤٨).

شيئاً"[١١٠٣]، وكأنه يعيد صياغة مقولة ابن عربي: "إن شئت قلت هو الخلق، وإن شئت هو الحق، وإن شئت قلت هو الخلق الحق.. وإن شئت قلت بالحيرة في ذلك".[١١٠٤]

وقد أثر عن ابن عربي قوله في ارتفاع مكانة الإنسان حتى جعله بالنسبة إلى الله تعالى، بمنزلة "إنسان العين من العين الذي يكون به النظر"، وقد صرَّح الدُّسوقي بذلك في تائيته، ثم ألمح الشاذلي إلى هذه النقطة حينما جعل نفسه يتحد مع تلميذه المرسيّ، فقال له: "يا أبا العباس ما صحبتك إلا لتكون أنت أنا، وأنا أنت".[١١٠٥]

وبناءً على ذلك جاءت الأسطورة المنامية بعد موت الشاذلي، جعلته لاهوتاً يحلُّ ويتحد في ناسوت خليفته المرسيّ، يقول ابن عطاء: "وأخبرني بعض أصحابنا، قال: رأى إنسانٌ من أهل العلم والخير، كأنه بالقرافة الصغرى، والناس مجتمعون يتطلعون إلى السماء، وقائلٌ يقول: الشيخ أبو الحسن الشاذلي ينزل من السماء، والشيخ أبو العباس مترقِّبٌ لنزوله، متأهِّبٌ له، فرأيت الشيخ أبا الحسن قد نزل من

(١١٠٣) لطائف المنن، (ص ١٩٩).

(١١٠٤) الفصوص، (ص ١٣٤).

(١١٠٥) لطائف المنن، (٩٦).

السماء، وعليه ثيابٌ بيض، فلما رآه الشيخ أبو العباس ثبَّت رجليه في الأرض، وتهيَّأ لنزوله، فنزل الشيخ أبو الحسن عليه، ودخل من رأسه حتى غاب فيه".[١١٠٦]

وهذه الإثنينية (Dualism) في الامتداد والجوهر، فضلاً عن التفكير والاعتقاد، وتسلسل الطريقة، يجعلنا نوقن بأن طريقة القوم واحدة منذ النشأة إلى وقتنا هذا، فما الفرق إذن بين صوفيٍّ وآخر، ما داموا متشبثين بالتقليد التاريخي، اللاهوتي الخاص بهم!.

وقد كان ابن مشيش وهو الشيخ المباشر للشاذلي، ولا زالت صلاة ابن مشيش هي الورد المفضل للشاذلية حتى اليوم... وفيها يقول ابن مشيش: "وزجني في بحار الأحدية، وانتشلني من أوحال التوحيد (توحيد المسلمين)، وأغرقني في بحر عين الوحدة (توحيد الاتحادية)، حتى لا أسمع، ولا أجد، ولا أحس إلا بك".[١١٠٧]

(١١٠٦) لطائف المنن، ابن عطاء الله السكندري (ص ١١٢). وانظر: قضية التصوف، د. عبد الحليم محمود (ص ١٧٥).

(١١٠٧) شرح صلاة ابن مشيش، مخطوط (٢٢٥، ٢٢٦).

ويقول الشاذلي في حزبه: "اللهم صلني باسمك العظيم، وهب لي منه سراً لا تضرني معه الذنوب شيئاً، وأدرج أسمائي تحت أسمائك، وصفاتي تحت صفاتك، وأفعالي تحت أفعالك، وأغنني حتى تغنى بي، وأحيني حتى تحيا بي".(١١٠٨)

ولم يتخلف أبو العباس المرسي عن ركب شيخه أبو الحسن شيئاً، فقد كان يقول في الوليِّ الصُّوفيِّ، ما نصُّه: "لو كُشف –لهؤلاء المحجوبون من البشر– عن حقيقة الوليّ لعُبد؛ لأن أوصافه من أوصافه ونعوته من نعوته".(١١٠٩)

وقد عبر المرسيّ عن طبيعة الإنكار على الصُّوفيَّة في عصره على نسق ما قاله شيخ الشاذلي، فيقول: "يكون الرجل بين أظهرهم، فلا يلقون إليه بالاً، حتى إذا مات، قالوا: كان فلان، وربما دخل في طريق الرجل بعد وفاته أكثر مما دخل في حياته".(١١١٠)

وبعد كل ما ذُكر، نجد أن التفتازاني يمارس دوراً مقلوباً في التحليل والاستنباط، فيقول: "وقد لاحظنا بعد استقراء طويل لأقوال ومذاهب الصُّوفيَّة في

(١١٠٨) لطائف المنن (ص ٢٦٥، ٢٦٦).

(١١٠٩) لطائف المنن (ص ٤٥).

(١١١٠) لطائف المنن (ص ٩٤).

مصر، منذ القرن الثالث إلى القرن الثالث إلى السابع، سواء منهم من كان مصرياً، أو وافداً إلى مصر، ومقيماً بها، ما يلي:

١– لم يقل واحدٌ منهم بوحدة الوجود أو الحلول أو الاتحاد..

٢–وأن تصوفهم خالٍ من العناصر الأجنبية غير الإسلامية، وتصوفهم في نظرنا يمثل التصوف الإسلامي الخالص"(١١١١)، وهو قولٌ مجافٍ للحقِّ تماماً، بل إن المنطق والتاريخ يأبى قبوله أو الإذعان لمثله، وأين ابن الفارض، والعفيف التلمساني، وغيرهما ممن اشتهروا بالاتحاد والحلول؟!.

قال السُّيوطيُّ(١١١٢): "والعفيف التلمساني الشاعر المنسوب إلى الإلحاد"(١١١٣).

ويتمتع أتباع الأشياخ: البدوي والدسوقي والشاذلي بتقديس خاص، اضطرد مع تتابع السنين، بما كرسه أتباعهم من التأليه والعبادة لهم طبقاً لعقيدة الصُّوفيَّة في

(١١١١) ابن عطاء وتصوفه (ص ٥٣). وحوليات آداب القاهرة (٢٥/٦٣).

(١١١٢) هو الشيخ عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، له ما يربو على الستمائة مصنف، وتوفي سنة (٩١١ هـ) انظر الأعلام للزركلي (٣/ ٣٠١).

(١١١٣) تاريخ الخلفاء؛ لجلال الدين السيوطي، باب من مات في أيام الحاكم من الأعلام (ص ٣٤٦).

الأولياء، إلا أن ذلك التقديس لم يحجب ضرورة الإنكار عليهم سواءً في حياتهم أو بعد مماتهم، مع ما كان للتصوُّف من دولة زاهرة في العصر المملوكيّ..

فابن دقيق العيد أنكر على أحمد البدويِّ طريقته، فجاء في الجواهر السَّنيَّة: "إن مولانا قاضي القضاة شيخ الإسلام تقيُّ الدين ابن دقيق العيد كان ينكر على الشيخ أحمد البدوي"[١١١٤]، ثم تنتهي قصة الإنكار بكرامة تجعل ابن دقيق العيد يتراجع عن إنكاره، ويعتقد بولاية البدويِّ، شأنه في ذلك شأن شيخه العز ابن عبد السلام مع الشيخ الشاذلي.

ويذكر الشعرانيّ أن الخطباء في طنطا، انتصروا لأحد المنكرين على البدوي، وبنو له مئذنة عظيمة، "فرفسها سيدي عبد العال برجله، فغارت إلى وقتنا هذا".[١١١٥]

هكذا هو الأمر إذن، تهويلٌ وهلوسة، ونشرٌ للأكاذيب بين العامة، حتى لا يجرؤ أحدٌ على الشيخ الصُّوفيّ الذي يعتقد في نفسه الإلهية الكاملة، ويريد من جميع المخلوقات أن تخضع لحضرته المقدسة.

١١١٤() الجواهر السَّنيَّة (ص ٤١).

١١١٥() الطبقات الكبرى (١/١٦٠، ١٦٢).

يقول الدكتور سعيد عاشور: "ثمَّة حقيقة واضحة تبدو في الكتابات التي عالجت سية البدوي، وهي أنه تعرَّض لنقدٍ شديد من فقهاء عصره، وأن بعضهم رموه بالدجل، والبعد عن الدين، وقد ذكرت لنا هذه الكتابات الانتقادات التي وجهها العلماء والفقهاء إلى السيد أحمد البدوي ومريديه، ولكنها لم تذكر للأسف الدفاع والردود التي حاول السيد البدوي وأتباعه الدفاع بها عن أنفسهم، وكل ما هناك هو أنَّ الرواة اختلقوا بعض القصص التي لا يقبلها العقل؛ لمحاولة إظهار مدى بطش السيد البدوي بالمعترضين عليه والسخرية منهم".[١١١٦]

ولا شك أن الدُّسوقي قد نال حظه من التطرف الصُّوفيّ داخل أسوار المدرسة الشاذلية، فكان يقول: "عليكم بتصديق القوم في كل ما يدعون، فقد أفلح المصدقون، وخاب المستهزئون، فإن الله تعالى قذف في سرٍّ خواص عباده ما لا يطلع عليه ملك مُقرَّب، ولا نبيٌّ مرسل.. ما أنا قلت من عندي، إنما هو كلام أهل العلم بالله تعالى، فما للعاقل إلا التسليم، وإلا حرم فوائدهم، وخسر الدارين".[١١١٧]

(١١١٦) السيد البدوي شيخ وطريقة، د. سعيد عاشور (ص ١٢٨).

(١١١٧) الطبقات الكبرى (١/ ١٥٠).

والطريف أن الدسوقي قد أوسع مكاناً في النَّار للمنكرين عليه، وأحبط أعمالهم، وذلك في معرض استعراض ألوهيته يوم القيامة، حيث يقول: "ومن كراماتنا أني سددت أبواب جهنم السبع بفوطتي، وفتحتها لأعدائي وأدخلتهم فيها، ومنها أني فتحت أبواب الجنة الثمانية بيدي، وأدخلت أمة محمد ﷺ فيها، ومنها أن صنج الميزان بيدي أُصيِّر حسنات مريدي أثقل من سيئاته، ومسّيت عليها بيدي، فصارت سيئات المنكرين عليَّ أثقل من حسناتهم ولو كانوا مطيعين".[١١١٨]

وقد فطن الشاذليّ إلى نقطة الضعف في الإنكار عليه، وهي اقصاؤه للصوفية المعاصرين، والثناء والتقديس للصوفيَّة الأوائل، واتخذ الشاذليّ من ذلك تكأةً للهجوم عليهم، فيقول ابن عطاء: "صدقوا بكرامات الأولياء الذين ليسوا في زمنهم؛ كمعروف، والسُّريّ، والجنيد، وأشباههم، وكذبوا بكرامات أولياء زمانهم، فهي كما قال الشيخ أبو الحسن: والله ما هي إلا إسرائيلية، صدقوا بموسى وعيسى عليهما السلام، وكذبوا بمحمد ﷺ؛ لأنهم أدركوا زمنه"[١١١٩]، وواضح أنه يطلب الإيمان والتصديق بالأولياء الصُّوفيَّة، وعدم التكذيب بهم كالأنبياء، ولكن طبقاً لعقيدة التصوف في تأليه الوليّ الصوُّفيّ، والإيمان بكراماته.

(١١١٨) طبقات الشرنوبي، (ص ٣، ٤). مخوط بجامعة القاهرة تحت رقم (٢١٨٤٦).

(١١١٩) لطائف المنن، ابن عطاء (ص ٦٦).

وكان ابن عطاء السكندري في بدايته ينكر على المرسي، ويقول: "هؤلاء القوم يدَّعون أموراً عظيمة، وظاهر الشرع يأباها"[١١٢٠]، بل إن جدَّ ابن عطاء كان من العلماء المنكرين على الشاذلي والمرسي، حتى جاء ابن عطاء وتنكب طريق جدِّه، فأصبح مؤرخاً ومنافحاً عن الشاذلية، وقد قال المرسي بعد أن استنسخ ابن عطاء كتاباً له، فأعجب بصيغته، فمدحه: "هذا الكتاب استنسخه لي ابن عطاء الله، والله ما أرضى له بجلسة جدِّه، ولكن بزيادة التصوُّف"..[١١٢١]

وانتشر التصوُّف والطرق الصوُّفيَّة إلى الحد الذي جعلتها تتخطى حدود البلد التي هي فيها، فالطريقة البدوية بعد أن تخطت حدود مصر إلى الشام، اصطدمت هناك بزعيم الفقهاء ابن تيمية، والذي خاض مع غيره من الفقهاء حرباً شرسة ضد أتباع ابن عربيٍّ الحلولي، وذلك في أواخر القرن السابع وأوائل القرن الثامن الهجريّ.

ولم يمر هذا الإنكار بسلام، خاصَّةً وأن نصراً المنبجيّ، داعية ابن عربيّ، كان قد سيطر على العناصر المملوكية في الدولة، وعلى رأسهم السلطان بيبرس الجانشكير الذي اغتصب العرش من السلطان الناصر محمد بن قلاوون، بتأييد

(١١٢٠) لطائف المنن، ابن عطاء (ص ١١٩).

١١٢١() لطائف المنن، ابن عطاء (ص ١١٦).

ومباركة من الصُّوفيَّة، بزعامة نصر المنبجيّ، ولم تستمر أيام الجانشكير كثيراً إذ سقط وتفرَّق عنه أتباعه الصُّوفيون، وتمَّ الأمر للناصر محمد بن قلاوون، وكان ابن تيمية معتقلاً، بينما الصُّوفيَّة، يُعدِّون العدة لاستقبال السلطان الجديد الذين تخلو عنه سابقاً..

وقد حوكم ابن تيمية مرتين، مرةً في الشام، ومرةً في مصر بسبب إنكاره على ابن عربيّ، وذلك عندما "أحضر بعض أصحابه كتاب الفصوص لابن عربي، فرأى الشيخ فيه مسائل تخالف اعتقاده، فطفق في لعن ابن عربي وأصحابه، وكل من يعتقد اعتقاده، واعتكف ابن تيمية في رمضان، وصنَّف نقيضه، وسماه (النُّصوص على الفصوص)، ردَّ فيه مقالات ابن عربي.. وبلغه أن شيخ الشيوخ كريم الدين، شيخ (خانقاه سعيد السعداء) بالقاهرة له اشتغالٌ بمصنفات ابن عربي، وأنه يُعظِّمه تعظيماً كبيراً، وكذلك النَّصر المنبجيّ (ت ٧١٩هـ) داعية ابن عربي، فألف كتابين آخرين شنَّع فيهما على ابن عربي، ولعنه فيهما مصرِّحاً، ولعن من يقول بقوله، وسيَّر كتاباً للشيخ نصر المنبجي، والشيخ كريم الدِّين، فتألم المنبجيُّ لذلك، وكانت له منزلته عند ركن الدين بيبرس (الجاشنكير المتحكِّم) الذي لا يقوم ولا يقعد إلا به، وبلغ من مقامه عنده أن أرباب المناصب والقضاة يترددون على الشيخ نصر؛ لأجل منزلته عند بيبرس، فحضر عنده القاضي ابن مخلوف، فأوقفه على كتاب ابن تيمية،

فقال القاضي لبيبرس: قرر ما أحببت وأنا معك كيف شئت، اطلبه إلى الديار المصرية، ونسأله عن عقيدته، فقد بلغني أنه أفسد عقول جماعة كبيرة، وهو يقول بالتجسيم، وعندنا من اعتقد هذا الاعتقاد كفر، ووجب قتله.. وأعاد النصر المنبجي على بيبرس حديث القاضي ابن مخلوف، وزاد أنَّ ابن تيمية غرَّر بنائب الشام وكبراء الشاميين، وحملهم على عقيدته، والمصلحة تقتضي طلبه إلى الأبواب العالية، ويطلب منه عقيدته، وتقرأ على العلماء في الديار المصرية من المذاهب الأربعة، فإن وافقوه، وإلا استتابوه، وارجعوه عن مذهبه وعقيدته، وارجع عن ذلك كل من لعب بعقله من الناس، ثم ذكر له ذنوباً أُخر، حتى حرص بيبرس على طلبه".(١١٢٢)

ومما سبق يتضح لنا النفوذ الكامل لنصر المنبجي على مفاصل الدولة المملوكية، ومنزلته الكبيرة عند ركن الدين بيبرس، حتى أن القضاة والحكام والأمراء وأرباب المناصب كانوا يترددون عند الشيخ نصر؛ لأجل منزلته عند بيبرس الجانشكير، بالإضافة إلى تزيين القاضي ابن مخلوف لنصر المنبجيّ استحضار ابن تيمية لمصر، حيثُ يتمكن من قتله متهماً بالكفر، واعتبرا معاً أن دعوة ابن تيمية ضد العقيدة الصُّوفيَّة هي بمثابة "إفساد لعقول جماعة كبيرة من الناس.."، وأثار

(١١٢٢) سيرة الناصر، ابن أيبك الداودي (ص ١٤٣).

نصر المنبجي خوف بيبرس الجانشكير من ابن تيمية، منها أنه ضم إليه (نائب الشام)، و(أكبر الأمراء)، وذكر له ذنوباً أخر حتى حرص بيبرس على طلبه..

وكان ابن تيمية قد تعرض لمحاكمة في الشام من أعوان الصُّوفيَّة، اتخذت صورة الخلاف الفقهي، وذلك في رجب (٧٠٥هـ): "وانفصل الأمر بينهم على أنه اشهد على نفسه الحاضرين أنه شافعيٌّ المذهب"، ومع أن العقائد كانت فحوى الخلاف وأساسه، إلا أنهم تجاهلوا ذلك تحرجاً من إعلان عقيدة الصُّوفيَّة، حتى لا تتعرض لتفنيد ابن تيمة ومناقشاته، ولذا سألوه في مواضع خارجاً عن العقيدة، ثم رجعوا واتفقوا أن يحاققه ابن الزملكاني من غير مسامحة"[١١٢٣]، كما يرويها لنا المؤرخ الأمير بيبرس الداوداري وهو معاصرٌ لهذه الفترة.

وكان موقف المماليك في الشام معتدلاً، فاعتقل النائب المملوكي على الشام "من الطائفتين (الفقهاء والصُّوفيَّة)، وهدد من تكلَّم في العقائد ليخمد الفتنة".. ثم وردت من مصر موافقة على مذهب ابن تيمية، وفيه: "قد فرحنا بإجماع رأي العلماء على عقيدة الشيخ تقي الدين (ابن تيمية)"، ويقصد بالعلماء الزملكاني، وقاضي القضاة نجم الدين بن الصرصري..

(١١٢٣) سيرة الناصر، ابن أيبك الداودي (ص ١٣٣، ١٣٨).

ثم حدث الانقلاب بعد أن وصل كتاب ابن تيمية إلى نصر المنجي في لعن ابن عربي وأتباعه.. فورد مرسومٌ آخر في (٥/ رمضان)، بطلب ابن تيمية والزملكاني والصرصري، وفيه" إنكار على ابن تيمية، وأن القاضي ابن مخلوف قد قام في الأمر قياماً عظيماً، وإن بيبرس شانكير معه في الأمر.. فأمر ملك الأمراء بتجهيزهم، فوصلوا في رمضان، وعقد مجلساً لابن تيمية في دار النيابة (بمصر) بحضور الأمير سلار والعلماء والقضاة الأربعة وبيبرس"، وتولى ابن عدلان الشافعيّ كبر هذه المحاكمة الظالمة، "فادَّعى على ابن تيمية دعوى شرعيَّة في عقيدته"، واستمر تجاهل الصُّوفية لموضوع العقيدة أثناء المحاكمة، فاشطتوا في منع ابن تيمية من شرح عقيدته "فأراد ابن تيميةأن يذكر عقيدته في فصلٍ طويل، فقالوا له: يا شيخ الذي تقوله معلوم ولا حاجة للإطالة"، بل منعوه في ذلك المجلس من مجرد التلفظ بحمد الله والثناء على نبيِّه ﷺ، ليبدأ في الكلام.. وكان التحامل واضحاً على ابن تيمية تنفيذاً للمخطط الذي وضعه ابن مخلوف، وباركه نصر المنبجيّ، ووافق عليه بيبرس الجاشنكير.. "فأعاد القول في التحميد، فلم يُمكِّنوه في تتمَّه"، وانتهى الأمر بحكم ابن مخلوف (زين الدين المالكي) باعتقال ابن تيمية، "فاعتقل، وسجن إخوته في برجٍ من أبراج القلعة"، ثم لم يكتف بذلك، فسعى لدى بيبرس الجانشكير حتى منع الأمراء من الاتصال به، "وبلغ القاضي أن جماعةً من الأمراء يترددون إليه، ويُنفِذونَ إليه المآكل، فطلع القاضي للأمير بيبرس في هذه القضية، وقال: هذا

يجب التضييق عليه إذا لم يقتل، وإلا فقد ثبت كفره، فنقلوه هو وإخوته إلى الجب بالقلعة"، بل إنه هدد أتباعه من الحنابلة بالقتل إذا أنكروا عقائد الصُّوفيَّة الاتحاديَّة، "فكتب بيبرس إلى دمشق كتاباً يتضمن حل دم ومال من اعتقد عقيدة ابن تيمية، وقرئ الكتا بجامع دمشق، وألزم به الحنابلة خصوصاً".[١١٢٤]

وأشاع الصُّوفية بين النَّاس أن خلافهم مع ابن تيمية فقهي لا يتطرق إلى العقائد، حتى أنَّ المؤرخين اللاحقين لهذه الفترة، صدَّقوا هذه الفرية، فقال المقريزي (أحمد بن علي بن عبد القادر ت ٨٥٤هـ/ ١٤٤٢م): "حُبس ابن تيمية بسبب مسألة الطلاق"[١١٢٥]، وأنه أفرج عنه، "وشرط عليه ألا يفتي بمسألة الطلاق"[١١٢٦]، ونقل ذلك عن المقريزي ابن العماد الحنبلي في القرن الحادي عشر، وورد ذلك بمعناه.[١١٢٧]

واضطهد أتباع ابن تيمية وهو في المعتقل، "فجرت فتنة للحنابلة بمدينة بلبيس، ثم انتقل الحال إلى القاهرة، وحصل لبعض الحنابة (أتباع ابن تيمية) إهانة

(١١٢٤) السلوك (١٨٥/٢).

(١١٢٥) السلوك (٢١٥/١).

(١١٢٦) شذرات الذهب (٧٣/٦).

(١١٢٧) سيرة الناصر، ابن أيبك الداودي (ص ١٣٣، ١٣٨). وتكسير الأحجار التي افتتن بها أهل الجهل والاغترار، لابن برهان الدين، مخطوط بدار الكتب، رقم: ٤٠٤، مجاميع تيمورية.

عظيمة، واعتقل منهم جماعة، وجرت فتنٌ عظيمة بين الأشاعرة والحنابلة بالشام، وكان النائب غائباً للصيد، فلما حضر أمر بإصلاح ذات البين، وأقرَّ كل طائفة على حالها، وجرى في القاهرة أيضاً على الحنابلة أموراً شنيعة، وألزموهم بالرجوع عن العقيدة، وجرى عليهم كل مكروه".[١١٢٨]

وقد اعترف خصمه كمال الدين ابن الزملكاني بأن ابن تيمية: "اجتمعت فيه شروط الاجتهاد على وجهها"[١١٢٩]، وبذلك يتبين لنا مدى الحقد الصُّوفي على الفقهاء، ويذكرنا بقصورهم العلمي والعقلي عن مواجهة الشارع، حتى أسكتوا كل من تكلَّم به.

ولم يخلُ الأمر من مساومات، ومفاوضات مع ابن تيمية تُفضي بإخلاء سبيله في مقابل تراجعه عن آرائه في الصُّوفيَّة، فهذا الأمير سلار "جمع القضاة الأربعة، وكبار الفقهاء، وتكلم معهم في إخراج ابن تيمية من عقيدته، فأحضروا له من يتكلم معه في ذلك، فلم يجبهم إلى ذلك، وكرَّروا له الدعوة للحضور على ست دفعات، وهو مصمم على عدم الحضور، وطال عليهم ذلك فانصرفوا على غير

(١١٢٨) سيرة الناصر، ابن أيبك الداودي (ص١٤٥).

(١١٢٩) تاريخ ابن الوردي (٢/٢٨٨، ٢٨٩).

شيء"[١١٣٠]، وهذا يدلُّ على ثبات ابن تيمية، ورفضه لأي مساومةٍ تمسُّ بالعقيدة وأصول الدِّين.

وقال ابن كثير: إنهم لم يستطيعوا النيل من ابن تيمية وهو في السجن، فاشتوروا في أمره، واتفقوا على فيه إلى الاسكندرية، ولا نصير له هناك، حتى يقتله أحد أتباع ابن عربيّ فيها "فيتخلصون منه دون مشاكل، فانقلبت عليهم مقاصدهم الخبيثة، وصار له أتباع فيها".[١١٣١]

وعقد الصُّوفيَّة مجالس يسبُّون فيها ابن تيمية، ويحطُّون عليه، فما كان من الصُّوفيَّة الغوغاء إلى أن امتدت أيديهم الأثيمة للشيخ ابن تيمية بالضَّرب والأذى، فتجمَّع أهالي الحسينية ليثأروا للشيخ، فألح عليهم بالرجوع؛ لأنه لا ينتصر لنفسه، وفي نفس هذا الشهر رجب سنة (٧١١هـ)، اعتدى عليه آخر بالقول المفزع، وأخيراً لجأ الصُّوفيَّة للسلطان، وتجمهروا حول القلعة، وتزعمهم في ذلك ابن يعقوب البكري (ت٧٢٤هـ) الذي "قام على ابن تيمية، وأنكر ما يقوله، وآذاه حين دخل

(١١٣٠) سيرة الناصر (ص ١٤٦).

(١١٣١) تاريخ ابن كثير (١٤/٤٦، ٥٠).

مصر"[١١٣٢]، وابن عطاء السكندري، وكان "المتكلم على لسان الصُّوفيَّة في زمانه، قام على الشيخ ابن تيمية في ذلك".[١١٣٣]

ومع ذلك تزايد أتباع ابن تيمية، وكان "الناس يجتمعون به، ويهرعون إليه، ولم يزل كذلك إلى أن سافر سنة (٧١٢هـ)".[١١٣٤]

وأسفرت مدرسة ابن تيمية عن تكوين مدرسة فقهية ابتعدت عن خط القضاة والفقهاء الذين دانوا بالتصوف ودافعوا عنه، وتحمل تلامذة ابن تيمية الكثير من عنت الفقهاء والصُّوفية أثناء محنة أستاذهم، وأبرزهم: ابن قيِّم الجوزية[١١٣٥]، وابن مري البعلبكي، وابن شاس[١١٣٦]، وعلي بن عبد الله الاسكندري[١١٣٧]، وغيرهم.

واستمرت مدرسة ابن تيمية بعد موته تنادي بمبادئه، وتدافع عنه وعنها، وتتحمل في سبيل ذلك الكثير من الأذى، ومن أبرزهم المؤرخ الكبير ابن

(١١٣٢) تاريخ ابن كثير (٤٦/١٤، ٥٠). وشذرات الذهب (٦٤/٦).

(١١٣٣) شذرات الذهب (١٩/٦).

(١١٣٤) سيرة الناصر (ص ١٥١).

(١١٣٥) السلوك (٢٧٣/١).

(١١٣٦) الدرر الكامنة (٣٢٣/٢).

(١١٣٧) تاريخ الجزري. مخطوط (١٧/١، ١٨).

كثير[١١٣٨]، وابن البرهان المصري[١١٣٩]، وابن ماجد[١١٤٠]، وأبو بكر الهاشمي[١١٤١]، وإبراهيم الآمدي[١١٤٢]، وابن المنصفي[١١٤٣]، وابن عبد الله الناسخ[١١٤٤]، وابن المحب الحافظ[١١٤٥]، وابن الأعمى المصريّ[١١٤٦]، وصدر الدين اليوسفي[١١٤٧]، والغزَّال[١١٤٨]، والحمصيّ[١١٤٩]، وابن السُّكريّ..[١١٥٠]

وتأثر بحركة ابن تيمية في النشاط الفكري لبعض فقهاء القرن الثامن، فناقشوا آراء ابن عربي، وحكموا بتكفيره، ومنهم الفقيه زين الدين العراقي الذي علَّق على قول ابن عربي في الدفاع عن قوم نوح: " إنه كلام ضلال، وشرك، واتحاد،

(١١٣٨) ذيل ابن العراقي. مخطوط (ص ١٤٦).

(١١٣٩) عقد الجمان. مخطوط، وفيات ٨٠٨، وإنباء الغمر (٢/٣٣٢، ٣٣٣).

(١١٤٠) شذرات الذهب (٦/٢٨٢).

(١١٤١) إنباء الغمر (٢/٥٢٦).

(١١٤٢) الدرر الكامنة (١/٢٧).

(١١٤٣) إنباء الغمر (٢/١٨٦).

(١١٤٤) إنباء الغمر (٣/٤٢).

(١١٤٥) إنباء الغمر (١/٤٦٤).

(١١٤٦) شذرات الذهب (٦/٣٠٤، ٣٠٥).

(١١٤٧) الدرر الكامنة (٢/٢٦٢).

(١١٤٨) إنباء الغمر (١/١٨٧).

(١١٤٩) إنباء الغمر (٣/٤٩١).

(١١٥٠) تاريخ قرطبة، شهبة، مخطوط (١/٢٢).

وإلحاد، فجعل تركهم لعبادة الأوثان التي نهاهم نوح عن عبادتها جهلاً"[(١١٥١)]، وقال عن تمجيده لبني إسرائيل في عبادتهم العجل: "وقوله أن العارف يرى الحق في كل شيء، بل يراه عين كل شيء، فجعل العجل عين الإله المعبود، فليعجب السامع لمثل هذه الجرأة التي لا تصدر ممن في قلبه مثقال ذرة من إيمان".[(١١٥٢)]

ومنهم الفقيه: زين الدِّين الكتاني الذي علَّق على قول ابن عربيّ أن قوم هود كانوا على صراط مستقيم، فقال: "وقوله في قوم هود كفر.. وهو مكذب لصريح القرآن، ويأثم من سمعه ولم ينكره، إذا كان مكلفاً، وإن رضي به كفر".[(١١٥٣)]

ومنهم الفقيه: تقي الدين السُّبكي الذي يُعدُّ من خصوم ابن تيمية، الذي ما لبث أن عاد إلى الإنكار على ابن عربيّ، فقال: "ومن كان من هؤلاء الصُّوفيَّة المتأخرين كابن عربي وغيره، فهم ضلال جهّال، خارجون عن طريقة الإسلام، فضلاً

(١١٥١) تنبيه الغبي، للبقاعي (ص ٥٢). وانظر: العقائد الدينية في مصر المملوكية (ص ١٢٤)، وما بعدها.

(١١٥٢) تنبيه الغبي، للبقاعي (ص ١٥٥).

(١١٥٣) تنبيه الغبي، للبقاعي (ص ١٥٦).

عن العلماء"[١١٥٤]، ويذكر أن تقي الدين السبكي عاد يثني على ابن تيمية، ويعترف بفضله.[١١٥٥]

ولما أدرك دهاة الصُّوفية من أمثال: علاء الدين البخاري، خطر الهجوم على ابن عربيّ، خشي أن يطال الإنكار مبدأ التصوُّف نفسه، فبادر بالهجوم على ابن عربي وابن تيمية معاً، فكان يحطُّ على ابن تيمية، ويكفِّره، حتَّى ثارت فتنةٌ بسبب ذلك في الشام[١١٥٦]، ووصف ابن عربي بأنه "كان كذاباً حشَّاشاً، كأوغاد الأوباش".[١١٥٧]

والطريف أن قاضياً متعاوناً مع الصُّوفيَّة وهو "البساطيّ"، فوجئ بموقف علاء الدين البخاريّ، فقال في مجلسٍ عقده في القرن التاسع: "أن كلام ابن عربي يمكن تأويله، وقصد بذلك نفاق علاء الدين البخاريّ، وكان حاضراً المجلس، ومعه ابن حجر، وعبد الرحمن التفهني، والعيني، والسيرامي، وابن نصر البغدادي، وأبو بكر القمني، وابن الأمانة، وابن تقي المالكي، فقال له البخاري على رؤوس الأشهاد:

(١١٥٤) تنبيه الغبي (ص ١٥٧).

(١١٥٥) ترجمته في الدرر الكامنة،

(١١٥٦) إنباء الغمر (٣/٤٧٧).

(١١٥٧) تنبيه الغبي (١٨٢، ١٨٣).

كفرت، وسلَّم له من في المجلس بتكفيره، وما خَلُصَ البساطيُّ إلا بالبراءة من اعتقاده أمامهم.(١١٥٨)

وقد قام البساطي بشرح تائية ابن الفارض كاملة، بنفس المنهج الرامي إلى التوفيق بين عقيدة ابن الفارض والإسلام، وذلك لصالح الاتحادية، فكان يحمل الأبيات على وجه يظهر موافقتها للشرع، فإن عجز صرَّح باعتذارات

والبساطي معذورٌ، فللبخاري نفوذه في الدولة، وكان قد تعصب ضد البساطي في المجلس، وأقسم بالله إن لم يعز السلطان القاضي محمد البساطي، ليخرجنَّ من مصر، فتراجع الأخير فوراً أمام جمع من القضاة، واسترضى السلطان علاء الدين، وطلب منه ألا يسافر.(١١٦٠)

وكان علاء الدين البخاري ينهى عن مطالعة كتب ابن عربي، ومثله الصُّوفي الإتكاوي (ت٨٣٤هـ) في القرن التاسع، مع اعتقاده بعرفان ابن عربي وكماله.(١١٦١)

(١١٥٨) إنباء الغمر بأبناء العمر (٤٠٣/٣).

(١١٥٩) تنبيه الغبي (ص ١٧٤).

(١١٦٠) إنباء الغمر (٤٠٤/٣).

(١١٦١) الطبقات الكبرى، المناوي (ص ٣٤٠).

ولا شك أن ابن تيمية عاش في عصرٍ بلغ فيه التصوُّف ذروته، وكان للرواية الصوُّفيَّة في تقسيم المتصوفين إلى فريقٌ معتدل، وآخر متطرِّف أثرها الواضح في آراء ابن تيمية الذي خدع بهذه الرواية المكذوبة، على أنه يرى فيهم رأياً حسناً؛ فيقول: "إن الصُّوفيَّة مجتهدون في طاعة الله كما اجتهد غيرهم من أهل طاعة الله، ففيهم السابق المقرب بحسب اجتهاده، وفيهم المقتصد الذي هو من أهل اليمين، وقد انتسب إليهم طوائف من أهل البدع والزندقة، ولكن عند المحققين ليسوا منهم؛ كالحلاج مثلاً، فإن أكثر مشايخ الطريق أنكروه، وأخرجوه عن الطريق، مثل الجنيد سيد الطائفة، وغيره"[١١٦٢]، وبهذا تتضاءل الفجوة بينه وبين خصمه علاء الدين البخاري.

ومن الواضح أن ابن تيمية كان مخدوعاً بالجنيد، حتى أنه يذكر أقواله، وشيئاً من كراماته وأخباره، وكان يثني عليه كثيراً، ومن ذلك، نقله لكلام الجنيد في التوحيد لصُّوفي " يقول الجنيد: التوحيد إفراد الحدوث عن القدم"[١١٦٣].

ولعلَّ انشغال ابن تيمية في حربه مع الصُّوفيَّة المتطرفين المغالين، أفقده الكثير من الوقت الذي كان بإمكانه أن يستغله في بحث القضايا الدقيقة المتعلقة

(١١٦٢) الصوفية والفقراء، ابن تيمية (ص ١٦).

(١١٦٣) الفرقان، لابن تيمية (ص ١٠٠).

بالتصوُّف وأصوله ومصادره، فكانت أكثر حروبه مع الغلاة من أتباع ابن عربي، أو فقراء الأحمدية الذين كانوا يلعبون بالحيات، ويمارسون الشعوذة [١١٦٤].

وإذا كان ابن تيمية قد بلغ رتبة الاجتهاد، باعتباره مستكملاً لشروطه، متمكناً من أدواته، فكان ينبغي عليه أن يدرس عقائد الصُّوفيَّة الأوائل بدءاً بالجنيد، وانتهاءً بالغزالي، ويحاكم مبدأ التصوُّف من أساسه بكتاب الله وسنَّةِ رسول الله ﷺ، باعتباره مبدأً لا يمتُّ إلى دين الإسلام بصلة، بل هو مذهبٌ قائمٌ على نقض الأديان، وإن كان لا يقدر على الطعن في أشياخ الصُّوفيَّة، فله أن يسكت عنهم حتى لا يصطدم بنفوذهم.

(١١٦٤) فائدة: ارتبط التصوُّف في نهايات القرن الخامس وبدايات القرن السادس بالشعوذة والسحر وعلم السيمياء، وكان ذلك منتشرٌ جداً بين شيوخ التصوُّف، الملبسين على الناس بالخوارق والكرامات والحقائق!، كما وقع ذلك لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله مع طائفة الرفاعية الأحمدية، ويُسمون بالبطحائية، حين ناظرهم وتحداهم بأن يدخل معهم النار، ولكن بعد أن يغسلوا جسومهم بالخل والماء الحار، وبين أنهم يطلون جسومهم بأدوية يصنعونها من دهن الضفادع، وباطن قشر النارنج، وحجر الطلق، وغير ذلك، من الحيل المعروفة، وقد ذكر شيخ الإسلام أن مخاريق هؤلاء المتصوفة نوعان: حيلٌ طبيعية كالأدهان التي استخدمها البطائحية، وأحوال شيطانية تستخدم فيه الشياطين. انظر الفتاوى (١١/ ٤٥٩، ٦١٠).

واعتقد أنه لو توفر لابن تيمية وقتاً كافياً؛ لأراح البلاد والعباد من عناء التعرُّف على أصول ومبادئ التصوُّف، ولأصاب التصوُّف في مقتل، ولأنقذ عصره من كثير من المعتقدات المخالفة للإسلام.

ويُمكننا القول بأن تعبير شيخ الإسلام عن بعض الصوفية بأنهم "مجتهدون في طاعة الله" لا يعني تصويبهم في ذلك الاجتهاد، لأن المجتهد عُرضةٌ للخطأ، بل إن كثيراً من اجتهاداتهم هي بدعٌ محضة، وخروجٌ عن دائرة السُّنة، بالإضافة إلى أن هذا التعبير لا ينطبق على أكثرهم.

نعود إلى الناصر محمد بن قلاوون الذي تألب عليه الصُّوفيَّة بقيادة نصر المنبجي لصالح الظاهر بيبرس الجانشكير، ثم بعد عودة الناصر محمد بن قلاوون، عاد النفاق الصُّوفي لاستقبال السلطان الجديد، وبدأ الناصر محمد بالنيل ممن تألب عليه من القضاة، وأخرج ابن تيمية من السجن، وعزل نائب دمشق؛ لأنه شتم بعض فقهاء المدينة[١١٦٥]، واستفحل خطر الشيعة في الشام، فقام ابن تيمية بقتالهم، وكتب إلى أطراف الشام يحثُّ على قتالهم، واستمر في حصارهم حتى أجلاهم، وكتب بذلك للسلطان الناصر محمد، فخشي السلطان على نفوذه "لأن النَّاس اجتمعوا عليه، ولو طلب المُلك ما بَعُد عنه"، وانتهز الصُّوفيَّة الفرصة، فكادوا

(١١٦٥) تاريخ ابن كثير (١٤/٣٥، ٦٢).

له عند السلطان "وأشاعوا أنه يسعى في الإمامة الكبرى، وأنه كان يلهج بذكر ابن تومرت ويُطريه"[١١٦٦]، أي يريد أن يقيم دولة، كما فعل الفقيه ابن تومرت في شمال افريقيا.

وكان لما أشاعه الصُّوفيَّة من الأكاذيب أثرٌ كبير في زرع بذور الحقد على ابن تيمية وأتباعه، خاصَّة وأن ابن قلاوون قد خاض تجربة مريرة في الحكم، تمَّ فيها استقصاؤه، فحرص على أن لا يعلو عليه رأسٌ في مملكته، وأن يمضي في الحكم مستبداً، والصُّوفيَّة خير معين للحاكم المستبد، حيث لن يصمد أمامهم مناوئ ولا خصم، فتم التحالف بينهما، وأقام السلطان (خانقاه سرياقوس)! للصوفيَّة، وافتتحها في حفل جامع سنة (٧٢٥هـ)[١١٦٧] ، وفي السنة التالية (٧٢٦هـ) أمر باعتقال صديقه السابق بسبب فتوى سابقة عن زيارة القبور[١١٦٨]، وهي بالطبع من الأمور تمسُّ جوهر العقيدة الصُّوفيَّة، وهذا دليلٌ واضح على زيادة النفوذ الصُّوفي في أقل من عام، فحبس ابن تيمية، وتزايد الحقد الصُّوفي عليه، بأن منعوه في سجنه الأخير من الكتابة ونشر آرائه، مما أثر على نفسية الشيخ وهو في مرحلة الشيخوخة، وقد

(١١٦٦) الدرر الكامنة (١/١٦٦).

(١١٦٧) النجوم الزاهرة (٩/٨٣).

(١١٦٨) تاريخ ابن كثير (١٤/١٢٣).

أمضى حياته في حربٍ ضروس مع خصومه من الشيعة، والصُّوفيَّة، والمغول، فمات بعد عامين.

لقد أخطأ ابن تيمية في فهم قواعد اللعبة السياسية لعصره، ولم يدرك أنها لم تعد تناسب فقيهاً بنفس مواصفاته، فقد انتهى الزمن الذي كان فيه للفقيه عند الحاكم المنزلة والنفوذ، ثم تسلط الحكام المتغلبين في القرون المتأخرة (أعني القرن السادس)، الذين وجدوا التشجيع التام من تيار الصُّوفيَّة الآخذ بالانتشار، فبنوا لهم الخوانق، وأغدقوا عليهم الأموال، واحتل الصُّوفيَّة المرتبة الأولى في النفاق الاجتماعي والديني، فبرروا للحاكم الظالم سياساته، واعتادوا الخضوع له إلى درجة السجود بين يديه، وأظهروا للعامة الزهد والورع، فضمنوا بذلك ولاء العامة لذلك الحاكم المستبد.

وهكذا خسر ابن تيمية في السياسة، وأضاف إلى رصيد أعدائه نصراً جديداً، حين لاقى من الأذى في عصر صديقه السلطان محمد بن قلاوون أضعاف ما لاقاه في عصر بيبرس الجانشكير، وتمت للصوفية دولة بجهده، وأقيمت لهم أعظم الخوانق التي انشئت في العصر المملوكي، وهي خانقاه (سرياقوس) على أشلاء ابن تيمية، وجهاده..

وقد تشجع كثير من الصُّوفيَّة على إعلان عقيدتهم المنحرفة بصراحة، ومن أبرزهم في القرن الثامن محمد بن أحمد وفا (ت ٧٦٠هـ/ ١٣٥٩م) صاحب المدرسة الوفائية الشاذلية (ذات الأفكار الملامتيَّة!)، والمنبثقة عن ابن عطاء الإسكندراني، والذي يقول: "اللهم اجعلني عيناً لذات ذواتك، ومشرقاً لأنوارها المشرقات، ومستودعاً لأسرارها المكتتمة".

ويقول: "قال لي الحق: أيها المخصوص، لك عند كل شيء مقدار، ولا مقدار لك عندي، فإنه لا يسعني غيرك، وليس مثلك شيء، أنت عين حقيقتي، وكل شيء مجازك، وأنا موجود في الحقيقة، معدوم في المجاز، يا عين مطلعي، أنت الحد الجامع المانع لمصنوعاتي، يرجع الأمر كله وإليَّ مرجعك، لأنك منهى كل شيء، ولا تنتهي إلى شيء، طويت لك الأراضين السبع... ".(١١٦٩)

وقال ابن حجر(ت٨٥٢هـ) عن محمد وفا: "أنشأ قصائد على طريقة ابن الفارض الاتحادية، واجتمع عليه خلقٌ كثير، يعتقدونه، وينسبون إليه، ونشأ ابنه علي محمد وفا على (ت ٨٠٧هـ/ ١٣٩٨م)، طريقته، ولاتباعهم فيهم غلوٌّ مفرط".(١١٧٠)

(١١٦٩) الطبقات الكبرى، الشعراني (٢/ ٢٠).

(١١٧٠) الدرر الكامنة (٤/ ٢٧٩).

وكان ابن حجر يعبر عن كراهيته لعلي بن محمد وفا ولابن عربي، بقوله: "شعره ينطق بالاتحاد المفضي إلى الالحاد، وكذا نظم والده".[(١١٧١)]

وقال علي بن محمد وفا عن والده: "سيدي ووالدي صاحب الختم الأعظم، فالشاذلي وجميع الأولياء من جنود مملكته، فهو يحكم ولا يُحكم عليه في سائر الدوائر، فلا يقال لنا لم لا تقرؤون حزب الشاذلي؛ لأنكم من أتباعه"[(١١٧٢)]، فهو يرى أن والده بلغ الغاية في الاتحاد، حتى استصغر الشاذلي نفسه وجميع الأولياء، بل إنه استهان بان عربي وابن سبعين، فقال: "أنهما سلكا االطريق معاً إلى فلك يُقال له الفلك المُحدَّب، ورجعا منه ولم ينفذا عنه".[(١١٧٣)]

وقد شهد ابن حجر المتوفى سنة (٨٥٢هـ) ازدياد نفوذ بعض الاتحاديين، فكان هجومه شديداً عليهم، فقال في أبي عبد الله الكركري: "اجتمعت به، وسمعت كلامه، وكنت أبغضه في الله تعالى"[(١١٧٤)]، وامتدت كراهيته لجميع الصُّوفيين،

(١١٧١) شذرات الذهب (٧١/٧).

(١١٧٢) الطبقات الكبرى، الشعراني (٢٨/٢).

(١١٧٣) مناقب الوفائية، مخطوط (ص ٩٩).

(١١٧٤) إنباء الغمر (٣٠٩/٢).

فيقول في ترجمة ابن مفلح: "اشتغل قليلاً، وسمع من جماعة، ثم انحرف وسلك سبيل التصوُّف".[١١٧٥]

واشتد الأمر بابن حجر حتى تجادل مع أحدهم في شأن ابن عربي، وكان مقرباً عند الظاهر برقوق في عصر اشتدت فيه المغارم، فهدده الصُّوفيّ بالوقيعة فيه عند برقوق، فخافه ابن حجر، واقنعه بالمباهلة، فتباهلا، ومات الصُّوفيُّ بعدها".[١١٧٦]

ومن أتباع الشاذلية الدعاة لابن عربي كان أبو المواهب الشاذلي (ت ٨٨٢هـ)، ووصف بأنه: "شديد المناضلة عن ابن عربي والانتصار له"[١١٧٧]، وانضم بعض المماليك إلى حظيرة التصوُّف الاتحادية، من أمثال: قجماس الصُّوفي (ت ٨٠٠هـ)، وكان من نقباء الدُّسوقيَّة، "وداعية إلى مقال ابن عربي"[١١٧٨]، ومقبل بن عبد الله الرومي (ت ٨٠٢هـ)، وهو عتيق الناصر محمد، والذي تعمَّق في مقالة الصُّوفيَّة الاتحادية.[١١٧٩]

(١١٧٥) إنباء الغمر (٢/٣٠).

(١١٧٦) تنبيه الغبي (ص ١٥٠)، وما بعدها.

(١١٧٧) شذرات الذهب (٧/٣٣٦). وإنباء الغمر (١/٥٠).

(١١٧٨) إنباء الغمر (٢/٢٨).

(١١٧٩) إنباء الغمر (٢/١٢٩). وشذرات الذهب (٧/٢٠).

وخارج المدرسة الشاذلية، كان سراج الدين الغزنويّ الهندي (ت ٧٧٣هـ)، قاضي الحنفية متعصباً للصُّوفيَّة الاتحاديَّة، وعزر ابن أبي حجلة لكلامه في ابن الفارض(١١٨٠)، وكذلك شيخ الوضوء الشافعي(ت ٧٩٠هـ) الذي كان يعتقد في عربي(١١٨١)، وأكمل الدين البابرتي (٧٨٦هـ) الذي اتهمه ابن خلدون باعتقاد وحدة الوجود(١١٨٢)، وفي هذه الفترة قام كثيرٌ من الصُّوفيَّة بتدريس كتب ابن عربي مثل نجم الدين الصُّوفيّ(٨٠١هـ)(١١٨٣) ، وبالغ بعض الفقهاء في إظهار عقيدة ابن عربي مثل ابن الصاحب(٧٨٨هـ) الذي كان يتعصب لابن عربي، وكان يكثر من الشطح، ويتكلم بما لا يليق بأهل العلم من الفحش، ويصرح بالاتحاد(١١٨٤)، وكذلك اليافعي الذي كان من المعظمين لابن عربي.(١١٨٥)

(١١٨٠) شذرات الذهب (٦/٢٢٨، ٢٢٩).

(١١٨١) شذرات الذهب (٦/٣١٤).

(١١٨٢) الدرر الكامنة (٤/٢٥٠).

(١١٨٣) إنباء الغمر (٢/٨٣).

(١١٨٤) شذرات الذهب (٦/٣١).

(١١٨٥) البدر الطالع، الشوكاني (١/٣٧٨).

ولمحةٌ سريعة نعقد فيها مقارنة صغيرة بين ما لاقاه الصوفيَّة الأوائل من اضطهاد في القرن الثالث، وما واجهه ابن تيمية في عصر الصُّوفيَّة المتحكمين في القرن الثامن:

١. أول من تكلم في بلدته عن ترتيب الأحوال ومقامات أهل الولاية، ذو النُّون المصريّ، فأنكر عليه ذلك عبد الله بن الحكم، وكان رئيس مصر، وكان يذهب مذهب مالك، وهجره لذلك علماء مصر لما شاع خبره أنه أحدث علماً لم يتكلم فيه السَّلفحتى رموه بالزندقة..

وأخرج أبو سليمان الداراني من دمشق، وقالوا: إنه يزعم أنه يرى الملائكة، وأنهم يكلمونه..

وشهد قومٌ على أحمد بن أبي الحواري: أنه يُفضِّلُ الأولياء على الأنبياء، فهرب من دمشق إلى مكة..

وأنكر أهل بسطام على أبي يزيد البسطامي ما كان يقوله، حيث أنه ذكر للحسين بن عيسى أنه يقول: لي معراجٌ، كما كان للنَّبيِّ ﷺ معراج، فأخرجوه من بسطام، وأقام بمكة سنتين، ثم رجع إلى جرجان..

وحكى رجلٌ عن سهل التستريّ أنه يقول: أن الملائكة والجن والشياطين يحضرونه، وأنه يتكلم عليهم، فأنكر ذلك عليه العوام حتى نسبوه إلى القبائح، فخرج إلى البصرة، ومات فيها، وتكلّم الحارث المحاسبيُّ في شيء من الكلام والصِّفات، فهجره أحمد بن حنبل، فاختفى إلى أن مات.(١١٨٦)

٢. ومرت السُّنون حتى تقرر التصوف ديناً رسمياً على يد الغزالي، وزاد انتشاره، فتحولت دائرة الاضطهاد تطحن المنكرين على التصوُّف الجديد.

٣. وأصبح المنكرون على الصُّوفيَّة يخرجون من حبس إلى حبس، وتعقد لهم المحاكمات، مع أنهم يسلمون للتصوف كمبدأ وطريقة، وكل ما في الأمر أنهم يدعون الصوفية إلى الاعتدال، وسلوك طريقة الصوفية المشهورين بالاعتدال من الصوفيَّة الأوائل!!..

٤. ورأيا أن تاريخ العقائد لا يعرف التوسط أو الاعتدال، بل إن صراع العقائد مستمر، وأن صراع المسلمين مع الصُّوفيَّة هو صراع عقدي من الدرجة الأولى، مع ما رأيناه من سعي الصُّوفية الحثيث للوصول إلى سدة الحكم والنفوذ في الدولة.

(١١٨٦) تلبيس إبليس (ص ١٦٢،١٦١).

المبحث السادس

التصوُّف في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي

التصوُّف من بعد الغزاليّ (٥٠٥هـ) إلى ابن عربيّ (٦٣٨هـ)

وبعد عمليات التوفيق بين (الإسلام والتصوُّف)، بدأ التصوف يسري في المجتمع الإسلامي كالوباء، وتوَّج الأمر بإعلان عقيدة الصُّوفيَّة صراحة في وحدة الوجود، وهذا ما فعله ابن عربيّ، وابن الفارض..

وكان منتظراً أن يواجه الفقهاء هذا التطور بالإنكار والاحتجاج، ولكن انتهى الإنكار إلى أثر عكسي، حيث أصبح الصُّوفيَّة هم الذين يحكمون ويضطهدون الفقهاء والمنكرين، مع أن هؤلاء الفقهاء ساروا على نهج الغزاليّ من عدم إنكار مبدأ التصوُّف، وأن الإنكار فقط هو على صرحاء الصُّوفيَّة، وأصحاب الشطح منهم، ولكن المسرح السياسي اختلف، فالحكام مع الصُّوفيَّة، والطُّرق الصُّوفيَّة متغلغلة في الشارع والمجتمع، وأولياء الصُّوفيَّة أحياءً وأمواتاً أصبحوا محلاً للتقديس، والتوسُّل، والتبرُّك، ثم إن الفقهاء في أغلبهم، أصبحوا صرعى للجهل والتقليد، دون أي اجتهاد يُذكر عنهم كالأئمة السابقين، بل أصبحوا أسرى لدعوة الغزاليّ في قفل باب الاجتهاد، والسير على دين التصوُّف...

ولأنه: "ليس في الإمكان أبدع مما كان"، و"الاجتهاد مُحرَّم، والتقليد سيِّد الأخلاق"، فلا داعي للاجتهاد من وجهة نظر الغزالي، وإذا انقرض الفقهاء المجتهدون، وقُرِّر التقليد، وتضاءل الفارق بين العالم والعاميّ، فمعنى ذلك أن التصوُّف أصبح مباحاً لكل من يريد الدخول فيه، إذ أن التصوُّف لا يناقض الإسلام كما أشاع ذلك الغزاليّ...

وبالتالي كان الفقهاء أسرى لشيوخ التصوُّف، فإذا احتجوا علهم، وثاروا، فما أسهل أن يقفوا أمامهم في قفص الاتهام؛ ليقوم فقهاء آخرون من القضاة بمحاكمتهم بتهمة العيب في (الذات الصُّوفيَّة)، وباختصار فإن التصوُّف أصبح هو التدين السائد في العصر المملوكي، ذلك العصر الذي بدأ بعد موت ابن عربيّ بعشر سنوات، فيما يلي تفصيل ذلك كله.

وشهدت هذه الفترة بدايات الحروب الصليبية التي أنهكت العالم الإسلامي، ما أتاح الفرصة للتصوُّف بالظهور والتحرر من الضغوط والقيود التي عانى منها في الفترات السابقة، وقد استفاد بجهد الغزالي، كما استفاد الغزاليّ به، وقد رأينا أن عقيدة الصُّوفيَّة قد استشرت حتى وصلت إلى الفلاحين والعوام فاعتنقوها..

ومن البديهي أن يستثمر الصُّوفيَّة جهد الغزاليّ والاضطراب الذي خلقته الحروب الصليبية في العالم الإسلامي، مع ضعف الحكام واشتداد ظلمهم واستبدادهم، وحاجتهم إلى مؤد منافق لا إلى فقيه ناصح، يوصي بالحق، ويأمر بالشرع.

وتهيَّأت للصُّوفيَّة الأجواء لوراثة المكان الذي احتله الفقهاء قبلاً في عصور الخلفاء الأقوياء من بني العباس، وابتدأت الصلات تتوثق بين الحكام والصُّوفيَّة، وتجسَّد ذلك في انتشار الأربطة والخوانق الصُّوفيَّة التي أقامها لهم الأمراء والحكام، ومرجعنا في التأريخ لهذه الفترة، هو الإمام ابن الجوزي الذي عاصر الصُّوفيَّة فيما بعد الغزاليّ، وكان قد صبَّ عليهم جُمَّ نقمته، وحمم غضبه في كتابه (تلبيس إبليس)، وكان ابن الجوزي خصص ما يقرب من ثلث كتابه في نقد الصوفية، وقام بنقد أهل زمانه من الصوفية، وتعداهم إلى نقد مشاهير قدمائهم.

ويقول ابن الجوزي مقارناً بين الصوفيَّة السابقين وصوفيَّة القرن السادس: "كان أوائل الصُّوفيَّة ينفرون من السلاطين، فصاروا أصدقاء"[(١١٨٧)]، وليس الأمر كما تصوره ابن الجوزيّ من أن نفرة الأوائل من الحكام كان ورعاً، وإنما هو الخوف من الاضطهاد.

(١١٨٧) تلبيس إبليس (ص ١٦١).

ولنترك ابن الجوزي يصف لنا الحالة العامة للصُّوفيَّة، في البيوت التي أقامها لهم الحكام، فيقول: "رأينا جمهور المتأخرين منهم مستريحين في الأربطة من كد المعاش، متشاغلين بالأكل والشرب والغناء والرَّقص، يطلبون الدنيا من كل ظالم، ولا يتورعون عن عطاء ماكس، وأكثر أربطتهم قد بناها الظلمة، وأوقفوا عليها الأموال الخبيثة، وأكثر زمانهم ينقضي في التفكه بالحديث، أو زيارة أبناء الدُّنيا، فإذا أفلح أحدهم أدخل رأسه في زرمانقته، فغلبت عليه السوداء، فيقول: حدثني قلبي عن ربِّي ". (١١٨٨)

أمَّا خارج الأربطة، فقد عاش الصُّوفيَّة عالةً على الحكام، يقول ابن الجوزيّ: "ولقد بلغنا أن بعض الصوفية دخل على بعض الأمراء الظلمة، فوعظه فأعطاه شيئاً فبله، فقال الأمير: كلنا صيادون، وإنما الشباك تختلف.

وقد دخلتُ بعض الأربطة، فسألت عن شيخه، فقيل لي: قد مضى إلى الأمير فلان، يهنئه بخلعة، وقد خلعت عليه، وكان ذلك الأمير من كبار الظلمة، فقلتُ: ويحكم ما كفاكم أن فتحتم الدُّكان، حتى تطوفوا على رءوسكم بالسِّلع.." (١١٨٩).

(١١٨٨) تلبيس إبليس (ص ١٦٩،١٧٠).

(١١٨٩) تلبيس إبليس (ص ١٧٩،١٨٠).

ومع أن بيوت الصوفيَّة تأسست في عصر الغزاليّ، والذي كان يعدُّها عالةً على المجتمع، وردَّد ذلك كثيراً في الإحياء، ومنها قوله الذي أوردناه عن الفلاحين أصحاب الشطحات: "...فإن هذا الكلام يستلذه الطبع، إذ فيه البطالة عن الأعمال"[١١٩٠] إلا أن بيوت الصُّوفيَّة انتشرت بعد الغزاليّ، ورعاها الحكام والمياسير.

ولا شك أن العيشة الهانئة في الخوانق دون عمل أو تعب، والامتيازات التي يتمتع به الصُّوفيّ من تسهيل أموره، والمكافئات التي يحصل عليها، كان أكبر داغ للعامة في انخراطهم في سلك التصوُّف. إلا أن الخوانق لم تكن الإغراء الوحيد لذي قدمه الصُّوفيَّة للعامة... بل أدخلوا إلى ذلك نظام السَّماع والرقص، يقول ابن الجوزي: "والتصوُّف طريقةٌ كان ابتداؤه الزُّهد الكُلِّي، ثُمَّ ترخَّص المنتسبون إليها بالسَّماع والرَّقص، فمال إليهم طلاب الآخرة من العوام لما يُظهرونه من الزُّهد، ومال إليهم طلاب الدُّنيا لما يرون عندهم من الراحة واللعب".[١١٩١].

ثم استمروا في سلسلة الإباحات التي اشتقت عن عقيدة الاتحاد، مثل: إسقاط الفرائض كالصلاة والصوم.. ثم لم يكتفِ بعضهم بذلك حتى أغرى النسوة

(١١٩٠) إحياء علوم الدين (٣٢/١).

(١١٩١) تلبيس إبليس، ابن الجوزي (ص ١٥٥).

والصبيان بحضور مجلسه، وإتباعهم، "فاستمالوا قلوب النسوة على أزواجهن"، ثم "يقبلون الطعام والنفقات من الظلمة والفُجَّار، وغاصبي الأموال.. ويستصحبون المردان في السماعات.. يُجمِّلونهم في الجموع مع ضوء الشُّموع، ويخالطون النسوة الأجانب، ينصبون لذلك حجة إلباسهن الخرقة"، وأولوا المحرمات بغير اسمها، فنطق الكفر يُسمى شطحاً، "وإن قبَّل أمرداً قيل: رحمةً، وإن خلا بأجنبيَّةٍ، قيل: بنته، وقد لبست الخرقة"، وفي النهاية، فالشيخ الصُّوفي لا يمكن "أن تعترض عليه؛ لأنَّ مَن اعترض طُرد (كما يقولون!)"[١١٩٢]، وبعبارة أخرى: "الولي إذا تولى لا يعترض عليه"[١١٩٣]، ثُمَّ "إذا رآه الناسُ مخالفاً لما علم بالاضطرار من دين الرسول ﷺ مثل ترك الصلاة المفروضة وأكل الخبائث كالخمر والحشيشة والميتة وغير ذلك وفعل الفواحش والفحش والتفحش في المنطق، وظلم الناس، وقتل النفس بغير حق والشرك بالله فذلك لا يُغير اعتقادهم فيه أنه ولي من أولياء الله قد وهبه هذه الكرامات بلا عمل صالحٍ، ولا يعلمون أن هذه من أعمال الشياطين وأن هذه من أولياء الشياطين تضل بها الناس وتغويهم"[١١٩٤].

(١١٩٢) تلبيس إبليس، ابن الجوزي (ص ٣٦٠، ٣٦١).

(١١٩٣) مجموع الفتاوى (١٣/ ١٩١).

(١١٩٤) مجموع الفتاوى (١٣/ ١٩١).

وفي هذا الجو المشحون بالإباحيَّة، وضعف الدولة الإسلاميَّة، أسرع العامَّة على اختلاف طوائفهم إلى اعتناق التصوُّف.

ومع ذلك لم يُخفي ابن الجوزي تأثره بكلام الغزاليّ حول وجود فرقةٍ مندسَّة تحاول تشويه التصوُّف، وأن التصُّوف يجب المحافظة عليه كمبدأ، فيقول: "وقد اندس في الصوفية أهل الإباحة، فتشبهوا بهم؛ لحقن دمائهم، وهم ثلاثة أقسام: كفار لم يجدوا شيئاً يحقنون به دماءهم، ويستترون به، وينالون فيه أغراض النُّفوس، كمذهب التصوُّف، فدخلوا فيه ظاهراً، وهم في الباطن كفرة..".(١١٩٥)

حتى أن ابن الجوزي كان يستشعر الحرج في تعرضه لأشياخ التصوُّف السابقين، والرَّد عليهم، يقول: "نحن نذكر ما بلغنا من أغلاط القوم، والله يعلم إننا لم نقصد ببيان غلط الغالط إلا تنزيه الشريعة، والغيرة عليها من الداخل، وما علينا من القائل والفاعل، وإنما نؤدي بذلك أمانة العلم... ولا اعتبار بقول جاهل يقول: كيف يردُّ على فلان الزاهد المتبرك به؛ لأن الانقياد إنما يكون إلى ما جاءت به الشريعة لا إلى الأشخاص، وقد يكون الرجل من الأولياء، وأهل الجنة، وله غلطات تمنع منزلته بيان زلاته أي أخطاؤه".(١١٩٦)

(١١٩٥) تلبيس إبليس، ابن الجوزي (ص ٣٥٢).

(١١٩٦) تلبيس إبليس، ابن الجوزي (ص ١٦٣).

ومعنى ذل أن ابن الجوزي كان متأثراً بما شاع في عصره من تقدير الصُّوفيَّة الأوائل، بلغ درجة التقديس واعتبارهم أولياء له يُتبرك بهم، ويعتقد فيهم العصمة.

وهذا الانقلاب الذي قاده الغزاليّ في النظرة للتصوُّف والصُّوفيَّة أحدث هزَّة نفسيَّةً للفقهاء المخضرمين، الذين شهدوا العصرين (الغزالي، وما بعده)، وقد حكى ابن الجوزيّ أن بعض الفقهاء جلس في بعض الأربطة الصُّوفيَّة للعزاء في فقيه مات، فأقبل الشيخ الفقيه "أبو الخطاب الكلوذاني"، فقال: "يعزُّ عليَّ لو رآني بعضُ أصحابنا، ومشايخنا القدماء، وأنا أدخل هذا الرباط"، وعلَّق ابن الجوزي بقوله: "قلتُ: وعلى هذا كان أشياخنا، فإنا في زماننا هذا اصطلح الذئب والغنم"[(١١٩٧)].

واتيح للصُّوفيَّة في وضعهم الجديد أن يزاولوا عقائدهم بحرية، فمنعوا قراءة القرآن في الأربطة، ومنعوا فيها قراءة الحديث النَّبويِّ الشريف.[(١١٩٨)]

بل أنهم حاولوا الثأر لمقتل "الحلاج"، يقول ابن الجوزي: "وقد تعصَّب للحلاج جماعةٌ من الصُّوفيَّة، جهلاً منهم، وقلة مبالاة بإجماع الفقهاء.. وعلى هذا أكثر قصاص زماننا، وصوفية وقتنا، جهلاً من الكل بالشرع، وبُعداً عن معرفة النَّقل،

(١١٩٧) تلبيس إبليس، ابن الجوزي (ص ٣٥٩).

(١١٩٨) تلبيس إبليس، ابن الجوزي (ص ١٧٠).

وقد جمعتُ في أخبار الحلاج كتاباً بيَّنتُ فيه حيله ومخاريقه، وما قاله العلماء فيه، والله المعين على قمع الجهال".[١١٩٩]

وكأن ابن الجوزي يشير إلى تحوّلٍ خطير في تاريخ الدَّعوة الإسلاميَّة، وهو أن التصوُّف اجتذب إليه طائفة القُصَّاص، وهم أخطر فئة تحترف الدعاية، وتتحكم في مشاعر العامَّة في عصرٍ بدأ طريقه نحو التدهور العلمي، فازدادت فيه مكانة القُصَّاص على حساب العالم والمفكر الإسلامي، ومهما يكن في كتاب ابن الجوزي من استدلالٍ على كف الحلاج، فإن تأثيره لن يصل إلى جهد قصَّاص يحكي ويروي ويأخذ بألباب العامة، ويدسُّ الأساطير والكرامات حول الحلاج وغيره، وأكثر روايات القُصَّاص تحولت فيما بعد إلى أحاديث لها أسانيد !...

وهكذا أشرفنا على عصر ابن عربي، وقد أصبحت للتصوُّف دولته، وزادها أن الخطر المغولي قد بدأ يطرق أبواب الدولة الإسلاميَّة من الشرق، ليضيف مع الاستعمار الصليبي في المنطقة اضطراباً جديداً، وليساعد زعيم الصُّوفيَّة الجديد على إعلان العقيدة الأساسيَّة للتصوُّف بكل صراحةٍ ووضوح، ويدعوهم مع ذلك إلى الإتحاد معاً للتبشير بالعقيدة الصوفية الجديدة، ولعله الصُّوفيّ الوحيد القائل:

(١١٩٩) تلبيس إبليس، ابن الجوزي (ص ١٦٦، ١٦٧).

"العصى والقضبان إذا تفرقت انكسرت، وإذا اجتمعت لم تقووا على كسرها، فاجتمعوا ولا تتفرقوا"(١٢٠٠).

وابن عربيٍّ عند الصُّوفيَّة هو (الشيخ الأكبر)، ولم يُطلق هذا اللقب عبثاً، فهو الشيخ الأكبر؛ لأنه الأجرأ، ولأنه الأصرح، ولأنه الذي قال بالعقيدة الصُّوفيَّة على الملأ دون خوف من القتل أو التهديد، وأجرأ كلامٍ له في (وحدة الوجود) في كتابه الموسوم (بالفصوص)، يقول ابن عربي: "إن الله خلق آدم على صورته، وليست الصورة سوى الحضرة الإلهيَّة، التي أوجدت في هذا المختصر الشريف، الذي هو الإنسان الكامل جميع الأسماء الإلهيَّة"(١٢٠١) ، وهذه العقيدة ليست بعيدة عن عقيدة الجنيد، الذي يرى أن: "غاية التوحيد أن يكون العبد كما لم يكن، ويبقى الله تعالى كما لم يزل"(١٢٠٢) ، بمعنى أن يفنى العبد عن بشريته الظاهرة ويعود إلى أصله الإلهي، ومعنى ذلك أن الجنيد –والصُّوفيّ– يعتقدون بأن الروح لإنسانية جزءٌ من الله، انفصلت عنه لتحلَّ في الأجساد، فإذا ترقَّى الإنسان بالرياضات والمجاهدات، علا جسده عن الأرض، واتحد بخالقه، وفني فيه..

(١٢٠٠) رسائل ابن عربي، كتاب التراحم (ص ٣١).

(١٢٠١) فصوص الحكم (ص ٢٥٢).

(١٢٠٢) اللمع (ص ٥٠).

ولم تفت هذه النقطة الحساسة –حقيقة الروح الإنسانية– الغزاليّ الذ ي أخذ يناور ويدور، ليوحي بإسقاطات متعمدة، بأن الروح البشرية جزء من الله، مستخدماً في ذلك التأويل المتعمد للآيات من أمثال: (يسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربيّ)، الذي يقول الغزاليُّ في تفسيرها: "إن لذة الرياسة والاستعلاء والاستتباع أغلب اللذات في الدنيا على نفوس العقلاء، وكيف لا تكون أغلب اللذات، ومطلوبها صفةٌ من صفات الله تعالى، وهي صفة الربوبية، والربوبية محبوبة ومطلوبةٌ بالطبع، لما فيه من المناسبة لأمر الربوبية، وعنه العبارة بقوله تعالى: (قل الروح من أمر ربي)"[١٢٠٣] ، ولذلك قال بعض الصُّوفيَّة: "ما من إنسان إلا وفي باطنه ما صرَّح به فرعون من قوله: (أنا ربكم الأعلى)، ولكن ليس يجد له مجالاً". ويُعلِّق الغزاليُّ على قوله: "وهو كما قال، فإن العبودية قهر على النفس، والربوبية محبوبة بالطبع، وذلك بالنسبة للربانية التي أومأ إليها تعالى في قوله: (قل الروح من أمر ربي)".[١٢٠٤] .

(١٢٠٣) إحياء علوم الدين (٤/٦٧، ٦٨).

(١٢٠٤) إحياء علوم الدين (٣/٢٤٣).

ويذكر الغزالي بعض هذه المجاهدات والرياضات التي تُفضي إلى المشاهدة، فيذكر عن أبي يزيد البسطامي قوله: "الجوع سحاب، فإذا جاع العبد أمطر القلب الحكمة" [١٢٠٥].

وبالجملة، فالغزالي يومئ بالقضايا، ويدور حولها، وابن عربي يشرح ما أهمله الغزاليّ إن كان في شرحه غموض وجدل ومغالطة، ولو أخلص الغزالي وابن عربي في السُّلوك إلى الله ﷻ، لاكتفيا بكتاب الله، فليس بعده من وضوح في شرح العقيدة الإسلامية... إلا أنهم لجأوا إلى الفلسفة، وفرضوا تأويلاتهم الباطنيَّة على الآيات، والتفوا على الأحاديث، يلوون أعناقها، ويضعونها في غير مواضعها، كحديث الوليّ: (كنت سمع الذي يسمع به، ورجله...)، وحديث خلق آدام (خلق الله آدم على صورته...)، وغيرها.

وكل ذلك ليجدوا سنداً إسلاميَّاً لعقيدتهم، وكأنما ظل الإسلام ناقصاً حتى يأتي تلاميذ الفلاسفة اليونانية ليكملونه..

وأخيراً جاء الخُميني ليؤكد حقيقة الإنسان الكامل (خليفة الله الأعظم)، الذي هو "الإمام الختم"، و"الحائز على مقام كُن"، وهو الصُّورة الجامعة لجميع

(١٢٠٥) انظر: إحياء علوم الدين (٢/٨٤).

أسماء الله وصفاته، والذي هو غيبٌ في صورة الأعيان، وتعيُّنه إنما هو في مقام الذات الأحمديَّة (العلويَّة)، ومظهرها وتنزُّله في الحقيقة (الظاهرة) المُحمَّديَّة، وعندهم أنَّ اسم الله الأعظم متحدٌ في العين الثابتة المحمديَّة، وهذا الظهور لبيان أحكام الربوبية في التصرُّف، على أنَّه يجعل من أسماء الله أسماءً مربوبة، وربُّها (أي: إمامها) هو العين الثابت للإنسان الكامل، أعني لفظ الجلالة: [الله]، وينقل لذلك من كتاب داود القيصري (ت ٧٥١هـ/ ١٣٥٠م) أحد شُرَّاح الفصوص لابن عربي.(١٢٠٦)

وكان ابن عربي هو آخر فلاسفة التصوُّف الكبار، وبموته انتهى التصوُّف النظري الفلسفي، وبدأ عصر التصوُّف الطُّرقيّ العملي، وقد مات ابن عربي في دمشق سنة (٦٣٨هـ)، أي قبل بداية العصر المملوكي بعشر سنوات، وبقي تأثير ابن عربي على من جاء بعده من الصُّوفيَّة، في العصر المملوكي الذي استمر ثلاثة قرون، وقد شهد هذا العصر نبوغ طائفة من أقران ابن عربي وتلامذته ونظراءه في القول بالاتحاد، من أمثال الغنوصي: عبد الحق بن سبعين المرسيّ (ت٦٦٧هـ/

(١٢٠٦) مصباح الهداية إلى الخلافة والولاية؛ للخميني (ص ٥٥- ٦٠، ١٠٨، ١٥٠).

١٢٧٠م) الذي طُرد من سبتة (بشمال إفريقية)، فذهب إلى مكة، واعتقل بمنزله، إلى أن مات فيها.[١٢٠٧]

ومن الجدير بالذكر أن ابن سبعين المغربي كان يطلب النبوة، ويسعى إليها، وذلك من خلال خلوه في غار حراء، ورياضاته الشاقة التي كان يمارسها، حيث إنه كما غيره من المتصوفة، يعتقدون أن النبوة لم تكن اصطفاءً واختياراً، وإنما هي مجاهدة ومكابدة!.

وقد وفد إلى مصر من تلاميذ ابن عربي: عفيف الدين التلمساني (ت٦٩٠هـ)، وهو من عظماء القائلين بالوحدة المطلقة، وهو شيخ ابن سبعين[١٢٠٨]، بالإضافة إلى أنه: "نُسبت إليه عظائم الأقوال والأفعال والاعتقاد في الحلول والاتحاد، والزندقة، والكفر المحض، هذا مع أنه علمل أربعين خلوة كل خلوة أربعين يوماً متتالية"[١٢٠٩]، وأنَّه لا يُحرِّم فرجاً، وليس عنده مأثم ولا مغرم،

(١٢٠٧) الطبقات الكبرى، الشعراني (١/١٧٧).

(١٢٠٨) الوافي بالوفيات (٣/١٣٠).

(١٢٠٩) تاريخ ابن كثير (١٣/٣٢٦). ومجموع الرسائل والمسائل، لابن تيمية (١/١٤٥).

وكان يقول: "نكاح الأم والبنت والأجنبيَّة واحد"[١٢١٠]، وقد كان التلمسانيُّ حلقة وصل ضرورية بين ابن عربي والصُّوفيَّة الرافضين للإسلام صراحة فيما بعد.

يقول أبو حيَّان الأندلسيّ عن الاتحاديَّة: "هم شرٌّ من الفلاسفة الذين يكذبون الله ورسوله، ويقولن بقدم العالم، وينكرون البعث، وقد أولع الجهلة ممن ينتمي إلى التصوف بتعظيم هؤلاء، وادعائهم أنهم صفوة الله من خلقه"[١٢١١]، وقال شرف الدين الزواوي عن الفصوص: "وأما ما تضمنه هذا التصنيف من الكفر والهذيان والبهتان، فهو كله تلبيس وتحريف وضلال وتبديل، فمن صَّق بذلك، أو اعتقد صحته فهو كان كافراً، ملحداً، صاداً عن سبيل الله ﷺ.[١٢١٢]"..

وقال ابن عقيل البالسي في أصحاب وحدة الوجود: "من صدَّق هذه المقالة الباطلة أو رضيها كان كافراً بالله تعالر، يُراق دمه، ولا تنفعه التوبة عند مالك، وبعض أصحاب الشافعي"[١٢١٣]، وكتب ابن هشام النَّحويُّ على نسخةٍ من كتاب (الفصوص): "هذا كتاب فصوص الظلم، ونقيض الحِكَم، وضلال الأمم، كتابٌ

(١٢١٠) شذرات الذهب (٥/٤١٢).

(١٢١١) تنبيه الغبي (ص ١٥٧).

(١٢١٢) تنبيه الغبي (ص ١٥٧، ١٥٨).

(١٢١٣) تنبيه الغبي (ص ١٦١).

يعجز الذَّمُّ عن وصفه، قد اكتنفه الباطل من بين يديه ومن خلفه، ولقد ضلَّ مؤلفه ضلالاً بعيداً، وخسر خسراناً مبيناً؛ لأنه مخالفٌ لما أرسل الله به رسله، وأنزل به كتبه، وفطر عليه خليقته"(١٢١٤)، وقال شمس الدين العيزري: "قال العلماء: جميع ما في كتاب الفصوص كفرٌ، لأنه دائرٌ مع عقيدة الاتحاد"(١٢١٥)، ولما سئل السراج البلقيني عن ابن عربي، بادر بالجواب بأنه "كافر"(١٢١٦)، وقد قيل في ترجمة ابن الصَّاحب من أتباع ابن عربيّ، أنه "صرح بالاتحاد فوقعت له محنة مع الشيخ سراج الدين البلقيني"(١٢١٧)

ولم تكن مصر بحاجة إلى معرفة عقيدة وحدة الوجود، فقد عاش فيها سلطان العاشقين عند الصُّوفية: عمر بن الفارض(ت ٦٣٢هـ)(١٢١٨)، أشهر شعراء الاتحاد ووحدة الوجود.. ويقول في شعره الاتحاديّ:

(١٢١٤) تنبيه الغبي (ص ١٦٥).

(١٢١٥) تنبيه الغبي (ص ١٦٨).

١٢١٦) تنبيه الغبي (ص ١٧٦).

(١٢١٧) شذرات الذهب (٦/٣٠١).

(١٢١٨) هو الشاعر الصوفي: عمر بن علي بن مرشد الحموي المصري، صاحب الاتحاد، الذي ملأ به التائية –القصيدة الإلحادية– كما قال الذهبي، ويسميها المتصوفة بقصيدة "نظم السلوك"، وقال الذهبيُّ أيضاً: فإن لم يكن في تلك القصيدة صريح الاتحاد الذي لا حيلة في وجوده، فما في العالم زندقة ولا ضلالة أ. هـ. ويُلقبه الصوفية بسلطان العشاق والمحبين، أصله من حماة، ومولده ونشأته

وها أنا أبدي في اتحادي مبدئي...وانهي انتهائي في تواضع رفعتي

جلت في تجليها الوجود لناظري...ففي كل مرئى أراها برؤيتي

فوصفي إذ لم تُدعَ باثنين وصفها...وهيئتها إذ واحد نحن هيئتي

فإن دعيت كنت المجيبُ وإن ...أكن منادىً أجابت من دعائي ولبَّتِ

وإن نطقت كنتُ المناجي كذاك...إن قصصتُ حديثاً إنما هي قصَّتِ

فقد رُفت تاء الخطاب بيننا...وفي رفعها عن فرقة الفرق رفعي(١٢١٩)

وزعم أن الذات الإلهيَّة تصلِّي له..

ولا غرو أن صلَّى الأنام إليَّ أن ... ثوت بفؤادي وهي قبله قبلتي

لها صلواتي بالمقام أقيمها ... واشهد فيها أنها لي صلَّتِ

كلانا مُصلٍّ واحدٍ ساجدٌ إلى...حقيقة الجمعِ في كُلِّ سجدةِ

ووفاته بمصر، له ديوان شعر، ومات سنة (٦٣٢هـ). انظر: وفيات الأعيان (٣/ ٤٥٤)، وسير أعلام النبلاء (٢٢/ ٣٦٨)، والبداية والنهاية (١٣/ ١٥٤).

(١٢١٩) ديوان ابن لفارض (ص ٢٩).

إليَّ رسولاً كنتُ مِنِّي مُرسلاً ...وذاتي بآياتِي عليَّ استدلَّتِ

وما كان لي صلى سواي ولم تكن...صلاتي لغيري في أدا كل ركعة

وما زلتُ إيَّاها وإيايَ لم تَزل ...ولا فرقَ بل ذاتِي لِذاتِي أحبَّتِ[١٢٢٠]

وقد حكم علماء العصر المملوكي بتكفير ابن الفارض (ت **١٢٣٥**هـ)، ففي القرن السابع حكم بكفره: عز الدين بن عبد السلام، وابن الصلاح الشافعيّ، وقطب الدين العسقلاني، وقام ابن حمدان الحنبلي بشرح التائية وبيَّن كفره فيها، ومثله أبو علي السُّكونيّ، والبقاعي في (تحذير العباد)، وابن الحاجب، ثم ابن دقيق العيد، وابن بنت الأعز، والعز ابن جُماعة، وعيسى الزواوي، والسعد الحارثي، وابن حيَّان في تفسيره، وابن النقاش، وشمس الدين الموصليّ، وابن خليل في لحن العوام، وتقي الدين السبكي، والزين الكتاني، وابن تيمية في الفرقان...

وممن يليهم: الأدفوي، والسفاقسي، وابن أبي حجلة الذي كان يحطُّ على الاتحاديَّة وألَّف كتاباً في كفر ابن الفارض، وأمر أن يدفن معه في نعشه[١٢٢١]، والذهبيّ، وابن كثير في التاريخ.. وممن يليهم في القرن الثامن: العيزري، والبلقيني.

(١٢٢٠) المصدر السابق نفسه (ص ٢٩)، وما بعدها.

(١٢٢١) شذرات الذهب (٦/ ٢٤٠، ٢٤١)، والدرر الكامنة (٢/ ٣٥١).

وفي القرن التاسع: ابن حجر في اللسان والميزان، والعيني في تاريخه، وبدر الدين حسين ابن الأهدل في كتابه (كشف الغطاء عن حقائق التوحيد)، وقال عماد الدين الواسطيّ: "أن ابن الأهدل علّق في ذمِّ هذه الطائفة ثلاثة كراريس، الأولى سماها: البيان المفيد في الفرق بين الإلحاد والتوحيد، والثانية: لوامع الاسترشاد في الفرق بين التوحيد والإلحاد، والثالث: أشعة النصوص في هتك أستار الفصوص"[١٢٢٢]، وشهد بهذا النقل عنهم نحو عشرين كتاباً من مصنفاتهم، ومصنفات غيرهم من العلماء الأجلاء.[١٢٢٣]

ومن الجدير بالذكر أن المتصوفة يذكرون عن ابن الفارض، أنَّه رأى المصطفى ﷺ في نومه؛ فقال: "إلى من تُنسب؟"؛ فقال: يا رسول الله إلى بني سعد (قبيلة حليمة)، فقال له ﷺ: "بل نسبك متصلٌ بي..!".[١٢٢٤]

(١٢٢٢) تنبيه الغبي (ص ١٥١، ١٥٣).

(١٢٢٣) انظر: تحذير العباد من أهل العناد، ت: الوكيل (ص ٢١٤-٢١٦).

(١٢٢٤) انظر: جامع المقام في كرامات الأولياء؛ لأحمد فريد المزيدي، هامش (ص ٤١٤).

كذلك زعمهم أنَّ ابن جماعة تاب عن الوقوع في كبارهم؛ لأجل أنه رأى ابن عربي في منامه، جماعةً ممن ينكرون على ابن عربي، فقطع ألسنتهم، فانتبه مذعوراً، ورجع!.(١٢٢٥)

ويقول أحد عارفيهم (!): إن الشيخ ابن الفارض، يأتي يوم القيامة، يمدح الله على رؤوس الأشهاد، ويُقال له: امدحنا كما كُنت! تمدحُ في الدُّنيا.. والعياذ بالله من الخذلان!.(١٢٢٦)

وبالجملة؛ فقد شهد القرنين السابع والثامن الهجريين نزوح متصوفون من الهنود إلى مناطق العراق، والمشرق العربي، وكانوا أقرب إلى الشعوذة منهم إلى الزهد والتقشف، وأدخلوا على حلقات الصوفية صنوفاً من المخدرات الصناعية، نضرب عنها الذكر صفحاً، وأطلقوا عليها اسم (بنج أسرار!).

ثم أدخلت على الذكر طرائق غريبة عنه مثل الرقص، وعللوه بأنها تشبه حركة الأفلاك، ولا يزال ذلك الرقص شائعاً إلى يومنا هذا في تكايا الدراويش (المولوية).

(١٢٢٥) انظر: جامع المقام في كرامات الأولياء؛ لأحمد فريد المزيدي، هامش (ص ٤١٧).

(١٢٢٦) انظر: جامع المقام في كرامات الأولياء؛ لأحمد فريد المزيدي، هامش (ص ٤١٧).

ثم أدخلوا عادة (التمزيق)، والمقصود بها: تمزيق الثياب أثناء الذكر، وهذه العادة أقرب إلى تقليد الأمراء الذين كانوا يسمعون الغناء من القيان؛ فيطربون، ويمزقون ملابسهم، ثم انحدر التصوُّف إلى أعمال شعوذة، مثلما يحدث من بعض الفرق الصوفية؛ كالرفاعية بالبصة، والبيومية بالقاهرة، والعيسوية بمكناس بالمغرب الأقصى، ومن ذلك أكل الحيات، والأفاعي، وشظايا الزجاج، واللهب، ووخز البدن بإبر الحديد المُحمَّى[١٢٢٧].

(١٢٢٧) تاريخ فلاسفة الإسلام، محمد لطفي جمعة (ص ٢٨٧).

المبحث السَّابع

التصوُّف في القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي

في بدايات القرن التاسع، توافد إلى مصر جماعات كثيرة من أوباش الاتحادية، احترفت التسول في الطرقات، فقيل في ترجمة إسماعيل الرومي (ت٨٣٤هـ)، وقد أقام في خانقاه البيبرسيَّة، والذي (امتحن بمقالة بن عربي مراراً، ونهي عن إقرائها، وكان يُقرئ العربية والتصوُّف والحكمة"[١٢٢٨] في الخانقاه المذكورة، وقيل نفس الكلام عن ابن النفري (ت ٨٣٤هـ) أنه: "قدم مصر وله عشرون سنة، وكان يعاب بنحلة ابن عربي، وكان يُقرئ الفصوص ويقرره".[١٢٢٩]

وقد انتشر بين الصُّوفية في هذا القرن استباحة المحرمات، وشرب الخمور، وفعل المحرمات على مرأى من الناس، فمارسوا الزنا، واللواط، والميسر، وتعاطي بعضهم الحشيش، وسموها "حشيشة الفقراء"، حتَّى قال المقريزي: "إنهم لا يُنسبون إلى علم ولا ديانة وإلى الله المشتكى"، ويبدوا أن عامة الناس في هذا القرن قد

(١٢٢٨) إنباء الغمر (٣/٤٦٥).

(١٢٢٩) إنباء الغمر (٣/٤٦٥).

أصابهم الوهن تحت تأثير الجهل، وما أُشيع عن الصوفية من كرامات تسحق كل من يعترض عليهم، وقد قال الجبرتي في هذا:

بعضهم قبَّل الضَّريحَ وبعضهم ... عتبَ البابِ قبلوه وتربا

هكذا المشركون تفعل مع أصنامهم... تبتغي بذلك قُرباً.(١٢٣٠)

وقد كان من غلاة الصُّوفية طائفة يصلون إلى قبور شيوخهم، بل يستدبرون القبلة، ويصلون إلى قبر الشيخ ويقولون: هذه قبلة الخاصة، والكعبة قبلة العامة ! وطائفة أخرى يرون الصلاة عند قبور شيوخهم أفضل من الصلاة في المساجد حتى المسجد الحرام، والنبوي، والأقصى!!.(١٢٣١)

وكان لابن تيمية تأثيره الواضح في مهاجمة الاتحاديين فيما بعد، من خلال تلامذته، وأتباعه، وكذلك الفقهاء والقضاة الذين تتلمذوا على مصنفات ابن تيمية وكتبه، فانفعل الصُّوفيَّةُ لذلك، فاستعادوا نفاق الجنيد، واقتصروا على خواص التلاميذ في تدريس عقائد الاتحاد والتصوُّف، ومن هؤلاء أحمد الزاهد (ت٨٢٢هـ): "وكان يُقال له جنيد القوم، وكان يتستر بالفقه، لا تكاد تسمع منه

(١٢٣٠) السيد البدوي، د. سعيد عاشور (ص ٢٣٠).

(١٢٣١) التوسل أنواعه وأحكامه (ص ١٢٨- ١٢٩).

كلمة واحدة من دقائق القوم"[١٢٣٢]، والتزم تلميذه الشيخ مدين الأشموني (ت٧٨١هـ) بهذه الطريقة في التستر، وإخفاء عقيدة الاتحاد، قال السخاويُّ في ترجمته: "وأما في تحقيق مذاهب القوم، فهو حامل رايته، والمخصوص بصريحه وإشاراته، مع أنه لم يتكلم فيه إلا بين خواصه"[١٢٣٣]، ومع ذلك فلم يسلما من الإنكار عليهما، فقد أنكر ابن حجر، والسراج البلقيني على أحمد الزاهد، وأنكر على مدين (أحد أعيان المالكية).[١٢٣٤]

وبدأت حركة الإنكار في التصاعد تدريجياً، حتى نشطت حركة التصنيف ضد الاتحادية والحلولية، فالمقريزي، صنَّف رسالة في دحض مذهب الاتحاد، خلص فيها إلى أن أتباع ابن عربيّ ليسوا مسلمين.[١٢٣٥]

ونظم الشيخ فتح الدين محمد بن محمد بن سيد النَّاس العمري في الحطِّ على صوفيَّة عصره، فقال:

ما شروط الصُّوفيِّ في عصرنا   سوى ستَّةٍ بغيرِ زيادة

(١٢٣٢) الطبقات الكبرى، الشعراني (٢/٧٥).

(١٢٣٣) ترجمته في الضوء اللامع.

(١٢٣٤) الطبقات الكبرى، الشعراني (٢/٧٥، ٩٣).

(١٢٣٥) ذكرها جورج قنواتي في أبحاث الندوة الألفية للقاهرة (١/٣٥٩، ٣٦٠).

وهيَ (ن ؟ ك) العلوق والسُّكرِ والسلطةِ والَّقصِ والغنا والقِيادة

وإذا ما هذى وأبدى اتحادا وحلولاً من جهله وأعاده

وأتى المنكرات عقلاً وشرعاً فهو شيخ الشُّيوخ ذو السِّجادة

ويُعقِّب المقريزيُّ بقوله: "ثم تلاشى الآن حال الصُّوفيَّةِ ومشايخها، حتى صاروا من سقط المتاع، لا يُنسبون إلى علم ولا ديانة، وإلى الله المشتكى".[١٢٣٦]

وقد عرضنا لدور الفقهاء في الرد على مصنفات ابن عربي، والحكم بتكفيره، وتابعهم في ذلك بعض الفقهاء في القرن التاسع، وأهمهم الشريف الجرجاني، وأحمد بن الزَّين العراقي، وابن الأهدل، وابن الجزري، وإبراهيم الرِّقي، وتقيُّ الدين الفاسي[١٢٣٧].

وتغيَّرت الأحوال في النصف الثاني من القرن التاسع بموت أعلام الفقهاء، وعلاء الدين البخاري، فتحمَّس الاتحاديون، وقد ازدادوا كثرة، وأصبحت لهم صلات بالسلاطين، حتى قيل إن الأمير تمر بغا (ت ٨٧٩هـ): "يُحبُّ شياطين

(١٢٣٦) الخطط المقريزي (٣/٤٠١).

(١٢٣٧) تنبيه الغبي (ص ٩٠، ٨٠، ١٣٥، ١٥١، ١٥٢، ١٨٠، ١٥٧، ١٨٠، ١٩٠)

الصُّوفيَّة، حتى وصل إلى اعتقاد أهل الاتحاد، فكان يقول: وماذا على الإنسان إذا قال أنا الله".(١٢٣٨)

وبعضهم أخذ في الدعوة إلى لمذهبه، فيجمع الناس على الذِّكر، مثل خلف المشالي (ت٨٧٤هـ) الذي كان: " ممن يميل إلى ابن عربي، وينظر في فتوحاته المكية، والغالب عليه الإكثار من كلامه".(١٢٣٩)

وكان من الاتحاديَّة زكريا الأنصاريّ –شيخ الإسلام في عهده– ويا لها من سخرية !، وقد قال عنه السخاوي: "هو أحد من عظَّم ابن عربي واعتقده، وسمَّاه وليَّاً، وعذلته في ذلك مرةً بعد أخرى، فما كفَّ !!، بل تزايد إفصاحه بذلك مرةً بعد أخرى، فما كفَّ، بل تزايد إفصاحه بذلك، وأودعه في شرح الرَّوض".(١٢٤٠)

ولذا، لم يكن مستغرباً أن يتعوَّد أتباع ابن الفارض إنشاد كلامه يوم الجمعة عند قبره، وصارت لهم صولةٌ وجولة، استدعت أن يقوم الإمام البقاعيّ(٨٠٨–

(١٢٣٨) تاريخ البقاعي: مخطوط (ورقة ١٥٣ ب).

(١٢٣٩) الضوء اللامع (١٨٦/٣).

(١٢٤٠) الضوء اللامع (٢٣٤/٣).

٨٨٥هـ) بحركته التي هزَّت التاريخ المملوكي في الربع الأخير من القرن التاسع الهجري، ولم يكتفِ كغيره في التصنيف، وإنما قرن قوله بالعمل.[١٢٤١]

وقد تحامل بعض المؤرخين على البقاعي؛ لأنه جرؤ على تكفير ولي مقدس عند الصُّوفيَّة كابن الفارض وابن عربي، في وقت سيطرت فيه الدعاية والإعلام الصُّوفي على الشارع المملوكي، إلا أن البقاعي في تاريخه عرض لتلك الحادثة بصورة جليَّة، يظهر فيها الصدق، والترتيب المنطقي للحوادث، واتفق في بعضها مع ما أورده المؤرخون الآخرون من خصومه الذين تجاهلوا سياق الحوادث، فذكروها مبتورة، ومشفوعة بالتشنيع على البقاعيّ..

وفي بداية حكم القائد قايتباي سنة (٨٧٥هـ)، كان الأمير يشبك بن مهدي الشركسي هو (الداودار الكبير)، وكاتب السر هو ابن مزهر الأنصاريّ المتحالف مع الصُّوفيَّة، وقد أورد البقاعي في تاريخه الخطوات التي قام بها خصومه ضده..

فعندما بعث البقاعي بخطاب مطوَّل يذكر فيه كفر ابن الفارض بالأدلة، وأرسله إلى القاضي ابن الديري يطلب رأيه حتَّى يُلزمه بالوقوف معه في الحق، لجأ

(١٢٤١) ألَّف البقاعي: تنبيه الغبي في تكفير ابن عربي، وتحذير العباد من أهل العناد ببدعة الاتحاد، وقد حققها الشيخ عبد الرحمن الوكيل، في كتاب واحد تحت عنوان (مصرع التصوُّف).

الصُّوفيَّةُ إلى المكر، فحاولوا الحصول على كتاب البقاعي من ابن الديري، بحجَّة أن كاتب السِّر يطلبه، ففشلوا، ولكنَّ البقاعي من ناحيته طلب منهم –وقد طالعوا الكتاب– أن يردُّوا عليه!.

ولما عجزوا عن الرَّد بالحجة، لجأوا إلى أساليبهم التي تفوقوا فيها، والتي يتحرّج منها البقاعي وأصحابه الفقهاء، فنشروا الإشاعات، وأثاروا الجماهير وأصحاب الجاه، حتى صاروا يؤذونهم في الطرقات، واقترح زعيم الصُّوفيَّة الاتحادية في ذلك الوقت أن يُعقد مجلس ذكر تسبقه مظاهر صوفيَّة؛ لإثارة الجماهير، وتمر المظاهرة على بيت البقاعي، لتنهبه الغوغاء، وسقط الإقتراح خشية تطوُّر الأمر إلى غير صالحهم.

فلجأوا إلى حيلة أخرى، فاستكتبوا أعوانهم، وأذاعوا أنَّ البقاعي قد كفَّر المساعد لهم، والساكت عنهم؛ ليثيروا الفقهاء والمحايدين على البقاعي، ونجحوا في إثارة زين الدين الأقصرائي، وحدثت بينهما مشادَّةٌ كلاميَّة، نتجت عن سوء الفهم، والوقيعة الصُّوفية بينهما، فضاقت الحال بالبقاعي، فحاول الإتصار بـ(الداروادار الكبير) ليشرح له حقيقة الحال، ثم إن البعض اجتمع بـ(الداروادار) وأفهمه حقيقة الاتحادية، فخفف ذلك عن البقاعي بعض الشيء، إلا أن نفوذهم كان لا يزال غالباً، وكاتب السِّر الصُّوفيّ يُخيفه ويُهدِّده، إلا أن البقاعي ظلَّ على

سكينة، ثم إن كاتب السِّر أرسل إلى البقاعي بعض أصدقائه يُشير عليه بالرُّجوع عن رأيه؛ لأن السلطان فما دون كلهم ضده، فرفض البقاعيُّ التراجع، وعرض من جانبه إحدى ثلاث أمور: إما المجادلة، أو المباهلة، أو المقاتلة بالسِّيف في حضرة السلطان والعلماء، واستغلَّ البقاعيُّ الفرصة، وقرأ على الرسولين طرفاً من كلام ابن عربي، فاستمالهم إليه، ووافقوه على تكفيره.

وسأل الصُّوفيَّة صاحبَ السِّر أن يكتب إليهم ضد البقاعي، فرفض متعلّلاً بوجوب أن يستمع إلى رأي البقاعي أولاً، فاشترط البقاعيُّ أن يكون ذلك بخلوة، فسعوا في عدم اجتماعهما أصلاً حتى لا يستميل البقاعيُّ صاحب السِّر بكلامه.

وعمل البقاعيُّ ميعاداً في الجامع الظاهريّ، واستمال الحاضرين، فضجُّوا بالدُّعاء على أعدائه، وابتدأ الميزان يتحوَّلُ لصالحه، خاصَّةً بعد أن حاول الصُّوفيَّة استكتاب قاضي الحنابلة معهم، ولكنه أفتى بتكفير ابن الفارض، وتابعه في ذلك آخرون، ولما رأت العامة أن أمر الصُّوفيَّة في تراجع، وأن البقاعيَّ لا يزال يُقرِّرُ رأيه، وأنهم عجزوا عن محاججته، خفَّ الهرج منهم، وبدأ بعضهم بالتعاطف معه، وحاول السلطان عقد مجلس في مستهل سنة (٨٧٥هـ) بسبب ابن الفارض، فسأله كاتب السِّر الصُّوفيّ أن يترك ذلك، وبذل همته لدى العلماء، وسعى في تأخير عقده، إلا

أنه فشل في ذلك، وتم عقد المجلس، وانتهى إلى لا شيء، مع اقتناع البعض بأن البقاعي على حق.(١٢٤٢)

يقول ابن الصيرفي عن ذلك المجلس: "في المحرم (٨٧٥) صعد قاضي القضاة، ومشايخ الإسلام؛ لتهنئة السلطان، ولم يتكلموا في شيء من أمر ابن الفارض لا بنفي، ولا بإثبات، وجلس البقاعي بالجامع وبصحبته كتبٌ كثيرة، وليس راجعاً عمَّا قاله في تكفير ابن الفارض، وعنده أن هذا الأمر ليس التكلُّم فيه إلا قربةٌ محضة، فإن قُتل قتل شهيداً".(١٢٤٣)

ومن الواضح أن البقاعي وإن انضمَّ إليه عددٌ من الفقهاء إلا أنَّ الرأي العام يميل إلى تقديس ابن الفارض، ويعتبر أن البقاعي معتدٍ على حرمته، وهو رأي جمهرة المتصوفة، والعلماء المعبرين عنهم، ولا ريب أن تأثر السلطان بهؤلاء أكثر، سيما وأن كاتب السِّر منهم، ويذكر ابن إياس –وهو قريبٌ من هذه الفترة– بعض الذين ناصروا البقاعي في حملته على ابن الفارض والاتحادية، فيقول: "وكان رأس المتعصبين عليه برهان الدين البقاعي، وقاضي القضاة ابن الشحنة، وولده عبد البر،

(١٢٤٢) تاريخ البقاعي، مخطوط (ورقة ٨، ٩).

(١٢٤٣) أبناء العصر (ص ١٧٦).

ونور الدين المحلي، وقاضي القضاة عز الدين المحلي، وتبعهم جماعة من العلماء يقولون بفسقه وكفره..".[١٢٤٤]

وفي المقابل يذكر ابن إياس عدداً من المتعصبين لابن الفارض من أمثال: "محي الدين الكافيجي الحنفي، وقاسم بن قطلوبغا الحنفي، وبدر الدين بن الغرس، وابن حجي، والجلال السيوطي، وزكريا الأنصاري، وتاج الدين بن شرف، فلما زاد الرهج في المسألة، كُتبت الفتاوى في أمر ابن الفارض التي ظاهرها الخروج عن قواعد الشريعة (فأولت حتى تتماشى مع الإسلام)، فكتب الكافيجي فتوى في ذلك، وألف الجلال السيوطي كتاباً سماه (قمع المعارض في الرد عن ابن الفارض)، وألف البدر الغرس في ذلك كتاباً، وصنَّف بعضهم كتاباً سمَّاه (درياق الأفاعي في الرد على البقاعي)، ووقعت في هذه المسألة مشاحنات، بين العلماء يطول شرحها، ثم هجو البقاعي، وابن الشحنة، وغيرهما ممن تعصب على ابن الفارض، وصاروا يكتبونها ويلصقونها في مزاره (ضريحه)، فيقول الشهاب المنصوري في البقاعي:

إن البقاعي بما قد قاله مطالبُ...لا تحسبوه سالماً فقلبه يُعاقبُ

(١٢٤٤) تاريخ ابن إياس (٢/١١٩).

وفي المقابل رفض زكريا الأنصاري الولوج في مثل هذه الفتن، أو الجواب عن سؤال السلطان في هذه المسألة، وطلب في جوابه كتم وستر مثل هذه العبارات عمن لم يدركها، فما كل قلب يصلح للسر، ولكل قومٍ مقال، فلما كتب ذلك سكن الاضطراب بين الناس بسبب ابن الفارض، وعقيب ذلك عزل ابن الشحنة عن قضاء الحنفية، وحصل له فالجٌ، وذُهل، وسُلب منه العلم، وحصلت نكبات لولده عبد البر".(١٢٤٥) .

وهذا يُفسّر لنا حالة الخور والضعف الديني الذي تصنعه قوالب الخرافة والدجل في بعض أعلام الفقهاء أمثال التاج السُّبكي، الذي هاجم فقهاء عصره، فيقول في طبقاته: "ومن الفقهاء فرقةٌ منتكسة تجري على ظواهر الشرع، وتُحسن أوامر الله ونواهيه، إلا أنها تهزأ بالفقراء وأهل التصوُّف، ولا تعتقد فيهم شيئاً، ويعيبون عليهم السَّماع وأموراً كثيرة، والواجبُ تسليمُ أحوال القومِ لهم، وقد جربنا فلم نجد فقيهاً يُنكر غلطةً أو سقطةً على الصُّوفية إلا ويُهلكه الله، وتكون عاقبته وخيمة، وهؤلاء لا يُعاملون بالظواهر، ولا يُفيد معهم إلا الباطن"(١٢٤٦)، ولا شكَّ أن هذا القول خروجٌ عن الجادَّة وطريق الصواب.

(١٢٤٥) تاريخ ابن إياس (٢/١١٩، ١٢٠).

(١٢٤٦) انظر: تأييد الحقيقة العلية، للسيوطي (ص ١٥).

ويقول السيُّوطيُّ أيضاً في تفضيل أولياء الصُّوفيَّة على الفقهاء: "وإن الدليل على فضل هؤلاء العارفين على الفقهاء هو ما يُجريه الله تعالى عليهم من الكرامات الخارقة للعادات، ولا يجري شيءٌ من ذلك على أيدي الفقهاء إلا أن يسلكوا طريقهم!"، ثُمَّ ينقل عن أبي طالبٍ في القوت: أن هؤلاء (العارفين!) "قد حصل لهم من العلم والإيمان بالذكر ما يسعهم الخروج عن تقليد العلماء" (١٢٤٧) .

وبلغت الدعاية الصُّوفيَّة أوجها، فيقول ابن الصيرفي المعبر عن خصوم البقاعي: "أخبرني شيخ الإسلام زكريا الأنصاري، أن علي بن خاص بك ركب إلى ناحية القرافة، فرأى أمامه شخصاً عليه سمتٌ وهيئةٌ جميلة، فصار يحبس لجام لفرس، إذ وافى عظيم الهيئة جداً، فتحادثا وانصرف الرجل المذكور، فسألته من هذا الرجل الذي حادثته؟، فقال: أنت ما تعرفه؟! ثلاث مرات، وهو يقول لا، فقال: هذا عمر بن الفارض، في كل يوم يصعد من هذا المكان وهو يسعى أن الله يكفيه فيمن تكلم فيه" .(١٢٤٨)

والواقع أن زكريا الأنصاري يدين بشهرته إلى الدعاية الصُّوفيَّة التي جعلت منه شيخاً للإسلام، وهو في الحقيقة مريدٌ للصُّوفيَّة في مجتمع الفقهاء، فقد اعتنق

(١٢٤٧) انظر: تأييد الحقيقة العلية، للسيوطي (ص ٢١).

(١٢٤٨) أبناء الهصر (ص ١٩٠).

التصوف وهو في مقتبل عمره، أو على حدِّ تعبير الشعرانيّ: "ومن حين كان شاباً كان يحب طريق الصُّوفيَّة، ويحضر مجالس ذكرهم، حتى كان أقرانه يقولون: زكريا لا يجئ منه شيء في طريق الفقهاء"[(١٢٤٩)]، إلا انه استمر يعمل في الفقه لصالح الصُّوفيَّة، أو حسبما يقول عن نفسه: "فأشار عليَّ بعض الأولياء بالتستر بالفقه، فلما أكد أتظاهر بشيء من أحوال القومِ إلى وقتي هذا".[(١٢٥٠)]

وقد ألمح السخاوي إلى طريقة الأنصاري في التصوُّف واعتقاده بابن عربي، على أنَّه لم يقتصر في إنكاره على الشيخ زكريا، بل إنه أنكر علي كثير من الصُّوفيَّة المتفيقهين، فقال عن معاصره اللأقصرائي: "انتمى إليه جماعة، ووصفوه بالعارف"[(١٢٥١)]، وقال في حاجي فقيه شيخ التربة الظاهرية: "كان عريَّاً عن العلم، إلا أن له اتصالاً بالتُّرب كدأب غيره"[(١٢٥٢)]، وقال عن الفقيه ابن الصِّديق: "وقد كان من المشتغلين بالفقه، وبلغني في هذه السنين أنه تحوَّل عن طريقته فسلك التسليك، والشياخة الصُّوفيَّة، وكأنه لمناسبة الوقت"[(١٢٥٣)]، ثُمَّ إن للسَّخاوي خصماً

(١٢٤٩) الطبقات الصغرى، الشعراني (ص ٣٩).

(١٢٥٠) الطبقات الكبرى (١٠٧/٢).

(١٢٥١) الضوء اللامع (١٧١/١).

(١٢٥٢) الضوء اللامع (٨٧/٣).

(١٢٥٣) الضوء اللامع (١٤٤/٣، ١٤٥).

شهيراً، هو الجلال السيوطيّ، الذي اتخذ جانب الدفاع عن ابن عربي وابن الفارض مع زكريا الأنصاريّ وغيره..

ولا تزال دعاية الصُّوفيَّة بالويل والثبور لكل من نال من ابن الفارض وابن عربي تلاحق كل المناوئين، يقول المناوي: "رأى بعض المنكرين في نومه جماعة وقفوا بين يدي عمر ابن الفارض، وقيل له: هؤلاء المنكرون، فقطع ألسنتهم، فتنبه مذعوراً، ورجع عن إنكاره.. وروى بعضهم: أن القيامة قد قامت، وجئ بجماعة ألقوا في في أوان غاية في الكبر، حتى انتهى العظم واللحم، فقال: ما هؤلاء؟، قال: الذين ينكرون على ابن عربي وابن الفارض.. وقالوا: إن شيخ الإسلام البالشي قاضي القضاة لما وصل مصر، صار ينال من الشيخ، ويذم زواره، فابتلي بمرض فما شُفي منه، حتى رجع عن ذلك، والحكايات في هذا المعنى كثيرة".(١٢٥٤)

ومع حملة البقاعي العنيفة على الاتحادية، إلا أنَّه يدين باحترام شديد لأوائل الصُّوفيَّة من أمثال الجنيد، فيقول في تاريخه: "وقد قال أهل الله كالجنيد، وسري السقطي، وأبي سعيد الخراز، وغيرهم ممن هو على طرقهم، نفعنا الله بهم ؟!!.."(١٢٥٥)، ويقول: "إن المحققين منهم بنوا طريقهم على الاقتداء بالكتاب

(١٢٥٤) الطبقات الكبرى للمناوي (ص ٢٩٩).

(١٢٥٥) تاريخ البقاعي (ص ٨).

والسُّنَّة"، واستدل ببعض أقوالهم النفاقية[١٢٥٦]، مخدوعاً بهم شأنه في ذلك: شأن ابن تيمية، وابن الجوزي.. حتى أنه في خطابه لصاحب السِّر، استشهد ببعض أقوال هؤلاء المتصوفون، وعلَّق عليها بقوله: "وإن قلتم مخالفين لهؤلاء الأئمة الذين هم القدوة إلى الله تعالى..."[١٢٥٧] ، وهكذا يسقط في أوحال التصوُّف كل من لم يخبر أمره، فالبقاعي بإخلاصه الشديد أراد إصلاح التصوُّف، وأن يربطه بالإسلام على طريقة منافقي الصُّوفيَّة الأوائل، الملتزمين بمبادئه وقواعده، فكان نصيبه كل هذا العنت، الذي انتهى برحيله عن مصر بعد كراهية أهلها له، لمجرد دعوته إلى الحق، وهي سيئته الوحيدة التي طرقها بعض من حاول الإنصاف، يقول ابن إياس: "في رجب (٨٨٥)، جاءت الأخبار بموت برهان الدين البقاعي في دمشق، وكان عالماً، فاضلاً، محدثاً، ماهراً في الحديث، ليس من مساويه سوى حطه على الشيخ عمر بن الفارض"[١٢٥٨]، وعليه فقد كانت للبقاعيِّ صولته التي هزَّت عروش الاتحاديَّة، وبموته عاد الهدوء، وكثر تحول باقي الفقهاء إلى عقيدة الصُّوفيَّة اضطراراً، لا يلقون مثلما لقي البرهان البقاعي.

(١٢٥٦) تحذير العباد (ص ٢٠٩)، وما بعدها.

(١٢٥٧) تاريخ البقاعي (ص ٨).

(١٢٥٨) تاريخ ابن إياس (١٩٧/٢).

وقام الصُّوفيَّة وأعوانهم بالقضاء على أيِّ أثر لحركة الإمام البقاعيّ بعد رحيله، باضطهاد تلاميذه، وملاحقتهم بالمحاكمات المتعسِّفة.

يقول ابن إياس في حوادث (٨٨٨هـ): "حضر شمس الدين الحلبي تركة يحيى بن حجي، فرأى بين كتبه كتاب الفصوص لابن عربي، فقال: هذا كتابٌ ينبغي أن يُحرق، وأن ابن عربي كان كافراً، وكفره أشدُّ من كفر اليهود والنصارى وعبدة الأوثان، فأمسكوا عليه ذلك، وحكموا بكفره إلا أن يتوب، وعزروه، وكشفوا رأسه، ثم حكموا بإسلامه، وقد قامت عليه الدائرة بسبب ذلك..

وفيه يقول أبو النجا القمني (الصُّوفيّ) ساخراً:

أعدتَ يا حبيبي ... بالصفع في قفاكا

لما ادعيت جهلاً ... حرق الفصوص يا كافر

وما خلصت حتَّى ... أقمت شاهداكا [١٢٥٩].

ولم يسلم البقاعي من ألسنة الصوفية الحاقدة، حتى قال قائلهم: "وقد افترى على ابن عربي شقيٌّ، خارجيٌّ، غافلٌ يُدعى بالبقاعي، صاحب التفسير الشهير

(١٢٥٩) الذيل على رفع الإصر (١٣٦، ١٣٧).

(نظم الدُّرر)، والذي ظهر له أنه يعمل عمل أهل الجنة، ولكن غلبت عليه شقوته، فصار من أهل العذاب! "[(١٢٦٠)] .

والسيوطيُّ على غزارة علمه، وكثرة مؤلفاته، لم ينجو من أدران التصوف وأوضاره يوم وضعه والده بين يدي محمد المجذوب الصُّوفي ليُبرِّكَ عليه، سنة (٨٤٩هـ)، ومن ثَمَّ نشأ يتيماً في أحضان التكايا [(١٢٦١)]، وبعدها أطلَّ علينا بكتابه: (تأييد الحقيقة العليَّة)، يؤيد فيها الشاذلية، ويدافع عنها، و(الخبر الدال على وجود القطب) والله المستعان!.

ومع هذا فلم يخلو كتاب السُّيوطي من نقدٍ لاذع لأدعياء التصوُّف، الذين اتخذوه مطيَّةً لتحقيق أهوائهم، وإشباع لذّاتهم، يقول مثلاً: "فإنك ترى الواحد منهم يدَّعي أنه بلغ في التصوُّف الغاية، فإذا جالسته وحدَّثته كان أوَّلُ ما يشكو لك ضيق الرزق، فهذا أوَّلُ سخطه... ومنهم –أي الصُّوفية –وهو أعجبهم عندي حالاً من ظنَّ أن التصوُّف قراءة الكتب المؤلَّفة فقه، والبحثُ فيها، وإنما التصوُّف السعيُ في إصلاح القلب... وما رأيتُ أحداً قط يأتي فيذكر شيئاً من أمراض قلبه ويسأل

(١٢٦٠) جمع المقال في إثبات كرامات الأولياء، أحمد فريد المزيدي، هامش (ص ٤١٥).

(١٢٦١) انظر: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، عبد الرحمن السيوطي (١/ ٣٣٥–٣٣٩).

عن دوائه، ولا يقولُ عندي تثاقلٌ من العبادة فكيف الطريق إلى حصول النشاط؟ ولا أجد عندي ميلاً لا إلى الدنيا، فكيف العلاج في إخراجه من القلب؟ ولا أجد في نفسي علواً وحسداً وحرصاً أو حقداً أو رياءً وعجباً، أو في لسانس بذاءةً أو انطلاقاً، أو نحو ذلك فكيف السبيل إلى إزالته؟ أو كان لي وردٌ فكلَّت نفسي وانقطعتُ عنه فكيف أعود إليه؟ فلا ترى أحداً يسألُ عن شيءٍ من ذلك، وهذا هو مبدأ التصوُّف، وهو الذي يُهتمُّ به أولاً، فما ترى الواحد منهم أول ما يُجالسك إلا يتكلَّمُ في الروح، وإشراق القلب، وإفاضة الأنوار، والمطالعة بالأسرار، والخوض فيما لا يعنيه، ولا طُلب منه، ولا كُلِّف به، ولا هو أهلٌ له، وهو عنه بمنقطع الثرى..."[(١٢٦٢)] .

ويقول في موطنٍ آخر يظهر منه الإنصاف: "وقد تأملتُ الأمور التي أنكرها أئمة الشرع على الصوفية، فلم أرَ صوفيَّاً مُحقَّاً يقول بشيءٍ منها، وإنما يقول بها أهل البدع والغلاة، الذين ادَّعوا أنهم صوفيَّة وليسوا منهم"[(١٢٦٣)] .

ويرى السُّيوطيُّ رحمه الله: "أن التصوُّف هو الدؤوب في الطاعات، وترك المخالفات، وفطم الناس عن المألوفات، وعدم التطلُّع إلى ما في أيدي الناس من

(١٢٦٢) تأييد الحقيقة العلية، وتشييد الطريقة الشاذلية؛ للسيوطي (ص ٣٧– ٣٨).

(١٢٦٣) تأييد الحقيقة العلية، وتشييد الطريقة الشاذلية؛ للسيوطي (ص ٤٥).

الأموال المباحات، فضلاً عن الشبهات، وترك التوسُّل بالخلق، والاعتماد على الله في كل الحالات، وترك النظر إلى صُحبة الملوك والأمراء، فضلاً عمن سواهم من أهل الهيئات"[١٢٦٤] ، وهذه المعاني الجليلة نرى أنها ميزانٌ دقيق، لو التزم به الصُّوفيون لكانوا على الجادة، ولكن لم نجد لهم إلى هذه المعاني الشريفة سبيل، فخالفوها اصطلاحاً وقصداً وسلوكاً.

(١٢٦٤) تأييد الحقيقة العلية، وتشييد الطريقة الشاذلية؛ للسيوطي (ص ٦٠).

المبحث الثامن

التصوُّف في القرن العاشر الهجري (عصر الشَّعرانيّ)

لقد تميز الشعراني بطريقته (الفقهوصوفيَّة) التي تجعل من الفقه خديماً ذليلاً للتصوُّف، شأنه في ذلك شأن الغزالي في القرن الخامس، ولا ريب أن هذه الطريق هي التي أملت عليه ذلك، وجعلته في نفس الوقت يسلك طريق الاعتدال أو النفاق والتُّقية في تقريره لعقيدة الاتحاد الصُّوفيَّة التي يؤمن بها، ويدعو إليها، وربما دعاه ذلك إلى التعلق بأهداب السَّلف تارة، والخلط بين الفقه والتصوُّف تارة ثانية، وبين العلم والاتحاد؛ كقوله: "ومما منَّ الله به عليَّ اقتدائي بالسَّلف الصَّالح في كتمان الأسرار التي مُنِحتُها بفضل الله تعالى، فأعرفُ في كلِّ آيةٍ أو حديثٍ أو أثرٍ من الأسرار ما لا يُسطَّر في كتاب"، ويقول مستشهداً برواية مكذوبة: "وقد كان الإمام عليٌّ يقول: آه، بعد أن يضربَ على صدره، إن هنا لعلوماً جمَّةً، لو وجدنا من يحملها؟!!".(١٢٦٥)

(١٢٦٥) لطائف المنن (ص ٤٨٨).

وقد عُرف العصر المملوكي وعصر الشعراني على الأخص، طائفة من الفقهاء المتصوفين، أو بعض الفقهاء الذين تصوَّفوا، الذين أصبحت لديهم الدربة والدراية الكافية في التصوُّف ومبادئه وأفكاره.

ولما رأى الشعراني فيهم خطراً يمكن أن يؤثر على التصوُّف فيما بعد، وذلك لمعرفتهم باختلافه عن الشرع الإسلاميّ، تخوَّف من أن يصيبوا التصوُّف في مقتل، ومن الطبيعي أن تمثل مسألة العقيدة الصُّوفيَّة مشكلة تواجه الشعراني كصوفيٍّ فقيه، يُحاول توكيد صلة التصوُّف بالإسلام، ويخشى جرأة الفقهاء الذين تصوَّفوا على التصوُّف كمبدأ! على أن محاولة التوفيق بين الإسلام والتصوُّف مستحيلة، مهما بلغت مهارة ذلك الصُّوفيِّ أو ذاك الفقيه.. سيما إذا كانت العقيدة واضحة؛ كعقيدة الإسلام، حيث جاءت بأدق تفاصيلها في كتاب إلهي مقدَّس، منزَّه عن التحريف والتبديل.

وما يعنينا هنا أن الشعراني، توصَّل إلى النتيجة التي توصَّل إليها الغزاليُّ سابقاً، وهي حصر الإنكار على الاتحاديين في أشخاص الصوفيَّة المعاصرين، مع تقرير المذهب الاتحادي لأوائل الصُّوفيَّة في الوقت نفسه، وعاد الغزاليُّ الجديد (أقصد الشعراني) يهاجم أوباش الصُّوفيَّة الاتحادية في عصره، فيقول: "استحكم في غالبهم الضلال والفساد، وبعضهم رأى أن كل شيء في الوجود هو عين الإله،

وأن عين هذا الوجود الحادث هي عين الله... وهذا كلامٌ لا يرضاه أهل الجنون، ولا من كان في حبه مجنون، وقد نقلتُ هذا الكلام في زماننا عن جماعة بالصعيد، فيعتقدون هذه الأمور فيما بينهم وبين أصحابهم من الملاحدة".(١٢٦٦)

وقال عنهم: "وكان أخي الشيخ أفضل الدين، يقول: لو كنتُ حاكماً، لضربتُ عنق كل من قال: لا موجود إلا الله، ونحو ذلك من الألفاظ؛ لأنه لم تأتِ بذلك شريعة".(١٢٦٧)

ويذكر الشعراني أنه سمع بعض الاتحاديين يقول: "ما ثمَّ موجودٌ إلا الله"، فقال: "لو كان معي شاهداً؛ لأخذته إلى حكام الشريعة وضربت عنقه".(١٢٦٨)

وينصح الشعراني بعدم الاجتماع بهؤلاء الجماعة الذين تظاهروا بطريق القوم في (النصف الثاني من القرن العاشر) من غير إحكام قواعد الشريعة، وأنهم ضلوا وأضلوا، يقول الشعرانيّ: "وقد دخل عليَّ منهم شخصٌ وأنا مريض، ولم يكن عندي أحدٌ من النَّاس، فقلتُ له: من تكون؟، قال: أن الله، قلتُ: كذبت، قال: أنا محمد رسول الله، فقلت: كذبت، فقال: أنا الشيطان وأنا اليهودي، فقلت له: صدقت،

(١٢٦٦) لطائف المنن (ص ٤٨٦، ٤٨٧).

(١٢٦٧) لطائف المنن (ص ٤٨٦، ٤٨٧).

(١٢٦٨) لوافح الأنوار (ص ٧٧).

فوالله لو كان عندي أحدٌ يشهد عليه، لرفعت أمره إلى العلماء، فضربوا عنقه بالشرع الشريف !!..".[١٢٦٩]

وكان ينبغي أن تدفع غيرة الشعراني على الشرع الشريف، إلى البراءة التَّامة من الإتحاديَّة الأوائل، من أمثال ابن عربي الذي قال في ترجمته: "وما أنكر عليه من أنكر إلا لدقة كلامه لا غير!!"، وأنه: "لا ينبغي مطالعة كلام الشيخ من غير سلوك طريق الرياضة؛ لئلا تحصل له شبهةٌ في معتقده، فيموت عليها، وهو غير مهتدٍ إلى تأويلها على مراد الشيخ"[١٢٧٠].

ويقول الشعرانيّ: "أخذ علينا العهد ألا نمكِّن أحداً من إخواننا بمطالعة كتب الشيخ ابن عربي في التوحيد المطلق، ولا في كتب غيره من غلاة الصُّوفيَّة، وذلك لعدم الفائدة، وكثرة الإنكار على من تفوَّه بما ذكروه فيها، مما يُخالف عقول الناس، وما كُلُّ ما يُعلم يُقال، وربما فهموا منها أموراً تُخالف صريح السُّنَّةِ، فيموتون على اعتقادها، فيخسرون مع الخاسرين".[١٢٧١]

(١٢٦٩) لطائف المنن (ص ٣٩٥).

(١٢٧٠) الطبقات الكبرى (١/١٨٣).

(١٢٧١) البحر المورود (ص ٢٧٤).

ثم يحذر الشعرانيّ من القراءة في بعض كتب الصُّوفيَّة، أو العمل بما فيها؛ بدعوى أنَّ ما فيها مدسوس، فيقول: "وليحذر من العمل بمواضع من كتب الإحياء، ومن كتاب النفخ والتسوية له، وغير ذلك من كتب الفقه، فإنها إما مدسوسةٌ عليه، أو وضعها أوائل أمره ثم رجع عنها، ويحذر من مواضع في كتاب القوت لأبي طالب المكيّ، نحو قوله: (الله تعالى قوت العالم)، ومن مطالعة كتب منذر بن سعيد، وكذلك ليحذر من مطالعة خلع النعلين لابن قسِّي، وكذلك تائيَّة سيدي محمد وفا، وليحذر أيضاً من مطالعة كتب الشيخ محيي الدين بن عربي رضي الله عنه، لعلوِّ مراقيها، ولما فيها من الكلام المدسوس على الشيخ، لا سيما الفصوص، والفتوحات المكية".(١٢٧٢)

ويقول: "أخذ علينا العهد ألا نمكِّن أحداً من إخواننا يشتغل قط بأسماء السهروردي، ولا سماه البوني، ولا علم الحرف الأعلى..".(١٢٧٣)

ويُصرِّحُ الشعراني بطريقته الجديدة في تبرير الاتحاد الصُّوفي، فيقول: "ولم أزل أؤول للقوم ما صحَّ عنهم، وأنفي ما لم يصح".(١٢٧٤)

(١٢٧٢) لطائف المنن (ص ٢٩٤).

(١٢٧٣) لطائف المنن (ص ٤٨٧).

(١٢٧٤) البحر المورود (ص ٢٧٨).

ويقول في إحدى تأويلاته لأبي يزيد البسطاميّ، في قوله (سبحاني): "وعجبتُ ممن يؤول أخبار الصفات، كيف لم يؤول كلام العارفين، مع كونهم أولى بالتأويل من الرُّسل؛ لنقصهم في الفصاحة عنهم"[١٢٧٥]، وهذا قياسٌ مع الفارق، بل هو من القياس الفاسد، فالشعراني يعتبر كلام الأولياء في منزلة كلام الله تعالى، هذا مع أن القرآن الكريم لم يرد فيه قول كفرٍ يحتاج إلى تأويل.

وإذا اعجز الشعراني عن تأويل تلك العبارات، لجأ إلى (طريقة النفي!)؛ فينفي نسبة تلك العبارات لقائليها، وادَّعى أنها مدسوسةٌ عليهم، كقوله مثلاً عن الغزالي: "..فإن مثل ذلك كذبٌ وزورٌ على حجة الإسلام يجب على كل عاقل تنزيه الإمام عنه... وإن وجدت في بعض مؤلفات الإمام فذلك مدسوسٌ عليه..."، واعتذر عن مقالة البسطاميّ أساء فيها الأدب على آدم عليه السلام، بأن ذلك لم يصح عن أبي يزيد، فيقول: "فإن الشيخ أبا يزيد من جملة مشايخ القشيري، فكيف يصدر عنه مثل هذا الكلام الجافي في حقِّ السَّيِّد آدم..."، على أن تلك العبارات التي يشكك الشعراني في صدق نسبتها لأصحابها متواترة في كتب الصُّوفيَّة، ومثبتة على لسان أصحابها.

(١٢٧٥) درر الغواص (ص ٩١).

بل إن بعض العبارات التي يشكك الشعراني في نسبتها لبعض الصُّوفيَّة في كتاب، يعيد تقريرها في كتبٍ أخرى، وهذا يدل على ما حاصله التناقض والتخبط، فالشعراني أنكر أن يكون أبو يزيد هو القائل: "لو شفعني الله في الأولين والآخرين، لم يكن ذلك عندي بكبير..."، هو نفسه الشعراني الذي أثبت نفس المقالة في ترجمة أبي يزيد البسطامي في كتابه (الطبقات الكبرى)، فيقول: "دخل الهروي يوماً على أبي يزيد، فقال له أبو يزيد: وقع في خاطري أني أشفع لك إلى ربي عز وجل، فقال: يا أبا يزيد لو شفعك الله في جميع المخلوقين لم يكن ذلك كثيراً، إنما هم قطعة طين"[١٢٧٦]، وقال في الأنوار القدسيَّة: "ومن هذا المقام، قال أبو يزيد رضي الله عنه لو شفعني الله يوم القيامة في جميع الخلائق لم يكن عندي بعظيم؛ لأنه ما شفعني إلا في قطعة طين".[١٢٧٧]

(١٢٧٦) الطبقات الكبرى للشعراني (١/٣٣).

(١٢٧٧) الأنوار القدسية في بيان آداب العبودية (٢/١٦٨، ١٦٩)، على هامش الطبقات الكبرى.

بل إن ما افتراه بعض المتنبئين مثل مسيلمة الكذاب[١٢٧٨]، وطليحة[١٢٧٩]، وسجاح[١٢٨٠]، والأسود العنسي[١٢٨١]، كان أهون من شطحات الصُّوفيَّة المغرقة في البذاءة، والكذب، والافتراء على الله ﷻ.

(١٢٧٨) هو مسيلمة بن ثمامة بن كبير بن حبيب المشهور بالكذاب، من بني حنيفة، وفي الصحيحين من حديث ابن عباس –رضي الله عنهما –أن مسيلمة قدم على عهد النبيِّ صلى الله عليه وسلم ، فجعل يقول: إن جعل محمد الأمر لي من بعده تبعته، وقدم المدينة في بشرٍ كثير من قومه، فأقبل إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومعه ثابت بن قيس بن شماس، وفي يد رسول الله صلى الله عليه وسلم قطعة جريد، حتى وقف على مسيلمة في أصحابه، فقال: لو سألتني هذه القطعة ما أعطيتكها، ولن تعدو أمر الله فيك، ولئن أدبرت ليعقرنك الله، وإني لأراك الذي أُريتُ فيك، يقول ابن عباس: فأخبرني أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال: بينما أنا نائم رأيت في يدي سوارين من ذهب، فأهمَّنِي شأنهما، فأوحي إليَّ في المنام أن أنفخهما، فنفختهما فطارا، فأولتهما كذابين يخرجان بعدي، فكان أحدهما العنسي، والآخر مسيلمة الكذاب صاحب اليمامة. وكان ذلك في أواخر عهد النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم، فلما استخلف أبو بكر بعث إليه جيشاً كبيراً بقيادة خالد بن الوليد، فالتف حول مسيلمة وأصحابه أكثر من أربعين ألفاً، ودارت بينهما معركة اليمامة (أواخر سنة ١١هـ)، وانتهت بمقتل مسيلمة وهزيمة قومه، واستشهد من الصحابة أكثر من خمسمائة صحابي، منهم ثمانية وستون من المهاجرين والأنصار، وكان مسيلمة الكذاب يُكثر من الأسجاع السخيفة يُحاول بها مضاهاة القرآن. انظر: صحيح البخاري (رقم: ٤٣٧٨)، ومسلم (رقم: ٢٢٧٣)، وسيرة ابن هشام (٣/ ٧٤)، وتاريخ ابن جرير (٢/ ٢٧٥)، والبداية والنهاية (٦/ ٣٢٨).

(١٢٧٩) هو طليحة بن خويلد بن نوفل الأسدي، ارتد عن الإسلام بعد موت النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم، وادعى النبوة، واجتمعت عليه أسد وغطفان، وكثير من الأعراب، والتقى بهم المسلمون بقيادة خالد بن الوليد فهزموهم شر هزيمة، وفر طليحة إلى الشام، ثم عاد إلى الإسلام، وقيل: حسن إسلامه،

ومن السذاجة بمكان أن يتأول السَّراج صاحب (اللُّمع) تلك الشطحات، بقوله إنما كان البسطاميُّ يُرتِّل قول الله: "إنَّني أن الله لا إله إلا أنا".[١٢٨٢]

وجعل الشعرانيُّ مؤلفاته مسخَّرةً في خدمة التصوُّف وأهله؛ فيقول: "وأما الجواب عن السادة الصُّوفيَّة رضي الله تعالى عنهم، فغالب مؤلفاتي جوابٌ

وشهد القادسية ونهاوند مع المسلمين، ويُقال إنه استشهد بنهاوند، سنة (٢١هـ). انظر: تاريخ ابن جرير (٢/ ٢٦٠)، والبداية والنهارية (٦/ ٣٢١).

(١٢٨٠) هي سجاح بنت الحارث بن سويد بن عقفان، ذكر ابن جرير وابن حجر أنها تميمية، وذكر ابن كثير أنها تغلبية من نصارى العرب –والأشهر الأول– ادعت النبوة، والتف حولها خلق من الرعاع، وسارت بجيش قاصدة اليمامة، ثم تصالحت مع مسيلمة الكذاب، وتزوجت به، وأقامت عنده أياماً، ثم رجعت إلى قومها، وذكر أنها عادت بعد مقتل مسيلمة إلى الإسلام، وماتت في خلافة معاوية. انظر: تاريخ الطبري (٢/ ٢٦٨)، والبداية والنهاية (٦/ ٣٢٤).

(١٢٨١) هو عبهلة بن كعب بن غوث، من بني عنس، كان كاهناً مشعوذاً، يُقال له: ذو الخمار؛ لأنه كان يُخمِّرُ وجهه، خرج في آخر عهد النَّبيِّ ، وناصرته عامة مذحج، وكثير من أهل نجران، فاستولى عليها، ثم غلب على صنعاء، وقتل شهر بن باذام أحد عُمّال النَّبيِّ في اليمن، وهزم الأبناء –وهم أبناء الفرس في اليمن الذين دخلوا في الإسلام– واستولى على غالب اليمن، وما زال شرُّه في تعاظم حتَّى تمكَّن فيروز الديلمي من قتله سنة (١١هـ) كما في الصحيح، وانتهت فتنته بمقتله. انظر: صحيح البخاري (رقم: ٤٣٧٩)، وتاريخ الطبري (٢/ ٢٢٥، ٢٤٧)، والبداية والنهاية (٦/ ٣١٠).

(١٢٨٢) انظر: اللمع في التصوف؛ لأبي نصر السراج (٣٩٠).

عنهم.."[١٢٨٣]، وهذا يناقض فلسفة الفقه، وأسلوب الإسلام في مناقشة الأفكار، ومباحثة القضايا العقديَّة.

بل إن الشعراني يتناقض مع نفسه حين هاجم صوفيَّة عصره في الوقت الذي يمدح فيه الصُّوفيَّة الأوائل، وهل الصُّوفيَّة المتأخرين إلا ثمرة يانعةً من ثمار الصُّوفيَّة المتقدمين.

وقد عرف التاريخ الإسلامي حركات متلاحقة للردَّة، ولم تُعرف وقتها محاولات للتبرير والتأويل والاعتذار، مع أنَّ أولئك لم يدَّعوا اتحاداً بالله، وتأليهاً للبشر وكل الموجودات، كما يقول أصحاب وحدة الوجود، فلما تسيَّد الصُّوفيَّة، وتحكَّموا، عرفنا لأول مرة أنه يمكن للكفر أن يُسمَّى "شطحاً"، وأن ذلك الشطح يمكن تأويله ليوافق الشريعة، حتَّى سنوا قوانين للتأويل أبرزها أن يتمتع السابقون من الصوفية بحق التأويل، دون اللاحقين، ذلك أنه لا يرى في معاصريه من يستحق أن يعمل له تأويلاً، أو أن يدافع عنه، وكيف ذلك وهم يتنافسون فيما بيهم على المريدين، والصيت، والأموال، والهدايا المقدمة، والمكانة عند الملوك والأمراء، وهكذا فعل القشيري، ثم الغزالي، ثم الشعراني.

(١٢٨٣) انظر: لطائف المنن (ص ١٩٧، ٢٠١)، وما بعدها.

وتتردد عبارات الاتحاد في تراجم أعيان الصُّوفيَّة قبل وأثناء العصر المملوكي، حتى أن (الطبقات الكبرى) أصدق مصدر يُعبِّر عن العقيدة الصُّوفيَّة، ومعنى ذلك أن الشعراني لم يجد تحرجاً؛ لأن منطق العصر وعقليه قد أُشربت عقيدة الاتحاد، وكل ما هنالك أن هذه العقيدة مرعية تماماً في ظل ذهولٍ تام من علماء ذلك العصر، وقصر الإنكار على الشيوخ المعاصرين، وهم بطبيعة الحال أقل شأناً من الشيوخ السابقين؛ إلا أن احتقار الشعرانيّ لهم؛ لأنهم ينافسونه في ادعاء الولاية لهم، وهم –حسب اعتقاده –لا يستحقونها..

وما أسهل الرد على تأويلات الشعراني وغيره، إذ أن العبارات الواضحات تستعصي على التبرير والتأويل، بل قد يؤكدها التأويل، ويفضحها التبرير.

وخلاصة القول أن التصوُّف في هذا القرن قد تربع على عرش الدولة، ولا أدلَّ على تسيُّده من انعدام ثورة الفقهاء على مثل حركة البقاعي وابن تيمية، بل حدث العكس وهو تصوُّف الفقهاء، أو نفاقهم لأجل التصوُّف، وذلك ما أربك الشعراني في البدايات، وما يعنينا أن التاريخ يعيد نفسه، فالجنيد كان يتستر بالفقه، في زمنٍ سيطر فيه الفقهاء، واضطهد فيه الصُّوفية في القرن الثالث، ثم أصبح بعض الفقهاء في القرن العاشر ينافقون التصوُّف وينتحلون عقائده، ويواجهون الإنكار والاحتقار من الشعراني وغيره؛ لأنهم غير مخلصين في تصوُّفهم، أو على حدِّ تعبير

الشعراني "متفعلون"، وعرف هذا العصر طوائف شتى من الاتحادية، منهم من تمتع بكراهية الشعراني، ومنهم من ناله مدحه كشيوخه ومن هم في مقامه ورتبته، وظهرت حركة التأويل، فتشرح تلك العبارات بأسلوب اتحادي أخف وقعاً من العبارة نفسها، ثم هم جميعاً أخلصوا لعقائدهم، ودافعوا عنها، رغم سطحية الإنكار الفقهي وتفاهته !!..

نعود مرَّةً أخرى إلى الشعراني الذي حاول (بسذاجة!) التوفيق بين أتباع المذاهب الفقهيَّة الأربعة؛ لأنَّه لم يكن متشدداً من هذه الناحية، أو لأنَّه أراد شكلاً آخر من الاتفاق على مشروعيَّة التصوُّف، مما أثار غضب العلماء والفقهاء عليه، وكذلك أثار غضب الصُّوفيَّة (بطريقة دراميّة!)؛ إذ إنهم يرون في اختلاف الفقهاء رحمةً أخرى بهم، إلى جانب عطف السلطان وتقديره، ما أدَّى به إلى وصف الفقهاء بـ"الحمير" التي تحمل كتباً ولا تستطيع الاستفادة منها!.

ثُمَّ شنَّ هجوماً لاذعاً على بعض الطرق كالرفاعيَّة، والبسطاميَّة، والأدهميَّة، والدسوقيَّة، باعتبار أنها تنتهك الشريعة!، حتَّى أنَّه لم يعترف بالشيخ الخلوتي محمد كريم (ت ١٥٧٨م) كشيخ صوفي، وجعله في عداد الملحدين الكافرين بالله!.. بينما يعتبر ابن عربي إماماً صوفيّاً كبيراً..

وتولى الطريقة من بعده ابنه عبد الرحمن (ت ١٠١١هـ/ ١٦٠٣م)، والذي كرَّس نفسه لجمع الأموال،

وجانب آخر يُفسِّر سكوت العلماء والفقهاء، وانفصالهم عن حياة الناس في هذه المرحلة، وهي خضوعهم للسلطة العثمانية بعد غزوة عام (١٥١٧م)، واهتمامهم بأنفسهم، وفسادهم وارتشاءهم، بالإضافة إلى الأوضاع الإجتماعيَّة الصعبة التي عاش الناس في ظلها..!.

الفصل الرابع

عصر المجاذيب والانحلال

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: من الاتحاد إلى الالحاد (عصر المجاذيب)
المبحث الثاني: تراجع التصوُّف في العصور المتأخرة

المبحث الأول

من الاتحاد إلى الالحاد (عصر المجاذيب)

وعلى الرغم من إعلان الغزاليِّ بأن التصوُّف هو علم الصديقين والمقربين، وأنه تزكية النفس وتطهيرها من الصفات المذمومة، إلا أن انقلاباً مفاجئاً حدث للطريقة الصُّوفيَّة رجالاً، وعقيدةً، وسلوكاً، بحيث امتهنت الشريعة، واعتبرت قشراً، بينما التصوُّف هو اللُّب، وبذلك ذهبت جهود الغزالي سُدى في محاولة التقريب بين التصوُّف والإسلام...

ولقد أتاح الشطح الصُّوفي الفرصة الكاملة لكل الصُّوفيَّة –على اختلاف طرائقهم –في أن يقولوا ما شاءوا بحرية تامة، وتاريخ الشطح هو تاريخ التصوُّف، وتاريخ الشطح هو تاريخ التصوُّف، وبداية التصوُّف إنما كان بإعلان ما اعتبر شطحاً، والذي قتل بسببه الحلاج، وتعرض الصُّوفيَّة للاضطهاد.

وفي إطار الشطحات انعدم الفارق بين الصُّوفيّ الاتحادي وأخيه الذي يُعلن رفضه للإسلام، طالما أنَّ الاتحادي يدَّعي أنه في حالة (وَجْد) أي (قوي عليه الحال)، وحينئذٍ يُباح له أن يقول ما يشاء، ولا غرو أن يورد الشعراني شطحات

شيوخه على جهة الفخر والاعتزاز، في حين أنها لا تختلف عن أقوال الرافضين للإسلام جملةً وتفصيلاً.

ولا شك أن هذه الزندقة والكفريات لم تكن بدعةً يبتدعها الصوُّفيُّ بنفسه، إذ لا بدَّ له فيها من سلف يقتدي به في الكفر والزندقة، ونعود إلى ابن عربي الذي أعلن عقيدته في الاتحاد بكل وضوح وصراحة، في ضوء عصرٍ يوفِّر الحرية المطلقة للصُّوفيَّة، ومبدأ الشطح التبريري لكل ما هو مضاد للإسلام ومناقض له.

ثم جاء تلميذه العفيف التلمساني(ت٦٩٠هـ) في نهاية القرن السابع، والذي يُعدُّ حلقة الوصل بين ابن عربي، وبين الصُّوفيَّة الرافضين للإسلام، قال عنه ابن تيمية: "من حذاق القائلين بالاتحاد... وكان يُظهر المذهب، فيشرب الخمر، ويأتي المحرمات، حتى أنه قيل له عن كتاب الفصوص لابن عربي: هذا الكتاب يخالف القرآن!، فقال: القرآن كله شرك، وإنما التوحيد في كلامنا، وكان إذا وجد كلباً ميتاً بالطريق، قيل له: هذا أيضاً هو ذات الله (تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً)، فقال: وهل ثمَّ (هناك) شيءٌ خارجٌ عنها؟، نعم، الجميع في ذواته!!!"[(١٢٨٤)] ،

(١٢٨٤) مجموع الرسائل والمسائل، لابن تيمية (١/١٤٥).

ثم استحوذ الباجربقي (محمد بن جمال الدين) (ت٧٢٤هـ) في بداية القرن الثامن على اهتمام المصادر التاريخية، وقد كان في الأصل فقيهاً بالمدارس، ثم تصوَّف، وصحب الفقراء، وصار له أتباع، غير أنه كان يتفوَّهُ بالعظائم، مثل أن الأنبياء والرسل طولت على الأمم الطريق إلى الله، وأنه بإمكانه أن يوصلهم إلى الله بأسرع من الرسل، و"قد حكم القاضي المالكي بضرب عنقه، لثبوت كلمات شنيعة عنه، فتغيب عن دمشق، وأقام بالجامع الأزهر، وتردد عليه جماعة، وشهد عليه الشيخ مجد الدِّين التونسي بإباحة دمه، فسافر إلى العراق حتى سعى أخوه بحماه حتى حكَّم الحنبلي بعصمة دمه، فغضب المالكي، وحدد الحكم بقتله".[١٢٨٥]

وقد طوَّف الباجربقي مصر والشام والعراق، وكان له فيها أتباع، وأصبحت (الباجربقية) طريقة صوفية تُعنى بالتحلل الصريح من الإسلام، وإعلان الزندقة بأقذع الألفاظ، يقول أبو الفدا في حوادث سنة (٧٤١هـ): "وفيها ضربت عنق عثمان الزنديق بدمشق على الإلحاد والباجربقية، سمع منه الزنادقة ما لم يسمع من غيره".[١٢٨٦]

(١٢٨٥) نهاية الإرب، للنويري (٣/٢٦).

(١٢٨٦) تاريخ أبو الفداء (٤/١٣٧). وتاريخ ابن الوردي (٢/٣٣٠).

ومن أتباعه ابن المرحِّل (ت٧١٦هـ)، يقول المقريزي: "أنه درس في الزاوية بجامع عمرو، وكان ممن اتهم في دينه، كالباجريقي، والطوفي".[١٢٨٧]

وفي سنة (٧١٥هـ) قتل أحمد الرويس الإقباعي "لاستحلاله المحارم وتعرضه للنبوَّة، وكان يأكل الحشيشة، ويترك الصلاة".[١٢٨٨]

وكذلك النجم ابن خلكان (أحمد بن محمد البرمكي، ت ٧٦٢هـ/ ١٢٨٢م) الذي ولي القضاء ببعض البلاد الشامية، ونسب إلى انحلال في العقيدة، وإلى عمل السِّحر والطلسمات، فانقطع رزقه ومُقت، فسافر إلى الديار المصرية، ومات فيها[١٢٨٩].

وكذلك ابن البقي (أحمد بن محمد البقي المصري) الذي كان يشطح، ويتفوَّه بعظائم النبوَّة، والتنزيل، وتحليل المحرمات، ولما قامت عليه البينة، حُبس فاعترف، فجعل يتلفظ بالشهادتين، فلم يلتفت إليه أحد، وجعل يستجير بابن دقيق العيد، فلم يشفع له، فبعث إلى والي القاهرة ناصر الدين ابن الشجي، وكان يميل

(١٢٨٧) السلوك (٢/١).

(١٢٨٨) مرآة الجنان، اليافعي (٢٥٤/٤).

(١٢٨٩) الوافي بالوفيات (٢٤٩/٣، ٢٥٠). والفلاكة والمفلوكون، للدلجي (ص ٧١).

إلى ابن البقي، فانتصر له، وسعى في خلاصه إلا أن القاضي حكم بقتله، فقتل(١٢٩٠).

وابن اللبان (شمس الدين محمد بن أحمد بن عبد المؤمن) وهو من أصحاب ياقوت العرش الشاذلي (ت ٧٣٧هـ)، قال فيه المقريزي: "نسبت إليه عظائم منها أنه قال بجامع مصر: أن السجود للصنم غير محرَّم!، وأنه يفضل شيخه ياقوت العرش على بعض الصحابة!، واستؤذن السلطان فمكَّن منه، فلم يزل يترامى بين الحكام حتى شفعوا له وحكموا بتوبته، ومنعوه من الوعظ، هو والشيخ زكي الدين بن معضاد الجعبري، وجماعة من الوعاظ كابن الجعبري، والزركشي، وغيرهم".(١٢٩١)

ويذكر الصُّوفيَّة عن القاضي الدمشقي: ابن اللبان الحنفي، أنه فقد علمه مرَّةً؛ لأنه أنكر على من يتوسل بالبدويّ، فتوسَّل بجميع أولياء عصره أن يعيدوا إليه علمه، فلم يقدروا، وأعاده إليه ياقوت العرشي الذي أدخله الخلوة وشفع له عند

(١٢٩٠) الدرر الكامنة (٩/٣٢٩). وتاريخ مصر المملوكية نشر زي ترستين (ص ١٠٤، ١٠٥).

(١٢٩١) السلوك (٢/٤٠٨). وفتوح النصر، مخطوط (٢/٢٧١).

البدويّ، فلما أعاد إليه علمه، طاف بقبر البدوي، وأقام عنده ثلاثاً![١٢٩٢] . (ياقوت العرشي تلميذ المرسي، وزوج ابنته التي لم يقربها ثمانية عشر سنةً، وماتت وهي بكرٌ!، ت ٧٠٧هـ)[١٢٩٣].

وإن ثبتت قصة ابن اللبان، فهذا من استعانة الصُّوفية بالجن كما ذكره ابن تيمية في مجموعه، بقوله: "ومنهم من كان يستعمل الجن فيما ينهى الله عنه ورسوله إما في الشرك وإما في قتل معصوم الدم أو في العدوان عليهم بغير القتل كتمريضه وإنسائه العلم وغير ذلك من الظلم، وإما في فاحشة كجلب من يطلب منه الفاحشة فهذا قد استعان بهم على الإثم والعدوان"[١٢٩٤].

وقد تأثر بعضهم بهذا الجو المنحل عقدياً، فاعتاد التلفظ بالكفر، مع كونه من العلماء والفضلاء، فقد ذكر العيني في حوادث سنة (٧٢٠هـ) مقتل إسماعيل الزنديق، وقد اشتهر بين الفقهاء بالعلم والفقه والفضيلة، والأدب، مع كثرة الهزل والتلفظ بالكفر، حتَّى لُقِّب بالزنديق، فوقع في بعض الأيام في حقِّ النَّبيّ لوط عليه السلام،

(١٢٩٢) انظر: شذرات الذهب؛ لابن العماد (٧/ ٦٠٥)، وجمع المقال، أحمد المزيدي (ص ٨٨- ٩٠).

(١٢٩٣) جمع المقال، أحمد المزيدي (ص ٨٨- ٩٠).

(١٢٩٤) مجموع الفتاوى (١١/ ٣٠٨).

فشهد عليه جماعة ، وعقد له مجلس عند ابن الأخنائي المالكي، فادعى اختلال عقله، وهي الحيلة المأثورة في هذا الموطن، ولم يرضَ الصُّوفيَّة بهذا الحكم حتَّى ادَّعى صوفيٌّ أنه رأى النَّبيَّ ﷺ في المنام يأمره أن يقول للإخنائي "اضرب عنقه، فإنه سبَّ أخي لوط"، فحكم القاضي بضرب عنقه، ونفذ الحكم في ذلك الفقيه بين القصرين[١٢٩٥]، إرضاءً للغرور الصُّوفي، ولئلا ينافسهم في هذا الأمر فقيه ولا عالم !، فقد جارى الفقهاء الصُّوفيَّة حتَّى حاولوا تقليدهم، ومجاراتهم في الشطح والزندقة، إلا أنهم جعلوا منه امتيازاً خاصَّاً لهم، فعاقبوه بالقتل، بينما ينعم جهلة الصُّوفيَّة بقول الشطح تأكيداً للولاية والعلم اللدني، وتقليداً للأشياخ الكبار !.

وفيهم يقول البهاء زهير:

وجاهل يدَّعي في العلم فلسفةً   قد راح يكفر بالرحمن تقليداً

من أين أنت وهذا الشيء تذكره   أراك تقرع باباً عنك مسدوداً

فقال: إن كلامي لست تفهمه   فقلتُ: لستُ سيلمانَ بن داودا[١٢٩٦]

(١٢٩٥) السلوك (٢/٤٠٨). وفتوح النصر، مخطوط (٢/٢٧١).

(١٢٩٦) ديوان البهاء زهير (ص ٣٠).

ومعنى ذلك أن مصر وبلاد الشام أصبحت ملجأً آمناً، وبيئة خصبة لمتطرفي الصُّوفيَّة، وقد ازدادت أعداد الوافدين إليها من الصُّوفيَّة الأعاجم الذين يعتنقون الزندقة والاتحاد مع بدايات القرن التاسع الهجري، حتى أنهم ملأوا الطرقات، فقال المقريزي بأنهم: "يتحلون مذاهب الالحاد، ويصرحون بتعطيل الصانع تعالى، وينكرون شرائع الأنبياء، ويجهروا بإباحة المحرمات".[١٢٩٧]

ومن هذه الطوائف (الحروفيَّة) أو (النسيمية)، المنسوبة إلى فضل الله بن علي بن أسترآباد (ت ٧٩٦هـ/ ١٣٩٤م)، والذي يقول فيه ابن حجر: "أحد المتقشفين من المبتدعة، وكان من الاتحادية، ثم أبتدع النحلة التي سُمِّيت بالحروفيَّة، فزعم أن الحروف هي أعيان الآدميين إلى غيرها من الخرافات التي لا أصل لها، فدعا (تيمور لنك) إلى قتله، ففر إلى ابنه أمير زاده، فقتله بيده سنة (٨٠٤هـ)، واستدعى اللنك برأسه وجثته، فأحرقها في هذه السنة، ونشأ من أتباعه واحدٌ يُلقَّبُ بـ (نسيم الدِّين)، فقُتل بعد ذلك في حلب، وسُلخَ جلده في الدولة المؤيدية سنة (٨٢١هـ/١٤١٧م)"[١٢٩٨]، ويقول ابن إياس في النسيمي: "نزيل

(١٢٩٧) السلوك (٣/٤).

(١٢٩٨) إنباء الغمر (٢١٩/٢). وتاريخ ابن إياس (٦٥٨/١).

حلب، صاحب الأشعار التركيَّة، أفسد عقائد الأتراك، وبعث المؤيد شيخاً يضرب عنقه، وسلخه وصلبه على أحد أبواب حلب".(١٢٩٩)

وقد عرض ابن حجر لترجمته، وكان معاصراً له، فيقول في حوادث سنة (٨٢٠هـ): "قتل الشيخ نسيم الدين التبريزي، نزيل حلب وهو شيخ الحروفيَّة، بعد شيخه فضل (٨٠٤هـ)، وقد قرَّر نسيم أن الشرائع أباطيل لا حقائق، وأنه لا إله، وقد وصل من ضلاله إلى أن وطأ ابنته، واتخذها كالزوجات إلى أن أولدها ولداً، وقد سكن حلب، وكثرت أتباعه، وأشياعه، فأمر السلطان بقتله وصلبه".(١٣٠٠)

ولم يتنه الأمر بموت التبريزي، لأن أتباعه كثر، وقد فصَّل ابن حجر القول في حوادث سنة (٨٣٨هـ): "حضر للسلطان شريف من الشام بأوراق تتعلق بالنسيمي، وشيخه فضل الله، وإن بالشام ومصر جماعةٌ على عقيدته، وأنه تصدى لتتبعهم، وعقد السلطان مجلساً أحضرت فيه الكتب، وهي بالفارسي، فإذا هي مقالة مركبة من قول المشبهة والاتحادية، وفيه: إن شعر الإنسان في رأسه ووجهه سبعة شعور وشعر جفانه الأربعة وحاجبه ورأسه سبعة، وإن عقد أصابع اليدين ربعة عشر، فذلك عدد حروف المعجم، وفيه أن الإلهية انتقلت من الله إلى آدم، ومن

(١٢٩٩) تاريخ ابن إياس (٣٦/١).

(١٣٠٠) إنباء الغمر (١٣٦/٣).

آدم لآخر، إلى أن انتقلت لفضل الله (التبريزي)، وكلام من هذا حاصله أنَّ الله هو الحروف، ونودي في الناس من عنده كتب التبريزي وأحضره للسلطان كان له مائة دينار، ثم أمر فنودي بأن يخرج جميع العجم من القاهرة والقلعة بأُسَرِهم، ولا يتخلَّف منهم أحد إلى ثلاثة أيام، ثم لم يتم ذلك".(١٣٠١)

ومن هذه الطوائف (النموسيَّة)، التي ظهرت في نهاية القرن التاسع الهجري، في عصر قايتباي، وكانوا يُربُّون أولاد النُّموس (الحيوان المعروف)، يقول فيهم المناوي الصُّوفيّ: "كانوا أصحاب حسين أبي عليّ، وضرب قايتباي رقاب بعضهم لما شطحوا ونطقوا بما يُخالف الشريعة".(١٣٠٢)

يقول ابن إياس في حوادث سنة (٨١٩هـ): "ظهر شخصٌ أعجميٌّ يدَّعي أنه يصعد إلى السماء، ويكلم الباري ﷻ في كل يوم مرة، فاعتقده جماعةٌ كثيرةٌ من مصر، فلما شاع أمره بين الناس عقد له السلطان مجلساً لمحاكمته، فأراد القاضي المالكي أن يضرب عنقه، إلا أن الأطباء ارتأوا إلى أن في عقله خللاً، فلم يُقتل!، بل قُيِّد في المارستان فاستمرَّ به، ثم بعد موت السلطان أطلق سراحه"(١٣٠٣)،

(١٣٠١) إنباء الغمر (٥٤٨/٣، ٥٤٩)

(١٣٠٢) الطبقات الكبرى للمناوي (٣٤٩).

(١٣٠٣) تاريخ ابن إياس (٢٨/٢، ٢٩). وإنباء الغمر (٩٩/١).

وهكذا تم تخليصه من القتل بحجة الجنون، فكان الخلاص أسهل من الادعاء نفسه.

وسهولة الادِّعاء والتهاون في العقاب، شجعت البعض على إعلان التحلل الكامل من التكاليف الشرعية، كما حدث مع الشيخ الميموني حين قال: "قد أباح ليس سيِّدي اللواط والخمر والحشيش والفطر في رمضان، فشهد عليه جماعة بما قال، وثبت عليه ذلك، فاعتقل وأحضر إلى مجلس السلطان، وفيه ابن حجر، فأفتى بأن في عقله خللاً، وأعلن الميموني توبته من رؤيا المنامات".(١٣٠٤)

وامتد الأمر ليطال المماليك، فقيل في ازدمر الطويل، أنه: "كان يخوض فيما لا يعنيه، مع سوء العقيدة، واستخفافٍ بأمور الدِّين، ويميل للمتصوفة".(١٣٠٥)

وبعيداً عن السلطان، والمدن، والقضاء، فإن حال الرِّيف من هذه الجماعات المرتدة أشدُّ وأنكى، يقول أبو المحاسن في حوادث سنة (٨٦٦هـ): "ورد الخبر من كاشف الغربية وغيره بأنَّ في قرية ططية بالوجه الغربي من أعمال القاهرة جماعة زنادقة، وفيهم من ادَّعى الألوهيَّة، ومنهم من ادَّعى النبوَّة، وانضمَّ

(١٣٠٤) إنباء الغمر (٣٤٩/١).

(١٣٠٥) الضوء اللامع (٢٧٣/٢، ٢٧٤).

إليهم جماعةٌ كبيرة من أوباش الناس وسقطهم، فأمسكوا أربعة عشر نفراً منهم، واحضروا للسلطان فأنكروا، فحكم القاضي بتعزيرهم"[١٣٠٦]، ولولا أن هؤلاء يمثلون خطراً على السلطة الحاكمة لما أمر بإحضارهم، ومحاكمتهم، فالدوافع سياسية أكثر منها دينية، ولذلك كان يخلِّي سبيل أكثرهم بعد إظهار توبته!.

وأثر هذا الاضطراب العقدي الذي أحدثه التصوُّف في العصر المملوكي أيما تأثير، وتجلى ذلك في حوادث الرِّدة بين العامة والمماليك، فقد كان بعض المسيحيين يدخلون الإسلام طمعاً في منصب، أو تخلُّصاً من ورطة وقع فيها، ثم اعتاد بعضهم الرجوع والارتداد إلى دينه، بل وكان يقن ردته بالسَّبِّ في الإسلام، والنيل من مقدساته[١٣٠٧]، بل ارتد بعض العامة المسلمين عن الإسلام، ولم يوافقوا على العودة إليه[١٣٠٨]، وفي جزيرة ردوس ارتدت طائفةٌ من المماليك، ورجعت إلى النصرانية.[١٣٠٩]

(١٣٠٦) حوادث الدهور (٤١٩/٣، ٤٢٠).

(١٣٠٧) تاريخ ابن إياس (٣٣١/١).

(١٣٠٨) تاريخ ابن إياس (٣٢٤/١).

(١٣٠٩) تاريخ ابن إياس (٢٨٣/٢).

ومع نهاية العصر المملوكي تحولت الزندقة إلى شطحات يقولها المجذوب كيفما شاء، في أيِّ وقت شاء، بدعوى غيابه عن الوعي، فازدهرت طوائف المجاذيب، الذين أرَّخ لهم الشعرانيُّ في طبقاته .[١٣١٠]

وكان للمجاذيب الحرية المطلقة في القول والفعل، فالمجذوب "لا يطالب بأدب من الآداب، مع وجود الكشف (علم الغيب)، وبقائه عليه"[١٣١١]، أي أن المجذوب لا يُسأل عمَّا يفعل؛ لأنه يتمتع بمعرفة الغيب، هذا مع أنه لا يعلم الغيب إلا الله ﷻ.

وأصبح الشَّطح من لوازم الوليِّ الصُّوفي، يُحفظ عنه ويُكتب في ترجمته إلا من شذَّ عن هذه القاعدة "فلم يحفظ عنه شطح"، كما جاء في ترجمة المرشدي(٧٣٧هـ) الذي اتهمه العلماء بالهرطقة، وعذبته السلطات العثمانيَّة حتَّى الموت[١٣١٢]، ولكن القاعدة المضطردة هي كثرة تلك الشطحات، حتى قال الشعرانيُّ عن عبد القادر السبكي: "كان رضي الله عنه كثير الشطح!!"[١٣١٣] ،

(١٣١٠) ترجم الشعراني لكثير منهم في الطبقات الكبرى، في نهاية الجزء الثاني، وهي (ظاهرة منتشرة)، فأكثر الناس في بداية القرن العاشر تُقدِّس المجذوب الصُّوفي !.

(١٣١١) الجواهر والدرر (ص ٢٧٥).

(١٣١٢) أعيان العصر (ص ٤٧).

(١٣١٣) الطبقات الكبرى، الشعراني (٢/١٦٦).

وكذلك أحمد الكعكي الذي قال الشعراني في ترجمته: "وكان كثير الشطح تبعاً لشيخه وسيده محمد الكعكي، حتى كان لا يقدر على صحبته كل أحد".[(١٣١٤)]

وكلما زاد الشطح زاد التقديس لذلك الوليِّ الصُّوفيّ، كما قال أبو المحاسن في ترجمة السُّطوحي المجذوب(ت٨٦٥هـ): "إذا بدأ في الشطح، يتغير كلامه كله بالسَّفه والإساءة المفرطة الفاحشة بغير سبب، رحمه الله ونفعنا ببركة أوليائه!!".[(١٣١٥)]

وقال الشعراني عن أبي السُّعود الجارحيّ: "وكان رضي الله عنه له شطحات عظيمة"[(١٣١٦)]، وقد وصف شطحاته بالعظيمة، وكان من المعاصرين للشعراني، ويقول المناوي: "كانت له خوارق مدهشة، وشطحات موحشة، وكان مثقوب اللسان؛ لكثرة ما ينطق به من الشطح الذي لا يمكن تأويله"[(١٣١٧)]، فلم يمنع وصفه بالشطحات أن يشهد له بالخوارق والكرامات.

ومن تلك الشطحات العظيمة التي نطق بها الملاحدة من الصُّوفيَّة الاتحادية:

(١٣١٤) الطبقات الكبرى، الشعراني (٢/١٦٧).

(١٣١٥) حوادث الدهور (ص ٥٦٥).

(١٣١٦) الطبقات الكبرى، الشعراني (٢/١١٧).

(١٣١٧) الطبقات الكبرى، المناوي (ص ٣٥٥).

١. شطحات تستهدف الاستهزاء ببيوت الله ﷻ بالقول والفعل، كما قال في ترجمة إبراهيم العريان: "كان رضي الله عنه يطلع المنبر ويخطب عرياناً، فيقول: السلطان، ودمياط، وباب اللوق، وبين القصرين، وجامع طيلون، لحمد لله ربِّ العالمين".(١٣١٨)

٢. شطحات تستهدف الاستهزاء بالقرآن الكريم، مثل شعبان المجذوب الذي يقول فيه الشعراني: "كان يقرأ (سوراً) غير السور التي في القرآن!!، على كراسي المساجد يوم الجمعة وغيرها، فلا ينكر عليه أحد، وكان العاميُّ يظنُّها من القرآن الكريم... وكانت الخلائق تعتقده اعتقاداً زائداً، لم أسمع قط أحداً ينكر عليه شيئاً من حاله، بل يعدون رؤيته عيداً عندهم".(١٣١٩)

٣. وبعضهم يسبُّ الأنبياء؛ كالشيخ محمد الخضري(ت٨٩٧هـ)، وقد ترجم له الشعرانيُّ بقوله: "كان يتكلم بالغرائب والعجائب من دقائق العلوم والمعارف ما دام صاحياً، فإذا قوي عليه الحال تكلم بألفاظ لا يطيق أحدٌ سماعها في حقِّ الأنبياء وغيرهم.."، و"صعد مرةً المنبر، فحمد الله وأثنى عليه ومجَّده، ثم قال: وأشهد أن لا إله لكم إلا إبليس عليه الصلاة والسلام، فقال الناس: كفر.. فسلَّ

(١٣١٨) الطبقات الكبرى (٢/١٢٩).

(١٣١٩) الطبقات الكبرى (٢/١٦٧، ١٦٨).

السيف ونزل، فهرب الناس كلهم من الجامع، فجلس عند المنبر إلى آذان العصر، وما تجرأ أحدٌ أن يدخل".(١٣٢٠)

وفي ظل هذا الجو المقفر من العقيدة الصحيحة، فإن الناس على استعداد تام للإعتقاد في أيِّ شيء، حتَّى ولو كان حجراً صلداً لا يسمع ولا يبصر، ما أتاح الفرصة لبعض الصُّوفيَّة أن يعبثوا بعقول النَّاس ومعتقداتهم، ويتجلى ذلك في وقائع كثيرة، منها: واقعة الحائط الذي يتكلم، وبطلها هو الشيخ عمر ركن الدِّين، الذي يحظى بتقديس برقوق: "وقد كان الناس يتبركون به، ويزورنه لمدة ثلاثين عاماً"، وفي الحقيقة أنَّ الشيخ عمر هو الذي يتكلم من وراء الحائط، بحيث لا يراه أحد، فاشتهرت الإشاعة، واعتقد الناس أن الحائط هي التي تتكلم، فافتتن الناس بالحائط، وتوافدوا عليه يسمعونه، يقول ابن حجر في حوادث سنة (٨٧١هـ): "افتتن النَّاس به (الحائط) شهرين، واعتقدوا أنَّ المتكلم من الجنِّ أو الملائكة، وقال قائلهم: يا ربِّ سلِّم الحيطة بتتكلَّم!، وقال الشاعر ابن العطار:

يا ناطقاً من جدارٍ ليس يُرى ** اظهر وإلا فهذا فعلُ فتَّانِ

(١٣٢٠) الطبقات الكبرى (٢/٩٧، ٩٨).

ويقول ابن إياس: "اشتدت فتنة الناس بالحائط، حتى كادوا أن يعبدوه من عظم ما افتتنوا به، ويتخذوه لهم معبداً، وكانوا يقدمون للحائط النذور والقرابين، ثم أظهر المحتسبُ الحيلة، وعُوقبَ الفاعلون".[١٣٢١]

ثم شاع القول بالكفر بين الصُّوفيَّة وغيرهم، وتولى عقد المحاكمات القضاة الذين لهم صلات وثيقة بأصحاب الطرق الصُّوفيَّة، مع انعدام التقوى والورع، وتأثرهم بالجو الانحلالي، في جو يعمه بالجهل والتعصُّب، وكثرة الدسائس والحروب بين الصوفية وأعدائهم الفقهاء، وتدخلات السلطة المملوكية، وكانت تصدر أحكام القتل والتعزير حسب الظروف السياسية، أو مقتضيات الأحوال العادية والعلاقات الشخصية، أو حالة النفور بين القاضي والمتهم، وتدخلات الأطراف الخارجية من الأمراء المماليك، والحكام، فشاعت في المجتمع المملوكي (ظاهرة التكفير) بين العامة، وفي مجتمع الفقهاء !.

فقد كان أحدهم يقرأ في (رياض الصالحين)، فأنكر القيامة والبعث، فشهد عليه جماعة، وعُقد له مجلس، فجدد إسلامه، وحُقن دمه[١٣٢٢]، وقال البرهان بن

(١٣٢١) إنباء الغمر (١/١٩٨، ١٩٩). والسلوك (٢/٣١٦، ٣٦٢). والنجوم الزاهرة (١١/١٧٢، ١٧٣). وتاريخ ابن إياس (١/٢٤٦، ٢٤٧).

(١٣٢٢) حوادث الدهور (ص ٣١).

جماعة في مجلس: قال الله في كتاب العزيز: ضعيفان يغلبان قويان، فعقد له مجلس، ولم يصبه بضرر[١٣٢٣]، وقال آخر: إن التوراة والانجيل بحالهما لم يبدلا، فعزر[١٣٢٤]، واعتبر الشريق المكراني الزاهد أن من قال: الرؤيا خيال باطلٌ فهو كافر[١٣٢٥]، وكفَّر بعضهم الصوفي (يار علي) المحتسب؛ لأنه رسم صورة حمار في عقد الآية الشريفة (وانظر إلى حمارك)[١٣٢٦]، وكُفِّر ابن القاياتي؛ لأنه وجد في مجتمع لهو[١٣٢٧]، وكُفِّر صوفيٌّ آخر لمعاضدته النصارى، مع تهاونه في الدين[١٣٢٨]، وكفَّر السَّيوطيُّ ابن الكركري؛ لأنه قال: ليس الطيلسان سُنَّة اليهود[١٣٢٩]، وقيل عن مناقشات الصُّوفيَّة والقراء: "وربما كفَّر بعضهم بعضاً"[١٣٣٠]، وكان الأمير بيبغا مغرماً بتعظيم جنسه من التتر، فبادره أحدهم وقال: "إيش هو جنكيز خان"، فبادره بيبغا، وقال له: "كفرت"[١٣٣١]، حتَّى صنَّف أحدهم

(١٣٢٣) تاريخ البقاعي (ص ٣٧).

(١٣٢٤) تاريخ الجزري (١/١٧).

(١٣٢٥) التبر المسبوك (ص ٣٧٠).

(١٣٢٦) حوادث الدهور (٢/٣٨٣).

(١٣٢٧) حوادث الدهور (٣/٤٢٤).

(١٣٢٨) تاريخ البقاعي (ص ١٥٢).

(١٣٢٩) الطبقات الصغرى (ص ٣٣).

(١٣٣٠) السلوك (٤/١٠٣١، ١٠٣٢).

(١٣٣١) النجوم (١٤/٣٢٠).

كتاباً في (الأقوال المكفِّرة)، وهو بذلك يمثل الفقيه المتزمت المتعصب إزاء عصر منحل بالتصوُّف عقائدياً وسلوكيَّاً، فهو يُكفِّر من بسمل عند أكل الحرام، أو الزنا، أو من أخذ أجرة على مصحف، أو من ضاق بالصلاة، أو مجلس العلم، أو ضاق بأوامر العلماء، فكانت هذه طريقته في التكفير، بحيث إن من يقرأ هذه الرسالة، يُخيَّلُ إليه أنه لن يرى مسلماً أبداً !..

وفي عصر المجادلات العلمية، والسفسطة الكلاميَّة، والتكفير بلا وازع ديني أو أخلاقي، يُعزل القاضي تاج الدين السُّبكي، وادُّعي عليه بالكفر، بسبب قوله في غضون كلامه (فبطل دين الإسلام)[١٣٣٢] ، وقد رأينا أن البساطي كان صوفياً مولعاً بابن عربي، وبتأويل كلامه، فكفَّره علاء الدين البخاري، ووافقه من في المجلس[١٣٣٣]، وفي سجال عنيف بين السبكي الشَّافعيّ، والأخنائي المالكي، قال السبكي: لو كان الإمام مالك حيَّاً لناظرته في هذه المسألة، فقال الأخنائي: لو قالها غيرك لضربت عنقه[١٣٣٤]، وتجادل السراج البلقيني مع ابن الصاحب، فعُقد لهما

(١٣٣٢) ذيل ابن العراقي (ص ٧٦٩).

(١٣٣٣) تنبيه الغبي، البقاعي (ص ١٣٩).

(١٣٣٤) تاريخ ابن إياس (١٠٧/١).

مجلسٌ، وانتهى عدم كفر ابن الصاحب، وبقائه على الإسلام[١٣٣٥]، ويُذكر أن برقوقاً، قال لمن حوله بالتركية: إن القضاة ليسوا مسلمين[١٣٣٦].

وربما كان التكفير سلاحاً استغله بعض القضاة لاتهام الأبرياء، والتخلص منهم بالقتل، ومن ذلك أن خصومة وقعت بين أحد الفقهاء وقاضي الحنابلة، فحكم القاضي بكفر الفقيه، فلم يرضى الفقيه بالمحاكمة، وطعن في الشهود، وطلب المحاكمة عند السلطان، وأغرى ذلك قاضي الحنابلة، فقتله بنفسه، وجعله في تابوت، ونادى عليه بالكفر[١٣٣٧].

(١٣٣٥) تاريخ ابن إياس (١/٣٢٤). ونزهة النفوس (١/٥٢).

(١٣٣٦) تاريخ ابن إياس (١/٢٩١).

(١٣٣٧) حوادث الدهور (٢/٢٠٣). والنجوم الزاهرة (١٦/١٧٢). وانظر العقائد الدينية في مصر المملوكية (ص ٢٠٧)، وما بعدها.

المبحث الثاني

تراجع التصوُّف في العصور المتأخرة

وقد بدأت معاني التصوُّف وحقائقه تتكشَّف وتظهر شيئاً فشيئاً للعيان، وبدا بيِّناً ظلم الشيوخ للطبقة غير المتعلمة من المريدين، وبخاصة في العصور المتأخرة، حتَّى قال أحدهم: "نظرتُ في النار ورأيتُ أن مُعظم أصحابها هم أولئك الذين كانوا يرتدون خِرقاً ويحملون آنية طعام"(١٣٣٨).

وكلما تقدَّم الزمان ازدادت الشكوى من انحطاط التصوُّف، ودخوله في عالم القرصنة والإجرام، ومحاولاتهم الاستيلاء على أفكار الناس ومعتقداتهم، كطريق لسلب مقدراتهم وأموالهم، ولا تزال الطرق الصُّوفيَّة تفقد كثيراً من أتباعها، وبخاصَّة مع انتشار الوعي الدِّيني والثقافي، بالإضافة إلى التطوُّر الحضاري الذي يحدُّ من اجتذاب أتباع جدد يحيون شعائرها الميِّتة، ولا يوجد مرسوم حكومي بحاجة إلى إعادة إحياء مثل هذه الطرق إلى نشاطها وإقطاعاتها !..

إن الجيل اليوم أكثر عقلانيَّة وإدراكاً لما يجري حوله من أفكار وتيارات متضاربة ومتناقضة، سيما ما يتعلَّق بالتصوُّف وتناقضاته، ولديه الاستعداد الفطري

(١٣٣٨) الأبعاد الصوفية في الإسلام، نقلاً عن شرح شطحيات (ص ٣٠٩).

لمعرفة الحق والشعور به، ومن الطبيعي أن ينظر المرء للتصوُّف أنَّه عبارة عن أفكارٍ هلاميَّة، في بحرٍ يعجُّ بالعبث، بحثاً عن فوضى مفقودة، بطريقة لا يمكن أن ينتظم فيها الدِّين مع العقل والشعور!..

ولن تستطيع فريةُ الحُبِّ الصُّوفيَّة أن تصنع جيلاً آخر مخدوع، يقدس أشخاصاً فارغين ومتسلطين، أو يكون بين أيديهم كالجُثَّة بين يدي مغسِّليها، يُعايش عصر الروح المظلم فيهم، ويؤمن بوحدة وجود غبيَّة أكل الزمان عليها وشرب، ويبحث عن شيء مفقود في حطام غير موجود !..

حتَّى قال الشاعر عرفي الصُّوفيّ (ت ١٣٣٦هـ/ ١٩٥٧م)–أحد الشعراء في بلاط السلطان–: "بإغواء الرجال والنساء الصُّوفيُّ مشغول!!".[١٣٣٩]

ولم يتردد "مير درد النقشبنديُّ (**Mir Dard**)" أحد أشهر متصوفي الهند في القرن الثامن عشر (ت ١٧٨٥م) في أن يطلق كلمة "خنزرة" على ممثلي التيارات الصُّوفيَّة المنحرفين، وعبَّر عن احتقارهم بصراحة، ووصفهم بـ"تُجَّار المشايخ!"، و"بائع الخِرَق!"، هذا مع حُبِّه الشديد للموسيقى!، ما دفع معارضوه إلى اعتباره مزيج من المتناقضات..!.

(١٣٣٩) الكليات (ص ٤٤٨).

ووافق بذلك الشاعر العربي الكبير "البدر الحجازي"، الذي عبَّر بوضوح عن سخريته من انحطاط التصوُّف؛ فقال:

ليتنا لم نكن في عهدٍ بين أهله ارتفع المجانين أقطابا

بهم يستغيث فقهاؤهم بل اتخذوهم دون رب العرش أربابا

نسوا الله حيث قالوا يرفع هذا وذاك عن جميع الخلق العذابا

إذا ماتوا اتخذوهم كعبة، وهرول إليهم كُلُّ الناس عجماً وأعراباً

فاستلموا القبور، وقبلوا الأعتاب، نعم وقبَّلوا حتَّى التُّرابا(١٣٤٠).

لقد أصبحت المراكز الصُّوفيَّة عاجزة بمرور الوقت عن مواجهة متطلبات الحداثة، وصورة العالم المتغيرة بشكل إيجابي، وحالة الصحوة الدينية الكبيرة، وأصبحت مقارَّاً للرجعيَّة والتخلف الفكر والعقدي!.

وإذا نظرنا إلى أواخر القرن الخامس عشر الميلادي، نجد أن (قيغوسوز) الصوفي البكتاشي، الذي عاش في الجزء الأوروبي من الدولة العثمانية، قد بالغ في

(١٣٤٠) الأبعاد الصوفية في الإسلامية (ص ٢٩).

وصفِ أمنياته، بالحصول على طعام جيِّد، وهو يدعو الله أن يرسل له مئات الأواني من "الحلوى"، المقصود بها هنا أفخاذا لضأن، وكل أنواع الحساء، والشواء، والخضروات!، آلاف الثيران وآلاف الأبقار المبتلة بالخردل، والثوم والخل!.. وكذا يريد السيقان والأرجل المطبوخة ، وخمسون ألف كبش بالأرز، وعشرون ألفاً من الماعز..!.

وفي تعبير سافر، يتغزَّل (قيغوسوز البكتاشي) ذلك الصُّوفيُّ العجوز، ذو العصا وطاقية الفرو بشابٍ أمرد جميل؛ فيقول: "أحب فمك الجميل، ووجهك المستدير مثل الخوخ..!.[١٣٤١]

وتعتبر البكتاشية (المتأثرة بالحروفيَّة، والتي هي مزيج من تعاليم الإسلام والمسيحية، والمؤمنون بتناسخ الأرواح، وألوهية عليّ)، ومؤسسها هو حاج بكتاش (**Hacci Bektash**)، الذي تلقَّى تصوُّفه عن الشيخ لقمان الصُّوفي، وقدم من خراسان إلى الأناضول في القرن الثالث عشر الميلادي (ت٧٣٨هـ/ ١٣٣٨م) بمجملها من الطرق التي ترتبط بعلاقات دائمة مع الشيعة الإمامية في إيران، وقد كان شعارهم (الله، محمد، علي)؛ كنوعٍ من التثليث..

١٣٤١() الأبعاد الصوفية في الإسلامية (ص ٣٨٠-٣٨١).

أضف إلى ذلك أنَّ مؤسس الدولة الصفويّة الفارسيَّة، وعدو العثمانيين اللدود إسماعيل شاه (ت ١٥٢٤م) والذي حَّول النظام السُّني في إيران إلى نظام شيعي، هو صوفيٌّ بكتاشيٌّ، نشأ وترعرع في أذربيجان، وهي معقل الدراويش الأتراك، من المولويَّة الذين وفَّروا الدافع والقوة البشريَّة المؤيدة للحركة الشيعية الكبرى في إيران، ونسبت الصفويَّة إلى خلفه (صفيِّ الدِّين إبراهيم بن روشان السبخاني السهرورديُّ! وأسرته التي حكمت بين عامي: ١٥٠٢- ١٧٠٦م).[١٣٤٢]

ويعتبر إسماعيل شاه الملقب "بالصُّوفيِّ العظيم"، من أبرز شعراء هذه الطريقة التي نشأت في تركيا (عاصمة الخلافة الإسلاميَّة!)؛ وكان يكتب بالتركية في الوقت نفسه الذي كان السلطان سليم الأول يكتب بالفارسية، ويحتفل أتباع هذه الطريقة يوم عاشوراء بتأسيس هذه الطريقة، بشكل شيعيٍّ خالص، فيُطبخ الطعام؛ لتذكير المؤمنين بآخر طعام أكله الإمام الحسين!، وتُعدُّ الكثير من العائلات التركيَّة هذا الطعام في ذلك اليوم، وإن لم تَنْتَمِ إلى الطريقة البكتاشيَّة، وترسله إلى المعارف والأصدقاء.[١٣٤٣]

١٣٤٢() الطرق الصوفيَّة في الإسلام، سبنسر ترمنجهام (ص ١٢٤).

١٣٤٣() الأبعاد الصوفية في الإسلامية (ص ٣٨٤).

وقد وضع أصحاب الطرق شروطاً لسلوك الطريق الصُّوفي، منها [١٣٤٤]:

١. الاستعداد الفطري الخاص لسلوك الطريق، والاستمرار فيه.

٢. الانتساب إلى (سلسلة) صحيحة ومعروفة عند الصُّوفيَّة.

٣. مباشرة الأنشطة والأذكار الصوفية على بد شيخ عارف.

١٣٤٤() كشف المحجوب، (ص ٤).

الفصل الخامس

موقف الأئمة الأربعة من التصوُّف

(مالك، وأبو حنيفة، والشَّافعيّ، وأحمد)

وفيه أربع مباحث:

تمهيد لموقف الأئمة الأربعة من التصوُّف
المبحث الأول: موقف الإمام أبو حنيفة النُّعمان من التصوُّف
المبحث الثاني: موقف الإمام مالك بن أنس من التصوُّف
المبحث الثالث: موقف الإمام الشَّافعيِّ من التصوُّف
المبحث الرابع: موقف الإمام أحمد بن حنبل من التصوُّف

تمهيد لموقف الفقهاء الأربعة من التصوُّف [١٣٤٥]:

إنَّ ما قدمناه عن التصوُّف تعريفه ومبادئه ورجالاته، وتصورنا لمعظم مسائله أو أكثرها، يدفعنا إلى تحقيق مذاهب الأئمة الأربعة في التصوُّف، اللذين ما فتئوا يذوذون عن حياض هذا الدين، ويصرفون جُلَّ وقتهم في الدفاع عن الشريعة الغرَّاء، هذا وقد قال الحلاج: "ظاهر الشريعة كُفرٌ خفي، وحقيقة الكفر معرفةٌ جليَّة"![١٣٤٦]، وأنَّ "الكفر والإيمان يفترقان من حيث الاسم، وأما من حيث الحقيقة، فلا فرق بينهما"[١٣٤٧]، ثُمَّ يُصرِّح بكفره، قائلاً:

كفرتُ بدين الله والكُفرُ واجبٌ ... لديَّ وعند المسلمين قبيحُ [١٣٤٨].

وهذا البسطاميُّ، يقول: "إن أدنى صفة العارف أن تجري فيه صفات الحقِّ، وجنسُ الربوبية"[١٣٤٩]، ويقول: "عجبتُ لمن عرف الحقَّ كيف يعبده"[١٣٥٠]،

(١٣٤٥) يُنظر أيضاً التصوُّف في القرنين الثاني والثالث الهجريين، أبو الخير تراسون (ص ٢١٧)، وما بعدها.

(١٣٤٦) أخبار الحلاج (ص ٦٣).

(١٣٤٧) نفسه (ص ٥٣).

(١٣٤٨) نفسه (ص ٩٩).

(١٣٤٩) النور من كلمات أبي طيفور (ص ١٠٦، ١٤٤).

(١٣٥٠) علم القلوب (ص ٣٣٧).

ويقول: "إذا كانت توبة الناس من ذنوبهم، فتوبتي من: لا إله إلا الله"[١٣٥١]، وقال لرجل سبح الله أمامه: "سبحان الله شرك!"[١٣٥٢].

(١٣٥١)النور من كلمات أبي طيفور (ص ١٠٤).

(١٣٥٢) نفسه (ص ١١٣).

المبحث الأول

موقف الإمام أبي حنيفة النُّعمان (٨٠-١٥٠هـ) من التصوُّف [١٣٥٣]

لقد كان الإمام أبو حنيفة علماً من أعلام أهل السُّنَّة، وعلامةً فارقةً في الدِّين والزُّهد والورع، وإماماً مُبرَّزاً من أئمَّة الفقه والاجتهاد، وكان شديد الذَّبِّ عن دين الله ﷻ، ولا غرو أن كان من تلاميذه الإمام عبد الله بن بالمبارك (ت ١٨١هـ) [١٣٥٤]، وداود الطائي (ت ١٦٥هـ)، والفضيل بن عياض (ت ١٨٧هـ)، وغيرهم.

- وكان مذهبه في (معرفة الله سبحانه) أنَّها أمرٌ فطريٌّ مركوز في عقل الإنسان وقلبه، وفارق بذلك مذاهب المتصوّفة الذين قالوا: أقصى مراتب المعرفة هي (الحيرة!)، أو أنَّ الطريق إلى المعرفة لا بُدَّ له من (فناء!)، ثُمَّ (فناء الفناء!)، ثُمَّ (البقاء= الجمع!!).[١٣٥٥]

(١٣٥٣) انظر: التصوف في القرنين الثاني والثالث الهجريين، أبو الخير تراسون (ص ٢١٧- ٢٧٩).

(١٣٥٤) هو: عبد الله بن البارك بن واضح الحنظلي التيمي، مولاهم، أبو عبد الرحمن المروذي، قال عنه الذهبي: "الإمام الحافظ، شيخ الإسلام، فخر المجاهدين، قدوة الزاهدين"، انظر: تذكرة الحفاظ (١/ ٢٧٤).

(١٣٥٥) التصوف في القرنين الثاني والثالث الهجريين، أبو الخير تراسون (ص ٢٢٤).

- وكان مذهبه في الاعتقاد على طريقة السلف في الإيمان بعلو الله عز وجل على خلقه، وكان يقول: "كُلُّ من أنكر أن الله عز وجل في السماء، فقد كفر"(١٣٥٦)، وكان يقول: "القرآنُ كلامُ الله غير مخلوق".(١٣٥٧)

ومن كلامه في توحيد الأسماء والصفات، قوله رحمه الله في الفقه الأكبر: "وله يد ووجه ونفس كما ذكره الله تعالى في القرآن فما ذكره الله تعالى في القرآن من ذكر الوجه واليد والنفس فهو له صفات بلا كيف ولا يقال إن يده قدرته او نعمته لأن فيه إبطال الصفة وهو قول أهل القدر والاعتزال ولكن يده صفته بلا كيف وغضبه ورضاه صفتان من صفات الله تعالى بلا كيف.(١٣٥٨)"

- وأما في (العبوديَّة)، فقد كان رحمه الله صوَّاماً قوَّاماً، مقبلاً على كتاب الله ﷻ، مستمسكاً بسُنَّةِ رسول الله ﷺ، حريصاً على حماية جناب التوحيد الخالص لله تعالى، حريصاً على سدِّ جميع منافذ الشرك بالله، فأُثر عنه النَّهي

(١٣٥٦) انظر: مختصر العلو، لمحمد ناصر الدين الألباني (ص ١٣٧).

(١٣٥٧) انظر: مختصر العلو، لمحمد ناصر الدين الألباني (ص ١٥٥).

(١٣٥٨) انظر: الفقه الأكبر لأبي حنيفة النعمان (ص ٢٧).

الشديد عن كل ما يُفضي إلى الشرك والبدعة، كتعظيم قبور الأولياء والصالحين، الأمر الذي لا يرضي به المتصوفة!.[١٣٥٩]

● وفي حثِّه على (العلم) وطلبه؛ فقد كان من أكابر الدُّعاةِ له، وكان ينهى عن ترك طلبه لأيِّ عارضٍ كان، ويرى أنَّ العمل تابعٌ للعلم، كما أنَّ الأعضاء تبَعٌ للبصرِ، وأنَّ العلم مع العمل اليسير خيرٌ من الجهل مع العمل الكثير، وأنَّه لا يستقيم العمل حتَّى يستقيم العلمُ فيه، بأن يكون مُقرَّراً ثابتاً[١٣٦٠]، وكان يرى أنَّ العلماء والفقهاء هم الأولياء، وبيَّن أنَّ العلم لا ينبغي أن يكتمه أحد، وأنَّه لا يختصُّ بمعرفته أحد، وأن بذل العلم لا ينبغي أن يكون فيه خواصٌّ وعوام، وأنَّه يُطلب من أفواه العلماء ومجالسهم وكتبهم، وليس من الرؤى والمنامات وهواجس النفس ولإلهامها كما يعتقد ذلك المتصوفة!.[١٣٦١]

● في (الزهد والورع والتقوى)، فقد كان رحمه الله من أزهد النَّاس في درهم يأتيه من السلطان، وكان يعمل بالخزِّ (نسج الثياب)، فلم يترك دنياه لأجل آخرته،

(١٣٥٩) التصوف في القرنين الثاني والثالث الهجريين، أبو الخير تراسون (ص ٢٢٦– ٢٢٨).

(١٣٦٠) العالم والمتعلم؛ لأبي حنيفة النعمان،

(١٣٦١) التصوف في القرنين الثاني والثالث الهجريين، أبو الخير تراسون (ص ٢٢٨– ٢٣١). وأبو حنيفة إمام أئمة الفقهاء؛ وهبي سليمان غاوجي (ص ٩٩).

ولم يُضيّع أخره لأجل دنياه، وكان زاده من كل خير التقوى، وإمامه الورع، حافظاً للسانه، وصائناً لقلبه، هائباً للحرام، تاركاً لبعض الحلال خوفاً من الشُّبَه، وكان يُكرم جلساءه من العلماء والطلاب، ويدفع إلى المحتاج منهم ما يستعين به على قضاء حاجته، وبذا كان أبو حنيفة مُعلِّماً للزُّهد والورع والتقوى قبل أن يكون هؤلاء الصُّوفيَّة في بطون أمهاتهم!!.(١٣٦٢)

- وفي (السَّماع)؛ فقد كان أبو حنيفة يكره الغناء، ويجعل سماعه من الذنوب، وكذلك مذهب سائر أهل الكوفة، كإبراهيم النخعي، وشعبة، وحماد بن أبي سليمان، وسفيان الثوري، وغيرهم، لا اختلاف بينهم في ذلك؛ وهو بخلاف قول المتصوفة الذين يبيحونه !!.(١٣٦٣)

بطلان ما نُسب للإمام أبو حنيفة في التصوُّف:

١. حضور الخضر مجلس أبي حنيفة:

(١٣٦٢) التصوف في القرنين الثاني والثالث الهجريين، أبو الخير تراسون (ص ٢٣١- ٢٣٦).

(١٣٦٣) كشف القناع؛ لأبي العباس القرطبي (ص ٥٠- ٥١)، وتلبيس إبليس لابن الجوزي (ص ٢٨٢). وانظر: التصوف في القرنين الثاني والثالث الهجريين، أبو الخير تراسون (ص ٢٣٦- ٢٤١).

ذكر الشعراني في كتابه (معارج الألباب)، عن بعض شيوخه، "أنه ذكر له أن الخضر كان يحضر مجلس أبي حنيفة في كل يوم بعد صلاة الصبح يتعلم منه الشريعة؛ فلما مات (أبو حنيفة)، سأل الخضر أن يرد روح أبو حنيفة إلى قبره، حيث يتمُّ له علم الشريعة، وأن الخضر كان يأتي إليه كُلَّ يومٍ على عادته، يسمع منه الشريعة، وأقام على ذلك خمس عشرة سنة، حتى أكمل علم الشريعة!".(١٣٦٤)

ومن الملاحظ بطلان هذه القصَّة من وجوه؛ وهي: الإسناد السَّاقط، وتضمنها لسوء الأدب مع الأنبياء عليهم السلام، ولمخالفتها للعقيدة الصافية، والعقل الصريح، ويلزم منها إثبات حياة الخضر، والثابت أنه قد مات، وهي تُعدُّ من أكاذيبهم الظاهرة .(١٣٦٥)

. ٢الأذكار والهواتف الصُّوفيَّة المنسوبة إلى أبي حنيفة:

وهي نوعٌ من الأذكار التي تدخل ضمن التشريعات الصُّوفية، والتي دسَّها عليه مشايخُ الصُّوفيَّة، فاستبدلوها بالأذكار النبويَّة الثابتة، وانحرفوا عن الطريق الواضح، والعقيدة الصحيحة، ومن ذلك ما قاله أبو عبد الله محمد بن الحسن

(١٣٦٤) معارج الألباب (ص ٤٤)، نقلاً عن الفكر الصوفي في الكتاب والسنة (ص ١٣٧- ١٣٨).

(١٣٦٥) انظر: التصوف في القرنين الثاني والثالث الهجريين، أبو الخير تراسون (ص ٢٤٢- ٢٤٣).

الشَّافعيّ في كتابه (مجمع الأخبار): رأيتُ في بعض الكتب أنَّ الإمام أبا حنيفة قال رأيتُ ربِّي في المنام، فسألته عن عملٍ ينجو به العبد يوم القيامة؛ فقال: قل: سبحان الله الأبد الأبدي.. إلخ!.(١٣٦٦)

ويذكر ملا علي القاري أنَّ أبا حنيفة وقف ليصِّلي في الكعبة؛ فقال: "ما عبدك هذا الضعيف حقَّ عبادتك، ولكن عرفك حقَّ معرفتك، فهبه نقصان عبادته لكمال معرفتك، فهتف به هاتفٌ من جانب البيت: قد عرفت وأخلصت المعرفة، وخدمت وأحسنت الخدمة، فقد غفرنا لك ولمن تبعك وكان على مذهبك إلى قيام السَّاعة!!"(١٣٦٧) ، ولم يكن أبا حنيفة من الذين يُعذبون أنفسهم بالعبادة، بل كان من الذين يتنعمون ويتلذذون فيها، لأنَّه عرف ربَّه حقَّ المعرفة، وهذا الهاتفُ الصُّوفيُّ لا سبيل إلى إلصاقه بإمامٍ سلفيٍّ كأبي حنيفة!..

وقد وقفنا على نقول لبعض علماء الحنفية، ينكرون فيها بدع الصُّوفية، نرى أنَّه من المفيد إيرادها هنا حتى لا يظن ظان أن ما قلناه لم يذهب إليه أحد من أتباعه المعروفين.

(١٣٦٦) حياة الإمام أبو حنيفة، السيد العفيفي (ص ٢٢٨).

(١٣٦٧) شرح هين العلم، وزين الحلم؛ لملا علي القاري، (١/ ٥٠).

قال الشيخ أبو الطيب شمس الحق العظيم آبادي: "ومن أقبح المنكرات وأكبر البدعات وأعظم المحدثات ما اعتاده أهل البدع من ذكر الشيخ عبد القادر الجيلاني رحمه الله بقولهم: يا شيخ عبد القادر الجيلاني شيئاً لله، والصلوات المنكوسة إلى بغداد، وغير ذلك مما لا يعد"(١٣٦٨). أولا يعلم هؤلاء السفهاء أن الشيخ (رحمه الله) لا يقدر على جلب نفع لأحد ولا دفع ضر عنه مقدار ذرة، فلم يستغيثون به ولم يطلبون الحوائج منه؟! اللهم إنا نعوذ بك من أن نشرك بك أو نعظم أحداً من خلقك كعظمتك.

وقال في "البزازية" وغيرها من كتب الفتاوى: "من قال: إن أرواح المشايخ حاضرة تعلم يكفر"، وقال الشيخ فخر الدين أبو سعد عثمان الجياني الحنفي في (رسالته): "ومن ظن أن الميت يتصرف في الأمور دون الله، واعتقد بذلك كفر" .(١٣٦٩)

وقال القاضي حميد الدين ناكوري الهندي في "التوشيح": ومنهم الذين يدعون الأنبياء والأولياء عند الحوائج والمصائب بإعتقاد أن أرواحهم حاضرة تسمع النداء وتعلم الحوائج، وذلك شرك قبيح وجهل صريح، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ

(١٣٦٨) التعليق المُغني على سُنن الدارقطني (ص ٥٢٠ -٥٢١).

(١٣٦٩) البحر الرائق (٥/ ١٣٤).

مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ (الأحقاف: ٥)[١٣٧٠].

(١٣٧٠) البحر الرائق (٣/ ٩٤).

المبحث الثاني

موقف الإمام مالك بن أنس (٨٠-١٥٠هـ) من التصوُّف [١٣٧١]

وكان الإمام مالكٌ صاحبُ عقيدةٍ سلفيَّةٍ نقيَّة، يكره محدثات الأمور، ويتبع السُّنن والآثار، وكان كثيراً مايتمثَّل قول الشاعر:

وخيرُ الأمورِ ما كانَ سُنَّةً ... وشرُّ الأمورِ المُحدثَاتُ البَدائِعُ [١٣٧٢]

وعقيدته في الله ﷻ أنَّه في السَّماء فوق عرشه، بائنٌ من خلقه، لا كما زعمت الجهميَّة والصُّوفيَّة بأنَّ الله في كُلِّ مكان، أو أنَّه حالٌّ في كُلِّ شيء، كما زعمت الإتحادية والحلولية الصُّوفيَّة، روى أبو داود عن عبد الله بن نافع، قال: "قال مالكٌ: الله في السماء وعلمه في كُلِّ مكان".[١٣٧٣]

(١٣٧١) انظر: التصوف في القرنين الثاني والثالث الهجريين، أبو الخير تراسون (ص ٢٨٠-). وانظر: مالك بن أنس (إمام دار الهجرة)، لعبد الغني الدقر (ص ٣٠٦).

(١٣٧٢) انظر: مالك بن أنس حياته، وآراؤه، للشيخ محمد أبو زهرة (ص ١٥٦ - ١٥٧).

(١٣٧٣) إسناده صحيح، أخرجه أبو داود في مسائل الإمام أحمد (ص ٢٦٣)، وأخرجه الإمام عبد الله بن أحمد في السنة (١/ ١٠٧)، وانظر: مختصر العلو للألباني (ص ١٤٠).

وكان مالكٌ يؤمن بصفات الباري جلَّ وعلا، من غير تأويل، ولا تكييف، ولا تحريف، ففي صفة الاستواء في قوله سبحانه: (الرَّحمنُ عَلَى العرشِ اسْتَوى)، يقول مالك: "الاستواءُ معلوم، والكيف غير معلوم، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة"، وكان يرى أن المؤمنون يرون ربَّهم بأبصارهم.(١٣٧٤)

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أنَّ الإمام مالكاً كان أحد الذين قالوا بتكفير أهل وحدة الوجود؛ فقال: "ومن المشايخ الذين قالوا بتكفير الإتحاديَّة؛ هم: سعيد بن المسيب، والحسن البصري، وعمر بن عبد العزيز، ومالك بن أنس، والأوزاعي، وإبراهيم بن أدهم، وسفيان الثوري، والفضيل بن عياض، والشافعي، وأحمد بن حنبل، وغيرهم".(١٣٧٥)

وكان مالكٌ يرى حُرمة الأخذ عن المبتدعة، ومن جملتهم المتصوفة، حيث يقول: "لا يؤخذ العلم من أربعة، ويؤخذ من سواهم: لا يؤخذ من مُبتدعٍ يدعو إلى

(١٣٧٤) الإمام مالك بن أنس (إمام دار الهجرة)، عبد الغني الدقر (ص ٢٩٣ - ٢٩٤). وانظر المدارك للقاضي عياض (ص ١٩٨).

(١٣٧٥) الرسائل والمسائل؛ لشيخ الإسلام ابن تيمية (١/ ١٨٦).

بدعة، ولا من سفيهٍ مُعْلن بسفهه، ولا عمَّن يكذب في حديث النَّاس، وإن كان يصدق في حديث رسول الله ﷺ، ولا عمَّن لا يعرف هذه الشأن!".[١٣٧٦]

أما مذهبه في (العبوديَّة والتذلُّل إلى الله عزَّ وجل)؛ فقد كان علماً من أعلام العابدين، الوجلين، الخاشعين لله عز وجل في السِّر والعلانية، فكان يذكر الآية في صلاته، ويتأمَّلُ فيها، ثم يبكي ويُردِّدها حتَّى طلوع الفجر، وكان وجهه يعلوه نورٌ حَسَن، قال فيه محمد بن خالد بن عتمة: كُنتَ إذا رأيت وجه مالك، رأيتَ الآخرة في وجهه، فإذا تكلَّمَ علمتَ أنَّ الحقَّ يخرجُ من فيه .[١٣٧٧]

وكان كثير القراءة في المُصحف، طويل البكاء، يجلس لذكرُ الله من طلوع الفجر إلى شروق الشمس، ثُمَّ يلتفتُ إلى حلقته .[١٣٧٨]

وليتَ شعري أين عبادة هؤلاء المتصوفة من عبادة الإمام مالك وزهده وورعه؛ فبمثل الإمام مالك نقتدي، وعليه نُعوِّل، ولمسلكه نتَّبع، لا طريقة هؤلاء المخرفين أصحاب الحيل والشعبذة.

(١٣٧٦) الإمام مالك بن أنس (إمام دار الهجرة)، عبد الغني الدقر (ص ٨٢).

(١٣٧٧) ترتيب المدارك، القاضي عياض (١/ ١٧٨).

(١٣٧٨) الإمام مالك بن أنس (إمام دار الهجرة)، عبد الغني الدقر (ص ٣٢١- ٣٢٢).

أما (حثُّه على العلم، وحرصه على بيانه)؛ فيظهر من كلامه إلى أبي عبد الرحمن عبد الله بن عبد العزيز العمري العابد (ت ١٨٤هـ)، الذي كتب إليه وحثَّه على العبادة والإنفراد والعزلة؛ فقال له مالكٌ: "إن الله قسَّم الأعمال كما قسَّم الأرزاق، ونشر العلم من أفضل أعمال البِر، وقد رضيت بما فتح لي فيه، وما أظنُّ أن ما أنا فيه دونَ ما أنت فيه، وأرجو أن يكون كلانا على خيرٍ وبرٍّ".[١٣٧٩]

وهذا بلا شكٍّ ردٌّ على بعض الأفكار الصُّوفية التي تجعل من العزلة والإنفراد ركناً من أركان الطريق، غير ملتفتين إلى دور الإنسان في الحياة، والغاية التي خلقوا من أجلها وهي تحقيق العبوديَّة لله، وتعليم النَّاس الخير.

ومن جهةٍ أخرى نجد أن الإمام مالك قد (ذمَّ غريب العلوم، وما لا فائدة فيه)، ويندرج تحت ذلك العلوم الباطنيَّة، وعلوم التصوُّف، الذي لا يلتفت إلى ظاهر الأمر والنَّهي؛ حيث قال مالك: "شرُّ العلم الغريب، وخير العلم الظاهر الذي قد رواه النَّاس"[١٣٨٠]. وكان يقول: "إذا مُنع العلمُ من العامَّة، لم ينفع الله به الخاصَّة

(١٣٧٩) سير أعلام النبلاء، للذهبي (٨/ ١٠٢).

(١٣٨٠) ترتيب المدارك، القاضي عياض (١/ ١٨٤).

ولا العامَّة"[١٣٨١]. وكان يقول: "من طلب الدِّينَ بالكلام تزندق، ومن طلب المال بالكيمياء أفلس، ومن طلب غريب الحديث كذب".[١٣٨٢]

وأما موقفه من (الزُّهد)، فكان يرى أنَّ الزهد هو: قصر الأمل، والكسب الحلال، ذُكر أن رجلاً طلب منه الوصيَّة؛ فقال له: "أوصيك أن تعمل صالحاً، وتأكل طيباً، فبغيتك منها ما يكفيك، وأقلُّ عيشها يُغنيك، وما قلَّ وكفى خيرٌ مما كَثُرَ وألهى".[١٣٨٣]

وبذلك نرى أنَّ زهد الإمام مالك لم يكن زهداً منحرفاً، أو هجراً للمال والعيال، وإنما زهده نابعاً من تعاليم ديننا الحنيف، الذي يأمرنا بالرضا بالقليل، والقناعة بما وهبنا الله تعالى من نعم، وبذلها فيما يحلُّ ويجوز.

ومع ذلك؛ فقد كان الإمام مالك يعتني بلباسه أتمَّ عناية، ويلبس أجود الثياب، وأغلاها، وأجملها، وكان يقول: "إن مروءة العالم أن يختار الثوب الحسن الذي يرتديه، ويظهر به".

(١٣٨١) مالك بن أنس، إمام دار الهجرة، عبد الغني الدقر (ص ١٤١).

(١٣٨٢) مالك بن أنس، إمام دار الهجرة، عبد الغني الدقر (ص ٢٨٥).

(١٣٨٣) ترتيب المدارك، القاضي عياض (١/ ١٨٤، ١٨٧).

وحينما سُئل عن لبس الصُّوف الغليظ وغيره؟.

فقال: لا خير في لبسه إلا في سفرٍ كما لبسه النَّبيُّ ﷺ؛ لأنَّه لباس شهرة –وتظاهرٌ بالزُّهدِ–، وإنَّه لقبيحٌ بالرَّجُلِ أن يُعرف دينه بلباسه، وقال –رحمه الله–: ما أدركتُ فقهاء بلدنا إلا وهم يلبسون الثياب الحسان. وكان يقول: أحبُّ للقارئ (أي: الفقيه) أن يكونَ أبيض الثياب إجلالاً للعلم، وكان يكره خَلِق الثياب (أي: البالي منها) يعيبه ويراه مُثلة.(١٣٨٤)

وفي هذا ردٌّ على الصُّوفيَّة الذين فهموا الزُّهد بطريقةٍ خاطئة، فجعلوه مفارقةً للدُّنيا وترك الاشتغال بها، وفيه –أيضاً– بيانٌ أنَّ التزامهم بلباس الصُّوف أو أيِّ زيٍّ آخر؛ ليعرفوا ويشتهروا به، مُنافٍ لمروءة الرجل ودينه.

وإذا كان اتخاذهم للصُّوف، وتركهم للكسب، سيعطف عليهم المزيد من أموال الناس وصدقاتهم، فماذا عسى هؤلاء المبتدعة أن يقولوا لمالكٍ وقد سُئل يوماً: مَنِ السَّفَلةُ يا مالك؟، فقال: "الذي يأكلُ بدينه". فلما سُئل عن سفلة السفلة، قال: "الذي يُطعم غيره بدينه"!(١٣٨٥).

(١٣٨٤) ترتيب المدارك، القاضي عياض (١/ ١١٤). وعقد الجواهر الثمينة في مذهب عالم المدينة؛ لابن شاس (٣/ ٥٢٢). انظر: مالك بن أنس (إمام دار الهجرة، عبد الغني الدقر (ص ٣٣).

(١٣٨٥) الإمام مالك، عبد الغني الدقر (ص ٤٩).

وكيف لمالكٍ أن يقبل طائفةً تشتقُّ من الصُّوف اسماً لها، وقد قال مالك حين سُئل: من أهل السُّنَّةِ يا أبا عبد الله؟، قال: الذين ليس لهم لقبٌ يُعرفون به، لا جهمي، ولا رافضي، ولا قدري، وسئل عن الدَّاء العُضال؟؛ فقال: الحدث في الدِّين، وكان كثيراً ما يُنشد:

وخير أمور الدِّين ما كان سُنَّةً ... وشرُّ الأمور المحدثات البدائعُ

وكان يقول: السُّنَّةُ سفينةُ نوحٍ، من ركبها نجا، ومن تخلَّف عنها غرق.[١٣٨٦]

وموقفه من (ذكر الله ﷻ)، أن يداوم العبد على ذكر ربِّه سبحانه، ليلاً ونهاراً، ويكثر من تلاوة القرآن، والتسبيح، والتهليل، والتحميد[١٣٨٧]، ومع حرصه على الذكر ووصيته به، إلا أنه كان يُنكر الاجتماع للذكر على صوتٍ واحد كما يفعل المتصوفة، ذلك أن الذكر الجماعي على صوتٍ واحد في المواطن التي لم يؤثر عن النَّبيِّ ﷺ وصحابته فيها شيءٌ، بدعةٌ مردودة.[١٣٨٨]

(١٣٨٦) الإمام مالك، عبد الغني الدقر (ص ١٥٨).

(١٣٨٧) الإمام مالك بن أنس، إمام دار الهجرة (ص ٣٣٢).

(١٣٨٨) التصوف في القرنين الثاني والثالث الهجريين، أبو الخير تراسون (ص ٢٩٠).

وكان مالكٌ يقول: "إنا يُعبد الله بما شرع، فما لم يكن يومئذٍ ديناً، لم يكن اليوم ديناً، وهذا الاجتماع (يعني على صوتٍ واحدٍ في الذكر) لم يكن مشروعاً قط، فلا يصحُّ أن يُعبد الله به"(١٣٨٩).

ويظهر مما سبقَ تمسُّك الإمام مالك رحمه الله بما عليه أهل الحقِّ من سلف هذه الأمة، وحرصه الشديد على أن يكون هذا الدِّين نقياً من كُلِّ شائبةٍ، وخالياً من بدع المبتدعين.

هذا هو رأي الإمام مالك في الذكر بصوتٍ واحد في الأذكار المشروعة، فكيف بأذكار وأوراد وأدعية جاء بها المتصوفة من عند أنفسهم، ثُمَّ يقولون هي من عند الله، وما هي من عند الله، ليفتروا الله على الكذب وهم يعلمون!.

وأمَّا موقفه من (السَّماع الصُّوفي)، وهو الغناء الذي يورث اللَّذة الروحيَّة، ويمنح صاحبها رقَّة الطبع، ولين القلب كما يزعمون!، والغناءُ هو اللهو المُهيِّجُ للقلوبِ...

وحقيقة السَّماع الصُّوفي هو الرَّقصُ، على إيقاع الطبل والدفوف، مقروناً بالهمهمة والهذرمة بألفاظ الجلالة وغيرها، يزعمون أنَّهم يذكرون الله تعالى بها،

(١٣٨٩) انظر: المعيار المعرب والجامع المغرب (١١/ ٤٠).

وهي من أعمال الفُسَّاق والزنادقة، ومن الأمور التي لم يأمر بها ربُّنا في كتابه، ولا جاءت عن رسوله ﷺ في سنته، ولا أمر بها سلف الأمَّة، ولا أعيان مشايخها!.

حكي القاضي عياض عن عبد الله بو يوسف التنيسي (ت ٢١٨هـ)، أنَّه قال: "كنا عند مالك وأصحابه حوله؛ فقال رجلٌ من أهل نصيبين(١٣٩٠):

يا أبا عبد الله، عندنا قومٌ يُقال لهم الصُّوفيَّة، يأكلون كثيراً، ثُمَّ يأخذون في القصائد، ثُمَّ يقومون فيرقصون، فقال مالكٌ: أصبيانٌ هم؟، قال: لا.

فقال: أمجانينُ هم؟، قال: لا.

قال مالكٌ: ما سمعنا أنَّ أحداً من أهل الإسلام يفعلُ هذا!، فقال الرجل: بل يأكلون، ثُمَّ يقومون، فيرقصون!، يلطمُ بعضهم رأسه، وبعضهم وجهه، فضحك مالكٌ، وقام إلى منزله. فقال أصحاب مالك للرجل: يا هذا أدخلت والله مشقَّةً

(١٣٩٠) هي: مدينة عامرةٌ من بلاد الجزيرة العربية، على جادة القوافل، بين الشام والموصل، ونصيبين أيضاً قريةٌ من نواحي حلب، وهي أيضاً مدينةٌ على شاطئ الفرات. انظر معجم البلدان (٥/ ٢٨٨-٢٥٩).

على صاحبنا، لقد جالسناه نيفاً وثلاثين سنةً، فما رأيناه ضحك إلا هذا اليوم! (١٣٩١).

وفي هذا النَّصِّ رأينا كيف أنكر الإمام مالك على هؤلاء المتصوفة، ورأى أن فعلهم هذا ليس من فعل العقلاء، وأخبر أن فعلهم هذا لا يكون إلا من صبيان مجتمعين على اللهو واللعب، أو فعل مجانين فقدوا عقولهم، ولمَّا أُخبر بأنهم عقلاء ضحك من خفَّة عقولهم، وما أدتهم إليه من إسقاط الحشمة، وإذهاب المروءة، وترك هدى الإسلام.

وفي هذا ردٌّ على السيوطيِّ وغيره الذي ينقل عن محمد بن طاهر المقدسي (ابن القيسراني) أنه روى بسنده عن مصعب بن الزبير، أنه قال: "حضرتُ مجلس مالك بن أنس، فسأله أبو مُصعب عن السماع، فقال مالك: أهل العلم ببلدنا لا يُنكرون ذلك، ولا يقعدون عنه، ولا يُنكره إلا غبيٌّ جاهل، أو ناسكٌ عراقيّ غليظ الطبع"(١٣٩٢).

(١٣٩١) انظر: ترتيب المدارك (١/ ١٨٠). ومناقب مالك؛ للزواوي (ص ١٥٨)، والمعيار المعرب للونشريسي (١١/ ٤١).

(١٣٩٢) تأييد الحقيقة العلية للسيوطي (ص ٧٢).

أما محمد بن طاهر المقدسي (ت ٥٠٧هـ)، فيقول: فيه الصفدي: "كان داودي –ظاهريَّ– المذهب، فمن أثنى عليه فلحفظه الحديث وإلا فالجرح أولى به .. "(١٣٩٣)، وقال الذهبيُّ: "له انحراف عن السنة إلى تصوف غير مرضى"(١٣٩٤).

وإذا نظرنا في سند هذه القصَّة، رأينا أن محمد بن طاهر المقدسي: يرويها عن ظفر بن الداعي، قال: أخبرنا أبو عبد الرحمن فيما كتب به إليَّ. قال: سمعت أبا سهل محمد بن سليمان الصعلوكي يقول: سمعت أبا محمد الدرستي يقول: بلغني عن مصعب الزبيري"(١٣٩٥)، وذكر القصة.

وهذه القصة يرويها ظفر بن الداعي مكاتبةً عن أبي عبد الرحمن السُّلمي (الذي نجزم بأنَّه وضع على الأئمَّة أخباراً جُلُّها كذب)، ثُمَّ يرويها الصعلوكي عن رجلٍ مجهولٍ (أبو محمد الدرستي!)، ثمَّ هو يرويها بلاغاً عن مصعب الزبيري، ولذا فهذا إسنادٌ ضعيفٌ جداً، لا تقوم به حُجَّة.

وقد البيهقيُّ في (شعب الإيمان) عن أبي عبد الرحمن السُّلمي، قال: سألت الإمام أبا سهل محمد بن سليمان الصُّعلوكي، عن السماع، فقال: " يستحب ذلك لأهل

(١٣٩٣) انظر: معجم المفسرين، عادل نويهض (٢/ ٥٤٠).

(١٣٩٤) ميزان الاعتدال للذهبي (٣/ ٥٨٧).

(١٣٩٥) كتاب السماع؛ لابن القيسراني (ص ٤٦).

الحقائق، ومباح ذلك لأهل الورع، ويكره ذلك للفساق، ومن يسمعه بطراً"، وظاهر هذا الأثر التلاعب بالدِّين، والاستهتار بالشرائع، وإن لله وإنا إليه راجعون [١٣٩٦].

ويذكر القيسراني قصَّةً أنكرُ من هذه، فيقول: " أخبرنا أبو بكر أحمد بن علي، قال: أخبرنا محمد بن الحسين الصوفي، قال حدثنا الحسين بن أحمد، قال: سمعت أبا العباس الفرغاني يقول: سمعت صالح بن أحمد بن حنبل يقول: كنتُ أحب السماع، وكان أبي يكره ذلك، فواعدتُ ليلة ابن الخبازة فمكث عندي إلى أن علمت أن أبي نام، فأخذ يغني، فسمعت حسه فوق السطح، فصعدت فرأيت أبي فوق السطح يستمع ما يغنى. وذيله تحت إبطه، وهو يتبختر كأنه يرقص"[١٣٩٧]، فيا لله كيف تجرَّأ هؤلاء المتصوفة على الإمام أحمد نقل مثل هذه الحكايات الكاذبة، التي ينسبون فيها الرقص له، وبطلان سنده ظاهرٌ جداً، وأعجب من السيوطي الذي نقل مثل هذه الحكاية كيف يُقرُّها في كتبه[١٣٩٨] ، ويُشير إليها دون نكير !.

(١٣٩٦) رواه البيهقي في الشعب (ح: ٤٧٦١)، وانظر: تأييد الحقيقة العلية؛ للسيوطي (ص ٧٣).

(١٣٩٧) كتاب السماع؛ لابن القيسراني (ص ٤٧).

(١٣٩٨) تأييد الحقيقة العلية؛ للسيوطي (ص ٧٢).

وحتى يقطع الصُّوفيون القول بحلِّ السماع، جمعوا لنا الفقهاء والمتكلمين على حلِّ السماع في سندٍ واحد، في دارٍ واحدة، وبات الأمر كأنَّه إجماعٌ عندهم، ونقل لهم ابن القيسراني بسنده، عن أبي علي محمد بن أحمد الهاشمي!: أن أبا بكر الأبهري شيخ المالكيين، وأبا القاسم الدركي شيخ الشافعيين، وطاهر بن الحسن شيخ أصحاب الحديث، وأبا الحسن بن سمعون شيخ الوعاظ والزهاد، أبو بكر بن الباقلاني شيخ المتكلمين، حضروا مجلساً للسماع في دار عبد العزيز بن الحارث التميمي شيخ الحنابلة سنة سبعين وثلثمائة!! في دعوة عملها لأصحابه، فقال أبو علي: لو سقط السقف عليهم لم يبق بالعراق من يُفتى في حادثةٍ بسُنَّة!![١٣٩٩]. أما ما سمعه هؤلاء من إنشاد أبو عبد الله غلام بابا!، فهو:

خطت أناملها في بطن قرطاس ... رسالة بعبير لا بأنفاسِ

ابرز فديتك قف لي من غير محتشم ... فإن حبك لي قد شاع في الناس

فكان قولي لمن أدى رسالتها ... قفي لأمشي على العينين والراس[١٤٠٠].

(١٣٩٩) كتاب السماع؛ لابن القيسراني (ص ٤٧).

(١٤٠٠) كتاب السماع؛ لابن القيسراني (ص ٤٧).

ولا ينقضي عجبي من كَذَبَةِ المتصوفة الذين يرسلون أخبار حضور مجالس السَّماع إلى أئمة الفقه والورع والديانة، وهم أجلُّ مما ذكره هؤلاء عنهم، فيقول القونوي في شرح التعرُّف: "قد حضر هذه المجالس من المتأخرين عز الدين بن عبد السلام، والشيخ تقي الدين بن دقيق العيد، وغيرهما من العلماء"[١٤٠١] .

ويذكرون عن الشيخ عز الدين بن عبد السلام، وهذا أمرٌ لا دليل عليه، سيما وأن الشيخ عز الدين بن عبد السلام لم يدخل بغداد قط حتى عام (٥٩٧ هـ)، وذلك أمرٌ مُستبعدٌ جداً[١٤٠٢].

وأفضلُ ما يُقال في هذا المقام: لم يكن النبيُّ ﷺ ولا أصحابه، ولا السَّلف الصالحون من بعدهم يستحضرون قوَّالاً ولا صاحب شبَّابةٍ ويقعدون له ليغنيهم كما يفعل المتصوفة، وإذا ثبت الاحتجاج بالسلف الماضين، سقط الاحتجاج بالمتأخرين، وقد ثبت عن المتأخرين خلاف ما نقله المتصوفة، فثبت كذب الصُّوفية، وعلت راية الاتباع والسُّنة، والحمد لله.

(١٤٠١) تأييد الحقيقة العلية (ص ٧٣).

(١٤٠٢) طبقات الشافعية، للسبكي (٨/ ٢١٤-٢١٥).

وكان مالكٌ يرى أنَّ الغناء من طبع الفُسَّاق؛ قال إسحاق بن عيسى الطباع: سألتُ مالكاً عما يترخَّصُ فيه أهل المدينة من الغناء (السَّماع)؟؛ فقال: إنما يفعله عندنا الفُسَّاق![١٤٠٣] ، وذهب إلى تحريمه القاسم بن محمد من علماء أهل المدينة، وكذلك علماء أهل مكة؛ كمجاهد، وعطاء، وعلماء أهل الشام كمكحول والأوزاعي، علماء أهل مصر، كالليث بن سعد، وعلماء أهل الكوفة وغيرهم[١٤٠٤].

وأما الصُّوفيَّة فيرونه ديناً، وقربةً، وعملاً صاحاً!، وهو دأبهم وديدنهم في كل قرنٍ، يقول أحد هؤلاء: "الرقص تعبيرات الأعضاء، وهو مما جرى عليه الشيوخ قرناً بعد قرن، وتجويزه بناءاً على كونه عليه الجمهور! واتفق عليه الصُّوفيَّة، وبه عمل الناسُ شرقاً وغرباً!!"[١٤٠٥] ، بل ويجوزون آلات الطرب في هذه المجالس، وهي عندهم مما يعين على ذكر الله!.[١٤٠٦]

(١٤٠٣) تلبيس إبليس؛ لابن الجوزي (ص ٢٨٢). وإغاثة اللهفان؛ لابن القيم (١/ ٢٢٧).

(١٤٠٤) نزهة الأسماع؛ لابن رجب (ص ٧١).

(١٤٠٥) إغاثة اللهفان؛ لابن القيم (١/ ٢٣٩).

(١٤٠٦) الحاوي في فتاوي عبد الله بن الصديق الغماري (ص ٢٨).

قال أبو عبد الله القرطبي المالكي: "فأما ما ابتدعته الصوفية اليوم من الإدمان على سماع المغاني بالآلات المطربة من الشبابات والطار والمعازف والأوتار فحرام".[١٤٠٧]

وبناءً على ماسبق، فأنت ترى موقف الإمام مالك من السَّماع الصُّوفيِّ واضحاً جداً؛ فهو ينكره، وينهى عنه كما هو مُبيَّنٌ في عباراته، وقال في المدونة: "وأكره الإجارة على تعليم الشعر، والنوحُ، وعلى كتابة ذلك. قال القاضي عياض: معناه نوح المتصوفة، وإنشادهم على طريقة النوح والبكاء، ومن اعتقد أنَّ في ذلك قربةٌ إلى الله تعالى فهو ضالٌ مُضل، ولم يبعث الله أحداً من أنبيائه عليهم السلام باللهو والراحة والغناء، وإنما بعثوا بالبرِّ والتقوى ومخالفة الهوى !".[١٤٠٨]

ونقل عبد الكريم القشيريُّ (من أئمة المتصوفة!)، ومحمد بن طاهر المقدسي الصُّوفي (ت ٥٠٧هـ)، عن الإمام مالك أنَّه رخَّص في الغناء!، ولا يصحُّ ذلك عنه، وهو خلاف المشهور عنه كما تقدَّم.

(١٤٠٧) تفسير القرطبي (١٥/ ٥٤).

(١٤٠٨) المعيار المعرب (١١/ ٣٣).

قال أبو العباس القرطبي: "وقد حكاه بعض الشافعية والقشيري عن مالك، ولا يصحُّ عنه بوجهٍ، ولا عن أحدٍ من أصحابه".[١٤٠٩]

وقال السمعانيُّ عن محمد بن طاهر المقدسي: "له في كتاب في إباحة الغناء والرقص واللهو مناكير، فإنه روى عن مالك وغيره من أئمة الهدى المتقدمين حكايات عنهم منكرةٌ باطلةٌ قطعاً".[١٤١٠]

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: "ولم يُحفظ عن أحدٍ من سلف الأمة وأئمتها أنَّهم سمعوا الغناء رجاء الثواب بفعله، أو التقرُّبَ إلى الله، بل المحفوظ عنهم أنَّهم رأوا هذا من ابتداع الزنادقة".[١٤١١]

وقال في موضعٍ آخر: "وأما نقلهم لإباحته عن مالكٍ وأهل الحجاز كلهم، فهذا غلطٌ من أسوأ الغلط، فإن أئمة الحجاز على كراهته وذمِّه، ومالكٌ نفسه لم يُختلف في قوله وقول أصحابه في ذمه وكراهته".[١٤١٢]

(١٤٠٩) كشف القناع (ص ٥٧، ١٦٠).

(١٤١٠) كشف القناع (ص ٥٧، ١٦٠).

(١٤١١) الاستقامة (١/ ٢٣٧– ٢٣٨).

(١٤١٢) الاستقامة (١/ ٢٧٢– ٢٧٣).

وقال ابن القيِّم: "وما نقلوه عن مالك بن أنس من إباحته الغناء فهذا من أفحش الغلط وأقبحه".[١٤١٣]

وبهذا يتبين أنَّ ما نُسب إلى الإمام مالك من إباحة الغناء كذبٌ وافتراء، ويُلاحظ أن الاتهام مصدره أهل التصوُّف الذين يُبيحون السَّماع والغناء المُحرَّم، وقد جاء الاتهام أيضاً من أبي الفرج علي بن الحسين الأصبهاني صاحب كتاب الأغاني، وهو مُتَّهمٌ بالتشيُّع!، وهو الذي روى الحكاية الذي ذكرها ابن طاهر.

قال أبو بكر الطرطوشي: "وأمَّا القضيبُ والسَّماع، فأول من اتخذه الزنادقةُ، ليشغلوا به المسلمين عن كتاب ربهم، وسُنَّةِ نبيِّهم ﷺ، وإنما كان يجلس النبيُّ وأصحابه كأنما على رؤوسهم الطير من الوقار، فينبغي للسلطان ونوابه أن يمنعهم من الحضور في المساجد وغيرها، ولا يحلُّ لأحدٍ ؤمن بالله واليوم الآخر أن يحضرهم، ولا يعينهم على باطلهم، وهذا مذهب مالك، وأبي حنيفة، والشافعي، وأحمد بن حنبل، وغيرهم من أئمة المسلمين، وبالله التوفيق".[١٤١٤]

بيان بطلان ما نُسب للإمام مالك في التصوُّف:

(١٤١٣) انظر: نزهة الأسماع (ص ٦٧- ٧١).

(١٤١٤) الجامع لأحكام القرآن (١١/ ٢٣٧- ٢٣٨). وانظر: المدخل؛ لابن الحاج (٣/ ١٠٨).

١ . بطلان ما نُسب إليه من الكلام في الحقيقة، وتقسيمه للدِّين إلى شرائع وحقائق. قال أحمد بن محمد بن عجيبة (ت ١٢٢٤هـ) في (إيقاظ الهمم في شرح الحكم): "قال الإمام مالك: من تصوف ولم يتفقه فقد تزندق، ومن تفقه ولم يتصوف فقد تفسَّق، ومن جمع بينهما فقد تحقَّق !".[١٤١٥]

وهذا النصُّ لا يصحُّ نسبته إلى الإمام مالك؛ لأنَّ سنده مطعونٌ فيه من جهة أنَّه جاء عن أُناسٍ ينتحلون التصوُّف، وقد جاءوا بما يؤيد بدعتهم، وهذا النوع من النصوص يندرج تحت الكلام المصطنع المنسوب كذباً وزوراً إلى الأئمة الأعلام.

كذلك فإنَّ متنه أبعد من أن يصدر عن إمام دار الهجرة، وهو المُتَّبِعُ للكتاب والسُّنَّة، فلا يخرج عن هديهما إلى شيء من الباطل، ولم يرد عنه ولا عن تلامذته، ولا في كتب التراجم المشهورة أنَّه قال مثل هذا القول!، فكيف يُقرُّهم وهم على غير القرار والجادَّة، وسبحان الله العظيم!..

وهذا المنهج في الكذب ليس بغريبٍ على المتصوفة الذين يحاولون جذب الناس إلى معتقداتهم بأيَّة طريقة، كما فعل الشعرانيّ الكذَّاب حين أدرج أعلام

(١٤١٥) انظر: إيقاظ الهمم في شرح الحكم؛ لابن عجيبة (١/ ٥)، ومقدم العرف (ص ٨)، وقواعد التصوف، لأحمد زروق (ص ١٥)، وتنوير القلوب؛ لمحمد أمين الكردي (ص ٤٦٨).

الصحابة وكبارهم، وأئمة الدِّين والعلم ضمن أعلام التصوُّف، وتابعه في ذلك أبو الفيض المنوفي الصُّوفي!.[١٤١٦]

أما كلام الإمام مالك عن (الزندقة)؛ فقد كان من أشدّ الناس نهياً عن الاشتغال بعلم الكلام، وعن مجالسة المتكلمين؛ لأنَّ هذا العمل مؤدٍّ لا محالة إلى الزندقة، ومخالفٌ لما عليه السَّلف الصالح.

كما أخرج ذلك الهرويُّ، عن إسحاق بن عيسى، قال: "قال مالك: من طلب الدين بالكلام تزندق، ومن طلب المال بالكيمياء (السِّحر) أفلس، ومن طلب غريب الحديث كذب!".[١٤١٧]

وأخرج أبو نعيم عن الإمام الشَّافعيّ: "كان الإمام مالك بن أنس إذا جاءه بعض أهل الأهواء، قال: أما إني على بينةٍ من ربي وديني، وأما أنت فشَاكٌّ، فاذهب إلى شاكٍّ مثلك فخاصمه!".[١٤١٨]

(١٤١٦) انظر: جمهرة الأولياء وأعلام التصوف (١/ ١٥٥).

(١٤١٧) ذم الكلام وأهله، أبو إسماعيل الهروي (٥/ ٧١).

(١٤١٨) حلية الأولياء (٦/ ٣٥٥).

والحقُّ أن الشريعة عند أهل السُّنَّة هي الحقيقة، فلا يوجد فصلٌ بينهما، فالصلاة – مثلاً– حركات مُعيَّنة، ولكنها تستلزم الخشوع والخضوع والإنابة، وهكذا كل الأحكام الشرعية، القيام بها يعني الإتيان بها على تمامها كما أراد الله ﷿.

٢. بيان بطلان ما نُسب إلى الإمام مالك في التوسُّل:

روى القاضي عياض في كتابه (الشفاء): "قال: حدثنا القاضي أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن الأشعري، وأبو القاسم بن لقي الحاكم، وغير واحدٍ فيما أجازوا فيه، قالوا: حدثنا أبو العباس أحمد بن عمر بن لهاث، حدثنا أبو الحسن علي بن فهر، حدثنا أبو بكر محمد بن أحمد بن الفرج، حدثنا أبو الحسن عبد الله بن المنتاب، حدثنا يعقوب بن إسحاق بن أبي إسرائيل، حدثنا ابن حميد، قال: ناظر أبو جعفر أمير المؤمنين مالكاً في مسجد رسول الله ﷺ؛ فقال له مالك: يا أمير المؤمنين لا ترفع صوتك في هذا المسجد، فإن حرمته ﷺ ميتاً كحرمته حيّاً، فاستكان لها أبو جعفر، وقال: يا أبا عبد الله أستقبل القبلة وأدعو، أم أستقبل رسول الله ﷺ، فقال: ولم تصرف وجهك عنه، وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم ؏، بل استقبله واستشفع به، فيشفعك الله".[١٤١٩]

(١٤١٩) الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض (٢/ ٤٠– ٤١).

وهذه الحكاية لا تصحُّ نسبتها إلى الإمام مالك؛ لأنَّ سندها مظلمٌ منقطع، كما أشار إلى ذلك صاحب الصارم المنكي، قائلاً: "وهذه الحكاية التي ذكرها القاضي عياض، ورواها بإسناده عن مالك ليست بصحيحه عنه، وفيه ردٌّ على من قال إسنادها جيِّد، وهو مخطئٌ في قوله، بل إسنادها مظلمٌ منقطع، وهو مشملٌ على:

من يُتَّهمُ بالكذب، وعلى من يُجهل حاله، وهو (ابن حميد)، هو محمد بن حميد الرازي، وهو ضعيف، كثير المناكير، وقد ظنَّ المعترض أنَّ ابن حميدٍ هذا هو أبو سفيان محمد بن حميد المعمري أحد الثقات، المخرج لهم في صحيح مسلم، وقال: إن الخطيب ذكره في الرواة عن مالك، وقد أخطأ فيما ظنَّه خطأً فاحشاً، ووهم وهماً قبيحاً، فإن محمد بن حميد المعمري رجلٌ متقدِّمٌ، ولم يدركه يعقوب بن إسحاق بن أبي إسرائيل (راوي الحكاية عن ابن حميد)، بل بينهما مفازةٌ بعيدة، وقدر روى المعمري عن هشام بن حسان، ومعمر، والثوري، وتوفي سنة (١٨٢هـ)، قبل أن يولد يعقوب بن إسحاق بن أبي إسرائيل.

وأما محمد بن حميد الرازي، فإنه في طبقة الرواة عن المعمري؛ كأبي خيثمة، وابن نُمير، وعمرو الناقد، وغيرهم، وكانت وفاته سنة (١٤٨هـ)، فرواية يعقوب بن إسحاق عنه ممكنة، بخلاف روايته عن المعمري فإنها غير ممكنة، وقد تكلم في

محمد بن حميد الرازي، وهو الذي رويت عنه هذه الحكاية من غير واحدٍ من الأئمة، ونسبه بعضهم إلى الكذب.. ".[١٤٢٠]

وأما من حيث (المتن)، فيتبين من ركاكة اللفظ، وأسلوب الألفاظ أنَّه جاء بغير اللغة العربية الفصيحة، فإن معنى قوله: "استشفع به فيشفعك الله به"، لحنٌ صريح، فإن الاستشفاع هو طلب الشفاعة من المستشفع به، فمعنى استشفع به أي: اطلب الشفاعة يشفع لك الرسول، فالرسول شافع، وعليه كان الصحيح أن يقول: استشفع به، فيشفعك الله فيه، لا أن يُقال: فيُشَفِّعك الله!، وكأنَّ الطالب للشفاعة هو الذي يملك الشفاعة، والحقُّ أنَّ الذي يشفع هو الشافع لا المشفوع له باليقين، وبهذا يتبين اللحن في العبارة، ومثل الإمام مالك العربي مولده ونشأته، مُحالٌ أن يقع في مثل هذا الخطأ الفاضح! .

وأما من حيث (الموضوع)، فإن الرواية تدلُّ على أنها كذبٌ على الإمام مالك، وذلك مما فيه: "بل استقبله"؛ لأنَّ الإمام مالك دوَّن الفقه، وروى عنه أصحابه الثقات، وفيه: "لا يستقبل القبلة وقت الدعاء".[١٤٢١]

(١٤٢٠) الصارم المنكي في الرد على السبكي، لمحمد بن أحمد بن عبد الهادي (ص ٢٥٥- ٢٥٧).

(١٤٢١) انظر: البصائر للمتوسلين بالمقابر، للشيخ محمد طاهر (ص ٣٨٥- ٣٨٦).

وقوله: "استشفع به"، والاستشفاع به لم يؤثر عن أحدٍ من الصحابة رضوان الله عليهم، ولا التابعين بعد الممات، وقد مرَّت بهم حالات عسيرة، فلم يحاولوا الذهاب إلى القبر والاستشفاع به، بل كانوا يقصدون الزيارة للسلام، كما جاء عن ابن عمر ﷺ أنه لا يقدم من سفرٍ إلا ذهبَ وسلَّم على النَّبيّ ﷺ، وصاحبيه، ولا يزيد على ذلك، وإن كان جمهور الصحابة لا يفعلون ذلك (أي: قصد القبر بالزيارة)، كما أنهم يدخلون المسجد النبوي في كل الأوقات، وم يُنقل عنهم لفظ الزيارة، بل كره مالكٌ أن يُقال: زرنا قبر النَّبيّ ﷺ.

وقد عقد القاضي عياض باباً لحرمة النَّبيّ ﷺ بعد موته، وتوقيره، وتعظيمه، ثم أورد هذه الواقعة، ولم يقل، ولم يعقد باباً للاستشفاع به ﷺ؛ فكأنَّه استنكر هذه الرواية.

ثمَّ إنَّ الله سبحانه نزَّه (مالكاً) عن البدعةِ، حتى استبعد تنحنح المؤذن فوق المنارة، ونهى الذيقال له: أحرم من عند القبر!، وقال له: لا تفعل، فإني أخشى عليك الفتنة في هذه، فإنما هي أميالٌ أزيدها. قال: وأيُّ فتنةٍ أعظم من ترى أنك سبقت إلى فضيلةٍ قصَّر عنها رسول الله ﷺ.

وذكر الشاطبيُّ في كتاب (الاعتصام) كثيراً من ذلك، وقد عُلم مما ذكرنا أن هذه الواقعة المنكرة كذبٌ على الإمام مالك رحمه الله، "وقد كذبوا عليه في أشياء كثيرة ينسبون إليه مثل أنه كان يأخذ طنبوراً ويضرب ويُغنِّي.. حتى إن كثيراً من المصنفين يقولون في إباحة السَّماع؛ كأبي عبد الرحمن السُّلمي، والقشيري، وأبي حامد، ومحمد بن طاهر المقدسي، وغيرهم، يذكرون عن مالك وأهل المدينة، وهو كذب".(١٤٢٢)

وبذلك نتوصل إلى أن التوسل المنسوب إلى الإمام مالك رحمه الله باطلٌ من حيث السند، والمتن، والموضوع، ولأنه توسلٌ غير مشروع، ومناقضٌ لعقيدة سلف هذه الأمة، وهي خلاف ما اعتقدوا وعملوا به.

والتوسُّل المشروع إلى الله سبحانه وتعالى، الذي تُقضى به الحوائج، وتنال به الرغائب، وتنجح به المطالب، إما أن يكون بأسمائه الحسنى وصفاته العليا، أبو بعملٍ من أعمال الداعي سواءً بفعل المأمورات، أو بترك المحظورات، وإما أن يكون التوسُّل بدعاء الرجل الصالح من الأحياء.(١٤٢٣)

(١٤٢٢) انظر: البصائر للمتوسلين بالمقابر، للشيخ محمد طاهر (ص ٣٨٨– ٣٩٠).

(١٤٢٣) انظر: التصوف في القرنين الثاني والثالث الهجريين، أبو الخير تراسون (ص ٣٠٣– ٣٠٦).

فهذا هو التوسُّل المشروع المعروف عند سلف هذه الأمة، وهو التوسُّل الذي عرفه الأئمة الأربعة، أما توسُّل هؤلاء المتصوفة فبعيدٌ عن الدِّين والعقل والفطرة، وهو بابٌ من أبواب (الشرك بالله تعالى!)..

المبحث الثالث

موقف الإمام الشَّافعيّ (١٥٠– ٢٠٤هـ) من التصوُّف [١٤٢٤]

كان حديث الإمام الشَّافعيُّ عن التصوُّف في أول مقدمه إلى مصر سنة (١٩٩هـ)، وذلك عندما قال مقولته المشهورة: "تركتُ بغداد وقد أحدث الزنادقة فيها شيءٌ يسمونه السَّماع، أو "التغبير"، يصدون به الناس عن القرآن"[١٤٢٥].

والزنادقة عند الشَّافعيّ هم المتصوفة في بدايات انحلالهم، وكانت قضية (السماع) جديدة، بينما كان أمر الزنادقة معلوماً قبل ذلك[١٤٢٦].

قال ابن منظور في (لسان العرب): "والمُغَبِّرة قَوْمٌ يُغَبِّرون بِذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى بِدُعَاءٍ وَتَضَرُّعٍ، كَمَا قَالَ: عِبَادُكَ المُغَبِّره ... رُشَّ عَلَيْنَا المَغفِرَه!.

(١٤٢٤) انظر: التصوف في القرنين الثاني والثالث الهجريين، أبو الخير تراسون (ص ٣٢٠– ٣٦٤).

(١٤٢٥) انظر: مناقب الشافعي؛ للبيهقي (١/ ٢٨٣)، والتصوف في القرنين الثاني والثالث الهجريين، لأبي الخير تراسون (ص ١٦٠، ٣٣٧). والتصوف والمجتمع؛ لعبد اللطيف الشاذلي (ص ١٠٥)، وآداب الشافعي ومناقبه (ص ٣٠٩– ٣١٠)، وحلية الأولياء (٩/ ١٤٦)، وتلبيس إبليس (ص ٢٣٠).

(١٤٢٦) الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة، عبد الرحمن عبد الخالق (ص ٣٣).

قَالَ الأَزهري: وَقَدْ سَمَّوْا مَا يُطَرِّبون فِيهِ مِنَ الشِّعْر فِي ذِكْرِ الله تَغْبيراً كأَنهم تناشَدُوهُ بالأَلحان طَرَّبوا فَرَقَّصوا وأَرْهَجوا؛ فسُمّوا مُغبِّرة لِهَذَا الْمَعْنَى.

قَالَ الأَزهري: وَرُوِّينا عَنْ الشَّافِعِيّ ﷺ، أَنه قَالَ: أَرى الزَّنادِقة وَضَعوا هَذَا التَّغْبِير لِيَصُدّوا عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ.

وَقَالَ الزَّجَّاجُ: سُمّوا مُغَبِّرين لِتَزْهِيدِهِمُ النَّاسَ فِي الْفَانِيَةِ، وَهِيَ الدُّنْيا، وَتَرْغِيبِهِمْ فِي الْآخِرَةِ الْبَاقِيَةِ"(١٤٢٧).

ويدلُّ على ذلك، ما حكاه القشيري عن أحمد بن مقاتل العتكي، قال: "لما دخل ذو النون المصري بغداد، اجتمع إليه الصُّوفيَّة، ومعه قوَّالٌ يقولُ شيئاً، فاستأذنوه بأن يقول بين يديه، فأذن له؛ فابتدأ يقول:

صغيرٌ هواكَ عذَّبني ... فكيفَ بهِ إذا احتنكا

وأنتَ جمعتَ مِن قلبِي... هوىً قد كانَ مُشتركا

أما تَرثِي لِمُكتئِبٍ... إذا ضَحِكَ الخَلِيُّ بَكَى

(١٤٢٧) انظر: لسان العرب؛ لأبي الفضل محمد بن مكرم بن منظور (ت ٧١١هـ)، (٥/ ٥).

قال: فقامَ ذو النُّونِ وسقط على وجهه، والدَّمُ يقطرُ من جبينه!.

ثُمَّ قامَ رجلٌ من القَومِ يتواجد!

فقال له ذو النُّونِ: (والَّذِي يراكَ حِيْنَ تَقُومُ)/الشعراء: ٢١٨/، فجلس الرَّجُلُ!"(١٤٢٨).

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة: "فهذا ونحوه هو الذي أشار إليه الأئمَّةُ؛ كالشَّافعيِّ في قوله: " خلفت بغداد شيئاً أحدثته الزنادقة يسمونه التغبير يصدُّون به النَّاس عن القرآن"، فيكون ذو النُّون الذين حضروا التغبير الذي أنكره الأئمة وشيوخ السَّلف"(١٤٢٩).

ولا يُقال إن الذي ذمَّه الشافعيُّ هو ما كان مع المردان والنسوان، أو ما صاحبه المعازف؛ فقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: "والذين حضروا السماع المحدث الذي جعله الشافعي من إحداث الزنادقة لم يكونوا يجتمعون مع

(١٤٢٨) انظر: الاستقامة؛ لابن تيمية (١/ ٣٨٤- ٣٨٥)، والرسالة القشيرية (ص ٣٤٤).

(١٤٢٩) انظر: الاستقامة؛ لابن تيمية (١/ ٣٨٥).

مردان ونسوان ولا مع مصلصلات، وشبابات وكانت أشعارهم مزهدات مرققات"[١٤٣٠].

ويبرز موقف الشَّافعيِّ من التصوُّف، فيما رواه البيهقي[١٤٣١] وغيره، عن يونس بن عبد الأعلى: لو أن رجلاً تصوَّف من أول النهار، لم يأتِ عليه الظُّهر إلا وجدته أحمق"[١٤٣٢].

وفي رواية إبراهيم بن المولد، عن الشافعيِّ أنه قال: "لا يكونُ الرجلُ صوفيَّاً حتى يكون فيه أربع خصال: كسولٌ، أكولٌ، نئومٌ، كثيرُ الفضول".[١٤٣٣]

وعن يونس بن عبد الأعلى أيضاً، أنه قال: ما لزم أحدٌ الصُّوفيَّة أربعين يوماً، فعاد إليه عقله أبداً، وأنشد الشَّافعيُّ:

(١٤٣٠) انظر: مجموع الفتاوى (١١/ ٥٣٤).

(١٤٣١) هو: أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، صاحب التصانيف، قال عنه الذهبي: "الإمام الحافظ العلامة، شيخ خراسان"، انظر: تذكر الحفاظ (٣/ ١١٣٢)، وطبقات الحفاظ (ص ٤٣٣).

(١٤٣٢) رواه البيهقي في مناقب الشافعي (٢/ ٢٠٨)، وأبو نُعيم في الحلية (٩/ ١٥١). وانظر: تلبيس إبليس؛ لابن الجوزي (ص ٤٤٧).

(١٤٣٣) رواه البيهقي في مناقب الشافعي (٢/ ٢٠٨).

وَدَعِ الذين إذا أتوكَ تنسَّكوا .. وإذا خلوا كانوا ذئابَ حِقافِ.[١٤٣٤]

وقد بسط الصُّوفية ألسنتهم بالسوء والكذب على أئمة العلم والدين، فنسبوا الشافعي إلى التصوُّف، كما يقول الجُنيد: "كان الشَّافعيُّ من المريدين الناطقين بلسان الحقِّ في الدِّين".[١٤٣٥]

وقال البيهقيُّ في (مناقبه): فقد حُكي عنه أنه عاشرهم، وأخذ عنهم![١٤٣٦]، وهي حكايةٌ كاذبة، لا تقومُ على ساق، ونحن ننكر هذه الحكاية ونرفضها!.

كذلك رووا عنه، أنه قال: "ما رأيتُ صوفياً قط إلا مُسلم الخواص"[١٤٣٧]، ولا ندري من هو مسلمٌ الخواصُ!.

يقول الشيخ عبد الغني الدقر: "وقد نُسب إلى الشافعيِّ كثيرٌ من الشِّعرِ لم تصح نسبته إليه.. وهناك من جمع له ديواناً، ليست تصحُّ نسبةُ كثيرٍ مما جاء فيه

(١٤٣٤) تلبيس إبليس؛ لابن الجوزي (ص ٤٤٧).

(١٤٣٥) انظر: توالي التأسيس؛ لابن حجر (ص ٦١).

(١٤٣٦) مناقب الشافعي؛ للبيهقي (٢/ ٢٠٩).

(١٤٣٧) رواه البيهقي في مناقب الشافعي (٢/ ٢٠٨).

إليه، ولو كان الشافعيُّ يهتمُّ بأن يكون له ديوان؛ لنهض إلى ذلك كثيرٌ من تلاميذه".[١٤٣٨]

أما عن مذهبه في (معرفة الله سبحانه)؛ فكان قائماً على الاستدلال بالنظر في آيات الله الكونيَّة، والشرعيَّة، ويرى أن الاستدلال بالمخلوق على الخالق هي أصلح الطرق لمعرفة الحقِ جلَّ جلاله، من غير حاجةٍ إلى فلسفة التصوُّف، ولا ثرثرة أهل الكلام.

أمَّا عن مذهبه في (العبوديَّة)؛ فقد كان مُتعبِّداً، ناسكاً، مُقبلاً على القرآن، قائماً بالليل، صائماً بالنهار، مع حُسنِ ثقةٍ بالله، وتوكُّلٍ عليه.

وكان قانعاً برزقه، مُقبلاً على عمله، مشتغلاً بعلمه، يجود بما عنده من المال والطعام، ويبذل جاهه ونفسه لمن يحتاج ذلك، وكان يقول: "السَّخاءُ والكرم يُغطيان عيوب الدُّنا والآخرة بعد أن لا يلحقهما بدعة".[١٤٣٩]

وأما مذهبه في (اتِّباع الأثر والسُّنن)، فكان يرى الاستمساك بها،

(١٤٣٨) الإمام الشافعي، عبد الغني الدقر، (ص ٢٨٣- ٢٨٤).

(١٤٣٩) رواه البيهقي في مناقب الشافعي (٢/ ٢٢٧).

فعن الربيع، قال: سمعتُ الشَّافعيَّ يقول –وروى حديثاً– فقال له رجلٌ: تأخذ بهذا يا أبا عبد الله، فقال: متى رويتُ عن رسول الله ﷺ حديثاً، فلم آخذ به والجماعة –يعني أصحابه– فأشهدكم أن عقلي قد ذهب".[١٤٤٠]

وقال الشَّافعيُّ: "من تَبعَ سُنَّة رسول الله ﷺ وافقته، ومن غلط فتركها خالفته، وصاحبي الذي لا أُفارقه من لزم الثابت عن رسول الله ﷺ وإن بَعد، والذي أُفارقه من لم يقبل سُنَّة رسول الله ﷺ وإن قرب".[١٤٤١]

وعن حرملة بن يحيى، قال: سمعتُ الشَّافعيَّ يقول: "كل ما قُلتُ عن النَّبيِّ ﷺ مما يصحُّ، خلاف قولي، فحديثُ النَّبيِّ ﷺ أولى، ولا تُقلِّدوني".[١٤٤٢]

وعن الربيع بن سُليمان، قال: سمعتُ الشَّافعيَّ يقول: "كُلُّ مسألةٍ تكلمتُ فيها صحَّ الخبر فيها عن النَّبيِّ ﷺ عند أهل النقل بخلاف ما قلتُ، فأنا راجعٌ عنها، وبعد موتي".[١٤٤٣]

(١٤٤٠) رواه البيهقي في مناقب الشافعي (١/ ٤٧٣).

(١٤٤١) رواه البيهقي في مناقب الشافعي (١/ ٤٨٥).

(١٤٤٢) رواه البيهقي في مناقب الشافعي (١/ ٤٧٢).

(١٤٤٣) رواه البيهقي في مناقب الشافعي (١/ ٤٧٢).

وعن الربيع، قال: سمعتُ الشَّافعيَّ يقول: "إذا وجدتم سُنَّةً من رسول الله ﷺ خلاف قولي، فخذوا بالسُّنَّةِ، ودعوا قولي، فإني أقول بها".[١٤٤٤]

ولم يكن الشَّافعيُّ يعتقد أن للشريعة ظاهراً وباطناً كما يزعمُ الصُّوفيون، بل كان ينظر إلى الشريعة نظرة كلية متكاملة، ويُفسرها تفسيراً ظاهرياً، لا باطنياً كما يفعل الصُّوفية، وقد عقد الشيخ مُحمَّد أبو زُهرة فصلاً كاملاً بعنوان "الشافعيُّ يُفسِّر الشريعة تفسيراً مادياً على الظاهر لا على الباطن" .[١٤٤٥]

وموقفه من (السَّماع) فقد كان يُنكره، وهو "التغبير"، وقال ابن الجوزي: وقد كان رؤساء أصحاب الشافعي رضي الله عنهم ينكرون السماع.[١٤٤٦]

وقد قال فقيه بغداد أبو الطيب طاهر بن عبد الله الطبري (ت ٤٥٠هـ): ولا يجوز الغناء، ولا سماعه، ولا الضرب بالقضيب، قال: ومن أضاف إلى الشَّافعيِّ هذا فقد كذب عليه!. وقد نصَّ الشافعيُّ في كتاب (أدب القضاء)، على أنَّ الرجل إذا دام على سماع الغناء رُدَّت شهادته، وبطلت عدالته.[١٤٤٧]

(١٤٤٤) رواه البيهقي في مناقب الشافعي (١/ ٤٧٢).

(١٤٤٥) انظر: الإمام الشافعي؛ لمحمد أبو زهرة (ص ٣٣٥).

(١٤٤٦) تلبيس إبليس (ص ٢٨٣).

(١٤٤٧) تلبيس إبليس (ص ٢٨٣- ٢٨٤).

وفي هذا ردٌّ على القشيريِّ الصُّوفي، الذي زعم أنَّ الشَّافعيَّ لم يكن ليُحرِّمَ السَّماع، وإنما جعله مكروهاً للعوام!(١٤٤٨) ، ويُفهم من هذا إباحته للخواص.. وهذا باطل؛ لأنَّ السَّماع ليس بقُربةٍ، بل هو بدعةٌ وضلالة، وهو مُخالفٌ لكتابِ الله وسُنَّةِ رسول الله ﷺ، وإجماع الأمَّة، وهو أمرٌ أحدثه هؤلاء في الدِّين!.

أما عن بُغض الصُّوفيَّة للشَّافعيِّ، فيُحدثنا عنه عليُّ بن بحر الورَّاق، حيث يقول: كان الشافعيُّ رجلاً عَطِراً، وذلك أنه كان به باسور، وكان يجيء غلامه كل يوم بغالية –طيب– فيمسح بها الاسطوانة التي يجلس عليها، وكان إلى جنبه إنسانٌ من الصوفيَّة، وكان يُسمِّي الشَّافعيَّ بـ"البطال" (أي: صاحب الأباطيل)، يقول: هذا البطّال، وهذا البطَّال!! قال: فلما كان ذات يومٍ عَمِدَ إلى شاربه، فوضع فيه قَذراً، ثُمَّ جاء إلى حَلَقةِ الشَّافعيِّ، فلما اشتمَّ الشَّافعيُّ الرائحة أنكر ذلك، وقال –لأصحابه– فتِّشوا نعالكم، فقالوا: ما نرى شيئاً يا أبا عبد الله. قال: فيشتمُّ بعضكم بعضاً، فوجدوا ذلك الرجل، فقالوا: يا أبا عبد الله، هذا!. فقال: ما حملك على هذا ؟. قال: رأيتُ تجبَّركَ فأردتُ أن تتواضع لله!!.

قال: خذوه فاذهبوا به إلى عبد الواحد، وكان على الشرطة، فقولوا له: يقول لك أبو عبد الله: اعتقل هذا إلى أن ينصرف. قال: فلما خرج الشَّافعيُّ دخل عليه،

(١٤٤٨) الرسالة القشيرية (ص ٣٣٧).

فدعا به، فضربه ثلاثين دُرَّةً أو أربعين دُرَّةً، فقال: هذا ما تخطيت المسجد بالقذر، وصليت على غير الطهارة.(١٤٤٩)

أرأيتم كيف يحمل هؤلاء القذر والحقد على الإمام الشَّافعيِّ رحمه الله، ثُمَّ يخرج علينا من هؤلاء الحمقى، من يقول: الإمام الشافعيُّ كان صوفياً، فقد أراد هذا الخبيث أن يُنفِّر الناس من حول الإمام الشَّافعي؛ لأنه كان به الباسور، فوضع على شاربه الخرء –وهو جديرٌ به – ليشتمَّ الجالسون رائحة القذر، فيتَّهموا إمامهم بأنه لا يُحسن الطهارة، ولا الاستنجاء، فكيف لهم أن يأخذوا عنه الفقه والحديث، ثم لما افتضح أمره، اتَّهمَ الإمام بالتجبُّر والتكبُّر، وأنَّه يريد أن يُذلَّه ويتواضع له، فبئس هؤلاء القوم!.

(١٤٤٩) مناقب الشَّافعيِّ؛ للبيهقي (٢/ ٢٠٨- ٢٠٩).

- **بيان بُطلان ما نُسب للشَّافعيِّ في التصوُّف:**

١) بطلان ما رُوي عن الشَّافعيِّ في السَّماع:

نقل بعضُ المتصوفة، وغيرهم عن إسماعيل بن عُليَّة، قال: "كُنتُ أمشي مع الشافعيِّ –رحمه الله– وقت الهاجرة، فجُزنا بموضعٍ يقولُ فيه أحدٌ شيئاً، فقال: مِل بنا إليه، ثُمَّ قال: أيُطربُكَ هذا؟. قال: فقلتُ: لا!، فقال: مالكَ حِسٌّ!".(١٤٥٠)

وقد علَّق شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله)، على هذا النص؛ فيقول: "وقد كَانَ مستغنيا عَن أَن يُستشهد على الامور الحسية بحكايةٍ مكذوبة على الشَّافِعِي، فَإِن إِسْمَاعِيل بن علية شيخ الشَّافِعِي لم يكن مِمَّن يمشي مَعَه، وَلم يرو هَذَا عَن الشَّافِعِي، بل الشَّافِعِي روى عَنهُ، وَهُوَ من أجلاء شُيُوخ الشَّافِعِي..." إلى أن قال:

"فَهَذِهِ الْحِكَايَة يعلم أنها مُفتراة مَن لَهُ أدنى معرفَة بِالنَّاسِ، وَلَو صحت عَمَّن صحت عَنهُ، لم يكن فِيهَا إِلَّا مَا هُوَ مدرك بالإحساس، من أن الصَّوْت الطّيب لذيذٌ مطربٌ، وَهَذَا يشْتَرك فِيهِ جَمِيع النَّاس، ولَيْسَ هَذَا من أُمُور الدّين، أو ما يُستدلُّ به على الأحكام الشرعيَّة من كونه مباحاً، أو مكروهاً، أو مُحرَّماً، حَتَّى

(١٤٥٠) الرسالة القشيرية (ص ٣٣٧).

يسْتَدلّ فِيهِ بالشافعي، بل ذكر الشَّافِعِي فِي مثل هَذَا غضٌّ من منصبه، مثل مَا ذكر ابْن طَاهِر عَن مَالك -رَحمَه الله- حِكَايَة مكذوبة، وَأهل المواخر أعلم بِهَذِهِ الْمَسْأَلَة من أَئِمَّة الدّين، وَلَو حكى مثل هَذَا عَن إِسْحَاق بن إِبْرَاهِيم النديم، وَأبي الْفرج الْأَصْبَهَانِيّ -صَاحب الأغاني؛ لَكَانَ أنسب من أن يحكيها عَن الشَّافِعِي".(١٤٥١)

قال: وعلى فرض صحَّةِ هذه الحكاية، فإنَّ اللذة الحاصلة من الصوت، أمرٌ حاصلٌ بالنفسِ مما لا يُمكن جحوده؛ ومثل ذلك اللذة الحاصلة بمباشرة الجميل من النساء والصبيان، مما لا يمكن جحوده، واللذة بالنظر إلى الصور الجميلة مما لا يمكن جحوده، فأيُّ دليلٍ في هذا -لمن هداه الله- على ما يُحبُّه ويرضاه، أو يُبيحه ويُجيزه؟!".(١٤٥٢)

إن هذا السَّماع، والتغبير الصُّوفي لا يمكن أن يكون طريقاً إلى الله، وليست اللذة الحاصلة في النفس والطبع، تُبيح شيئاً حرَّمه الله، بل حاصل الأمر أنَّ هذا السَّماع رغبةٌ عن الكتاب والسُّنَّة وميلٌ إلى الشهوات والملذات والطبائع!.

٢) تفنيد رواية التبرُّك بقبر أبي حنيفة:

(١٤٥١) انظر: الاستقامة؛ لابن تيمية (١/ ٣٣٧- ٣٣٨).

(١٤٥٢) انظر: الاستقامة؛ لابن تيمية (١/ ٣٣٨- ٣٣٩).

روى الإمام الصيرمي قال: أنا عمر بن إبراهيم المقري، قال: أنبا مكرم بن أحمد، أنبا عمر بن إسحاق بن إبراهيم، أنا علي بن ميمون، سمعتُ الشَّافعيَّ، يقول: "إنّي لأتبرَّكُ بقبرِ أبي حنيفةَ، وأجيء إلى قبره كُلَّ يومٍ -يعني زائراً، فإذا عرضت لي حاجةٌ، صلَّيتُ ركعتين، وجئتُ إلى قبره، وسألتُ الله تعالى الحاجةَ عنده، فما تَبعُد عنِّي حينَ تُقضى".(١٤٥٣)

وقال السيد العفيفي: "لم يزل العلماء وذوو الحاجات يزورون قبر الإمام أبي حنيفة، ويتوسلون إلى الله تعالى عنده في قضاء حوائجهم، ويرون نجاح ذلك، ومن هؤلاء العلماء الإمام الشافعيُّ، ثُمَّ ذكر الرواية أيضاً...".(١٤٥٤)

التعليق على هذه الرواية:

أولاً: إذا نظرنا إلى هذه الرواية من حيثُ السند، فإنها روايةٌ ضعيفة، بل باطلة كما قال الشيخ الألباني في (سلسة الأحاديث الضعيفة ١/ ٣١)، ذلك أن عُمر بن إسحاق بن إبراهيم غير معروف، ولس له ذكرٌ في كتب الرجال، ويُحتمل أن يكون هو (عمرو) بن إسحاق بن إبراهيم بن حميد بن السكن، أبو مُحمّد

(١٤٥٣) رواه الخطيب البغدادي في تاريخه بإسناده (١/ ١٢٣)، وانظر: مناقب الإمام أبي حنيفة، للموفق المكي (١/ ٤٥٣).

(١٤٥٤) حياة الإمام أبي حنيفة، للسيد العفيفي (ص ٢٢٥- ٢٢٦).

التونسيّ، وقد ترجمه الخطيب (١٢/ ٢٢٦)، وذكر أنه بُخاريٌّ، قدم حاجاً سنة (٣٤١هـ)، ولم يذكر فيه جرحاً ولا تعديلاً، فهو مجهول الحال، ويَبعد أن يكون هو هذا؛ إذ أن وفاة شيخه عليٌّ بن ميمون سنة (٢٤٧هـ)، على أكثر الأقوال، فبين وفاتهما نحو مائة سنة؛ فيَبعُد أن يكون قد أدركه.

ثانياً: من ناحية المتن، فإن الرواية لا تصحُّ نستها إلى الإمام الشَّافعيِّ؛ لأنَّ النَّصَّ معلومٌ كذبه عند من له معرفةٌ بالنقل، فإن الإمام الشافعيَّ لمَّا قدم بغداد، لم يكن بها قبرٌ يُنتابُ للدُّعاءِ عنده البتَّة! وقد رأى الإمام الشَّافعيُّ بالحجاز واليمن والشام والعراق ومصر من الأنبياء والصحابة والتابعين مَن كان أصحابها عنده، وعند المسلمين أفضل من أبي حنيفة وأمثاله، فلماذا الإمام الشَّافعيُّ لم يتوخَّ الدُّعاء إلا عنده؟! ثُمَّ إن أصحاب أبي حنيفة الذين أدركوه، مثل: أبي يوسف، ومحمد بن الحسن، وزُفَر، والحسن بن زياد، وطبقتهم، لم يكونوا يتحرَّون الدُّعاء لا عند قبر أبي حنيفة، ولا عند قبر غيره!.

ثالثاً: وأمَّا من حيث الموضوع؛ فقد ابتعد عن الإمام الشَّافعيِّ؛ لأنه كان من أكثر النّاس حرصاً على حماية جناب التوحيد، والتحذير من وسائل الشرك، وأشدُّهم نهياً عنها، وكذلك أتباعه، وقد وردت عنهم نصوصٌ كثيرةٌ في ذلك، منها:

قول الإمام الشافعيّ: "وأكره أن يُعظَّم مخلوقٌ؛ حتَّى يُجعل قبره مسجداً، مخافة الفتنة عليه، وعلى من بعده من النَّاس".[١٤٥٥]

وهذا تناقضٌ بين القولِ والفعلِ، يتنزَّهُ عنه الشَّافعيُّ، ولو كان هذا التبرُّك صحيحاً؛ لقال له النَّاسُ، كيف تخشى على النَّاس فتنةً لا تخشاها على نفسك؟!.

وقال أيضاً: "وأكره أن يبني على القبر مسجداً، وأن يستوي، أو يُصلِّي عليه، وهو غيرُ مُسوَّى، أو يُصلِّي إليه"[١٤٥٦]، واستعماله –رحمه الله– للفظ الكراهية إنما يقصد به التحريم كما هو مقتضى النصوص الشرعيَّة، وليس المقصود بكلامه الكراهة باصطلاح الفقهاء المتأخرين.

كما قال أيضاً: "يُكره أن يُجصَّص القبرُ، وأن يُكتب عليه اسمُ صاحبه، أو غيرُ ذلك، وأن يُبنى عليه".[١٤٥٧]

(١٤٥٥) انظر: الأم (١/ ٢٧٨)، والمهذب (١/ ١٣٩– ١٤٠)، وروضة الطالبين (١/ ٦٢٥)، والمجموع (٥/ ٢٢٦).

(١٤٥٦) انظر: الأم (١/ ٢٧٨).

(١٤٥٧) انظر: المجموع على شرح المهذب (٥/ ٢٦٦).

وقال ابن حجر المكي الهيثمي: "الكبيرة الثالثة، والرابعة، والخامسة، والسادسة، والسابعة، والثامنة والتسعون: اتخاذ القبور مساجد، وإيقاد السُّرج عليها، واتخاذها أوثاناً، والطواف بها، واستلامها، والصلاة إليها.. ثُمَّ قال:

"تنبيهٌ: عدُّ هذه الستة من الكبائر وقع في كلام بعض الشافعية، كأنه أُخذ مما ذكرته من هذه الأحاديث، ووجه أخذ القبر مسجداً منها واضح –لأنه يعني النَّبيَّ ﷺ– لعن من فعل ذلك، وجعل فاعله شر الخلق عند الله يوم القيامة؛ ففيه تحذيرٌ لنا، كما في رواية (يُحذِّرُ ما صنعوا)[١٤٥٨] ، أي: يُحذِّر أمته من أن يصنعوا كصنع أولئك، فيُلعنوا كما لعنوا".. إلى أن قال:

"وقول العلماء بالكراهةِ محمولٌ على التحريم، إذ لا يُظنُّ بالعلماء تجويز فعلٍ تواتر عن النَّبيِّ ﷺ لعنُ فاعله، ويجبُ المبادرة لهدمها (يعني القبور التي في المساجد)، وهدم القباب التي على القبور؛ إذ هي أضرُّ من مسجد الضرار؛ لأنها أُسِّست على معصية الرسول ﷺ لأنه نهى عن ذلك، وأمر ﷺ بهدم القبور المشرفة، ويجب إزالة كُلِّ قنديلٍ أو سراجٍ على القبر، ولا يصحُّ وقفه ونذره".[١٤٥٩]

(١٤٥٨) رواه البخاريُّ في صحيحه (٤٤٤٣)، ومسلم (٥٣١).

(١٤٥٩) الزواجر عن اقتراف الكبائر (١/ ١٩٥).

وقال الإمام النوويُّ(١٤٦٠): "ولا يجوز أن يُطاف بقبره ﷺ، ويُكرهُ لصاق البطن والظهر بجدار القبر، قاله أبو عبد الله الحليمي وغيره. وقالوا: يُكره مسحه باليد، وتقبيله، بل الأدب أن يبعد منه، كما يبعد من حضره في حياته ﷺ.

هذا هو الصواب الذي قاله وأطبقوا عليه، ولا يُغترَّ بمخالفة كثيرٍ من العوام وفعلهم، وكذلك فإن الاقتداء والعمل إنما يكون بالأحاديث الصحيحة، وأقوال العلماء، ولا يلتفت إلى محدثات العوام وجهالاتهم وغيرها.. ومن خطر بباله أن المسح باليد ونحوه أبلغ في البركة فهو من جهالته وغفلته؛ لأنَّ البركة إنما هي فيما وافق الشرع، وكيف يبتغي الفضل في مخالفة الصواب".(١٤٦١)

(١٤٦٠) هو الشيخ الإمام محي الدين يحيى بن شرف بن حسن، أبو زكريا النووي الدمشقي الشافعي، من كبار علماء الشافعية، وصاحب المصنفات المشهورة، ولو لم يكن منها إلا كتابه المبارك رياض الصالحين لكفاه ذلك، نشأ محباً للعلم، شغوفاً به، حتى إنه كان له اثنا عشر درساً في اليوم على مشايخه، وكان ورعاً، زاهداً، كثير العبادة والتنفل، وقد ولي المعهد العريق (دار الحديث الأشرفية)، فقام بها أحسن قيام، وكان يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر للملوك وغيرهم، كما يقول الحافظ ابن كثير- شأنه في ذلك شأن كل العلماء العاملين- ومن مصنفاته: شرح صحيح مسلم، وروضة الطالبين، والمنهاج، والمجموع شرح المهذب، وصل فيه إلى أثناء الربا، والإيضاح في المناسك، والتبيان في آداب حملة القرآن، وغيرها من المصنفات النافعة، مات سنة (٦٧٦هـ). انظر: تذكرة الحفاظ (٤/ ١٤٧٠)، وطبقات الشافعيين (٨/ ٣٨٥)، والبداية والنهاية (١٣/ ٢٩٤).

(١٤٦١) المجموع شرح المهذب (٨/ ٢٥٧- ٢٥٨).

وقال الرافعي في (شرح المنهاج): "وأما النذر للمشاهد التي على قبر ولي، أو شيخ، أو على اسم من حلها من الأولياء، أو تردد في تلك البقعة من الأولياء والصالحين، فإن قصد الناذر بذلك – وهو الغالب أو الواقع من قصود العامة – تعظيم البقعة والمشهد، أو الزاوية، أو تعظيم من دفن بها، أو نسبت إليه، أو بنيت على اسمه؛ فهذا النذر باطل غير منعقد؛ فإن معتقدهم أن لهذه الأماكن خصوصيات، ويرون أنها مما يدفع بها البلاء، ويستجلب بها النعماء، ويستشفى بالنذر لها من الأدواء، حتى إنهم ينذرون لبعض الأحجار لمَّا قيل لهم: إنه استند إليها عبد صالح!.

وينذرون لبعض القبور السرج والشموع والزيت، ويقولون: إنها تقبل النذر؛ كما يقوله البعض يعنون بذلك أنه يحصل به الغرض المأمول من شفاء مريض، أو قدوم غائب، أو سلامة مال، وغير ذلك من أنواع نذر المجازاة، فهذا النذر على هذا الوجه باطلٌ لا شك فيه، بل نذر الزيت والشمع ونحوهما للقبور باطل مطلقاً!.

ومن ذلك نذر الشموع الكثيرة العظيمة وغيرها لقبر الخليل ﷺ، ولقبر غيره من الأنبياء والأولياء؛ فإن الناذر لا يقصد بذلك الإيقاد على القبر إلا تبركا

وتعظيما، ظانا أن ذلك قربة، فهذا مما لا ريب في بطلانه، والإيقاد المذكور محرم، سواء انتقع به هناك منتفع أم لا.[١٤٦٢]

وقال الإمام النوويُّ: "إذا نذر المشي إلى مسجدٍ غير المساجد الثلاثة، وهي: المسجد الحرام، والمدينة، والأقصى، لم يلزمه، ولا ينعقد نذره عندنا".[١٤٦٣]

ومن خلال النصوص والنقولات السابقة، تبيَّن لنا مدى حرص الشَّافعيِّ وأتباعه على حماية جناب التوحيد، وإغلاقهم كُلَّ باب يؤدي إلى الشرك والتعلُّق بالقبور، سواءً تعظيمها، أو البناء عليها، أو التوسُّل بأصحابها، ودعائهم، والاستغاثة بهم.

٣) حكايةٌ أخرى مكذوبة في توسُّل الإمام أحمد بقميص الشَّافعيّ:

روى عن الربيع بن سليمان: أن الإمام الشافعيَّ بعثه بكتابٍ من مصر إلى الإمام أحمد بن حنبل –رحمه الله– ببغداد، وذكر فيه أنه رأى النَّبيَّ ﷺ في نومه، وأنه أمره أن يُبشِّر أحمد، بأنه سيُمتحن في القولِ بخلق القآن، وأن الله تعالى سيرفع

(١٤٦٢) فتح المجيد؛ لعبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب (ص ٢١٣).

(١٤٦٣) المجموع شرح المهذب؛ للنووي (٨/ ٤٧١).

له بذلك علماً إلى يوم القيامة، فرفع الربيع أحد ثوبيه، فلما رجع الربيع إلى مصر، تبرَّك الشَّافعيُّ بغسالة ثوب الإمام أحمد".(١٤٦٤)

التعليق على هذه الحكاية:

هذه الحكاية غير صحيحة، وقد نصَّ الإمام الذهبيُّ على عدم صحتها، فقد قال -رحمه الله- عند ترجمته للربيع بن سليمان المرادي، أنه لم يكن صاحب رحلة، فأما ما يرى أن الشافعي بعثه إلى بغداد بكتابه إلى أحمد بن حنبل، وأنه تبرَّك بغسالة قميصه فغير صحيح، ذلك أن الشافعي لقي من هو أكبر من الإمام أحمد وأفضل ولم يتبرَّك به، كالإمام مالك بن أنس -رحمه الله- وهو شيخه، وكذا سُفيان رحمه الله.

ومما يؤيد كلام الذهبيِّ: أن الخطيب البغدادي لم يُترجم للربيع في تاريخه، مع التزامه ترجمة كل من ورد ببغداد، ومع الربيع كان مشهوراً.

(١٤٦٤) انظر: تاريخ دمشق؛ لابن عساكر (٧/ ٢٠٧- ٢٧١). ومناقب الإمام أحمد (ص ٥٥١-٥٥٣).

ثُمَّ إنه من خلال التأمُّل لأسانيد هذه الحكاية، تبيّن أن في أحد أسانيدها أبا عبد الرحمن محمد بن الحسين السُّلمي، قال عنه محمد يوسف القطّان النيسابوري: "كان أبو عبد الرحمن غير ثقة، وكان يضع للصُّوفيَّة الأحاديث".[١٤٦٥]

وقال الذهبيُّ: ما هو بالقويِّ في الحديث. وقال أيضاً: وفي الجملة ففي تصانيفه أحاديث وموضوعات، وفي حقائق تفسيره أشياء لا تسوغ أصلاً!.[١٤٦٦]

أما الأسانيد الأخرى، ففيها انقطاع، وبعض رواتها لا يُعرف، وبذلك نصل إلى أن الحكاية المنسوبة إلى الإمام الشافعيِّ باطلةٌ وغير صحيحة.

٤) إبطال روايات اشتغال الشَّافعيِّ بعلم النجُّوم:

عن حرملة قال: "كان الشافعي يديم النظر في كتب النجوم، وكان له صديق وعنده جارية قد حبلت فقال له: إنها تلد إلى سبعة وعشرين يوماً بولد، يكون في فخذه الأيسر خال أسود، ويعيش أربعة وعشرين يوماً، ثم يموت، فجاءت به على

(١٤٦٥) انظر: تاريخ بغداد؛ للخطيب البغدادي (٢/ ٢٤٨).

(١٤٦٦) انظر: سير أعلام النبلاء، للحافظ الذهبي (١٧/ ٢٥٠- ٢٥٢).

النعت الذي وَصَفَ، وانقضت مدته فمات، فأحرق الشافعي بعد ذلك الكتب، وما عَاوَدَ النظر في شيء منها".(١٤٦٧)

وفي رواية: "كان الشافعي وهو حَدَثٌ ينظر في النجوم، وما ينظر في شيء إلا حفظه وفهمه، فجلس يوماً وامرأة رجل تَطْلُق، فحسب فقال: تلد جارية عوراء، على فرجها خال أسود، وتموت إلى كذا. فولدت فكان ما قال، فجعل على نفسه أن لا ينظر فيه أبداً، ودفن الكتب التي كانت عنده من النجوم".(١٤٦٨)

التعليق:

وللإمام ابن القيّم –رحمه الله– تعليقٌ على هذه الرواية المنسوبة للشّافعيّ في علم التنجيم؛ فيقول: "... وأظنُّ الذى غرَّه (يعني: الفخر الرازي) فِي ذَلِك هو أَبُو عبد الله الْحَاكِم، فَإِنَّهُ صنف فِي مَنَاقِب الشافعي كتابا كَبِيرا، وَذكر علومه فِي أَبْوَاب، وَقَالَ: الْبَاب الرَّابِع وَالْعشْرُونَ فِي مَعْرفَته تسيير الْكَوَاكِب من علم النُّجُوم، وَذكر فِيهِ حكايات عَن الشافعي تدل على تَصْحِيحه لأحكام النُّجُوم، وَكَانَ هَذَا الْكتاب وَقع للرازي فتصرف فِيهِ وَزَاد وَنقص، وصنف مَنَاقِب الشافعي من هَذَا

(١٤٦٧) رواه البيهقيُّ في المناقب (٢/ ١٢٦). وتوالي التأسيس؛ لابن حجر (ص ٦٥).

(١٤٦٨) رواه البيهقيُّ في المناقب (٢/ ١٢٥– ١٢٦). وتوالي التأسيس؛ لابن حجر (ص ٦٥).

الْكتاب، على أَن فِي كتاب الْحَاكِم من الْفَوَائِد والْآثَار مالم يلم بِهِ الرَّازِيّ، وَالَّذِي غر الْحَاكِم من هَذِه الحكايات تساهله فِي إسنادها، وَنحن نبينها ونبين حَالهَا؛ ليتبين أَن نِسْبَة ذَلِك إِلَى الشافعي كذب عَلَيْهِ، وأَنَّ الصَّحِيح عَنهُ من ذَلِك مَا كَانَت الْعَرَب تعرفه من علم الْمنَازل، والاهتداء بالنجوم فِي الطرقات، وَهَذَا هُوَ الثَّابِت الصَّحِيح عَنهُ بأصح إِسْنَاد إِلَيْهِ!.

قَالَ الْحَاكِم: حَدثنَا أَبُو الْعَبَّاس مُحَمَّد بن يَعْقُوب، حَدثنَا الرّبيع بن سُلَيْمَان قَالَ: قَالَ الشافعي: قَالَ الله عز وَجل: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾/الأنعام: ٩٧/ وقال: ﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾/النحل: ١٦/، قال الشافعي: فكانت العلامات: جبالاً، يعرفون من الأرض، وشمساً وقمراً ونجوماً، معروفة المطالع والمغارب والمواضع من الفلك، ورياحاً يعرفون صفاتها في الهواء تدلُّ على قصد المسجد الحرام".(١٤٦٩)

ثُمَّ قال ابن القيِّم رحمه الله: "وَأما الحكايات الَّتِي ذُكرت عَنهُ فِي أَحْكَام النُّجُوم فَثَلَاث حكايات:

(١٤٦٩) رواه البيهقيُّ في المناقب (٢/ ١٢٦). ومفتاح دار السعادة؛ لابن القيم (٢/ ٢١٩). وفي رواية البيهقي (وفيها –أي: الجبال– أَرْوَاحٌ معروفة بالأسماء).

الحكايةُ الأولى: قَالَ الْحَاكِم: قرئ على أبي يعلى حَمْزَة بن مُحَمَّد العلوى، وَأكْثر ظني أَنّي حَضرته – حَدثنَا أَبُو اسحاق إِبْرَاهِيم ابْن مُحَمَّد بن الْعَبَّاس الأزدي فِي آخَرين، قَالُوا: حَدثنَا مُحَمَّد بن أبي يَعْقُوب الجوال الدينوري، حَدثنَا عبد الله بن مُحَمَّد الْبلوي، حدثني خالي عمَارَة بن زيد، قَالَ: كنت صديقا لمُحَمد بْن الْحسن، فَدخلت مَعَه يَوْمًا على هارون الرشيد فسأله، ثمَّ أَنّي سَمِعت مُحَمَّد بن الْحسن وَهُوَ يَقُول: إِن مُحَمَّد بن إدريس يزْعم أَنَّ للخلافة أَهلاً، قَالَ: فاستشاط هارون من قَوْله غَضباً، ثمَّ قَالَ: على بِهِ، فَلَمَّا مثل بَين يَدَيْهِ أطرق سَاعَة ثمَّ رفع رَأسه اليه، فَقَالَ إيها، فقَالَ الشافعي: مَا إيها يَا أَمِير الْمُؤمنِينَ أَنْت الداعي وَأَنا الْمَدْعُو، وَأَنت السَّائِل وَأَنا الْمُجيب، فَذكر حِكَايَة طَوِيلَة سَأَلَهُ فِيهَا عَن الْعُلُوم ومعرفته بهَا إِلَى أَن قَالَ: كَيفَ علمك بالنجوم؟، قَالَ: أعرف الْفلك الدائر، والنجم السائر، والقطب الثَّابِت، والمائي، والناري، وَمَا كَانَت الْعَرَب تسميه الأنواء، ومنازل النيرَان، وَالشَّمْس، وَالْقَمَر، والاستقامة، وَالرُّجُوع، والنحوس، والسعود، وهيئاتها، وطبائعها، وَمَا اسْتدلَّ بِهِ من بَري، وَيجْرِي، وأستدل فِي أَوْقَات صَلَاتي وَأعرف مَا مضى من الْأَوْقَات فِي كل ممسى، ومصبح، وظعن، وسفر.."

ثمَّ سَاق الْعُلُوم على هَذَا النَّحْو فِي حِكَايَة طَوِيلَة، يعلم من لَهُ علم بالمنقولات أَنَّهَا كذب مختلق، وافك مفترى على الشافعي، وَالْبَلَاء فِيهَا من عِنْد

(مُحَمَّد بن عبد الله الْبلوى) هَذَا؛ فَإِنَّهُ كَذَّاب وَضاع، وَهُوَ الَّذِي وضع رحْلَة الشافعي، وَذكر فِيهَا مناظرته لأبي يُوسُف بِحَضْرَة الرشيد، وَلم ير الشافعيُّ أَبَا يوسف، وَلَا اجْتمع بِهِ قطّ، وَإِنَّمَا دخل بَغْدَاد بعد مَوته!.(١٤٧٠)

وأما الْحِكَايَة الثَّانِيَة: فَقَالَ الْحَاكِم: أخبرنَا أَبُو الْوَلِيد حسَّان بن محمد الْفَقِيه، قَالَ حدثت عَن الْحسن بن سُفْيَان، عَن حَرْمَلَة قَالَ: "كَانَ الشافعيُّ يديم النّظر فِي كتب النُّجُوم وَكَانَ لَهُ صديق وَعِنْده وَجَارِيَة قد حبلت؛ فَقَالَ: إِنَّهَا تَلد إِلَى سَبْعَة وَعشْرين يَوْمًا، وَيكون فِي فَخذ الْوَلَد الْأَيْسَر خَال أسود، ويعيش أَرْبَعَة وَعشْرين يَوْمًا ثمَّ يَمُوت، فجاء بِهِ على النَّعْت الذى وصف، وَانْقَضَت مدَّته فَمَاتَ، فَأحرق الشافعيُّ بعد ذَلِك تِلْكَ الْكتب، وَمَا عاود النّظر فِي شَيْء مِنْهَا"!.

قال ابن القيّم: وَهَذَا الْإِسْنَاد رِجَاله ثِقَات، لَكِنَّ الشَّأْن فِيمَن حدَّث أَبَا الْوَلِيد بِهَذِهِ الْحِكَايَة عَن الْحسن بن سُفْيَان، أَو فِيمَن حدَّث بهَا الْحسن عَن حرملة، وَهَذِه الْحِكَايَة لَو صحت لوَجَبَ أَن تثنى الخناصر على هَذَا الْعلم، وتُشَدّ بِهِ الأيدي، لَا أَن تُحرق كتبه ويُهان غَايَة الإهانة، وَيجْعَله طُعمةً للنار، وَهَذَا لَا يُفعَلُ إِلَّا بكتب الْمحَال وَالْبَاطِل..".(١٤٧١)

(١٤٧٠) مفتاح دار السعادة؛ لابن القيم (٢/ ٢٢٠).

(١٤٧١) مفتاح دار السعادة؛ لابن القيم (٢/ ٢٢٠).

ثمَّ إِنَّه لَيْسَ فِي الْعَالم طالع للولادة يقتضى هَذَا كُله .. والطالع عِنْد المنجمين طالعان: الأول: طالع مسْقط النُّطْفَة وَهُوَ الطالع الأصلي، وَهَذَا لَا سَبِيل إِلَّا الْعلم بِهِ إِلَّا فِي أندر النَّادِر الَّذِي لَا يَقْتَضِيهِ الْوُجُود. وَالثَّانِي: طالع الْولادَة، وهم معترفون أَنه لَا يدل على أَحْوَال الْوَلَد وجزئيات أمْرَه؛ لِأَنَّهُ انْتِقَال الْوَلَد من مَكَان إِلَى مَكَان، وَإِنَّمَا أَخَذُوهُ بَدَلاً من الطالع الأصلي لما تعذر عَلَيْهِم اعْتِبَاره.

وَهَذَا الْحِكَايَة لَيْسَ فِيهَا أَخذُ وَاحِدٍ منَ الطَّالِعَيْنِ (مثنَّى طالع)؛ لِأَن فِيهَا الحكم على الْمَوْلُود قبل خُرُوجه من غير اعْتِبَار طالعه الأصلي، والمنجِّمُ يقطع بِأَن الحكم على هَذَا الْوَلَد لَا سَبِيل إِلَيْهِ، وَلَيْسَ فِي صناعَة النُّجُوم مَا يُوجب الحكم عَلَيْهِ وَالْحَالة هَذِه، وَهَذَا يدل على أَن هَذِه الْحِكَايَة كذبٌ مختلق على الشافعي على هَذَا الْوَجْه!!.

الْحِكَايَة الثَّالِثَة: وَهِي مَا رَوَاهُ الْحَاكِم أَيْضاً: أنباني عبد الرَّحْمَن بن الْحسن القاضي، أَن زَكَرِيَّا بن يحيى الساجي حَدثهمْ، أَخبرنِي أَحْمد بن مُحَمَّد بن بنت الشافعي، قَالَ: سَمِعت أبي يَقُول: "كَانَ الشافعي وَهُوَ حدث ينظر فِي النُّجُوم، وَمَا نظر فِي شَيْء إِلَّا فاق فِيهِ، فَجَلَسَ يَوْمًا وَامْرَأَة تَلد فَحَسَبَ؛ فَقَالَ: تَلد جَارِيَة عوراء، على فرجهَا خَال أسود، وَتَمُوت إِلَى كَذَا وَكَذَا؛ فولدت، فَكَانَ كَمَا قَالَ، فَجعل على نَفسه أَلا ينظر فِيهِ أبداً"!.

قال ابن القيّم: وَأمر هَذِه الْحِكَايَة كالتي قبلهَا؛ فَإِنَّ ابْن بنت الشافعي لم يلق الشافعيَّ، وَلَا رَآهُ، والشأن فِيمَن حَدثهُ بِهَذَا عَنهُ!.(١٤٧٢)

وَالَّذِي عندي فِي هَذَا: أَن النَّاقِلَ إن أحسن بِهِ الظَّن، فَإِنَّهُ غَلِطَ على الشافعي والشافعيُّ كَانَ من أَفرس النَّاس، وَكَانَ قد قَرَأَ كتب الفراسة، وَكَانَت لَهُ فِيهَا الْيَد الطُّولى، فَحكم فِي هَذِه الْقَضِيَّة وأمثالها بالفراسة فَأصَاب الحكم، فَظنَّ النَّاقِلُ أَن الْحَاكِم كَانَ يسْتَندُ إِلَى قضايا النُّجُوم وأحكامها، وَقد برَّأَ الله من هُوَ دون الشافعيّ من ذَلِك الهذيان، فَكيف بِمثل الشافعيِّ -رَحمَه الله- فِي عقله، وَعلمه، ومعرفته، حَتَّى يُرَوَّجَ عَلَيْهِ هذيان المنجمين، الَّذِي لَا يَرُوْجُ إِلَّا على جَاهِلٍ، ضَعِيف الْعقل.

وتنزيهُ الشافعيِّ -رَحمَه الله- عَن هَذَا هُوَ الذى ينبغي أَن يكون من مناقبه، فَأَما أَن يُذكر فِي مناقبه أَنه كَانَ مُنَجّمَاً، يرى القَوْلَ بِأَحْكَام النُّجُوم وتصحيحها؛ فَهَذَا فعلُ من يَذُمُّ بِمَا يَظُنّهُ مدحاً!.

(١٤٧٢) مفتاح دار السعادة؛ لابن القيم (٢/ ٢٢١).

وَإِذا كَانَ الشافعيُّ شَدِيد الْإِنْكَار على الْمُتَكَلِّمين، مُزْرِياً بهم، وَكَانَ حُكْمُهُ فيهم أَن يضْربُوا بالحديد، وَيُطَاف بهم فِي الْقَبَائِل؛ فَمَاذَا رَأْيه فِي المنجمين، وَهُم أولى من يُحكم عليهم بِهَذَا الحكم من أهل الحقّ.."[١٤٧٣]

ومع ذلك؛ فإن صحت هذه الرواية، فتحمل على أن الإمام الشَّافعيَّ، كانت لديه خبرةٌ ومعرفة بالكواكب، ومطالعها، وأبراجها، لا أنَّه يسند الأفعال إليها من سعد، ونحوسة، وشقاوة، أو يعتقد تأثيرها في العوالم، أو يتخذ منها مادَّةً للكهانة والعرافة، فإن ذلك من الأعمال المنهية المناقضة للتوحيد والعقيدة الصحيحة.

٥) بيان بطلان القول المنسوب إلى الشَّافعيّ في البدعة:

احتجَّ الأحباش[١٤٧٤] بقولٍ مأثورٍ عن الشَّافعيّ: "أن البدعة على ضربين، أحدهما: ما أُحدث مما يُخالف كتاباً، أو سُنَّةً، أو أثراً، أو إجماعاً، فهذه البدعة

(١٤٧٣) مفتاح دار السعادة؛ لابن القيم (٢/ ٢٢١).

(١٤٧٤) الأحباش: إحدى الفرق الصُّوفية الحديثة، أسسها عبد الله الحبشي الهرري في لبنان، وسعى في نشر مخلفات عقائد المعتزلة، وجعل الكلام هو التوحيد، والدفاع عن السنة بدعة، وله طامات (انظر: موسوعة أهل السنة: ١/ ٧).

الضلالة، والثانية: ما أُحدث من الخير، لا خلاف فيه لواحٍ من هذا، فهذه بدعةٌ غيرُ مذمومة".[١٤٧٥]

التعليق على هذا الأثر:

ردَّ الشيخ عبد الرحمن دمشقيَّة على هذا القول، بأن الإمام الشافعي، كان لا يرى الاستحسان في البدع؛ لأنَّ "من استحسن فقد شرع"، و"لو جاز الاستحسان، لجاز لأهل العقول أن يُشرِّعوا في الدين في كُلِّ باب، وأن يُخرج الإنسان لنفسه شرعاً جديداً".[١٤٧٦]

وهب أنَّ للشَّافعي كلام يُصرِّح بتقسيم البدعة إلى حسنة وسيئة، فهل يجوز ضربُ قولِ النَّبيِّ ﷺ: "شرُّ الأمور مُحدثاتها، وكُلُّ مُحدثةٍ بدعة، وكُلَّ بدعةٍ ضلالةٍ"[١٤٧٧] بقول غيره، وتقديم قول غيره عليه؟.

(١٤٧٥) صريح البيان (ص ٧٦)، نقلاً عن موسوعة أهل السنة: (١/ ٣٢٤).

(١٤٧٦) انظر: الرسالة، فصلٌ في إبطال الاستحسان، وانظر: كتاب الأم (٧/ ٢٩٤- ٢٩٨).

(١٤٧٧) رواه مسلم في صحيحه (٨٦٧)، والنسائي في سننه (٣/ ١٨٨) وأحمد في مسنده (٣/ ٣١٠)، عن جابر بن عبد الله الأنصاري، وابن أبي عاصم في السنة (٢٥)، عن ابن مسعود، واللفظ له.

بل إنَّ مذهب الشَّافعيَّ، ينصُّ على أنَّه: "إذا رأيتم قولي يُخالف قول رسول الله ﷺ، فاضربوا بقولي عرض الحائط"، وقد أخذنا بمذهب الشافعيِّ في إيثار قول النَّبيِّ على قول الشَّافعيِّ، فما لهؤلاء القومِ يضربون السُّنن الصحيحة بآراء ضعيفة، لم تثبت صحتها عن قائليها!.

وروى البيهقيُّ، عن الربيع بن سليمان المُرَادِي قال: "سمعت الشافعي يقول: إذا وجدتم في كتابي خلاف سنة رسول الله ﷺ، فقولوا بسنة رسول الله ﷺ، ودعوا ما قلت".[١٤٧٨]

وقال أيضاً: "إذا وجدتم سنة من رسول الله ﷺ، خلاف قولي فخذوا بالسنة ودعوا قولي؛ فإني أقول بها".[١٤٧٩]

وقال: "كل مسألة تكلمت فيها صح الخبر فيها عن النبي، صلى الله عليه وسلم، عند أهل النقل بخلاف ما قلت – فأنا راجع عنها في حياتي وبعد موتي".[١٤٨٠]

(١٤٧٨) انظر: المناقب (١/ ٤٧٢).

(١٤٧٩) انظر: المناقب (١/ ٤٧٣).

(١٤٨٠) انظر: المناقب (١/ ٤٧٣).

وأضاف الشيخ عبد الرحمن دمشقيَّة: أن البدعة في اللغة تنقسم إلى حسنة وسيئة، ولكن هذا التقسيم لا يجوز في الشرع.. وأما البدع والاختراعات الدنيوية، فمنها الحسنُ الذي يخدم البشريَّة كالسيارات والطائرات، ومنها السيئة والشريرة كاختراع القنابل التي تضرُّ بالبشرية، ومثل استحداث وسائل تعين على الرذيلة والفاحشة..".[١٤٨١]

٦) بيان بطلان ما نُسب إليه من مدح التصوُّف:

ذكر العجلوني في (كشف الخفاء): أن الإمام الشافعيَّ لمّا وقف على حديث: "حُبِّبَ إليَّ من دُنياكم ثلاث: النساءُ، والطِّيبُ، وجُعلت قُرَّةُ عيني في الصَّلاة"، قال: "وأنا حُبِّبَ إليَّ من دُنياكم ثلاث: تركُ التكلُّف، وعشرةُ الخلقِ بالتلطُّف، والاقتداء بطريق أهل التصوُّف".[١٤٨٢]

التعليق:

(١٤٨١) انظر: موسوعة أهل السنة (١/ ٣٢٤- ٣٢٥).

(١٤٨٢) انظر: كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الحديث على ألسنة الناس؛ لإسماعيل بن محمد العجلوني (٢/ ٤٠٨).

أولاً: إن الحديث " حُبِّبَ إليَّ من دُنياكم ثلاث..."، فيه إشكالاتٌ حيثُ ذكره كثيرون بدون ذكر "ثلاث"[١٤٨٣]؛ ففي الحديث الذي رواه النسائيُّ في سننه (كتاب عشرة النساء/ باب حُبِّ النساء، ٧/ ٦١)، عن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ: "حُبِّب إليَّ من الدُّنيا: النِّساء، والطيبُ، وجعلت قُرَّةُ عيني في الصَّلاة" .[١٤٨٤]

وعن أنسٍ أيضاً، قال: قال رسول الله ﷺ: "حُبِّب إليَّ النِّساء، والطيبُ، وجعلت قُرَّةُ عيني في الصَّلاة" .[١٤٨٥]

ثانياً: قال ابن القيم: وأما ما اشتهر من زيادة "ثلاث"، فلم أقف عليه إلا في موضعين من الإحياء[١٤٨٦]، وفي تفسير آل عمران من الكشاف، وما رأيتها في شيء من طرق هذا الحديث بعد مزيد التفتيش. قال: وبذلك صرَّح الزركشي، بل قال: زيادتها مُحيلةٌ للمعنى.

(١٤٨٣) المصدر السابق نفسه (٢/ ٤٠٥).

(١٤٨٤) صحيح، أورده الألباني في صحيح سنن النسائي (٣/ ٨٢٧، برقم: ٣٦٨٠).

(١٤٨٥) صحيح، أورده الألباني في صحيح سنن النسائي (٣/ ٨٢٧، برقم: ٣٦٨١).

(١٤٨٦) إحياء علوم الدين؛ لأبي حامد الغزالي (٣/ ٢١٩).

وقال ابن القيِّم أيضاً: "من رواه حُبِّب إليَّ من دُنياكم ثلاث! فقد وهم، بل هي عبادةٌ محضة، نعم يصحُّ أن تُضاف إليها؛ لكونها ظرفاً لوقوعها فيه".[١٤٨٧]

وقال شيخ الإسلام والحافظ ابن حجر في (تاريخ الكشاف): إن لفظ "ثلاث" لم يقع في شيء من طُرقه، وزيادته مفسدة للمعنى..".[١٤٨٨]

ثالثاً: وذكر قطب الدين محمد بن أحمد القسطلاني في "المواهب اللدنية": أنه ﷺ لمّا قال: "حُبِّب إليَّ من الدُّنيا: النِّساء، والطيبُ، وجعلت قُرَّةُ عيني في الصَّلاة"، قال أبو بكر: وأنا يا رسول الله، حُبِّب إليَّ من الدُّنيا: النظر إلى وجهك، وجمع المال للإنفاق عليك، والتوسل بقرابتك إليك. وقال عمر: وأنا يا رسول الله، حُبِّب إليَّ من الدُّنيا: الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والقيام بأمر الله. وقال عثمان: وأنا يا رسول الله، حُبِّب إليَّ من الدُّنيا: إشباع الجائع، وإرواء الظمآن، وكسوة العاري. وقال عليُّ بن أبي طالب: وأنا يا رسول الله، حُبِّب إليَّ من الدُّنيا: الصوم في الصيف، وإكرام الضيف، والضرب بين يديك بالسيف.

(١٤٨٧) انظر: كشف الخفاء: (٢/ ٢٠٦)، والمواهب اللدنية؛ لأحمد القسطلاني (٢/ ٤٧٦-٤٧٧).

(١٤٨٨) المواهب اللدنية (٢/ ٤٧٧).

قال الطبريُّ: خرَّجه الجندي، كذا قال، والعهدة عليه".[١٤٨٩]

وقال مُحقِّق الكتاب المذكور: إن هذا الحديث "حديثٌ مما لا يصحُّ".[١٤٩٠]

رابعاً: إن الرواية المنسوبة إلى الإمام الشافعيّ، مستنبطة من الروايات السابقة، حيثُ ذكر ذلك العجلوني بعد سرد تلك الروايات، فيقول:

"وفي كلام بعضهم: أن أبا حنيفة لما وقف على ذلك، قال: وأنا حُبِّب إليَّ من دنياكم ثلاث: ترك الترفُّع والتعالي، وقلب من حُبين خالي، والتهجد بالعلم طول الليالي. وأن مالكاً لمَّا وقف عليه أيضاً، قال: وأنا حُبِّب إليَّ من دنياكم ثلاث: مجاورة تربة سيد المرسلين، وإحياء علوم الدين، والاقتداء بالخلفاء الراشدين.

وأن الشافعيَّ لما وقف عليه أيضاً، قال: وأنا حُبِّب إليَّ من دنياكم ثلاث: تركُ التكلُّف، وعشرةُ الخلقِ بالتلطُّف، والاقتداء بطريق أهل التصوُّف. وأن أحمد

(١٤٨٩) المواهب اللدنية (٢/ ٤٧٨- ٤٧٩).

(١٤٩٠) المواهب اللدنية (٢/ ٤٧٨- ٤٧٩).

لما وقف عليه، قال: وأنا حُبِّب إليَّ من دنياكم ثلاث: عطاءٌ من غير منَّة، ونفسٌ مطمئنَّة، والاتباع بالسُّنة"(١٤٩١).

وبناءً على ما سبق ذكره: من أن الحديث "حُبِّبَ إليَّ من دُنياكم ثلاث"، فيه وَهمٌ وإشكال، وأن لفظ "ثلاث" ليس في شيءٍ من طرق الحديث الصحيح، وأنَّ الرواية المنسوبة إلى الإمام الشَّافعيّ خاليةٌ من السند، بل مُستفادة من الحديث المذكور..

وخلاصة القول: أن الرواية المنسوبة إلى الإمام الشافعيّ لا تصح من وجوه:

الأول: أنها حكايةٌ ليس لها سندٌ يُمكن الرجوع إليه، ذلك أن الرواية مستنبطة من الحديث الذي لا تصح فيه لفظة "ثلاث".

الثاني: أن المتن أو النَّص المذكور، يُستبعد أن يكون الإمام الشَّافعيُّ قاله، لعدم وروده في مناقب الإمام الشافعيّ، ولا في كتب تلامذته، ولم يذكره كُتَّاب ترجمته من العلماء المشهورون.

(١٤٩١) كشف الخفاء؛ للعجلوني (٢/ ٤٠٨).

الثالث: أضف إلى ذلك أن الإمام الشَّافعيّ نقد التصوُّف، ووصف أهله بالحماقة، ونقصان العقل، وضعف المروءة، والكسل، وغيرها من الأوصاف الذميمة.

٧) أما ما ذكره ابن القيِّم، وغيره عن الإمام الشَّافعيِّ: أنه قال: "صحبتُ الصُّوفيَّة، فما انتفعتُ منهم إلا بكلمتين، سمعتهم يقولون: الوقتُ كالسيف، فإن قطعته وإلا قطعك، ونفسك إن لم تشغلها بالحق، شغلتك بالباطل"[١٤٩٢].

وروى البيهقيُّ في مناقب الشَّافعيِّ، قال: أخبرنا أبو عبد الرحمن السلمي، قال: سمعت عبد الله بن الحسين بن موسى السلامي، يقول: سمعت علي بن أحمد، يقول: سمعت أيوب بن سليمان يقول: سمعت محمد بن محمد بن إدريس الشافعي يقول: سمعت أبي يقول: "صحبت الصوفية عشر سنين ما استفدت منهم إلا هذين الحرفين: الوقت سيف، ومن العصمة أن لا تُحد به" [١٤٩٣].

وإسناد السُّلمي ضعيفٌ جداً؛ إذ أكثر رجاله غير معروفين، ولكنه قولٌ شهره الصُّوفية وغيرهم عن الإمام، نحن نستبعدُ أن يكون الإمامُ الشَّافعيُّ قد صحب

(١٤٩٢) مدارج السالكين (٣/ ١٢٤- ١٢٥)، وانظر: تأييد الحقيقة العلية للسيوطي (ص ١٢).

(١٤٩٣) مناقب الشافعي للبيهقي (٢/ ٢٠٨)، وعنه الرازي في المنهاج القويم (ص: ٣٤١).

الصُّوفيَّة، أو أنه اجتمع بهم وسمع كلامهم، وكيف يصحبهم مع ذمِّه لهم، وتشنيعه عليهم؟، وليس لهذه الحكاية قائمةٌ من إسناد يبعثها أو يرفعها إلى الإمام الشَّافعيّ، وإنما هذه الحكاية وغيرها من الحكايات تلقفها النَّاسُ عن المتصوفة، وأتباعهم، وألصقت بالأئمَّة زوراً وكذباً !.

ولا شكَّ أن الكلمتين نافعتين، ينتفع بهما كُلُّ أحد، ولكنها خرجت من بين دمٍ وفرث، ومعلومٌ أن الكلمة الصحيحة لا تُصحح المذهب الباطل !.

فقد يقول أهل الباطل كلمة الحقِّ، وتكونُ حُجَّة عليهم، ووجه ذلك: أنَّ المتصوفة لو اشتغلوا بالسُّنن والفرائض؛ لكان لهم في ذلك شغلٌ عن كثيرٍ من الباطل والبدع والهرطقة، ولكان ذلك أفضل ما يحفظ به المرء وقته.

ثُمَّ إن الإمام الشافعيَّ لم يأمر أحداً بالاقتداء بطريقة أهل التصوُّف، وإنما كان يدعو للاقتداء بطريقة الرسول ﷺ، وهو الأسوة الحسنة، فكان الشافعيُّ مُتَّبعاً للسُّنن والآثار، عاملاً بالأحاديث الصحيحة.

٨) وما ذكره البيهقي في مناقبه (٢/ ١٧٨)، أن الصاحب بن عبَّاد (ت ٣٨٥هـ) ذكر في تصنيفه في مناقب الشافعي، رحمه الله–وكان صدوقًا إلا أنه كان

مشتهرًا بمذهب المعتزلة داعية إليه وهو أول من سمي من الوزراء بالصاحب[١٤٩٤]– أنَّهُ سمعَ جعفر بن محمد الخُلدي المتصوف (ت ٣٤٨هـ) الذي اشتهر بكثرة الأسفار! يقول:

سمعت الجنيد (ت ٢٩٧هـ) يقول: كان الشافعي (ت ٢٠٤هـ) من المريدين الناطقين بلسان الحق في الدين، وعظ أخاً له في الله، عز وجل، وخوّفه بأسه، فقال: يا أخي، إن الدنيا دحض مزلة، ودار مذلة، عُمرانها إلى الخراب صائر، وساكنها للقبور زائر، شملها على الفرقة موقوف، وغناها إلى الفقر مصروف، الإكثار فيها إعسار، والإعسار فيها يسار، فافزع إلى الله تعالى، وارض برزق الله، لا تستسلف من دار بقائك في دار فنائك؛ فإن عيشك فَيْءٌ زائل، وجدار مائل، أكثر على عملك، وقَصِّر من أملك.

وجاء أيضاً عن الصاحب بن عباد، أنه قال: سمعت جعفر الخُلْدي الصوفي يقول:

سمعت الجنيد، يقول: قيل للشافعي: عظنا وأوجز؛ فأنشد، رضي الله عنه، وقال:

(١٤٩٤) لسان الميزان؛ لابن حجر (٢/ ١٣٧)، ت: أبو غدة.

فإن لم تجد من دُونِ عدنانَ باقياً ... ودونَ معَدٍّ فلْتَزَعْكَ القبائلُ[(١٤٩٥)]

ويُروى: «العواذل» قال: فقيل له: زدنا. فأنشد:

تودُّ ابنتاي أن أعيشَ مسلَّماً ... وهل أنا إلا من رَبيعةَ أو مُضَرْ؟

التعليق:

ليس في هذا الخبر ما يدلُّ على تصوُّفِ الإمام الشافعيِّ، وأما وصف الجنيد للإمام بأنَّه من المريدين، فإن كان يقصد بذلك تشبيهه بمريدي الصُّوفية فقوله باطل، لأنَّ حال الإمام الشافعي أرفع وأعلى مرتبةً من أن يُقرن بأمثال هؤلاء، وإن كان يقصد بذلك أنه ممن أخلص قصده ومراده لله، فنعم.

وللإمام الشافعي كلامٌ كثير في الزُّهد والرقائق والحقائق، واقتصار الجُنيد على هذه العبارة –دون غيرها– يدلُّ على تقصُّد صرف الإمام إلى التصوُّف كيفما اتفق الأمر، وهذا مما لا يجوز له، ولا لغيره من المتصوفة، وقد علمنا موقف الإمام من التصوُّف وأهله، فمحاولة اجترار الأقلام نحو هذا الخطأ الفادح، ذنبٌ ليس بعدهُ ذنب!.

(١٤٩٥) مناقب الشافعي؛ للبيهقي (٢/ ١٧٨).

ولم يدرك الجنيد حياة الإمام الشافعي، ولا رآه، ولا التقي به، لا في بغداد ولا في مصر، فحكايته عن الإمام هو مما اشتهر عنه، وليس مما اختصَّ به الجنيد أو طائفته، فما حكاه هو مجرد وصفٍ لحال الإمام، ولم يكن نقلاً على لسانه، بل هو خبرٌ ووصف، والخبر يرويه أيُّ أحد.

ومما سبق نعلم أن الإمام الشَّافعيَّ رحمه الله من أشدِّ الناس استمساكاً بالكتاب والسُّنَّةِ بفهم سلف الأمة، وأنه بعيدٌ كُلَّ البُعدِ عن محدثات التصوُّفِ، ولما سُئل الإمام المزني (ت ٢٦٤ هـ)- عن شيخه الشافعيّ، فيما يفعله بعض الجُهَّالِ من الرقص مع الذكر، نهى عن ذلك وحرَّمه أشدَّ الحُرمة، قال ابن الحاج في "المدخل": وقد سئل الشيخ الإمام أبو إبراهيم المزني - رحمه الله -، وكان من كبار أصحاب الإمام الشافعي - رحمه الله - فقيل له: ما تقول في الرقص على الطار، والشبابة؟ فقال: هذا لا يجوز في الدين. فقالوا: أما جوَّزَهُ الإمام الشافعي ﷺ ؟ !

فأنشد - رحمه الله تعالى -:

حاشا الإمام الشافعي النبيه ... أن ينتقِي غير معنىً نبيه

أو يترك السنة في نسكه ... أو يبتدع في الدين ما ليس فيه

أو يبتدع طاراً وشبابة ... لناسكٍ في دينه يقتديه

الضرب بالطارات في ليلة ... والرقص والتصفيقُ فعل السَّفيه

هذا ابتداعٌ وضلالٌ في الورى ... وليس في التنزيل ما يقتضيه

ولا حديثٍ عن نبيّ الهدى ... ولا صحابيٍّ ولا تابعيه

بل جاهلٌ يلعبُ في دينه ... قد ضَيَّعَ العُمرَ بلهوٍ وتيه

وراحَ في اللَّهوِ على رِسله ... وليسّ يخشى الموت إذ يعتريه

إن ولي الله لا يرتضي ... إلا بما الله له يرتضيه

وليسَ يُرضِي الله لهو الورى ... بل يمَقُتُ الله به فاعليه

بل بصيامٍ وقيامٍ في الدُّجى ... وآخر الليل لمستغفريه

إيّاك تغتَرَّ بأفعال مَن ... لا يعرفُ العلم ولا يبتغيه

قد أكلُوا الدُّنيا بدينٍ لهم ... ولبَّسُوا الأمر على جاهليه

جهلٌ وَطَيشٌ فعلهم كُلُّه ... وكُلُّ من دانَ بِهِ تزدريه

شِبهَ نِساءٍ جمعوا مـأتماً ... فقُمْنَ في الندب على ميتيه

والضرب في الصدر كما قد ترى ... ليس لهم غير النسا من شبيه

أنكـر عليهم إن تكن قادرا ... فهم رجال إبليس لا شك فيه

ولا تخـف في الله من لائم ... وفقك الله لمـا يرتضيه

ثم قال ابن الحاج: وقد تقدم أن من ثبتت عدالته لا ينسب إليه إلا ما يليق بحاله وبطريقته، من الخصال الحميدة فمن ذكر عنه غير ما يناسبه كُذِّبَ فيما ادعاه، وأُنكِرَ عليه .[١٤٩٦]

ومن خلال هذه الأبيات يتضح لنا موقف الإمام الشافعي، وتلميذه المُزني من الفكر الصُّوفي المنحرف، وتبين أن من ينسب جواز السماع الصوفي للإمام الشافعي كاذبٌ في نفس الأمر، ويؤيد ما قلناه سابقاً بأن القون المنسوب إلى الشافعيّ في التصوف غير صحيح.

(١٤٩٦) انظر: المدخل لا بن الحاج (٣/ ٩٧– ٩٨).

المبحث الرابع

موقف الإمام أحمد بن حنبل من التصوُّف (١٦٤ –٢٤١ هـ) [١٤٩٧]

والإمام أحمد هو حامل لواء السُّنة، والصابر في المحنة، والمشهود له بالتقدُّم والإمامة، وما يُجادل في إمامة أحمد إلا من فهم الدِّينَ فهماً مُنحرفاً، ولا جرم أن الإمام أحمد بن حنبل أُمَّةٌ وحده، فهو إمامٌ في الحديث، إمامٌ في الفقه، إمامٌ في نُصرة السُّنَّة، إمامٌ في الصبر على السجن والتعذيب، والضرب الشديد، إمامٌ في الرد على المبتدعين .[١٤٩٨]

وقد عاش الإمام أحمد ما بين عامي أربعٍ وستين ومائة، إلى عام إحدى وأربعين ومائتين، حيث عاصر من خلفاء بني العباس: المهدي، والهادي، والرشيد، والأمين، والمأمون، والمعتصم، والواثق، والمتوكل، الذين امتازت فترة ولايتهم بالقوة، والثبات، والامتداد في الآفاق، مع وجود الاختلاف في العناصر، والبيئات، والعقائد، والآراء، والاتجاهات. وقد اتسعت في هذا العهد دوائر الثقافة والعلم والحضارة، حيثُ نُقل إلى العربية من اليونانية والسريانية كثيرٌ من الكتب في الفلسفة

(١٤٩٧) انظر: التصوف في القرنين الثاني والثالث الهجريين؛ لأبي الخير تراسون (ص ٣٧٣–).

(١٤٩٨) الإمام أحمد بن حنبل، عبد الغني الدقر (ص ٢٣٩).

ومختلف العلوم، فأقبل الفئام من الناس، كما دخل العنصر الفارسي مع الحكم العباسي، وحمل معه أفكاراً وعقائد في بعضها الزندقة والإلحاد، وفي بعضها انحرافٌ ظاهره الإيمان، وباطنه الكفر والمكيدة للإسلام والمسلمين. ووجدت في بعض هذه الفترات بعض المساندة السياسية لبعض الفرق المنحرفة كالمعتزلة الذين قويت شوكتهم في عهد المأمون .[١٤٩٩]

ويُمكن أن يُقال: إن هذا العصر كان مجمعاً لجميع الأجناس، ومجمعاً لمختلف الملل، والنحل، والأهواء، وكان الصراع الفكري بين هؤلاء حاداً، ومستمراً، وكان كُلٌّ متعصِّبٌ لملته ونحلته، سواءً أظهرها على الملأ، أو جعلها في ضميمة صدره، واكتمل في عصره ظهور الصُّوفية والمتصوفين، الذين تكلفوا تعذيب النفس على سنن سقراط وأرسطو، ووضعوا لذلك أصول وقواعد، وكانت لهم اتجاهات خاصة في الفكر والعقيدة.

أما السواد الأعظم من الناس، فهم أهل السنة والجماعة، لهم من السيرة والخلق الحسن، ما لا يوازيه سير أحدٍ غيرهم، ولهم جهودٌ في الدفاع عن العقيدة الصحيحة، وإزالة الشوائب التي حاول المبتدعة إلصاقها بها.[١٥٠٠]

(١٤٩٩) انظر: التصوف في القرنين الثاني والثالث الهجريين؛ لأبي الخير تراسون (ص ٣٧٣).

(١٥٠٠) انظر: أحمد بن حنبل، عبد الغني الدقر (ص ١٤):

ولم يكن الإمام أحمد بِدَعاً من الأئمة، ولا خارجاً بقوله عن آثار النبوَّة، فكان رأيُه في أهل الزيغ والضلال مُتحدِّراً من سلسة فقهيَّة عريقة، مع ما بين يديه من نور الوحي، وشذا الرسالة، فالإمام أحمد رحمه الله لا يعرف الملق ولا الكذب، ولا الخداع ولا الانتفاع بالمدحة، ولا الميول الخاصة، بل كان يتكلم بما يعتقد أنه الحق والصدق والعدل، ومثله الأعلى في ذلك هو اتباع السُّنة والعمل بها، وكل ما خالف السُّنة ردَّه غير آبهٍ بمن قاله، ولا كيف قاله.

وما كان له إلا وجهٌ واحدٌ يُنبئ عن دينه وعقيدته وإخلاصه وغيرته، ولذا جعل العلماء أحمد بن حنبل العلامة الفارقة بين أهل السنة والبدعة، ولذا قال قُتيبة بن سعيد: لولا الثوريُّ لمات الورع، ولولا أحمد لأحدثوا في الدِّين.(١٥٠١)

فكان من الذين أنعم الله عليهم بالتصدِّي لأهل البدع والجهالة، الذين عقدوا ألوية البدع على قلوبهم، وأطلقوا عِنان ألسنتهم يقولون على الله، وفي الله، وفي كتاب الله بغير علم، ويلبسون على الناس في دينهم واعتقادهم،

(١٥٠١) انظر: أحمد بن حنبل، عبد الغني الدقر (ص ٢٦٤): الإمام أحمد كان يكره أساليب المتصوفة.

وكان لا يرى مجالسة أهل البدع، أو الاستماع لحديثهم، وإن تكلموا في الكتاب والسُّنَّة، وأظهروا صحيح الاعتقاد [١٥٠٢]. ومعلومٌ أن في مجالسة هؤلاء ومجادلتهم عدوى تسري بين المتجادلين بالاحتكاك، كما تسري عدوى الأمراض بالاحتكاك والاختلاط.

وأوصى الإمام أحمد تلميذه مُسدَّد بن مُسَرهد البصري في كتابه إليه، فقال: "ولا تشاور أحداً من أهل البدع في دينك، ولا تُرافقه في سفرك"، وكان يقول: "أحبُّوا أهل السُّنَّةِ على ما كان منهم".[١٥٠٣]

وكان ينهى عن مجادلتهم، ويقرأ: ﴿وَهُم يُجادلونَ في اللهِ وهوَ شَدِيدُ المِحَال﴾ (الرعد: ١٣)، وكان يقول: "لا غيبة لأصحاب البدع" يعني أنها ليست مُحرَّمة.

وقال أبو القاسم النصر آباذي: "بلغني أن أحمد بن حنبل هجر الحارث المحاسبي لأنه قد تكلَّم بشيء من مسائل الكلام، فهجره أحمد بن حنبل، فاختفى في داره ببغداد، ومات فيها، ولم يُصلِّ عليه إلا أربعة نفر"[١٥٠٤]،

(١٥٠٢) طبقات الحنابلة (٢/ ٢٨٩).
(١٥٠٣) الإمام أحمد، عبد الغني الدقر (ص ١٢٩).
(١٥٠٤) طبقات الشافعية (٢/ ٢٧٨)، والمناقب (ص ١٨٦).

ويُروى أن الإمام أحمد استمع كلام الحارث المحاسبي وأصحابه وهم في بيت إسماعيل بن إسحاق السراج، فلما فرغوا من عنده، وانصرفوا، سأل إسماعيل السراج الإمام أحمد: ما رأيك في هذا وأصحابه؟ فقال: ما رأيتُ مثل هؤلاء، فلا أرى لك أن تجتمع بهم. قال البيهقيُّ: كره الإمام صحبتهم لأنه عنده -أي المحاسبي -شيءٌ من علم الكلام، أو أنه كره صحبتهم لأنه لا يُطيق ما هم عليه من التقشُّف والورع!!.

وتعقبه ابن كثير (١٥٠٥)، فقال: قلتُ -أي ابن كثير -بل إنما كره ذلك؛ لأن في كلامهم من التقشُّف وشدة السلوك ما لم يرد بها أمرٌ، ولهذا لما وقف أبو زُرعة الرازي على كتاب الحارث المُسمَّى بـ "الرعاية"، قال: هذه بدعة، ثم قال للرجل الذي جاء بالكتاب: عليك بما كان عليه مالك والثوري والأوزاعي، والليث، ودع عنك هذا فإنَّهُ بدعة !! .(١٥٠٦)

(١٥٠٥) هو عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير، ولد سنة (٧٠٠ هـ)، وقدم دمشق وله سبع سنوات، وحفظ مختصر ابن الحاجب، وثم صاهر المزي، وصحب ابن تيمية، وكان كثير الاستحضار، وقليل النسيان، جيد الفهم، وقد انتهت إليه رئاسة العلم في التاريخ والحديث والتفسير، له مصنفات كثيرة، منها "البداية والنهاية"، "تفسير القران العظيم"، وتوفي سنة (٧٧٤ هـ). انظر: شذرات الذهب؛ لابن العماد (٦/ ٢٣١).

(١٥٠٦) انظر: البداية والنهاية؛ لابن كثير (١٠/ ٣٢٩ -٣٣٠).

فهذا الحارث المُحاسبيُّ الذي يتردَّدُ الناس في قبول كلامه في الزهد ينهى الإمامُ عن أحمد عن صحبته والاستماع إليه، فكيف بمتأخري المتزهدة والمتصوفة الذين حوت مصنفاتهم كل خرف وتلف، من كل مُصنِّفٍ أعجف أعجم، لا يدري ما هدي السلف، ولا كيف طريقتهم في الزُّهد والورع.

ومن هذا يتبين لنا أن الإمام أحمد وتلميذه أبي زرعة الرازي قد وقفا على كتاب "الرعاية" للمحاسبي، واطلع على ما فيه من أحاديث الوساوس والخطرات، ومن ثمَّ ذموا فكرة المحاسبي ومنهاجه، التي كانت مقدمة لكلام المتصوفة في المقامات والأحوال، ولا شك أن تحذير الإمام ألي زرعة وتنفيره من كتب المحاسبي، كان على علم به، ولذا حذَّر السائل حينما سأل عن الحارث المحاسبي، وكتبه، وصدق في جوابه؛ لأن علم الأثر هو الصحيح، وهو الذي يُرضي الله عز وجل، وبه أوصى الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، وكذا الصحابة والتابعون لهم بإحسان، وبوصيتهم التزم الأئمة الزهاد، الذين سلكوا طريق الاستقامة، وأقوالهم مبثوثة معلومة في كتب التراجم والسير.

وكان الإمام شديد الغضب على أولئك الذين ابتدعوا في دين الله ما لم يتكلم به النبيُّ صلى الله عليه وسلم، ولا صحابته الكرام، ولا التابعون لهم، وكان يقول –رحمه الله–: "الداعيةُ إلى البدعة لا توبة له، فأما من ليس بداعية فإن تاب

فتوبته مقبولة". ويقول: "من دعا منهم –أي من الأئمة –إلى بدعةٍ فلا تجيبوه، ولا كرامة، وإن قدرتم على خلعه فافعلوا" [١٥٠٧].

وقال ابن مفلح: وفي رواية المروذي: "وإذا تاب المبتدع –من العامة – يؤجل سنةً حتى تصحَّ توبته، واحتج بحديث إبراهيم التيمي أن القوم تاركوه في صبيغ بعد سنة، فقال: جالسوه، وكونوا منه على حذر"[١٥٠٨]. والصحيح أن توبة الداعية إلى البدعة مقبولة إذا أظهر الرجوع عن بدعته، وأعلن ذلك أمام أتباعه، "فإن الله عز وجل قد بين في كتابه، وسنة رسوله ﷺ أنه يتوب على أئمة الكفر الذين هم أعظم من أئمة البدع"[١٥٠٩].

أما المبتدع الذي يُظهر التوبة، وهو مُصرٌّ عليها، فتوبته هي توبة الكذابين، الأغبياء، الذين خالفوا الواقع، وناقضوا الشريعة في مجملها وتفصيلاتها.

وصدق الإمام أحمد رحمه الله حيثُ قال: "قولوا لأهل البدع بيننا وبينكم الجنائز"[١٥١٠]، يقول الشيخ عبد الغني الدقر: "وقد صحَّت فراسته رحمه الله،

(١٥٠٧) طبقات الحنابلة (٢/ ٣٠٥).

(١٥٠٨) الآداب الشرعية والمنح المرعية (١/ ١٣٧).

(١٥٠٩) الآداب الشرعية والمنح المرعية (١/ ١٣٨).

(١٥١٠) ابن عساكر (٨٠– ب).

فكثيرٌ ممن مات على البدعة، أو مات مُسايراً لأهلها لم يخرج في جنازته إلا العدد القليل، فمن عيون مخالفيه المبتدع الكبير، قاضي قضاة الدنيا أحمد بن أبي دؤاد (ت ٢٤٠ هـ)[١٥١١]، لم يحتفي بموته أحد، ولم يلتفت إليه، وما شيَّعهُ إلا قليلٌ من أعوان السُّلطان، وكذلك الحارث المُحاسبيُّ مع زهده وورعه وتنقيره ومحاسبته نفسه في خطرات وحركات لم يُصلِّ عليه إلا ثلاثة أو أربعة من الناس، وكذلك بشر بن غياث المريسي (ت ٢١٨هـ)[١٥١٢] لم يُصلِّ عليه إلا طائفةٌ يسيرة".[١٥١٣]

(١٥١١) هو: أحمد بن أبي دؤاد الإيادي البصري، ثم البغدادي، رأس المعتزلة، وعدو الإمام أحمد رحمه الله، قال عنه الخطيب: "كان موصوفاً بالجود والسخاء وحُسن الخلق، ووفور الأدب، غير أنه أعلن بمذهب الجهمية، وحمل السلطان على الامتحان بخلق القرآن"، وأطفأ ببدعته هذه ما كان له م كرم وسخاء ومكارم، ومات منكوباً في عهد المتوكل. انظر: تاريخ بغداد (٤/ ١٤١)، وسير أعلام النبلاء (١١/ ١٦٩).

(١٥١٢) هو: بشر بن غياث بن أبي كريمة عبد الرحمن المريسي العدوي، بالولاء، كان جده مولى لزيد بن الخطاب، وقيل: إن أباه كان يهودياً قصاراً صباغاً بالكوفة، قال عنه الذهبي: "تفقه على أبي يوسف، فبرع وأتقن علم الكلام، ثم جرد القول بخلق القرآن، وناظر عليه، ولم يدرك الجهم بن صفوان، وإنما أخذ مقالته، واحتج لها، ودعا إليها". انظر ترجمته في: ميزان الاعتدال (١/ ٣٢٢)، وتاريخ بغداد (٧/ ٥٦)، وسير أعلام النبلاء (١٠/ ١٩٩)، ولسان الميزان (٢/ ٢٩- ٣١).

(١٥١٣) الإمام أحمد بن حنبل، عبد الغني الدقر (ص ٣٠١- ٣٠٢).

أما الإمام أحمد فكما يقول ابن كثير: وقد صلَّى عليه من الرجال والنساء ما لا يُحصى كثرةً، حتى ضاقت بهم الطُّرق، وحزروا المصلين، فوجدوهم ألف ألف مُصلٍّ وسبعمائة ألف، سوى من كان في السُّفنِ.[١٥١٤]

وكانت عقيدة الإمام أحمد هي عقيدة السلف الصالح: أهل الحديث والأثر، فكان يُثبت ما أثبته الله لنفسه في كتابه، وما أثبته له رسوله ﷺ في سنته، من غير تأويل، ولا تكييف، ولا تمثيل، ولا تعطيل، ولا تفويض، وكان يكره علم الكلام، شأنه في ذلك شأن الأئمة الثلاثة قبله: مالك والشافعي وأبي حنيفة، وما جاء عنه من علم الكلام، فهو على سبيل البيان، والرد على أصحاب الكلام.

قال الإمام أبو محمد رزق الله بن عبد الوهاب التميمي: وما أظنُّ أحداً من أهل الأثر خالف في هذا إلا من أراد الله به غير الرشد [١٥١٥].

وكان الإمام أحمد منافحاً عن عقيدته الأثريَّة، ضارباً بالآراء عرض الحائط، يرى أن من غيَّر معاني آيات الصفات فقد ألحد، لأنه لو كان كلام الله ما ينبغي أن

(١٥١٤) البداية والنهاية؛ لابن كثير (١٠/ ٣٤٢).

(١٥١٥) طبقات الحنابلة (٢/ ٢٦٥).

يُصرف عن معناه الحقيقي لدلَّ عليه رسول الله ﷺ، ولرواه الصحابة رضوان الله عليهم، ولتلقاه التابعون وتابعوهم، لكنهم لم يؤلوا.

وكان الإمام أحمد يُنكر على الاتحاديَّة المارقة الذين تصوَّفوا فيما بعدما تزندقوا، والذين قالوا: إن كالله في كل مكان بذاته، بل هو سبحانه عالٍ على خلقه بذاته، مستوٍ على عرشه(١٥١٦).

وقد جادلهم الإمام أحمد فأحسن جدالهم، وأحسن الردَّ عليهم في كتابه "الرد على الجهمية"(١٥١٧)، فقال: "وإذا أردت أن تعلم أن الجهمي كاذب على الله سبحانه وتعالى حين زعم أنه في كل مكان، ولا يكون في مكان دون مكان، فقل له: أليس كان الله، ولا شيء؟ فيقول نعم، فقل له: فحين خلق الشيء خلقه في نفسه أو خارجا عن نفسه؟ فإنه يصير إلى أحد ثلاثة أقاويل:

١- إن زعم أن الله تعالى خلق الخلق في نفسه كفر، حين زعم أن الجن والإنس والشياطين وإبليس في نفسه!.

(١٥١٦) طبقات الحنابلة (٢/ ٢٩٦- ٢٩٧).

(١٥١٧) وحكاه الأشعري في "مقالات الإسلاميين" (ص٢١٢) عن بعض المعتزلة، وتبرأ منه في "الإبانة" كما ستراه في ترجمته، وجزم بأنه تعالى مستوٍ على عرشه، وهذا خلاف اعتقاد أتباعه المنتسبين إليه كما سترى قريباً.

٢- وإن قال: خلقهم خارجا من نفسه، ثم دخل فيهم، كفر أيضاً، حين زعم أنه دخل في كل مكان وحش وقذر.

٣- وإن قال خلقهم خارجاً من نفسه، ثم لم يدخل فيهم، رجع عن قوله أجمع، وهو قول أهل السنة".(١٥١٨)

وذهبت فرقةٌ ثانية وهم بعض غلاة النفاة للعلو: "الله: لا فوق، ولا تحت، ولا يمين ولا يسار ولا أمام ولا خلف لا داخل العالم ولا خارجه" (١٥١٩)، ويزيد بعض فلاسفتهم: "لا متصلاً بالعالم ولا منفصلاً عنه"!.

قال الإمام الألباني -رحمه الله -وهذا النفي معناه -كما هو ظاهر -أن الله غير موجود، وهذا هو التعطيل المطلق، والجحد الأكبر، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً (١٥٢٠).

(١٥١٨) اجتماع الجيوش الإسلامية (ص٧٦-٨٠)، ومثله في رسالة "المعرفة" للشيخ عبد الكريم الرفاعي.

(١٥١٩) كذا في "حاشية البيجوري على "الجوهرة" (ص٥٨)، وقد سمعت هذا النفي من بعض المشايخ على المنبر يوم الجمعة يعلم المسلمين الإيمان برب العالمين!

(١٥٢٠) انظر: مختصر العلو للعلي الغفار؛ اختصار الألباني (ص ٥١- ٥٢).

وما أحسن ما قال محمود بن سبكتكين لمن وصف الله بذلك: ميِّز لنا بين هذا الرب الذي تثبته وبين المعدوم! "[١٥٢١]، وهذان المذهبان الباطلان أحدهما –ولا بد– لازم لكل من أنكر صفة العلو لله على عرشه.

وكان الإمام أحمد يرى أن ترتيب الخلفاء في الفضل، كترتيبهم في الخلافة، فخير هذه الأُمَّةِ بعد نبيِّها: أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي وهم الخلفاء الراشدون، والأئمة المهديون، وكان الإمام أحمد يقول: من قدَّم علياً على عثمان، فقد أزرى بأصحاب الشورى؛ لأن قدَّموا عثمان على علي!.[١٥٢٢]

وكان لا يمسُّ معاوية بن أبي سُفيان بسوء، ويروى فضائله، ويقول: ﴿عَسى اللهُ أن يجعلَ بَينَكُم وبينَ الَّذينَ عاديتُم منهُم مودَّة﴾ (الممتحنة: ٧)[١٥٢٣] .

ولقد أوذي الإمام أحمد في الله وما يؤذى أحد، وضُرب بالسُّوط، وتجنَّدل بالأصفاد والقيود والسلاسل، وما يصدُّه عن إظهار السُّنَّةِ والصدع بها أحد، حتى قال محمد بن مُصعب العابد: لسوطٌ ضُرب به أحمد بن حنبل في الله أكبر من

(١٥٢١) انظر: التدمرية، لشيخ الإسلام ابن تيمية (ص ٤١).

(١٥٢٢) الإمام أحمد بن حنبل، عبد الغني الدقر (ص ١٢٠).

(١٥٢٣) طبقات الحنابلة (٢/ ٢٧٢).

أيام بشر بن الحارث [١٥٢٤]، وقال إسحاق بن راهويه: لولا أحمد بن حنبل لذهب الإسلام.[١٥٢٥]

حتى قال المُزنيُّ: أحمدُ بن حنبل يوم المحنة، وأبو بكرٍ يوم الردة، وعُمر يوم السقيفة، وعثمانُ يوم الدار، وعليٌّ يوم الجمل وصفيِّن .[١٥٢٦]

وقال ابن أبي حاتم: سمعتُ أبي يقول: إذا رأيتُم الرجل يُحبُّ أحمد بن حنبل، فاعلموا أنه صاحبَ سُنَّة، وقال أيضاً: سمعتُ أبا جعفر محمد بن هارون الخرمي الفلاس، يقول: إذا رأيت الرجل يقع في أحمد بن حنبل فاعلم أنه مُبتدع.[١٥٢٧]

وأما موقف الإمام أحمد من معرفة الله تعالى، فيرى أنها حاصلةٌ بالفطرة، لا تحتاج إلى مشقة وتعب، خلاف ما عليه المتصوفة، من أن حصول المعرفة بالله تعالى عسير، ومجهد، كما يقول البسطامي حين سُئل عن السبيل إلى المعرفة،

(١٥٢٤) حلية الأولياء؛ لأبي نُعيم (٩/ ١٧٣).

(١٥٢٥) تاريخ ابن عساكر (٦٧).

(١٥٢٦) البداية والنهاية؛ لابن كثير ١٠/ ٣٣٥).

(١٥٢٧) ابن عساكر (٧٠ – ب).

فقال: "ببطنٍ جائع، وجسدٍ عارٍ"[١٥٢٨]، وقال: "إنما نالوا المعرفة بتضييع مالهم، والوقوف مع ماله"، وقال أبو سعيد الخزار: "المعرفة تأتي من عين الجود، وبذلك المجهود".[١٥٢٩]

وأما موقفه من الزهد، فقد كان للزهد عند الإمام أحمد مكانةٌ عظيمة، حيثُ صنَّف كتاباً في الزهد والورع، وهو يُعطيك مثالاً صادقاً لما كان يُحبُّه الإمام أحمد من الزهد والورع والعبادة، فهو إمام الزاهدين في زمانه، ولكنه زهدٌ ليس أساسه الرغبة عن طيبات الحياة، وأسبابها ومتعها، بل أساسه طلب الحلال، ولكنه لا يطلب هذا الحلال من مالٍ فيه شُبهة، فكان منطقه في هذه الحياة منطق الرضيِّ القانع، الزاهد في غير الحلال.[١٥٣٠]

وقد سبق الإمام أحمد بزهده وورعه كثيراً من الزُّهاد، فضلاً عن المُتزهِّدة، ولم يكن يتكلَّفُ ذلك لأنه اعتاد البساطة والتقلل من الدنيا، وأصبح ذلك سجيَّةً لديه، وقد صنف لذلك كتاباً حافلاً عظيماً، لم يُسبق إلى مثله، وكان يأخذ بما أمكنه

(١٥٢٨) الرسالة القشيرية (ص .(٣١٥ – ٣١٤

(١٥٢٩) الرسالة القشيرية (ص.(٣١٧

(١٥٣٠) الإمام أحمد، لمحمد أبو زهرة (ص ٩٦– ٩٧).

منه رحمه الله كما يقول ابن كثير[١٥٣١] . وقال أبو داود: كانت مجالس أحمد مجالس الآخرة، لا يُذكر فيها شيء من أمر الدُّنيا، وما رأيتُ أحمد بن حنبل ذكر الدُّنيا قط .[١٥٣٢]

وقال أبو عُمير، عيسى بن محمد بن عيسى النحاس الفلسطيني –وذُكر عنده الإمام أحمد– فقال رحمه الله: "عن الدنيا ما أصبره، وبالماضين ما كان أشبهه، عُرضت عليه الدُّنيا فأباها، والبدع فنفاها، وخصَّه الله تعالى بنصرة دينه، والقيام بحفظ سنته، ورضيه لإقامة حجته، ونصر كلامه حين عجز عنه الناس".[١٥٣٣]

ولم يجلس مجالس البطّالين من المتصوفة الكُسالى، الذين يأكلون الدنيا بالدين، بل كان الإمام أحمد خير من زهد فعمل؛ فكان يلتقط الحبَّ، ويحمل مع الحمالين، وينسخ الدفاتر، يتكسب من ذلك رزقه، ولا يترك السعي والعمل، وهذا هو عزُّ المؤمن، لا يتكفف الناس، ولا يجعل افتقاره إلا إلى خالقه جل وعلا.

(١٥٣١) البداية والنهاية؛ لابن كثير (١٠/ ٣٢٩).

(١٥٣٢) طبقات الحنابلة (١/ ١٠).

(١٥٣٣) المنهج الأحمد في تراجم الإمام أحمد (١/ ٧٧).

وهذا بخلاف ما عليه المتصوفة الذين يكونون عالةً على الناس وضراً على المجتمع، فعن صالح بن الإمام أحمد، قال: سُئل أبي –رحه الله –وأنا شاهدٌ، عن قومٍ لا يعملون، ويقولون: نحنُ متوكلون، فقال: هؤلاء مبتدعة .(١٥٣٤)

وقد قال أحد المتصوفة الأولين: "أحبُّ للمبتدئ أن لا يشغل قلبه بالتكسُّب وإلا تغيَّر حاله"(١٥٣٥)، ونقلوا عن سيد طائفتهم الجنيد، قوله: "الزُّهد هو تخلي الأيدي عن الأملاك!".(١٥٣٦)

وهذا الظاهرة ليست بغريبة على بعض الصوفية المتقدمين، حيث سجَّل لنا التاريخ كثيراً من حكاياتهم في ترك التكسُّب، وإيثار الفقر، وترك الأموال، وكانوا من ذوي الأموال فتخلوا عنها، ثم أخذوا في السياحة !!.(١٥٣٧)

فهذا بشر بن الحارث، يقول: أفضل المقامات اعتقاد الصبر على الفقر إلى القبر(١٥٣٨)، ولا شك أن اعتبار الفقر أساساً يبني عليه المرء دينه مخالفٌ

(١٥٣٤) المسائل والرسائل المروية عن الإمام أحمد بن حنبل في العقيدة، للدكتور عبد الإله الأحمدي (٢/ ٢٣٨).

(١٥٣٥) قوت القلوب؛ لأبي طالب المكي (١/ ١٦٧).

(١٥٣٦) اللُّمع للطوسي (ص ٧٢).

(١٥٣٧) انظر: تاريخ بغداد (٧/ ٢٢١)، وسير أعلام النبلاء (١٥/ ٢٣١).

(١٥٣٨) انظر: الرسالة القشيرية (ص ٢٧٤).

لتعاليم الرسول ﷺ، الذي كان يقول في دعائه: "اللهم إني أعوذ بك من الفقر".[١٥٣٩]

ولا شك أن هذا الفهم الخاطئ للفقر والزهد، دفع هؤلاء المغترين إلى فهمٍ خاطئ لقضية التوكل على الله عز وجل؛ فتركوا الأسباب، وبالغوا في الأمر حتى بلغ بهم حدَّ الجنون والسَّرف في الفهم، فكان أحدهم إذا وُضع أمامه طعام لا يمدُّ إليه يده حتى يأتي من يُطعمه، وإذا وجد من يُطعمه يسُدُّ فاه، حتى يأتي من يفتحه له، وقد رُوي ذلك عن شقيق البلخي، وغيره، وهم عاصون لله بما يتركون من طاعته.

وفي ذلك يقول الإمام ابن الجوزي: "وقد لبس عَلَى قوم يدعون التوكل، فخرجوا بلا زاد وظنوا أن هذا هو التوكل وهم عَلَى غاية الخطأ، قَالَ رجل للإمام أَحْمَد بْن حنبل رحمه الله: أريد أن أخرج إِلَى مكة عَلَى التوكل من غير زاد! فَقَالَ لَهُ أَحْمَد: فاخرج فِي غير القافلة، قَالَ: لا، إلا معهم!!، فقَالَ له أحمد: فعلى جراب الناس توكلت!!".[١٥٤٠]

(١٥٣٩) صحيح، رواه أبو داود في الأدب المفرد (٦٧٨)، وأبو داود في سننه (١٥٤٤)، وابن ماجه (٣٨٤٢)، والنسائي(٥٤٦٠).

(١٥٤٠) تلبيس إبليس؛ لابن الجوزي (ص ١٧٨- ١٧٩).

يقول الشيخ عبد الغني الدقر: وقد تحول الزهد إلى تزهد، والتزهُّد إلى تصوُّف، وصار التصوُّف فناً، أو فلسفةً روحية، له مصطلحاته، وأصوله، قلَّ صفاء التصوف، وضعفت عفوية التعبُّد وروحه الخالص، وتولى الزُّهد الصحيح، وهزلت الصلة بشرع الله، وأهملَ العلم، وبرزت منه كلمات لا تمتُّ إلى دين الله وكتابه بأدنى صلة [١٥٤١].

أما التزهُّد فهو كل ما أفضى إلى تحريم ما أحل الله، والامتناع عن المباح الذي رفع الله فيه الحرج، قال أبو يعلى في طبقات الحنابلة، مُبيناً موقف الإمام أحمد من الزهد: "وكان الإمام أحمد رحمه الله ينهى عن الزهد المفضي إلى تحريم ما أحل الله، والامتناع من المباح الذي رفع الله فيه الحرج"[١٥٤٢]، قال: وكان الإمام أحمد ينهى عنه، ويقول: "المُحرِّم ما أحلَّ الله، كالمُحلِّ ما حرَّم الله".[١٥٤٣]

وكذلك كان الإمام أحمد لا يُظهر للناس بثوب المتنسكَ، المتقشِّف، كما يفعل المتصوفةُ المتنسكة في ثيابهم، بل كان يتوسَّطُ في ذلك، وهذه معارضةٌ

(١٥٤١) الإمام أحمد، عبد الغني الدقر (ص ٢٦٤).

(١٥٤٢) طبقات الحنابلة (٢/ ٢٣٩).

(١٥٤٣) الإمام أحمد، عبد الغني الدقر (ص ٢٦٥).

ظاهريَّةٌ لنحلتهم، فلم يكن "لثوبه رِقَّةٌ تُنكر، ولا غِلَظٌ يُنكر"[١٥٤٤]. وقد علَّق الإمام ابن الجوزي –رحمه الله– على ذلك بقوله: "أراد ترك التزيّ بزيّ الفقراء، كي يُزيلَ عن نفسه ما يشتهرُ به".[١٥٤٥]

وعلى الرغم من وجود بعض كبار المتصوفة في زمانه، إلا أن الإمام أحمد آثر أن يضع لكتابه في المضمون الوجداني اسم "الزهد" لا "التصوف"[١٥٤٦].

وهذا ما جعل شيخ الإسلام ابن تيمية يُثني على هذا الكتاب، قائلاً: "وأجودُ ما صُنِّفَ فيه –يعني الزهد– كتابُ الزُّهدِ للإمام أحمد"، فالزهد عند أحمد هو زهدٌ فيه لب الحلال، والبعد عن حمى أية شبهة يُمكن أن تنال من نزاهة النفوس، زهدٌ يُرقق النفوس ويُلين القلوب، ويُزيل غشاوات الغرور والعُجب.

وأما موقف الإمام أحمد من طلب العلم، والحثِّ على تعلُّمه وتعليمه ونشره، فأشهر من أن نتكلم فيه، فالإمام أحمد كان لا يُحدث إلا من كتاب، وقد سافر إلى شرق البلاد وعرضها، يكتب عن الشيوخ والمحدثين آثار رسول الله ﷺ وأقواله وأفعاله، وفتاوى الصحابة وأقضيتهم، ومسائل العلم عن التابعين وتابعيهم من

(١٥٤٤) مناقب الإمام أحمد، لابن الجوزي (ص ٢٥٤).

(١٥٤٥) مناقب الإمام أحمد، لابن الجوزي (ص ٢٨٢).

(١٥٤٦) انظر: ابن تيمية والتصوف (ص ١٧٤).

أئمة الهدى ومصابيح العلم، والناظر في كلام الصُّوفية يرى فيهم من ذمَّ العلماء، ومن يرى أن الاشتغال بالعلم بطالة، وأن منهم من نهى عن التشاغل بالعلم وكتابته، ونهى عن طلب العلم الظاهر –كما يقولون– واقتصروا في أعمالهم وأحوالهم على أخبار فلانٍ الصُّوفي، وخواطر فلانٍ المتصوِّف، فنعوذ بالله من الضلال والعمى.(١٥٤٧)

وكان بعض المتصوفة –لا بارك الله فيهم – يُنكرون على المشتغلين بطلب العلم والحديث، كما ذكر ابن الجوزي، فقال: "بلغني عن أبي سعيد الكندي، قال: كنتُ أنزل رباط الصُّوفيَّة، وأطلبُ الحديث في خفية بحيث لا يعلمون، فسقطت الدواة يوماً من كُمِّي، فقال لي بعض الصُّوفية: استر عورتك".

وذكر أن الحسين بن أحمد الصفار: كانت بيده محبرة، فقال له الشبلي: غيِّب سوادك عنِّي، يكفيني سوادُ قلبي !.

بينما كان الإمام أحمد عندما يرى المحابر بأيدي طلبة العلم فيقول هذه سرج الإسلام، وكان هو يحمل المحبرة عَلَى كبر سنه، فلما قيل له: إِلَى متى يا أبا عَبْد اللَّهِ ؟ فَقَالَ: المحبرة إِلَى المقبرة !.

(١٥٤٧) انظر: تلبيس إبليس؛ لابن الجوزي (ص ٣٩٧).

ومن قبله الإمام الشافعي رحمه اللَّه، كان يقول: "إذا رأيتُ رجلا من أصحاب الحديث فكأني رأيت رجلا من أصحاب رَسُول اللَّهِ ﷺ"، وقال يوسف بْن أسباط: بطلبة الحديث يدفع اللَّه البلاء عَنْ أهل الأَرْض.

ثم عقب ابن الجوزي، فقال: من أكبر المعاندة لله، الصد عَنْ سبيل اللَّه وأوضح سبيل اللَّه العلم؛ لأنه دليل عَلَى اللَّه وبيان لأحكام اللَّه وشرعه، وإيضاح لما يحبه ويكرهه فالمنع مِنْهُ معاداة لله ولشرعه..

وفي الحديث عن النَّبيِّ ﷺ، قال: "لا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي مَنْصُورِينَ لا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ"، فَقَالَ أحمد: "إن لم يكونوا أصحاب الحديث فلا أدري من هم". وقيل للإمام أحمد إن رجلاً قَالَ فِي أصحاب الحديث أنهم كانوا قوم سوء؛ فَقَالَ أحمد هو زنديق !.

ثُمَّ روى ابن الجوزي بإسناده إلى أبي عَبْد اللَّهِ بْن خفيف، أنه قال لأصحابه: اشتغلوا بتعلم العلم، ولا يغرنكم كلام الصوفية، فإني كنت أخبئ محبرتي فِي جيب مرقعتي، والكاغد –الرقعة– فِي حزة سراويلي، وكنت أذهب خفية إِلَى أهل العلم، فَإِذَا عَلِمُوا بي خاصموني، وقالوا لا تفلح! ثم احتاجوا إليَّ بعد ذلك.[١٥٤٨]

١٥٤٨() انظر: تلبيس إبليس لابن الجوزي (ص ٤٠٠).

وأما موقفه من السَّماع؛ فكان ينهى عن سماع قصائد ابن الخبازة في الزهد والترغيب، ويقول: الاجتماع لذلك مُحدث، وكذلك كان يمنع الكلام في الخطرات والوساوس والإشارات، ويقول: الكتاب والسنة هو المأمور به.(١٥٤٩)

ومن لطيف ما يُذكر من أخبار الإمام أحمد أن أبا حفص عمر بن صالح الطرسوسي ذهب إلى الإمام أحمد، وسأله: بم تلينُ القلوب؟، قال: يا بُنيَّ بأكل الحلال، ثم انفتل إلى بشر بن الحارث، فسأله: بم تلينُ القلوب يا أبا نصر؟، فقال له: بذكر الله تعالى، فقال له: ولكني جئتُ من عند الإمام أحمد، وسألتُه عن ذلك، فقال: تلينُ بأكل الحلال، فأجابه بشر بن الحارث: جاءك بالجوهر، جاءك بالجوهر، الأصل كما قال، الأصلُ كما قال .(١٥٥٠)

وأما موقفه من الزواج؛ فيرى أنه سُنَّة الأنبياء والمرسلين والصالحين من عباد الله، ومعلومٌ أن المتصوفة كانوا يعزفون عن الزواج، ويعافونه تنزُّهاً وتبتلاً، ويرون ذلك من الزهد المشروع، وهو غير صحيح، فقد نهى النبيُّ صلى الله عليه وسلم عن التبتل، وأمر بالنكاح وحثَّ عليه، وكلُّ دعوةٍ تُخالف هديَ النَّبيِّ ﷺ وسنته؛ فهي مُحادَّةٌ لله ورسوله، ومن هؤلاء المتصوفة من كان يعزف عن الزواج، ويُنفر الناس

١٥٤٩() الإمام أحمد، عبد الغني الدقر (ص ٢٦٥).

١٥٥٠() حلية الأولياء (٩/ ١٨٢).

منه، ومن هؤلاء: سهل التستري، الذي قال: "إياكم والاستمتاع بالنساء، والميل إليهن، فإن النساء مُبعداتٌ عن الحكمة، قريباتٌ من الشيطان، ومن حاد عنهن يئس منه، وما مال الشيطان لأحد كميله إلى من استرق بالنساء، وأن الشرَّ معهن حينُ كُنَّ، فإذا رأيتم في وقتكم من قد ركن، فايأسوا منه"[١٥٥١]، بل وينفرون الناس منه، ولما سمع الإمام أمد بعض عبارات المتصوفة في النهي عن الزواج، قال: وقع هؤلاء في بُنيات الطريق!.

وأما موقفه من الخوف والرجاء، فهو أن الخائف الذي غلب عليه جانب الخوف مُقصِّرٌ، والراجِي الذي غلب عليه جانب الرجاء متواني، والحقُّ وسطٌ بينهما، وأن من تركهما بالكلية فهو مُبطل، فالخوف والرجاء كجناحي الطائر في قلب المؤمن، فعن إسحاق بن إبراهيم بن هانئ، قال: قال أبو عبد الله –يعني الإمام أحمد: "ينبغي للمؤمن أن يكون خوفه ورجاؤه واحداً"[١٥٥٢]، وقال غيره: فأيهما رجح صاحبه هلك.

والخوف والرجاء يتفوتان ويتناوبان في المرء بحسب حاله، وصولاً إلى الاتزان والاعتدال في السير إلى الله عز وجل، فكان الإمام أحمد يخاف في الحال

١٥٥١() غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية (٢/ ٢٠٩).

(١٥٥٢) مسائل الإمام أحمد، رواية إسحاق بن إبراهيم (٢/ ١٧٨).

التي يرى فيها الإقبال على الدنيا والتشاغل بها، والرجاء في الحال التي يرى فيها عُسر الحال، والإقبال على الآخرة، مع قرب الموعد واللقاء مع الملك جل جلاله.

وأما موقفه من السياحة الصوفية، التي تعني الانتقال من مصر إلى مصر، ومن بلد إلى بلد، تاركين الأهل والأولاد والأوطان، بقصد التعبُّد والتفكر، فقال إسحاق بن إبراهيم بن هانئ: "سُئل (أي الإمام أحمد) عن الرجل يسيحُ يتعبد أحبُّ إليك، أو المقام في الأمصار؟ قال: ما السياحة من الإسلام في شيء، ولا من فعل النبيين ولا الصالحين"(١٥٥٣). وقد أراد الإمام أحمد بهذه السياحة ظاهر ما يفعله المتصوفة لأجل نيل الولاية كما يزعمون !.

وأما السياحة المذكورة في القرآن من قوله تعالى: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ﴾ (التوبة: ١١٢)، ومن قوله تعالى: ﴿مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ﴾ (التحريم: ٥)، فليس المراد بها هذه السياحة المبتدعة (١٥٥٤) .

(١٥٥٣) مسائل الإمام أحمد، رواية إسحاق بن إبراهيم (٢/ ١٧٦).

(١٥٥٤) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية (١٠/ ٦٤٢- ٦٤٣).

قال ابن كثير: بيان أن المراد بالسياحة الصيام، واستدل بقول عبد الله بن مسعود، وعائشة بأن سياحة هذه الأمة الصيام..

قال: وجاء ما يدل على أن السياحة الجهاد، وهو ما روى أبو داود في سننه من حديث أبي أمامة أن رجلاً قال: يا رسول الله ائذن لي في السياحة، فقال النبي ﷺ: "سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله"(١٥٥٥)، وعن عكرمة أنه قال: هم طلبة العلم، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هم المهاجرون، رواهما ابن أبي حاتم.

ثم قال ابن كثير: وليس المراد من السياحة ما قد يفهمه بعض من يتعبد بمجرد السياحة في الأرض، والتفرد في شواهق الجبال والكهوف والبراري، فإن هذا ليس بمشروع إلا في أيام الفتن والزلازل في الدين، كما ثبت في صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري، أن رسول الله ﷺ قال: "يوشك أن يكون خير مال الرجل غنم يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن".(١٥٥٦)

(١٥٥٥) رواه أبو داود.

(١٥٥٦) تفسير ابن كثير (٣/ ٤٥٩).

وأما موقفه من التغبير، والاجتماع لأجل الاستماع للقصائد والمدائح، فيرى أنه بدعةٌ محدثة في الدين، وكره من فعل ذلك، لأنه لا يزيدُ في الإيمان شيئاً، بل هو مما يُنبت النفاق في القلب [١٥٥٧] .

روى أبو بكر الخلال، قال: أخبرني محمد بن علي، أن أبا بكر الأثرم حدثهم، قال: سمعتُ أبا عبد الله، يقول: التغبير هو بدعةٌ مُحدثة، ولا يحلُّ سماعه.

وقال الخلال: أخبرني محمد بن أبي هارون، ومحمد بن جعفر، أن أبا الحارث حدثهم، قال: سألتُ أبا عبد الله: ما ترى في التغبير أنه يُرقق القلب؟ فقال: بدعة [١٥٥٨] .

وروى الخلال عن الإمام أحمد، أنه سُئل عن سماع القصائد، فقال: أكرهه.

وعن عبد الرحمن المطبب، قال: سألت أحمد بن حنبل: ما تقول في أهل القصائد؟ قال: أهل بدعةٍ لا يُجالسون! [١٥٥٩] .

(١٥٥٧) تلبيس إبليس، لابن الجوزي (ص ٢٨٠).

(١٥٥٨) المسائل والرسائل المروية عن الإمام أحمد (٢/ ٢٧٤- ٢٧٥).

(١٥٥٩) المسائل والرسائل المروية عن الإمام أحمد (٢/ ٢٧٦).

وذكر أبو يعلى الحنبلي عن الإمام أحمد أنه سُئل عن السَّماع؟ فقال: "هو مُحدثٌ أكرهه، قيل له: إنه يُرقِّقُ القلب! فقال: لا تجلسوا معهم. قيل: أيُهجرون؟ فقال: لا يبلغُ بهم هذا كُلِه" [١٥٦٠].

فبين أنه بدعةٌ لم يفعلها أهل القرون الماضية، لا في الحجاز، ولا في الشام، ولا في اليمن، ولا في مصر، ولا في العراق، ولا خراسان، ولو كان للمسلمين به منفعةٌ في دينهم لفعله السَّلفُ. كذلك لم يحضره طائفةٌ منهم مثل: إبراهيم بن الأدهم، ولا معروف الكرخي، ولا السري السقطي، ولا الشيخ عبد القادر، والشيخ عدي، والشيخ أبي البيان، ولا الشيخ حياة، وغيرهم، بل إن في كلامهم ما يُفصح أنه مكروه عندهم.

ولذا حكم الإمام الثقة يزيد بن هارون (ت ٢٠٦ هـ) على صاحب التغبير بأنه فاسق، حينما قال: "ما يُغبِّرُ إلا فاسقٌ، ومتى كان التغبير"[١٥٦١]، يُشير إلى أنها بدعةٌ محدثة. وقال الإمام القدوة عبد الله بن داود (ت ٢١٣ هـ): "أرى أن يُضرب صاحبُ التغبير"[١٥٦٢]. وقال ابن قدامة: "والتغبير اسمٌ لهذا السَّماع، وقد كرهه

(١٥٦٠) طبقات الحنابلة لأبي يعلى (١/ ٣٩٦).

(١٥٦١) سير أعلام النبلاء (٩/ ٣٥٨)، وتاريخ بغداد (١٤/ ٣٣٧).

(١٥٦٢) سير أعلام النبلاء (٩/ ٣٤٦).

الأئمة كما ترى، ولم ينضم إليه هذه المكروهات من الدفوف والشابات، فكسف إذا انضمت إليه واتخذوه ديناً، فما أشبههم بالذين عابهم الله، بقوله: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾ (الأنفال: ٣٥)، قيل: المكاء الصفير، والتصدية التصفيق.

وقال الله سبحانه وتعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ (الأنعام: ٧٠)، ومن المعلوم أن الطريق إلى الله سبحانه وتعالى إنما تُعلم من جهة الله تعالى بواسطة رسوله ﷺ، فإن الله عز وجل رضيه هادياً، ومبيناً، وبشيراً، ونذيراً، وأمر باتباعه، وقرن طاعته بطاعته، ومعصيته بمعصيته، وجعل اتباعه دليلاً على محبته، فقال جل وعلا: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ (النساء: ٨٠).

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ (الأحزاب: ٣٦).

ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (آل عمران: ٣١)

وأضاف ابن قدامة قائلاً: "ومن المعلوم أن رسول الله ﷺ كان شفيقاً على أمته، حريصاً على هداهم، رحيماً بهم، فما ترك طريقاً تهدي إلى الصواب إلا وشرعها لأمته، ودلهم عليها بفعله وقوله، وكان أصحابه رضوان الله عليهم من الحرص على الخير والطاعة، والمسارعة إلى رضوان الله بحيث لم تركوا خصلة من خصال الخير إلا سابقوا إليها.

فما نُقل عن النَّبيِّ ﷺ، ولا عن أحدٍ من صحابته، أنه سلك هذه الطريقة الرديئة، ولا سهر ليلةً في سماعٍ يتقرَّبُ به إلى الله سبحانه وتعالى، ولا قال: من رقص فله من الأجر كذا، ولا قال: الغناء لا يُنبت النفاق في القلب، ولا استمع الشابة، فأصغى إليها وحسَّنها، أو جعل في استماعها وفعلها أجراً، وهذا أمرٌ لا يُمكن مكابرته ...".(١٥٦٣)

وأما ما جاء في ثناء الإمام أحمد على بعض متقدمي الصُّوفي من أمثال معروف الكرخي (ت ٢٠٠ هـ)، فروى الخطيب البغدادي في تاريخه، قال: أَخْبَرَنَا إِسْمَاعِيل بن أَحْمَد الحيري، قَالَ: أَخْبَرَنَا مُحَمَّد بن الحسين السلمي، قَالَ: سمعت أبا الفرج عبد الواحد بن بكر الورثاني، يقول: سمعت عبد العزيز بن منصور، يقول: سمعت جدي، يقول: كنت عند أَحْمَد بن حنبل فذكر في مجلسه أمر معروف

(١٥٦٣) ذم ما عليه مدعو التصوف (ص ٩- ١٠).

الكرخي، فقال بعض من حضر: هو قصير العلم، فقال أَحْمَد: أمسك، عافاك الله، وهل يراد من العلم إلا ما وصل إليه معروف[١٥٦٤]. وهذا الخبرُ فيه انقطاع، وما تضمنه باطلٌ، فإنه لا يُعرف منه هو عبد العزيز بن منصور، ولا من هو جدُّه، ولم نجد لأبي الفرج الورثاني خبراً يرويه عنه غير هذا.

وأورد السُّلميُّ في طبقاته، أن الإمام أَحْمد بن حَنْبَل كَانَ إِذا جرى فِي مَجْلِسه شَيْء من كَلَام الْقَوْم يَقُول لأبي حَمْزَة مَا تَقول فِيهَا يَا صوفي ؟!، وهذا الخبر قد أورده مُرسلاً بلا زمام، وأسنده الإمام أبو يعلى في طبقاته، فقال: أَخْبَرَنَا أَحْمَد نزيل دمشق أَخْبَرَنَا أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ الحميري أَخْبَرَنَا مُحَمَّد بْن الحسين السلمي سمعت مُحَمَّد بْن الحسن المنصوري البغدادي يحكي عَنِ ابن الأعرابي، قَالَ: قَالَ أَبُو حمزة كان الإمام أَحْمَد بن حنبل يسألني فِي مجلسه عَنْ مسائل، ويقول ما تقول فيها يا صوفي؟ .[١٥٦٥]

وقد عدَّ الصوفية ذلك استفهاماً وسؤالاً من الإمام أحمد لذلك الصُّوفيُّ عما لا يعلمه، والناظر في فقه الإمام أحمد وشدة اتباعه وديانته، لا يمكن أن يوافق على هذه النظرة السطحية الباهتة لعلم ذلك الإمام، فقد كان الإمام أحمد أشدُّ ما

(١٥٦٤) رواه الخطيب في تاريخه (١٣/ ٢٠٢).

(١٥٦٥) رواه الخطيب في تاريخه (١٣/ ٢٠٢).

يتحرى لدينه، فلا يقبل في المسألة إلا ما كان مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ، أو موقوفاً على الصحابة، وأما آراء الرجال فلا يعقد لها حبلاً، فكيف بمن يعرف الإمام بدعته، وأنه على غير الجادة، فلو سلمنا بصحة ذلك الأثر، فنقول: إن الإمام أحمد لم يكن بهدف بسؤاله الاستفسار عما يجهله بقدر ما يريد تصحيح الرأي الذي يذهب إليه ذلك الصوفي، وهذا ما ذهب إليه القاض أبو يعلى في تعليقه على الخبر، فيقول: "أراد –والله أعلم– بسؤاله إن أصاب أقرَّه عليه، وإن أخطأ بيَّنه له". [١٥٦٦]

كذلك فإن أبا حمزة –هذا– هو المُخبر عن نفسه، وهو مبتدعٌ في نفس الأمر، وقد نُسب إلى الحلول والزندقة، فهو إذن مُتَّهمٌ في دينه، ومن كان مُتهماً في دينه، فإن روايته لا تُقبل؛ سيما ما يؤيد به بدعته، وما يُظهر فيها فضله على غيره، ومعلومٌ أن الإمام أحمد خيرٌ من ملء الأرض من أمثال أبي حمزة هذا، وعلى فرض أن أبا حمزة جالس الإمام أحمد، وأنه سمح به لكونه متعلماً، فإن هذا لا يعني أن الإمام أحمد بن حنبل أقرَّ بشطحاته وانحرافاته، التي بيَّناها آنفاً.

- بيان بطلان ما نُسب إلى الإمام أحمد في التصوُّف:

أولاً: ما جاء عنه في الأبدال:

(١٥٦٦) طبقات الحنابلة (١/ ٢٦٨).

ورد على لسان الإمام أحمد لفظ الأبدال، وروى في مسنده حديثاً في ذلك؛ فقال: حدثنا أبو المغيرة حدثنا صفوان حدثني شريح، يعني ابن عبيد، قال: ذكر أهل الشأم عند علي بن أبي طالب وهو بالعراق، فقالوا: العنهم يا أمير المؤمنين! قال: لا، إني سمعت رسول الله – ﷺ– يقول: "الأبدال يكونون بالشأم، وهم أربعون رجلاً، كلما مات رجل أبدل الله مكانه رجلا، يُسْقَى بهم الغيثُ، وينُتصر بهم على الأعداء، ويُصرف عن أهل الشأم بهم العذاب" (١٥٦٧).

قال الشيخ أحمد شاكر: "إسناده ضعيف، لانقطاعه. وشريح بن عبيد الحضرمي الحمصي: لم يدرك عليًا، بل لم يدرك إلا بعض متأخري الوفاة من الصحابة(١٥٦٨)، وقد سبقت له رواية منقطعة أيضاً عن عمر بهذا الإسناد."(١٥٦٩)

(١٥٦٧) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١/ ١١٢).

(١٥٦٨) انظر: التعليق على المسند (٢/ ١٧١)، ح (٨٩٦).

(١٥٦٩) انظر: الحديث رقم (١٠٧) في المسند، قال الشيخ أحمد شاكر: إسناده ضعيف لانقطاعه؛ لأن شريح بن عبيد الحمصي: تابعي متأخر، لم يدرك عمر. انظر: مسند أحمد ت شاكر (١/ ٢١١).

ثم قال: والحديث ذكره قاضي الملك المدارسي (ت ١٢٨٠ هـ) في ذيل القول المسدد [١٥٧٠] مستدلاً به على ثبوت حديث الأبدال، وهو استدلالٌ ضعيف كما ترى!.[١٥٧١]

وقال الألباني: "ضعيف".[١٥٧٢]

وقال عبد الله بن الإمام أحمد في حديث آخر:

حدثنا أبي، حدثنا عبد الوهاب بن عطاء، أخبرنا الحسن بن ذكوان، عن عبد الواحد بن قيس، عن عبادة بن الصامت، عن النبي ﷺ، أنه قال: "الأبدال في هذه الأمة ثلاثون مثل إبراهيم خليل الرحمن، كلما مات رجلٌ، أبدل الله مكانه رجلاً".[١٥٧٣]

والحديث قد حكم عليه الإمام أحمد بأنه مُنكر، وهو رايه.

(١٥٧٠) انظر المصدر المشار إليه، (ص ٨٩- ٩٠).

(١٥٧١) انظر: مسند أحمد ت شاكر (١/ ٢١١).

(١٥٧٢) انظر: ضعيف الجامع الصغير (ح ٢٢٦٦).

(١٥٧٣) رواه أحمد في المسند (٥/ ٣٢٢).

وقال الألبانيُّ: "ضعيف".[١٥٧٤]

وحديثٌ ثالثٌ لعُبادة بن الصامت، بلفظ: قال رسول الله ﷺ: "لا يزال في أمتي ثلاثون بهم تقوم الأرض، وبهم تمطرون، وبهم تنصرون".

وقال الهيثميُّ: "رواه الطبراني من طريق عمر، والبزار عن عنبسة الخواص، وكلاهما لم أعرفه" .[١٥٧٥]

وقال الألبانيُّ: "ضعيف".[١٥٧٦]

وحديثٌ رابعٌ في الأبدال لابن مسعود، بلفظ: "لا يزال أربعون رجلاً من أمتي قلوبهم على قلب إبراهيم، يدفع الله بهم عن أهل الأرض، يقال لهم الأبدال، وإنهم لم يدركوها بصلاة ولا بصوم ولا صدقة، ولكن بالسخاء والنصيحة للمسلمين".[١٥٧٧]

(١٥٧٤) انظر: ضعيف الجامع الصغير (ح ٢٢٦٩).

(١٥٧٥) مجمع الزوائد (١٠/ ٦٣).

(١٥٧٦) انظر: ضعيف الجامع الصغير (ح ٢٢٦٧).

(١٥٧٧) رواه الطبراني في الكبير (١٠/ ١٨١، برقم: ١٠٣٩٠). وعنه أبو نُعيم في الحلية (٤/ ١٧٢).

قال الهيثميُّ في "الزوائد": "رواه الطبرانيُّ من رواية ثابت بن عياش الأحدب، عن رجاء الكلبي، وكلاهما لم أعرفه".(١٥٧٨)

وقال الألبانيُّ: "ضعيفٌ جداً".(١٥٧٩)

وحديثٌ خامسٌ لعوف بن مالك الأشجعي في الأبدال، بلفظ: يا أهل مصر أنا عوف بن مالك، لا تسبوا أهل الشام فإني سمعت رسول الله ﷺ، يقول: "فيهم الأبدال، وبهم تنصرون، وبهم ترزقون".(١٥٨٠)

قال الهيثمي: "رواه الطبراني، وفيه عمرو بن واقد، وقد ضعفه جمهور الأئمة، وشهر اختلفوا فيه".(١٥٨١)

(١٥٧٨) مجمع الزوائد (١٠/ ٦٣).

(١٥٧٩) سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة (ح ١٤٧٨).

(١٥٨٠) رواه الطبراني في الكبير (١٨/ ٦٥، برقم: ١٢٠). وعنه ابن عساكر في تاريخه (١/ ٢٧٧).

(١٥٨١) انظر: مجمع الزوائد (١٠/ ٦٣).

وقال الألبانيُّ: "إسناده ضعيفٌ جداً، فيه شهر بن حوشب سيء الحفظ، وعمرو بن واقد متروك كما في " التقريب "[١٥٨٢]. فهذه بعض الأحاديث التي تتحدث عن الأبدال، وهي أحاديث ضعيفة، لا تثبت.

ثم وجدنا بعض الروايات التي تدل على أن الإمام أحمد استخدم كلمة "الأبدال" على بعض الصُّوفيَّة المعاصرين للإمام أحمد، فهل هذا صحيح ؟!

الرواية الأولى: قال الخطيب في "تاريخه": أخبرنا عبد العزيز بن علي الوراق، قال: حدثنا علي بن عبد الله بن الحسن الهمذاني، قال: حدثنا القاسم بن الحسن بن جرير، قال: حدثنا محمد بن أبي عتاب، عن محمد بن المثنى، قال: قلت لأحمد بن حنبل: ما تقول في هذا الرجل؟ فقال لي: أي الرجال؟ فقلت له: بِشْرٌ الحافي، فقال لي: سألتني عن رابع سبعة من الأبدال، أو عامر بن عبد قيس، ما مثله عندي إلا مثل رجل ركز رمحاً في الأرض، ثم قعد منه على السنان، فهل ترك لأحد موضعا يقعد فيه.[١٥٨٣]

(١٥٨٢) انظر: سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة (٢/ ٣٤١).

(١٥٨٣) انظر: تاريخ بغداد (٧/ ٥٤٥، برقم: ٣٤٧٠).

قال أبو الخير تراسون: "في السند رجلٌ صوفيٌّ، وهو علي بن عبد الله بن الحسن بن جهضم الهمداني (ت ٤١٠ هـ)، قال الذهبيُّ عنه: "شيخ الصوفية في الحرم، لقد أتى بمصائب في كتاب "بهجة الأسرار" يشهد القلب ببطلانها، ثم قال الذهبيُّ: ليس بثقة، بل مُتهمٌ يأتي بالمصائب، وقال ابن خيرون: قيل: إنه يكذب". (١٥٨٤)

فالرواية –إذن –في سندها ضعف، وهو رجلٌ صوفيٌّ مُتهم بالكذب.

الرواية الثانية: نقل ابن الجوزي في كتاب "المناقب" عن الخلال، قال: وحدثنا أبو بكر المروذي، قال: قدم رجل من الزهاد، فأدخلته على أبي عبد الله وعليه فرو خلق، وخريقة على رأسه، وهو حافٍ في برد شديد، فسلم عليه، فقال له: يا أبا عبد الله، قد جئت من موضع بعيد، وما أردت إلا السلام عليك. وأريد عبادان؛ وأريد إن أنا رجعت أن أمر بك وأسلم عليك. فقال له أبو عبد الله: إن قدر، فقام الرجل فسلم وأبو عبد الله قاعد، قال المروذي: ما رأيت أحداً قط قام من عند أبي عبد الله حتى يقوم أبو عبد الله إلا هذا الرجل، فقال لي أبو عبد الله:

(١٥٨٤) انظر: سير أعلام النبلاء (١٧/ ٢٧٥- ٢٧٦)، وميزان الاعتدال (٣/ ١٤٣)، ولسان الميزان (٤/ ٢٣٨).

ما ترى؟ ما أشبهه بالأبدال! أو قال: إني لأذكر به الأبدال! فأخرج إليه أبو عبد الله أربعة أرغفة مشطورة بكامخ وقال: لو كان عندنا لواسيناك.(١٥٨٥)

وهذه الرواية، وإن كان في سندها تلميذٌ للإمام أحمد بن حنبل، فهي لا تعني أن الأبدال عند الإمام أحمد هم المعترفون بالأبدال الأربعين أو السبعين عند المتصوفة، وإنما يعني لفظ الأبدال بالزهاد كما هو واضحٌ من الرواية المذكورة، أو أن الإمام أحمد –رحمه الله– ذكر ذلك إما آثراً لها عن غيره، أو ذاكراً كما يفعله في مسنده، ولم يُقر الإمام أحمد بهذا المصطلح الذي اخترعه بعض الصوفية في تصنيف طبقاتهم وأوليائهم.

ومن جملة القول أن الإمام ابن الجوزي أورد أحاديث الأبدال في كتاب "الموضوعات"، وعلق عليها بعد سردها بأسانيدها، فيقول: "ليس في هذه الأحاديث شيءٌ يصحُّ".(١٥٨٦)

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "وكل حديث يروى عن النبي ﷺ في عدة الأولياء، والأبدال، والنقباء، والنجباء، والأوتاد، والأقطاب، مثل أربعة، أو

(١٥٨٥) انظر: مناقب الإمام أحمد؛ لابن الجوزي (ص ١٤٧).

(١٥٨٦) كتاب الموضوعات (٣/ ١٥٢).

سبعة، أو اثني عشر، أو أربعين، أو سبعين، أو ثلاثمائة، أو ثلاثمائة وثلاثة عشر، أو القطب الواحد، فليس في ذلك شيء صحيح عن النبي ﷺ، ولم ينطق السلف بشيء من هذه الألفاظ إلا بلفظ الأبدال، وروي فيهم حديث أنهم أربعون رجلا، وأنهم بالشام، وهو في المسند من حديث علي كرم الله وجهه، وهو حديث منقطع ليس بثابت، ومعلوم أن علياً ومن معه من الصحابة، كانوا أفضل من معاوية ومن معه بالشام، فلا يكون أفضل الناس في عسكر معاوية دون عسكر علي"(١٥٨٧).

وقال أيضاً: "وهذا الجنس ونحوه من علم الدين قد التبس عند أكثر المتأخرين حقه بباطله؛ فصار فيه من الحق ما يوجب قبوله، ومن الباطل ما يوجب رده، وصار كثير من الناس على طرفي نقيض، قوم كذبوا به كله لما وجدوا فيه من الباطل، وقوم صدقوا به كله لما وجدوا فيه من الحق وإنما الصواب التصديق بالحق والتكذيب بالباطل، وهذا تحقيق لما أخبر به النبي عليه السلام عن ركوب هذه الأمة سنن من قبلها حذو القذة بالقذة" (١٥٨٨).

وقال: "فجميع هذه الألفاظ لفظ الغوث والقطب والأوتاد والنجباء وغيرها لم ينقل أحد عن النبي ﷺ بإسناد معروف أنه تكلم بشيء منها ولا أصحابه ولكن

(١٥٨٧) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان (ص ١٣- ١٤).

(١٥٨٨) مجموع الفتاوى؛ لشيخ الإسلام ابن تيمية (١١/ ٤٣٤).

لفظ الأبدال تكلم به بعض السلف، ويروى فيه عن النبي ﷺ حديث ضعيف" (١٥٨٩).

وقال: "وإذا كان في الزمان رجلٌ هو أفضل أهل الزمان فتسميته "بالقطب الغوث الجامع" بدعةٌ ما أنزل الله بها من سلطان، ولا تكلم بهذا أحدٌ من سلف الأمة وأئمتها، وما زال السلف يظنون في بعض الناس أنه أفضل أو من أفضل أهل زمانه، ولا يطلقون عليه هذه الأسماء التي ما أنزل الله بها من سلطان؛ لا سيما أن من المنتحلين لهذا الاسم من يدعي أن أول الأقطاب هو الحسن بن علي بن أبي طالب –رضي الله عنهما –ثم يتسلل الأمر إلى ما دونه إلى بعض مشايخ المتأخرين، وهذا لا يصح لا على مذهب أهل السنة ولا على مذهب الرافضة. فأين أبو بكر وعمر وعثمان وعلي والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار؟ والحسن عند وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان قد قارب سن التمييز والاحتلام، وقد حكي عن بعض الأكابر من الشيوخ أن القطب الفرد الغوث الجامع –ينطبق علمه على علم الله تعالى وقدرته على قدرة الله تعالى فيعلم ما يعلمه الله ويقدر على ما يقدر عليه الله، وزعم أن النبيَّ ﷺ كان كذلك، وأن هذا انتقل إلى الحسن، ومن

(١٥٨٩) منهاج السنة؛ لابن تيمية (١/ ٩٣).

الحسن تسلسل إلى شيخه، فبينَّتُ أن هذا كفرٌ صريحٌ، وجهلٌ قبيح، وأن دعوى هذا في رسول الله ﷺ؛ كفرٌ دع ما سواه" (١٥٩٠).

ثانياً: بيان بطلان ما نُسب إليه من القول بعلم الحقائق:

قال ابن الجوزي في "مناقب الإمام أحمد": "وقد كان الإمام أبو عبد الله أحمد بن حنبل لشدة تمسكه بالسنة ونهيه عن البدعة يتكلم في جماعة من الأخيار إذا صدر منهم ما يخالف السنة، وكلامه ذلك محمول على النصيحة للدين.

أخبرنا أبو منصور القزاز، قال: أخبرنا أحمد بن علي بن ثابت، قال: أخبرني محمد بن أحمد بن يعقوب، قال: أخبرنا محمد بن نعيم الضبي، قال: سمعت أبا بكر أحمد بن إسحاق الصبغي يقول: سمعت إسماعيل بن إسحاق السراج يقول: قال لي أحمد بن حنبل يوما: بلغني أن الحارث هذا - يعني المحاسبي - يكثر الكون عندك؛ فلو أحضرته منزلك وأجلستني من حيث لا يراني فأسمع كلامه؟ فقلت: السمع والطاعة لك يا أبا عبد الله، وسرني هذا الابتداء من أبي عبد الله، فقصدت الحارث وسألته أن يحضرنا تلك الليلة، فقلت: وتسأل أصحابك أن يحضروا معك، فقال: يا إسماعيل، فيهم كثرة فلا تزدهم على الكسب والتمر وأكثر

(١٥٩٠) مجموع الفتاوى؛ لابن تيمية (٢٧/ ١٠٢ -١٠٣)، وزيارة القبور (ص ٧١).

منهما ما استطعت، ففعلت ما أمرني به، وانصرفت إلى أبي عبد الله وأخبرته، فحضر بعد المغرب وصعد غرفة في الدار، واجتهد في ورده إلى أن فرغ، وحضر الحارث وأصحابه فأكلوا، ثم قاموا لصلاة العتمة ولم يصلوا بعدها، وقعدوا بين يدي الحارث وهم سكوت لا ينطق واحد منهم إلى قريب من نصف الليل، وابتدأ واحد منهم وسأل الحارث عن مسألة فأخذ في الكلام وأصحابه يستمعون كأن على رءوسهم الطير، فمنهم من يبكي، ومنهم من يحن، ومنهم من يزعق، وهو في كلامه، فصعدت الغرفة لأتعرف حال أبي عبد الله، فوجدته قد بكى حتى غشي عليه، فانصرفت إليهم، ولم تزل تلك حالهم حتى أصبحوا، فقاموا، وتفرقوا، فصعدت إلى أبي عبد الله، وهو متغير الحال، فقلت: كيف رأيت هؤلاء يا أبا عبد الله؟ فقال: ما أعلم أني رأيت مثل هؤلاء القوم، ولا سمعت في علم الحقائق مثل كلام هذا الرجل، وعلى ما وصفت من أحوالهم فلا أرى لك صحبتهم. ثم قام وخرج.[١٥٩١]

التعليق:

إذا نظرنا في النص من حيث السند، ففيه محمد بن نعيم الضبي، وهو مجهول الحال، غير أن الإمام الذهبي أورد هذه الحكاية في الميزان، من طريق أبي عبد الله الحاكم، ثم قال: إسماعيل وثقه الدارقطني، وهذه حكايةٌ صحيحة السند،

(١٥٩١) مناقب الإمام أحمد؛ لابن الجوزي (ص ١٨٥– ١٨٦).

منكرةٌ لا تقع على قلبي، أستبعد وقوع هذا من مثل أحمد، وأما المحاسبي فهو صدوقٌ في نفسه، وقد نقموا عليه بعض تصوفه، وتصانيفه.(١٥٩٢)

وأما من حيث المتن والموضوع، فأقول(١٥٩٣): أستبعد أيضاً حدوث ذلك من الإمام أحمد، حتى وإن دل ذلك على إنكاره للأعمال التي صدرت من المحاسبي وأصحابه، وأتساءل لم يختبئ الإمام أحمد منهم؟ وما الذي يمنعه أن يخرج إليهم فيكلمهم ويُناصحهم؟ وهو إمام جليلٌ، له موقفه المشهور في الذب عن السنة والدفاع عنها، وإلقاء النصح والتوجيه، والذي لا يخاف في الله لومة لائم! ولم لم يخرج لصلاة العشاء مع الجماعة ؟! وما معنى علم الحقائق في النص، الذي جاء ذكره في كلام الإمام أحمد، وهل كان الإمام يقسم العلوم إلى حقائق ومجازات، وظاهر وباطن، كما يفعل هؤلاء الممخرقين ؟!.

كلا، ثم كلا إنها من بدع التصوف، التي لم يتكلم عنها أهل الحق من سلف هذه الأمة، فالحكاية المنسوبة إلى الإمام أحمد، لا أظنها صحيحة، وواقعة منه –رحمه الله–.

(١٥٩٢) ميزان الاعتدال (١/ ٤٣٠).

(١٥٩٣) القائل هو أبو الخير تراسون، التصوف في القرنين الثاني والثالث الهجريين (ص ٤٣٤).

وقد مرَّ معنا كلام الإمام أبي زرعة الرازي في التحذير من الحارث المحاسبي، وننقل أيضاً كلام أبو بكر أحمد بن محمد بن هانئ الأثرم (ت ٢٦١ هـ) تلميذ الإمام أحمد في الحارث المحاسبي، حيث يقول: "كنت عند خلف البزاز يوم جمعة فلما قمنا من المجلس صرت إلى قرن الصراة، فأردت أن أغتسل للجمعة فغرقت فلم أجد شيئا أتقرب به إلى اللَّه جل ثناؤه أكثر عندي من أن قلت: اللهم إن تحيني لأتوبن من صحبة حارث يعني المحاسبي"[(١٥٩٤)]، فنجَّاه الله من الغرق.

وقال الأثرم: "كان حارث المحاسبي فِي عرس لقومٍ، فجاء يطلع عَلَى النساء من فوق الدرابزين، ثم ذهب يخرجه يعني رأسه فلم يستطع؛ فقيل له: لم فعلت هذا؟ قَالَ: أردت أن أعتبر بالحور العين !! .[(١٥٩٥)]

(١٥٩٤) طبقات الحنابلة؛ لأبي يعلى (١/ ٦٨).

(١٥٩٥) طبقات الحنابلة؛ لأبي يعلى (١/ ٦٨).

الفصل السادس

الطُّرق الصُّوفيَّة نشأتها وتطوُّرها

وفيه سبع مباحث:

المبحث الأول: نشأة الطرق الصُّوفيَّة
المبحث الثاني: الطّرق الصُّوفية في نهاية القرن الثالث وبداية القرن الرابع الهجري
المبحث الثالث: الطرق الصُّوفية في منتصف القرن الخامس الهجري
المبحث الرابع: الطرق الصُّوفية في القرنين السادس والسابع الهجريين
المبحث الخامس: الطرق الصُّوفيَّة في القرن الثامن والتاسع الهجريين
المبحث السادس: الطرق الصُّوفية من القرن العاشر وحتى القرن الثالث عشر
المبحث السابع: أبرز الطُّرق الصُّوفية المعاصرة.

المبحث الأول:

نشأة الطرق الصُّوفيَّة

بدأ ظهور الطرق الصُّوفيَّة في وقت مبكر من التاريخ الإسلامي، وذلك في القرنين الثالث والرابع الهجريين، من خلال نظام الصُّحبة (الخدمة)[١٥٩٦] ، أو الاتصال المباشر بالشيخ الصُّوفي، ولكن دون ارتباط بأيِّ قيد مبدئي، أو قسمٌ بالولاء.

وبدأت تظهر تكتلات وجماعات مفككة، متقلبة للغاية في نهايات القرن الرابع الهجري، فيجتمعون في خانقاوات سريَّة، وقد غلب على أتباعها السفر على نطاق واسع، بحثاً عن الشيوخ.

إلى أن تطور الأمر مع بدايات القرن السادس الهجري، فأنشأت الرُّبط والزوايا، وأوقفت عليها الأوقاف، ولم يكن لها أيَّة ممارسات علنية للطقوس الصُّوفية المعروفة اليوم، حتى منتصف القرن السابع الذي تطورت فيه الطُّرق الصوفية بشكل واضح في شكلها النهائي المعروف.

(١٥٩٦) آداب المريدين، لأبي النجيب السهروردي (ص ٥٧).

يقول الشيخ عبد الرحمن عبد الخالق: "إن أول من وضع هيكل تنظيمي للطرق الصُّوفيَّة هو فضل الله أبو سعيد محمد أحمد الميهني الصُّوفي الإيراني الفارسي (٣٥٧هـ-٤٣٠ أو ٤٤٠هـ)"[(١٥٩٧)] ، وهذا المُشار إليه هو تلميذ أبي عبد الرحمن السُّلمي، وكان قد تلقى الخرقة من يده!.

وعند النظر في ترجمة أبي عبد الرحمن السلمي محمد بن الحسين الأزدي (٣٢٥ هـ- ٤١٢ هـ)، نجد أنه ورث التصوُّف من أبيه وجدِّه، وهو من المصنفين الأوائل في التصوف، ويُقال إنه عمل دويرة لهم يجتمعون فيها.

وقد قال الذهبيُّ في آخر ترجمته: "وبالجملة ففي تصانيفه أحاديث، وحكايات موضوعة، وفي تفسيره أشياء لا تسوغ أصلاً، عدَّها بعض الأئمَّة من زندقة الباطنيَّة!! وعدَّها بعضهم عرفاناً وحقائق، نعوذ بالله من الضلال، ومن كلامٍ بهوى، فإن الخير كُلُّ الخير في متابعة السُّنَّة، والتمسك بهدي الصحابة والتابعين رضي الله عنهم"، وصار هذا الكتاب ذريعةً ومفتاحاً لمن بعده من باطنية الصُّوفية![(١٥٩٨)] .

(١٥٩٧) الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة (ص ٥٣٩).

(١٥٩٨) سير أعلام النبلاء (١٧/ ٢٥٢). وانظر تاريخ بغداد (٢/ ٢٤٥).

فهذا هو الشيخ؛ وأما التلميذ فهو: أبو سعيد فضل الله بن أبي الخير الميهني، المولود في ميهنة سرخس من بلاد خراسان سنة (٣٥٨هـ)، والمتوفي سنة (٤٤٠هـ)، وهو من أقدم المؤسسين للخانقاهات، وأسلوب إدارتها، وأنظمتها، والقواعد التي وضعها في ذلك؛ تُعدُّ من أقدم النُّظم الخاصَّة بمجتمعات إخوان الطريقة، وإخوان الصفا.[١٥٩٩]

وقد جعل المهيني هذه الطرق متسلسة عن طرق الوراثة! ولا شكَّ أن فارسيَّة الرجل، وكونه أول من أنشأ الطُّرق، أمورٌ تلقي بظلالها على مصدر تلك الطرق، ومنشأها الأول.

وانتشرت الطرق الصُّوفيَّة مع نهايات القرن الرابع في مناطق واسعة من العالم الإسلامي، وازدادت اتساعاً وانتشاراً في منتصف القرن الخامس الذي تبلورت فيه تلك الطرق وتطورت بحسب الشيوخ، وأصبحت لها أنظمة وأحزاب وأوراد لا يجوز مخالفتها، أو الخروج عنها.

ولم تكن هناك فروق حقيقية بين طريقةٍ وأخرى، إنما هي مشيخات، وفروق شكلية، في الألفاظ والمباني لا في الحقائق والمعاني.

(١٥٩٩) تاريخ التصوُّف؛ لقاسم غني (ص ٦٦٩- ٦٧٠).

وبقي الأمر على ذلك حتَّى بدايات القرن الثامن الذي ظهرت فيه طرق على المنهج الفلسفي البحت، وانقرض معظمها، حتى بقيت باقيةٌ منهم من رسوم الناس، وآثار الأمم.

وفي النصف الثاني من القرن العاشر تقريباً، كان البويهيون –الشيعة– يحكمون بغداد حتَّى عام (٩٤٥م)، وهو العام الذي مات فيه الشبلي، وأما سوريا فكانت تحت حكم الحمدانيين (الشيعة أيضاً)، وقد ثبت من قراءة التاريخ أن بني حمدان وبني بويه[١٦٠٠] قد التزاموا بالتشيُّع والغلو!.[١٦٠١]

وأصبحت "حلب" ملتقى الصُّوفيَّة في تلك الفترة، وجرى التنافس بين المدرستين "الحلبيَّة"، و"البغداديَّة"، كما غزا القرامطة وسط شبه الجزيرة العربية (٩٣٠هـ)، وسيطر الحمدانيون على بلدان في شمال إفريقية، وزحفوا منها إلى

(١٦٠٠) بني بويه: ينسب بنو بويه إلى بهرام بن يزدجرد، من ملوك آل ساسان، وكان ابوهم أبو شاجع بويه فقيراً، مُعدماً، من أهالي بلاد الديلم، وكان بنو بويه من الشيعة المغالين، ولذا كانوا لا يعترفون بحقِّ الخليفة العباسي في السيادة على جميع العالم الإسلامي، وقد عمل سلاطين بني بويه على أن يكونوا مطلقي التصرُّف في العامة، ولم يتورعوا عن التعدي على أشخاص الخلفاء العباسيين، وانتقاص حقوقهم، وكانت فترة حكمهم من سنة (٣٣٤ هـ إلى سنة ٤٤٧ هـ)، وأول سلاطينهم هو معز الدولة أبو الحسين أحمد، وآخرهم الملك الرحيم أبو نصر الذي قضى عليه طغرل بك السلجوقي. انظر: التاريخ الإسلامي العام، علي إبراهيم حسن، (ص ٤٥٠، ٤٥٢).

(١٦٠١) تاريخ العلويين في بلاد الشام، اميل عباس آل معروف (١/ ١١).

مصر، وبنوا مدينة القاهرة، وحكموا لمدة (٢٢) عاماً تحت مسمى"الفاطميين"، وخلّفوا تغييراً كبيراً في الثقافة والحضارة والعقائد..

وتحول نظام الصحبة الصُّوفيَّة إلى جماعات مبدئية، مع بدء الانتصارات على الدويلات الشيعية (البويهيون في بغداد ١٠٥٥م، والفاطميون في مصر ١١٧١م)، ومع فترة حكم السلاجقة في الفترة ما بين (١١٠٠- ١٤٠٠م)، والتي يمكن اعتبارها مرحلة تكوينية أكثر اتساعاً..

وامتدت أذرع الجهل والخرافة في البلد الواحد، لتفقس عن عشرات الطرق، ويكفي أنه في بلدٍ واحد وفي فترة زمنية قصيرة هي النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، بلغ عدد الطرق الصوُّفية أكثر من مائة طريقة[١٦٠٢].

ثم انتشرت وكثرت خلال القرن الخامس عشر الهجري، مع بروز نجم الدولة العثمانيَّة، ونهاية الحكم المغولي لبلاد المسلمين، (والذي منحهم امتيازات كبيرة في مدة قصيرة!)، وقد أصبح التصوف له سلاسله المختصَّة به، والتي عبرت عنه (كحركة شيعية!)، متفرعة إلى هيئات متعددة وفرق ملتصفة تماماً بتقديس الوليّ..

(١٦٠٢) الفكر الصوفي المعاصر (ص ٢٢١- ٢٢٢)، (ص ٢٣٧- ٢٣٩).

وقد اكتسبت هذه الطرق شكلها النهائي من التنظيم والممارسات الروحية، حتى أنَّ أمراء المغول الأوائل "ببرك"، و"غازان خان"، عندما قررا اعتناق الإسلام، توجهوا إلى شيوخ الطُّرق ليعلنوا إسلامهم، بدلاً من أن يتوجَّهوا إلى أحد علماء أهل السُّنَّة الموثوقين!.. فتوجَّه "ببرك" إلى سيف الدين سعيد البخاريّ (ت ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م)، بينما استدعى "غازان خان" الصُّوفيّ الشيعي صدر الدين إبراهيم، وأعلن في تراسان أمام الحشد المغولي أنَّ الدين الإسلامي هو الدين الرسمي للمغول..!.

وفي هذه المرحلة دخل على التصوُّف فكرة الإسناد (السلسلة)، التي وفرت عوداً مذهبياً وعقائديّاً يستندون عليه، يجعل الآخرين أكثر تقبُّلاً للطوائف، على أنَّ ظهور هذه الفكرة كان متزامناً مع سعي التصوُّف الحثيث للحصول على الاعتراف به، ضد معارضات أهل السُّنَّة، بينما استمرأت بعض الطوائف الصُّوفيَّة الإنتساب إلى النبيِّ ﷺ رأساً دون واسطة من أحد!!.

وحاول الهويجري الجلبي، ربط المعاني الصُّوفيَّة في كلِّ واحدٍ من الخلفاء الأربعة الراشدين، فزعم أنَّ طريقة أبا بكر "تأمُّليَّة" (إشراقيَّة)، وطريقة عمر "تطهُّريَّة"، وطريقة عثمان "خِلِّيَّة"، وكلها طرقٌ فرديَّة، بينما كان عليٌّ بن أبي طالب هو الموجه الأول إلى الطريقة الصُّوفيَّة الإلهيَّة، والمُوَرِّثُ الوحيد للخرقة..!.

غير أنَّ المؤرخ (ابن خلدون) رفض كل هذه الادعاءات الساذجة، فلم يكن أيِّ واحد من هؤلاء الخلفاء يتميَّز بأيَّة ممارسات دينية معيَّنة، خاصَّة وقاصرة عليه وحده!.

وأثناء هذه الفترة أصبح الصُّوفيون –في نظر الناس– ممثلين للدين بطريقة جديدة، وحلَّ شيوخ الهرطقة والتصوُّف محل العلماء والفقهاء!، وزاد نفوذهم وتأثيرهم في الناس بفضل سياسية الدولة العثمانية المرتبطة بالطرق وأصحابها، وأحدثت لها قواعد في الصحبة وأدب المجالسة، والتي أصبحت فيما بعد التزاماً دينياً على المريد في الطريقة.. وعندما سقطت الدولة العثمانية فإن هذه الفرق تحطَّمت أيضاً..!.

ومن الجدير بالذكر أنَّ الدولة العثمانيَّة كانت تُعافي أصحاب النَّسب الشريف من الجنديَّة، وتغجق عليهم الأمول، تكريماً لهم، ولكن كثر من أجل ذلك المزيِّفون، وبخاصَّة من أصحاب الطُّرق، وقدَّموا شجرات نسبيَّة كبيرة، وما من أحدٍ يمكن أن يُنجيَه عند الله نسبه، ورسول الله ﷺ يقول: "من بطَّأ به عمله، لم يُسرع به نسبه"، كذلك لا بُدَّ من الإشارة إلى أن ادِّعاء النسب العلوي كان عادةً سيئة عند العبيديين (الفاطميين)، وقد سار على هذا النهج أساطين الحركة الشيعية، والمتصوفة كـ"البدوي"، و"الدسوقي"، وغيرهم.

ولم تقف تلك الطرق عند حدٍّ أو غاية مُعيَّنة في الحدوث والتجدُّد، بل هي مستمرة في الانتشار والازدياد (التفريخ!)، كلما كانت الفرصة سانحة، والظروف مهيئة لذلك؛ إذ كُلُّ من ابتدع طريقةً جديدة، لا بد وأن يجد له أتباعاً جدد، يتسمون باسمه، ويمتثلون أوامر طريقته، وهذا التحرر من الارتباط بالمؤسس ..

وقد أخذت الطرق الصوفيَّة طابع العاميَّة، فانتشر الغناء الصُّوفي (باعتباره تأليهاً شاملاً غامضاً، يُمارس في حلقة الذكر أو عقبه)، بالإضافة إلى أنها جذبت أناساً مهووسين بالخوارق، من خلال الدعوة إلى اكتشاف العوالم الغيبية، والمشاركة الواسعة من العوام في احتفالات الطريق والموالد[١٦٠٣]، والقائمة أساساً على الإتاوات والمساهمات والتبرعات التي يجنيها الوكيل للطريقة..!.

ومع هذا العدد الهائل من الخانقات والتكايا المقامة في ظل الإمبراطورية العثمانيَّة، إلا أنَّ كثيراً منها فشلت في أن تصبح متكاملة في "تقديس الوليّ"،

(١٦٠٣) الموالد: هي احتفالات سنوية تُقام مرَّةً في العام عند قبر الولي، ويُقدَّم فيها الذبائح والنذور لروح ذلك الولي، ويزعمون حضور روح ذلك الولي لحضور الاحتفال، ولو بالعناية والبركة، وتُقام فيه الأسواق، ويرقص الصُّوفيَّة فيه ويُنشدون الأشعار، ويطلبون المدد والاستغاثة من الولي المقبور، وتُسمى في بلاد المغرب بـ(المواسم)، وعند أهل المغرب الأوسط (الجزائر) يسمونها بـ(الزرد)، وأهل مصر والشرق الأوسط عامة يسمونها (الموالد)، انظر: الإنصاف فيما قيل في المولد من الغلو والإجحاف (ص: ٣٩- ٤٤).

وصعوبة امتصاص الحركة الشعبية، التي تعتبر الوسيلة الوحيدة التي تقتات عليها المنظمات الرُّوحيَّة في تلك الفترة..!.[١٦٠٤]

وفي نفس الوقت كان بإمكان الأفراد والعائلات أن يختاروا "طريقتهم"، ويغيروا ولاءهم بحريَّة تامَّة، لأسباب كثيرة، مثل: الإعتراف (للوليِّ الفلانيّ!) بقدرته الخارقة على الشفاء، بينما عجز الوليُّ الآخر.. أو وفاء (أحد الأضرحة!) لنذر أو قسم، أو نتيجة لمشاجرة مع الشيخ أو أحد المريدين!، أو استجابة لشخصية لامعة، أو طريقة جديدة لديها مميزات أفضل!، وهذه التذبذبات أثَّرت بشكل كبير في اندثار وتدهور حالة بعض الطرق للأبد، وإحياء أخرى إلى الآن!..

وبالرغم من دعوى أتباع تلك الطرق لأمثال الجنيد البغدادي، إلا أننا نجد ابتداعاً وهرطقة في كثيرٍ من تلك الطرق، ذلك لسهولة الدخول في تلك الطرق بصفة وصورة مزيفة في تلك الأيام، كما هو الشأن في أيِّ وقت ..!.

لقد حاول المتصوفة إنشاء مدارس خاصَّة تقوم على قطع العلائق في المجتمع، وإعلان الجانب المثالي والروحي، وممارسة الفلسفة بصورة عملية، تتمثل في الزهد الشديد المنظم، ومن هنا قيل: إن أول رباط صوفيٍّ أنشئ في الرملة

(١٦٠٤) الطرق الصوفية في الإسلام، سبنسر ترمنجهام (ص ١٢٣).

بالشام في منتصف القرن الثاني الهجري، حوالى (١٥٠هـ/ ٧٥٧م)، وقد أسسها أمير مسيحي قبل سنة (٨٠٠م) [(١٦٠٥)].

وتُعدُّ مناطق بلاد ما بين النهرين (العراق وما حولها)، وخراسان والمغرب هي المناطق الرئيسة للفكر الصُّوفي وممارساته.[(١٦٠٦)]

وكانت التكايا والزوايا منتشرة في خراسان، وعلى خليج فارس، وعلى الحدود البيزنطية، وفي شمال افريقيا، بل كانت القاهرة موطناً للعديد من الزوايا الصُّوفيَّة التي يديرها رجالٌ من فارس، وكانت معقلاً لهؤلاء يجتمعون فيها؛ لممارسة الرياضة الرُّوحيَّة (الخلوة)، ومركز التقاء لكثير من أصحاب الطرق الوافدين، وهي أماكن راحة مؤقتة لكثيرٍ من الصُّوفيَّة المتجولين.

وانتقل الصوفية من إطلاق اسم الرباط على مدارسهم، إلى لفظ (خانقاه = ويعني البيت) الفارسي، والتي كان يديرها عضو مرموق في الحكومة العسكرية (بمثابة وزير داخلية)، وفي العصور المتأخرة أطلقت عليها كلمة (الزاوية)، وفي العهد العثماني أطلق عليها (التكيَّة **Tekke**) بالتركية، وفي ليبيا المعاصرة

(١٦٠٥) صفحات مكثفة في تاريخ التصوف، د. كامل الشيبي (ص ١٧١). والفرق الصوفية في الإسلام، سبنسر ترمنجهام (ص ٢٨).

(١٦٠٦) الطرق الصوفية في الإسلام، سبنسر ترمنجهام (ص ٦٣).

استعملت كلمة (المنارة)، في محاولة صوفية للتخلص من اسم (الرباط) الذي يوحي بالنزعة العسكرية لتلك المباني التي على الثغور، مع الفرق الكبير بين أربطة المجاهدين التي تعنى برصد العدو وضبط تحركاته، وأربطة الصوفية التي كانت تعد محطات استقبال للوافدين من السياحات الصوفية، ومكاناً بعيداً عن المدن، يتيح لهم ممارسة الشعائر والطقوس الصُّوفية بلا نكير من الفقهاء أو العلماء !..

وهذه المحاولة تحسب في عداد محاولات التصوف للإستقلال الفعلي عن أصحاب المدارس الفكرية الأخرى في المجتمع الإسلامي كالفقهاء، والفلاسفة والمتكلمين؛ وعلى هذا الأساس نشأت الطرق الصوفية المتأخرة، والتي سنعرض لها بعد قليل، على أن هذه الحقيقة مسجلة في كتاب اللمع للسراج، والذي يعد أقدم مرجع يشير إلى هذه النزعة (حب التمايز والاستقلال) حاولت بعض الفرق الصُّوفيَّة صناعته من خلال تقاليد ومظاهر وأنماط تشكل طابعاً مميزاً لها عن الفرق الأخرى، فذكر السراج فرقاً كثيرة، منها واحدة كانت تعتقد بالإباحة، وتستند في ذلك إلى نصوص من القرآن!.. وكذلك أشار السراج إلى فرقة منهم تتميز بالاعتقاد بالقرب والأنس بالله، فأدى بهم ذلك إلى إهمال الآداب الاجتماعية والدينية..

وذكر أيضاً فرقة من الصوفية زعموا أنهم يرون أنواراً اعتبروها من أمارات تمييز الله لهم عن البشر.[١٦٠٧]

وذكر المزدوي الماتريدي (ت٤٩٣هـ/١٠٩٩م) الكثير من الفرق الصوفية المتباينة في القرن الخامس الهجري، غير التي ذكرها السراج، ومنها: (الحُبيَّة) الذين يقولون: إن الله إذا أحب عبداً رفع عنه الخطاب، وأسقط عنه العبادات. وذكر (الأوليائية) الذين زعموا أن الولي أفضل من النبي، ومن سائر البشر، وأنه إذا وصل إلى ذلك المقام حلَّ له كل شيء.. وذكر كذلك (الحلولية) الذين يجعلون الرب سبحانه حالاً في الشيخ، والحورية، والإباحية، و(الشمرانية) الذين يُحلون الملاهي والاختلاط، و(المتكاسلة) الذين يتركون الدنيا ويسألون على الأبواب، وغيرهم..

وذكر الفخر الرازي المتكلم المشهور الكثير من الفرق، منها: النُّورية، والحلولية والإباحية.. ويمكن اعتبار هذه الفرق هي محاولة تطبيقية عملية نادى بها شيوخ التصوُّف اعتباراً من القرن السادس الهجري لتكوين الطرق الصوفية.

والطرق الصُّوفيَّة على قِدَمها، لم تلقَ رواجاً في العالم الإسلامي حتَّى جاء الغزالي في نهاية القرن الخامس الهجري، والذي قرَّر التصوُّف كطريقة دينيِّة مقبولة

(١٦٠٧) صفحات مكثفة في تاريخ التصوف، د. كامل الشيبي (ص ١٧٢).

في العالم الإسلامي، ما أغرى جماعةً من معاصريه، وممن جاء بعده في القرن السَّادس إلى إنشاء طرقٍ صوفيَّة خاصَّة، وأهم تلك الطُّرق: الرِّفاعيَّة، التي أنشأها أحمد الرِّفاعي (ت ٥٧٠هـ/١١٧٣م)، ثم الجيلانية أو القادرية التي أسسها عبد القادر الجيلاني (ت ٦٥١هـ/١١٦٦م)، والمولوية التي أسسها جلال الدين الرومي (ت٦٧٢هـ/١٢٧٣م)، والشاذلية، لصاحبها أبي الحسن الشاذلي (ت ٦٥٦هـ)، وكان أصحاب هذه الطرق محترفين في التمسُّك بظاهر الممارسات الخارجيَّة الإسلاميَّة، وكُلُّ هذه الطرق مبنية على الابتداع في الأذكار، والشعائر، وخير الطرق طريق محمد ﷺ.

وقد تغلغلت الأفكار الوثنية داخل صفوف الحركة الصوفية، من خلال الشعائر والطقوس الغريبة عن دين الإسلام مثل حلقات الذكر، والسماع، والطواف حول الأضرحة التي تؤدى بهدف الاقتباس من قوة الشيخ أو الوليّ السحريَّة، وتحولت الأساطير من المسيحية والهندوسية إلى ذلك الوليِّ الجديد، وأصبح من الضرورة أن يكون في كل قرية ضريح على الأقل (ولو كان وهمياً!)، حتى تنتظم الحياة ببركته، وأصبحت فيما بعد ملجأً للمؤمنين به، يؤدون النذور، ويقدمون القرابين، ويُطاف به ثلاث مرات أو سبع، وتُعلَّق الرايات على الشبابيك، والأشجار القريبة منه.

وقد ساهمت الطرق الصُّوفيَّة في جعل التصوُّف أكثر شعبية وانفتاحاً على المجتمع، إلا أنَّها حركات قد تميَّعت فيها القيم الصُّوفيَّة (الكلاسيكية!) أيما تميُّع، وأتاحت الفرصة العريضة أمام الجماهير العريضة من المسلمين أن يلتحقوا بها، تعبيراً عن مشاعرهم الدينية، ومشاركةً لهم في المناسبات الدينية، وتقديساً للوليِّ صاحب الطريقة، فأحدثوا الرقص الدوَّار والموسيقى، التي تؤدى بطريقة ميكانيكية (قد تصل بالمريد) إلى حالة الغيبة (السكر!)، وفي جرأةٍ غير مسبوقة، يساوي (عيسى جند الله البورهانبوري) السماع بالصلاة في القرن السابع عشر .![(١٦٠٨)]

وكان آباء الكنيسة يدركون القوة الروحانيَّة للرقص، ويُحرِّمونه بشدة، وكما يقول سانت كريسوستومس (St. Chrystostomus): "أينما كان الرقص كان الشيطان!"، وهو ما قاله أهل السُّنَّةِ والجماعة أيضاً.

ولكن المرء يتساءل: هل يسمح (للذاكر!) الذي يكون في حضرة ربِّه أن تجذبه أصوات الموسيقى أو أيَّة أصوات أخرى، فتجعله يلفُّ ويدور حول نفسه، إلى أن يُمزق ثيابه أحياناً، أو ينتهي حاله بالموت أحياناً أخرى!.

(١٦٠٨) الأبعاد الصوفية في الإسلام، (ص ٢١٣).

وما يُدهشني حقاً، هو اشتراك بعض الغلمان الحسان (الذين يمارسون نوعاً من التسرِّي الروحي!) مع شيوخهم، وهذا ما يؤيده ابن الخفيف (شيخ شيراز) بأنَّ المتعة الروحيَّة لا تتمُّ إلا "بالعطر الجميل، والوجه الحسن، والصوت العذب"، وجمال القوَّال شرطٌ للسعادة الروحيَّة.[١٦٠٩]

وكيف استطاع شيوخ المتصوفة السيطرة على مريديهم، إلى درجة تشبه السحر، وقد كان الناس يجتمعون حول (الخانقاه) مستعينين على قضاء حوائجهم، آملين أن يعطيهم الشيخ أو خليفته بعض (الأحجبة)، أو يعلمهم صيغاً ناجعة من التعويذات والأدعية والرقى لمريض أو عاشق، وقراءة الفاتحة في نكاح، وحضور المواسم، كي تسير حياتهم بالطريقة التي يرغبون فيها!.

والطريقة الصوفيَّة تعني: مجموعة من المريدين، يترأسهم شيخ (أو **Pir** بالفارسية، وتعني الأكبر)، يقوم بإدارة الإجتماعات المغلقة، ويُنظِّم طقوس السَّماع.

ويزعم هذا الشيخ لنفسه الترقي في مقامات التصوُّف وأحواله، ويدَّعي أنَّه من أهل الكرامات والكشف والحضور مع الله، ويُلقِّن أتباعه مجوعةً من الأوراد والأذكار والدعوات، التي يزعم أنَّه تلقاها إما من الله رأساً، أو من الرسول ﷺ في

(١٦٠٩) نفحات الأنس (ص ٢٠٩).

اليقظة أو في المنام، أو من الخضر ﷺ، وله نسبةٌ في لبس الخِرقة (= الملاءة أو غطاء الرأس)، ولكلِّ طريقة مشاعر خاصَّة، ولون خرقةٍ مُميَّزة، وطريقة ذكرٍ مختلفة، ونظام ترقِّي مُعيَّن، وهكذا.(١٦١٠)

يقول زروق: "لباس الخرقة، ومناولة السبحة، وأخذ العهد، والمصافحة، والمشابكة، كله من علم الرواية، ولهذه الخرقة أسرارٌ خفية يعلمها أصحابها" (١٦١١).

ويقول حيدر الآملي من شيعة القرن الثامن: "وهذه الخرقة التي يمتا بها المتصوفة عن غيرهم لدى الناس، هي عبارة عن سرِّ الولاية، ورمزا لتوحيد التي ألبسها الله آدم وغيره، عن طريق جبريل، ومنه انتقلت إلى نجله شيت بإشارةٍ معنوية، ونسبةٍ روحانية، وانتهى بهذه الخرقة أخيراً إلى المهدي (ع)"(١٦١٢) .

وعلى المريد (أو **Dede** بالتركية، أي: الدرويش الذي يعني طارق الأبواب)، أن يمرَّ بطور يسمونه (الارتضاع) على يد شيخ موجِّهٍ، يطيعه طاعة عمياء

(١٦١٠) انظر: الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة، عبد الرحمن عبد الخالق، صفحة رقم: ٣٥٠.

(١٦١١) قواعد التصوف، أحمد زروق القاعدة **[١٥٣]**، (ص ٢٠٧).

(١٦١٢) تصوف الشيعة، نظرة إلى حياة السيد الآملي (ص: ٥٦).

(بحكم الولاء المطلق= ضمن منهج يسعى إلى تسليم الإرادة، والهروب من الذات!)، وصولاً إلى حالة (الفطام) تتوج بلبس "المرقعة"، وبعد مرحلة شاقة من المجاهدات يجوز الصُّوفي سائر المقامات، ويتوصَّل إلى حالة من المعرفة (**Gnosis**)، وإلى الحقيقة (**Truth**)، فيصير عارفاً (**Gnostic**)، بعد أن يتلقَّى (الورد السرِّي) الذي ينفذ من خلاله إلى قلوب مريديه !.[(١٦١٣)]

يقول الخميني: "ولا بُدَّ للسالك من معلِّمٍ يُرشده إلى طريق السُّلوك، عارفاً كيفياته، غير معوجٍّ عن طريق الرياضات الشرعيَّة، فإن سلوك الطريق الباطني غير محصور، وبعدد أنفاس الخلائق"[(١٦١٤)].

ويقول الألماني يوسف ڤون هامر (١٧٧٤-١٨٥٦م) (**Josef Von Hammer**): إنه وجد من ذلك (٣٦) طريقة – (١٢) طريقة قبل تأسيس الإمبراطورية العثمانية (وهو نفس العدد الذي أخبر عنه علي بن عثمان الهويجري ت ٤٦٦هـ/ ١٠٧٧ م)[(١٦١٥)].

(١٦١٣) التصوف الإسلامي العربي، عبد اللطيف الطيباوي (ص ١٣٦).

(١٦١٤) مصباح الهداية إلى الخلافة الولاية (ص ١٦٠).

(١٦١٥) الطرق الصوفية في الإسلام، سبنسر ترمنجهام (ص ٣٦).

وفي زمن الدولة العثمانية ازداد هذا العدد، فجعلت الدولة عليهم شيخاً سمي (بشيخ الطرق)، وكان مسئولاً لدى الحكومة عن سلوكهم وأعمالهم، ولقب الشيخ فقط لمؤسس الطريقة، وأما تابعه أو من يخلفه، (فخليفته) والأعضاء كما أسلفنا طلبة ومريدين، ورئيس الزاوية مقدم، ورئيس المالية (وكيل).[١٦١٦]

وخُصِّصَ جبل المُقطَّم في مصر لدفن كثير من الأولياء الصُّوفيين القاهريين وغيرهم لممارسة الرقص والطبل والدوران الصُّوفي (**Ronda's**)، وكان الدراويش يتنقلون في أنحاء المملكة العثمانيَّة بكلِّ حريَّة، مرتدين فراء الحيوانات وأقراطاً فضيَّة في آذانهم، واشتهر من هؤلاء الصُّوفيُّ باراك بابا (**Barak Baba**)، الذي كان يتجول "ويجأر كالدُّب، ويرقص كالقردة"، وكان شائعاً بين أبدال الروم تعاطي الأفيون، والحشيش، والمخدرات، والتي ترتبط بكل ممارسات الصُّوفيَّة حتى وقت متأخر من القرن الثالث عشر الهجري!.[١٦١٧]

وفي العام (١٩٢٥م) أصدر "مصطفى كمال أتاتورك" قرار بإلغاء جميع الطرق الصُّوفية في تركيا، نظراً للفساد الأخلاقي المنتشر عند شيوخ تلك الطرق، وقد ساهمت رواية "نور بابا" التي كتبها الدبلوماسي التركيِّ المعروف "يعقوب قدري

(١٦١٦) التصوف الإسلامي العربي، (ص ٥٦).

(١٦١٧) الأبعاد الصوفية في الإسلام، آنا ماري شيمل (ص ٢٠٥، ٣٨١).

كاراعثمان أوغلو"، في تكريس هذا المفهوم عند "أتاتورك" والتي جسَّدت الممارسات اللاأخلاقيَّة الذائعة بين شيوخ تلك الطرق، وبخاصَّة الطريقة البكتاشيَّة، وبقيت الجلسات الروحانية تختصُّ بالطبقة العليا من المجتمع التركي، وقد بيَّن غيرشوم شوليم (Greshom scholem) أن يهود الدونمة (=وهم اليهود المتأسلمين ظاهرياً أتباع الحاخام الميسياني سباطي في القرن السابع عشر) كانت لهم علاقات قويَّة بمجموعات من الصُّوفيَّة، وكانوا يُنشدون أشعاراً صوفيَّة في لقاءاتهم.(١٦١٨)

وفي محاولة رمزية لتفسير كثرة الطرق الصُّوفيَّة، يقول رينيه جينو: "الطريقة هي الخط الذاهب من محيط الدائرة إلى المركز، وكُلُّ نقطة على محيط الدائرة هي مبدأ الخط، وهذه الخطوط لا تُحصى، وتنتهي كلها إلى المركز (الحقيقة المطلقة).. إنها الطرق المختلفة؛ لاختلاف الطبائع البشرية، ولذا قالوا: الطرائق بعدد أنفاس الخلائق..!"(١٦١٩) .

(١٦١٨) الأبعاد الصوفية في الإسلام، آنا ماري شيمل (ص ٣٨٣– ٣٨٨).

(١٦١٩) قضية التصوف، المدرسة الشاذلية، د. عبد الحليم محمود (ص ٣٤٩).

وهو ما يؤكده أبو بكر الطمستاني (ت ٣٤٠ هـ): "الطريق إلى الله تعالى بعدد الخلق"[١٦٢٠]، وقول أبو الحسن المزين (ت ٣٢٨ هـ): "الطرق إلى الله تعالى بعدد النجوم..."[١٦٢١].

ويتحدَّث الأستاذ رينيه جينو (**Rene Geno**) الفرنسي المعروف، (والشيخ الرُّوحي للدكتور عبد الحليم محمود)، عن ضرورة الطريقة الصوفية، ودورها في توفير الوساطة الرُّوحية بين الشيخ ومريديه، فيقول: "ولا بُدَّ في التصوف من شرط جوهري هو (التأثير الرُّوحي). أو بتعبير أدق (البركة) (= السِّر الذي ينتقل من الشيخ إلى المريد حينما تلتقي يد المريد بيد شيخه معاهداً إياه)، وهي لا تتأتى إلا بواسطة (شيخ)، ومن هنا كانت (الطُّرق)، و(السلسلة الرُّوحيَّة للطريق)، وهل السلسة إلا بركات تنتقل من شيخ إلى مريد يُوشكُ أن يُصبح شيخاً، فيؤثر بدوره في مريد أو مريدين".[١٦٢٢]

(١٦٢٠) طبقات الصوفية للسلمي (ص ٤٧١).

(١٦٢١) طبقات الصوفية للسلمي (ص ٣٨٣).

(١٦٢٢) قضية التصوف، المدرسة الشاذلية، د. عبد الحليم محمود (ص ١٧١، ٣٥٩).

وتُسمَّى هذه الطريقة في التلقين باسم "القبضة"، يتلقاها واحدٌ عن واحد، يقبضُ كُلٌّ من الشيخ والمريد يد الآخر؛ فكأنما التقى السالب بالموجب، فارتبط التيار واتصل السند، ونفذ التأثير الروحي المحسوس المُجرَّب.(١٦٢٣)

ويشرح لنا ذلك أبو العباس المرسي في إحدى مخاطباته لبعض أصحابه بتونس؛ فيقول: "والأحوال على ما هي عليه، وإنِّي صحبتُ رأساً من رءوس الصديقين (يعني الشَّاذلي)، وأخذتُ منه سِرَّاً، لا يكونُ إلا لواحدٍ بعد واحد، والشَّرحُ يطول، وبه افتخر، وإليه أُنسب، وكان أبو الحسنِ يقول: إذا عرضت لك إلى الله حاجة فاقسم عليه بي، فكنتُ لا أذكره في شدَّةٍ إلا انفرجت، ولا على أمرٍ صعبٍ إلا هان، وأنت يا أخي إذا كنت في شدَّةٍ فأقسم على الله به، وقد نصحتك، والله يعلمُ ذلك. والسلام".(١٦٢٤)

والعجيب أنَّ الأوربيين الذين شاهدوا الحركات صوفيَّة في القرون المتأخرة أثناء سفرهم، كانوا يُفسِّرون المريد أو الفقير (**Fakir**)، بأنَّه الشخص المخادع، الذي يقوم بألاعيب الحواة!.(١٦٢٥)

(١٦٢٣) حقائق عن التصوف، عبد القادر عيسى (ص ٤٧).

(١٦٢٤) قضية التصوف، المدرسة الشاذلية (ص ١٧٧- ١٧٨).

(١٦٢٥) الأبعاد الصوفية في الإسلام، (ص ٢٧).

ويعتقد المتصوفة أنَّ سلوك الطريق الصُّوفي صعبٌ إلا على مَن خُلقَ له (أي: ولد صوفيّاً)!، ولذلك قالوا: "هذه الخرقة لا بُدَّ أن تكون خيطت له في قديم الأزل، بمعنى أنَّه يجب أن يكون الشيخ الصُّوفيّ من (العائلة التي قدَّسها الرَّب!)، ويمكن للمرء العادي (العوام) أن يحصل من خلاله على البركات والخلاص والغفران (١٦٢٦).

وبالرغم من الرضى النسبي لبعض الفقهاء عن سلوك بعض المتصوفة، إلا أن موقف الصُّوفيَّة من الفقهاء لم يتغيَّر!، ويتجلَّى ذلك أكثر في نهايات القرن الثامن الهجري، اللذين تميَّزوا بسخريتهم من مؤسسي المذاهب الفقهيَّة وكتاباتهم، وقد تهكَّموا على أبي حنيفة (ت/ ٧٦٧م)، وعلى الإمام الشافعيِّ رحمه الله (ت / ٨٢٠م)، الذين انتشر مذهباهما في المناطق الوسطى والشرقيَّة من العالم الإسلامي، وتُعدُّ أبياتُ مجدود السّنائي الهروي(ت/ ١١٣١م) (والتي نُسبت بعد ذلك لفريد العطار(ت ٦١٧هـ/ ١٢٢٠م)، وجلال الرومي) مثالاً على ذلك، إذ يقول:

(١٦٢٦) الأبعاد الصوفية في الإسلام، (ص ٢٧).

"ما كان أبو حنيفة[١٦٢٧] للحُبِّ مُعلِّماً... وما كان الشَّافعيُّ للحُبِّ راوياً"[١٦٢٨].

ذلك أنَّهم يرون أنَّ التصوُّف هو أعدى أعداء العقل!، وأعجب من ذلك أنَّ العطَّار الفارسي أصبح أحد أعيان الشيعة في أواخر حياته، وبرَّر الصُّوفيَّة ذلك بأنَّه رجلٌ آخر يحمل نفس الاسم..!

ولا يزال المنافقون يسخرون من الفقهاء في كل عصر، عملاً بقاعدة: لا تجعلوا لأحد من أهل الظاهر حجةٌ على أهل الباطن!.. بل كانوا يحثُّون على جعل أهل الظاهر حجَّةٌ لهم لا عليهم؛ إذ كُلُّ باطنٍ لم يؤيده أحدٌ من أهل الظاهر مردود؛ لأنَّهم الذين عقدوا أحكام الشريعة في قلوب الناس وعقولهم!.[١٦٢٩]

وبهذا يتبيَّنُ لك تزوير الصُّوفيَّة على الشَّافعيِّ، وتقوُّلهم عليه بأبياتٍ هو منها بريء:

فقيهاً وصوفياً فكن ليسَ واحداً....!!

(١٦٢٧) أبو حنيفة النعمان بن ثابت بن زوطى، التيمي الكوفي، الإمام، فقيه الملة، عالم العراق، ولد سنة ثمانين في حياة صغار الصحابة ورأى أنس بن مالك لما قدم الكوفة، قال فيه الشافعي: "الناس في الفقه عيال على أبي حنيفة"، توفي رحمه الله (١٥٠هـ). (سير أعلام النبلاء: ٦/ ٣٩٠).

(١٦٢٨) ديوان السنائي (ص ٨٢٧).

(١٦٢٩) قواعد التصوف، أحمد زروق (ص ٤٤).

ويبدو أنَّ هذا البيت نُسج في القرن العاشر على يد أحمد بن زروق، الذي أشار إلى نفس المعنى في قاعدته (السادسة والعشرون)، حيثُ يقول: "كن فقيهاً صوفيّاً، ولا تكن صوفيّاً فقيهاً؛ لأنَّ إنكار الفقيه على الصُّوفيِّ صحيح، بينما لا يصحُّ إنكار الصوفيِّ على الفقيه، ولزم الرجوع من التصوُّف إلى الفقه، بل والاكتفاء به دونه، ولم يكف التصوُّف عن الفقه، بل لا يصحُّ دونه، ولا يجوز الرجوع من الفقه إلى التصوُّف إلا بالفقه، وإن كان التصوُّف أعلى من الفقه مرتبةً، فإن ذلك أسلم وأعمُّ مصلحةً".(١٦٣٠)

وكذلك تقولهم على الإمام مالك (ت ١٧٩هـ)(١٦٣١) ، حيث نسبوا إليه: "من تصوف ولم يتفقه فقد تزندق، ومن تفقه ولم يتصوف فقد تفسَّق، ومن جمع بينهما فقد تحقَّق!"، وتفسير ذلك كما يقول زروق: أنَّ المتصوف يقول بالجبر، والموجب لنفي الحكمة وازدراء الأحكام!.. وأما الفقيه غير المتصوف فقد ترك

(١٦٣٠) قواعد التصوف، أحمد زروق (ص ٤٠).

(١٦٣١) مالك بن أنس، أبو عبد الله الحميري، ثم الأصبحي، المدني، شيخ الإسلام، وإمام دار الهجرة، ولد عام (٩٣هـ)، عام موت أنس بن مالك خادم رسول الله ، طلب العلم وهو حدث، فأخذ عن نافع وسعيد المَقبري، والزهري، وغيرهم. كان عالم أهل الحجاز، توفي سنة (١٧٩هـ)، ودفن بالبقيع. (سير أعلام النبلاء: ٨/ ٤٨).

باب الإخلاص، هذا مع أنَّ أول بابٍ طرقه الفقهاء هو الإخلاص، فأصبح قوله دعوى بلا دليل، ويبقى الجواب عن مذهب الجبر الصُّوفي مُعلَّقاً!.(١٦٣٢)

والحقُّ الذي ندين الله عز وجل به، هو ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "من اكتفى بتحسين المقال دون التفقُّه والعمل به تزندق، ومن عمل بغير علم وقع في البدع، ومن تفقَّه ولم ينشر العلم، ولم يرَ العمل به من شرطه فسق، ومن تفنَّنَ في الأبوابِ كُلِّها تخلَّص..".(١٦٣٣)

وبيان ذلك: أنَّ ما وجدناه من كتاب الله تعالى، وعن رسول الله ﷺ، أو عن أصحابه الكرام رضوان الله عليهم أجمعين، أخذناه باليدين، وعضضنا عليه بالناجذين، وتمسكنا به حتى نلقى الله به معتصمين، وما لم نجده في هذه الأنوار الساطعة، والطرق المأمونة، والسبيل المضمونة، المقطوع على أنها حق عند الله، نفرنا منه، ولم نجسر عليه.

(١٦٣٢) قواعد التصوف، أحمد زروق (ص ١٥- ١٦).

(١٦٣٣) انظر: الإيمان الأوسط؛ لابن تيمية (ص ٦٤٨).

وكان الإمام أحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ)[١٦٣٤] واقفاً للصُّوفيَّة بالمرصاد؛ فقال في الحارث المحاسبي الذي بدأ يتكلم في (الخطرات والوساوس): "ما تكلم فيه الصحابة ولا التابعون، احذروا من الحارث، فإنه أصل البليَّة (يعني أنَّه أخرج الناس إلى مثل كلام جهم بن صفوان في الاعتزال)!!"[١٦٣٥] ، وكان معتزليّاً، استفاد من كلامهم في الفلسفة والكلام، وحذر من مجالسة الحارث المحاسبيّ، ونقل عنه ذلك الإمام أبو بكر الخلال في كتابه (السُّنَّة).

ومن خلال هذه الدراسة، وما تضمنته من حوادث وتحليلات استطعنا أن نصل إلى نقطة جوهرية في تاريخ التصوُّف، وهي تفنيد دعوى انتساب الفقهاء إلى هذا المذهب المنحرف، ورأينا كيف بقي تيار التصوُّف واحداً في جوهره، رغم اتخاذه أشكالاً مختلفة بحسب العصر، وطبيعة الشخصيات، ونظام الحكم السائد في تلك المرحلة!.

(١٦٣٤) أحمد بن محمد بن حنبل، أبو عبد الله الهذلي الشيباني المروزي، ثم البغدادي، قال فيه النسائي: "جمع بين المعرفة بالحديث، وبين الفقه والورع والزهد والصبر"، توفي رحمه الله سنة (٢٤١هـ). (سير أعلام النبلاء: ١١/ ١٧٧).

(١٦٣٥) انظر: تلبيس إبليس، لابن الجوزي (ص ١٦٦).

المبحث الثاني

الطّرق الصُّوفية في نهاية القرن الثالث وبداية القرن الرابع الهجري

ومن أبرز الطرق الصوفيَّة التي ظهرت في نهاية القرن الثالث، وبدايات القرن الرابع الهجري :

١. الطريقة الملامتيَّة (أو القصَّارية):

وهي المنسوبة إلى أبي صالح حمدون بن أحمد بن عمار القصار(ت٢٧١هـ) [١٦٣٦]، والذي تفقه على مذهب أبي ثور [١٦٣٧] ، وسموا بالملامتيَّة؛ لأنهم يظهرون أعمالاً يستحقون عليها الذم واللوم، مبالغةً في إخفاء العمل، وحرصاً على الإخلاص فيه، مع عدم إضمارهم الشر، واشتبه عليهم قول الله ﷻ: ﴿ولا يخافون لومة لائم﴾ (المائدة: ٥٩)[١٦٣٨].

(١٦٣٦) ترجمة القصار في: طبقات الصوفية، للسُّلمي (ص ١٢٣)، الحلية (١٠/ ٢٣١)، سير أعلام النبلاء (١٣/ ٥٠)، وانظر: تاريخ التصوف؛ لقاسم غني (ص ٦٢٤- ٦٢٥).

(١٦٣٧) طبقات الصوفية، للسُّلمي (ص ١٨٠)، والرسالة القشيرية (ص ٣٤).

(١٦٣٨) قواعد التصوف، أحمد زروق (ص ٢٢).

يقول صاحب (كرامات الأولياء): "فقد كان أهل الطائفة الشهيرة بالملامتية، يحضرون مجالس اللهو ونحوه؛ ليطالعوا سرَّ الغيب، وصور القضاء والقدر، في عالم العين الخارجي، ويطَّلعوا على أن العلم ليس إلا على هذا العين، والناس إذا رأوهم في تلك المجالس؛ يظنون بهم ظن السوء، ويقولون إنهم من أهل الملاهي، وأنَّى لهم ذلك، فإنهم غائبون بأرواحهم، حاضرون بأشباحهم، معلومون بصورهم، مجهولون بحقائقهم، لأنهم في مقعد صدق عند مليك مقتدر، فكيف تدركهم العقول، ويدخل فيهم الشعور؛ ولذا ورد: أوليائي تحت قبابي لا يعرفهم غيري!".(١٦٣٩)

ويعتقد أصحاب هذه الطريقة أن مثل هذه الأفعال تستر حقيقة صدقهم وحالهم، يقول السهرورديُّ: "ولم يزل في خراسان منهم طائفة، ولهم مشايخ يمهدون أساسهم، ويعرفونهم شروط حالهم، وقد رأينا في العراق من يسلك هذا المسلك، ولكن لم يشتهر بهذا الاسم، قلما يتداول ألسنة أهل العراق هذا الاسم"(١٦٤٠).

(١٦٣٩) جامع المقال في كرامات الأولياء في الحياة وبعد الانتقال، أحمد فريد المزيدي (ص ٢٠٣).

(١٦٤٠) عوارف المعارف؛ للسهروردي (١/ ٨٦)، وما بعدها.

ومن طريقتهم: إظهار الملامة، ونشرها، والتعرض للبلايا، وتأديب النفس بالتحقير والإهانة، وتولَّى زمام الطريقة بعد حمدون القصَّار تلميذه أبو محمد عبد الله بن منازل (ت ٣٢٩هـ)، وقد زاد فيها ابتداعاً، وظهر الغلاة منهم في تركيا حديثاً.(١٦٤١)

٢. الطريقة الحيدريَّة:

وهي طائفة من الصُّوفيَّة تمركزت في خراسان (جنوب مشهد)، وتنحدر من قطب الدين حيدر، وكانوا يضعون حلقات حديدية في أيديهم ورقابهم، وآذانهم، وحتى أعضائهم الذكريَّة؛ حتى لا يكونوا قادرين على الجماع الجنسي، وقد انتشرت هذه الطريق في إيران، وسوريا، والأناضول، والهند، وارتبطت بالاتجاه القلندري، الذي انتهت إليه واندمجت فيه.(١٦٤٢)

يقول السهروردي: "فقومٌ من الملامتيَّة لبسوا لبسة الصُّوفيَّة، لينسبوا بها إلى الصوفية، وهم في غرور وغلط، يتسترون بلبسة الصوفية توقيتاً تارةً، وينتهجون مناهج أهل الإباحة، ويزعمون أن ضمائرهم خلصت إلى الله تعالى، ويقولون هذا

(١٦٤١) تاريخ التصوف، لقاسم عبد الغني (ص ٦٣٣)، وطبقات الصوفية للسلمي (ص ٣٦٦).

(١٦٤٢) الطرق الصوفية في الإسلام؛ لسبنسر (ص ٧٦).

هو الظفر بالمراد، والارتسام بمراسم الشريعة سمة العوام، والقاصرين عن الإفهام، المنحصرين في مضيق الاقتداء تقليداً، وهذا هو عين الإلحاد والزندقة والإبعاد"[١٦٤٣].

٤ . الحلولية:

يقول السهروردي: "ومن جملة أولئك القوم قومٌ يقولون بالحلول، ويزعمون أن الله تعالى يحلُّ فيهم، ويحلُّ في أجسامٍ يصطفيها، ويسبق لأفهامهم معنى قول النصارى في اللاهوت والناسوت"[١٦٤٤].

يقول السيوطيُّ رحمه الله: "واعلم أن الحلول إنما حدث في الإسلام من واقعات الجهلة المتصوفة، حيثُ رأوا الله في مناماتهم أقرب إليهم من حبل الوريد، فظنُّوا أنه فيهم حالٌّ وليس ذلك حلولاً، بدليل أنه لا يُلازمه على وجهٍ ينقلب مع محله وينعدم بانعدام محله"[١٦٤٥] .

(١٦٤٣) عوارف المعارف؛ للسهروردي (١/ ٩٠).

(١٦٤٤) عوارف المعارف؛ للسهروردي (١/ ٩١).

(١٦٤٥) تأييد الحقيقة العلية؛ للسيوطي (ص ٨٦).

ويقول السيوطيُّ نقلاً عن القسطلاني: "وهذا القول –الحلول –قال به بعض المتصوفة، الذين اشتغلوا بعلوم الأوائل وأدخلوها في فنِّهم، ومن مذهب الفلاسفة القول بقدم العالم، وقدم الأرواح، وإثبات الهيولى [١٦٤٦]، وكل ذلك تغيُّرٌ خارجٌ عن ملة الإسلام، نعوذ بالله منه، وعليه تتفرع الوحدة المطلقة" [١٦٤٧].

٤ . الإباحيَّة:

يقول السهرورديُّ: "ومنهم من يستبيح النظر إلى المستحسنات، إشارةً إلى هذا الوهم" .[١٦٤٨]

٥ . الجبريَّة:

يقول السهروردي: "ومن أولئك قومٌ يزعمون أنهم يغرقون في بحار التوحيد ويسقطون أنفسهم، ولا يثبتون لها حركة ولا علاً، ويزعمون أنهم مجبورون على الأشياء، وأن لا فعل لهم مع فعل الله، ويسترسلون في المعاصي، وكل ما تدعو

(١٦٤٦) الهيولي: لفظ يوناني بمعنى الأصل والمادة، وهو جوهرٌ في الجسم، قابلٌ لما يعرض لذلك الجسم من الاتصال والانفصال، محلٌّ للصورتين الجسمية والنوعية. انظر: التعريفات للجرجاني (ص ٣٢١).

(١٦٤٧) تأييد الحقيقة العلية؛ للسيوطي (ص ٦٤).

(١٦٤٨) عوارف المعارف؛ للسهروردي (١/ ٩١).

النفس إليه، ويركنون إلى البطالة ودوام الغفلة، والاغترار بالله، والخروج من الملة، وترك الحدود والأحكام، والحلال والحرام".[١٦٤٩]

٦. الخُبزيَّة:

وهم طائفة من الصوفيَّة المترزِّقة، المتكاسلة، الذين يطلبون الدنيا من الصدقات والأوقاف، وهم لا يصبون بذلك إلا إلى الدُّنيا، وما أكثرهم [١٦٥٠].

إنَّ حديث الصُّوفيَّة عن أنفسهم وعن صفاتهم، هو حديثٌ لا ينتهي، وكُلُّ تلك الدعاوي العريضة، والأسماء الضخمة لا تصمدُ أمام حُجَّةٍ واحدةٍ مفادها: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾(الحشر: ٧).

وفي ظلِّ مزاعم التصوف الحثيثة إلى إلغاء الذات، والفناء في الكل، يبقى الضوء مسلَّطاً على التسمية ذاتها، والتي تعتبر نوعاً من التميُّز على الآخر، وإثباتٌ لذاتٍ غير ذوات الآخرين، وهذه حالةٌ يمكن اعتبارها إلغاءٌ لكل ما أراد التصوُّف تقريره، سواءً كان تصوفاً دينياً أو لا تصوفاً فلسفياً !. وهذا معنىً دقيق تنبَّه له

(١٦٤٩) عوارف المعارف؛ للسهروردي (١/ ٩٢-٩٣).

(١٦٥٠) شرح أنفاس الرجال الروحانية (ص ١٣٤).

الشِّبلي أثناء جوابه لأحد المتصوفة، لمَّا سأله: لم سُميت الصُّوفيَّة بهذه التسمية؟؛ فقال: "لبقية بقيت عليهم من نفوسهم، ولولا ذلك لما تعلقت بهم التسمية".[١٦٥١]

٧. الطريقة البسطاميَّة (الطيفوريَة):

وهي الطريقة المنسوبة إلى أبي يزيد طيفور بن عيسى بن سروشان البسطامي الفارسي (ت ٢٧٣هـ)، وهو مشهور بكنيته، وكان جدُّه مجوسياً، فأسلم، وكان ابن عربي يُمجِّدُه، ويقول عنه: "صاحب الخلافة الباطنة"، ويقول: "أبو يزيد كان على قلب إسرافيل، له الأمر ونقيضه، جامع للطرفين، وهذا المنصب لا يكون في الزمان إلا لواحدٍ فقط" انتهى، وقد نُفي من بلاده أكثر من مرَّة.

وكان ينطق بالعظائم، كقوله: "سبحاني ما أعظم شأني!"، و"ما في الجُبَّةِ إلا الله!"، و"ما النار لأستند إليها، وأقول اجعلني لأهلها فداءً وإلا بلغتها!"، و"وما الجنَّةُ إلا لعبة صبيان!"، و"هب لي هؤلاء اليهود، ما هؤلاء حتَّى تعذبهم"، وقال: "قال لي الحقُّ اخرج إلى الخلقِ بصفتي، فمن رآك رأني"[١٦٥٢].

(١٦٥١) قضية التصوف، المدرسة الشاذلية (ص ١٧٩).

(١٦٥٢) شرح رجال الأنفاس الروحانية (ص ٥١، ٥٤).

وزعم أبو نصر السَّراج أنَّ هذه الحكاية عن أبي يزيد منكرة بهذا اللفظ، وأنَّه لم يقل ذلك. قلتُ: كذب السَّراج!، وهذه الحكاية مستفيضة متواترة عن البسطامي! واعتذر له الجُنيد وأصحابه في عصره: بأنها جاءت على سبيل الحكاية، وقال الديلميُّ في الأنفاس: "قد قالها، وما يدري ما قال"![١٦٥٣].

وكان يذمُّ أهل الفقه والحديث، ويقول: "أخذتم علكم ميتاً عن ميت، وأخذنا علمنا عن الحيِّ الذي لا يموت"، وكان يُدلي بكلامٍ كثير لا أصل له، ولا معنى سوى الهرطقة والكذب، ويذكر أنَّه رأى الحور العين في منامه فأعرض عنهنَّ، وأنَّه شرب بحار السماوات والأرض وما رُوي بعد، وأنَّ من عباد الله من يضجُّ عند دخول الجنَّة، وكانت بداياته في الجوع والعُري، وزعم أنَّه بلغ في مقاماته سدرة المنتهى، وكان يقول: "صفة العارف صفة أهل النَّار، لا يموت ولا يحيا" ،ويقول: "لو شفعني الله في أهل عصري كلهم ما تكبرتُ؛ لأنَّه شفعني في قطعةٍ من طين"[١٦٥٤].

ويعتبر أبو الحسن الخرقاني (ت ١٠٣٤هـ)، وأبو عليّ القرمذي (ت ١٠٨٤هـ) هما الوريثان الرُّوحيّان لأبي يزيد البسطاميّ، وانبثقت خطوط الطيفوريَّة

(١٦٥٣) شرح رجال الأنفاس الروحانية (ص ١٣٦).

(١٦٥٤) شرح رجال الأنفاس الروحانية (ص ٥٤- ٦١).

من القرمذي إلى أحمد الغزالي (ت ٥٢٠هـ/ ١١٢٦م)، وهو الأخ الأصغر لأبي حامد الغزالي، وأبو يعقوب يوسف الحمداني (ت ٥٣٥هـ/ ١١٤٠م)، وعنه أخذ أحمد بن إبراهيم اليسافي (ت ٥٦٤هـ/ ١١٦٦م) التصوُّف، وأصبح خليفته الرابع، وأسس الطريقة "الباسافيَّة البدويَّة" في تركيا.

وعنه نشأ الحاج بكتاش التركي مؤسس الطريقة البكتاشيَّة، وكان أتباع هذه الطريقة يجتنبون مخالطة النَّاس، ويُفضِّلون الخلوة والعزلة، وشطحات أتباعه كبيرةٌ جداً، تبعاً لطريقة شيخهم!(١٦٥٥) .

٨. الطريقة السقطيَّة:

نسبةً إلى أبي الحسن السري بن المغلس السقطي، خال الجنيد (ت ٢٥٣هـ).(١٦٥٦)

٩. الطريقة الجنيدية:

(١٦٥٥) طبقات الصوفية (ص ٦٧)، الحلية (١٠/ ٢٣)، وفيات الأعيان (١٢/ ٥٣١)، البداية والنهاية (١١/ ٣٥)، سير أعلام النبلاء (١٣/ ٨٦)، وانظر: تاريخ التصوف؛ لقاسم غني (ص ٦٣٠)، وشطحات الصوفية؛ لعبد الرحمن بدوي.

(١٦٥٦) انظر: طبقات الصوفية؛ للسلمي (ص ٤٨)، الحلية (١٠/ ١١٦)، تاريخ بغداد (٩/ ١٧٨)، البداية والنهاية (١١/ ١٣)، سير أعلام النبلاء (١٢/ ١٨٥).

وهم أتباع أبي القاسم محمد بن الجنيد (ت ٢٩٧هـ)، قالوا في وصف طريقته إنها تُوفِّق بين الشريعة والحقيقة، وتجمع بين الظاهر والباطن، وأنها أكثر ملاءمة للمبتدئين وغير الناضجين، ويُذكر أن الجنيد كان يفتي في حلقة أبي ثور الكلبي! [١٦٥٧].

١٠. الطريقة السَّهليَّة (أو التستريَّة):

وهم أتباع سهل بن عبد الله التستري (ت ٢٧٣هـ)، وكانوا يُعظِّمون رياضة النفس والمجاهدة، ويجعلونها سبيلاً للوصول إلى الغاية، وهذا مما يُعدُّ محلَّ اتفاقٍ بين جميع الطُّرق، ولكن هذه الطريقة تولي هذا الجانب اهتماماً أكبر، ويُقدِّمونه على واجبات السالك الأخرى.[١٦٥٨]

١١. الطريقة الخزازية:

(١٦٥٧) تاريخ التصوف (ص ٦٣٣)، وانظر طبقات الصوفية (ص ١٥٥)، والحلية (١٠/ ٢٥٥)، وتاريخ بغداد (٧/ ٢٤١، ٢٥٠)، وفيات الأعيان (١/ ٣٧٣)، والبداية والنهاية (١١/ ١١٣)، والسير (١٤/ ٦٦).

(١٦٥٨) انظر: طبقات الصوفية (ص ٢٠٦)، والحلية (١٠/ ١٨٩)، وفيات الأعيان (٢/ ٤٢٩)، شذرات الذهب (٢/ ١٨٢)، والسير (١٣/ ٣٣٠)، تاريخ التصوف (ص ٦٣٦).

وهي المنسوبة إلى أتباع أبي سعيد أحمد بن عيسى الخزَّاز، أحد مشاهير الصُّوفيَّة في القرن الثلث (ت ٢٧٩هـ)، وأساس طريقته مبنيٌّ على موضوع البقاء والفناء، قال الذَّهبيُّ: إنه أوَّل من تكلَّم في علم البقاء والفناء، فأيُّ سكتةٍ فاتته، قصد خيراً، فولَّدَ أمراً كبيراً، وشراً مستطيراً، تشبَّث به كُلُّ اتحاديٍّ ضال، ونقل عن السُّلمي إنكار أهل مصر عليه، وتكفيرهم له بألفاظٍ حُفظت عنه!.(١٦٥٩)

١٢. الطريقة النوريَّة:

وصاحبها أحمد بن الحُسين النُّوري (ت ٢٩٥هـ)، من أقران الجنيد، أخذ الخرقة عن سُرِّي السَّقطي، ولقي الشِّبليّ، وكان الجنُيد يُعظِّمُه جداً، وهو خراسانيٌّ الأصل، من قرية يُقال لها "بغشور"، وهي تقع ما بين هراة ومرو الروذ، وكان من أعيان صوفيَّة زمانه، وكان يمدُّ يده إلى الناس يسألهم الصدقة، فاستقبح أحد تلاميذ الجنيد ذلك، فقال الجنيد: "إنه لم يسأل الناس في الدنيا إلا ليعطيهم في الآخرة".(١٦٦٠)

(١٦٥٩) انظر: طبقات الصوفية (ص ٢٧٩)، والحلية (١٠/ ٢٤٦)، تاريخ بغداد (٤/ ٢٧٦)، والبداية والنهاية (١١/ ٥٨)، وشذرات الذهب (٢/ ١٩٢)، تاريخ التصوف (ص ٦٤٠).

(١٦٦٠) شرح رجال الأنفاس الروحانية (ص ٤٣).

وكان النوريُّ وجماعته ينطقون بالعظائم، وقد وشى به أحمد بن محمد البغداديّ المعروف بـ "غُلام خَلِيْل" (ت ٢٧٥هـ) إلى الخليفة "المُوفَّق العباسي" وذلك سنة (٨٨٥م)، وكانَ "غُلام خليل" أحد وعاظ بغداد المعروفين، التقى برويم وجماعته، فخبر حالهم، فلازمهم مُدَّةً، ثُمَّ نافرهم، وحذَّر الناس منهم!، وكان رُويم على مذهب داود الظاهري [١٦٦١].

قال الذهبيُّ عنه: "لَمْ يَزَلْ يَقُصُّ ببغداد، وَيُحَذِّرُ مِن الصُّوفيَّةِ، وَيُغْرِي بِهِمُ السلطان وَالعَامَّةَ، ويقول: كَانَ عندنا بالبصرة قوم يقولون بِالحُلُوْلِ، وقوم يقولون بالإباحة، وقوم يقولون كَذَا، فانتشر في الأفواه أَنَّ بِبَغْدَادَ قوم يقولون بالزندقة، فطلب الخليفة القوم، وَبَثَّ الأعوان في طلبهم، فأسرهم، وكَانُوا نيفاً وسبعين نفساً، فَاخْتَفَى عَامَّتُهُم، وَبَعْضُهُم خلَّصته العامة، وَحُبِسَ مِنْهُم جَمَاعَةٌ مُدَّةً، وَهَرَبَ النَّوَرِيّ إِلَى الرَّقَّةِ"[١٦٦٢]، وكان عبد الله الأنصاريّ يعترف بأنَّ: "شعرة من رويم تفضل مائة شعرة من الجنيد"[١٦٦٣].

(١٦٦١) طبقات الصوفية، للسُّلمي (ص ١٨٠)، الرسالة القشيرية، (ص ٣٤).
(١٦٦٢) انظر: تاريخ الإسلام للذهبي (٦/ ٤٩٦)
(١٦٦٣) نفحة الأنس (ص ٩٥).

ويذكر الصُّوفيَّة أنَّ النُّوريَّ قُدِّمَ للقاضي، فسمع القاضي كلامه، فبكى، ثُمَّ عفا عنه[١٦٦٤] ، وهو كَذب، بل له عباراتٌ في الحلول والفناء، والزندقة !.

ويذكر صاحب "رجال الأنفاس الروحانيَّة" عنه أنَّ النُّوريّ تعلَّم المراقبة والسُّكون من هِرَّة!، وأنَّه قال للشبليّ لن تنال المعرفة إلا بخوض سبعة بحارٍ أشدُّ من النيران، وأنَّه سمع رجلاً يؤذِّنُ، فقال: طَعنةٌ وسُمٌّ الموتِ!، وأنَّه سمع كلباً ينبح؛ فقال: لبيكَ وسعديك![١٦٦٥] .

وقال السُّلمي عن عبد الله بن خبيق:" وطريقته في التصوف طريقة النوريّ، فإنه صحب أصحابه" [١٦٦٦].

١٣. الطريقة الحكيمية:

(١٦٦٤) انظر: شرح رجال الأنفاس الروحانية (ص ٤٤).

(١٦٦٥) انظر: شرح رجال الأنفاس الروحانية (ص ٤٥).

(١٦٦٦) طبقات الصوفية للسُّلمي (ص ١٤١).

وهي المنسوبة إلى أتباع أبي عبد الله محمد بن علي الترمذي (ت ٢٦٩هـ)، أحد كبار الصوفية في القرن الثالث، وله تقعيدات وتأصيلات خطيرة في الولاية، وتكلَّم الناس فيه لأجل موقفه من الولاية وتقديمه لها على النبوَّة .(١٦٦٧)

وقد بيَّن الذهبيُّ سبب هجر العلماء له؛ فقال: "كذا تُكُلِّم في السُّلمي من أجل تأليفه كتابه حقائق التفسير، فيا ليته لم يؤلفه، نعوذ بالله من الإشارات الحلاجية، والشطحات البسطاميَّة، وتصوُّف الإتحاديَّة، فواحزناه على غربة الإسلام والسُّنَّة..."(١٦٦٨). وقد زاد أتباعه بعد ذلك على خطئه ما صار كفراً(١٦٦٩).

وذكر السيوطي عن القاضي عياض في الشفاء أنه قال ما معناه: أجمع المسلمون على كفر أصحاب الحلول، ومن ادعى حلول الباري سبحانه في واحدٍ من الأشخاص كقول بعض المتصوفة والباطنية والنصارى والقرامطة (١٦٧٠). وقال

(١٦٦٧) انظر: طبقات الصوفية (ص ٢١٧)، والحلية (١٠/ ٢٣٣)، والسير (١٣/ ٤٣٩)، وخبر اتهامه بالكفر والزندقة في السير (١٣/ ٤٤١– ٤٤٢)، وتاريخ التصوف (ص ٦٣٨).

(١٦٦٨) انظر: السير (١٣/ ٤٤٣).

(١٦٦٩) مجموع الفتاوي؛ لابن تيمية (١١/ ٣٦٣ – ٣٧٣).

(١٦٧٠) تأييد الحقيقة العلية (ص ٥٢).

أيضاً ما معناه: الإجماع على تكفير من قال بتعطيل الأوامر والنواهي من المتصوفة وأصحاب الإباحة[١٦٧١].

وقال القاضي عز الدين بن جماعة: "ويجب أن يُنزَّه الله تعالى عن الحلول خلافاً للنصارى وبعض الصُّوفية، جلَّ الله وتعالى عن قولهم علواً كبيراً" [١٦٧٢].

١٤. الطريقة الحلاجيَّة:

وهي إحدى فرق الشيعة المنسوبة إلى أبي الغيث الحسين بن منصور الحلاج، المقتول سنة (٣٠٩هـ)، وكان جدُّه مجوسياً، وظهر للناس سوء سيرته، ومروقه، قال الذَّهبيُّ: "منهم من نسبه إلى الحلول، ومنهم من نسبه إلى الزندقة، وإلى الشعبذة، والزوكرة، وقد تستَّر به طائفةٌ من ذوي الضلال والانحلال، وانتحلوه، وروجوا به على الجُهَّال"، والصُّوفيَّةُ بجميع طرقها يمدحونه ويُزكُّونه، كالغزالي، والقشيري، وابن عربي، وأطبق عليه الصُّوفيَّةُ المعاصرون!" [١٦٧٣].

(١٦٧١) تأييد الحقيقة العلية (ص ٦٢).

(١٦٧٢) تأييد الحقيقة العلية (ص ٥٢).

(١٦٧٣) انظر: الفرق بين الفرق؛ للبغدادي (ص ٢٧٩)، وتاريخ التصوف (ص ٦٣٣).

ومن عقائد الحلاجيَّة: دعوى التجلي بالعبادة مع تركهم الصلاة، وجميع الفرائض، ودعوى المعرفة بأسماء الله العظمى، ودعوى انطباع الحقّ لهم، وأن الولي إذا خلص وعرف مذهبهم، فهو أفضل من الأنبياء، وكانوا يتصرفون بعلم الكيمياء (السحر!) وما شابه ذلك.[١٦٧٤]

١٥. الطريقة السيَّاريَّة:

وهم أتباع أبي العباس القاسم بن أبي القاسم السياري المروزي (ت ٣٤٢هـ)، ومذهبهم مبنيٌّ على الجمع والتفرقة، وهما من الألفاظ المجملة، التي يُراد بها حقٌّ وباطل، ولا يفهم سامعها مرادهم بها، ويدخلون أمورهم الباطنة في مثل هذه المصطلحات، فالجمع مشاهدة الأشياء بواسطة الله وبوسيلته! وجمع الجمع هو الفناء عما سوى الله، وهو مقام الاتحاد والاتصال[١٦٧٥].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: "وهؤلاء الذين يتكلمون في الجمع والفرق لا بُدَّ أن يحصل لهم الفرق الشرعي، وهو التفريق بين المأمور والمحظور، وبين ما يُحبُّه الله وما يكرهه الله، فإن خرجوا عن الفرق الشرعي كانوا

(١٦٧٤) انظر: تاريخ العلويين في بلاد الشام، اميل عباس، آل معروف (ص ٢١).

(١٦٧٥) انظر: طبقات الصوفية (ص ٤٤٠)، والحلية (١٠/ ٣٨٠)، والسير (١٥/ ٥٠٠)، وشذرات الذهب (٢/ ٣٦٤)، وتاريخ التصوف (ص ٦٤٣).

كفاراً من شر الكفار، وهم الذين يخرجون إلى التسوية بين الرسل وغيرهم ثم يخرجون إلى القول بوحدة الوجود فلا يفرقون بين الخالق والمخلوق؛ ولكن ليس كل هؤلاء ينتهون إلى هذا الإلحاد بل يفرقون من وجه دون وجه فيطيعون الله ورسوله تارة ويعصون الله ورسوله تارة كالعصاة من أهل القبلة[١٦٧٦].

١٦. الحلمانيَّة:

وهم أتباع أبي حلمان الفارسي الحلبي في القرن الرابع الهجري، وكانت تُصرِّح بالقول بالحلول، ووحدة الوجود، وهي من طوائف الباطنية.[١٦٧٧]

١٧. القشيرية:

وهم أتباع أبي القاسم عبد الكرم بن هوازن بن عبد الملك القشيري، الخراساني، الشافعي، الصوفي (ت ٤٦٥هـ)[١٦٧٨]، نعته الذهبيُّ بالإمام القدوة الأستاذ، وكان من علماء الأشاعرة، عديم النظر في الوعظ والتذكير، حج مع أبي محمد الجويني، والحافظ أبي بكر البيهقي، وجرى له مع الحنابلة خصامٌ بسبب

(١٦٧٦) انظر: : مجموع الفتاوى؛ لابن تيمية (١٠/ ٢٤٣)

(١٦٧٧) الفرق بين الفرق؛ للبغدادي (ص ٢٧٥).

(١٦٧٨) انظر: الصلة بين التصوف والتشيع؛ لكامل مصطفى الشيبي (٤٤٠- ٤٤٦)، وبغية المستفيد بشرح مُنية المريد (ص ٧٤- ٧٥).

الاعتقاد؛ لأنه تعصَّب للأشاعرة، وانتهى الأمر إلى فتنة، قُتل فيها جماعةٌ من الفريقين، وترك القشيريُّ بلده لأجل ذلك، ثم عاد إليها فيما بعد، ومن مصنفاته "الرسالة في التصوُّف"، و"التفسير الكبير"، و"لطائف الإشارات"، و"المنتهى في نكت أولي النُّهى"، وغيرها، وتوفي سنة (٤٦٥هـ)، عن تسعين عاماً.(١٦٧٩)

وتُعدُّ هذه الطرق مقدمة لما بعدها .

(١٦٧٩) انظر: تاريخ بغداد (١١/ ٨٣)، والأنساب للسمعاني (٤/ ٥٠٣)، وفيات الأعيان (٣/ ٢٠٥)، وسير أعلام النبلاء (١٨/ ٢٢٧)، والبداية والنهاية (١٢/ ١١٤).

المبحث الثالث:

الطرق الصُّوفية في منتصف القرن الخامس الهجري

ومن الطرق الصُّوفيَّة التي ظهرت في منتصف القرن الخامس:

١- الطائفة البيانيّة:

وهي المنسوبة إلى شيخها أبي البيان نبأ بن محمد (ت٥٥١هـ)، وقد ظهرت هذه الطريقة بدمشق[١٦٨٠]، ويذكرون أن نور الدين زنكي كان يزوره في رباطه[١٦٨١]،

٢- والطائفة العدوية (الهكّارية):

وهي المنسوبة إلى عدي بن مسافر الهكاري (ت ٥٥٧هـ)[١٦٨٢] ، كان صاحب طريقةٍ حسنةٍ في الزهد والروع، وقد أشار ابن تيمية إلى صلاحه وتقواه، وعدّه من مجددي الشيوخ[١٦٨٣]، واستقر الشيخ عدي بن مسافر في منطقة "جبال

(١٦٨٠) تاريخ الاسلام، الذهبي، (٣٨/ ص ٦٧-٦٨).

(١٦٨١) البداية والنهاية، لابن كثير (١٢/ ٢٩٣).

(١٦٨٢) وفيات الاعيان، ابن خلكان (٣/ ٢٥٤).

(١٦٨٣) مجموع الفتاوى؛ لابن تيمية (١١/ ١٠٣).

هكار" في شمال العراق، بين قبائل الأكراد الهكارية، وبنى له مدرسة، وأقبل عليه سكان تلك المناطق، لما رأوا من زهده وصلاحه، وحسن سمته، وإخلاصه في إرشاد الناس[١٦٨٤].

وقد شكل أتباع الشيخ عدي بن مسافر أهم فرقة في جيش صلاح الدين فيما بعد، واحتل عددٌ منهم منزلة الأمراء والقادة، الذين حققوا الانتصارات، وأنجزوا الفتوح[١٦٨٥].

ويُذكر أن طائفة عدي بن مسافر غلوا فيه فغووا، ونووا فيه نيةً شنعاء فغووا، وغلب عليهم الهوى فأضلهم الله" [١٦٨٦].

ويلاحظ أن أول ذكرٍ للطائفة "العدوية" كان قد ورد عند ابن خلكان (ت ٦٨١ هـ)، بينما سماهم ياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ) باسم الأكراد الهكارية، وأن الشيخ عدي هو شيخهم وإمامهم، ويستدّل من ذلك على أن تبدل النسبة من هكارية إلى عدوية جاء في الفترة الممتدة بين سنة (٦٢٦ – ٦٨١ هـ)، أي ما يقارب خمساً وخمسين سنة، خلالها بدأت بذور ما صار يعرف لاحقاً باسم "الطرق

(١٦٨٤) النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهر، للسيوطي (٥/ ٣٦٢).

(١٦٨٥) هكذا ظهر جيل صلاح الدين (ص ٢٥٦).

(١٦٨٦) مسالك الأبصار، للعمري (٨/ ١٨١).

الصوفية"، حيث أصبح قبر الولي مزاراً ومشهداً مقصوداً، وحيث يتوارث أبناؤه أو أقرباؤه مكانته التي كانت له عند الناس!.

٣-الطائفة الغزالية:

نسبةً إلى أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي الشافعي، أحد الأعلام، من كبار المتصوفة في عصره، ومن أئمة الأشاعرة، قال عنه الذهبي: "الإمام البحر، حجة الإسلام! أعجوبة الزمان"، تتلمذ على يد إمام الحرمين الجويني، وولاه نظام الملك الوزير السلجوقي المشهور مدرسته العريقة النظامية ببغداد، ثم إنه تصوف وترك ذلك بالكلية، وله مصنفات كثيرة متداولة، من أهمها: "إحياء علوم الدين" وقد ذمه طائفةٌ من أهل العلم، وقال فيه الذهبيُّ: "أما الإحياء ففيه من الأحاديث الباطلة جملة، وفيه خيرٌ كثير، لولا ما فيه من آداب وسوم وزهد من طرائق الحكماء ومنحرفي الصُّوفيَّة"، ومن مصنفاته أيضاً: "المستصفى" في أصول الفقه، و"إلجام العوام عن علم الكلام"، و"الرد على الباطنية"، و"مقاصد الفلاسفة"، و"تهافت الفلاسفة"، وغيرها، مات بطوس سنة (٥٠٥هـ).[١٦٨٧]

(١٦٨٧) انظر: الكامل (١٠/ ٤٩١)، والمنتظم (٩/ ١٦٨)، ووفيات الأعيان (٤/ ٢١٦)، وسير أعلام النبلاء (١٢/ ١٨٦).

وكانت بدايات الغزالي في التصوُّف الحقيقية على يد الشيخ يوسُف النسَّاج، بعد الشيخ أبو علي القرمزي الطُّوسي (حيث لم يتلقَّ أيَّة تنويرات روحيَّة مع القرمزي)،

يقول أبو حامد: "وكنتُ في مبدئ أمري منكراً لأحوال الصالحين، ومقامات العارفين، وفي مراتب ووجدانيات الغنوصيين، حتى صحبتُ شيخي (يوسُف النسَّاج)، فلم يزل يصقلني بالمجاهدة حتى حظيتُ بالواردات، فرأيتُ الله تعالى في المنام .. وقال لي: القاطع بينك وبينهم تشاغلك بحُبِّ الدنيا، فاخرج منها مختاراً، قبل أن تخرج منها صاغراً.. فلما استيقظتُ أخبرتُ أبا يوسف النساج؛ فقال لي: يا أبا حامد هذه ألواحنا في البداية، وإنك إن صحبتنا ستكتحل بصيرتك..".(١٦٨٨)

١٦٨٨() شخصيات صوفية، طه عبد الباقي سرور (ص ١٥٤).

المبحث الرابع

الطرق الصُّوفية في القرنين السادس والسابع الهجريين

ومن الطرق الصوفية التي ظهرت في القرنين السادس والسابع الهجريين:

١- الأكبرية (أو الحاتميَّة):

وهي الطريقة المنسوبة لابن عربيّ، وابن عربي، هو أبو بكر محمد بن علي بن محمد بن عربي الحاتمي الطائي لأندلسي (ت ٦٣٨ هـ)، الملقب عند المتصوفة بالشيخ الأكبر والكبريت الأحمر، وهو من ملاحدة المتصوفة، وهو إمام القائلين بوحدة الوجود -عياذاً بالله من ذلك- طاف البلدان، ودخل بغداد سنة (٦٠١ هـ) وسنة (٦٠٨ هـ)، واتقى فيها بالشهاب السهروردي، وأقام بمكة مدة، وصنف فيها كتابه المُسمَّى بـ"الفتوحات المكيَّة"، الذي يُعدُّ من أوسع مصادر المتصوفة على الإطلاق، وله كتاب "الفصوص"، يقول الذهبيُّ: "فإن كان لا كفر فيه، فما في الدنيا كفر"[(١٦٨٩)]، ويقول ابن كثير عن كتاب الفصوص: "فيه أشياء كثيرة ظاهرها كفرٌ صريح"[(١٦٩٠)]، واختلف الناس فيه، فمن قائلٍ إنه زنديق، وغالٍ فيه يقول: هو

(١٦٨٩) انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٢٣/ ٤٨).

(١٦٩٠) انظر: البداية والنهاية لابن كثير (١٣/ ١٦٧).

صدِّيق؟! وقال بعضهم: باعتقاد ولايته، وتحريم النظر في كتبه -وهو قولٌ غريب حقًّا!!، وما وثَّقَهُ أو تولاهُ إلا كُلُّ صوفيٍّ أثيم، أو جاهلٍ اغترَّ بكثرة الناعقين حوله! ولابن عربي نحو أربعمئة كتاب، وله من المؤلفات غير ما ذكرن، "مفاتيح الغيب"، و"روح القدس"، و"عنقاء المغرب"، توفي بدمشق، سنة (٦٣٨هـ).[١٦٩١]

ويرى ابن عربي أنه خاتم الأولياء -الذي هو بزعمه أفضل من خاتم الأنبياء- فيقول في كتابه عنقاء المغرب: "أنا الختم الذي لا ولي بعدي، ولا حامل لعهدي".[١٦٩٢]

وهذه الطريقة لها فرعان: الشهاويَّة، والشرَّانيَّة.

٢- السبعينية:

وهي المنسوبة إلى عبد الحق بن إبراهيم بن محمد بن نصر بن سبعين الإشيلي المرسي المغربي (ت ٦٦٩هـ)، ويُعدُّ من أئمة الفلاسفة المتصوفين القائلين بوحدة الوجود، وكان يعرف السيميا (نوع من السحر)، وكان يلبس بذلك على الأغبياء من الأمراء والأغنياء، أقام بمكة، وجاور في بعض الأوقات بغار حراء،

(١٦٩١) انظر: لسان الميزان (٥/ ٣١١)، وشذرات الذهب (٧/ ٣٣٢).

(١٦٩٢) عنقاء المغرب لابن عربي (ص ١٥))، نقلاً عن الحياة الصوفية في الإسلام (ص ٥٨٥).

يرتجي فيما يُنقل عنه أن يأتيه الوحي كما أتى النبيَّ ﷺ، وذلك على ما كان يعتقده –قبَّحه الله– من العقيدة الفاسدة من أن النبوة مكتسبة، وأنها فيضٌ على العقل إذا صفا، فما حصَّل إلا الخزي والإهانة في الدنيا والآخرة، وله مؤلفات منها "الهو"، وكتاب "الحروف الوضعية في الصور الفلكية"، ومات بمكة سنة (٦٦٩هـ).(١٦٩٣)

وقال فيه شيخ الإسلام ابن تيمية وفي نظيره الشهاب السهروردي المقتول: "وصار كل من سلك سبيلهم يطلب النبوة، ويطمعُ أن يُقال له: قُم فأنذر، هذا يقول: لا أموتُ حتَّى يُقال لي: ﴿قُمْ فَأَنْذِرِ﴾(المدثر: ٢)، وهذا يُجاور بمكة، ويعمد إلى غار حراء، ويطلب أن ينزل عليه فيه الوحي، كما أنزل على المزمل المدثر مثله (النبيّ ﷺ)، وكل منهما ومن أمثالهما يسعى بأنواع من السيمياء التي هي من جنس السحر، ويتوهم أن معجزات الأنبياء هي من نفس جنس السحر السيماوي.(١٦٩٤)

وابن سبعين وأمثاله من هؤلاء الملاحدة، يقول في وصف (ربِّه !): هكذا لا إشارة ولا تعيين، بل عينُ ما ترى ذاتٌ لا ترى، وذات ما لا ترى عينُ ما ترى،

(١٦٩٣) انظر: العبر (٥/ ٢٩١)، والوافي بالوفيات (١٨/ ٦٠)، والبداية والنهاية (١٣/ ٢٧٥)، ونفح الطيب للمقري (٢/ ١٩٥).

(١٦٩٤) انظر: الإيمان الأوسط لابن تيمية (ص ٥٠٣– ٥٠٥).

ويقولون في أذكارهم: ليس إلا الله، بدل قول المسلمين: لا إله إلا الله، لأن معتقدهم أنه وجود كل موجود، فلا موجود إلا هو.[(١٦٩٥)]

٣- الكبروية:

وهي المنسوبة إلى الشيخ نجم الدين كبرى الخيوقي (ت ١٢٢٤م) تلميذ السَّهروردي، وتتلمذ أيضاً على يد إسماعيل القصري (ت ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م) صاحب الطريقة القصريَّة، واستقرَّ كبري في خوارزم، وكان له السبق في تدريب الشاعر الفارسي مجد الدين البغدادي (ت ١٢١٩م)، والذي كان شيخاً لفريد العطار (ت ١٢٢٥م).

٣- الشيشتية:

وهي طريقة المنسوبة إلى معين الدين حسن الشيشتي السجستانيّ (ت ٥٣٧هـ/ ١٢٣٦م)، التي انحصرت أساساً في الهند، وكان لها تأثير واسع في أقطار الهند، وتكاد تكون الفرقة الوحيدة النشطة فيها.

٥- الروزبهانيَّة:

(١٦٩٥) انظر: الإيمان الأوسط لابن تيمية (ص ٥١٧).

وهي الطريقة التي أسسها شيراز روزبهان بقلّي (ت ١٢٠٩م)، أحد أهم المحافظين على فكر وتراث الحلاج، ولم تنتشر طريقته خارج حدود فارس.

٦- والكيزانية:

وهي الطريقة التي أُسِّست في القاهرة على يد عبد الله محمد المعروف بابن الكيزاني (ت ١١٦٧م).

٧-اليونسيَّة:

وهي الطريقة المنسوبة إلى يونس بن يوسف بن مساعد الشيباني (٦١٩ هـ/ ١٢٢٢م)، وكان رجلاً مجذوباً التفَّ حوله الصُّوفيَّة، وجعلوا منه إماماً لهم، وورث عن الطريقة حفيده سيف الدين واجيحي، الذي منحه الوزير أمين الدولة أرضاً في غوطة الشَّام؛ ليقيم عليها زاويةً له [١٦٩٦] !، وكان معظم أتباعه من العيارين وأولي الزعارة والشطار، الذين تابوا على يديه.

٨- الطريقة القلندريَّة :

(١٦٩٦) انظر: تاريخ الإسلام للذهبي؛ (٤٤/ ٤٧١)، والطرق الصوفية في الإسلام، سبنسر ترمنجهام (ص ٤٠).

وهي إحدى فرق الملامتيَّة: وهم طائفة تركت العادات والآداب وراءها ظهريَّاً، وتميَّزوا بحلق شعر الرأس واللحية والشارب، وكانوا يلبسون زي العجم والمجوس!.[١٦٩٧]

وتُنسب هذه الطريقة إلى (قلندره يوسف عربي أندلسي)، الذي عاصر الحاج بكتاش (مؤسس الطريقة البكتاشيَّة)، وقد ظهرت لأول مرة في دمشق سنة (٦١٠هـ)، وكان أتباعها يحلقون لحاهم وحواجبهم، ويزعمون أنهم قنعوا بطيبة قلوبهم مع الله تعالى، ولم يزيدوا على ذلك شيئاً، فتركوا الجُمع والجماعات، واستكثروا من الدنيا، فلم يترسموا بمراسم المتقشفين، والمتزهدين، والمتعبدين، وكان زيُّهم عبارة عن مزيج من الزيِّ الفارسي والتركي، وقد حُوربت طريقتهم حتَّى اندثرت، ولم يكتب لها الانتشار[١٦٩٨].

وتميَّزت هذه الطرق جميعها، أو أكثرها بأن نظام المشيخة فيها متوارثاً أباً عن جد، كنظام عائلي مستمر، (وبالرغم من أنَّ نظام التوريث قد يؤدي إلى خلافة رجالٍ غير أكفاء، أو رجال دنيا، إلا أنَّه كان عاملاً مهماً في تماسك الفرقة

(١٦٩٧)

(١٦٩٨) عوارف المعارف؛ للسهروردي (١/ ٨٩)، وما بعدها. والطرق الصوفية في الإسلام؛ لسبنسر (ص ٤٣).

واستمرارها!!)، وبخاصة بعد القرن الرابع عشر الميلادي، وتمنح الطريقة أبناء العائلة صفةً خاصَّة داخل مجتمع الدراويش.

وبعض (رجال الطرق!) ليس لهم ضلعٌ في تأسيسها، فقاموا باستعمال قصص مفبركة (مُصمَّمة) لتخدم تقديس الأولياء، وربما نسبوا إليهم من الخوارق ما هم برآء منها، كما سنرى في الجيلانيَّة، وغيرها.

لقد كانت هنالك الكثير من الطرق المستقلَّة، والتي كان تأثيرها محليَّاً محدوداً، بينما

١. الطريقة القادرية (الجيلانيَّة) :

وهي الطريقة المنسوبة للشيخ عبد القادر بن أبي صالح موسى جنكي دوست الجيلاني (ت ٦٥١هـ/١١٦٦م)، المنسوب إلى (جيلان أو كيلان)؛ بلدة وراء طبرستان [١٦٩٩]، واختلفوا في ولادته؛ فيل: ولد في "نيف" **(Niff)** شمالي

(١٦٩٩) شذرات الذهب؛ لابن العماد (١٩٨/٤)، وقال صفيُّ الدين عبد المؤمن البغدادي (ت ٧٣٩ هـ) في كتابه "مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع" (ص: ٣٦٨) وهو مختصرٌ لكتاب معجم البلدان للحموي: "جيلان معرب كيلان، اسمٌ لبلادٍ كثيرة من ورا طبرستان، وهي قرى كلها في مروجٍ بين الجبال على ساحل بحر طبرستان، أي بحر قزوين، وجَيْلان: قومٌ من الفرس من أهل اصطخر، نزلوا في طرف البحرين، ونزل عليهم قومٌ من بني عجل، فدخلوا فيهم، فهم يسمون جيلان، والجِيل:

إيران، وقال الحموي: ولد في "بُشتير"[١٧٠٠]، واختلفوا في نسبه؛ فقيل: يعود إلى الحسن بن علي بن أبي طالب، وقيل: لا يثبت نسبه إلى علي بن أبي طالب[١٧٠١]، ولكن شيوع نسبه إلى علي بن أبي طالب، وكثرة عددهم، وندرة الطاعنين يُرجح جانب الانتساب إلى علي رضي الله عنه.

وتوفي رحمه الله ببغداد، ليلة السبت الثامن من ربيع الآخر، سنة (**٥٦١** هـ)، ودفن بمدرسته، بعد أن شيعه خلائق لا يُحصون [١٧٠٢].

وفي العام (**٤٨٨**هـ/ **١٠٩٥**م) أتى الجيلاني إلى بغداد وانهمك في دراسة المذهب الحنبلي، وكانت دراسته شرعيَّةً سلفيَّة، رافضاً الدراسة في المدرسة النظاميَّة (التي يديرها أحمد الغزالي الصُّوفي)، وكان زاهداً، صالحاً، ديِّناً، واشتهر الجيلاني بعد سنِّ الخمسين من عمره، كواعظ شعبي في مدينة بغداد، وليس كرجل صوفيّ، وكان لباسه هو لباس رجل عالمٍ، لا كلباس الصُّوفيَّة في زمانه.

هم أهل جيلان، والجيل: قريةٌ من قرى بغداد على جانب دجلة، ويسمونها: الكيل"، وقال أبو سعد عبد الكريم بن محمد السمعاني في كتابه "الأنساب" (٢/ ١٦٤): "سميت باسم من بناها من نسل يافث بن نوح".

(١٧٠٠) معجم البلدان، لياقوت الحموي (١/ ٤٢٦).

(١٧٠١) انظر: الذيل على طبقات الحنابلة؛ لابن رجب (١/ ٢٩٠).

(١٧٠٢) سير أعلام النبلاء، للذهبي (٢٠/ ٤٥٠).

ولم يكن للجيلاني خطٌّ ممتدٌ في هذه الطريقة قبل القرن الرابع عشر الميلادي، ولم يثبت أنَّه ادَّعى أنَّ له طريقاً، أو سلسلةً في التصوُّف، ولم يثبت عنه أنَّه قام بتلقين الأذكار والأوراد لأيِّ فرد (حتَّى ابنه عبد الرزاق!)، ولم ينتسب أحد الصُّوفيَّة إليه في حياته، وحتَّى أبناؤه لم يكن لهم ضلعٌ في نشر طريقته، وحتَّى الكتب التي نُسبت إليه تحتاج إلى تدقيق وتحرِّي، كما يقول مارجيلوث (Margalioth) في موسوعته الإسلاميَّة! (١٧٠٣) .

والذي يبدو أن تأسيس الطرق الصُّوفية في زمانه لم يكن مشتهراً في زمانه، فالحاصل أن الشيخ الجيلاني جمع المريدين والطلاب حوله، ووضعهم في شكل منظم، ليتسنى له تربيتهم على الزُّهد والتواضع، والأخلاق الحميدة (١٧٠٤).

وتميزت مدرسة الشيخ الجيلي في بداياتها بأمرين اثنين، هما:

أحدهما يتعلق بالجانب النظري، وهو تأكيده على الاتباع وعدم الابتداع، والتحلي بالأخلاق الفاضلة والصفات الحميدة، وهذا ما جعل أسلوبه في الدعوة خالياً من الأفكار والفلسفات التي كانت سائدةً في عصره، نتيجةً لترجمة المعارف

(١٧٠٣) الطرق الصوفية في الإسلام، سبنسر ترمنجهام (ص ٨١).

(١٧٠٤) الشيخ عبد القادر الجيلاني، د. سعيد بن مسفر القحطاني (ص ٦٣٧).

اليونانية، وتأثيرها على العقول والأفهام، حتى وقع في حبائلها كثيرٌ من المتصوفة، فاستخدموا ألفاظها ومصطلحاتها.

الثاني: يتعلق بالجانب العملي، وهو وقوعه في بعض البدع العملية، وبعض مظاهر الانحراف عن الكتاب والسنة، ولكنها أمورٌ لا تُصيُّره في الجملة مبتدعاً.

وكان عبد القادر الجيلاني (وهو من أصل فارسيّ)، مُعاصراً للرفاعي، والسهروردي، ولكنه لم يُحسب في أيَّة "صُحبةٍ" وسلسلة نسب صوفية، والطريقة التي حملت اسمه ظهرت إلى الوجود فيما بعد، وبقيت مُدَّة طويلة بعد وفاته حتَّى اشتهرت، وعرفت باسمه.

وأكثر ما يثير الشُّكوك حول نسبة هذه الطريقة، هو ما نُسج حول حياة عبد القادر من أسطورة ضبابية، تطورت وتضخمت بشكل سريع ومريب خلال وقت قصير جداً، فالجيلانيُّ هو الإمام الحنبليُّ المتشدد، والواعظ السلفيُّ العظيم، ولم يقم الجيلاني بمثل هذه الادعاءات الكاذبة، ولم يكتسب الجيلاني سمعته الطيِّبة من هذا التصوُّف الواهن، بل اكتسب الجيلانيُّ سمعته من مواعظه المؤثرة، وأما فرضية تصوفه، فلا يوجد أقلُّ دليل على أنَّه كان صوفيَّاً بالمرَّة!، ولم يُذكر عنه أي اتجاه أو سلوك جديد في حياته.

وعلى كُلٍّ؛ فقد أصبح للقادريَّة طريقةً في بغداد، استغلُّوا فيها شُهرة الشيخ الجيلاني، وما نُسج حوله من كرامات (التي قد يكون بعضها صحيحاً!)، وجعلوا بجوار قبره مسجداً باسمه، وقد أصيب ضريحه بالتهدمات عدة مرات، حتَّى استعاد العثمانيون السيطرة على تلك المنطقة، واكتسبت هذه الطريقة نفوذاً كبيراً بين الأكراد، ومن الملفت أنَّ إسماعيل الصفويّ عندما سيطر على بغداد في العام (١٥٠٨م)، حطَّم هو وجنوده القبور، بما فيها قبر عبد القادر، وطردوا أسرته، فلجأ بعضهم إلى الهند، وأُعيد بناء القبر سنة (١٥٣٤م) بأمر من السلطان سليم الأول، وجدد بناءه مراد الرابع عما (١٦٣٨م)..

ولهذه الطريقة أتباع في جميع انحاء العالم، منها: الجزائر، وتونس، وجاوه، وغينيا، والهند (وانتشرت فيها على يد "محمد غوث" الذي ادَّعى أنَّه من نسل عبد القادر، ت ١٥١٧م)، ويوغوسلافيا، بالإضافة إلى العالم العربي، فانتشرت في سوريا على يد (محمد البطائحي)، وكان تأسيس أول زاوية قادرية في مستهل القرن الخامس عشر الميلادي، وانتشرت ببلاد ما وراء النهرين على يد (تاج الدين البخاري البغدادي).

ونُسب لعبد القادر كتابات صوفيَّة من أوراد، وأذكار، مثل: "بشائر الخيرات"، و"الفيوضات الربانيَّة"، و"الإنسان الكامل" (أو القطب، الذي يمثل

الممثل الحقيقي والرأس الفعلي للصوُّفيَّة في العصر الحالي!)، وغيرها، تتمركز حول فكرة التقديس، والتلقي من النَّبيِّ ﷺ، وأنَّ هو القطب الأعظم، حتى انتقلت العدوى إلى الجيلانيّ، الذي يذكر (في مخاطبة الله له: يَا غوثيَ الأعظم!)، ويرى الباحث أنَّ هذه الكتابات بأسلوبها وأفكارها لا يمكن أن يكتبها أحد الحنابلة، فضلاً عن إمام ورع مثل عبد القادر، ولكنَّ نظرية الاعتقاد السِّريّ عند الصُّوفيَّة، يسمح لأيِّ فردٍ أن يُدرِّس ما شاء من معتقدات وأفكار، ثُمَّ ينسبها لمن شاء بعد ذلك!.

وبتقصي تاريخ هذه الطريقة تبين أنها لم تكن منظمة على هذه الصورة أيام الجيلاني، وإنما اتخذت هذا الكيان بعد وفاته بزمن طويل، وتدل الدلائل على أن للدولة العثمانية دوراً بارزاً في نشر هذه الطريقة في أنحاء إمبراطوريتها الواسعة (١٧٠٥).

ولا بُدَّ أن توضع لكل شيخ كرامات تختصُّ به، توضح أهميته، وتأثيره، ومدى قربه من الله سبحانه!، دعايةً إلى هذه الطريقة أولاً، وزيادةً في تعظيم صاحب الطريقة ثانياً، ومن كرامات الجيلاني (رحمه الله) والتي تولى كبرها الصُّوفيَّة أنَّ من قرأ "بشائر الخيرات"، فقد تكفَّل الله تعالى له بأعلى الدرجات في الجنَّة، وفتح له سبعين باباً من أبواب الرحمة، وهي خيرٌ له من عتق ألف نسمة، ونحر ألف بدنة،

(١٧٠٥) صفحات مكثفة في تاريخ التصوف (ص ١٧٥).

وصدقة ألف دَين، وصيام ألف شهر، وهي صلاة المصلين، وقرآن الذاكرين! (١٧٠٦).

ثم كرامة (قبقابيه!)، اللذان وصلا إلى تخوم الصحراء، وهو قابعٌ في بيته، فسقطتا على رأسي قاطعي طريق، فماتا، وذلك بعد أن استغاث به أصحاب قافلة، ونذروا له جزءاً من أموالهم إن هو سلمهم من الأعداء...! (١٧٠٧) .

وينسب أتباع هذه الطريقة كرامات كثيرة للجيلاني غير التي ذكرناها، ويحجُّ إلى قبره جموعٌ متكاثرة من أتباعه، ويدَّعي أتباع هذه الطريقة أنها ساهمت في نشر الإسلام في إفريقية !.

ومن الجدير بالذكر أنَّ الطريقة القادريَّة في تونس ظهرت على يد (علي بن عمر الشايب) في أوائل القرن الثاني عشر الهجري، وتتابع الناس على تأسيس زواياهم التابعة للطريقة، ومنهم (محمد الميزوني المغربي) الذي أسس زاوية بالكاف في تونس، والتي كانت تخدم أغراض سياسية للجيش الفرنس، إبَّان الهجوم على تونس في العام (١٨٨١م).

(١٧٠٦) بشائر الخيرات، عبد القادر الجيلاني (ص ٣– ١٢). طبع بالمغرب.

(١٧٠٧) جامع المقال، أحمد فريد المزيدي (ص ١٦١).

وأختم بأن للشيخ عبد القادر مؤلَّفٌ ثمين، وهو كتابه "الغُنية" الذي أبان فيه معتقده السَّلفيِّ الأصيل، بعيداً عن متصوفة الوجودية، والحلولية، الأمر الذي ينسف كل ما نُسب إليه من مصنفات حلولية واتحادية، يقول رحمه الله: "أما معرفة الصانع بالآيات والدلائل على وجه الاختصار، فهو أن يُعرف ويتيقن أن الله واحدٌ أحد"، إلى أن قال: "وهو مستوٍ على العرش، محتوٍ على المُلك، محيط علمه بالأشياء (إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه)، ولا يجوز وصفه بأنه في كل مكان، بل يُقال إنه في السماء على العرش، كما قال: (الرحمن على العرش استوى)، وينبغي إطلاق ذلك من غير تأويل، وكونه تعالى على العرش فمذكور في كل كتاب أنزل، وعلى لسان كل نبي أرسل، بلا كيف" (١٧٠٨).

وقد غالى في الشيخ عبد القادر طوائف الصوفية، حتى كتبوا على جدار قبته بعض الأبيات الشركية، باللغة الفارسية (١٧٠٩) ، وهذه ترجمتها:

ملـــــك الدارين ... الشيـــخ عبد القادر

(١٧٠٨) مختصر العلو للعلي الغفار، للذهبي (ص ٢٨٤).

(١٧٠٩) هذه الأبيات هي: (بادو شاهي هاردو عالم ... شيخ عبد القادر هست* سروري أولاد آدم ... شيخ عبد القادر هست * آف تابو باه تابو ... عرش وكرسي وقلم* زير بائي شيخ ... عبد القادر هست) انظر: الشيخ عبد القادر وآراؤه الاعتقادية، د. سعيد القحطاني، (ص ٣ – ٤).

سيــــــد ولد آدم ... الشيخ عبد القادر

الشمس والقمر ... والعرش والكرسي والقلم

تحــــت قــــدم ... الشيخ عبد القادر !

ومن الأمور التي أحدثها أتباع الشيخ عبد القادر الجيلي رحمه الله من بعده:

أولاً–الخلوة:

وهي اعتزال الصُّوفي الناس مُدَّةً من الزمان، من أجل معرفة مدى استعداده للانتقال إلى المقامات والأحوال الأخرى، وذكر بعض من ترجم للشيخ الجيلي أنه لازم الخلوة والرياضة والمجاهدة والسياحة والمقام في الخرب والصحراء [١٧١٠]، ولكن هذا لا يثبت.

وجاء أتباعه وأضافوا على الخلوة البدعيَّة صفة "السُّنيّة"، وجعلوها من سنن الأنبياء والمرسلين، ووضعوا لها آداباً وشروطاً خاصَّة، وقالوا: إنها لا بُدَّ أن تكون في مكانٍ على قدر القامة، وأن لا يكون له منفذ، ولا يتسع لغير المختلي، ولا يعلم

(١٧١٠) انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٢٠/ ٤٤٤).

بمكانه أحد، ولا يخرج منه إلا للحاجة الإنسانية، ويشتغل بالذكر الذي يُلقنه الشيخ، مع استحضار صورة الشيخ وروحانيته، وطرد الأفكار والخواطر (١٧١١).

ويستدلُّ الصوفيون على مشروعية الخلوة؛ وأنها من فعل الأنبياء والرّسل صلوات اله وسلامه عليهم، بأدلةٍ منها:

١-قصة موسى عليه السلام مع قومه، قال تعالى: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ (البقرة: ٥١).

والجواب على هذا الاستدلال: أن فعل موسى عليه السلام كان خاصّاً به، فلم يُشاركه فيه حتى أخوه هارون عليه السلام، مع أنه كان نبياً كما لم يُشاركه فيه كذلك أحدٌ من قومه ولم يُشرع لأمته، كما أنه لم يُشرع لنبينا مُحمَّدٍ صلى الله عليه وسلم؛ فكسف يستدل به، وهذا هو حاله.

قال الإمام القرطبيُّ: "وواضحٌ أن الأمر لموسى من الله تعالى بالمكث مدة أربعين ليلة عند الطُّور خاصٌّ به لما بيَّن القرآن الكريم واخبار الصحيحة من إرادة

(١٧١١) انظر: جنة المريد، تأليف محمد الكنثي القادري (ص ١٣٦).

الله تعالى لإكرامه وتكليمه وإعطائه الكتاب الذي فيه الحلال والحرام والشرائع الأخرى" (١٧١٢).

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: "وطائفة يجعلون الخلوة أربعين يوما ويعظمون أمر الأربعينية، ويحتجون فيها بأن الله تعالى واعد موسى عليه السلام ثلاثين ليلة وأتمها بعشر، وقد روي أن موسى عليه السلام صامها، وصام المسيح أيضاً أربعين لله تعالى وخوطب بعدها. فيقولون يحصل بعدها الخطاب والتنزل؛ كما يقولون في غار حراء حصل بعده نزول الوحي. وهذا أيضاً غلط فإن هذه ليست من شريعة محمد صلى الله عليه وسلم، بل شرُعت لموسى عليه السلام؛ كما شرُع له السبت، والمسلمون لا يسبتون، وكما حَرَّمَ في شرعه أشياء لم تُحَرَّم في شرع محمد صلى الله عليه وسلم. فهذا تمسك بشرع منسوخ، وذاك تمسك بما كان قبل النبوة. وقد جُرِّبَ أن من سلك هذه العبادات البدعية أتته الشياطين، وحصل له تنزل شيطاني وخطاب شيطاني، وبعضهم يطير به شيطانه، وأعرف من هؤلاء عدداً طلبوا أن يحصل لهم من جنس ما حصل للأنبياء من التنزل، فنزلت

(١٧١٢) انظر: تفسير القرطبي (٧/ ٢٧٤).

عليهم الشياطين؛ لأنهم خرجوا عن شريعة النبي صلى الله عليه وسلم التي أُمروا بها" (١٧١٣).

٢-واستدلوا بفعل النبيِّ صلى الله عليه وسلم قبل البعثة، حيث أنه كان يختلي ويتعبَّد في غار حراء، فقد جاء في الصحيحين عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، قالت: "أولُ ما بُدئ رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصُّبح، ثُمَّ حُبِّب إليه الخلاء، فكان يخلو بغار حراء بتحنَّثُ فيه الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجه إلى خديجة فيتزود لمثلها؛ حتى جاءه الحق وهو في غار حراء" (١٧١٤).

والجواب على هذا الاستدلال: أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم لم يفعل ذلك بتشريعٍ من الله عز وجل، ولم يتعبدنا الله بأفعاله قبل البعثة، بل هو صلى الله عليه وسلم لم يعُد إلى مثل ذلك بعد البعثة، فكيف يستجيز أحدٌ أن يتعبد به من تلقاء نفسه.

(١٧١٣) انظر: مجموع الفتاوى (١٠/ ٣٩٤ -٣٩٥)

(١٧١٤) رواه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠).

وأما بعد أن أكرمه الله عز وجل بالإسلام؛ فدكانت توجيهاته وأوامر صلى الله عليه وسلم تُخالف تلك العادة التي عاشها قبل الإسلام.

ومن ذلك نهيه صلى الله عليه وسلم عن الوحدة والانفراد، لما كشفه الله عز وجل له من خطورتها على الإنسان، فقال صلى الله عليه وسلم: "لو يعلم الناس ما في الوحدة ما أعلم، ما سار راكبٌ بليل وحده" [١٧١٥]. وهذا الحديث وإن كان في النهي عن السَّفر دون رفيق، إلا أن معناه يشمل الخلوة أيضاً.

وقد بوَّب الإمام النووي في رياض الصالحين باباً في فضل الخُلطة؛ فقال: "باب فضل الاختلاط بالناس، وحضور جمعهم، وجماعاتهم، ومشاهد الخير، ومجالس الذكر معهم، وعيادة مريضهم، وحضور جنائزهم، ومواساة محتاجهم، وإرشاد جاهلهم، وغير ذلك من مصالحهم لمن قدر على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقمع نفسه عن الإيذاء، وصبرٍ على الأذى".

ثم قال –رحمه الله –: "اعْلم أَن الاخْتِلاط بالنَّاسِ عَلَى الوَجْهِ الَّذِي ذَكَرْتُهُ هُوَ المختارُ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ رسول اللَّه صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّم وسائِرُ الأَنبياءِ صلواتُ اللَّهِ وسلامُه عَلَيْهِمْ، وكذلك الخُلفاءُ الرَّاشدونَ، وَمَنْ بعدهُم مِنَ الصَّحَابةِ والتَّابعينَ،

(١٧١٥) رواه البخاري (٢٩٩٨).

ومَنْ بَعدَهُم من عُلَمَاءِ المسلمينَ وأَخْيارِهم، وَهُوَ مَذْهَبُ أَكْثَرِ التَّابعينَ ومَنْ بعدَهُم، وَبِهِ قَالَ الشَّافعيُّ وأَحْمَدُ، وأَكْثَرُ الفُقَهَاءِ رضي اللَّه عنهم أَجمعين. قال تَعَالَى: ﴿وتَعاونُوا عَلى البِرِ والتَّقْوَى﴾ (المائدة: ٢)، والآيات في معنى ما ذكرته كثيرة معلومة" (١٧١٦).

وقد ردَّ شيخ الإسلام على استدلالهم بفعل النبي صلى الله عليه وسلم قبل البعثة؛ فقال: "وأما الخلوات فبعضهم يحتج فيها بتحنثه بغار حراء قبل الوحي وهذا خطأ، فإن ما فعله صلى الله عليه وسلم قبل النبوة إن كان قد شرعه بعد النبوة فنحن مأمورون باتباعه فيه، وإلا فلا. وهو من حين نبأه الله تعالى لم يصعد بعد ذلك إلى غار حراء، ولا خلفاؤه الراشدون. وقد أقام صلوات الله عليه بمكة قبل الهجرة بضع عشرة سنة، ودخل مكة في عمرة القضاء وعام الفتح أقام بها قريباً من عشرين ليلة، وأتاها في حجة الوداع وأقام بها أربع ليال، وغار حراء قريب منه ولم يقصده" (١٧١٧).

٣-وأما استدلالهم باعتكاف النبيِّ صلى الله عليه وسلم، فإنه صلوات الله وسلامه عليه: شرع الاعتكاف لأمته ليُحافظوا على العبادة ويتفرغوا لها وينقطعوا

(١٧١٦) رياض الصالحين ط الرسالة (ص: ٢١٠)

(١٧١٧) مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية -رشيد رضا (٥/ ٨٤ -٨٥).

عن الشواغل والصوارف الأخرى، وذلك في بيوت الله عز وجل التي أُقيمت للعبادة، ولم يشرعه لتضييع الجمع والجماعات وضياع الحقوق والواجبات، كما هو الواقع في الخلوات الصوفية، فقد كان يجتمع بالناس في حال الاعتكاف في حضور الجماعة والجمعة ومجالس الذكر.

ولم يُسمه صلى الله عليه وسلم خلوة، ولم يقل إنه لا يصحُّ إلا في مكانٍ مُظلمٍ على طول قامة الرجل، لا منفذ فيه، وأنه مبنيٌّ على الكتمان، وأنَّه من الأسرار إلى غير ذلك من الشروط التي يشترطها المتصوفة في خلواتهم [(١٧١٨)].

وأيضاً فقد ترتب على تلك الخلوات المبتدعة أنواعٌ كثيرةٌ من الشرور والمفاسد، أهمها: تضييع فرائض الجُمع والجماعات، والتعبُّد في أماكن لم يرد الدليل الشَّرعي بالتعبُّد فيها كالقبور والكهوف والصَّحاري.

(١٧١٨) انظر: الشيخ عبد القادر الجيلاني، د. سعيد بن مسفر القحطاني (ص ٦٤٤ -٦٤٩).

٢. الطريقة الأحمدية (البدوية):

ومؤسسها أحمد بن علي بن إبراهيم البدوي المغربي الفاسيّ، من صوفيَّة القرن السابع/ الثالث عشر الميلادي، ولد بفاس بزقاق الحجر سنة (**٥٩٦ هـ/ ١١٩٩م**)، وتوفي بطنطا (**٦٧٥هـ/١٢٧٦م**).[١٧١٩]

يقول المناوي في "طبقاته": "وأصله –يعني أحمد البدوي– من بني برّي قبيلة من عرب الشّام، ثم سكن والده المغرب، فولده"[١٧٢٠]، بينما يزعم المتصوفة أنَّه من طبقة الأشراف المنتسبين لآل البيت.[١٧٢١]

نشأ البدويُّ بمدينة فاس "المغربية"، ولما بلغ سبع سنوات ارتحل به أبوه (علي) قاصداً مكة، وذلك سنة (٦٠٣ هـ/ ١٢٠٦م)، ودخل مكة وهو في الحادية عشرة سنة (٦٠٧ هـ/ ١٢٠٧م)، ومكث في مكة إلى أنا مات والده سنة (٦٢٧

(١٧١٩) انظر: حياة السيد البدوي، محمد محمود إبراهيم (ص ١٢)، وكان مولده بعد سقوط الدولة الفاطمية (العبيدية) بنحوٍ من ثلاثين عاماً.

(١٧٢٠) شذرات الذهب في أخبار من ذهب؛ لابن العماد الحنبلي (٧/ ٦٠٢)، وانظر: السيد البدوي دراسة نقدية (ص ١٧).

(١٧٢١) البدوي ليس جاسوساً ولا شيعياً، د. جودة المهدي (ص ٦١).

هـ)، ودُفن بالمُعلَّى[١٧٢٢] ، وفي تلك الفترة تعرَّف البدوي على بعض الصُّوفيَّة، وانخرط في طرقهم المبتدعة، ولازم الصمتَ مُدَّة، وكان يخلو بجبل "أبي قُبيس" بمكة، حتى ظنَّ الناسُ أنه مجنون!.

ثم دخل البدويُّ العراق (مركز التصوُّف في المشرق الإسلامي في ذلك الوقت) بصحبة أخيه الأكبر حسن سنة (٦٣٣هـ/ ١٢٣٦م) فالتقى بالشَّيخ برِّي من أتباع أحمد الرفاعي، وتلقى تدريبه في "البطائح" بالعراق على يد ذلك الشيخ، وكان عمره إذ ذاك ثمانيةً وثلاثين سنة [١٧٢٣]، ثُمَّ سافر إلى مكة ليرتقَّى في الولاية، حتَّى تحقَّق بمقام القطبيَّة (هناك!)..

ويرى بعض الباحثين أن رحلة البدوي إلى العراق كانت بأمر العلويين (الشيعة)؛ ليتم إعداده دعوياً على يد الصُّوفي الشيعي "ابن عرب"، واسمه في طبقات الرفاعية "الشيخ برِّي" من مدرسة الرفاعي، وهو شقيق "أبي الفتح الواسطي"، حيث تعلم البدوي كيف يبدو مجذوباً زاهداً، وكانت العراق وقتها مدرسةً لتخريج

(١٧٢٢) انظر: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة؛ للسيوطي (١/ ٥٢٢). وشذرات الذهب؛ لابن العماد (١/ ٦٠٢).

(١٧٢٣) الطرق الصوفية في طرابلس، د. غادة المقدم (ص ١٠٣).

الشيعة المتسترين بستار الصوفية، وذلك في فترة الخلافة العباسية، ودخول التتار إلى العراق [١٧٢٤].

ويذكر بعض الباحثين أنَّ البدوي ذهب إلى زيارة قبر الحلاج، ثم توجَّه إلى "الكاظمية" قِبلَ الشيعة؛ لزيارة قبور الأئمة عليهم السلام، ثم توجَّه إلى شمال العراق لزيارة ضريح "عدي بن مسافر الهكاري" (ت ٥٥٨ هـ/ ١١٦٢م)، وهو صاحب الطريقة العدوية، وقد غالى أتباعه في اعتقادهم فيه، وأُحرق هذا الضريح سنة (٨١٧ هـ)، فاجتمع العدوية عليه، واتخذوه قبلةً لهم، وبعدها تجوَّل البدوي في منطقة "الهكارية" شمال الموصل، ولم يُحسن أهل المنطقة "الأكراد" معاملته[١٧٢٥].

ثم عاد أحمد البدوي إلى مصر لنشر الدعوة الباطنية إلى التصوُّف، وذلك في العام (٦٣٤ هـ/ ١٢٣٩م)[١٧٢٦] ، أيام الملك العادل بن الكامل، الذي اشتغل باللهو عن التدبير، وخرجت عنه حلب، واستوحش منه الأمراء، لتقديمه الصبيان، وكان عهده مثالاً للفوضى والاضطراب، وقد بلغ استهتاره مداه، وقد خلعه الشعب،

(١٧٢٤) السيد البدوي دراسة ونقد، د. عبد الله صابر (ص ٣٢).

(١٧٢٥) السيد البدوي دراسة ونقد، د. عبد الله صابر (ص ٢٩). والجواهر السنية والكرامات الأحمدية؛ لعبد الصمد الأحمدي (ص ٢٨).

(١٧٢٦) حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة؛ للسيوطي (١/ ٥٢٢).

وولى بعده أخوه الصالح نجم الدين، وكانت هذه الفترة مناسبة جداً لتحقيق أيَّة تطلعات سياسية.

وقد لُقب بالبدوي لكثرة ما كان يتلثَّم، وكان له لثامين لا يُفارقهما، ويزعم الصوفيَّةُ أن البدوي كان يضع لثامين على وجهه ليستر بهما (الأنوار الربانية!!)، والتجليات الإلهية التي كانت تنطبع على مُحيَّاه، بسبب كثرة تطلُّعه إلى السماء، وبسبب وصله لصيام النهار بقيام الليل، بينما يرى آخرون أن البدوي يفعل ذلك ليُخفي شخصيته عن العامة باعتباره مبعوثاً سريًّاً لنشر التشيُّع في مصر؛ وليكون أهيب في نفوسهم. ويُذكر أن (عبد المجيد) أحد أتباع البدوي مات عندما كشف البدوي عن اللثام الفوقاني، بينما لم يمت شقيق السيد أحمد البدوي (الحسن) لما رآه بوجهه.[١٧٢٧]

واشتهر بالعطَّاب؛ لأنَّه كان يصيب بالعطب من يتعرَّض له، وقد ادَّعى بعض من كتب في "سيرة البدوي" أنه عند قدومه إلى مصر، خرج إليه "الملك الظاهر بيبرس البندقداري"، هو وعسكره لاستقباله، وأنَّه نزل في ضيافته[١٧٢٨]، وهذا الخبر

(١٧٢٧) انظر: السيد البدوي –دراسة نقدية، د. عبد الله صابر (ص ٣٥)، والسيد البدوي د. سعيد عاشور (ص ١٥٩).

(١٧٢٨) الطرق الصوفية في طرابلس، د. غادة المقدم (ص ١٠٣).

غير صحيح، لأن الظاهر بيبرس لم يتولَّ الحكم إلا سنة (٦٥٧ هـ)، أي: بعد مجيء "البدوي" بنحوٍ من عشرين عاماً، فكيف يكون تلقاه وهو لم يتولَّ الإمارة بعد! [(١٧٢٩)].

وقد عدَّ الصُّوفيَّة هذا الحدث اللقيط منقبةً من مناقب البدوي، بينما كان الظاهر "بيبرس" في حقية الأمر بتصدى لمؤامرة محكمة، من قِبَل "الكوراني" الصُّوفيِّ الشيعي، الذي خطَّطَ للإطاحة ، وكانت هذه المؤامرة أثناء جهاد "بيبرس" للخطر المغولي سنة (٦٥٧ هـ)، ولذلك فقد كان "بيبرس" يتشكك في نوايا الشيعة، ولكن بعدما عرف "بيبرس" أنه ليس للبدوي أية ميول سياسية، تركه وشأنه، سيما وأن "البدوي" أحسَّ بمراقبة الناس له من حوله [(١٧٣٠)].

وكان البدوي له علاقات طيبة تربطه بحكام عصره من سلاطين الأيوبيين والمماليك البحرية، كالملك العادل، والصالح، ونجم الدين أيوب، وعز الدين أيبك، والمظفر قطز، والظاهر بيبرس الذين دانوا له بالاحترام والتعظيم!.[(١٧٣١)]

(١٧٢٩) السيد البدوي دراسة نقدية؛ للدكتورة عبد الله صابر (ص ٤٢).

(١٧٣٠) السيد البدوي دراسة نقدية؛ للدكتورة عبد الله صابر (ص ٣٨).

(١٧٣١) البدوي ليس جاسوساً ولا شيعياً (ص ٦٤).

ويرى بعض الباحثين أن البدوي كان جاسوساً شيعياً مغالياً، وكان يتستر بالتصوُّف، خاصَّة وأنَّ الشيعة الفاطميين لم يقطعوا الأمل في إعادة دولتهم بعد أن قضى عليها صلاح الدين الأيوبي، فالشيعة العلويين هم الذين أرسلوا أحمد البدوي لنشر دعوتهم بمصر؛ لإعادة الملك الفاطمي الشيعي، وبخاصة بعد إعدام الشاعر الفقيه "عُمارة اليمني"، وأتباعه سنة (٥٦٩ هـ/ ١١٧٣م) بعد اكتشاف مؤامراتهم ضد صلاح الدين الأيوبي لإعادة حكم الفاطميين، وبعد موت داعيتهم "أبو الفتح الواسطي" بالإسكندرية سنة (٦٣٤ هـ/ ١٢٣٧م).(١٧٣٢)

بينما يرفض بعض أتباع التصوُّف نسبة البدوي إلى التشيُّع الباطني، ويرون في ذلك منافاةً لمنهج البحث العلمي، حيث: أنَّه لم يدَّعِ أحدٌ ممن كتب في سيرته أنه شيعي باطني، ولا ورد ذلك في كتب الشيعة أنفسهم، وشهرته وذيوع أمره يُنافي كونه مبعوثاً سرياً، مع عدم وجود جهات خارجية يتجسس لصالحها، وأن المنقول عنه في ذلك لم يثبت في كتابٍ مُعتمد.(١٧٣٣)

(١٧٣٢) السيد البدوي دراسة نقدية؛ للدكتورة عبد الله صابر (ص ٣٣).

(١٧٣٣) البدوي ليس جاسوساً ولا شيعياً؛ للدكتورة جودة المهدي (ص ٣٢).

بالإضافة إلى أن البدوي لو كان شيعياً إسماعيلياً؛ لكان ضريحه مزاراً عالمياً للشيعة في العالم كقبر (أغاخان) في أسوان مثلاً، ولكان أول سابقٍ إلى إطلاق هذه الدعوى طائفة الشيعة الإسماعيلية ذاتها .[١٧٣٤]

يقول الدكتور عبد الله صابر: "وقد اتسقت حركة "البدوي" المتمركزة في "طنطا" مع الدعوات الأخرى التي قامت في كُلٍّ من المشرق والمغرب الإسلامي، في تخطيط سري مُتَّحد الأساليب، ومتشابه الأهداف، وقد قامت مدرسة "المغرب" بزعامة "ابن بشيش" بإيفاد الشاذلي ليحلَّ محل "الواسطي" بالإسكندرية، وقد تم ذلك بالتنسيق مع مدرسة "أحمد الرفاعي" بالعراق بزعامة "عز الدين الصياد"، والذي أقام بالقاهرة عامي (٦٣٦هـ، ٦٣٧هـ) ليرتب لحضور "البدوي" إلى "طنطا"، كما أنَّ كُلاً من "ابن بشيش" بالمغرب، و"البدوي" بطنطا، قد تتلمذ على يد "الشيخ بري" تلميذ أحمد الرفاعي بالعراق.

ومن ناحية أخرى: فإن "ابن بشيش"، و"ابن عربي" قد تتلمذا على يد "أبي مدين" بالمغرب، وقد زار "ابن عربي" مصر أيام الواسطي مبعوث "الرفاعي، ولكن "الأيوبيين" تشككوا فيه، حيث كانت فلسفته تخلط بين التشيُّع والتصوُّف، وقد

(١٧٣٤) البدوي ليس جاسوساً ولا شيعياً (ص ٨٨).

هاجمه ابن خلدون" في مقدمته، حيث ذكر "أن المتصوفة المتأخرين كابن عربي قد تأثروا بمذهب الشيعة في الحلول والاتحاد، وتأليه الأئمة والأولياء والقطب".[١٧٣٥]

وبعد موت "الشاذلي" بالإسكندرية، حلَّ محله "أبو العباس المرسي"، و"إبراهيم الدسوقي" في دسوق، وكان الجميع يداً واحدة، وهذا هو "الدُّسوقي" يُقرُّ بتبعيته للبدوي، فيقول: "وأما ولدُ العمِّ سيِّدي أحمد البدوي رضي الله عنه، فإنه الأسد الكاظم"[١٧٣٦]، وفي ذلك يقول القائل:

قال ابن أبي المجد فضل الله علينا عم... كُلُّ الجماعةِ تَبَعٌ، والسَّيدُ أحمدُ عمّ.[١٧٣٧]

يقول الشيخ مصطفى عبد الرازق "شيخ الأزهر": "إن العلويين لم يجدوا أكفأ من السيد البدوي لهذه المهمة، كمبعوث سري للمتصوفة المتشيعين، فوجهوه إلى الديار المصرية، وقبل وصول البدوي إلى مصر، أي في سنة (٦٣٧ هـ/ ١٢٣٩م) نزلها قبله بعام "عز الدين الصياد" المتوفى سنة (٦٧٠ هـ/ ١٢٧١م)،

(١٧٣٥) السيد البدوي دراسة نقدية؛ للدكتورة عبد الله صابر (ص ٥٧- ٥٨).

(١٧٣٦) انظر: الجواهر السنة والكرامات الأحمدية (ص ١١٩).

(١٧٣٧) السيد البدوي دراسة نقدية؛ للدكتورة عبد الله صابر (ص ٥٩).

وهو شيعيٌّ متصوف، وزعيم مدرسة "أحمد الرفاعي" لاختيار المكان، الذي سيُمارس فيه "البدوي" دعوته، وهذا يُفسِّرُ اتجاه البدوي من مكة إلى طنطا مُباشرةً" .(١٧٣٨)

ولكن قد يتساءل البعض: لماذا نزل البدويُّ طنطا بالذات دون غيرها من البلاد المصريَّة ؟

يقول الدكتور عبد الله صابر : "لقد كانت "طنطا" قرية نائية في صعيد مصر، واختارها البدوي ليكون بعيداً عن العواصم وأعين الحكام، وليتمكن "البدوي" من العمل دون أن يشر به أحد، بالإضافة إلى عامل تاريخي، وهو أن "طنطا" كانت في عهد العبيديين (الفاطميين) عاصمة إقليم، وذلك في عهد (الخليفة الفاطمي المستنصر) (من سنة ٤٢٧ هـ إلى سنة ٤٨٧ هـ)، ثم انحسرت أهميتها بانحسار الحكم العُبيدي (الفاطمي)، حيث جاء "عز الدين الصياد" زعيم مدرسة الرفاعي بالعراق، ليُعدَّ الأمور للداعية الجديد (البدوي)، ويختار له المكان الذي سينزل به .(١٧٣٩)

(١٧٣٨) السيد البدوي دراسة نقية، د. عبد الله صابر (ص ٣٣)، نقلاً عن مجلة السياسة الأسبوعية عدد ٨٩ لعام ١٩٢٧م، عن المولدين: الأحمدي والدسوقي.

(١٧٣٩) انظر: السيد البدوي دراسة نقدية؛ للدكتورة عبد الله صابر (ص ٥٤).

ويقول عبد الصمد "زين الدين الأحمدي": "كان بطندتا رجلٌ من الأولياء يُدعى الشيخ (سالم المغربي)، وهو الذي بشَّر الشيخ (ركن الدين) ركين بقدوم أحمد البدوي، وعرفه أنه سينزل بمنزله"[١٧٤٠]، وفي طندتا سكن البدوي دار "ركن الدين"، وكانت قريبة من "مسجد البوصة"، الذي يُعرف الآن بمسجد "البهي"، فتظاهر بالجنون والجذب، وحرص على الصياح والصراخ من فوق السطح: (وكان يقول عليهم! عليهم![١٧٤١]) ليقنع الجميع بجذبته وجنونه، وفي نفس الوقت يُسيِّرُ الدعاة والبعوث، ويُحكم الخطط، ويعاونه "عبد العال" في التنفيذ.

ولما اكتمل عدد تلاميذه (أربعين رجلاً)، وهم الذين يُسمَّون السُّطوحيِّة، انتشروا في أنحاء الديار المصرية، يُبشرون بتعاليم شيخهم "البدوي"، ويُعددون كراماته حتى صار ملء الأفواه، والسماع، وهذا يدل على أن "البدوي" لم يكن مُلازماً للخلوة على السطح للاستغراق في الوحدة والغيبوبة، بل كان مُتفرغاً لوضع نظام دقيق ومُحكم لنشر دعوته التي يقول عنها الشيخ "مصطفى عبد الرازق": "إنه لم تكن ثمَّة دعاية لغير السياسة تحت ستار الدين، ولم يكن أصحاب البدوي من الغفلة بحيث لا يعلمون حقيقة نيَّاته" .[١٧٤٢]

(١٧٤٠) السيد البدوي د. سعيد عاشور (ص ٨٦).

(١٧٤١) انظر: الجواهر السنية والكرامات الأحمدية؛ لعبد الصمد الأحمدي (ص ٩٢).

(١٧٤٢) السيد البدوي دراسة نقية، د. عبد الله صابر (ص ٣٣- ٣٤، ٣٦- ٣٧).

وحين مات "ركن الدين" انتقل "البدوي" إلى دار "ابن شحيط" شيخ البلد، وعاش بها بقية حياته .[١٧٤٣]

ويرى الدكتور جودة: أن البدوي رحل إلى العراق لزيارة آل البيت والأولياء هناك، والقضاء على فتنة فاطمة بنت برِّي، التي كانت تسلب حال المريدين بتعريض جمالها لهم، فما كان منه إلا أن سلبها حالها، ثم تابت على يديه التوبة النصوح !! .[١٧٤٤]

ويرى بعض الباحثين أن قصة فاطمة بنت برِّي هي محض خرافة، وقصة موضوعة، لبيان أنَّ السَيِّد البدوي كان مجاهداً لشهواته، وأن له خوارق عظيمة، مثل قدرته على إحياء الموتى، وإماتة الأحياء، وسلب الناس عقولهم، وكل ذلك حتى يقع في نفوس الناس الهيبة منه، وغير ذلك من وسائل الإرهاب الفكري، والإيحاء النفسي، التي تُستخدم في غسل عقول البسطاء، وكانت فاطمة بنت برِّي امرأةٌ ذات منصب وجمال، وذات قدرة على استمالة الرجال، حتى أولياء الصوفية، ويرى

(١٧٤٣) السيد البدوي دراسة نقية، د. عبد الله صابر (ص ٣٧). والجواهر السنية والكرامات الأحمدية؛ لعبد الصمد الأحمدي (ص ٢٨).

(١٧٤٤) البدوي ليس جاسوساً ولا شيعياً (ص ١٦).

الدكتور عبد الله صابر: أن هذه القصة خدعة للبسطاء، وأن في رحلته إلى العراق ما ورائها من البحث عن الشيعة، ونصرة التشيُّع.(١٧٤٥)

أما قصَّة فاطمة بنت برِّي؛ فهي: أنها امرأةٌ فائقة الجمال، وكانت تسلب المريدين حالهم، حتى أولياء الصُّوفية لا يستطيعون إلا أن يخضعوا لجمالها الباهر، ولما التقى "البدوي" ببنت برِّي، وجدها في صورةٍ كلها فتنة وإغراء، ولما نادته في محاولة لاستمالته (وسلب حاله!)، قام البدوي بتمثيل دور "الأخرس"، ثم اشتغل عندها برعي الإبل، ورأت "فاطمة" الإبل وهي تُظهر حنينها للبدوي، فتقبل قدميه، وتسكب الدموع لديه، وكان عددها سبعة آلاف جمل، وفجأة قال "البدوي" للجمال: موتي بإذن الله، فماتت جميعاً، فقامت "فاطمة بنت بري" تستغيثُ بقومها: يا آل برِّي!، يا آل نعيم!، فلما رأى اجتماعهم، صاح "البدوي" مُستغيثاً: "يا آل محمد، يا آل علي، يا آل الحسن، يا آل الحسين، يا آل علي زين العابدين، يا آل محمد الباقر، يا آل جعفر الصادق"، وهكذا إلى آخر أئمة الشيعة المعروفين، وما هي إلا لحظات؛ حتى أقبل فرسان نجد، والعراق كالبحر المتلاطم، وعندئذٍ فرَّ فرسان (آل برِّي)، وصاحوا معتذرين: يا سادتنا عفوكم يسعنا، وحلمكم يحملنا!.

(١٧٤٥) انظر: السيد البدوي، د. عبد الله صابر (ص ٢٩- ٣٠)، وانظر: السيد البدوي د. سعيد عاشور (ص ٦٦- ٧٤).

قال: "وأقبلت فاطمة بنت بري على السيد البدوي تُقبل قدميه، وتأخذ العهد عليه، وتُخبره بأنها مُحبةٌ له، وفقيرته، ومريدته، وعرضت عليه أن تتزوجه في الحلال، بعد أن كشفت له عن شعرها، وجزءٍ من مفاتنها، فاعتذر، واتجه إلى مكة في خطوةٍ واحدة!".[١٧٤٦]

وبعد موت أبي الفتح الواسطي (ت ٦٣٤هـ/ ١٢٤٣م)[١٧٤٧] : خليفة الرفاعي والشاذليّ بمصر، وجدُّ إبراهيم الدُّسوقي، أرسل العراقيون إلى البدويِّ أن يحلَّ مكانه!، وقيل له: "سر إلى طنطا، فإنك تُقيم بها، وتُعطى، وتربِّي بها فتياناً، يجيء منهم رجال!"، وكان ذلك في العاشر من المحرم سنة (٦٣٤ هـ)، وبالفعل دخل طنطا سنة (٦٣٥هـ)، وأقام بها أربعين عاماً حتى وفاته سنة (٦٧٥هـ).[١٧٤٨]

(١٧٤٦) السيد البدوي، د. سعيد عاشور (ص ٦٦- ٧٤)، وعبد الصمد في الجواهر (ص ٥٠- ٥٥، وانظر: ص ٨٥- ٨٦).

(١٧٤٧) هو أحمد بن أبي الغنائم بن صدقة، أبو الفتح القرشي الزاهد، نزيل الإسكندرية، لَقِيَ جماعةً من المشايخ بالعراق، وقَدِمَ مصرَ وانتَفَعَ بِهِ طائفةٌ، وكانَ لَهُ القبولُ التامُّ من العالم، تُوُفّي فِي شوَّال من سنة (٦٣٤ هـ)، انظر: تاريخ الإسلام للذهبي (١٤/ ١٣٠)

(١٧٤٨) البدوي ليس جاسوساً ولا شيعياً، د. جودة المهدي (ص ١٦). وانظر: دائرة المعارف الإسلامية سفير (٦/ ٣٩٥). والجواهر السنية والكرامات الأحمدية؛ لعبد الصمد الأحمدي (ص ٢٣). والجواهر السنية والكرامات الأحمدية؛ لعبد الصمد الأحمدي (ص ٢٨).

ويرى الدكتور سعيد عاشور: "أن هذه الرؤيا فيها مبالغةٌ مقصودة من جانب كُتّاب سيرة البدوي؛ ليُظهروا للقارئ عِظمَ مكانة البدوي، وكيف أنَّ الرسول ﷺ بشَّر بظهوره؛ ليعدوا عقلية القارئ لتقبُّل المعجزات التي نُسبت إليه فيما بعد!" [(١٧٤٩)]، ومن ذلك نرى أنَّ تلميع سيرة البدوي بالمنامات التي تُشبه الوحي، إنما ذلك لإيهام القارئ بأنَّ البدوي مُنفِّذٌ لأوامر المشيئة الإلهيَّة، واستجابة لأوامر يتلقاها من الله مباشرةً، عن طريق الهاتف، أو رحلة منامية تُحدِّدُ له مسار دعوته، وأسلوبها.

يقول الدكتور عبد الله صابر: "انطلق أبو الفتح الواسطي –أحد أتباع الرفاعي– من العرق إلى مصر؛ لنشر دعوته الباطنية بها، وذلك في العهد الأيوبي، وبعد موت الواسطي جاء البدوي ليخلفه في دعوته تلك التي تسترت بستار التصوف، وقد حاول الاستفادة من الإعجاب الذي يُكنُّه الناس عادةً لمن يشتهر بالزهد والتصوُّف في محاولة إسقاط الخلافة العباسية، وذلك في القرنين السادس والسابع الهجريين، وقد توزع هؤلاء الدعاة في مصر؛ فكان (الدسوقي) بدسوق، و(أبو الحسن الشاذلي) بالإسكندرية، و(أبو الفتح الواسطي) ما بين القاهرة وطنطا،

(١٧٤٩) السيد البدوي، د. سعيد عاشور (ص ٥٧).

ولما مات الواسطي حل مكانه (البدوي) بطنطا، ويُلاحظ أن هؤلاء الأشخاص كانوا في حقبة واحدة، وفي فترة زمنية متقاربة".[١٧٥٠]

وقد أخذ عن السيد البدوي كُلاً من: "عبد العال الفيشاوي (ت **٧٣٣** هـ)" وهو خليفته في الطريقة، و"عبد المجيد" (شقيق عبد العال، والذي قُتل في ظرفٍ غامض)، وكانت أُمُّ عبد العال، كُلَّما رأت البدويّ، قالت له: "يا بدوي الشؤم علينا".[١٧٥١]

وتولى الطريقة من بعد "عبد العال" شقيقه: "زين الدين: عبد الرحمن" (ت ٧٥٤ هـ)، الذي اعتنى بقبر البدوي، وشيده، فقصده الناس للتبرك والنذر.[١٧٥٢]

وتولى من بعده شقيق عبد العال أيضاً "نور الدين: أبو محمد علي" (ت ٧٨٩ هـ)، فمضى على سيرة أخويه، ثم تولى من بعده ولده "شمس الدين محمد"

(١٧٥٠) السيد البدوي، دراسة نقدية، د. عبد الله صابر (ص ٢٢، ٥٧).

(١٧٥١) انظر: الجواهر السنية والكرامات الأحمدية؛ لعبد الصمد الأحمدي (ص ٢٩).

(١٧٥٢) السيد البدوي، د. سعيد عاشور (ص ٢١٨). والجواهر السنية؛ لعبد الصمد الأحمدي (ص ٤٦).

(ت ٨٤٢هـ)، ثم شقيقه "أحمد" (ت ٨٤٦ هـ)، ثم ولد أخيه "عبد الكريم بن محمد بن علي"، ثم "الشيخ سالم".[١٧٥٣]

وأخذ عن البدويِّ أيضاً: الشيخ "حسن الصائغ الإخنائي"، و"محمد قمر الدولة" مبعوثه إلى (نفيا– بمحافظة الغربية بمصر) والذي شرب قيء البدوي في البطيخة، وأصبح مريداً "للبدوي" في الساعة الأخيرة من موت الأخير!.

وكذلك الشيخ "يوسف الإمبابي" أخذ عن البدوي، وكان (مبعوثه إلى إمبابة– بمحافظة الجيزة بمصر) وورثه ولده الشيخ "إسماعيل" الذي زعم أنه ينظر إلى اللوح المحفوظ ويُخبر بما فيه، فيقع كما يقول، ومن ذلك أن فقيهاً مالكياً مشهوراً كان يُنكر عليه أحواله وأقواله، وأمر السلطان بتعزيره؛ فأخبر "إسماعيل بن يوسف الإمبابي" أن هذا الفقيه سيموت غرقاً، وكان ملك الإفرنج بعث إلى ملك مصر، أن يرسل له من يجادل قسسهم؛ فقالوا للسلطان: ما في مصر مثل فلان المالكي، فأرسله السلطان، فمات الفقيه المالكي غرقاً في بحر الفرات![١٧٥٤]، ويعلق الدكتور "أحمد السايح" على هذه الحادثة المكذوبة على الفقهاء، والتي تصور الحقد الأعمى للمتصوفة؛ فيقول: "نهر الفرات بالعراق، وملك الإفرنج لا

(١٧٥٣) الجواهر السنية والكرامات الأحمدية؛ لعبد الصمد الأحمدي (ص ٤٦– ٤٧).

(١٧٥٤) انظر: الجواهر السنية والكرامات الأحمدية؛ لعبد الصمد الأحمدي (ص ٢٨، ٤٨– ٤٩).

يُقيم بالعراق، والمسافر من مصر إلى بلاد الإفرنج لا يمر من نهر الفرات مما يدل على عدم صحة هذه الرواية".[١٧٥٥]

وكذلك الشيخ "أحمد المعلوف" الذي أرسله إلى (القليوبية)، وكان له أولادٌ على غير نعت الاستقامة، وزعم الأحمدي: أن كل من تعرَّض لهم بالأذى، جاءته الدواهي، وله نذورٌ، كُلٌّ من قطعها خربت دياره في تلك السنة!، وكان مشايخ العرب يقولون: يا سيدي أحمد، فيُجيبهم في الحال!!.[١٧٥٦]

وكذلك الشيخ "أحمد البريدي" الذي يزعم الصوفيون أنه بريد محمد بن قلاوون إلى السيد البدوي، فلما اجتمع به اتبع "البدوي" وترك عمله مع ابن قلاوون، وكان أحمد البريدي، يقول: "لما اجتمعتُ بسيدي أحمد البدوي، رأيته في عيني أعظم حرمةً من السلطان محمد بن قلاوون، ولما نزل السلطان محمد لسيدي أحمد يزوره، وجدني في خدمته، فقال لي: هنيئاً لك!!".[١٧٥٧]

(١٧٥٥) انظر: الجواهر السنية والكرامات الأحمدية؛ لعبد الصمد الأحمدي (ص ٥١).

(١٧٥٦) انظر: الجواهر السنية والكرامات الأحمدية؛ لعبد الصمد الأحمدي (ص ٥١).

(١٧٥٧) انظر: الجواهر السنية والكرامات الأحمدية؛ لعبد الصمد الأحمدي (ص ٥١).

وكذلك الشيخ "عبد العظيم الراعي" الذي كان يرى بهائم "البدوي"، وكانت غنم السيد البدوي ورعة إلى حدٍّ أنه يُرسلها بلا راعٍ، فتأكل من المنطقة التي يُحددها "البدوي" بـ(الإلهام) ولا تتعدى إلى برسيم الجيران!!.[١٧٥٨]

وكذلك الشيخ "رمضان الأشعث" الذي كان يقضي حوائج النَّاس بعكازه؛ فيُرسل العكاز مع المحتاج فيقضي العكاز حاجته!، وكل من ردَّ شفاعة العكاز، فيُعاقب بأن تخرج له في رقبته غُدَّةٌ تكبر حتى تصير كالبطيخة، فيموت منها!.[١٧٥٩]

وكذلك الشيخ "عمر الشناوي"، والشيخ "يوسف البرسلي" اللذان يخرجان من القبر، راكبين على الفرس ليُنقذا الناس من قُطَّاع الطُّرق!.[١٧٦٠]

وكذلك الشيخ "جمال البرسلي" الذي كان يركب الأسد في البَرِّ فيذِلَّ له، ويدعو الطير في السماء فتنزل، والسمك في الماء فيخرج !.[١٧٦١]

(١٧٥٨) انظر: الجواهر السنية والكرامات الأحمدية؛ لعبد الصمد الأحمدي (ص ٥٢).

(١٧٥٩) انظر: الجواهر السنية والكرامات الأحمدية؛ لعبد الصمد الأحمدي (ص ٥٢).

(١٧٦٠) انظر: الجواهر السنية والكرامات الأحمدية؛ لعبد الصمد الأحمدي (ص ٥٣).

(١٧٦١) انظر: الجواهر السنية والكرامات الأحمدية؛ لعبد الصمد الأحمدي (ص ٥٣).

وكذلك الشيخ "محمد الكناس" الذي كان يُكنِّسُ قبر أحمد البدوي كل يوم، ويُكنِّسُ قبر عبد القادر الجيلاني، وأحمد الرفاعي، وعدة مقامات بالمغرب كل ذلك في ساعة واحدة، ثم يرجع إلى طندتا!!.[١٧٦٢]

وكذلك الشيخ "محمد بطَّالة" الذي كان يقول: "جميع عبادات هذه الخلائق بطالة بالنسبة إلى التحقيق!!"[١٧٦٣] ، أما الشيخ "أحمد الأباريقي"، فقد كان يُكلِّمُ الملائكة الكرام الكاتبين، ويتحدث معهم عن في أحوال الملأ الأعلى، وطبقات مراتبهم"[١٧٦٤]، وكذلك الشيخ "سعدون" الذي أرسله إلى (بليس- بمحافظة الشرقية بمصر)، والشيخ "وهيب" (إلى ناحية برشوم القليوبية)، والشيخ "خلف" (إلى عموم القاهرة ومصر) والذي كان إذا غلبه السماع والوجد (ملخ): أي اقتلع الشجرة الكبيرة بيده!.[١٧٦٥]

والشيخ "خليل الشامي" الذي أرسله إلى (الشام)، والذي انجذب إلى البدوي، فترك العمل مع نائب الشام، وتبع البدوي! .[١٧٦٦]

(١٧٦٢) انظر: الجواهر السنية والكرامات الأحمدية؛ لعبد الصمد الأحمدي (ص ٥٣).

(١٧٦٣) انظر: الجواهر السنية والكرامات الأحمدية؛ لعبد الصمد الأحمدي (ص ٥٧).

(١٧٦٤) انظر: الجواهر السنية والكرامات الأحمدية؛ لعبد الصمد الأحمدي (ص ٥٨).

(١٧٦٥) انظر: الجواهر السنية والكرامات الأحمدية؛ لعبد الصمد الأحمدي (ص ٥٣).

(١٧٦٦) انظر: الجواهر السنية والكرامات الأحمدية؛ لعبد الصمد الأحمدي (ص ٥٥).

وكذلك الشيخ " أحمد بن عطاف بن علوان" نائب الطريقة على اليمن[١٧٦٧]، الشيخ "علي الكيرواني" الذي أرسله إلى (اليمن)، وكان يركب الوحوش، ويأمرها فتطيع أمره![١٧٦٨] ، والشيخ "عز الدين الموصلي" الذي أرسله إلى (الموصل)، والذي كان نائباً على طرابلس، فترك ذلك وتبع أحمد البدوي، وكانت صحبته أيام وجود البدوي في العراق .[١٧٦٩]

والشيوخ "عبد الرحمن"، و"عبد المحسن"، والشيخ "عبد الوهاب الجوهري" الذي كان إذا أراد أن يأخذ عليه أحدٌ العهد، أمره بأخذ وتد، ودقِّه في حائط الخلوة، فإن ثبت في الحائط أخذ عليه العهد، وإلا فلا يأخذ عليه العهد، وغيرهم، وبهذا أصبح لطريقة البدوي مريدون كثيرون في "مصر"، و"الشام"، و"الحجاز"، و"اليمن"، وكان الاتصال بينهم وبين مركز الدعوة بطنطا منتظماً.[١٧٧٠]

يقول الشيخ مصطفى عبد الرزاق "شيخ الأزهر": إنه رجع إلى مخطوطة مغربية، يُنكر صاحبها أن أحمد البدوي كان صوفياً، ويُثبت أنه كان علوياً شيعياً،

(١٧٦٧) انظر: الجواهر السنية والكرامات الأحمدية؛ لعبد الصمد الأحمدي (ص ٥٧).

(١٧٦٨) انظر: الجواهر السنية والكرامات الأحمدية؛ لعبد الصمد الأحمدي (ص ٥٥).

(١٧٦٩) انظر: الجواهر السنية والكرامات الأحمدية؛ لعبد الصمد الأحمدي (ص ٥٦).

(١٧٧٠) البدوي ليس جاسوساً ولا شيعياً، د. جودة المهدي (ص ١٦). والجواهر السنية والكرامات الأحمدية؛ لعبد الصمد الأحمدي (ص ٢٨، ٤٨- ٤٩،).

يهدف إلى إرجاع الملك العُبيدي الفاطمي، وأن (علي البدوي) والده كان أحد دعاة الإسماعيلية الشيعة، وأنه نزح من المغرب إلى مكة عام (٦٠٣ هـ)، حيث عقد الشيعة الباطنية مجلساً في مكة، بحثوا فيه كيف يعيدون الدولة العلوية بعد سقوطها على أيدي الأيوبيين.

ولأن البربر أهل حربٍ بطبيعتهم؛ فقد كان من السهل أن يُقيموا دولةً على شيعي، وكان المغاربة قد بدأوا في اضطهاد الشيعة بعد إسقاطهم للدولة الفاطمية، فاضطر هذلاء الشيعة إلى النزوح إلى مكة، حيثُ الأمن والأمان، وفي هجرةٍ جماعية خرج الشيعة من أنحاء المغرب، متجهين إلى مكة، ومتسترين بالحج، وذلك بحثاً عن خطة جديدة، وكان شعارهم التستُّر بالتصوُّف؛ إذ هو العباءة التي لا مندوحة عنها وقت الأزمات !.

وكان تصوُّف "البدوي" وغيره من النازحين من المغرب كالشاذلي وإبراهيم الدسوقي، من التصوف الشيعي المغالي، وكان بعضهم يتستر بستار الفلسفة كابن عربي، ومن قبله الحلاج، وغيرهما من القائلين بوحدة الوجود، وألوان أخرى من

الانحرافات العقدية، وقد ساعد عل انتشار دعوتهم الباطنية: انشغال الخلافة العباسية في الحروب الصليبية، وصدهم للغزو التتاري [١٧٧١].

أما الشيخ حسن البنا رحمه الله، فقال في (مذكراته): سمعتُ أحد الأذكياء يتكلم عن حقيقة البدوي، فكان مما قاله: إن السيد البدوي جاء في وقتٍ انقرضت فيه الخلافة العباسية، وانتهى أمرها في بغداد، وصارت الدولة إلى المماليك، وتفرقت أمم الإسلام دويلاتٍ صغيرة، يحكمها امراء المتغلبون، فنزل البدوي إلى

(١٧٧١) نشرت هذا المقال: مجلة السياسة الأسبوعية، في الأعداد: ٨٩، ٩٠، ٩٢ لسنة ١٩٢٧م، بتوقيع (الشيخ العالم)، وقيل: إن الشيخ مصطفى عبد الرازق لم يُصرح باسمه خشية الفتنة، تحت عنوان "المولدان: الأحمدي، والدسوقي". وقد رفض الدكتور جودة المهدي (وهو ابن الصُّوفيِّ المعروف محمد أبو اليزيد المهدي) قبول هذه الرواية؛ لأنها من طريق مجهول، لأن التوقيع بهذا الاسم المجهول لا يُفيد أن هذا كلامه؛ لأننا لا ندري هل هي له أم لغيره، واعتبر أن الأمر يتنافى مع شجاعة وديانة الإمام مصطفى عبد الرزاق.

وأيضاً لأنه استند على مخطوطة منسوبة لمجهول، لا يُعرف، وأنه لم يذكر أية معلومات عن هذه المخطوطة، في أي مكتبة، وما رقمها، وهل لا زالت موجودة أم مفقودة، ما يقدح في صحة هذا الكلام.

بالإضافة أن توقيع الشيخ مصطفى عبد الرازق كان في أغلب مقالاته باسم (الفزاري)، ولم يكن ليومئ لنفسه بـ"الشيخ العالم"، أضف إلى ذلك أن هذه المقال لم يُعثر عليها في مجموع مقالات الشيخ وآثاره التي جمعها أخوه علي عبد الرازق في كتاب مخصوص لذلك ؟!، والصحيح أن هذا الكلام ثابتٌ عن الشيخ عبد الرزاق عفيفي. انظر: البدوي ليس جاسوساً ولا شيعياً، د. جودة المهدي (ص ٣٣- ٣٦، ٥١).

مصر لإعادة الخلافة العلوية، واستخلاص الحكم من أيدي المماليك! فجمع لذلك بعض خواصه ومستشاريه، واتفقوا على نشر الدعوة، فجمع الناس على الذكر والتلاوة، وجعلوا إشارات هذا الذكر (السيف الخشبي) أو (العصا الغليظة)، لتقوم مقام السيف، والطبل يجتمعون عليه، والبيرق ليكون علماً لهم.

واختار (السيد) طنطا لتكون مركزاً لحركته، لتوسطها البلدان العامرة في مصر، ولبعدها عن مقر الحكم، فإذا اجتمع الأتباع سنوياً على هيئة "المولد"، استطاع هو أن يدرك مدى تأثُّرِ الناس بالدعوة، ولكنه لا يكشف لهم عن نفسه، بل يعتكف فوق السَّطح ويضرب اللثام مُضاعفاً؛ ليكون ذلك أهيب في نفوسهم، حتى أن أتباعه كان يُشيعون أن النظرة بموتة، فمن أراد أن ينظر إلى البدوي فليستغنِ عن حياته في سبيل هذه النظرة، وهكذا انتشرت هذه الدعوة حتى اجتمع عليها خلقٌ كثير.

ولكن لم تكن الظروف مواتية لتنجح هذه الحركة، فقد تولى مصر الظاهر بيبرس البندقداري، فانتصر على الصليبيين مرات، وانتصر على التتار مع المظفر قطز، ولمع اسمه، وارتفع نجمه، وأحبه العامة، ولم يكتفِ بذلك، بل استقدم أحد أبناء العباسيين وبايعه بالخلافة فعلاً، فقضى على مشروع البدويِّ من أساسه .(١٧٧٢)

(١٧٧٢) مذكرات الدعوة والداعية (ص ٤٠- ٤١).

ويقول الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور: "إن ثمَّة رأياً متواتراً في المراجع، يقول: إن أجداد السيد البدوي من العلويين، الذين هاجروا من الحجاز إلى فاس بالمغرب أيام "الحجاج بن يوسف"، هرباً من قسوته عليهم، وأخذ بهذه الرواية (الشعراني)، و(علي باشا مبارك)، في حين أن مدينة فاس لم تُبنَ إلا في أواخر القرن الثاني الهجري، أي: بعد موت الحجاج بأكثر من مائة عام، كما أن كثيراً من أئمة الشيعة، عاشوا وماتوا بالمدينة المنورة، وليسَ بعيداً عنها، مثل: (علي زين العابدين)، و(محمد الباقر)، و(جعفر الصادق)، وغيرهم، فكيف يتفق هذا مع القول بأن اضطهاد الحجاج كان الدافع إلى هجرة العلويين؟.

ويرى: أن الرواية التي اعتمدوا عليها هي رواية (ابن أزبك الصوفي)، وهو من أوائل الذين رووا نسب البدوي إلى عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه [١٧٧٣]، وقد حدَّدَ دخول أجداده فاس سنة (٧٣ هـ/ ٦٩٢ م)، وادَّعى بأن أهل فاس قد أحبُّوهم، واعتقدوا فيهم، وكذلك السلطان، وتساءل د. سعيد عاشور عن اسم

(١٧٧٣) انظر: الجواهر السنية والكرامات الأحمدية؛ لعبد الصمد الأحمدي (ص ٢٦، ٣٢).

السلطان الذي كان في المغرب في ذلك الوقت المبكر، في حين أن لقب سلطان لم يُستخدم إلا في القرن السابع الهجري!! .[١٧٧٤]

ويرى أيضاً: أن الدافع الحقيقي لرحيل أسرة "السيد البدوي" من المغرب، ليس كما جاء في الرواية الصُّوفيَّة التي تقول: "إنَّ علياً والد السيد البدوي، رأى هاتفاً في المنام يأمره بالرحيل إلى مكة، فأعلن بأنه ذاهبٌ لأداء فريضة الحج، ويقول الدكتور سعيد عاشور: "لو أن هذه الرواية كانت صحيحة لسألنا عن سبب اصطحابه لزوجته وأولاده جميعاً، وعن سبب عدم عودته بعد أداء فريضة الحج.[١٧٧٥]

ويُضيف الدكتور سعيد عاشور قائلاً: "الحقيقة أنه قد ساد القرن السادس الهجري جو من الاضطهاد للشيعة بالمغرب جعلهم يتسللون إلى المشرق، وما زال والد (أحم البدوي) يتحين الفرصة للخلاص، حتى أُتيحت له سنة (٦٠٣ هـ)، فتظاهر بالخروج إلى الحج، وفي نيته عدم العودة".[١٧٧٦]

(١٧٧٤) السيد أحمد البدوي، د. سعيد عبد الفتاح عاشور، (ص ٤٣)، وما بعدها، (الدار المصرية للتأليف والترجمة)، سنة ١٩٦٦ م. وانظر: الجواهر السنية والكرامات الأحمدية؛ لعبد الصمد الأحمدي (ص ٣٤).

(١٧٧٥) السيد أحمد البدوي، د. سعيد عبد الفتاح عاشور، (ص ٤٦).

(١٧٧٦) السيد أحمد البدوي، د. سعيد عبد الفتاح عاشور، (ص ٤٧).

أما المتصوفة فيرون انتقال والد البدوي إنما هو بإلهامٍ من الله عز وجل، يقول محمد محمود إبراهيم: "وقد أُلهم والد البدويِّ أن يعود بأسرته وأهله إلى مكة[١٧٧٧]، وأراه في منامه رؤيا صريحة مؤكدة لهذا الإلهام، وخاطبه فيها صراحة: يا عليّ! عُد إلى مكة، فإن لك في ذلك شأناً ونبئاً، لترى من آياتنا عجباً!!، ولما أصبح الصبح، وصحا من نومه، أخذ في إعداد العدة للإياب إلى بلاده، وبلاد آبائه وأجداده!!".[١٧٧٨]

وقد تناول الكثير من الباحثين شخصية أحمد البدويِّ بالدراسة والتحليل، وكان أهم ما توصَّلوا إليه[١٧٧٩]، هو ما يلي:

(١) أنَّ البدويَّ ليس من الأشراف المنسوبين إلى آل البيت عليهم السلام، كما يزعم الصُّوفيَّة، بل إنه انتحل ذلك بكرامةٍ ادَّعاها لنفسه، ونشرها بين أتباعه:

(١٧٧٧) وكان لأحمد البدوي من الإخوة والأخوات: الحسن (أخوه الأكبر)، وابن أخيه (السين)، وأخواته: زينب، وفاطمة، ورقية، وقية، وفضة، انظر: السيد البدوي د. عبد الله صابر (ص ٥١).

(١٧٧٨) حياة السيد البدوي، محمد محمود إبراهيم (ص ١٤). وانظر: الجواهر السنية والكرامات الأحمدية (ص ٢٦).

(١٧٧٩) البدوي ليس جاسوساً ولا شيعياً، د. جودة المهدي (ص ١٦).

وهي أنَّه رأى النبيَّ ﷺ يقظةً في الروضة الشريفة، وسمع صوته، وتلقَّى الطريقة على يديه، وأنه قال أمام القبر هذه الأبيات:

(يقولون زرتم بما رجعتُم ؟....يا أكرم الرُّسلِ ماذا نقولُ ؟)

فردَّ عليه النبيُّ ﷺ –كما يزعمون– وأجابه بقوله:

(قولوا رجعنا بكُلِّ خيرٍ ..... واتحدَ الفرعُ مع الأصول!).

ولا نعلم أن أحداً من علماء الأنساب يثبتون نسب هذا الدَّعِيِّ، الذي ما ترك حقاً لله، أو لرسوله، أو لأهل بيت النبيِّ ﷺ إلا وادَّعاهُ لنفسه !.

(٢) أنَّه متَّهم بالتشيُّع الباطني، وكانت وظيفته التجسس، والتخطيط السياسي لصالح الدولة الفاطمية وذلك في أخريات الدولة الأيوبية، وفي حكم المماليك.

ولأجل ذلك قتل البدويُّ أحد أتباعه وهو السيد عبد المجيد، الذي كاد أن يكشف سرَّ تشيعه الباطني، فقتله لئلا يُعرف ذلك! وتؤيده الخرافة التي يرويها المتصوفة في موت عبد المجيد، قال ابن العماد في شذراته [١٧٨٠]: "وكان –يعني

(١٧٨٠) شذرات الذهب في أخبار من ذهب؛ لابن العماد الحنبلي (٧/ ٤٠٦)

البدوي– لا يكشف اللّثام عن وجهه، فقال له عبد المجيد: أرني وجهك، قال: كلّ نظرة برجل، قال: أرنيه ولو مِتُّ، فكشفه فمات حالاً!".

(٣) وأنَّه كان متحللاً من التكاليف الشرعية، متطاولاً على الأئمة والفقهاء، وكان يأتي بأعمال يُحرِّمها الشرع؛ مثل كشف العورة، والتبول على حصير المسجد، وترك الجُمع والجماعات.

ويؤكد ذلك ما نقله الحافظ السخاوي في (الضوء اللامع)، في ترجمة محمد بن محمد بن علي الشمسي، أبي عبد الله الغماري المصري المالكي النحوي، قال: "حدَّث المقريزي فِي "عقوده" عنه –أي عن الغماري– عن شَيْخه أبي حَيَّان، قَالَ: "ألزمني الْأَمِير نَاصِر الدّين مُحَمَّد بن جنكلي بن الْبَاب الْمسير مَعَه لزيارة (أَحْمد البدوي) بِنَاحِيَة طنتدا؛ فوافيناه يَوْم الْجُمُعَة، وَإِذا هُوَ رجلٌ طوال رفيع، عَلَيْهِ ثوب جوخ عَال، وعمامة صوف، وَالنَّاس يأتونه أَفْوَاجًا؛ فَمنهمْ من يَقُول: يَا سَيِّدي خاطرك مَعَ غنمي!، وَآخر يَقُول مَعَ بقري!، وَآخر مَعَ زرعي!، إِلَى أَن حَان وَقت الصَّلَاة؛ فنزلنا مَعَه إِلَى الْجَامِع، وَجَلَسْنَا لانتظار "إِقَامَة الْجُمُعَة"، فَلَمَّا فرغ الْخَطِيب وأقيمت الصَّلَاة، (ووضع الشَّيْخ رَأسه فِي طوق ثوبه) بعد مَا قَامَ، وكشف

عَن عَوْرَته بِحَضْرَة النَّاس!، وبال على ثِيَابه وَحصر الْمَسْجِد، وَاسْتمرّ وَرَأسه فِي طوق ثَوْبه وَهُوَ جَالس إِلَى أَن انْقَضتْ الصَّلَاة، وَلم يُصَلِّ !!.[(١٧٨١)]

ومن عجيب ما رُوِي في ذلك، ما نقله ابن العماد في (شذراته)[(١٧٨٢)] : أن الإمام ابن دقيق العيد كان يُنكر على البدويّ، ويقول له: إنك لا تصلي وما هذا من سنن الصّالحين!، فقال البدويُّ للإمام: اسكت وإلّا أغبّر دقيقك! قال: ودفعه البدويُّ "دفعةً!"، فإذا هو بجزيرة عظيمةٍ جداً، فضاق خاطره حتّى كاد يهلك، فرأى الخضر (الذي سيُنقذ ابن دقيق من محنته هذه!)، فقال: لا بأس عليك، إن مَثَلَ البدويّ لا يعترض عليه، لكن اذهب إلى هذه القبّة وقف ببابها، فإنه يأتي عند دخول وقت العصر ليصلي بالناس، فتعلّق بأذياله، لعله أن يعفو عنك، ففعل فدفعه، فإذا هو بباب بيته. ولا شكَّ أن هذه القصة مخترعةٌ كذبٌ، وضعها صوفيٌّ كذَّاب، وهي وسيلةٌ باهتة من وسائل الإرهاب الفكري وقمع المخالف؛ "لئلا يعترض أحدٌ على أولياء الله الصُّوفية!!"، وليبقى الجميع صامتين عن قول كلمة الحق في وجه من يشوِّهُ صورة الإسلام الحقيقي برهج البدعة، وهذه عادتهم في الاختراع والكذب والخرافة، والله لا يهدي القوم الظالمين !.

(١٧٨١) انظر: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع؛ للحافظ السخاوي (٩/ ١٥٠).

(١٧٨٢) شذرات الذهب في أخبار من ذهب؛ لابن العماد الحنبلي (٧/ ٦٠٥)

يقول الدكتور سعيد عاشور: "كما يُروى عن أحد علماء المالكية، وهو "الشيخ النحوي" أنه كان كثير الإنكار على السيد البدوي، حتى ذهب ذلك العالم، ومعه جماعةٌ من طلبته إلى طنطا لاستجلاء حقيقة ذلك الصوفي الذي كثر حوله الكلام، وهناك في طنطا جلسوا بجوار الدار التي يعيش فوق سطحها السيد البدوي، حيث أخذوا يتكلمون عنه وينتقدونه، وكان أن سمعهم السيد البدوي، وهو فوق السطح؛ فأتى إلى طرف السطح فوق رءوسهم وبال عليهم...".[١٧٨٣]

ومن خلال ما سبق يُمكننا التعبير عن نظرة الفقهاء المعاصرين للبدوي بأنها حالة عارمة من الرفض لطريقته، ومنهاجه في السلوك، وعدِّه خارجاً عن حدود الشريعة، وتعاليمها .[١٧٨٤]

٤) أنَّه كان يعتقد الحلول والاتحاد، وهي نفس العقيدة التي كان "ابن عربي"، و"الدسوقي"، و"الشاذلي"، يعتقدونها، وهي عقيدةٌ باطنيَّةٌ بامتياز، بالإضافة إلى عقائد أخرى مثل تقسيم الدين إلى شرائع ظاهرة ملزمة للعوام فقط، وحقائق

(١٧٨٣) السيد البدوي، د. سعيد عاشور (ص ١٢٨).

(١٧٨٤) السيد البدوي، د. سعيد عاشور (ص ١٣٢).

باطنة لا يعلمها إلا الخواص، وهذا موجودٌ في أشعارهم، وكتبهم التي ورثوها لمن بعدهم، ومن ذلك: قول السيد البدوي:(١٧٨٥)

وباسطني عمداً فطاب خطابه ... فيا طيبها من حضرةٍ صمديَّةٍ

وغيَّبني عنِّي فصرتُ بلا أنا ... دُهشتُ بمرآةٍ ووحَّدتُ وِحدَتي

أنا قُطبُ أقطاب الوجودِ بأسرهِ ... وكلَّ ملوكِ العالمينَ رعيَّتي

أنا أحمدُ البدويِّ قطبٌ بلا خفاء ... على الأقطابِ صحَّت ولايتي

ويقول السيد البدوي في قصيدةٍ أخرى:(١٧٨٦)

طاب وقتي بالرتبةِ العلياء ... في الأراضين وفي الجوِّ ثُمَّ السماء!

ودعتني الأملاكُ من كُلِّ قُطرٍ ... واتوني تبرَّكوا بِدُعائي !!

أنا من قبيل قبلَ وجودي ... كنتُ غوثاً في نُطفةِ الآباء !!

(١٧٨٥) السيد البدوي، د. عبد الله صابر (ص ٥٩)، وانظر: الجواهر السنية والكرامات الأحمدية (ص ١٤٥).

(١٧٨٦) السيد البدوي، د. عبد الله صابر (ص ٦٠). وانظر: الجواهر السنية والكرامات الأحمدية (ص ١٣٩).

سائرُ الأرضِ كُلُّها تحت حكمي ... وهي عندي كخردلٍ في فلاء

أنا سُلطانُ كُلِّ قُطبٍ كبيرٍ ... وطُبولي تدقُّ فوقَ السَّماء!

ويقول "السيد البدوي في قصيدته "الشركية":(١٧٨٧)

أنا من قبل الوجود في الورى ... كنتُ قُطباً وإماماً واصلاً

انظر الكرسيَّ وما فوق السماء ... ورأيتُ الحقَّ قد انجلى

ما أعطى قبلي ولا بعدي أحد ... من علومي واتصالي خردلا

ويقول البدويُّ أيضاً شعراً كُلُّه زندقةٌ وكفرٌ بالشرائع :(١٧٨٨)

لم يشرب العشاق من بحر الهوى ... إلا بقيَّةُ نُقطةٍ من طينتي!!

سكروا بها فتهتكوا وتصنعوا ... وأنا طويتُ الحُبَّ تحتَ طويِّتي !!

فقرأتُ من توراةِ موسى تسعةً ... تُليَتْ على موسى لها لم يَثْبُتِ!!

(١٧٨٧) انظر: الجواهر السنية والكرامات الأحمدية (ص ١٩٧).

(١٧٨٨) انظر: الجواهر السنية والكرامات الأحمدية (ص ١٤٣).

وقرأتُ من توراةِ موسى عشرةً ... تُلِيَتْ على عيسى فزادت رِفعتي!

وقرأت من نهج الغرام مسائلاً ... وأتيتُ فيها من شواهد فطنتي!

أنا صاحبُ النَّاموسِ سُلطان الهوى ... أنا فارسُ الأمجادِ حامي مكَّةِ!!

أنا أحمد البدويُّ غوثٌ لا خفاء ... أنـا كُلُّ ملوكِ العالمين رعيِّتي!

وحين تُوفِّي البدوي، خلفه صالح عبد العال المصري (ت ٧٣٣هـ/ ١٣٢٢م)، الذي كان مسئولاً عن بناء ضريح البدوي بطنطا، ومسئولاً أيضاً عن الممارسات التي تقام عند ضريح البدوي!.[(١٧٨٩)]

يقول ابن العماد: "وأُحْدِثَ له بعد مدةٍ –يعني من موت البدوي– عمل المولد له، وصار يقصد من بلاد بعيدة، وقام بعض العلماء والأمراء بإبطاله فلم يتهيأ لهم ذلك، إلّا في سنة واحدة، ثم عادوا إلى ذلك" .[(١٧٩٠)]

والمعروف أن القرن التاسع الهجري قد شهد زيادة في الدعاية لمولد البدوي، وذلك بعد موت البدوي بنحو قرنين، حيثُ سجَّلت كُتب الحوليات

(١٧٨٩) الطرق الصوفية في الإسلام، سبنسر ترمنجهام (ص ١٣٦).

(١٧٩٠) شذرات الذهب في أخبار من ذهب؛ لابن العماد الحنبلي (٧/ ٦٠٥)

التاريخية: كيف أن السلطان الظاهر "جمقمق" أنكر المولد الأحمدي، وأمر بإيقافه في العام (٨٥٢ هـ) بسبب ما يحدثُ فيه من اختلاط الرجال بالنساء، والدعاء والاستغاثة لغير الله سبحانه!.

ويُعلِّق السيوطي على هذه الحادثة بأنَّه لم يمضِ وقتٌ قليل حتى تعرَّض الذين أفتوا ببطلان المولد لأضرار بالغة، فبعضهم عُزل، وبعضهم هرب إلى "دمياط"، ولكن السلطان "جمقمق" لم يستطع أمام ضغط الرأي العام أن يستمر في إبطال المولد أكثر من عامٍ واحد، فعاد المولد، وعاد معه الكثير من المفاسد، بل إن الناس أقاموا مولداً قريباً من طنطا في السنة التي ألغى فيها "الظاهر جمقمق" مولد "البدوي" حيث أقام المولد شخص يُسمى "رمضان" بناحية "محلة البرج" بالقرب من المحلة الكبرى، ووقع فيه فسادٌ كبيرٌ كالعادة، الذي جعل الشيخ "الشناوي" في القرن العاشر للهجرة يُنادي بإبطال هذه البدع .[١٧٩١]

أما عن سرٍ هذا الإقبال الكثيف على قبر البدوي؛ فيقول الدكتور جودة: "إن سرَّ الإقبال على زارة البدوي، والتبرُّك بمثواه، هو اعتقاد أنه من الأولياء الصادقين!".[١٧٩٢]

(١٧٩١) السيد البدوي، د. سعيد عاشور (ص ٢٦٥– ٢٦٦)، عن الشعراني في طبقاته (٢/ ١١٦).

(١٧٩٢) البدوي ليس جاسوساً، ولا شيعياً، د. جودة المهدي (ص ٨٧).

ويروي الشَّعراني، عن شيخه "محمد السروي" أن النَّبيَّ ﷺ وأرواح الأنبياء والأولياء جميعهم يحضرون مولد السيد "البدوي"، ويحجون إلى قبره، ويسعون إلى زيارته[١٧٩٣]، ولا نفهم من هذا إلا تفضيل البدويِّ على أنبياء الله وخاتمهم محمداً ﷺ.

وأما أخبار البدويِّ، فينقلها لنا ابن العماد، حيثُ يقول: "وكان تلميذه عبد العال يأتيه بالرّجل أو الطّفل فينظر إليه نظرة واحدة فيملؤه مدداً!، ويقول لعبد العال: اذهب به إلى بلد كذا أو محلّ كذا، فلا تمكن مخالفته، ولما دخل طندتا كان بها جمع من الأولياء، فمنهم من خرج منها هيبة له: كالشيخ حسن الإخنائي، فسكن إخنا حتّى مات، وضريحه بها ظاهر يزار، ومنهم من مكث: كالشيخ سالم المغربي، الذي سُمِّي سالماً لمسالمته الشيخ البدويّ، واستسلامه له، فأقرّه على حاله، حتّى مات بطندتا، وقبره بها مشهور، ومنهم من أنكر عليه: كصاحب الأيدوان العظيم بطندتا المسمى بوجه القمر، ندر به الحسد، فسلبه حاله، ومحلّه الآن بطندتا مأوى الكلاب، وليس فيه رائحة صلاح ولا مدد!!..[١٧٩٤]

(١٧٩٣) الجواهر لعبد الصمد (ص ١١٠).

(١٧٩٤) شذرات الذهب في أخبار من ذهب؛ لابن العماد (٧/ ٦٠٤)

ويُشكك بعض العلماء في الأخبار المروية عن البدوي[١٧٩٥]، ويعتبر أن كل ما ورد في سيرته من الكرامات والقصص إنما هي أخبارٌ مظنونة، لأنه لا يوجد مصدر تاريخي موثَّق كَتَبَ عن "البدوي" لمؤلِّفٍ مُعاصرٍ له، فتجد أن كتب الحوليات التاريخية خالية من ذكره، وما كُتب عنه إنما ورد في كتب المناقب المليئة بالخرافات والكذب، وأقدمها كتاب "أزبك الصوفي"، وهو مؤلف مجهول، ولم يكتب إلا بعد موت البدوي بمائتي سنة، سيما وأنه لم يكتب أحدٌ عنه ممن يُوثق بنقلهم، إلا السيوطي (ت ٩١١ هـ)؛ فهو من رجال القرن العاشر، وبين الرجلين بونٌ شاسع، ولم يذكر السيوطي عمَّن تلقَّى خبر تاريخ هذا الرجل، ولا شكَّ أن نقل السيوطي من نوع المرسل الذي لا تقومُ به حُجَّة.

(١٧٩٥) وهو الشيخ أحمد شاكر، وقد نشر مقالةً في ذلك في مجلة "الفتح" لصاحبها محب الدين الخطيب، العدد: ٦٣٣، في ١٠/ شوال، سنة ١٣٤٨ هـ، صفحة رقم: ٦٤٤- ٦٤٥، نقلاً عن السيد البدوي دراسة نقدية، د. عبد الله صابر (ص ٧، ١٧).

وقد كتب الشعراني (ت ٩٧٣ هـ) (من صوفية القرن العاشر) عن البدوي بعد موته بثلاثة قرون، ولم يذكر الشعراني المرجع الذي استقى منه معلوماته عن البدوي، سوى قوله: "بأن سيرة البدوي قد شاعت على الألسنة"!.[١٧٩٦]

أما الإمامان المقريزي، وابن حجر العسقلاني، فلم يكتبا شيئاً عن البدوي، وما نُقل عن هذين الإمامين وغيرهما من أئمة أهل السُّنَّة لم يُسند لهم في كتاب له معروف! .[١٧٩٧]

وما نُقل عن ابن حجر ذكره "عبد الصمد الأحمدي"، قال: روى الشيخ الشهاب الثقة أحمد بن محمد المقدسي (٧١٤- ٧٦٥ هـ) صاحب تاريخ القدس الشريف[١٧٩٨]، عن شيخ الإسلام حافظ العصر الشهاب ابن حجر رضي الله تعالى عنه (٧٧٣- ٨٥٢ هـ)، أنه قال: "إن سيدي أحمد البدوي له كراماتٌ كثيرة، وخوارق من أشهرها: قصة المرأة التي أسر الإفرنج ولدها، فلاذت به، فأحضره إليها

(١٧٩٦) وهو الشيخ أحمد شاكر، وقد نشر مقالةً في ذلك في مجلة "الفتح" لصاحبها محب الدين الخطيب، العدد: ٦٣٣، في ١٠/ شوال، سنة ١٣٤٨ هـ، صفحة رقم: ٦٤٤- ٦٤٥، نقلاً عن السيد البدوي دراسة نقدية، د. عبد الله صابر (ص ٧، ١٧).

(١٧٩٧) السيد البدوي- دراسة نقدية (ص ١٩).

(١٧٩٨) وكتابه هو: مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام. انظر الأعلام: (١/ ٢٢٤).

في قيوده، ومرَّ به رجلٌ يحمل قربة لبن، فأومأ إلأيها بإصبعه الشريف، فانقدت، وانسكب اللبن، فخرجت منه حيَّة قد انتفخت" انتى كلام ابن حجر .(١٧٩٩)

والناظر في هذه القصة يرى أن الشيخ المقدسي سمع هذه القصة من ابن حجر وعمره لم يتجاوز الثانية عشر!! مع كونه أكبر من ابن حجر سناً، ولا نشك في أنَّ هذه القصَّة كذب!.

وقد جاء في موسوعة دائرة المعارف الإسلامية (للمستشرقين): "أن البدويَّ كتب عنه الكُتَّاب المتأخرون، دون دلائل تاريخية، كالشعراني، وعبد الصمد .." (١٨٠٠).

وفي العام (١٠٢٨ هـ/ ١٦١٩م) صنَّف رجلٌ من خُدَّام مقام هذا الولي، يُدعى عبد الصمد زين الدين كتابه "الجواهر السنيَّة في الكرامات والنسبة الأحمدية"، وقد طُبع هذا الكتاب في القاهرة، واعتمد "عبد الصمد" في مصنفه هذا على كتب "المقريزي"، و"السَّيوطي"، كما اعتمد على مخطوطة "نسبة يونس"

(١٧٩٩) انظر: الجواهر السنية والكرامات الأحمدية (ص ٦٥).

(١٨٠٠) موسوعة دائرة المعارف الإسلامية (١/ ٤٦٧).

(ويقول البعض: "نسبة يوسف" بن عبد الله المسمى بأزبك الصوفي)[١٨٠١] ، وربما كان أزبك هذا هو صاحب مخطوطة (نسبة البدوي)، الذي لا يُعلم مؤلفها".[١٨٠٢]

يقول الدكتور عبد الله صابر: "وقد عثرنا على مخطوطة بعنوان "النسبة الأحمدية" يرجح أن تكون لأزبك الصُّوفي بمكتبة المسجد الأحمدي بطنطا، وقمنا بعمل مقارنة بين ما ورد بهذه المخطوطة "النسبة الأحمدية" وكتاب "الجواهر السنية في الكرامات والنسبة الأحمدية" لعبد الصمد؛ فوجدنا تشابهاً كبيراً بينهما.

ويُضيف أنه: تمَّ اكتشاف مخطوطة عن سيرة البدوي لمؤلف مجهول، وناسخها هو "عمر بن عثمان المارداني"، نسخها في حلب، عام ٨٦٣ هـ، وتُعدُّ هذه المخطوطة هي الأقدم، وهي الأصل لمخطوطة "أوزبك الصوفي"، التي نقل عنها عبد الصمد عام (١٠٢٨ هـ)؛ حيث سردت قصة البدوي بعبارات هي نفسها

(١٨٠١) أزبك الصُّوفي: رجلٌ مجهول، والمخطوطة المنسوبة إليه تُعَّد من الكتب المفقودة.

(١٨٠٢) انظر: موسوعة دائرة المعارف الإسلامية (٢/ ٣١١).

يقول الدكتور عبد الله صابر: وهناك كتاب أقل أهمية من كتاب "عبد الصمد"، وهو لعلي الحلبي المتوفى عام ١٠٤٤ هـ، واسمه (النصيحة العلوية في بيان حسن الطريقة الأحمدية)، وهي مخطوطة بمكتبة برلين (انظر: فهرس مكتبة برلين: ج ٩، ص ٤٨٤، ١٠١٦٤)، وكان أكبر همِّ هذا الكاتب أن يمتدح زهد السيد البدوي، ويُطري فقراءه. انظر: السيد البدوي دراسة نقدية، (ص ١٨).

عبارات "أزبك" التي لم نرها، وأهميتها في أنها تُعد المرجع الأول لكل من كتب عن سيرة البدوي .[١٨٠٣]

يقول عبد الصمد هذا في مقدمته "الشركية" عن "البدوي": "أحببتُ أن أتوسَّل لبلوغِ مقصدي من جانب الشريف الأحمدي، سيد طائفة اولياء، وصاحب الفضل على أهل المشارق والمغارب، سيد السالكين، الفرد الجامع، والأستاذ الأعظم، والغوث الأفخم، والملاذ.. والقطب النبوي، والبحر الذي منه الأنام ترتوي، سيدي أحمد البدوي".[١٨٠٤]

وقد تواترت عن البدويِّ كرامات وخوارق تواتراً يشبه الخرافة، من أشهرها:

قصة المرأة التي أسر الفرنج ولدها "في عكا"، فلاذت به فأحضر ابنها في قيوده[١٨٠٥]، وزعم أنَّه رأى النَّبيَّ ﷺ يقظةً في الروضة، وأنه سمع صوت النَّبيِّ ﷺ،

(١٨٠٣) انظر: السيد البدوي دراسة نقدية، د. عبد الله صابر (ص ٢٠ – ٢١).
يقول الدكتور عبد الله صابر: "وهذه المخطوطة (للمارداني): محفوظة بالمكتبة الآصفية بحيدر آباد بالهند، برقم (٨٧)، ضمن مجموعة الرسائل الأخرة، بعنوان "قصة القطب سيد أحمد البدوي"، وصورة هذه المخطوطة محفوظة في الفيلم رقم: (٣١٥٣/ ٦٤١)، بمعهد إحياء المخطوطات العربية، التابع لجامعة الدول العربية– القاهرة، وهي أقدم ما كُتب عن البدوي حتى اليوم،".

(١٨٠٤) انظر: مقدمة كتاب عبد الصمد عن السيد البدوي (ص ٥).

(١٨٠٥) جامع كرامات الأولياء؛ ليوسف النبهاني (١/ ٣١٩)، ط/ دار الكتب العربية الكبرى.

وتلقَّى الطريقة عنه، ويزعمون أنَّ البدوي غسَّل نفسه بنفسه بعد الموت[١٨٠٦]، وأن السَّيوطيَّ رآه يقظةً بعد موته، وهو مُقبلٌ على فرسه، وكُلُّ ذلك كذبٌ، لا نشك فيه طرفة عين، ولا أقل من ذلك !.

ونسبوا إلى البدويِّ إحياء الموتى وإماتة الأحياء، باعتباره –عند المتصوفة– وسيط بين الله وخلقه، تقول الصُّوفية: "إن امرأة ما لها ولدٌ صغير، فجاءت إلى سيدي أحمد البدوي، وهي باكية، وقالت: يا سيدي ما أعرف ولدي إلا منك، وقام إليها الفقراء ليمنعوها، فلم يقدروا، وهي تقول: توسلت إليك بالله ورسوله!"، وفي رواية الحلبي: "سقت عليك الله ورسوله"[١٨٠٧]، فمد البدوي يده إلى ذلك الطفل، فأحياه الله تعالى!، وقد قال بعضهم مادحاً:

أنتَ أحييتَ ميتاً بعد أن قد .... فتك الدود لحمه والبلاء

(١٨٠٦) نسبها الدكتور جودة المهدي إلى الباجوري في حاشيته على شرح التقريب للغزي (ص ١٨).

(١٨٠٧) انظر: عجائب الآثار، للجبرتي (٣/ ١٤١)، والطبقات الكبرى، للشعراني (١/ ١٦١ – ١٦٢).

وزعموا أن البدوي له قدرةٌ على قلب الأعيان، فادعوا أن "البدوي" حول شعير "الشيخ ركين" بالعراق إلى قمح، ثم أعاده شعيراً بعد انصراف شرطة الأمير! .[١٨٠٨]

وزعموا أن "البدوي" يُباشر تربية المريدين بنفسه، وهو في القبر، يقول الشيخ "أحمد حجاب": "إن البدوي يتولى تربيته من البرزخ".[١٨٠٩]

وذكر "أحمد حجاب" أن حمارة الشيخ "محمد الشناوي" ضاعت في أيام "مولد البدوي"، ولما جاء إلى "قبر أحمد البدوي" قال: لا أخرج حتى تجيء حمارتي، فبينما هو جالسٌ في قُبَّة "أحمد البدوي" فإذا الحمارة واقفةٌ بجوار التابوت.[١٨١٠]

وادَّعى أتباع "البدوي" أنه استطاع تأجيل موعد يوم القيامة، فقد نقل الجبرتي أنه في العام (١١٤٧ هـ) حدث أن أشاع الناس في مصر أن القيامة قائمة يوم الجمعة (٢٦ من ذي الحجة عام ١١٤٧ هـ)، وأخذ الناس يُودِّعُ بعضهم بعضاً، وأكثر غالبيتهم من الاستغفار والصلاة وعمل الخيرات، وكان أن جاء يوم الجمعة

(١٨٠٨) السيد البدوي، د. سعد عاشور (ص ١٥٧).

(١٨٠٩) السيد البدوي، د. سعد عاشور (ص ١٦٤).

(١٨١٠) السيد البدوي، د. سعد عاشور (ص ١٦٤).

ولم تقم القيامة، وفي يوم السبت علل الناس عدم قيام القيامة بأن "البدوي" و"الدسوقي" شفعا عند الله عز وجل لتأجيل قيام الساعة، حتى يشبع الناس من الدنيا!، ويُعقِّبُ الجبرتي على هذه القصة، بقوله:

وكم ذا بمصر من المضحكات ... ولكنه ضحكٌ كالبكا(١٨١١)

وقد أثنى عليه الوليُّ الصُّوفي إبراهيم بن علي المتبولي (ت ٨٧٧ هـ)، فقال: "لقد آخى رسول الله ﷺ بيني وبين أحمد البدوي، ولو كان في الأولياء من هو أكبر منه فتوة لآخى بينه وبيني"، وكأنه جمع إلى الكذب والتخريف: قلَّة الأدب مع رسول الله ﷺ، إذ لم يدرك هذا المتبولي أحمد البدوي، ولا رآه، ولا اجتمع به أصلاً.(١٨١٢)

وقد غالى في مدحه الصُّوفيُّ الاتحادي عبد الغني النابلسي، حيث يقول:

أيا أحمد البدويِّ أنت أينَ ؟ .... لقد نلتَ في وقتكَ الرُّتبتين

هما: الاسمُ، والذَّاتُ من غيرِ مَين.... وراياتُكَ الحمرا في الخافقينِ

(١٨١١) انظر: السيد البدوي، د. سعيد عاشور (ص ١٧٨– ١٧٩)، عن عجائب الآثار، للجبرتي.

(١٨١٢) البدوي ليس جاسوساً ولا شيعياً، د. جودة المهدي (ص ١٩).

لكَ العزُّ والمجدُ والرَّونقُ .... وفي تابعيك لك الصَّنجَقُ

وأنتَ هو المَلِكُ الأسبَقُ .... وشأنُ الملوكِ الذين ارتقوا

على المجد أن يلبسوا الأحمرا [(١٨١٣)]

وللبدوي أحزابٌ وصلواتٌ، منها: حزبه الشهير، وحزبان آخران كبيران، والحزب الصغير، وصلوات أخرى، والتي فيها: "...ألم، لووا عما نووا، فعموا وصموا عما طووا.."، وغيرها من التراكيب العجيبة المبتدعة، والمشتملة على السحر والطلاسم !.[(١٨١٤)]

وهي طريقةٌ لم تنتج أي شخصيات مؤثرة أو فاعلة، ولم يصدر عنها أيَّة كتابات، ولكنها كانت عقيدة شعبية، وطقوس تمارس في طنطا في كل الأوقات، وقد استهجن العلماء ممارسات أتباع هذه الطريقة، وظلَّ تأثيرها ضئيلاً حتى العصر الحديث!.

(١٨١٣) البدوي ليس جاسوساً ولا شيعياً، د. جودة المهدي (ص ٢٠).

(١٨١٤) انظر: مجموعة أوراد السيد محمد عبد الرحيم النشابي: الورد الكبير والصغير للطريقة البرهانية؛ لإبراهيم الدسوقي، ط. المكتبة السعيدية- بجوار الأزهر (ص ١١٨، ١٢٤). وانظر: كتاب المنح البهية في الأحزاب والأوراد الأحمدية، لمحمد كامل البهي (خليفة أحمد البدوي) (١/ ١١، ١٤، ١٩)، مكتبة تاج- طنطا، نقلاً عن السيد البدوي، د. عبد الله صابر (ص ٦١).

والعجيب أن هذه الممارسات البدعيَّة، لا زالت تُقام على أعين الفقهاء والعلماء، مع أن أكثرهم أنكروا مثل هذه الموالد والاحتفالات البدعيَّة، وقد خفت حدَّة هذا الإنكار مع سلطة التأييد السياسي الكبير (المستفيد الأكبر من مثل هذه الطقوس!)، أضف إلى ذلك التضييق والتشنيع الهائل الذي تعرَّض له العلماء والفقهاء والذي مارسته تلك الطرق بدعم مباشر من السلطات السياسية ضد كل من يحاول إيقاف مثل هذه الطقوس!، ويضاف إلى ذلك الدور الرئيس للأزهر في دعم المتصوفة وطقوسهم، (وهو المؤسسة الدينية الأولى في مصر)، فأسعدوهم بالكتابات والشروحات، وتدريس مساقات التصوُّف والعرفان!، حتَّى مُنح أكثرهم كرسياً للتدريس في الأزهر (الشريف!)..

وكأن العلماء قد فقدوا تأثيرهم في الناس، أو هم خدمٌ لسياسات الاستعمار ونوجهات الدولة، وطالما لم يقوموا بتجنيد أو إثارة تأييد السلطة السياسية، فإنه من المستحيل منع إقامة تلك الطقوس الشركيَّة!، ولكن تبقى مصلحة الحكام في توفير قاعدة شعبيَّة مساندة، هي العنصر الأهم في تثبيت الحكم، والمتمثلة في مثل هذه الحركات الصوفيَّة!..

ويرى الصُّوفيُّ محمد إبراهيم[١٨١٥]: أن الموالد لها حكم وفوائد، أهمها: أنها سببٌ في اجتماع أكبر عددٍ من الناس حول هدفٍ واحد هو تكريم صاحب المولد، والإشادة بصلاحه وتقواه، وقربه من ربه، وفي ذلك إشعارٌ للقلوب بأن تحيا وللنفوس بأن تُقلع عن الدنايا من الأقوال والأفعال، وهي وسيلةٌ للتعارف الاجتماعي بين الناس، فضلاً عما تُحدثه من النواحي الاقتصادية والتجارية ورواج السوق...!

قال: ويشارك أهل طنطنا بيوم مولد البدوي فرحاً وسروراً، (ويستمرُّ ذلك أسبوعاً كاملاً)، وتُشارك الحكومة بسائر وزاراتها ومصالحها تُساهم في هذا المهرجان، بما تُقيم من سرادقات يُتلى فيها القرآن والقصائد النبوية، وتوزع فيها الهدايا والصدقات، وتتوسط ساحة المولد سرادقة جلالة الملك المعظم (الملك فاروق)، وتمد الموائد الملكية لضيوف المولد بلا انقطاع، وأرباب الطرق ومشايخها يُقمون السرادقات، وكل منهم يحيي ليالي المولد إحياءً دينياً صوفياً، ويقيمون الموائد...

وحسبك من كثرة الناس أنك لا تكاد تعرف الليل من النهار في أثناء المولد؛ إذ الأنوار الكهربائية في كل مكان، والناس من شدة الزحام يتأجرون الكراسي ليجلسوا عليها، فيبذلوا الغالي والنفيس في سبيل ذلك، وإنك حيثما توجهت لا

(١٨١٥) حياة السيد البدوي، محمد محمود إبراهيم (ص ٤٤– ٤٨).

ترى إلا المهرجانات والأفراح تستمتع فيها الغناء، والحداء في مدح صاحب المولد، يتلاقى مع الهتاف الصادر من الأعماق، وزغردة الزائرات... ويختم بقوله: أليس كل هذا الاعتناء هو كرامةٌ للبدويِّ خالدة ؟؟!!.

ويقول الدكتور جودة: "ويبلغ عدد زائريه –يعني ضريح البدوي –أكثر من مليونين من جماهير الأمة، وهو عددٌ يُماثلُ عدد الحجاج إلى بيت الله الحرام!!" [١٨١٦].

أضف إلى ذلك مشاركة السفراء الأمريكان في موالد الصُّوفيَّة عامة، ومولد السيِّد البدوي خاصة[١٨١٧] ، وفي العام (٢٠٠٥ م) في مجلة "ويكلي ستاندرد" خرج ستيفن شواتز؛ ليقول: "يجب على أعضاء السلك الدبلوماسي الأمريكي في المدن الإسلامية من "بريشتينا" في كوسوفو إلى "كشغار" في غرب الصين، ومن

(١٨١٦) البدوي ليس جاسوساً ولا شيعياً، لجودة المهدي (ص ٨٦).

(١٨١٧) المولد النبوي هل نحتفل؟؛ لشحاتة محمد صقر، وذكر المؤلف مشاركة توماس رايلي السفير الأمريكي في المغرب لمولد الجيلاني في ١٤/ إبريل العام ٢٠٠٦م، ومشاركة السفير الأمريكي فرانسيس ريتشارد دوني في مولد البدوي بطنطا، وأبدى إعجابه بالصُّوفية، وانتسب إليهم، وأخذ العهد عن أحد شيوخهم في المولد، ومن ثمَّ ينشر ذلك الخبر علناً في الصحف القومية المصرية (ص ٣٩– ٤٠).

"فاس" في المغرب إلى عاصمة إندونيسيا "جاكرتا" أن يُضيفوا الصوفيين المحليين على قائمة زياراتهم الدورية" (١٨١٨) .

أما عن اختلاط الرجال بالنساء في هذا المولد؛ فقد اخترع الصوفيَّون لذلك كرامةً أخرى، تُضاف إلى كتب التخريف الصُّوفيَّة.

يقول الشعراني: "إن شخصاً أنكر حضور مولد "البدوي" فسُلب الإيمان، فلم تكن فيه شعرةٌ تُجيب إلى دين الإسلام! فاستغاث بالسيد البدوي، فقال: بشرط ألا تعود؟! قال: نعم! فردَّ عليه ثوب إيمانه! ثم قال له: وماذا تُنكر علينا؟ قال: اختلاط الرجال بالنساء، فقال له البدوي: ذلك واقعٌ بالطواف".

ثم قال البدوي: "وعزة ربي ما عصى أحدٌ في مولدي إلا وتاب وحسنت توبته، وإذا كنتُ أرعى الوحوش، والسمك في البحار، وأجمعهم بعضهم إلى بعض، أيعجزني ربي عن حماية من يحضر مولدي!!".(١٨١٩)

(١٨١٨) قراءة في الاستراتيجية الغربية لحرب الإسلام، د. محمد يسري إبراهيم (ص ٢٧).

(١٨١٩) انظر: طبقات الصوفية؛ للشعراني (١/ ١٦٨). والجواهر السنية؛ لعبد الصمد الأحمدي (ص ١٠٨).

وظهرت مجموعة من الأقوال نُسبت إلى البدوي ترغيباً للناس في حضور المولد، وتحذيراً من الاعتراض عليه، منها قولهم: "إن من حجَّ إلى مقام السيد البدوي في مولده فهو آمن، ولا بُدَّ أن تُقضى حاجته، وتتحقق رغباته".[١٨٢٠]

أما التحذير من الاعتراض على المولد، بسرعة العقوبة من "السيد"؛ فينقله الشعراني عن "أبي الغيث بن كتيلة" أحد المنكرين على "مولد البدوي"، أنه أنكر الاحتفال بمولد البدوي، فعلقت في حقله شوكة سمكة، فلم تخرج منه حتى جاء إلى قبر البدوي، فعطس حتى خرجت![١٨٢١] ، ونتساءل عن مدى الجنون في الخرافة والدجل الذي وصل إليه هؤلاء القبورية، وكل ذلك تعبيرٌ وتصويرٌ لانتقام الصوفية ممن يعترض على مولد البدوي!.

يقول الدكتور سعيد عاشور: "وفي هذه المولد وغيره من الموالد تجد أنواعاً من المهرجانات، يجتمع فيها ما لا يُحصى من النساء والفساق، فتنصب لهم الخيام، حيث يحتسون الخمر، ويرتكبون مختلف أنواع المنكرات، وقد عُثر مرةً في صبيحة مولد الشيخ "الإمبابي" من أتباع البدوي على أكثر من مائة وخمسين

(١٨٢٠) السيد البدوي، د. سعيد عاشور (ص ٢٦٥).

(١٨٢١) طبقات الصوفية؛ للشعراني (١/ ١١٢).

جرَّة خمر متناثرة في المزارع، هذا خلاف ما كان في تلك الليلة من الفساد والزنا واللواط والتجاهر بذلك".(١٨٢٢)

ويقول أيضاً: "ويبدو أن الأحمدية منذ القرن الثامن الهجري لم يسلموا من نقد الناقدين، ومن المآخذ التي أُخذت عليهم أنهم (يأخذون العهد على النسوان، ويصيرُ أحدهم يختلي بهن في غيبة أزواجهن، وتقول له: يا أبي، ويقول لها: يا بنتي...) كذلك اشتعر فقراء الأحمدية والبرهامية بارتكاب الفحشاء مع النساء اللائي يُؤخذ العهد عليهن، حتى خصهم الشعراني بالذكر في معرض الحديث عن وقائع الزنا التي تحدث جراء اختلاط الجنسين".(١٨٢٣)

ويقول أيضاً: "كل هذه الموبقات جعلت "الجبرتي" يقول: إن بعض زوار المولد كان هدفهم "الفسوق"، بل إن فقراء الأحمدية (المتصوفة)، استباحوا لأنفسهم نهب المحال، وسرقة الناس، وأكل أموالهم بالباطل في موسم المولد

(١٨٢٢) السيد البدوي، د. سعيد عاشور (ص ٢٥٧)، نقلاً عن ذيل الأعلام بتاريخ أهل الإسلام (١/ ٢٣).

(١٨٢٣) السيد البدوي، د. سعيد عاشور (ص ٢٥٧)، نقلاً عن ذيل الأعلام بتاريخ أهل الإسلام (١/ ٢٣).

الأحمدي (البدوي)، ودعواهم في ذلك: "أن الغربية بلاد السيد البدوي، نحن من فقرائه، فكل ما نأخذُه حلالٌ لنا".(١٨٢٤)

ويقول الجبري عن أحد "موالد الصُّوفية": "ثم إنهم ابتدعوا له (للشيخ عبد الله المنوفي) موسماً وعيداً في كل سنة يدعون إليه الناس من البلاد القبلية والبحرية، فينصبون خياماً كثيرة وصواوين ومطابخ وقهاوي، ويجتمع العالم الأكبر من اخلاط الناس وخواصهم وعوامهم وفلاحي الأرياف وأرباب الملاهي، والملاعب، والغوازي، والبغايا، والقزادين والحواة؛ فيملأون الصحراء والبستان؛ فيطأون القبور، ويوقدون عليها النيران، ويصبون عليها القاذورات، ويبولون، ويتغوطون، ويزنون، ويلوطون، ويلعبون، ويرقصون، ويضربون بالطبول، والزمور ليلاً، ونهاراً ويستمر ذلك نحو عشرة أيام أو أكثر، ويجتمع لذلك أيضا الفقهاء والعلماء، وينصبون لهم خياماً أيضاً، ويقتدي بهم الأكابر من الأمراء والتجار والعامة من غير إنكار، بل ويعتقدون أن ذلك قربة وعبادة! ولو لم يكن كذلك لأنكره العلماء فضلا عن كونهم يفعلونه؛ فالله يتولى هدانا أجمعين".(١٨٢٥)

(١٨٢٤) السيد البدوي، د. سعيد عاشور (ص ٢٧٢).

(١٨٢٥) انظر: تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار؛ للجبرتي (١/ ٣٠٤)

أما الدكتور الصُّوفي عبد الحليم محمود، وهو أحدُ من كتب في سيرة البدويّ، فيُعبِّرُ عن منهجه الخرافي في البحث والتأليف؛ فيقول: "لم ابتدئ بكتابة شيء من الكتاب، حتى ذبتُ مُتعمِّداً إلى طنطا، أَستأذِنُ السَّيدَ البدويِّ في الكتابة عنه، وفي المقصورة المباركة! بدأتُ الكتابة.."[١٨٢٦]، ولنا أن نساءل: كيف تمَّ هذا الاستئذان الذي حكى عنه ؟ وما علاقته بالمنهج العلمي في البحث والتفكير سيما وأنَّه يعترض على من درس حياة البدوي تاريخياً، ويزجُّ بهم في سجون الحقد والحسد لإمامه البدوي الشيعي ؟!!

إضافة إلى ذلك فالدكتور عبد الحليم محمود يعرض قصة البدوي من خلال كثيرٍ من الأحلام والمنامات، وليس من الوقائع التاريخية الموثقة، ولنا أن نسوق لذلك بعض الأمثلة:

فعن ولادته، يقول: "أما أمه فقد رأت فيما يراه النائم من يقول لها: أبشري، فقد ولدتِ غلاماً ليس كالغلمان".[١٨٢٧]

(١٨٢٦) السيد البدوي؛ لعبد الحليم محمود (ص ٤٦).

(١٨٢٧) السيد البدوي؛ لعبد الحليم محمود (ص ٤٣).

وعن هجرة والده إلى الحجاز، يقول: "رأى علي بن إبراهيم ربِّ الأسرة فيما يراه النائم من يأمره بالرحيل إلى الحجاز".(١٨٢٨)

وعن أحلام والد البدوي، يقول: "قال الشريف علي فاستيقظتُ من منامي، وأنا في هيامي، وأخبرتُ أهل وأصحابي".(١٨٢٩)

أما عن سفر البدوي إلى العراق، فيقول: "واستيقظ أحمد ذات يوم ليعلن أنه رأى في المنام من يأمره بالسفر إلى العراق".(١٨٣٠)

أما عن رؤيته "للجيلاني" و"الرفاعي" في العراق؛ فيقول: "لقد رآهما السيد، أي رأى الرفاعي والجيلاني في الرؤيا يُرحبان به، ويقولان: يا أحمد! لقد جئناك بمفاتيح العراق، واليمن، والهند، والسند، والروم، والمشرق، والمغرب بأيدينا، فإن كنتَ تريد أيَّ مُفتاحٍ شئتَ منها أعطيناكه".(١٨٣١)

(١٨٢٨) السيد البدوي؛ لعبد الحليم محمود (ص ٤٤).

(١٨٢٩) السيد البدوي؛ لعبد الحليم محمود (ص ٤٥).

(١٨٣٠) السيد البدوي؛ لعبد الحليم محمود (ص ٥٤).

(١٨٣١) السيد البدوي؛ لعبد الحليم محمود (ص ٥٥). والسيد البدوي شيخ وطريقة، د. سعيد عاشور (ص ٥٩). وانظر: الجواهر السنية والكرامات الأحمدية؛ لعبد الصمد الأحمدي (ص ٢٨).

وأما عن رحلته إلى مصر، فيقول: "لقد رأى –يعني البدوي– فيما يراه النائم من يأمره أن يسيؤ إلى طنطا...".[١٨٣٢]

إن هذه الفوضى العارمة في الأصول، وتعقيدات المجتمع المعاصر، وسياسات الدول العفوية (العشوائية)، والمحكمة (المدروسة)، تؤدي دورها في قتل روحِ الإسلام (العقائد!) في نفوس أبناءه، وما نراه من تأييد لممارسات مثل هذه الفرق والطوائف، تعتبر مشنقة منصوبة للحكم على الإسلام الصحيح بالموت المحتم...!.

ويصف لنا القاضي! عبد الحليم بن محمد القسطنطيني الحنفي من صوفيَّة القرن العاشر الهجري، كيف اتخذ الناس قبور الأولياء مساجد، وكيف كان قولهم عندها: "يا سيدي فلان، اقضِ حاجتي!، أو يا إمام فلان، أنا فقير أغنني، أو خلِّص حقِّي من فلان، أو إنِّي محتاج إلى كذا، أوفي ديني"[١٨٣٣] ، أو قولهم" شيء لله يا بدوي أو يا فلان"[١٨٣٤]، ولا شك أنَّ هذه العقيدة الشركيَّة أفرغت سمومها في

(١٨٣٢) السيد البدوي؛ لعبد الحليم محمود (ص ٥٧).

(١٨٣٣) جمع المقال في إثبات كرامات الأولياء، نقلاً عن رياض السادات، لعبد الحليم الحنفي (ص ٦٩، ٧٩).

(١٨٣٤) المصدر السابق نفسه (ص ٧٤).

كافة علوم الشريعة، من قبل ثُلَّةٍ من الكذَّابين، الوضَّاعين، فاخترعوا لذلك حديث: "إذا أعيتكم الأمور، فعليكم بأصحاب القبور"، وحديث: "لو أحسن أحدكم الظن بحجرٍ لنفعه"، وأمثال ذلك مما هو مناقضٌ لدين الإسلام والتوحيد! .(١٨٣٥)

ويرى القاضي العثماني: أنَّ ذلك الدعاء والنداء لا يُعدُّ شركاً؛ لأنَّ السائل أو الداعي لا يعتقد أنَّ هذا الولي يفعل هذا الأمر بنفسه دون الله تعالى!، كما أنَّ أرواح الأولياء تكون حاضرة في ذلك الموضع، فتقضي حاجات الناس مباشرة!. كذلك يرى الصُّوفيَّة أنَّ النذر للأولياء جائز !.(١٨٣٦)

فإذا كان ذلك الأمر حقاً، فهلّا وجَّهتم السؤال والدعاء إلى الله تعالى مباشرة، خاصَّةً وأنَّه سبحانه قد طلب منَّا ذلك: ﴿ادْعُونِي اسْتَجِبْ لَكُمْ﴾، ثُمَّ ما الفائدة التي تحصلونها من دعاء ذلك الوليِّ وعبادته!.

ثُمَّ زعمتم أنَّ هذه الألفاظ الموهمة محمولة على المجاز العقلي، وقرينة ذلك صريح اعتقاد العوام منكم في عدم نفع ذلك الوليِّ بنفسه، وأنَّ دعاءهم

(١٨٣٥) نشأة بدع الصوفية، د. فهد الفهيد (ص ٤٢).

(١٨٣٦) جمع المقال في إثبات كرامات الأولياء، نقلاً عن رياض السادات، لعبد الحليم الحنفي (ص ٢٩٠).

للأولياء إنما هو على سبيل التوسُّط والاستشفاع بهم عند الله ![١٨٣٧]، وهذا ما لا يقوله عاقلٌ أبداً..!.

ويزعم عبد الحليم الحنفي في كتابه (رياض السادات): أنَّ الإمام الشافعيّ جوَّز تقبيل توابيت الأولياء التماساً للبركة، بل والتمعُّر بتربتهم، وإلقاء النفس على أعتاب قبورهم![١٨٣٨]. سبحانك ربنا هذا بهتانٌ عظيم!.

ويعتقد الصوفيَّة، بأنَّ أشياخ الطريق أحياءٌ في قبورهم، يسمعون من ناداهم، ويجيبون من دعاهم، ويرون من زارهم، ويتصرفون من عالم البرزخ بأحوال الناس في الدُّنيا[١٨٣٩]، ومن خالف هذا الاعتقاد كان في دائرة الشبهة والاتهام بقصور العقل، وفساد العقيدة، حتَّى ولو كان من أمثال أبي إسحاق الإسفراييني، وأبو عبد الله الحسين بن الحسن الحليمي(ت ٤٠٣هـ)!.

وما نسب إلى السيد البدوي من مشاركاته في الحروب الصليبية، وأنه خلَّص الأسرى الفرنج وهو في بيته، كله كذبٌ وافتراء، ويبدوا أن الذي ساعد على

(١٨٣٧) النقول الشرعية في الرد على الفرقة الوهابية، حسن الشطي (ص ٣٣).

(١٨٣٨) جمع المقال في إثبات كرامات الأولياء، نقلاً عن رياض السادات، لعبد الحليم الحنفي (ص ٦٩، ٧٩).

(١٨٣٩) المصدر السابق نفسه، (ص ٨٢).

انتشار هذه الكذبة "البيضاء!" أن وزارة الأوقاف المصرية أرسلت السيوف والدروع التي غنمها الجيش المصري من جيش "لويس التاسع" لتخزن في مخزن المسجد الأحمدي[١٨٤٠] بطنطا، فكان "أتباع البدوي" يتقلدونها في موالدهم، وهم يُنشدون الأناشيد التي تنسب الفضل إلى "البدوي" في إحضار الأسرى، ومنها نشيد" الله الله يا بدوي جاب اليُسرى" أي الأسرى في زعمهم!.[١٨٤١]

إن البدوي الذي اختار الصراخ والصياح على سطح دار "ركن الدين" بطنطا في الوقت الذي أغار فيه الصليبيون على بلاد المشرق، ومكث في ذلك مدة اثنتي عشرة عاماً، ثم يحضر الأسرى وهو جالسٌ في بيته، لا يمكن أن يحدث إلا في عقول أهل التخريف، ولم يكن للبدوي أن يشارك هناك في ساحات العز والشرف،

(١٨٤٠) يقول الدكتور عبد الله صابر: "لم يُبن المسجد الأحمدي في حياة البدوي؛ لأنه لم يكن يشهد جماعة ولا جُمعة، وإنما بناه تلميذه "عبد العال"، وقد كان في بدايته على شكل خلوة بجانب القبر، ثم تحولت إلى زاوية، جعلها "عبد العال" مهبطاً للمريدين، ثم صارت هذه الزاوية مسجداً ضخماً بواسطة "علي بك الكبير" سنة (١١٨٢– ١١٨٦ هـ)، الذي بنى المسجد، والقباب، ومقصورة من النحاس حول الضريح، وأوقف وقفين للمسجد الأحمدي، وهي ألف فدان بنواحي طنطا، وأراضي زراعية بقرى القوصية، ثم بُني بعد ذلك معهد بجوار المسجد الأحمدي" انظر: السيد البدوي (ص ٩٠).

(١٨٤١) السيد أحمد البدوي، د. سعيد عاشور (ص ١٧١– ١٧٢).

يُجابه أعداء الله، وينتصر للمسلمين، لأنه لم يكن إلا خنجراً يطعن الأمة من الداخل، فعن أيِّ جهادٍ يتحدث هؤلاء الذباب والأقزام ؟!.

وادَّعى الشعراني أنه رأى في عام (٩٤٣ هـ) أحد الأسرى قد جاء طائراً في الهواء من بلاد الفرنجة إلى قبر البدوي، بعد أن توسل به.[١٨٤٢]

ويبدو أن هذا الهوس الصُّوفي في قصص الأسرى الطيارين، قد بلغ غايته ومداه، حتى قال بعضهم: إن لصليبيين أدركوا مع الوقت أثر "السيد البدوي" في إفلات الأسرى المسلمين من أيديهم! فأخذوا يحتاطون على أسراهم من نفوذ السيد البدوي، فحكى عن بعضهم: أن شخصاً اسمه "الشيخ سالم"كان أسيراً في بلاد الصليبيين، فكان حارسه يخاف أن يقوم السيد البدوي بتخليصه (وهو في طنطا!!)، فصار يبيته في صندوق ويقفله بقفل وينام الصليبي فوق اصندوق، وفي ليلة قال "الشيخ سالم" هامساً، وهو داخل الصندوق: "يا سيدي أحمد البدوي أنجدني"، وما كاد ينتهي من عبارته إلا وطار الصندوق في الهواء، وبداخله الشيخ سالم"، وفوقه الصليبي، فكان هذا احدث سبباً في اعتناق الصليبي للإسلام!.[١٨٤٣]

(١٨٤٢) النصيحة العلوية، للحلبي (ص ١٢٦).

(١٨٤٣) السيد البدوي، د. سعيد عاشور (ص ١٧١- ١٧٢). وانظر: الجواهر السنية والكرامات الأحمدية؛ لعبد الصمد الأحمدي (ص ١١٧- ١١٨).

ومن المعروف أن العصر العثماني عصرٌ ساد فيه الجهل والجمود والتأخر، واعتاد فيه الناس على أن يسمعوا كل يوم عن وليٍّ، أو شيخٍ طار بلا جناحين، أو طاف العالم في لحظة، أو أمات الأحياء، أو أحيا الأموات، وأن تروى الكثير من الكرامات والخوارق التي اقترنت بحياة الأولياء الأموات، والتي منها الخروج من القبر، والكلام في القبر للإجابة عن أسئلة الزائرين، وإيذاء من يتعرض لسيرته بسوء، وإحضار الاسرى، ونصرة المظلوم وحماية من يستغيث به وشفاء المرضى!!.

وإن كانت المخالفة منسوبةً إلى أحد الأئمة الأعلام الأربعة كأبي حنيفة مثلاً، فهو بالتأكيد افتراءٌ عليه، وكذبٌ لا أساس له من الصحة، وبالتالي لا حاجة لمناقشته أو حتى مجرد ذكره في عداد الأقوال، وهذا هو دينُ الصُّوفيَّة يا عباد الله (إما هوى أو دعوى)!.(١٨٤٤)

ولا يتحرز هؤلاء الكذبة أن ينسبوا إلى الشَّافعيِّ رحمه الله قولاً يوافق أهوائهم؛ حتى لو كان هذا القول مخالف لهدي النَّبيِّ ﷺ، ومن ذلك ما نسبوه فريةً إليه أنه قال: "قبر موسى الكاظم الترياق المُجرَّب".(١٨٤٥)

(١٨٤٤) جمع المقال في إثبات كرامات الأولياء، (ص ٨٤– ٨٥).

(١٨٤٥) قواعد التصوف، أحمد زروق، [القاعدة ١٥٤]، (ص ٢٠٩).

ومما نسبوه إلى إبراهيم الحربي –تلميذ الإمام أحمد– أنه قال عن قبر معروف الكرخي (ت ٢٠٠ هـ) أحد الصوفية المتقدمين: "قبرُ معروف الترياق المُجرَّب".[١٨٤٦]

وهذا الكلامُ لا يُسلَّمُ لقائله، إذ كيف يكون قبرُ أحدٍ من الأموات ترياقاً ودواءً للأحياء، وليس ثمَّة نصٌّ من كتاب الله يدلُّ على خصوصية الدعاء عند قبرٍ ما من القبور، ولم يأمر به النبيُّ، ولا سنَّه لأمته، ولا فعله أحدٌ من الصحابة والتابعين لهم بإحسانٍ، ولا استحسنه أحدٌ من أئمة المسلمين الذين يُقتدى بقولهم، بل ثبت النهي عن قصد قبور الأنبياء والصالحين، لأجل الصلاة والدعاء عندها.

ومن الأمور التي يفتي بها القسطنطيني: "أنَّ من له حاجة يذكرها عند القبر، أو يكتبها في قُصَّة، ويضعها تحت ستر القبر ليلة السبت!؛ لأنَّ الأولياء يأخذون تلك القصاصات، ويقدمونها لرسول الله ﷺ، فيردُّ له جوابها!.. ثم يقول: وكثيرٌ من هذا مشهور"[١٨٤٧]. وبلغ تقديس قبر البدويّ وتعظيمه، أنَّ من دخله، واحتمى به فهو آمن، ولا يقدر أحدٌ على إخراجه منه (ولو كان ظالماً!)، ومن فعل ذلك فقد عرَّض نفسه للهلاك على يد البدويُّ، كالرعب يقع في قلبه، أو عدم القدرة على

(١٨٤٦) انظر: سير أعلام النبلاء (٩/ ٣٤٣).

(١٨٤٧) المصدر السابق نفسه (ص ٨٦).

المشي، أو يمرض في ساعته، أو الألم الذي يحصل بجنبه، وقد شوهد ذلك مراراً!.[١٨٤٨]

وكذلك قالوا في قبر الدسوقي، وجعلوا تقديسه أمرٌ مشهورٌ ومُعاين من جميع الناس!، ويبدو أنَّ موضوع الأقاصيص والحكايات المشتهرة كان لها تأثيرٌ كبير في اعتقاد العامة وضعاف النُّفوس، ثُمَّ الخاتمة: "إياك والإنكار، فيخشى عليك الخطرات، أو الهلكات؛ إذ هذا بحر عميق، والمخاطرة فيه ضيف".[١٨٤٩]

وقد ذكر الدكتور عبد الله صابر: أن خليفة البدوي الحالي، قال في أحد احتفالات مولد البدوي في العام (١٩٩١ م): "إن السيد البدوي موجود معك أينما كنتَ، ولو استعذتَ به في شدتك، وقُلتَ: يا بدوي!! لأعانك وأغاثك".[١٨٥٠]

ويُعقِّبُ الدكتور صابر، بقوله: "قالها ذلك الرجل في الجموع المحتشدة بسرادق وزارة الأوقاف في الليلة الكبرى لمولد البدوي، أمام الحاضرين من العلماء، والوزراء، وقد تناقلته الإذاعات وشاشات التلفاز، ورغم هذا لم يتحرك أحدٌ للرد

(١٨٤٨) المصدر السابق نفسه (ص ٩١).

(١٨٤٩) جمع المقال، أحمد المزيدي (ص ١٦٠).

(١٨٥٠) انظر: السيد البدوي– دراسة نقدية، د. عبد الله صابر (ص ١٥)، وذلك في احتفال عام (١٩٩١م).

على هذه الأباطيل، التي تزلزل العقيدة؛ باستثناء القليل: كالدكتور فوزي الهابط[١٨٥١]، حيث كتب مقالاً يُحذِّرُ فيه من ذلك الشرك، ويقول بآخره: إن إقامة هذه الاحتفالات، وشغل الناس بها، وإفساد معتقداتهم وزرٌ كبير، وذنبٌ عظيم، تتحمله وزارة الأوقاف، والتي تشجع تلك الزفة، وتسير في ركابها، وتنظم مواعيدها! كما يتحمل هذا الوزر أئمة المساجد التي تُقام فيهم تلك الاحتفالات، التي لا تُرضي الله، ولا رسوله ﷺ"[١٨٥٢].

وهذا التوقير والتعظيم للقبور عند الصُّوفية لم يبذلوا شعوراً واحداً منها في المساجد التي هي بيوت الله ﷻ، والتي من حقِّها أن تُحترم وتعظم أكثر مما يعظم أصحاب القبور، وأن تصان عن مثل هذه الهرطقات والبدع!، ثُمَّ في أدبٍ باهت، يعكس صورة الباطل المنمقة، يقول صاحب (تنبيه الأذكياء!)، وهم والله! الأغبياء: "ومن آداب الزيارة أن لا يقول بحق أنبيائك وأوليائك؛ لأنه لا حق للمخلوق على الخالق!". فأمر هؤلاء الناس عجيب، وتناقضهم مستمر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم..! .[١٨٥٣]

(١٨٥١) انظر: السيد البدوي- دراسة نقدية، د. عبد الله صابر (ص ١٥-).

(١٨٥٢) انظر: السيد البدوي- دراسة نقدية، د. عبد الله صابر (ص ١٥)، وذلك في احتفال عام (١٩٩١م).

(١٨٥٣) جمع المقال، أحمد المزيدي، نقلاً عن تنبيه الأذكياء، أحمد منصور الجندي (ص ٢٦٨).

وقد نُسب إلى البدوي قوله:

ألا أيها الزوار حُجُّوا لبيتنا .... وطوفوا بأستارٍ له تبلغوا المُنا

وفي يوم عيد الوصلِ أوفوا نذوركم .... كذا تفث فاقضوا وطوفوا بقبرنا

فمن جاءنا أهلاً وسهلاً ومرحباً .... به والذي يختار يلقاه عندنا

فهيا بني الحاجات سعياً لمنهلٍ .... ورثناه في الدارين من فيض جدِّنا (١٨٥٤)

فأنت ترى هنا كيف يدعو المتصوفة إلى زيارة قبر البدوي لقصد قضاء الحاجات، وتفريج الكربات، واعتباره كعبةً جديدة تستحقُّ شد الرحال، ليشهدوا منافع لهم، وليوفوا بنذورهم، وليطوفوا بقبر "البدوي"!.

(١٨٥٤) السيد البدوي، د. سعيد عاشور، (ص ٢٦٢)، والجواهر اللؤلؤية؛ لعبد الصمد (ص ١٨٩).

وانقسمت الطريقة الأحمدية (البدويَّة) إلى ستة عشر فرقةً تبعاً لأبرز شيوخها: المزارقة، والبيومية، والتسقانية، والثناوية، والعربية، والسُّطوحيَّة، والبنداريَّة، والمُسَلَّمِيَّة .[١٨٥٥].

١٨٥٥() انظر: نشأة البدع الصوفية، د. فهد الفهيد (ص ١٠٨). والبدوي ليس جاسوساً ولا شيعياً د. جودة المهدي (ص ٩٠).

٥. الطريقة الرفاعية :

وهي الطريقة المنسوبة إلى أحمد بن علي بن أحمد الرفاعي المغربي (ت ٥٧٨هـ/١١٧٣م)، من بني رفاعة إحدى قبائل العرب، وقد هاجر أبوه من المغرب إلى العراق؛ ليستقرَّ بها، حيث سكن البطائح بقرية (أُم عُبيدة)[١٨٥٦] ، وتزوج أبوه "علي" بأخت الشيخ منصور الزاهد؛ فولدت له أحمد الرفاعي [١٨٥٧].

وعدَّه مقدِّم (المجالس الرفاعية) السيد خاشع الراوي أنه: "الإمام الثالث عشر من أئمة أهل البيت"[١٨٥٨]، كما عدَّ بعض الباحثين طريقته في التصوُّف طريقة شيعية متسترة بالزهد والتصوف [١٨٥٩].

(١٨٥٦) البطائح: هي عدة قرى مجتمعة في وسط الماء بين واسط والبصرة.
انظر تاريخ الإسلام للذهبي (١٢/ ٦٠٥).

(١٨٥٧) انظر: العبر في خبر من غبر؛ للذهبي (٣/ ٧٥).

(١٨٥٨) مقدمة المجالس الرفاعية (ص ٥).

(١٨٥٩) السيد البدوي دراسة ونقد، د. عبد الله صابر (ص ٢٧).

ويرى الصُّوفيَّة أنه "سيِّدٌ حسيني"(١٨٦٠)، كعادتهم في نسبة شيوخهم للآل والعترة كذباً، وأياً كان الأمر؛ فإن هذا النسب ليس بثابت، بل إنَّه لم يدَّعِ هذا النسب، وإنما ادَّعاه أولاد أولاده (١٨٦١).

ويعتبر استعارة الأنساب وانتحال الألقاب، والانسلاخ عن الأصل والحقيقة، مسألة مشهورة في سير أعلام الطوائف، والحركات المناوئة للفكر السائد في المجتمعات الإسلامية، في المشرق والمغرب، ولا ريب أن كثيراً من المتصوفة يعتقد ذلك .(١٨٦٢)

وقد تمركز الاتجاه الرفاعي على حدود البصرة، التي كانت مركز الخارجين عن القانون، وقد اكتسبت أتباعاً كثيرين في الامبراطورية السلجوقية (١٨٦٣).

ويشتهر أعضاء هذه الطريقة بأعمال الشعوذة والسحر، والقيام بأنواع الحيل الغريبة (والملفتة للنظر!)؛ كابتلاع الجمر، والدُّخول في النَّار، وإمساك الأفاعي

(١٨٦٠) قلادة الجواهر، محمد أبي الهدى الصيادي (ص ١٢)، وما بعدها.

(١٨٦١) عمدة الطالب في أسباب أبي طالب، جمال الدين بن عتبة الحسيني (ص ٢١٣– ٢١٤). والفتح المبين؛ لظهير الدين القادري (ص ١٠٥).

(١٨٦٢) التصوف، والبدعة في المغرب، عبد الله نجمي (ص ٢٩٢).

(١٨٦٣) الطرق الصوفية في الإسلام، سبنسر ترمنجهام (ص ٦٤).

الحيَّة، وأكل الزجاج، وخرق أجسادهم بالمسلات والسكاكين، وكذلك كان أوائلهم الذين يلقون بأنفسهم من رؤوس النخيل العالية دون أن يصيبهم ضرر، وذلك في أهواز العراق كما تشير كتب التاريخ التي صنفت في القرنين السادس والسابع الهجريين [(١٨٦٤)].

يقول الإمام الذهبيُّ رحمه الله: "ولكن أصحابه فيهم الجيد الرديء وقد كثر الزغل فيهم وتجددت لهم أحوال شيطانية منذ أخذت التتار العراق: من دخول النيران وركوب السباع واللعب بالحيات"[(١٨٦٥)].

ويقول أيضاً: "الطائفة الرفاعية، ويُقال لهم الأحمدية، ويقال لهم البطائحية، لهم أحوالٌ عجيبة من أكل الحيّات حيّةً، والنزول إلى التنانير وهي تتضرم نارًا، والدخول إلى الأفران، وينام الواحدُ منهم فِي جانب الفُرن والخباز يخبز فِي الجانب الآخر، وتُوقد لهم النار العظيمة، ويُقام السماع، فيرقصون عليها إلى أن تنطفئ" [(١٨٦٦)].

(١٨٦٤) صفحات مكثفة في تاريخ التصوف (ص ١٧٥).

(١٨٦٥) انظر: العبر في خبر من غبر؛ للذهبي (٣/ ٧٥).

(١٨٦٦) انظر: تاريخ الإسلام؛ للذهبي (١٢/ ٦٠٥).

ويزعم أتباع هذه الطريقة أن أحمد الرفاعي لما حجَّ سنة (٥٥٥ هـ) وقف تجاه الحُجرة النبويَّة، وقال: السلام عليك يا ولدي. وسمع ذلك كل من في المسجد النبوي، ومدَّ له رسول الله صلى الله عليه وسلم يده الشريفة فقبلها في ملأ يقرب من تسعين ألف رجل، ثم قالوا: وإنكار هذه الكرامة كفرٌ! [١٨٦٧].

ونحنُ نقول: إن تصديق هذه الخرافة جهلٌ، ونقصُ عقلٍ؛ إذ كيف خرجت يد المصطفى صلى الله عليه وسلم من قبره، وقد فارق الحياة الدنيا إلى حياة البرزخ، وهو في عالمٍ غير عالمنا.

وقد وقعت بين الرفاعية وبين شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله مناظرة عظيمة أمام أمير دمشق، حين زعموا أن بإمكانهم دخول النار والخروج منها سالمين، فتحداهم شيخ الإسلام ابن تيمية بأن يدخل النار معهم، شريطة أن يغتسلوا بالماء الحار والخل؛ لإزالة ما كانوا يطلون به أجسادهم من الأدوية (وكانوا يطلون أنفسهم بدهن الضفادع، وباطن قشر النارنج، وحجر الطلق، وغير ذلك)، وتحداهم أن يدخلها معهم؛ فمن أحرقته النار فعليه لعنة الله وكان مغلوباً، فلم يفعلوا! وأظهره

(١٨٦٧) قلادة الجواهر في ذكر الرفاعي وأتباعه الأكابر (ص ١٠٤).

الله عليهم، وطلبوا التوبة، وقد ذكر شيخ الإسلام القصة كاملةً في كتابه "مجموع الفتاوى" [١٨٦٨].

وكان الرفاعيُّون يتغنون بأشعار ابن المُعلِّم الهرئي (محمد بن علي بن فارس، شاعر غزلي رقيق، ت ٥٩٢هـ/ ١١٩٦م)، ويغنونها في تجمعاتهم؛ كي يثيروا في نفوسهم حالة الوجدِ! .

ولهذه الطريقة ثلاثة فروع رئيسية، وهي: البازيَّة، والملكيَّة، والحبيبية، وهي منتشرة في بعض البلاد كالحريرية في سورية،

هذا، ولا يفوتني أن ألقي الضوء على العلاقات المتوترة بين أبناء الطريقتين الرفاعية والجيلانية، وبخاصَّة في بدايات ظهور الأخيرة التي أفقدت الرفاعيَّة شعبيتها، لصالح الطريقة القادريَّة، على أن الأولون يزعمون أن الشيخ عبد القادر الجيلاني كان تحت سيادة الرفاعي، والآخرون يقولون بأن الرفاعي كان تحت سيادة الجيلاني، ولكل فريقٍ رواياته المزعومة، وحكاياته المكذوبة لترجيح مرشدهم، وتفضيل سيدهم على الآخر!.

(١٨٦٨) انظر: فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (١١/ ٤٤٥).

فيذكر الصيادي في قصَّةٍ حضرها أكابر القوم، منهم الجيلاني، أنَّ الرفاعيَّ أمر الشجرة أن تأتيه، فجاءته طائعة مقرةً بلسان عربي، وقالت: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله، وأنك شيخ الشيوخ على الإطلاق، وشيخ أهل الأرض والسماء، فقام الشيوخ –ومنهم الجيلاني –وحسروا عن رءوسهم، وبايعوه على أن يكون شيخاً عليهم، وعلى كل من يلوذ بهم إلى يوم القيامة!.(١٨٦٩)

بينما يذكر القادريون أنه لما قال الجيلاني على كرسيه وهو ببغداد: "رقبتي على كل وليٍّ لله!.. طأطأت رءوس جميع الأولياء له، حتَّى أن الرفاعي ومدَّ عنقه، وهو في بلدته أم عبيدة، وقال: وعلى رقبتي –ثلاثاً–.(١٨٧٠)

والمتأمل للحقبة التي ظهرت فيها الرفاعيَّة كطريقة في "البطحة" (=أرضي مستنقعات بجنوب العراق بين البصرة وواسط)، نجد أنَّ القادريَّة جاءت متأخرة في وقت لاحق جداً، الأمر الذي لم ينجزه عبد القادر في بغداد..!.

(١٨٦٩) قلادة الجواهر في ذكر الغوث الرفاعي، وأتباعه الأكابر، محمد أبي الهدى الرفاعي (ص ٩١-٩٢).

(١٨٧٠) قلادة الجواهر في ذكر الغوث الرفاعي، وأتباعه الأكابر، محمد أبي الهدى الرفاعي (ص ٩١-٩٢).

وقد ترك الرفاعيُّ "البطحة"، مرَّةً واحدة فقط، في العام (١١٦٠م)، متوجهاً إلى الحج!، ولم يتعلَّم إلا القليل من الفقه والتصوُّف، ولم يكتب شيئاً، سوى بعض الأوراد القليلة (المنسوبة إليه، وربما لم تكن نسبتها إليه حقيقاً!).(١٨٧١)

هذا وقد مات الرفاعي، دون أن يُنجب، وورث عنه ابن أخيه طريقته الرفاعيَّة!، وقد أسَّس الرفاعيُّ أربعة طرق أخرى مستقلَّة؛ وهي: البدويَّة، والدسوقيَّة (= وتُسمى أيضاً بالإبراهيمية، والبرهامية)، والشاذليَّة، والعلوانيَّة (وهي طريقة يمنية، أسسها أبو الحسن أحمد بن عطاف بن علوان، وقد أخذها عن البدوي، عن أحمد الرفاعي، ت ٦٦٥هـ/ ١٢٦٦م) .(١٨٧٢)

وانتشرت الرفاعيَّة في مصر بواسطة أبي الفتح الواسطي **[جدُّ إبراهيم الدُّسوقي]** (ت ٦٣٢هـ/ ١٢٣٤م)، وفي سوريا بواسطة أبو محمد علي الحريري (ت في البصرة ٦٤٥هـ/ ١٢٤٨م)، الذي أسَّس الطريقة الحريرية، وكان ملامتيَّاً مرموقاً، وقد سجنه الأشرف في الفترة ما بين (١٢٢٨– ١٢٣٧م)، وأطلق سراحه الصالح إسماعيل بشرط أن يبتعد عن دمشق!.. وكان من أبرز تلاميذ الحريريِّ نجم الدِّين محمد بن إسرائيل، (ت ٦٧٧هـ/ ١٢٧٨م)، الذي تصوَّف على طريقة ابن

(١٨٧١) الطرق الصوفية في الإسلام، سنسر ترمنجهام (ص ٧٢).

(١٨٧٢) انظر: الجواهر السنية، والكرامات الأحمدية (ص ٥٧).

الفارض (الذي لم تكن له طريقةٌ أصلاً!)، وابن عربي!، وكان اتحادياً صرفاً، يمدح الأمراء والحُكَّام، وقد صرَّح الذهبيُّ بخروجه من الملَّة، بينما نجد أنَّ القاضي ابن خلَّكان يشيّعِهُ في جنازته (كعادته مع المتصوفة!).

٦. الطريقة المولوية (الجلالية) :

وهي الطريقة التي أسسها الشاعر الفارسي محمد جلال الدين بن محمد البلخي ثم القونوي المعروف بالرومي (ت٦٧٢هـ/١٢٧٣م)، وقد نزح أبوه من فارس إلى بلاد الروم هرباً من الزحف المغولي، ومن ثمَّ استقرَّ في (قونية)، وكانت "قونية" إحدى الأماكن الهادئة، والبعيدة عن فلول المغول الذي غزى العالم الإسلامي في تلك الحقبة، واشتهر بالرومي لطول إقامته فيها، ويُروى أنه ينتهي نسبه من طرف الأب إلى أبي بكر الصِّديق.(١٨٧٣)

وكانت نقطة تحوله إلى التصوف هو لقاؤه بالصُّوفيِّ المتجول شمس تبريز، الذي جعل منه صوفياً غارقاً حتى أذنيه، وكان الرُّوميُّ وتبريز يتعانقان حتَّى يسقطا جميعاً، وبلغ من قُربهما حداً لا يُمكن التغلُّب عليه..!، حتَّى اتفق تلاميذ الرُّومي مع ابنه علاء الدِّين على قتل "تبريز"، فنادوه ذات ليلة من بيت جلال الرُّومي وطعنوه، وألقوه في أقرب بئر، ودُفنَ عندما كان الرُّوميُّ نائماً..!(١٨٧٤) ، وكان

(١٨٧٣) الطرق الصوفية في طرابلس، د. غادة المقدم (ص ١٠٤).

(١٨٧٤) واكتشف هذا القبر "محمد أوندر"، مدير متحف "مولانا". انظر: الأبعاد الصوفية في الإسلام (ص ٣٥٣). والطرق الصوفية؛ لسبنسر ترمنجهام (ص ١٠٨).

للموسيقى دور كبير في هذه الطريقة، وخاصَّة النَّاي؛ لأن جلال الدين الرومي كان يلجأ إلى الذكر والسَّماع كلما حنَّ إلى شيخه..!.

وبعد اختفاء شيخه (شمس الدين)، وما تلاها من اعتقاده الاتحاد به (من شدة شغفه به)، عاش الرُّوميُّ تجربةً روحيَّة (أو صداقةً صوفيَّةً) أخرى مع أجسادٍ جديدة، منهم خليفته الروحي (برهان الدين محقق)، ومع أحد مريديه (الصائغ البسيط صلاح الدين زركوب، وأخيراً اتجه بحبٍّ داخليٍّ إلى تلميذه (حسام الدين حسن شيليبي) (**Celebi**)، الذي عُيِّن خليفةً له بعد موت (صلاح الدين زركوب)، ومن بعد موت حسام الدين تولَّى ولده (سلطان ولد بن جلال الرُّومي= وهو زوج ابنة صلاح الدين زركوب) قيادة الطريق الراقصة في التصوُّف!.[(١٨٧٥)]

ومن الملاحظ أن الرومي خرج عن تقاليد الإسلام بإفراده الموسيقى مكاناً بارزاً في مراسم طريقته، وبمخالطته أمراء البلاط السلجوقي، حتى أدى ذلك بصوفية آخرين إلى الثورة عليه، واتهامه بالنزعة الارستقراطية، والقيام في وجه الدولة التي يحالفها، على صورة ثورة مسلحة ضد السلاجقة في قونية (٩٣٨هـ/ ١٢٤٠م) (لا ضد الرُّومي!)، قادها شيخ طريقة جديدة، سمَّت نفسها بالطريقة (البابائية) نسبة إلى شيخها بابا إسحاق الكفر سودي، و(كُفر سود) قرية قرب حلب نزح منها،

(١٨٧٥) أبعاد التصوف في الإسلام، آنا ماري شيمل (ص ٣٥٦).

ومن الطريقة البابائية اشتقت طريقة أخرى لها ذيوع عظيم في تركيا والبلاد الإسلامية الأخرى، وهي الطريقة (البكتاشية) المنسوبة إلى محمد الخراساني، الملقب بحاج بكتاش التركي، أي الحجر الكبير، من رجال القرنين السابع والثامن الهجريين، وكانت الطريقة البكتاشية تختلف عن بقية الطرق، باعتمادها الكلي على التشيع في تكوين عقائدها، واتصالها بالمسيحية في طقوسها الأخرى، ما أدى إلى دخول أعداد كبيرة من المسيحيين فيها، ودخلت في عقر بيت السلطان العثماني (مراد الأول)، وكان منها زبدة الجيش العثماني الذي أُطلق عليه اسم (الإنكشارية = بمعنى الجيش الجديد) .[١٨٧٦]

وبعد القضاء على الطريقة (البكتاشيَّة) كفرقة صوفيَّة شيعية، حظيت بالتعاطف المستمر من قبل السلطات العثمانية، استفادت النقشبنديَّة بالمناصرة الرسمية بوصفها طريقة سنيَّة، تابعة للدولة،

وبمجرد أن تم القضاء على القوات الإنكشاريَّة في الدولة العثمانيَّة، سقط البكتاشيون معهم، وتم تخريب مقامات وتكايا كانت لهم!.[١٨٧٧]

١٨٧٦() صفحات مكثفة في تاريخ التصوف (ص ١٧٥-١٧٦).

١٨٧٧() الطرق الصوفية في الإسلام، سبنسر ترمنجهام (ص ١٣٩).

وقد أثنى عليه الخميني الشيعي أيَّما ثناء؛ فقال: "وهذا العارف الرومي، ذلك الفارس الأوحدي، في ساحة العرفان الفلسفي، يأخذُ رُحاً من كلامٍ عليّ (رضي الله عنه)، وينفُخ في هيئة ألفاظ شعره في اللغة الفارسية..".[١٨٧٨]

وتعتبر طريقة الرُّومي المُلقب بـ"مولانا" أو "مولوي"، أو "ميفلانا (Mivlana)في التركية" من أشهر الطرق الصوفية ذات الطابع الإرستقراطي عند الغربيين (في الطبقات التي تتفق مع شروطها!)، وعرف أصحابها بـ"الدوارين"، ولكنَّها ظلت محصورة في الأناضول (والتي تعتبر مركزاً للفوضى الدينية في تلك المرحلة)..!

ويعتبر الرّومي هو اللسان المعبِّر عن أفكار ابن عربي في مناطق شبه القارة اهندية، وإيران وتركيا، وتعتبر أشعاره مادة غنيَّة في الأدب الفارسي الموزون بطريقة حسابية أحياناً.

وكان جلال الرُّومي صديقاً للعديد من الوزراء، من بينهم معين الدين بروانا، الذي كان منفرداً بالحكم تقريباً، وصديقاً لعددٍ من أمراء البلاط السلجوقي،

١٨٧٨() مصباح الهداية إلى الخلافة والولاية، الخميني (ص ٦).

والحكومة العثمانيَّة، وكان العلماء والصُّوفيَّة وموظفي الدولة يتحرون صحبته والانخراط في طريقته، حتَّى البسطاء والنساء.

وتجيز هذه الطريقة لأصحابها عند الإنشاد العزف على الآلات الموسيقية على اختلاف أنواعها، وفي الحضرة يرقص المردان، وهم يلبسون الفوط كالخراطات النسائيَّة، ويتثنُّون، ويتمايلون على أنغام الآلات الموسيقية مما يُثير الشهوات، ويُحرِّض على الفواحش!.[١٨٧٩]

يقول الدكتور زكي مبارك: "إن مجالس الصُّوفيَّة كانت تنقلب أحياناً إلى مجالس فنيَّة، الغرض منها الغناء، وكانت مدارس لتخريج المغنِّيين!!".[١٨٨٠]

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "وأما سماع المكاء والتصدية، وهو الاجتماع لسماع القصائد الربانيَّة، سواءً بكفٍّ، أو بقضيبٍ، أو بدفٍّ، أو كان مع ذلك شبابة، فهذا أمرٌ لم يفعله أحدٌ من الصحابة، لا من أهل الصُّفَّة، ولا من غيرهم، بل ولا من

١٨٧٩() التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق (٢/ ١٨٩- ٢٠٠)، (٢/ ٢٦١)، (٢/ ٢٧٨). وانظر: الكشف عن حقيقة الصوفيَّة (ص ٣٤٢- ٣٤٧).

١٨٨٠() التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق (٢/ ٢٦٧- ٢٦٨).

التابعين، بل القرون المفضلة جميعها، لم يكن فيهم أحدٌ يجتمعُ على هذا السَّماع، لا في الحجاز، ولا مصر، ولا خراسان، ولا المغرب!".[١٨٨١]

وذكر رحمه الله أن ما يُنقل من استماع بعض الصحابة للحداء بقصد صلاح القلوب، أو أنَّهم تواجدوا لأجل ذلك، كُلُّ ذلك كذبٌ باتفاق أهل العلم!.

قال رحمه الله: وبالجملة، فقد عُرف بالاضطرار من دين الإسلام أنَّ النَّبيَّ ﷺ لم يشرع لصالحي أمته، وعُبَّادهم، وزُهَّادهم أن يجتمعوا على استماع الأبيات الملحنة، مع ضربٍ بالكفِّ، أو ضربٍ بالقضيب أو الدُّف.

ولما كان الغناء والضرب بالدُّف والكف من عمل النساء، كان السَّلفُ يُسمُّون من يفعلُ ذلك من الرجال مخنَّثاً، ويُسمُّون المغنين مخانيث، وهذا مشهورٌ في كلامهم...[١٨٨٢]

١٨٨١() مجموع الفتاوي (١١/ ٥٨).

١٨٨٢() مجموع الفتاوي (١١/ ٥٩٣- ٥٩٤).

٦. الطريقة الشاذليّة :

وهي من أشهر الطُّرق الصُّوفية في العالم الإسلامي، ومؤسسها هو أبو الحسن علي بن عبد الله بن عبد الجبار الشاذلي (ت ٦٥٦هـ/١١٧١م) الضرير، المولود (بغمارة) من قرى سبتة، ونسبوه إلى الأشرف، وبعضهم ينسبهم إلى الحسن، وبعضهم ينسبه إلى الحسين![١٨٨٣] .

ظهرت هذه الطريقة في القرن السابع الهجري، ونظرةٌ سريعة من رأس الطريقة أبو مدين شعيب بن الحسين التلمساني (ت ٥٩٠ هـ)، الذي تلقاها عن أبي يغزى (وكان بربريّاً خالصاً، لا يتكلَّم العربيَّة!، ت ١١٧٦م)، وأخذها عن محمد الدقاق، وقد كثر أتباع أبا مدين حتَّى خشيه السلطان يعقوب المنصور الموحِّدي (ت ٥٩٥هـ) على دولته!، (وكان السلطان يعقوب مالكيّاً، ثم أحرق كتب المالكيَّة، ومال إلى الظاهريَّة..!)، والتقى أبو مدين بأحمد الرفاعي في العراق، وقامت بينهما صلات وروابط غير عاديَّة!، وكان يُعدُّ من أبرز الشخصيات الصُّوفيَّة خلال القرن السادس الهجري وانتشرت طريقة أبو مدين من خلال تلميذه عبد السلام بن مشيش (ت ٦٢٥هـ/ ١٢٢٨)، وأخذها عنه الشاذلي المغربي..

(١٨٨٣) نفحات الأنس (فارسي)؛ للجامي (ص ٥٦٧) .

وتلقَّى الشاذليُّ أيضاً التصوُّف عن محمد بن حرازيم (ت ٦٣٣هـ/ ١٢٣٦م)، وهو تلميذ أبي مدين... وذهب شرقاً نحو العراق ليلتقي بأبي الفتح الواسطيّ في العام (٦١٥هـ)، حيث انضمَّ إلى الطريقة الرفاعيَّة تحت لواء الواسطيّ، وأصبح الشاذليّ مهموماً في البحث عن القُطب الصُّوفيّ، حتى نال رتبة القُطبيَّة بعد أن وضع لها خمسة عشر كرامة، من جاء بها حُكم له بالقُطبية! (١٨٨٤) .

يُذكر هنا أن الشاذلي كغيره من أرباب الطرق اشتغل بالسّحر، وله كتبٌ مؤلفة في ذلك نُسبت إليه، أشهرها "الجواهر المصونة واللآلئ المكنونة"، وهو مليء بالعبارات الشركية، والأوفاق السحرية، والأختام الشيطانية، والتي يحصل بها حضور الشياطين، وتسليطهم على عباد الله، وتعريض الناس للعنت والشقاء، وأذيتهم في أبدانهم وأهليهم وأموالهم، والتسبب لهم بالأمراض والجنون والطاعون.

وأعجب من ذلك أنَّ الشاذلي لمَّا عاد من بغداد –بعد أن التقى بشيخه أبو الفتح الواسطيّ –دلَّه جماعةٌ من الصوفيَّة على قُطب المغرب آنذاك، وهو الشيخ عبد السلام بن مشيش، الذي لقن الشاذلي نسبه الجديد المتصل بآل بيت النبوَّة، ونصح عبد السلام تلميذه الشاذلي بمغادرة مراكش، والدخول في رياضة

(١٨٨٤) تأييد الحقيقة العلية، للسيوطي (ص ٣٩).

روحيَّة ومجاهدةٍ نفسانيَّة في كهف قرب قرية افريقية تُسمى "شاذلة"، حيث اشتقت نسبته.

ويروي ذلك الدكتور عبد الحليم محمود، فيقول على لسان أبي الحسن الشاذلي: "لما قدمت على الشيخ عبد السلام، وهو ساكنٌ بمغارةٍ في رأس جبلٍ، اغتسلتُ في عين بأسفل ذلك الجبل، وخرجتُ عن علمي وعن عملي، وطلعتُ إليه فقيراً، وإذا به هابطٌ إليَّ، وعليه مِرقَعةٌ، وعلى رأسِهِ قُلنسوة من خُوص؛ فقال لي: مرحباً بعليّ بن عبد الجبار، وذكر نسبي إلى رسول الله ﷺ" (١٨٨٥) .

ولقد كان لابن مشيش دوراً بارزاً في صقل شخصية الشاذلي وتوجيهه، حيث رسم له بدقةٍ بالغة خطة سيره في الطريق الصوفي الجديد، وذلك بعد إتمامه مقام الولاية، وتخرجه من المدرسة المشيشية؛ فقال له: "يا عليّ، ارتحل إلى افريقية، واسكن بلداً تُسمى شاذلة، فإن الله ﷻ يسميك الشاذلي!، وبعد ذلك تنتقل إلى مدينة تونس، ويؤتى عليك بها من قبل السلطنة، وبعد ذلك تنتقل إلى أرض المشرق، وبها ترث القطبانة" (١٨٨٦)، وهو ما تحقَّق حرفيَّاً، وسار عليه الشاذلي خطوة بخطوة !.

(١٨٨٥) قضية التصوف، المدرسة الشاذلية، عبد الحليم محمود (ص ٢٠).

(١٨٨٦) قضية التصوف، المدرسة الشاذلية، عبد الحليم محمود (ص ٢٥).

ولكن بعد فترة وجيزة استطاع الشاذلي أن يتجاوز ابن مشيش إلى مرحلة أعمق؛ فيقول: "كنتُ أنتسب إلى عبد السلام بن مشيش، وأنا الآن لا أنتسب إلى أحدٍ، بل أعوم في عشرة أبحرٍ: محمد، وأبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وجبريل، وميكائيل، وعزرائيل، وإسرافيل، والروح الأكبر" (١٨٨٧).

ويذكر عبد الحليم محمود –بسذاجة تامَّة –أنَّ الشاذلي سأل ربَّه: يا رب لِمَ سميتني بالشاذلي؟، فأجابه: ما سميتك بالشاذلي، وإنما أنتَ الشَّاذُّ ليّ، أي المتفرِّد لخدمتي ومحبتي (١٨٨٨).

على أنَّ الدكتور قد تلقَّى هذه السذاجة على يد أكبر الفلاسفة الفرنسيين في زمانه، وهو الكاثوليكي المحافظ رينيه جينو (أو العارف بالله عبد الواحد يحيى الشَّاذليّ، ت: ١٩٥١م)، والذي أسلم سنة (١٩١٢م) بعد قراءات متعمِّقة في علوم الفلسفة والأسرار، وكان الدكتور يُسميه: "الشخصيَّة الإلهيَّة في مصر"، وكان يقول عنه: "رينيه جينو من الشخصيات التي أخذت مكانها في التاريخ، يضعه

(١٨٨٧) طبقات الشعراني (٢/ ٦).

(١٨٨٨) قضية التصوف، المدرسة الشاذلية، عبد الحليم محمود (ص ٣٠).

المسلمون بجوار الإمام الغزالي وأمثاله، ويضعه غير المسلمين بجوار أفلوطين وأمثاله".[(١٨٨٩)]

بل يبدو أنَّ الدكتور قد تجاوز كُلَّ حدود الأدب مع الله ﷻ، ومع رسوله ﷺ؛ حيث شبَّه الشاذُليّ في ابتداء دعوته بالنَّبيِّ ﷺ في أول أمره، حيثُ يقسِّمُ دورة التصوُّف إلى مرحلتين: مرحلة التحنُّث والتعبُّد التي مكثها في مغارة (بشاذلة) في جبل (زغوان)، ومرحلة الخروج إلى النَّاس لهدايتهم وإرشادهم، ثم يقول: "فيؤمر الوليُّ أن يترك الخلوة والعزلة، وينزل إلى الميدان مؤيداً من الله، يدعو إليه على بصيرة، ويُرشد مأذوناً مأموراً، وحكى قصة نزول الشاذُليّ من جبل زغوان لدعوة الناس؛ فيقول: قيل لي: يا عليّ، اهبط إلى النَّاس ينتفعوا بك !.

فقلتُ: يا ربِّ أقلني من النَّاس، فلا طاقة لي بمخالطتهم!

فقيل لي: انزل فقد أصحبناك السلامة، ودفعنا عنك الملامة!

فقلتُ: تكلني إلى النَّاس آكل من دريهماتهم !! فقيل لي: أنفق يا عليّ، وأنا المليء، إن شئتَ من الجيب، وإن شئت من الغيب" [(١٨٩٠)].

(١٨٨٩) قضية التصوف، المدرسة الشاذلية، عبد الحليم محمود (ص ٢٨٤، ٣٠١).

(١٨٩٠) قضية التصوف، المدرسة الشاذلية، عبد الحليم محمود (ص ٣٠).

ومن العجيب جداً أن يُصنف عبد الحليم محمود شيخ الجامع الأزهر السابق هذا الكتاب، الذي يُمجِّد فيه الشّاذلي، ويُثني على طريقته، وينقل أنَّ النبيَّ كلَّم الشَّاذلي من داخل الحجرة الشريفة؛ فيقول: "فلما قدم المدينة زادها الله تشريفاً وتعظيماً، وقف على باب الحرم من أول النهار إلى نصفه عريان الرأس، حافي القدمين يستأذن على رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليماً؛ فسُئل عن ذلك؛ فقال: حتى يؤذن لي، فسمع النداء من داخل الروضة الشريفة: يا علي ادخل!" (١٨٩١).

ولستُ بحاجةٍ إلى التعليق على هذه الخرافة الباطلة؛ فإن أفضل الأمة وخير قرونها من لدن الصحابة والتابعين وتابعيهم ما كانوا يفعلون هذا الفعل المبتدع، وما كانوا يقفون على باب مسجده صلى الله عليه وسلم حاسري الرؤوس حفاة الأقدام، ينتظرون الإذن لهم بالدخول إلى المسجد، ثُمَّ كيف يسمع صوت رسول الله صلى الله عليه وسلم، والله تعالى يقول: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ (الزمر: ٣٠)، وكل التأويلات التي تحاول تفسير هذه الخرافة مرفوضة؛ لأنها ظاهرة البطلان جداً.

ويبدو أنَّ الدكتور قد أصابته حالةٌ من الذهول النفسي، والفراغ العقلي، عندما توقف ليُردِّدَ كلام الشاذُليِّ، وكأنَّه آيُ القرآنِ نزل على قلب الشيخ، فيقول:

(١٨٩١) المدرسة الشاذلية الحديث؛ عبد الحليم محمود (ص ٣٢).

"إنَّه الآن ذاهبٌ للدعوة، وقد أُذنَ له بها الإذن الخاصّ؛ فقد سمع النِداء: (يا عليّ اهبط إلى النَّاسِ ينتفعوا بك!) "[١٨٩٢].

ولو وقفنا قليلاً على معنى الإذن الخاصّ عند الصُّوفيّة؛ سنجد أنَّ الشاذُليّ يفسره بقوله: "هو نورٌ ينبسط على القلب، يخلقه الله فيه وعليه، فيمتد ذلك النور على الشيء الذي يريد، فيدركه نورٌ مع نور، أو ظلمة تحت نور، فذلك النُّور ينبئك أن تأخذ أو تترك، أو تقبل أو تدبر، أو تُعطي أو تمنع، أو تقوم أو تجلس، أو تُسافر أو تُقيم".[١٨٩٣]

ويسترسل الدكتور بسذاجةٍ مُرَّة، مع ما ذكره صاحبُ دُرَّة الأسرار في كتابه[١٨٩٤]، والذي ادَّعى أنَّ الشاذُلي لما وصل تونس، التفَّ أهلها حوله، وأخذ أتباعه يزدادون يوماً بعد يوم، إلى أن دبَّت الغيرة في قلب (قاضي الجماعة) بتونس (ابن البراء)، الذي أحسَّ بأنَّ الشاذُليّ سينتزع المركز الديني المرموق الذي يتقلده، فأعلن ابن البراء الحرب على أبي الحسن الشاذلي، لا لشيء إلا لأنَّ نفسه الأمارة

(١٨٩٢) قضية التصوف، المدرسة الشاذلية، عبد الحليم محمود (ص ٣١).

(١٨٩٣) قضية التصوف، المدرسة الشاذلية، عبد الحليم محمود (ص ٣١).

(١٨٩٤) أعني ابن الصباغ.

بالسوء سولت له ذلك، على حدِّ تعبير الدكتور في هذا الموضع وفي موضعٍ آخر يُسميه الدكتور: "سوء تفاهم حدث بين الشَّاذلي، وقاضي القضاة ابن البراء"[(١٨٩٥)].

وأصبح الخلاف بين ابن البراء والشاذليّ شخصياً دنيوياً لا دينياً، فقام ابن البراء بتأليب الملك (أبو زكرياء الحفص) على الشاذلي وأتباعه، وأقنع الملك بأنَّه يريد انتزاع السلطة منه، ولكنَّ الملك بحنكته ودهائه لم يلتفت إلى قولِ أبي البراء، فقام بتدبير مكيدةٍ يتبصر فيها أمر أبي الحسن الشاذليّ، فجمع فقهاء تونس، وعلى رأسهم ابن البراء، والشاذليّ في مكان واحد، واحتجب عنهم في مكانٍ يسمعهم فيه ولا يرونه، إلى أن اقتنع الملك بدعوة الشاذُليَ، وعدَّه من أكابر الأولياء؛ فكان مما قاله لابن البراء: "إنَّ هذا الرجل من أكابر الأولياء، ومالك به طاقة"، ولكنَّ ابن البراء لم يستسلم، وبقي يحرض الملك على الشاذلي، حتى طرده من تونس.

فانتقم الله للشاذليّ من الملك بأن ماتت جاريته التي يُحبُّها، واحترق بيت الملك بما فيه من فرش وثياب وأموال، فعلم السلطان أنه إنما أصيب من قبل هذا الوليّ، فدبَّ الرُّعبُ في قلبه، وأخذ يعتذر إليه اعتذاراً شديداً عمَّا بدر منه .!![(١٨٩٦)]

(١٨٩٥) قضية التصوف، المدرسة الشاذلية، عبد الحليم محمود (ص ١٨١).

١٨٩٦() قضية التصوف، المدرسة الشاذلية، عبد الحليم محمود (ص ٣٣- ٣٦).

هذا ما حدث للملك، ولا ندري ماذا حدث لابن البراء الذي لم يكُف عن ايذاء الشَّاذليّ، حتى بعد رحيله إلى المشرق؟!.

ولما قرَّر الشاذلي الرحيل فزع إليه الملك، وترجاه أن يمكث في بلاده، فقال الشاذلي في ثقة عمياء: "ما خرجتُ إلا بنيَّة الحجِّ، ومن ثمَّ أعود إن شاء الله !"، وهذا أشبه ما يكون بتلك القصة التي حيكت أطرافها بعناية، وأصبحت نتائجها معروفة! .[١٨٩٧]

ولما رحل الشاذُليّ إلى الإسكندرية، قام السلطان بطرده منها؛ لأنَّ ابن البراء كان قد كتب إليه أنَّ الشاذُليّ يُشوش عليكم بلادكم؛ كما شوش علينا بلادنا، وطلبه السلطان ليعتقله، فهرب منه، ثم توجه إلى القاهرة، وَمَثَلَ أمام واليها، الذي هدَّده بالاعتقال والسجن، يقول صاحبُ (دُرَّةِ الأسرار) بعد أن ذكر كل هذا الكلام: "وقام الشيخ!.. فلما مشى قدْر العشرين خطوة حركوا السلطان فلم يتحرك ولم ينطق، فبادروا إلى الشيخ وجعلوا يقبلون يديه ويرغبونه في الرجوع إليه، فرجع إليه، وحركه بيده فتحرك، فجعل يستحله ويطلب العفو والمسامحة منه، وكتب إلى والي الإسكندرية أن يعفو عن الشيخ وأتباعه..".[١٨٩٨]

١٨٩٧() قضية التصوف، المدرسة الشاذلية، عبد الحليم محمود (ص ٣٦).

(١٨٩٨) درة الأسرار، ابن الصباغ (ص ٣١- ٣٢).

والحقيقة أنَّ الشاذليّ كان يحرص على صنع معادلة جديدة، ينتصر فيها التصوُّف الجدلي على سماحة الفقه الإسلامي، من خلال تبنيه المذهب العلمي، وحرصه على اللباس العلمي الرسمي، وسعيه الدائب نحو الشهرة، فكان يحرص على حشد عامة الناس والبسطاء من حوله، وذلك من خلال "إحياء المناسبات الدينية" أو "المواسم الروحية الكبرى"، ولم يكتفِ بذلك حتى ضمَّ إلى صفوفه أكابر الدنيا من أرباب الأموال والتجارة، وكانت تنشر الأعلام على رأسه، وتُضرب الكاسات بين يديه (١٨٩٩).

ثُمَّ خرج إلى الحج، ورجع إلى مصر، ثم عاد مرةً أخرى إلى تونس، ليستمر في دعوته الشاذلية، وفي هذه الأثناء قدم عليه أبو العباس أحمد بن عمر المرسي –أحد اكبر تلاميذ الشاذلي –وبقي مقيماً معه بتونس إلى أن أتاه الإذن بالخروج من تونس والعودة إلى مصر مرةً ثالثة، يقول الشاذليّ: رأيتُ النَّبيَّ ﷺ في المنام؛ فقال لي: (يا عليّ، انتقل إلى الديار المصرية ترى فيها أربعين صدِّيقاً).(١٩٠٠)

وكان التقاء أبي العباس بأبي الحسن إحدى ثمرات القدر، فجاء اللقاء على إثر رؤيا مناميَّة، بعد استخارةٍ صوفيَّة، رأى فيها –وهو شاب –كأنه أُصعد إلى رأس

(١٨٩٩) قضية التصوف، المدرسة الشاذلية، عبد الحليم محمود (ص ٣١– ٣٢).

١٩٠٠() قضية التصوف، المدرسة الشاذلية، عبد الحليم محمود (ص ٣٦).

جبل، فلما علا فوقه، رأى هناك رجلاً، عليه بُرنس أخضر، وهو جالس، وعن يمينه رجل، وعن يساره رجل، فنظرتُ إليه، فقال لي رجلٌ: عثرتَ على خليفةِ الزمان!.. فانتبهتُ. فلمّا كان بعد صلاة الصبح، جاءني الرجل الذي دعاني إلى زيارة الشيخ، فسرتُ معه، فلما دخلنا عليه رأيته بالصفةِ التي رأيتهُ بها فوق الجبل، فدُهشتُ!، فقال لي: عثرتَ على خليفةِ الزمان، ثمَّ سأل أبا العباس عن اسمه ونسبه؟!، فلما أخبره، قال: رفعتَ لي منذُ عشر سنين!.[١٩٠١]

وكان أوَّل من صحب الشاذليِّ في رحلته هو أبو محمد الحبيبي، الذي وصفه عبد الحليم بقوله: "الرجل المكاشف"، يقول الدكتور عبد الحليم محمود: "وليس بغريب أن تأتي أرواح الأولياء زرافات ووحداناً –والتي يراها الحبيبي– وتحفُّ بأبي الحسن، وتتبرك به، وما كان الحبيبي واهماً في ذلك، وما كان ما يراه سراباً لا حقيقة، ولا وهماً تجسد، ولا خيالاً تبلور !".[١٩٠٢]

١٩٠١() قضية التصوف، المدرسة الشاذلية، عبد الحليم محمود (ص ١٨١).

١٩٠٢() أبو الحسن الشاذلي، د. عبد الحليم محمود (ص ٣٩).

ولم تتوقف النداءات الإلهية لأبي الحسن حتى في الإسكندرية؛ يقول: "لما قدمتُ الديار المصرية، قيل لي: يا عليّ، ذهبت أيام المحن، وأقبلت أيام المنن، عشرٌ بعشر، اقتداءً بجدك ﷺ"[١٩٠٣].

ولم ينسَ الصُّوفيَّة أن يجعلوا من الشاذلي نموذجاً خرافياً في الجهاد والتضحية؛ فهو –عندهم –أحد الأوائل الذين هاجروا إلى المنصورة؛ لدفع العدو الصليبي مع الظاهر بيبرس، وذلك في أواخر النصف الأول من القرن السابع الهجري، هذا مع أنَّ المعركة حدثت في أواخر أيام حياته، وفي الوقت الذي فقد فيه بصره ![١٩٠٤].

كذلك، فإنَّ كرامات أبي الحسن – مع كثرتها– فاقت كُلَّ التصورات والخيالات والأوهام، الأمر الذي جعل الدكتور عبد الحليم في حيرة من أمره، وغايته في الكل هي إرضاء أبي الحسن وجماعته، فيقول تحت عنوان (خاتمة واعترافات): "وفوجئت بمشكلة مباشرة، وهي الكرامات المنثورة في الكتب التي أرَّخت لأبي الحسن، وهي من الكثرة بحيث لا يمكن إغفال الحديث عنها، هل أنقلها جميعاً،

١٩٠٣() قضية التصوف، المدرسة الشاذلية، عبد الحليم محمود (ص ٤٠).

١٩٠٤() انظر: قضية التصوف، المدرسة الشاذلية، عبد الحليم محمود (ص ٥٧).

وأدع مسئولية روايتها على الذين ذكروها؟!.. وإذا ما نقلتها جميعاً، فهل أكونُ بذلك قد أحسنتُ بالنسبةِ لأبي الحسن، أم أكون قد أسأت بالنسبةِ إليه؟!".(١٩٠٥)

وإذا تتبعنا علة هذه الحيرة والتردد في ذكر كرامات أبي الحسن؛ لرأينا البواعث الحقيقية وراء إخفاء تلك الكرامات وطمسها؛ والمتمثلة بقول الدكتور: "إن الكثير من المثقفين في عصرنا الحاضر يمجُّون ذكر الكرامات هكذا بدون حساب، في إسرافٍ مسرف .. ومما لا شك فيه أنَّ أتباع الوليِّ أينما كان وأينما كانوا، يُحاولون الإشادة بذكره، فيروون عنه الكرامات الكثيرة (والملفقة أحياناً)، فيُصادف ذلك قبولاً وارتياحاً عند البعض، ونفوراً وإعراضاً عند الآخرين".(١٩٠٦)

على أنَّ الدكتور نفسه لم يشك في ثبوتِ كرامةٍ من تلك التي ذكرها القُصَّاص والإخباريون عن أبي الحسن؛ يقول: "ومع قيام هذه المشكلة أمامي في وضوحٍ، فإنني لم أتردد قط أن أبدأ كتابي هذا –بعد المقدمة– بكرامة لأبي الحسن، وما شككتُ قط في ثبوتها، وما شككت قط في صحة النقل، ولم أجد في ضميري

١٩٠٥() انظر: قضية التصوف، المدرسة الشاذلية، عبد الحليم محمود (ص ١٦٣).

(١٩٠٦) انظر: قضية التصوف، المدرسة الشاذلية، عبد الحليم محمود (ص ١٦٣).

عتاباً، ولا في شعوري تراجعاً، ولا في ذوقي نفوراً، حقيقةً أني لم أنقل كل الكرامات، ولا أغلبها، ولكني نقلتُ منها ما رأيتُ له مناسبة في كتابي" .[١٩٠٧]

وعلى طريقة الشاذليَّة في الحديث عن الكرامات والعجائب، يُحدثنا الدكتور عبد الحليم عن تجربته فيها؛ فيقول: "وقد رأيتُ أنا خرق العادات بنفسي، وبعيني كما رويت سابقاً"، ويذكر لذلك كرامتين، يقول عنهما: "في فترة من الفترات ابتلاني الله بموضوعٍ شقَّ على نفسي، وعلى نفس المحيطين بي، واستمر الابتلاء مدة كنا نلجأ فيها إلى الله طالبين الفرج..

قال: وذات يومٍ حضر عندي بعض الصالحين، وأعطاني ورقةً كُتب عليها صيغةً من صيغ الصلاة على رسول الله ﷺ[١٩٠٨]، وقال: اقرأها، واستغرق فيها، وكرِّرها منفرداً في الليل، لعلَّ الله يجعلها سبباً في تفريج هذا البلاء، واعتكفت في غرفة بعد صلاة العشاء، وأضأتُ نور الغرفة، وأمسكتُ الورقة بيدي، وأخذتُ في تكرار الصيغة، واستغرقتُ فيها، وإذا بي أرى فجأةً أنَّ الحروف التي كتبتُ به الصيغة

(١٩٠٧) انظر: قضية التصوف، المدرسة الشاذلية، عبد الحليم محمود (ص ١٦٤).

(١٩٠٨) والصيغة هي: "اللهمَّ صلِّ صلاة جلال، وسلِّم سلام جمال، على حضرة حبيبك محمد، واغشه اللهم بنورك كما غشيته سحابة التجليات، فنظر إلى وجهك الكريم، وبحقيقة الحقائق كلَّم مولاه العظيم، الذي أعاذه من كل سوء، اللهم فرِّج كربي كما وعدت (أَمَّنْ يُجيبُ المضَّطر إذا دَعَاهُ ويَكشِفُ السُّوءَ)، وعلى آله وصحبه. آمين".

مضيئةً تتلألأ نوراً، ومع أنَّ الغرفة كانت مضيئة، فإنَّ الحروف كانت تتلألأ نوراً في وسط هذا النُّور، ولم أصدق عينيّ، فغمضتها وفتحتهما عدة مرات، فكان النُّور على ما هو، فوضعتُ الورقة أمامي، ووضعتُ يدي على عيني أدلكهما وأدعكهما، ثُمَّ فتحتُ عيني، فإذا بالحروف على ما هي عليه تتلألأ نوراً، وتُشعُّ سناءً، فحمدتُ الله، وعلمتُ أن أبواب الرحمةِ قد فُتحت، وأنَّ هذا النُّور رمزُ ذلك، وفعلاً أزال الله الكرب، وحقَّق الفرج بكرامة هذه الصيغة المباركة.

وأمرٌ آخر من خوارق العادات شاهدته بنفسي، في ذات صباح كنتُ جالساً في المنزل، في غرفة المكتب، كعادتي، وكنتُ في تلك اللحظة مطأطئ الرأس، ثُمَّ رفعتُ رأسي ناظراً أمامي، وإذا إنسانٌ أمامي، طويلٌ، أقربُ إلى النحافة منه إلى السمنة، يميل ونه إلى السمرة، وعلى رأسه شالٌ أبيضُ -الغطرة- وكان في وقفته منحنياً قليلاً، فأخذتُ في تأمله، ولم أشعر قط بخوفٍ أو فزع، وقد تأملتُ ملابسه أيضاً في تفاصيلها وشكلها، ولم يتحدَّث معي، ولم أتحدَّث معه، وأخذ يشفُّ شيئاً فشيئاً حتى اختفى! -ثم يتساءل ويقول- وماذا يكون خرق العادات غير هذا؟!".(١٩٠٩)

١٩٠٩() انظر: قضية التصوف، المدرسة الشاذلية، عبد الحليم محمود (ص ١٦٥- ١٦٦).

وقد أوصى الشاذليّ أتباعه باقتفاء آثار أبي العباس أحمد بن عمر المرسيّ (٦٨٦هـ/ ١٢٨٧م)؛ وقد جعله خليفته على الطريق من بعده، فكان أبو العباس امتداداً للشاذلي، ولسانه الناطق من بعده، وتلميذه الوفيُّ الذي لم يحد عن نهجه قيد شعرة، ولما مات الشاذلي، جاء الشيخ أبو العباس، فغسّله، وصلى الجميع عليه، ودُفن حيثُ توفاه الله (بحميثرة) على ساحل البحر الأحمر !.

وظهر أبو العباس من بعد الشاذلي ظهوراً عظيماً، وانتشرت كراماته بين الناس انتشاراً كبيراً، ومنها ما ذكره صاحب (درة الأسرار) أنَّ البحر لمَّا هاج وماج، أمره بالسكون والهدوء، فقال البحر وأصحابه يسمعون: الطاعة الطاعة !!.(١٩١٠)

وكان الشاذُليّ يوصي أصحابه بقراءة كتب الصُّوفيَّةِ القدماء، ويُحبِّبهم في أصحابها من أمثال: (ختم الأولياء) للحكيم الترمذي، و(القوت) لأبي طالب المكي، و(الإحياء)؛ للغزالي، ولكنه لم يستطع إخراج كتاب واحد في طريقة القوم!، ولما سُئل عن ذلك أجاب: "كُتبي أصحابي".(١٩١١)

١٩١٠() قضية التصوف، المدرسة الشاذلية، عبد الحليم محمود (ص ١٨٥).

١٩١١() قضية التصوف، المدرسة الشاذلية، عبد الحليم محمود (ص ٥٠).

ومن الظرافة المتناهية أنَّ تؤخذ رؤيا أبي العباس السابقة، على محمل الطرفة والدعابة، كما فعل الدكتور عبد الحليم محمود حينما اعتبر تلك الرؤيا إشارةً إلى محاولة أبي العباس أن يكون في وحدة واحدة مع الشاذلي، الأمر الذي لم يكن بهذه السهولة، فاحتاج إلى أن يثبت رجليه في الأرض، والتهيؤ لنزول شيء ما، كذلك هي إشارةٌ إلى أنَّ مقام أبي الحسن يحتاج إلى جهدٍ غير هيِّن، ولذلك قال عباةً في غاية الخطورة لمن تأملها؛ وهي: "أنَّ أبا الحسن هو امتدادٌ لأبي العباس في الماضي، وأبو العباس هو امتدادٌ لأبي الحسن بعد انتقاله".(١٩١٢)

يقول عبد الحليم محمود: "وقد كان للشيخ الشاذلي أولادٌ ذكور(١٩١٣)، فلم يفكر أن يستخلف أحدهم، وإنما استخلف من رآه أحقَّ بالخلافة، ونرجو أن يعتبر به رجال الطرق في العصر الراهن، فلا يجعلوا الطريقة مورد رزقٍ تُورَّثُ كما يورَّثُ العقار..".(١٩١٤)

١٩١٢() قضية التصوف، المدرسة الشاذلية (ص ١٧٨).

١٩١٣() وهم: شهاب الدين أحمد، وأبو الحسن علي، وأبو عبد الله شرف الدين، وله من البنات: زينب، وعريفة الخير. انظر: قضية التصوف، المدرسة الشاذلية، عبد الحليم محمود (ص ٣٩)، نقلاً عن درة الأسرار لابن الصباغ.

١٩١٤() قضية التصوف، المدرسة الشاذلية، عبد الحليم محمود (ص ٤٢)، نقلاً عن درة الأسرار لابن الصباغ.

ومضى أبو العباس المرسيّ في طريق شيخه أبي الحسن، وكأنَّه صورةٌ انبثقت عن مثيلتها في الصُّلب والإطار، وهو الذي بثَّ علوم الشيخ أبي الحسن، وكان أبو الحسن يُشيد به دوماً أمام أصحابه، كما أنَّ أبا العباس كثيراً ما كان يُشيد بشيخه أبي الحسن، فقال عنه مرةً: "هذا أبو العباس منذ نَفِذ إلى الله لم يُحجب عنه"، وقال مرةً لزكيِّ الدين الأسواني: "عليك بأبي العباس، فوالله ما من وليّ لله كان أو هو كائنٌ إلا وقد أطلعه الله عليه، يا زكيّ؛ أبو العباس هو الرجل الكامل"، ويقول عنه: "أبو العباس أعرف بطرق السماء منه بطرق الأرض".[١٩١٥]

وقد كثرت كرامات أبي العباس المرسيّ كثرةً مريبة، الأمر الذي دفعه لأن يقول: "والله ما جلستُ حتى جعلتُ جميع الكرامات تحت سجادتي"، ولا ندري أيُّ كرامةٍ تلك التي يأتي فيها أحمد البدويُّ ليبول على ساقيه، فلا يُمسي عليه المساء إلا وقد وصله بالله !.

ويبدو أن الدكتور عبد الحليم أعاد هذه الكرامة مرتين، مرةً عند ذكر كراماته، ومرةً عند ذكر شروط التربية والمربي، وهل هذه هي التربية يا دكتور؟!.

١٩١٥() قضية التصوف، المدرسة الشاذلية، عبد الحليم محمود (ص ١٧٦).

وقد خاض أبو العبَّاس المرسيَ محناً جمَّةً مع معاصريه من أدعياء النسب الشريف من الصُّوفيَّة (ويبدو أنَّه في هذه المرة كان صادقاً في انتسابه)، وقد زعم المتصوفة أنَّ شيخ الطريقة لا بُدَّ أن يكونَ شريفاً حسنياً أو حسينياً، ولم يكن المرسيّ كذلك!، فأعلن عن مذهبه في ذلك وقال: "لا يلزمُ القطب أن يكونَ شريفاً حسنيّاً، بل قد يكون من غير هذا القبيل"[١٩١٦].

ويذكر الدكتور عبد الحليم: أن أبا العباس المرسيّ انفرد عن غالب الصُّوفيَّة بكرامةٍ هي من الخطورة بمكان لمن تأملها، وهي تسليكه للفقهاء، في الوقت الذي كان الآخرون مشتغلون بتسليك عامَّة النَّاس (العوام)!.[١٩١٧]

واستطاع المرسيّ بدهائه ومكره أن يضُمَّ فقيهاً، كان له دوراً بارزاً في إحياء منطق التصوُّف وفلسفته الدينية، إنَّه ابن عطاء الله الإسكندراني (ت ٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م)، ومن الجدير بالذكر أنَّ ابن عطاء الله–وهو الفقيه المالكي–، كان من أشدِّ المنكرين على أبي العباس المرسيّ وأتباعه، فما الذي تغيَّر في حياته، وكيف حدث هذا التحوُّل المفاجئ تجاه التصوُّف عموماً، والشاذليَّة بالأخص، حتى مدحهم وسار في ركبهم في آخر الأمر ؟!.

(١٩١٦) لطائف المنن. وتأييد الحقيقة العلية؛ للسيوطي (ص ٤٤).

(١٩١٧) قضية التصوف، المدرسة الشاذلية، عبد الحليم محمود (ص ١٨٦).

وأخذ ابن عطاء الله يُجرِّد قلمه في الكتابة عن التصوُّف، مبادئه وغاياته، وكان أوَّل الأمر يريدُ إدخال الفقه في رُبط الصُّوفيَّة ومجالسهم، فاستنسخ لهم كتاب "التهذيب"؛ لأبيه (جمال الدين)، فاستحسن المرسيّ ذلك جداً، وأثنى عليه بما لا طاقة له به، ونفخه في عين نفسه، حتى بدا في ثوبٍ هو أكبر من حجمه، واستطاع المرسيّ أن يجعل من ابن عطاء قنبلةً فقهية ضدَ كل من يمسُّ بالتصوُّف وشيوخه، ولذا فقد كان ابن عطاء الله من ألدِّ أعداء شيخ الإسلام ابن تيمية، ولا عجب، فإنه من صنع الصُّوفيِّ الكبير (أبو العباس المرسيّ)، الذي قال له: "والله لأجعلنك عيناً من عيون الله، يقتدي به في العلم الظاهر والباطن"، وهذه العبارة تلخص كُلَّ ما قدمناه عنه آنفاً.(١٩١٨)

ويشتد عجبي من امرئٍ يُقال له: "لقد صبر رسول الله ﷺ على المشركين؛ لأنه يعلم أنَّه يخرج من أصلابهم من يوحد الله، كذلك صبرنا على جدِّك الفقيه – المالكي الكبير أبو محمد عبد الكريم بن عطاء الله الاسكندراني (ت ٦١٢هـ) – لأجل أن يقدم علينا مثلك أيها الفقيه!!".(١٩١٩)

(١٩١٨) قضية التصوف، المدرسة الشاذلية، عبد الحليم محمود (ص ١٩٥).

(١٩١٩) قضية التصوف، المدرسة الشاذلية، عبد الحليم محمود (ص ١٩٥).

وفي إحدى جلسات المرسي مع ابنه أبي عبد الله جمال الدِّين محمد، يُخبره بأنَّهم يُريدون أن يُصدِّروا ابن عطاء الله في الفقه؛ فكان جوابه: "هم يُصدِّرونه في الفقه، وأن أُصدِّرهُ في التصوُّف".[١٩٢٠]

وكانت بدايات تصوُّف الدكتور عبد الحليم في جامعة (السربون) الفرنسية، التي قدَّم فيها رسالة الدكتوراه، والتقى أثناء دراسته بصديقه الرُّوسيّ (بول ريفوليتي)، الذي طلب منه إيصال كتاب (صوفيَّة دانت) إلى الشيخ عبد الواحد يحيى في مصر !.. ولمَّا وصل إلى مصر استقبلته خادمة الشيخ (رينيه)، وأجلسته على كُرسيٍّ خشبي في الشارِع، لتنقل اعتذار الشيخ عن هذا اللقاء المفاجئ، ولكنَّ الدكتور لم ييأس، وزادت رغبته في لقاء هذا الشيخ ورؤيته..

وفي إحدى لقاءات الدكتور مع مدير البعثة الفرنسية (مسيو دي كوفيين)، قررَّ الأخير اصطحابه لزيارة الشيخ عبد الواحد يحيى، وكان قد أخبره بأنَّ الشيخ عبد الواحد يحيي إنما هو الفيلسوف والمستشرق الفرنسي (رينيه جينو)، فازداد عجبه لذلك .[١٩٢١]

(١٩٢٠) قضية التصوف، المدرسة الشاذلية، عبد الحليم محمود (ص ١٩٦).

(١٩٢١) قضية التصوف، المدرسة الشاذلية، عبد الحليم محمود (ص ٢٨١).

يقول الدكتور عبد الحليم عن شيخه في التصوُّف الأستاذ (رينيه جينو): "لقد كان يضمُّ بين جوانحه الإيمان الحار، والتواضع المثالي! وكان منقطعاً إلى المعرفة بمعناها الصُّوفيّ، ومتطلعاً إلى اختراق الحجب، وكشف القناع، ورفع المساتير، والوصول إلى الحق، ومَثَلهُ في ذلك مثل الإمام الغزالي الذي كان يبحث عن المعرفة منذ سنِّ العشرين، فكانت نهاية الغزالي ما قاله: لقد انفكت عني رابطة التقليد، وانكسرت عليَّ العقائد الموروثة، على قُرب عهدٍ بسنِّ الصبا".[١٩٢٢]

وكأنِّي بعبد الحليم يُردِّدُ القصيدة الصُّوفيَّة الشهيرة: "بحثتُ عنك !، ولكنِّي لم أستطع أن أجدك.. ناديتُكَ بصوتٍ عالٍ، وأنا واقفٌ على المئذنة.. قرعتُ الجرس النُحاسيَّ من أول النهار لآخره.. وسبحتُ في النَّهرِ ولكن سُدى!.. عدتُ من الكعبةِ خائباً.. بحثتُ عنك في الأرض.. بحثتُ عنك في السماوات أيُّها المعشوق.. وفي النهاية وجدتك مختبئاً كما الدُّرة.. في محارةِ قلبي".[١٩٢٣]

وكان لرينيه أنشطته الصُّوفيَّة في العالم العربي والإسلامي؛ فقد أصدر مجلة (المعرفة) الصُّوفيَّة، والتي كانت تُعني بإحياء مقالات محيي الدِّين بن عربي، ولكنها توقفت بعد ثلاث سنوات من إصدارها، وفي تلك الفترة كانت له اتصالاته مع

(١٩٢٢) قضية التصوف، المدرسة الشاذلية، عبد الحليم محمود (ص ٢٨٦، ٢٨٩).

(١٩٢٣) تعاليم المتصوفة، عنايت خان، تقديم د. إبراهيم إستانبولي (ص ١٤).

الشيخ عبد الرحمن عليش (شيخ الشاذلية في مصر)، وبعد فترة وجيزة عُيِّن أستاذاً للفلسفة في الجزائر، وله كتب كثيرة منها: (أزمة العالم الحديث)، و(الشرق والغرب)، و(رمزية الصليب)، وكانت أكثر كتاباته في المقارنة بين (التصوف الإسلامي، والتصوف المسيحي)، والجانب الحربي من الإسلام، والروحانية الحديثة، ولمَّا مات (جينو)، امتدحه القريب والبعيد، وأثنوا على آرائه وتجربته الفريدة في الفلسفة واللاهوت.[١٩٢٤]

وبقي أن نتساءل عن سبب مقنع دفع (رينيه) إلى التصوُّف؛ هل هو الإسلام الشرقي بآدابه وقيمه وأخلاقه، أم شعوره المرهف وإيمانه العميق في الحقيقة ؟!.. ولكن أين هي الحقيقة ؟، أفي الشرق هي أم في الغرب ؟، وهل هي في السماء أم في الأرض ؟... هكذا تساءل الدكتور بلسان رأسه، وبلسان حال (جينو)..

يقول الدكتور عبد الحليم محمود مُعبِّراً عن إعجابه بطريقة (رينيه): "أين الحقيقة ؟ سؤالٌ وجهه (رينيه جينو) إلى نفسه، كما وجهه من قبل إلى نفسه الإمام المحاسبي!، والإمام الغزالي، والإمام محيي الدين بن عربي، وكما وجهه من قبلهم عشرات المفكرين الذين أبوا أن يستنيموا للتقليد الأعمى.."[١٩٢٥] ، وإذا كانت

(١٩٢٤) قضية التصوف، المدرسة الشاذلية، عبد الحليم محمود (ص ٢٩٧).

(١٩٢٥) قضية التصوف، المدرسة الشاذلية، عبد الحليم محمود (ص ٣٠٣).

هذه الأفكار فلسفةً لا ديناً، وحيرةً لا اهتداءً، ودعوةً إلى رفض التقاليد الموروثة بما فيها (الأديان)، فلا يدَّعي أحدٌ –بعد ذلك– أن التصوُّف هو الإسلام ؟!..

وشيخٌ آخر للدكتور عبد الحليم (بعد عبد الواحد يحيى) هو الشيخ عبد الفتاح القاضي الحسنيُّ أباً، والحسينيُّ أماً !، ومن ثمَّ الشاذليِّ طريقةً[١٩٢٦] ، والذي تعرف عليه في القَطر، وبشَّره حينها بحجِّ ذلك العام، وهو ما حصل بالفعل !..

ويذكر الدكتور أنَّ الشيخ عبد الفتاح مكث في خلوته الصمدانية (سميت بذلك لامتناعه عن الطعام مدةً طويلة، تخلُّقاً بأخلاق الله ﷻ) ثلاثة أشهر، ومن ثمَّ خرج إلى الناس يدعو إلى التصوُّف[١٩٢٧]، وكان الشيخ عبد الفتاح يقول: "الأقطاب أربعة: البدويّ، والدُّسوقي، والرِّفاعيّ، والجيلانيّ، أما السيد البدوي فهو حيٌّ في قبره، يجلسُ ويضجعُ، ويُقابل جميع زواره !.. أما الدسوقي فهو من الأفراد الذين تركوا المقامات، فقد تولى الغوثية ثم زهد فيها، وتركها !..".[١٩٢٨]

وعلى قاعدة "الزمن كفيلٌ بتبيان الحقائق المراد إخفاؤها"، نقف على جماعة صوفيَّة غربية، ظهرت في العصور الوسطى، وهي الهيئة السريَّة المسماة

(١٩٢٦) قضية التصوف، المدرسة الشاذلية، عبد الحليم محمود (ص ٣٧٠).

(١٩٢٧) قضية التصوف، المدرسة الشاذلية، عبد الحليم محمود (ص ٣٧٤).

(١٩٢٨) قضية التصوف، المدرسة الشاذلية، عبد الحليم محمود (ص ٤١٠).

ب(أمناء الحُب)، أو (إخوان الوردة والصليب)، وكان أحد زعمائها الشاعر الإيطالي (دانتي)، والذي كثيراً ما كان يقتبس من كلام ابن عربي وآخرين، يقول الدكتور: "ويمكننا أن نصف هؤلاء بأنهم صوفيون غربيون، أو على الأقل صوفيون في درجات عالية.. والحقُّ أن هؤلاء كانوا حلقة اتصال بين الشرق والغرب، وكانوا على اتصال مباشر بالصوفيين المسلمين، وقد كان ذلك الاتصال يستتر وراء رحلات مؤسسهم الخيالي".[١٩٢٩]

٨. الطريقة السهروردية:

وهي الطريقة المنسوبة لأبي نجيب عبد القاهر السهرورديّ (ت **٥٦٣هـ/ ١١٦٨م**)، ويرجع نسبه إلى بكر الصديق رضي الله عنه، وهو صاحب "حكمة الإشراق"، والذي ترك سهرورد شاباً سنة (**٥٠٧** هـ)، وكان تصوَّف على يد الشِّيخ الصُّوفي أحمد الغزالي (خليفة أخيه أبو حامد الغزالي على المدرسة النظَّاميَّة)، وقد بنى زاويةً له في قرية على أطلال نهر دجلة (والذي أصبح مكاناً للجوء والاحتماء!)، وبعد أن حاكمه صلاح الدين الأيوبي، بتهمة الكفر والزندقة بعد أن كان مُدرِّساً في النظَّاميَّة، وقد شُنق في حلب، وكذا قُتل أخيه (قاضي سهرورد!) أبو جعفر

(١٩٢٩) قضية التصوف، المدرسة الشاذلية، عبد الحليم محمود (ص ٣١٤)، نقلاً عن رينيه جينو في كتابه (الشرق والغرب).

السهرورديُّ وكان صوفيّاً حَنِقاً، بعد أن أمر أتباعه بقتل أحد المنكرين عليه، فانتقم أولياء القتيل من أبي جعفر السهرورديُّ، وفتكوا به (قتلوه!)، وقامت العوام على قتلة أبي جعفر فقتلوهم!، وقامت بسبب ذلك فتنة كبيرة، وأمسك السلطان أربعةً من العوام (أتباع أبي جعفر السهروردي) وصلبهم حتَّى سكنت الفتنة!، وفي هذه الآونة أظهر أبو نجيب تمرُّده على السلطان، وهدَّد بتركه التصوُّف (وإثارة أتباعه) إن لم يسترضه السلطان !.

وتطورت طريقته على يد ابن أخيه شهاب الدين! أبي حفص عمر بن محمد بن عبد الله السهروردي (ت ٦١٢هـ/ ١٢٣٤م)[١٩٣٠]، الذي أدرك حقيقة الصحبة مع الأمراء، فكانت علاقته مع الخليفة الناصر لدين الله قويَّة، وكان للخليفة نظرة عميقة في فهم نفوذ وتأثير شيوخ الطرق على النَّاس في تلك الحقبة، فأظهر عطفاً كبيراً على شهاب السهروردي، واستعمله كسفير بينه وبين علاء الدين كايقوباد الأول (والي سلجوقي على قونية)، وسفيراً إلى الملك العادل الأيوبي، والشاه الخوارزمي، وقد بنى الناصر لدين الله رباطاً له بجوار القصر!، وكان مرجعاً عامَّاً

(١٩٣٠) هو أبو حفص عمر بن محمد بن عبد الله بن محمد القرشي التيمي البكري السهروردي الصوفي البغدادي، أثنى عليه الذهبي، وهو صاحب عوارف المعارف –من مصادر الصوفية– وصحب الشيخ عبد القادر قليلاً، وأملى في آخر حياته كتاباً في الرد على الفلاسفة، وكان مجلس وعظه كبيراً، مات سنة (٦١٢هـ).

لأهل الطرق الصُّوفيَّة في مناطق مختفة في تلك الحقبة، ويمكن اعتباره صاحب (سلطة السهروردية)! [١٩٣١] .

وقد نقل شيخ الإسلام ابن تيمية ما جرى بين الاتحادي ابن عربي وأبو حفص السهروردي، فقال: وحدَّثونا أنه جرى بين ابن عربي وأبو حفص السهروردي تنازع، في: هل يمكن مخاطبة الحق لعبده كل وقت تجلى له فيه أم لا ؟

فقال أبو حفص السهروردي: نعم يمكن ذلك!. وقال ابن عربي: لا يمكن ذلك! فقيل لابن عربي: إن السهروردي يقول كذا وكذا، فقال: مسكين!! نحن تكلمنا في مشاهدة الذات، وهو يتكلم في مشاهدة الصفات [١٩٣٢].

والصُّوفيون يُفضلون ابن عربي على السهروردي، مع إقرارهم أن السهروردي أقرب إلى السُّنّة من نظيره الطائي، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: حدثني الشيخ الملقب بحسام الدين القادم علينا، السالك طريقة ابن حمويه [١٩٣٣]، الذي يُلقب

(١٩٣١) الطرق الصوفية في الإسلام، سبنسر ترمنجهام (ص ٦٨).

(١٩٣٢) الإيمان الأوسط لابن تيمية (ص ٥٠٩).

(١٩٣٣) هو أبو عبد الله محمد بن حمويه بن محمد الجويني الصوفي، شيخ الصوفية في خراسان، نعته الذهبي بالإمام العارف، وله في التصوف تأليف، قرأ الفقه والأصول على إمام الحرمين الجويني، وله من المؤلفات "لطائف الأذهان في تفسير القرآن"، و"سلوة الطالبين في سير سيد المرسلين"،

بسلطان الأقطاب عند أصحابه، وكان عنده من التعظيم لابن عربي وابن حمويه والغلو فيهما أمر عظيم، فبيَّنتُ له كثيراً مما يشتمل عليه كلامهما من الفساد والإلحاد، والأحاديث المكذوبة على النَّبيِّ ﷺ، وجرى في ذلك فصول لما كان عنده من التعظيم مع عدم فهم حقيقة أوالهما، وما تضمنته من الضلالات.

ويمكن اعتبار الشهاب السهرورديّ هو أحد مُجدِّدي التصوُّف في القرن السادس، وهو في مقام أبو حامد الغزالي في القرن الخامس، فجمع بين ثقة السلطان وتقديره، والتأثير الكبير في العامَّة والناس، ما أدي إلى استقرار المملكة والسلطان!، وكان لازماً على أهل الفقه والحديث (في تلك الحقبة) أن ينخرطوا في مسلك المتصوفة، وعلى الأقل عدم التعرُّض لتلك الطرق بسوء، وإلا لن يجدوا لهم مكاناً آمناً في دولة السلطان، فكان فقهاء السَّلف يدارون هؤلاء، ولكن لا يداهنونهم، فالإمام الكبير محمد بن أحمد القسطلاني (ت ٦٨٦هـ/ ١٢٨٧م)، كان يُثني على مدرسة التقليديين (الخالية من الشطحات!) كمدرسة السهروردي والشاذلي، بعد أن طُرد من مكة (بسبب مهاجمته لابن سبيعن الفيلسوف الغنوصي،

وغيرهما، مات سنة (٥٣٠هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (١٩/ ٥٩٧)، والعبر (٤/ ٨٣)، والوافي بالوفيات (٣/ ٢٧).

وطريقته السبعينية)، ومن ثمَّ استقرَّ بالقاهرة، بعد أن ألَّف كتابه "اقتداء الغافل بالعاقل" في التصوُّف، وولاه الظاهر بيبرس رئاسة دار الحديث الكامليَّة !.

المبحث الخامس

الطرق الصُّوفيَّة في القرن الثامن والتاسع الهجريين

لقد دخلت الطرق الصوفية مرحلة جديدة في القرن الثامن الهجري، وذلك من خلال استغلال فكرة المهدي لدعم حركاتهم الصوفية، وتطويرها إلى حركة سياسية تستهدف الوصول إلى الحكم، وإقامة نظام صوفي بنظام الحياة المادية، ومن هذه الطرق:

(١) الطريقة البكتاشيَّة:

وهي الطريقة التي أسسها الحاج بكتاش ولي (ت ٧٣٨هـ)، وهي من الطرق التي اختلط فيها التصوُّف بالتشيُّع، ولها انتشار واسع في تركيا ومصر والمغرب.

(٢) التجانيَّة:

وهي المنسوبة إلى أحمد التجَّاني (ت ١٢٣٠هـ)، وهي منتشرة بقوة في إفريقية، وموريتانيا، وتشاد، والسودان، وألَّف الدكتور تقي الدين الهلالي كتاباً سماه (الهدية الهادية إلى الطائفة التيجانية) بيَّن فيه عجائب وغرائب هذه الطريقة المنحرفة، وكان رحمه الله واحداً منهم ثم تاب عنهم.

وقد قدمت الطائفة التيجانية نموذجاً سيئاً في دعم الاستعمار الفرنسي في أفريقية، حيث يقول الدكتور عبد الله عبد الرزاق إبراهيم: "ولقد ساعد أيضاً على انتشار هذه الطريقة (التجانية) قيام إدارة الإدارة الاستعمارية بتشجيع رجال الطرق الصُّوفية، وخصوصاً الطريقة التيجانية، وكان هذا التشجيع بالمال والنفوذ، وذلك من أجل تشويه صورة الدين الإسلامي عن طريق نشر البدع والخرافات" (١٩٣٤).

(٣) الطريقة النقشبندية:

وكانت تُسمَّى بـ"الخواجاتيَّة"، وهي تدين ليوسف الحمداني (ت ١١٤٠م)، وتلميذه عبد الخالق الخواجاتي (ت ١٢٢٠م)، ولكنها ارتبطت في النهاية باسم محمد بهاء الدين النقشبندي (ت ٧٩١هـ/ ١٣٩٠هـ) تلميذ الأخير، وتنتشر هذه الطريقة في مناطق مختلفة من آسيا الوسطى، في الهند وتركستان، والصين، وماليزيا، وتركيا، وأصبحت عنصراً مؤثراً في الجنسيَّة الكرديَّة، وكان لها كلمتها في البلاط التيموريِّ، وأصبحت ذات طابع سياسيٍّ قويٍّ جداً، وينتمي لهذه الطريقة الجاميّ، صاحب "نفحات الأنس"، ولم يكن لها نَفَسٌ في العالم العربيّ !.

(١٩٣٤) الطرق الصوفية في أفريقية، د. عبد الله عبد الرزاق (ص ٦٥).

(٤) النوربخشية الإيرانية، المنسوبة إلى محمد بن عبد الله الأحسائي الملقب بنوربخش (ت٨٦٩هـ/١٤٦٤م)، وكان عربياً علوياً هاجر أبوه من الأحساء، وكان مدار دعوته على أنه المهدي المنتظر الذي يؤمن به الصوفية بوصفه خاتم الأولياء، وقد اعتمدت طريقته على منهج إشراقي واضح مطعم بالأفكار الفلسفية والكلامية.

– ومن الحركات الصوفية القائمة على فكرة المهدي المنتظر الثورة التي قام بها محمد بن فلاح الموسوي الواسطي في منتصف القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي)، واعتمدت طريقته على الأفكار الصوفية في خاتم الأولياء، والإنسان الكامل، بالإضافة إلى عقائد شيعية غالية مثل اعتقادهم في حلول روح علي بن أبي طالب باعتباره ممثلاً للقوة الإلهية، في زعماء هذه الطريقة التي قضت عليها الدولة الصفوية في بداية القرن العاشر الهجري .[١٩٣٥]

– أحمد بن يوسف بن راشد (شيخ الطريقة الراشديَّة الشاذليَّة، والذي أطلق عليه بسطاميُّ القرن العاشر، ت ٩٣١هـ/ ١٥٢٤م)، الذي أخذ طريقته عن أحمد بن زروق الفاسي (أحد مجددي القرن الثامن)، وتأثر بطريقة أبي يزيد البسطامي في

(١٩٣٥) صفحات مكثفة من تاريخ التصوف (ص ١٧٧).

الشطح!، والذي اكتسب المهديَّة من رسول الله ﷺ، الذي أخبره في رؤيا مناميَّة: أنَّه سلطان الوقت، ومن ثمَّ أصبح فارس العقبة، والغوث الأعظم، والقطب .[١٩٣٦]

وقد لعب أحمد بن يوسف دوراً مهماً في نصرة الأتراك على حكم بني زيان والأسبانيين، وتخليص تلمسان من أيديهم، وكان يقول: "زاويتنا هذه كسفينة نوح من دخلها فهو آمن!"، ومع ذلك فلم يسلم من القهر الذي امتحن به على أيدي فقهاء القرن العاشر (السادس عشر الميلادي) بالمغرب أيام الوطاسيين في عهد السلطان محمد الوطاسي البرتغالي (٩١١- ٩٣١هـ/ ١٥٠٥- ١٥٢٤م)، وتم القضاء على هذه الطريقة في عهد المولى إسماعيل (١١٠٢هـ/ ١٦٩١م).[١٩٣٧]

وإذا كانت سيرته تلمح إلى اعتقاد المحبين في كونه المبعوث بالعدل، فإنها قد صرحت كذلك بأن المبغضين له قد وصفوه بالدجال الممخرق [١٩٣٨] ، وله شطحات كفرية، يقول فيها: "أنا جالس في حجر ربِّي"، "أنا هو وهو أنا"، "لولا خوفي من أن أُعبد من دون الله لأظهرت لكم الحقَّ عياناً"، و"أنا رسول".[١٩٣٩]

(١٩٣٦) التصوف والبدعة في المغرب، عبد الله نجمي (ص ٦٧، ١٠٦).

(١٩٣٧) التصوف والبدعة في المغرب، عبد الله نجمي (ص ٢٢٧، ٣٢٠).

(١٩٣٨) البستان، الصباغ (ص ١٠٧).

(١٩٣٩) البستان، الصباغ (ص ٢٢٠- ٢٤٢، ٦٤).

- أحمد بن عبد الله بن المنزول، شيخ الطريقة (اليوسفية) وهو تلميذ الراشدي، والذي زعم أنَّه رسول الله [١٩٤٠]، وأباح لأتباعه المحرمات كالزنا[١٩٤١]، والخمر، وأكل لحم الخنزير، وترك الفرائض والواجبات، وكان ذلك في القرن الحادي عشر الهجري (السابع عشر الميلادي)، الذي كان التصوُّف يدلي بدلوه في الحوادث والصراعات، وفي الوقت الذي تفرقت فيه السلطة في المغرب إلى دويلات وإمارات صوفيَّة، إبان وفاة السلطان أحمد المنصور (ت ١٠١٢هـ/ ١٦٠٣م) وتلاشي السلطة المركزية للدولة، ولم تحقن حروبها دماء المسلمين، ولا حرمت أموالهم وأعراضهم!.

(١٩٤٠) التصوف والبدعة في المغرب، عبد الله نجمي (ص ٣٣٦- ٣٥١).

(١٩٤١) ويبيحون الزنا ليلة واحدة في السَّنة، مع اختلافهم في توصيفها وتسميتها؛ فيسمونها (ليلة الغلطة)، أو (الخلطة)، أو (الربطة)، أو (ليلة الكهف)، أو (ليلة الفتيلة).

وتجتمع القبائل الزكراوية لممارسة الفاحشة ليلة الأحد والخميس الأولين من كل شهر، ويسمونها ليلة الغلطة.

أما قبائل بني محسن (المحسانيون)، فيفعلون ذلك في نهاية خريف كل عام، ويسمونها ليلة الكهف. وقبائل الغنانمة، تسميها ليلة الفتيلة. وعند الملاينة تسمى ليلة الربطة.

انظر المصدر السابق نفسه (ص ٣٥٢- ٣٥٤).

– أحمد بن عبد الله السلجماسي العباسي الفلالي الصُّوفي (١٠٢٢ هـ/ ١٦١٣ م)، صاحب (الأرجوزة المهدويَّة)، ادعى أنه المهدي المنتظر[١٩٤٢]، وكان يقول لأصحابه: "أنتم أفضل من أصحاب النبي ﷺ؛ لأنكم قمتم بنصر الحق في زمن الباطل وهم قاموا به في زمن الحق!"، وزحف إلى سجلماسة فاستولى عليها بعد قتال سقط فيه من سقط من الأبرياء، ونسي النسك والتصوف، فهاجمه متصوف آخر اسمه يحيى بن عبد الله الحاحي، انتصارا للسلطان زيدان بن أحمد، وحصلت المعركة على أبوب مراكش وأصيب ابن محلى الصُّوفي برصاصة قتلته، [١٩٤٣].

– وكان خاتمتها الحركة المهدية في السودان التي قادها الصوفي العلوي محمد بن أحمد بن عبد الله (ت١٣٠٣هـ/١٨٨٥م) في نهاية القرن الثالث عشر الهجري (التاسع عشر الميلادي)، تلميذ أحمد بن إدريس الصُّوفي، فجعل من نفسه مجدداً على رأس القرن، وادَّعى المهدية في العام (١٨٨١م)، وعلى الرغم من فكرته البلهاء، إلا أنه استطاع تحرير السودان من الاستعمار، وأقام دولة سودانية وطنية، وقام بإصلاحات شتى في ميادين الحياة السودانية [١٩٤٤].

(١٩٤٢) التصوف والبدعة في المغرب، عبد الله نجمي (ص ٢٩٣).
(١٩٤٣) الأعلام، للزركلي (١/ ١٦٠– ١٦١).
(١٩٤٤) صفحات مكثفة من تاريخ التصوف (ص ٢٢).

وعلى اختلاف هذه الطرق وتباينها إلا أنها تتفق في جملتها –إلى ما فطن إليه المستشرق نيكلسون –إلى الآتي:

١. الاحتفال بدخول المريد في الطريقة عن طريق طقوس معينة، قد تتشابه وقد تختلف من طريق لأخرى، وتتضمن إعطاء الولاء والبيعة، ولبس الخرقة، وربما تكون المراسم هي لبس التاج (طاقية الدراويش) وأغطية الرأس، التي تختلف من طريقة لأخرى، وكذلك عدد أجزائها (التي تشير إلى أحد الأئمة الاثني عشر، عشرة، أو سبعة، أو تسعة)، وقد يتطلب من المريد إمضاء وقت شاق قبل الدخول فيها، حتَّى أنَّه إذا أراد أن يأخذ (الخرقة) من شيخ يسكن بعيداً، فعليه أن يأخذ معه عصا ووعاء التسول.

٢. التزيي بزيٍّ خاص.

٣. اجتياز المريد مرحلة شاقة من المجاهدات والرياضات الروحية، سواءً كانت مشروعة أو ممنوعة، وأشهرها المكوث في الخلوة (**Chilla**، تشيلا بالفارسيَّة) مدة من الزمن مع المواظبة على أذكار وتسابيح معينة، والأصل في الخلوة أنها في أيِّ مكان غير المسجد، وربما كانت فيه، وأقلها عشرة أيام، وأوسطها ثلاثون، أو

أربعون يوماً، وأكثرها لا حدَّ له، وهي للكامل زيادةٌ في حاله، ولغيره (أي: المريد السالك) ترقية، ولها فتوحٌ عظيمة، وهي بغير شيخٍ مخطرة!.[(١٩٤٥)]

٤. الذكر الجماعي (الحضرة)، الذي يحضره النَّبيُّ ﷺ بنفسه!، مع الاستعانة بالموسيقى، أو الحركات البدنية المختلفة التي تساعد على الوجدان وإرهاف الحس!.

٥. الاعتقاد في القوى الروحية الخارقة للعادة التي تصدر عن المشتركين في الذكر، سواءً كانت من قبيل الشعوذة والسحر فيما يظهر، أو الإخبار بالمغيبيات كما يفعل الشيخ!.

٦. تقديس الشيخ أو الولي الصوفي (باعتباره القبلة التي يسعى المريد للإتحاد به!)، وطاعته طاعة عمياء في كل ما بصدر عنه من الأوامر.

ويقسِّم الصوفيون السالكين إلى أربعة أقسام[(١٩٤٦)]:

(١) السالك المجرد، وهو غير مؤهل للمشيخة، ولا يبلغها.

(١٩٤٥) قواعد التصوف، أحمد زروق (ص ٤٧، ١٥١).

(١٩٤٦) تاريخ فلاسفة الإسلام، محمد لطفي جمعة (ص ٢٧٨- ٢٧٩).

(٢) المجذوب المجرد، لا يؤهل للمشيخة.

(٣) السالك المتدارك بالجذبة؛ وهو مؤهل للمشيخة.

(٤) المجذوب المتدارك بالسلوك، هو صاحب المقام التام في المشيخة.

وقد وجد المتصوفة في العصر الحاضر أنَّه من المفيد صياغة بعض التعاليم المقبولة للتصوُّف لتكون عنواناً مرشداً للتصوُّف (المعتدل!)، وكشف ذلك لجزء من المثقفين،

وفي الحقيقة أنَّ التصوُّف لم يكن ليخفي وجهه الحقيقي لولا أن ستره أصحابه بلباس التقوى، وكما قال الجنيد: "صاحبنا في هذا الأمر المُشار إليه من الحقائق هو عليٌّ بن أبي طالب". ولما سُئل عن عليٍّ بن أبي طالبٍ، قال: أمير المؤمنين عليه السلام، لو تفرَّغ إلينا من الحروب لنُقل عنه إلينا من هذا العلم ما تقوم له القلوب، ذاك امرؤٌ أُعطي العلم اللَّدُّنيّ.[١٩٤٧]

(١٩٤٧) شكوى الغريب (ص ١٩).

وقد حاول الصُّوفيَّة تحريف معاني الأحاديث النبويَّة، وليِّ أعناقِ الآيات، لتكون شهودَ زورٍ على نظرياتهم الفلسفية، وأفكارهم المنحرفة، ما يجعلها تتصادم مع بدهيات الدين، وأساسيات العقيدة.

وقد وصل التصوُّف في هذه المرحلة إلى شبه اتفاق بين الفقهاء والصُّوفيَّة على أن يُمارس كُلٌّ دوره دون معارضة أو منافرة، فكان الشعار القائم "نحن نحليهم في الباطن، وأنتم تحلونهم في الظاهر!".

كان تعظيم أولياء الصُّوفيَّة الأوائل هي سمة الفقهاء البارزة حتَّى بدايات القرن الثاني عشر الهجري، فقد حكي الفقيه خير الدين الرملي (ت ١١١٣هـ/ ١٧٠١م) أنَّ بعض المنكرين على ابن عربي وابن الفارض، رأى القيامة قد قامت، ونصبت أوانٍ كبيرةٍ فيها ماءٌ شديد الغليان، وجيء بجماعةٍ فسلقوا فيها، حتّى تهرئ اللحم والعظم، فقال: ما هؤلاء؟، فقيل له: هؤلاء الذين ينكرون على ابن العربي وابن الفارض.(١٩٤٨)

ويزعم الصوفيون أنَّ أحمد زروق (ت ٨٩٩هـ/ ١٤٩٣م)، وهو أحد الذين انفردوا بجودة التصنيف في التصوف، أنَّه أخذ تصوُّفه عن شمس الدين محمد

(١٩٤٨) جمع المقال، أحمد فريد المزيدي (ص ٢٤).

السخاويّ، فإذا راجعنا أسانيد الشيخ زروق، فإننا لا نعثر فيها على أيِّ أثرٍ للسَّخاويّ، الأمر الذي يقطع بأن زروقاً هذا، لم يسلكه قط ضمن شيوخه في علم الباطن، بل لم يعُدَّه على الإطلاق من زمرتهم، أما عن طبيعة علاقته به، فكما يُصرِّح أحمد زروق بأن مجالها كان العلم الظاهر فقط!.(١٩٤٩)

وهو ما وجدناه صريحاً في ترجمة العلم السَّخاويّ لتلميذه زروق، حيث يقول فيه: "وقرأ عليَّ بلوغ المرام، وبحث عليَّ في الاصطلاح بقراءته، ولازمني في أشياء"(١٩٥٠)، فما هو رأي مؤرخي التصُّوف المغربي في هذا السند المنقطع، والمثبت في جملةٍ وافرةٍ من تآليف الشيخ زروق، والذي يتناقض في ظاهره مع ما قطع به زروق من عم اعتماده على شيخه السَّخاويّ في تصوفه!.

حتَّى أنَّ أبو حامد محمد العربي الفاسي (ت ١٠٥٢هـ/ ١٦٤٢م)، انتقد هذا السند في مقدمته لشرح الحكم؛ فقال: "وما ذكره زروق من روايته لحكم ابن عطاء الله، عن شمس الدين السخاوي بسنده، فليس من أسانيد القوم في وردٍ ولا صدر، وإنما هي روايةٌ محضة على العادة في رواية الكتب، ويروي السَّخاوي كتب ابن عطاء إجازة، ولفظه: أخبرني بها شمس الدين السخاوي بداره بالقاهرة، سنة

(١٩٤٩) التصوف والبدعة في المغرب، عبد الله نجمي (ص ١١٨).

(١٩٥٠) الضوء اللامع، للسخاويّ (ص ٢٢٢).

ست وسبعين وثمانمئة، قال: أخبرني بها إجازة من بيت المقدس أبو زيد عبد الرحمن القبابي، بإجازته من تقي الدين أبي الحسن علي بن عبد الكافي السبكي، عن مؤلفها التاج ابن عطاء".[١٩٥١]

١٩٥١() مرآة الزمان، العربي الفاسي (ص ١٩٣).

المبحث السادس

الطرق الصُّوفية من القرن العاشر وحتى القرن الثالث عشر

(١) البكدائيَّة:

وهي التي ينتمي إليها الأتراك العثمانيون[١٩٥٢]، وهي في ألبانيا الآن، وهي أقرب إلى التصوُّف الشيعي.

(٢) الميرغنية (الختميَّة):

وهي المنسوبة إلى محمد عثمان بن محمد أبو بكر بن عبد الله الميرغني المحجوب (ت ١٢٦٨هـ)، وسمى ربقته الختمية إشارةً إلى أنه ختم الأولياء! وتُسمى هذه الطريقة (الميرغنية)، ولهم انتشار واسع في السودان، ولهذا المؤسس افتراءات على الله جلَّ وعلا، وعلى رسوله ﷺ؛ كبقية الصوفية، وهو القائل: "إم من رآني، ورأى من رآني إلى خمية لا تمسُّه النَّار".

(١٩٥٢) الأتراك: اشراهم الخليفة العباسي المعتصم سنة ٢٢٠ هـ، من سمرقند وفرغانة، وبذل فيهم الأموال، وألبسهم أنواع الديباج، ومناطق الذهب، وأمعن في شرائهم حتى بلغت عدتهم ثمانية آلاف مملوك، وقيل: ثمانية عشر ألفاً، وهو الأشهر. انظر: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة؛ لأبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي (ت ٨١٣هـ) (٢/ ٣٣٣).

(٣) الخلوتية:

وهي المنسوبة إلى محمد الخلوتي.

(٤) الصديقية:

وهي المنسوبة إلى أبي بكر بن هواري.

(٥) والجهرية:

نسبة إلى الخواجة أحمد السيوي؛ سميت ذلك لكونها تقوم على الجهر بالذكر.

(٦) البرهانية:

نسبة إلى برهان، وهي أيضاً تقوم على الجهر بالذكر، ولبس الزي الأخضر.

(٧) والعدروسيَّة:

وهي المنسوبة إلى عبد الله بن عيدروس.

(٨) البريولية:

أسسها أحمد رضا خان بن تقس علي خان، وسمى نفسه عبد المصطفى (ت ١٣٤٠هـ)، وتنسب إلى بلد ولادة المؤسس هي (بريلي)، ولديهم عقائد كفرية منها الغلو في الأنبياء، وفي النبي محمد ﷺ خاصَّة، ويكفرون عموم المسلمين الذين يُخالفونهم.

وغيرها الكثير في العالم العربي والإسلامي.(١٩٥٣)

(١٩٥٣) انظر: الحياة الروحية في الإسلام، د. محمد مصطفى حلمي (ص ١٣٤، ١٩٢-١٩٣). ودراسة في الطرق الصوفية، د. محمد عقيل المهدلي (ص ١٦). والطرق الصوفية، د. عامر النجار (ص ٢٥). والكشف عن حقيقة الصوفية (ص ٣٥٣- ٣٧٦).

المبحث السابع

أبرز الطُّرق الصُّوفية المعاصرة

ترجع معظم الطرق الموجودة اليوم إلى طرق أصول، وهذه الطرق تفرعت عنها، وبين هذه الطرق الفرعية تداخل وتشابك في سلسلة السند، وتشابه في طريقة التلقي والسلوك والصفات، ونحو ذلك.

وقد توالى ظهور طرق صوفية جديدة، يعجز الإنسان عن حصرها، في مصر والسودان، وبلاد المغرب، وغيرها من بقاع العالم الإسلامي، وحتَّى في دول أوروبا، واللائحة الرسمية لطرق الصوفية بمصر الصادرة عام (١٣٢٣هـ) تُجوِّز زيادة طرق جديدة متى كانت لا تُشابه طريقةً من الطرق الموجودة في اسمها أو اصطلاحها، وبلغ عدد الطرق عام (١٣٢٣هـ) بمصر ٣٢ طريقة، وفي العام (١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م) ٦٧ طريقة، وحتى عام (١٤١٠هـ) بلغ عددها ٧٢ طريقة، هذا غير الطرق التي لم يُعترف بها رسمياً، وهي كثيرةٌ جداً (١٩٥٤).

ولم يعقم الزمان عن كثيرين ممن لبسوا الحقَّ بالباطل، وافسدوا على الناس دينهم وتوحيدهم لله تبارك وتعالى، من أمثال الدكتور عمر عبد الله كامل في كتابه

(١٩٥٤) انظر: الفكر الصوفي المعاصر، للقشعمي (ص ٢٢١، ٢٣٧، ٣٧٤ –٣٧٥).

(التصوف بين الإفراط والتفريط)، الذي قرَّر فيه الشرك الصُّوفي، بأنواعه، فأجاز طلب المدد من الأولياء والمشايخ، وأثنى على غلاة الاتحادية، ودافع عنهم!.

وكرَّر مقولة أغبياء المتصوفة، اللذين قالوا: إن هذه الشطحات المنقولة عن هؤلاء مدسوسة عليهم!! والعجب الذي لا ينقضي أنهم يعيدون طباعة هذه الكتب التي دُسَّ فيها الكفر والشرك والبدعة، ثُمَّ يوزعون تلك الكتب ويمدحون أصحابها! وتلك أماراتٌ قد جعلها الله سبحانه وتعالى دلائل واضحة على خبث هذه الطائفة، واستمرائها للباطل واستساغتها له!.

ومن هؤلاء أيضاً محمد بن علوي المالكي، صاحب كتاب (الذخائر المحمديَّة)، وقد ضمَّنه أموراً منكرة، منها: أنه نسب لرسول الله ﷺ صفات هي من خصائص الله تعالى؛ كقوله : بأن لرسول الله مقاليد السموات والأرض، وأن له أن يُقطِعَ الجنَّة، وأنَّه يعلم الغيب والروح، ويعلم الأمور الخمسة التي اختصَّ الله بعلمها، وأنَّ الخلق خُلقوا لأجله، وغير ذلك من الأمور المنكرة.

وقد تولَّى الرَّد عليه في هذه الانحرافات الشيخ عبد الله بن منيع في كتابه (حوار مع المالكي)، فنَّد فيه شُبَهه، وردَّ على منكراته وضلالاته.(١٩٥٥)

(١٩٥٥) نشأة بدع الصوفية، د. فهد الفهيد (ص ٢٨– ٢٩).

ومن هؤلاء أيضاً محمد عثمان عبده البرهاني السوداني، صاحب كتاب (تبرئة الذمة بنصح الأمة)، وهو والله! جدير بأن يوصف كتابه بـ"خيانة الذمة بغش الأمة"، والذي يقول فيه: "وإني أرى أن الشيخ الحلاج رضوان الله تعالى عليه لم يأتِ ببدعة عندما قال: ما في الجبة إلا الله!".(١٩٥٦)

ومن هؤلاء عبد المحمود نور الدائم، في كتابه (الضياء اللائح في مناقب القطب الواضح)، والذي طُبع في السودان تحت مُسمَّى رابطة شباب السُّمانيَّة، يذكر فيه من الشرك والغلو والباطل الشيء الكثير، ويذكر فضل رؤية شيخهم الذي يعبدونه! وعندهم أن من رآه سبع مرات لم تمسه النَّار! وينسب هذا الكذب والإفك العظيم إلى رسول الله ﷺ .(١٩٥٧)

أمَّا دعوى أنَّ الصوفيَّة حركةٌ جهاديَّة ساهمت في طرد الاحتلال الأجنبي من بلاد المسلمين، فلا نُسلِّمُ له مطلقاً، ففي الوقت الذي قاومت بعض تلك الطرق الاحتلال، كانت طرقٌ صوفيَّة أخرى غارقة في بحر العمالة والتبعية للأجنبي!، حتَّى

(١٩٥٦) تبرئة الذمة بنصح الأمة (ص ٢٧٤- ٢٧٦).

(١٩٥٧) الضياء اللائح (ص ٢٧).

سخَّر الغازي بعضها في مواجهة البعض الآخر منها، بل إنَّ سياسات الدولة العثمانيَّة كانت تفضي إلى استعمال المحاباة والعطف، واستغلال الفرق الأكثر نفوذاً ضد بعضهم البعض؛ لبسط السيطرة والسيادة..!.

يقول أحد المؤرخين المعاصرين: "إن الحكومة الفرنسية تمكنت من استجلاب الطرقيَّة إلى جانبها؛ تمدها بالمساعدات وتحميها، فكان من الطبيعي أن تصبح خدمة الطُّرقيَّة هي خدمة للاستعمار أيضاً!".(١٩٥٨)

ومن مظاهر التضحية الصُّوفيَّة في سبيل الاستعمار الفرنسي، رسالة موجهة من شيخ الطريقة القادريَّة بالوادي، يوجهها إلى الشعب الجزائري، يُطالبه فيها بالانضمام للجيش الفرنسي، أو بتقديم العون المادي للمجهود الحربي، ويقول فيها: "وها أنا فردٌ منكم أُقدِّم نفسي، بإخلاص، لدفع إعانة مالية، عوضاً عن عجز صحتي البدنية، قدرها عشرة آلاف فرنك!"(١٩٥٩) .

وإن قاومت طائفة مُعيَّنة (لأنها شعرت بالخطر المحدق حولها!)، فقد تخاذلت طرقٌ أخرى كثيرة، ضمن المنظومة الصُّوفيَّة المتناغمة (مع الإنسان

(١٩٥٨) أفريقيا الشمالية تسير، شارل أندريه (ص ٢٧).

(١٩٥٩) عبد الحميد بن باديس (ص ١١٥)، نقلاً عن الوثائق الفرنسية الموجودة في الأرشيف الوطني، لما وراء البحار، العلبة رقم [٧٢] H ١٦.

والطبيعة!)، بل إنَّ أكثر أصحاب تلك الطرق قبعوا في زواياهم في الوقت الذي كان المحتل على مقربة منها! [١٩٦٠] .

ومن تلك الطرق التي باعت الدين والوطن في سبيل فرنسا "الطريقة العلاوية"، تقول الباحثة الجزائرية غزالة بو غانم: "اختار شيخ الطريقة العلاوية أن يكون في صف أنصار التفاهم والوفاق الفرنسي الإسلامي !!، وهو خيار حكم علاقات طريقته بمختلف الأطراف الوطنية والاستعمار، فتراوحت علاقاتها بين ثنائية التفاهم والوفاق الفرنسي الإسلامي مع المستعمر. وهو خيارٌ ظلت الطريقة وفيَّةً له، ولم تكدر صفوه لا الممارسات الاستعمارية على فظاعتها، ولا التهم التي لحقتها بسببه، فهي لم تأبه بها مادامت لا ترى في خيارها ذاك عمالة!! وإنما استمالة للمستعمر عسى أن تُحرجه بصدق الولاء وشدة الوفاء، فتتمكن من جلب المنافع للمسلمين وتدرأ المفاسد عنهم، وعياً منها بقوة الاستعمار وجبروته من جهة!!، وعملاً على تحويل دعاية (فرنسا الإسلامية) من فكرة إلى واقع من شأنه قلب موازين القوى لصالح المستضعفين من جهة أخرى. فدخلوا في صراعٍ مرير مع

(١٩٦٠) التصوف والبدعة في المغرب، عبد الله نجمي (ص ٢٠٧، ٢٧٩).

القوى المحليَّة تارةً، ومع أهل الفقه تارةً أخرى، كما دخلوا في صراع مع الوطنيين الذين جهلوا –حسب رأي الشيخ ابن عليوة –سبيل الإصلاح" [١٩٦١].

تقول الباحثة بو غانم: "وطالما حرصت الطريقة على عدم إزعاج أمن الفرنسيين من جهة أخرى، لأن شيخها يزعم أنه راعي مصالح الأمة بالولاء الصادق لفرنسا" [١٩٦٢].

وبالطبع حظي الشيخ العلاوي على رضا المستعمر الفرنسي، واعتمد على أسوء أعداء الأمة (فرنسا) في أسوأ ظروف بلاده (الجزائر)، لكي يبدأ رحلة دعوته الإصلاحية في (التغريب)، ولنا أن نتساءل عمن زين له فكرة (فرنسا الإسلامية) وأوحى للشيخ العلاوي هذا المخرج الوعر من المتاجرة بقيم المجتمع وثوابته الرافضة للاحتلال، والمداهنة السياسية لفرنسا ؟! [١٩٦٣].

وحتَّى لو سلَّمنا لآحادهم بالجهاد ضد الأعداء، فلا يخلو الأمر من نظر، لأنَّ هذه الطرق عملت على ضعف ووهن الجبهة الداخلية، من خلال الشرخ

(١٩٦١) الطريقة العلاوية في الجزائر، غزالة بو غانم (ص ٦).

(١٩٦٢) الطريقة العلاوية في الجزائر، غزالة بو غانم (ص ١٢).

(١٩٦٣) الطريقة العلاوية في الجزائر، غزالة بو غانم (ص ١١).

الإجتماعي الكبير الذي أحدثته (من خلال النظرة الطائفية)، والتمييز بين الشيوخ، بتعزيز من السلطات القائمة، وما ترتيب عليه من صناعة مشيخات وطوائف وفرق ما أنزل الله بها من سلطان، بالإضافة إلى الصراعات المفتعلة داخل الدولة والتي حركتها أيدٍ صوفيَّة خفيَّة، والتي أزهقت فيها أرواح عديدة وبريئة، ويشهد لذلك العديد من المناسبات، أضف إلى ذلك الرأب الفكري والعقدي الذي أثَّر على عقائد الأمَّة والناس عامَّة..

ولو سلمنا لحركة التصوُّف بأنها جاهدت في مرحلة من المراحل، فهذا لا يعني التنصل من الدِّين الحق إلى حسابات التقديس لتلك الطرق المتهالكة، وتلك الروحانيات المزعومة، وقتال الصُّوفيَّة يمكن توصيفه بأنَّه حالةٌ ميكانيكية دراميتيكية، أخذت طابعاً دينياً، في عصرٍ انتهى فيه الولاء والتبعية والنفوذ إليهم !.

ولا شكَّ أن تلك الحركات كان تأثيرها محدوداً جغرافيَّاً، لا يتجاوز حدود المنطقة التي يقاتلون فيها، والتي كانت غالباً ما تنتهي بالاستسلام، والهزيمة.

والكلام عن الجهاد الصُّوفي يدفعني إلى إلقاء لمحة سريعة عن الدراسات الاستشراقية التي عنيت بدراسة التصوُّف (أصوله، وفروعه، وأعداد المنتسبين لكل طريقة، ومواطن تواجدها، والزوايا التابعة لها)، وقد ظنَّ الكثيرين أنها محاولة من

المستعمر الغربي للطعن في حقائق هذا المذهب وكون أصحابه في طليعة المقاتلين ضد الاستعمار[١٩٦٤]، وهذا القول لا ينطلي على من له أدنى عناية بالعلم والمعرفة، ولكنَّ الهدف الحقيقي التي قصدت إليه هو خدمة مصالح وتوجهات استعمارية بالدرجة الأولى، ومن ثمَّ إعادة إحياء التراث الصُّوفي والبدعة التي كاد أن يختفي لولا هؤلاء !.

وكانت السمة البارزة لهذه الدراسات هي التساهل في الجانب التاريخي والفكري لتلك الطرق، وسبيل نشأتها، واقتصارهم على الروايات الشفوية وسبل استكمال وتصحيح بعضها ببعض، وكان التركيز على كل ما هو حاضر وموجود وله صلةٌ بالزوايا والطرق، واعتمدوا على مصادر متأخرة، واستفادوا من ذلك كله في عمليات تحييد الطرقيَّة عن المجابهة المسلحة، والاستعانة ببعضها في بعض المعارك والغزوات! [١٩٦٥].

(١٩٦٤) التصوف في الجزائر في القرنين (٦ و ٧ هـ/ ١٢ و ١٣ م)، الطاهر بانبوي (ص ٨).

(١٩٦٥) التصوف والبدعة في المغرب، عبد الله نجمي (ص ٢٦٤- ٢٦٥).

الفصل السابع

الحركة التصحيحية للتصوُّف عرض ونقد

(التيَّارات الجديدة والمناوئة)

وفيه: مقدمة، وثلاثة مباحث:

مقدمة الحركة التصحيحية للتصوُّف
المبحث الأول: الحركة السَّلفية المُعاصرة (الوهَّابيَّة)
المبحث الثاني: الحركة الباديسية في الجزائر.
المبحث الثالث: جماعة الإخوان المسلمين بمصر.
المبحث الرابع: التحزُّبات الصُّوفية المناوئة للحركات الإصلاحية

مقدمة

الحركة التصحيحيَّة للتصوُّف

وقد تعرَّض الصُّوفيَّة والتصوف بشكل عام إلى هزَّةٍ عنيفة رضَّت أوصاله، وفنَّدت ممارساته الرديئة، وشجبت الضلالات والبدع التي جاء بها أصحابه، وناضلت ضد الخرافات، وحاربت مظاهر الشرك التي نشرها دعاة الضلالة من المتصوفة القبورية (وعبدة الأولياء!) [١٩٦٦].

وحاولت هذه الحركات النهوض بالأمَّة من مستنقع الجاهليَّة المحدثة إلى نور الحضارة والرُّقي، ومن حالة الركود والضعف إلى حالة الوعي والقوة، ومن حالة الذُّل والاستعباد إلى حالة الهُدى والرشاد.

وقد تعرَّض شيوخ التصوُّف للنقد اللاذع والشديد من قبل أبناء الصحوة الإسلاميَّة المعاصرة، حتى أصيب بالشلل التام إبان ظهور (الحركة الوهابية[١٩٦٧]) في العام (١٩٢٤م)، بقيادة الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب بن سليمان

(١٩٦٦) انظر: مظاهر الانحرافات العقدية عند الصوفية (٣/ ١٠٢٥).

(١٩٦٧) الوهابية: نسبة إلى الإمام المصلح شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب، مجدد القرن الثاني عشر، وهي نسبةٌ على غير القياس، والصحيح أن يُقال "المُحمَّديَّة"؛ إذ أن اسم صاحب هذه الدعوة، والقائم بها هو محمد، لا عبد الوهاب.

التميمي الحنبلي (ت ١٢٠٦م)، الذي تحالف مع الإمام محمد بن سعود [١٩٦٨] (أمير الدرعية!) ضدهم، فأقام دولةً سُنيَّةً لم يسبق لها نظير بعد الخلفاء الراشدين إلا في فترات أجلُّها مُدَّةَ خلافة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه[١٩٦٩] ، ومن بعده تتابع ظهور الجماعات التي تنادي بهدم صرح الخرافة ووقف العبث بعقائد الإسلام النقيَّة، فتأسست "جماعة أنصار السُّنة المحمدية" في مصر –بقيادة الشيخ محمد حامد الفقي في العام (١٩٢٦ م)، وكانت هذه الجماعة تهدف لدعوة الناس إلى التوحيد الخالص، ومحاربة الخرافات والبدع، وتفنيد الأفكار الوافدة من الشيوعية والعلمانية، وإرشاد الناس إلى مبادئ الإسلام الأساسية، بالإضافة إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويُذكر أن الشيخ محمد حامد الفقي هو أحد مواليد قربة "نكلة" بمحافظة البحيرة بمصر سنة (١٣١٠ هـ)، وهو من خريجي الأزهر [١٩٧٠]. وقد قامت هذه الجماعة ببناء العديد من المساجد والمدارس

(١٩٦٨) محمد بن سعود بن محمد بن مرخان: أول من لُقب بالإمامة من آل سعود في نجد، كان مقامه في الدرعية، وقد تولى الإمارة بعد أبيه، وحسنت سيرته، وقويت شوكته، وقد وفد عليه الشيخ محمد بن عبد الوهاب عراضاً عليه مناصرته، فتعاهدا على أن يكون حارساً للدين وناصراً للسنة، وأن يستمر ابن عبد الوهاب على الجهر بالدعوة، وتوفي بالدرعية، عام (١١٧٩ هـ). انظر: الأعلام للزركلي (٦/ ١٣٨).

(١٩٦٩) السنة والشيعة، للشيخ محمد رشيد رضا، (ص ٤٩).

(١٩٧٠) انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة (١/ ١٨٢).

والمؤسسات، وانتشرت في أنحاء مصر، ولها فروعٌ في السودان، وأنصارٌ في المغرب والسعودية، وقامت هذه الجماعة بدور بارز في فضح أفكار وعقائد غلاة الصوفية، التي ما زالت صاحبة النفوذ في المجتمع السوداني، مما عرَّض الجماعة للعديد من المضايقات والاضطهاد [١٩٧١].

(١٩٧١) انظر: الطريق إلى جماعة المسلمين، حسين بن محسن الجابر (ص ٢٨٠ – ٢٨٧).

المبحث الأول

الحركة السَّلفية المُعاصرة (الوهَّابيَّة)

بعد ظهور دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في جزيرة العرب، ذهبت آمال المتصوفة وأطماعهم أدراج الرياح، وانمحقت أوضار الشرك وطرقه، وجفَّت منابع البدعة والخرافة، وقد صدَّع الشيخ محمد بن عبد الوهاب بنيان عَبَدِة القبور، وسدنة الأضرحة، وأصحاب الرَّقص الديني، واستمرَّ جهاد الشيخ محمد بن عبد الوهاب في الدعوة إلى دين الله ما يُقارب الخمسين عاماً (رحمه الله تعالى)، خالعاً ربقة الجمود التي نسجتها التقاليد الفاسدة، والعادات الموروثة التي ليست من الدين، وكذلك ينبغي أن يكون المُجدِّدُ في الإسلام[١٩٧٢] .

ولم تكن دعوة الشيخ محمد ترفاً فكرياً، أو جدالاً فلسفياً، بل كانت دعوته عقيدةً نقيَّة، وسلوكاً قويماً، ومنهجاً مستقيماً، وقد كانت الجزيرة العربية تعجُّ بألوان الشرك الأكبر والأصغر (البدع العملية!)، بفضل مشركي التصوُّف الجدد، اللذين لبَّسوا على الناس دينهم، وافتروا على الله وعلى الناس الكذب، وغرَّهم في دينهم ما كانوا يعبدون من دون الله؛ فعُبدت الغيران والقبور والأضرحة، حتَّى الشجر

(١٩٧٢) محمد بن عبد الوهاب (دعوته وسيرته)، عبد العزيز بن باز (ص ٢٢).

والحجر، وانتشر السحرة والكهنة، وعبد الطاغوت من أوليائهم ودجاجلتهم الكُثر! (١٩٧٣).

كما لم تكن دعوة الشيخ محمد قائمةً على المذهبية، وقمع المذاهب المخالفة كما يحلو للبعض أن يتصور بحسب هواه، فالشيخ وإن كان يتبع الإمام أحمد في فروعه فقد كان يتبع في أصوله السلف الصالح ومنهم الأئمة الأربعة، فقد جاء عنه في إحدى رسائله قوله: "ولا ننكر على من قلد الأئمة الأربعة دون غيرهم، لعدم ضبط مذاب الغير". (١٩٧٤)

في ذلك الوقت كانت الحاجة ملحَّةً لمن ينصر هذا الدِّين، ويتبصَّر في أحكامه، وينفي عنه هذه البدع، والشركيات، والضلالات، التي ما أنزل الله بها من سلطان، في حين أنَّ علماء المسلمين لم ينبوا ببنت شفة أمام هذه المحدثات، وإنما أظهروا عداءهم لحركة الشيخ؛ ليس لأنَّه على خطأ، وإنما كبراً وعناداً أن أظهر الله الحقَّ على يديه، فآثروا العاجل على الآجل، ورضوا بالحياة الدُّنيا عن الآخرة ..

(١٩٧٣) محمد بن عبد الوهاب (دعوته وسيرته)، عبد العزيز بن باز (ص ١٤).

(١٩٧٤) الشيخ محمد بن عبد الوهاب عقيدته السلفية ودعوته الإصلاحية (ص ٣٩).

وكان بعض المتعالمين وأصحاب الحيل والأغراض من أهل نجد يؤلبون الناس على الشيخ ودعوته، فكتب هؤلاء المعادين للدعوة إلى الأتراك وأشراف مكة بأن هذا الشيخ مبتدع، ومذهبه هو خامس المذاهب. وأشاع هؤلاء الأدعياء والظلمة عن الشيخ أنه أكفر جميع الناس، وأنه قال عن أنكحتهم أنها غير صحيحة، وزعموا أن دعوته لا تحترم الأنبياء، ولا ترى زيارة قبر الرسول ﷺ إلى غير ذلك من الأقوال الزائفة والمفبركة.

وما زالوا بالدولة العثمانية يستنصرون بقوتها وجيشها، ويستفزون ملوكها، ويوغرون صدر أمرائها، وقضاتها، بأساليب الخداع، والمكر، والتشويه، وأنواع الإغراء بأنها حامية الحرمين الشريفين، فشوهوا وجه هذه الدعوة الجميل، حتى بلغت بهم الوقاحة أن يكتبوا إلى العثمانيين، بأن الشيخ وأتباعه لا يقولون في الأذان: أشهد أن محمداً رسول الله!.[١٩٧٥]

وما زال هؤلاء المحرضون يتوسلون إلى العثمانيين، وشيوخ إسلامهم، وقواد جيوشهم، حتى انخدعت الدولة بأولئك المفترين، وزاد الأمر تفاقماً ما رآه العثمانيون من انتشار دعوة الشيخ، وتأسيس دولة آل سعود، وما رأوه من امتداد الدولة السعودية وبسط نفوذها على نجد وصولاً إلى عمَّان، وأخذت تغزو العراق

(١٩٧٥) الشيخ محمد بن عبد الوهاب دعوته الإصلاحية؛ لأحمد بن حجر آل علي (ص ٣٤).

وأطراف الشام، فقام حينئذٍ العثمانيون بدورهم السياسي واستعملوا القلم والسنان ضد دعوة الشيخ وأتباعه النجديين، سيما بعد فتح آل سعود لمكة المكرمة سنة (**١٢١٨ هـ**).[١٩٧٦]

فكثر الأفاكون والمأجورون الذين كتبوا ضد الشيخ محمد بإيعاز من أشراف الحجاز وأمراء العثمانيين، وبعد تحريش الإنكليز لوالي مصر (محمد علي باشا) في محاربة دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، تحالف (محمد علي باشا) مع الدولة العثمانية على أن يجهز الجيوش الجرارة لحرب النجديين وإبادتهم، فجهز الأخير جيشاً عرمرماً بقيادة ابنه (طوسون)، ثم ابنه إبراهيم سنة (**١٢٢٦ هـ**)، وحارب النجديين، فانكسر الجيش التركي عدة مرات، ولكنه أخيراً انتصر على السعوديين سنة (**١٢٣٣ هـ**)[١٩٧٧].

ولكن سرعان ما انقلب محمد علي باشا على حليفته الأم (الدولة العثمانية) فأطاح بها، بعد أن سخره الإنكليز لحرب دولة الخلافة وتوهينها، وكان قد جدَّد جيشه على أحدث طراز عند الأوربيين [١٩٧٨] .

(١٩٧٦) الشيخ محمد بن عبد الوهاب دعوته الإصلاحية؛ لأحمد بن حجر آل علي (ص ٣٥).

(١٩٧٧) الشيخ محمد بن عبد الوهاب دعوته الإصلاحية؛ لأحمد بن حجر آل علي (ص ٣٥).

(١٩٧٨) صراع بين البدعة والسنة (ص: ٥٠).

ومن هؤلاء المدعو (أحمد زيني دحلان) الذي وضع كتباً مشحونةً بالأكاذيب والترهات تنفيراً للناس من دعوة الشيخ، وبالأحاديث الموضوعة والضعيفة، والعجيب أنه قام بتنزيل الأحاديث الواردة في الخوارج على الشيخ وأتباعه، سيما في كتابيه (الدرر السنية)، و(الفتوحات الإسلامية)، وقد ردَّ عليه الشيخ محمد رشيد رضا في كتابه (صيانة الإنسان عن وسوسة الشيخ دحلان).

كذلك كتب المدعو النبهاني كتابه (شواهد الحق)، وردَّ عليه الشيخ محمود شكري الألوسي في (غاية الأماني).

وقام الأتراك وأشراف مكة بنبذ دعوة الشيخ بـ(الوهابيين)، واستمرت عداوتهم، حتى أزال الله دولتهم، وصارت أثراً بعد عين، جراء الدسائس والمكر الذي استعمر في قصورهم، وعرف الجمهور كذب هؤلاء.

وقد هيَّأ الله للشيخ أنصاراً، وسخَّر له على الحقِّ أعواناً، من جميع بلاد الإسلام، فانتقلت مبادئ هذه الدعوة الإصلاحية المباركة إلى السودان، والهند، وسومطرة، والعراق، والشام، والجزائر، وحضرموت، وجاوة، وعمان، وفارس، وغيرها من المناطق، فانتصروا للدعوة السلفية الخالصة، وقضوا على جميع مظاهر البدع والخرافة، وألف جمعٌ من المعتنقين لها كتباً في تأييدها والدفاع عنها، حتى أظهر

دين الله، وعلت كلمة الله في كُلِّ بقاع الدُّنيا، فكان غيثاً انتفع به البلاد والعباد، وكان سُقيا خير وفضل ورحمة من الله عزَّ وجل ...

وقد تأثَّر بدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، العديد من حركات الصحوة الإسلامية المعاصرة، سواءً بالاقتباس، أو المحاكاة، أو مجرد التأثر، واكتسبت دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب تأييد الكثير من الفقهاء والعلماء حول العالم الإسلامي؛ والمرتبطة بحركة السلف من أمثال الشيخ جمال الدين الأفغاني الذي نُفي من بلاد الأفغان إلى مصر، وطُرد منها إلى الهند، حتى استقرَّ بإيران، ومن ثمَّ طره الشاه من بلاده، والشيخ محمد عبده (ت ١٩٠٥م) الذي قاوم البدعة والنفوذ الاستعماري، وزُجَّ به في السجن، وذاق غُصص النفي والإبعاد، ومن بعده تلميذه الشيخ محمد رشيد رضا (ت ١٩٣٥ م)، الذين رفضوا كل مظاهر التصوُّف الغير إسلامي، وقبلوا نوعاً من التفكير المتمثل بالتعليمات الأخلاقية للغزالي..

كذلك الشيخ عثمان بن فودى السوداني، أحد أفراد قبيلة "الفولا"، التقى بالشيخ محمد بن عبد الوهاب في موسم الحج، وعاد إلى بلاده وأخذ يُحارب البدع الشائعة بين عشيرته وقومه، ويُذيع مبادئ الصحوة المعاصرة، فاجتمعت عليه قبيلته من حوله.

وبعد ذلك ابتدأ الشيخ عثمان حروبه سنة (١٨٠٢ م) ضد قبائل "الهوسا" الوثنية، وقضى على مملكة "غبر" التي كانت على مجرى نهر النيجر، ولما مضت سنتان، أقام عثمان مملكة "تمبكتو" وبحيرة "تشاد"، وبقيت محافظة على استقلالها، ووحدتها نحو القرن، حتى استطاع الاستعمار الأوروبي أن يقضي عليها.

وقد بلغت دعوة الشيخ محمد بلاد الهند، بواسطة الأمير أحمد الذي التقى بالشيخ سنة (١٨١٦م)، ولما عاد إلى وطنه الهند بجهة "البنغال" وجد ميداناً يفتقر إلى الدعوة للتوحيد، سيما بين المسلمين الذين اختلطت عقائدهم وطقوسهم بعقائد الهندوس وعوائدهم، فأسس الأمير أحمد دولةً إسلامية تحكم بشرع الله، ولم تلبث هذه الدولة طويلاً، حتى قضى عليها الاستعمار الإنكليزي في العقد الرابع من القرن التاسع عشر، ولكن بقيت دعوة التوحيد في تلك المنطقة قائمة، ولم يستطع المستعمرون أن ينالوا منها.

وفي سومطرة ابتدأت دعوة الشيخ سنة (١٨٠٣م)، على يد أحد الحجاج من أهل الجزيرة، وكان عاد من الحج في نفس السنة، وبعد انتشار الدعوة، واعتناق عدد كبيرٍ لها، حدثت مناوشات بين سكان تلك المنطقة وأتباع الصحوة الإسلامية، حتى رأت حكومة الاستعمار الهولندية أن تقضي على دعوة المسلمين في تلك

المنطقة حفاظاً على نفوذها، واستمر الجهاد بين الوهابيين وحكومة الاستعمار الهولندي ما يربو على الستة عشر عاماً، حتى كانت الغلبة للاستعمار .[١٩٧٩]

وكما انتشرت دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب بواسطة الحركة السنوسية وشيخها محمد بن علي السنوسي في الجزائر، الذي تتلمذ على أكابر علماء الإسلام في مكة من (الوهابيين)، كما انتشرت في حضرموت وجاوة بواسطة الشيخ محمد رشيد رضا، الذي أسس جمعية الإرشاد لدعوة الناس إلى الكتاب والسنة، ونبذ الخرافات والبدع.

وقد رفض الشيخ محمد بن عبد الوهاب حالة السبات والنوم التي استغرقت العالم العربي والإسلامي تحت الحكم العثماني، ما أدى إلى انحصار ملحوظ للطرق الصُّوفيَّة منذ العام (١٩٤٥م) وحتى يومنا هذا وكانت دعوة الشيخ هي نفخة الموت التي أصابت التصوُّف في مقتل، حتى أنَّ السلطات التي أبدت نوعاً من التعاطف مع الصُّوفيَّة، رأت أنه من الأفضل أن تختفي هذه الطرق عن الأنظار، وتكفَّلت بعدم اعتراض أحد على أيَّة ممارسات داخل الخلوة المقدسة !..

(١٩٧٩) الشيخ محمد بن عبد الوهاب دعوته الإصلاحية؛ لأحمد بن حجر آل علي (ص ٥٦).

ولم يكن الشيخ محمد رجلاً عاديًّاً، بل كان الرجل المعجزة الذي أحيا ضمير الأمَّة النائم، وبعث في النفوس الميِّتة العقائد الصحيحة، وأعاد إلى الإسلام بساطته ونقاءه، وكان من سلالة معروفة بالعلم والصلاح، فكان أبوه قاضياً، وتلخَّصت دعوته:

في باب التوحيد: أنَّه دعا إلى توحيد الألوهيَّة (الذي يعني صرف جميع أنواع العبادات من دعاء، ورجاء، وخوف، واستغاثة، وتوسل، ونذر، وحلف، لله ﷻ وحده)، وتوحيد الربوبيَّة (ورفض كل مظاهر الشرك المتمثلة في تقديس الأشخاص باعتبارهم وسائط بين الله والناس، ورفض الأضرحة التي أصبحت مكاناً لالتماس لبركة!)، ودعا إلى توحيد الأسماء والصفات، والإيمان بكلِّ ما جاء في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، من غير تحريف ولا تأويل، والإيمان بالرسل جميعاً، وعدم الغلو في واحدٍ منهم.

في باب السُّلوك: دعا إلى الامتثال لهدي السلف الصالح من أصحاب النَّبيِّ ﷺ، فهم أفضل هذه الأمَّة بعد نبيِّها، والامتثال لهدي علماء الأمَّة من أهل الحديث والتفسير، والفقه، وإثبات فضلهم وإمامتهم.

في باب حفظ حرمات المسلمين: دعا إلى التزام ما جاء في كتاب الله ﷻ، وسنة رسوله ﷺ، فلا يحلُّ دم امرئ مسلمٍ إلا أمرٍ يبيحه، وتحريم ما دون ذلك.

ولم تكن حركة الشيخ محمد الأولى من نوعها في محاربة البدع والقبوريَّة الصُّوفيَّة، بل سبقه إلى ذلك الإمام ابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م)، الذي خصَّص نصف كتابه المسمى (تلبيس إبليس) للردِّ على انحرافاتهم عن الشريعة، وقد أسف شيوخ الصُّوفيَّة على هذا التأليف، وزعموا أنَّ ابن الجوزي هو الذي قد لُبِّس عليه فيه[١٩٨٠]، ولم يأسفوا على انحرافات كبارهم وشيوخهم في الملة والشريعة.

وكذلك الإمام القاضي شيخ الإسلام ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ/ ١٣٢٨م)، الذي أدان كثيراً من الممارسات المخالفة للشريعة في "مجموع الفتاوي" الخاصة به، فكانت نظرته إلى التصوُّف بشكل عام نظرة لم تأخذ أبعادها الحقيقية بعد،

يقول أبو زهرة رحمه الله: "ولقد حمل المذهب الحنبلي إلى الحرمين الشريفين وإلى سائر ربوع الحجاز النجديون، عندما انتزعوها من السلطان الشريف الحسين، وعلموا سكان الحجاز أحكام دينهم بعد أن جهلوها زمناً طويلاً، وقد كان ذلك

(١٩٨٠) جمع المقال، أحمد المزيدي، نقلاً عن رياض السادات للحنفي (ص ١٣٩).

المذهب هو مذهب آل سعود الذين حكموا بلاد نجد، ثم انتقل سلطانهم على يد عبد العزيز آل سعود إلى سائر بلاد العرب، وكان لهم شرف سدانة البيت الحرام، فنقلوا المذهب الحنبلي معهم إلى تلك البلاد.

وإنما كان هؤلاء حنابلة؛ لأنهم وهابيون، قد اعتنقوا في العقائد والفقه مذهب عبد الوهاب، الذي ظهر في القرن الثاني عشر الهجري، وهو يعتنق مذهب ابن تيمية في العقائد والفقه، ومذهب ابن تيمية في العقائد هو مذهب جمهور المسلمين، وهو يمنع التوسل والوسيلة، ويمنع التقرب بالموتى، ولو كانوا من الصلاح والتقوى في حياتهم، ومذهبه في الفقه هو مذهب الإمام أحمد مع بعض مسائل أفتى بها، وانفرد فيها بالإفتاء، ولم يكن فيها مقلداً لأحدٍ، بل كان مُتبعاً لكتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولقد كان في النجديين شدة العامة من الحنابلة التي ظهرت في القرن الرابع، ولذا بدر منهم بعض العنف أحياناً في أول توليهم سدانة البيت الحرام، وقيامهم حراساً على ذلك البيت الأمين، ولكن حكمة ذلك الملك الكريم، وحسن كياسته، ورياضته لنفسه، قد أخفت حدتهم، وظهرت تقواهم، فجمع الله لهم مع فضل التقوى حسن المعاملة، ولطف الألفة، والله سبحانه وتعالى وليُّ المؤمنين".(١٩٨١)

(١٩٨١) انظر: الإمام أحمد؛ لأبي زهرة (ص ٤٦٣).

وقد أثنى على دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب علماء كبار عاصروه، من أمثال الأمير محمد الصنعاني، الذي كتب فيه قصيدةً، يقول في مطلعها:[١٩٨٢]

سلامي على نجدٍ ومن حلَّ في نجدِ .... وإن كان تسليمي على البُعدِ لا يُجدِ

قفي واسألي عن عالمٍ حلَّ سَوحها .... به يهتدي من ضلَّ عن منهجِ الرُّشدِ

مُحمَّدِ الهادي لسُنّةِ أحمدٍ .... فيا حبذا الهادي ويا حبذا المُهتدي

وكذلك الشيخ محمد بن أحمد الحفظي صاحب "دوجال" من قُرى عسير؛ فقد نظم أرجوزةً طويلةً، يقول فيها:[١٩٨٣]

وبعث الله لنا مُجدداً ... من أرضِ نجدٍ عالماً مُجتهداً

شيخُ الهُدى مُحمَّدُ المُحمَّدي ... الحنبليُّ الأثريُّ الأحمدي

فقامَ والشركُ الصَّريحُ قد سرى ... بين الورى وقد طغى واعتكرا

ولم يل يدعو إلى دين النَّبي ... ليس إلى نفسٍ دعا أو مذهبِ

(١٩٨٢) الشيخ محمد بن عبد الوهاب دعوته الإصلاحية؛ لأحمد بن حجر آل علي (ص ٥٧).

(١٩٨٣) الشيخ محمد بن عبد الوهاب دعوته الإصلاحية؛ لأحمد بن حجر آل علي (ص ٥٩).

يُعلّمُ الناس معاني أشهدُ ... أن لا إله غير فردٍ يُعبَدُ

أن تعبدوه وحده لا تشركوا .... شيئاً به والابتداعُ فاتركوا

وأثنى العلامة محمد بن علي الشوكاني (ت ١١٨٢ هـ) مؤلف "نيل الأوطار" على شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب في قصيدةٍ عصماء يرثيه فيها، ويقول :(١٩٨٤)

لقد مات طودُ العلم قُطبُ رحى العلا ... ومركزُ أدوار الفحول الأفاضلِ

وماتت علوم الدين طُرًّاً بموته ... وغيّب وجه الحقِّ تحت الجنادل

إمام الهدى ماحي الردى قامع العدا .... ومروي الصدى من فيض علمٍ ونائلِ

إمام الورى علامة العصر قدوتي .... وشيخ الشيوخ الجِدِّ فردُ الفضائلِ

(محمدِ) ذو المجد الذي عزَّ دَركُهُ .... وجلَّ مقاماً من لحوقِ المطاولِ

إلى عابدِ الوهَّابِ يُعزى وإنَّه .... سُلالةُ أنجابٍ زكيَّ الشمائلِ

(١٩٨٤) الشيخ محمد بن عبد الوهاب دعوته الإصلاحية؛ لأحمد بن حجر آل علي (ص ٦٠-٦١).

عليه من الرحمن أعظمُ رحمةٍ ... تبُلُّ ثراهُ بالضُّحى والأصائلِ

لقد أشرقت نجدٌ بنور ضيائه ... وقام مقاماتِ الهُدى بالدَّلائلِ

وكم في الدين الحنيف كان مجاهداً ... بماضي سِنانٍ دامِغٍ للأباطلِ

وكم ذبَّ عن سامي حماهُ وذاد من ... مُضلٍّ وَبِدعيٍّ ومعفوٍّ ونائلِ

ففيمَ استباحَ أهلُ الضلالِ لعرضهِ ... وكم نكستْ أعلامهُ للرذائِلِ

فلولاهُ لم تحرز رحى الدين مركزاً ... ولا اشتدَّ للإسلامِ رُكنُ المَعاقِلِ

فما هو إلا قائمٌ في زمانه ... مقام نبيٍّ في إماتةِ باطلِ

دعا لكتاب الله والسنة التي ... أتانا به طه النبيِّ هو خيرُ قائلِ

وقال الشيخ حسين بن غنام الأحسائي مؤلف كتاب "روضة الأفكار والأفهام" يرثي الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ويُثني عليه بما هو أهله (١٩٨٥):

وخلاصة القول أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب لم يكتفِ بالحركة التنظيرية العلميَّة فقط (كبقيَّة الحركات العاجزة!)، بل إنها قامت بعمليات أسطوريَّة (لم يشهد

(١٩٨٥) الشيخ محمد بن عبد الوهاب دعوته الإصلاحية؛ لأحمد بن حجر آل علي (ص ٦١).

العالم المعاصر مثلها)، فحاول الصُّوفيون أن يقطعوا على الشيخ طريقه في الدعوة إلى التوحيد، بسلبه صفتي العلم والاجتهاد، وبوصمه بالجهل وإثارة الفتن والقلاقل [١٩٨٦]، هذا مع أنَّ كثيراً من أهل العلم والباحثين قد أنصفوه، فردُّوا كيد هؤلاء الظلمة الغشمة أتباع كُلِّ ناعق! [١٩٨٧].

(١٩٨٦) النقول الشرعية في الرد على الوهابية، حسن الشطي (ص ٨).

(١٩٨٧) وقد ألَّف في الدفاع عن دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، عدَّةٌ من العلماء، منهم:

- الشيخ أبو بكر حسين بن غنام الإحسائي.
- الشيخ أحمد بن حجر بن محمد آل أبو طامي (قاضي المحكمة الشرعية بقطر)، في كتاب له سما (الشيخ محمد بن عبد الوهاب، عقيدته السلفية، ودعوته الإصلاحيَّة، وثناء العلماء عليه).
- الإمام عثمان بن بشر في كتاب سمَّاه (عنوان المجد في تاريخ نجد).
- الدكتور أحمد أمين في كتابه (زعماء الإصلاح).
- الشيخ الكبير مسعود عالم الندوي في كتاب له، سماه (المصلح المظلوم).
- الشيخ الكبير الأمير محمد بن إسماعيل الصنعاني.
- العلامة الكبير الشيخ محمد بن علي الشوكاني، صاحب نيل الأوطار، ورثاه بمرثيَّة عظيمة.
- العلامة سيدي محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي، في كتابه (الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي).

المبحث الثاني

الحركة الباديسية في الجزائر

ومن المصلحين المعاصرين الإمام عبد الحميد بن باديس الجزائري، "الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية"[(١٩٨٨)]، والذي أعلن الحرب على الطرقية، ليس لأنهم مبتدعون فقط، بل لأنها كانت العميل المساند للاستعمار الفرنسي في بلاده!، ويشهد لهذا قول أحد الفرنسيين: "أصبحت كلمة الصُّوفيَّة تدلُّ على الجهل والتخلُّف، وكذلك أصبحت تعني المؤيدين للاحتلال والإدارة الفرنسية"[(١٩٨٩)].

وقد بدأ ابن باديس حركته الإصلاحية في الجزائر في حدود عام (١٩١٤م/ ١٣٣٢ هـ)، وذلك بعد عودته من الحج، وقام بتأسيس وتربية جماعةٍ من المخلصين يكونون سنداً للدعوة، حتى عام (١٩٢٤م/ ١٣٤٢ هـ) حيث أسس جمعيةً لعلماء الجزائر، وأردف ذلك بتأسيس الصحافة الإسلامية والطباعة الوطنية لضمان استقلالها واستمرارها، فأنشأ جريدة (المنتقد) وبرز عددها الأول في يوم

(١٩٨٨) ألَّف الدكتور محمود قاسم كتاب "ابن باديس الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية"، وذلك بعد استقلال الجزائر بعدة سنوات، وذلك في العام ١٩٦٧م. انظر عبد الحميد بن باديس، مازن مطلقاني (ص ١٥١).

(١٩٨٩) انظر: عبد الحميد بن باديس، العالم الرباني، والزعيم السياسي، مازن مطلقاني (ص ١١١).

عيد النحر (١١– جويلية – ١٩٢٥م/ ١٣٤٣ هـ) مُعلناً عن دعوته، فعطلتها السلطة الاستعمارية بعد بروز (١٨) عدد منها فقط، فأخرج جريدة (الشهاب) لتؤدي نفس مهمتها، ثم تحولت إلى مجلة وقد استمرت بالظهور بإدارة خليل الزواوي بن القشي، حتى عام (١٩٣٩ م)، وقد حجزته السلطة الفرنسية؛ لأنه نشر مقالاً للمرحوم المازني بعنوان "العرب ثمانون مليوناً، ولكنهم لا يريدون أن يُخيفوا أحداً".

وكانت لهجة (الشهاب) أشدُّ وأقسى، سيما مقالات "بيضاوي" المحرر في "المنتقد"، و"الشهاب"، وكان لهذه الدعوة أثرها الكبير على أهل الجزائر خصوصاً وأهل الغرب الإسلامي عموماً، وكان لها الفضل في التمهيد للثورة المسلحة في العام (١٩٥٤م/ ١٣٧٤ هـ)، ولما وقع الاعتداء عليه عام (١٩٢٦ م/ ١٣٤٥ هـ) قفزت قفزةً إلى الأمام، وأصبحت مبادئها الدينية هي المعتمدة،كذلك لاقت دعوة ابن باديس نجاحاً باهراً، حيثُ قضت على الجمود الفكري، والبدع الملصقة بالدين من خنوع، وخضوع أماما القبور والقباب، وتقديم البخور والنذور لها، وللأشجار والأحجار، وعبادة الجن!، والسمع والطاعة لأصنامٍ بشرية تأكل وتشرب، وتبول وتتغوط، وتمرض وتموت، ومع ذلك فهي تدعو الناس لعبادتها، وتزعم أن " الكون في قبضتها، ونزول المطر بيدها، والنفع والضر من أثر قدرتها، ثم تزعم أن

سلطة الدولة الاستعمارية من سلطة الله!!، وسلطة الله لا تُقاوم، وأن التسليم لها تسليمٌ لله، والرضى بأحكامها رضىً بقدر الله، وأن على الأمة أن تصبر لقضاء الله!!، فإذا شاء جعلهم يرتحلون من أنفسهم، ويتركون لنا الوطن من بعدهم" [١٩٩٠].

يقول حماني: "ومثل هذه الأفكار كانت رائجةً يحتضنها (مشائخ الصوفية) ويروجون لها، تحميهم هذه السلطة الاستعمارية: المنتفع الأكبر من رواجها، وكان لها الدور الكبير في تنويم واستبلاه البسطاء، ويزعمون أن أكثر من ٩٠% من الأمة كان خاضعاً لهم في هذا السلطان، وقد أيده الشيخ أبو يعلى الزواوي رحمه الله في بعض مقالاته"[١٩٩١].

وقام ابن باديس بمقابلة شيوخ الطرق الصُّوفيَّة في الجزائر، وأجرى معهم الحوار والنقاشات المطولة للرجوع إلى الكتاب والسُّنَّة وإلى الزهد الصحيح، ونبذ ما هم عليه من الخرافات والبدع، ونشر في مخازيهم وخرافاتهم في الصُّحف، وحذَّر من غلاتهم، بل وشجعهم على إرسال أبنائهم لتلقي العلم على يديه في قسنطينة[١٩٩٢].

(١٩٩٠) صراع بين السنة والبدعة؛ لأحمد حماني (ص ٥٢- ٥٣، ٥٩، ٩١، ١١٤).

(١٩٩١) صراع بين السنة والبدعة؛ لأحمد حماني (ص ٥٣).

(١٩٩٢) عبد الحميد بن باديس، العالم الرباني، والزعيم السياسي، (ص ٦٥- ٦٦، ١١٢).

وبالفعل استجاب عددٌ كبيرٌ من أصحاب الطُّرق؛ لدعوة الشيخ ابن باديس، وأرسلوا أبناءهم إلى الجامع الأخضر لينهلوا من علوم الشيخ، ويتعلموا العقيدة الصافية النقيَّة[١٩٩٣].

وأما علاقة ابن باديس بالطرقية؛ فيقول مازن مطلقاني: "ولا يكتمل الحديث عن ابن باديس دون ذكر طرف من جهاده ضد الصُّوفيَّة، فهو قد حاربها لأمرين:

أحدهما: ما أدخلته على الدين من انحراف وبدع وضلال.

ثانيها: لأنها أصبحت تسير في ركب الاحتلال!"[١٩٩٤].

وبفضل من الله، ثُمَّ بجهود مخلصة من الشيخ عبد الحميد بن باديس، تضاءل وجود الطرق الصُّوفيَّة في الجزائر لولا أنها فتنة، تطل برأسها بين الحين والآخر، وتجد من أعداء الإسلام من يؤيدها لحاجةٍ في نفسه!...[١٩٩٥].

وهو ما اعترف به الجنرال الفرنسي "بارلانج" الذي كُلف بإخماد الثورة في "الأوراس" عام (١٩٥٥م)، حيث أخفق في الجزائر بفضل ابن باديس، بينما نجح

(١٩٩٣) عبد الحميد بن باديس، العالم الرباني، والزعيم السياسي، (ص ١٣٩، ١٨٠).

(١٩٩٤) عبد الحميد بن باديس، العالم الرباني، والزعيم السياسي، (ص ١٠٨).

(١٩٩٥) عبد الحميد بن باديس، العالم الرباني، والزعيم السياسي، (ص ١١٥).

في "المغرب"، وقال في إحدى الصحف الفرنسية: "إنه في المغرب اعتمد سلطة "المشائخ" في التأثير على الجماهير، وأما في الجزائر فإنه لا سلطة لهؤلاء الشيوخ"، وكان هذا عام (١٩٥٥م)، وأما قبل ذلك فكان لهم السلطة العظمى، حتى في تنفيذ الجرائم وقتل العلماء، كما وقعت محاولة السطو بالشيخ ابن باديس، وكان أتباعهم يملأون السهول والجبال، ويُقدرون بمئات الألوف(١٩٩٦) .

وقد حكم ابن باديس بأن الطرق الصوفية ومشائخها "منبعٌ لكثيرٍ من الضلالات"، ولكنه لم يشأ أن يُفاجأهم بالإعلان العام هذا أثناء الطور الأول من دعوته، واضطر لأن يُصانعهم ليتمكن منهم، بما لا يضر بالمبدأ، وأن يدخل في "قطعانهم"، فظنَّ بعض "السُّذج" أنه كان منهم! وتجرأ صاحب "حياة كفاح"(١٩٩٧) فزعم أنه السبب الرئيسي في هدي ابن باديس وإنقاذه من الطرقية! (١٩٩٨) .

وإذا أردنا شهادةً صحيحةً في الموضوع فلنعد إلى كتابات ابن باديس نفسه، وما كتبه عنه تلميذه الأستاذ محمد الهادي السنوسي رحمه الله، الذي ارتحل إلى قسنطينة في بداية الطور الأول من الدعوة عام (١٩١٦ م)، وما بعدها إلى نحو

(١٩٩٦) صراع بين السنة والبدعة؛ لأحمد حماني (ص ٥٣- ٥٤).

(١٩٩٧) هو أحمد توفيق المدني الجزائري.

(١٩٩٨) صراع بين السنة والبدعة؛ لأحمد حماني (ص ٥٩- ٦٠).

(٨ سنوات)، فقد شهد أن الإمام ابن باديس طهر عقله من الخرافات والضلالات الطرقية. وسجل ذلك في ترجمته لنفسه في كتابه (شعراء الجزائر في العصر الحاضر)، ومثله ما كتبه الأستاذ محمد سعيد الزاهري رحمه الله، وما تركه من طابعٍ قويٍّ في نفسه، من تربية دينية ووطنية، ويجب أن نتذكر أن الشيخ سعيد الزاهري من تلاميذ الشيخ ابن باديس هو أول من جعل جريدته "الجزائر" تضع في صدرها شعاراً لها "الجزائر للجزائريين"[١٩٩٩] .

وأول ما اصطدم به ابن باديس من (الصوفية) ومشائخها "الطريقة العليوية" وشيخها أحمد بن عليوة المستغانمي، ويتبين للدارس أن طبيعة هذا الصدام: هو صدام ديني ودنيوي، أما الديني فقد تيقن ابن باديس خطورة ما تروج له هذه الطريقة من مبادئ الباطنية، والدعوة إلى مذهب الحلول ووحدة الوجود، وأما الهدف السياسي فهو اتصالها بالقوى الاستعمارية والتحالف معها، والتعاون بينهما على العمل المنسق للنجاح المزدوج [٢٠٠٠].

(١٩٩٩) صراع بين السنة والبدعة؛ لأحمد حماني (ص ٦٠).

(٢٠٠٠) صراع بين السنة والبدعة؛ لأحمد حماني، تحت عنوان "أول اصطدام بين الاصلاح والحلول" (ص ٦٠- ٦١).

وقد جاء في كتاب هذه الطريقة "الشواهد والفتاوي" ما يدل على مدى ما بلغ إليه التلاحم والتناصر بين المستعمر وبين أرباب هذه الطريقة، يقول صاحب هذا الكتاب في ترجمته للشيخ "عدة بن تونس" وهو العضد الأيمن للشيخ ابن عليوة في حياته، وخليفته بعد مماته: "إنه انخرط في سلك العسكرية الفرنسية –على ما يقتضيه القانون الجبري –وصار مقر القشلة بدل المسجد، فعكف على عمله الذي هو من عادته، وكان يستعطف من حوله من أفراد الجند ليستميلهم إلى العمل بالدين، ويُحبب لهم الذكر والذاكرين، إلى أن صارت كلمة الإخلاص –يعني بها كلمة (الله) تُذكر ليلاً ونهاراً داخل القشلة بأصواتٍ مرتفعة، ثم اشتدت الرغبة في الذكر على الأسلوب المعتاد عند الفقراء، إلى أن استحسن رؤساء الجند من الفرنسيين تلك الأنغام، فألزموا الجند أن يكرروا كلمة الإخلاص بتلك الصيغة في حال مشيهم النظامي، ورجوعهم من التعاليم الرسمية اليومية، يدخل المدينة بكلمة الإخلاص، يتقدمهم فضيلة السيد عدة مع من كان معه من الفقراء، وبلغني أنه لما انتقل إلى مدينة رأس الما من حدود الصحراء فعل ما يقرب من ذلك من جهة تصيير من حوله من العساكر في صفة الذاكرين، فكان مكثهم بالمسجد أكثر من مكثهم في غيره" (٢٠٠١).

(٢٠٠١) صراع بين السنة والبدعة؛ لأحمد حماني، (ص ٦١)، نقلاً عن الشواهد والفتاوي (ص: ١٦٩).

وبينما كان يصنع هؤلاء القوم مثل هذا في صميم القشلات العسكرية والقلاع، كان العلماء يُطاردون من المساجد، ويُحذر من الطريقة الرحمانية وإخوانها، وخصوصاً في بلاد القبائل، لأنها أخرجت الشيخ ابن الحداد، وولده الشيخ عزيز، فالقوم كانوا يعدون "العليوية" لخلافاتهم، ويصدرون أوامرهم للجنود ليلتزموا "ذكرهم"، طقوسهم، ويعلنون ذلك في المدن والشوارع.

إن هذه "المناورات" لم تكن لتخفى على مثل ابن باديس، ممن نذروا أنفسهم لخدمة الأمة، والسعي في إصلاح أمورها الدينية والدنيوية، ولم يكن من الهين مهاجمة "العليويين" مباشرةً، خاصةً في هذا الوقت الحرج، الذي كانت الظروف فيه شديدة، والاستعمار في أوج طغيانه وعتوه، وكانت فرنسا تتبجح بأنها خرجت من الحرب العالمية الكبرى بأكبر وأقوى جيش بري في العالم[٢٠٠٢].

وقد جادت الحركة الباديسية بخيرة رجالها فداءً لله، ودفاعاً عن الوطن، وعلى رأس هؤلاء الشهداء: الشيخ العربي التبسي، والشيخ أحمد بو شمال، والشيخ أحمد حوحو، والشيخ محمد العدوي، والشيخ محمد الزاهر، وكل هؤلاء من معهد ابن باديس، وكذلك البشير الإبراهيمي الذي ذاق عذاب السجون والهوان والغربة

(٢٠٠٢) صراع بين السنة والبدعة؛ لأحمد حماني، (ص ٦١)، نقلاً عن الشواهد والفتاوي (ص: ١٦٩).

والشتم والعزلة لأجل بلده ووطنه ودينه، وغيره من الأساتذة الكبار، والتلامذة الذين لا عدَّ لهم ولا إحصاء، ممن {صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً}، وممن ذاقوا الويلات في سبيل الله، راضين بقضاء الله، غير منتظرين الجزاء الأوفى إلا من الله سبحانه[٢٠٠٣].

(٢٠٠٣) صراع بين السنة والبدعة؛ لأحمد حماني (ص ٥٤- ٥٦).

- الشيخ محمد البشير الإبراهيمي:

كذلك حركة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي (ت ١٣٨٥هـ)، وهو خليفة ابن باديس على رئاسة جمعية علماء الجزائر، وكان شديد الإغارة على الصُّوفيَّة، الذين قال فيهم: "أما والله ما بلغ الوضاعون للحديث، ولا بلغت الجمعيات السرية، ولا العلنية الكائدة للإسلام من هذا الدين، عشر معشار ما بلغته من هذه الطرق المشئومة (يقصد الصُّوفيَّة!).. وإن هذه الهوة العميقة التي أصبحت حاجزة بين الأمة وقرآنها هي من صنع أيدي الطرقيين".(٢٠٠٤)

وقال: "حريٌّ بجنود الإصلاح أن يقوموا بحملة صادقة على المتصوفة، شعارهم فيها (لا صوفية في الإسلام) حتى يدكّونها دكّاً، وينسفوها نسفاً، ويذروها خاوية على عروشها".(٢٠٠٥)

(٢٠٠٤) موسوعة مواقف السلف في العقيدة والمنهج والتربية، محمد بن عبد الرحمن المغراوي (٩/ ٤٦٧).

(٢٠٠٥) موسوعة مواقف السلف في العقيدة والمنهج والتربية، محمد بن عبد الرحمن المغراوي (٩/ ٤٦٧).

وقد جاء المؤتمر الخامس لجمعية العلماء الجزائريين أنَّ الطُّرق الصُّوفيَّة تتظاهر بالخصوصية، وتأخذ منتحليها بشيء من مظاهر المسيحية، وهو (التسليم المطلق!)، وشيء من مظاهر البرهمية، وهو (تعذيب الجسد!)" (٢٠٠٦).

وكتب المؤرخ الجزائري الكبير مبارك بن محمد الميلي (١٣٦٤هـ/ ١٩٤٥م)، وأحد رواد الإصلاح الديني في القرن العشرين، كتاباً بعنوان (رسالة الشرك ومظاهره)، ذكر فيه مصائب الطُّرقيين، وفيما يلي بعضٌ منها: التوسط بين الله وبين عباده، والترفُّع عن التكاليف الشرعية، والترخيص لأتباعهم في إتباع الشهوات والأهواء، بثِّ روح الجمود والخمول في النَّاس عن مواجهة الاستعمار، وتلقيح غفلتهم بدعوى الذكر ومجاهدة النفس، ثُمَّ حثِّهم على زيارتهم والرحلة إليهم لاستدرار أموالهم، والاعتماد في دينهم على الخرافات والمقامات(٢٠٠٧).

ووافقه في ذلك الكاتب الإسلامي المعروف مالك بن نبي في كتابه (مذكرات شاهد القرن –طفل)، الذي وصف أحد شيوخ الطُّرق بأنَّه كان مشعوذاً، وكان يعرف كيف يستولي على خيال معتنقي طريقته، بأساليب بسيطة!(٢٠٠٨) .

(٢٠٠٦) عبد الحميد بن باديس، مازن مطلقاني (ص ١٠٨– ١٠٩).

(٢٠٠٧) رسالة الشرك ومظاهره، مبارك محمد الميلي، (ص ٢٧٣– ٢٨١).

٢٠٠٨() مذكرات شاهد القرن– الطفل، مالك بن نبي، (ص ٣٢٤).

المبحث الثالث

جماعة الإخوان المسلمين بمصر

ومن كبرى الحركات الإصلاحيَّة أيضاً (جماعة الإخوان المسلمين) التي تأسست في الإسماعيلية بمصر سنة (١٩٢٨م)، بقيادة الشيخ حسن بن أحمد بن عبد الرحمن البنا رحمه الله (ت ١٩٤٩ م)، الذي اتسم موقفه من الطرقيَّة بمحاولة الالتفاف حولها، وتطويقها من الباب الخلفي، دون الوقوف من أصحابها موقف التَّحدِّي والمنابذة بالشرك والكفر، الذي يفضي إلى العناد والتعصُّب، ويقضي على فرص التفاهم بينهما! (٢٠٠٩).

هذا مع أن بدايات البنا مع الطريقة الحصَّافية لا يُمكن التعويل عليها؛ لأنها انتهت بلا رجعة، لا سيما وأن الموقف السلبي والمتخاذل للصّوفية لا يتناسب مع الفكر الحركي الجديد الذي أسَّسه البنَّا.

ويُذكر هنا أن الحركات الإصلاحيَّة الأخرى، كحركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب –رحمه الله تعالى، لم يُعرف عنها إطلاق نعوت الكفر والشرك على أتباع الطُّرق الصُّوفيَّة عموماً، على الرغم من ممارستهم للطقوس الشركيَّة والبدعيَّة، وإنما

(٢٠٠٩) عبد الحميد بن باديس، مازن مطلقاني (ص ١٣٨).

كان حكمه على الممارسات الشركية والكفرية التي يقوم بها أئمة هذه الطُّرق ودُعاتها، وبالتالي نرى أن أئمَّة الطريقة السَّلفية نزَّهوا ألسنتهم وأقلامهم أن تجري على هؤلاء المبتدعة حتَّى بمجرد السِّباب الذي ما فتئت ألسنة المتصوفة تجري به على أهل السُّنَّةِ...!

والمقارن بين حركتي ابن باديس بالمغرب العربي، وحسن البنا في المشرق الإسلامي، يجد توأمةً حقيقية، وروحاً دينية صافية، تصبو إلى إعادة الإسلام إلى مكانته الرائدة في قيادة العالم، وبعث الخلافة الإسلاميَّة الراشدة، وقد عقد لذلك الأستاذ مازن مطلقاني مقارنة في كتابه (عبد الحميد بن باديس)! [(٢٠١٠)].

ويمكن اختصار موقف جماعة الإخوان المسلمين من الصُّوفية بما قاله الشيخ سعيد حوى رحمه الله: "ويبدو أنَّ التصوُّف فيما آل إليه أصبح الآن مزيجاً مما ينبغي أخذه، وما يجب تركه، إذ الإيحاءات التي يأخذها دارسُ بعض كتبه قد لا تُناسب الحركة التي يجب أن يتحركها المسلمون؛ ولهذا فإننا لا نستطيع أن ندل

(٢٠١٠) عبد الحميد بن باديس، مازن مطلقاني (ص ١٣٦)، تحت عنوان "بين ابن باديس وحسن البنا"، انظره، فإنه مهم جداً، وانظر وجوه الاتفاق بينهما (ص ١٤١- ١٤٩).

على كتاب مُعيَّنٍ قديمٍ يُمكن أن يأخذه المسلم في هذا الشأن على أنه معيار كامل للأخلاق الأساسية الإسلامية" [٢٠١١] .

(٢٠١١) جند الله ثقافةً أخلاقاً، سعيد حوى (ص ١١٢).

المبحث الرابع

التحزُّبات الصُّوفية المناوئة للحركات الإصلاحية

وفي هذه الآونة برز الصُّوفيون كحركات مناوئة (تستغل العاطفة والحماس تجاه الأولياء!)، وتتكيف مع رغبات وحاجات الإنسان المعاصر، في معارضة الفكر السلفيِّ الجديد (بحسب زعمهم!)، وأبرزهم ثلاثة فرق، وهم:

١. الدرقاويَّة.

وكانت بقيادة محمد العربي بن أحمد الدرقاوي (وهو الشيخ الأمهرش، شيخ الطريقة الوزانية الشاذليَّة، والذي عُرف فيما بعد بالعربي الدرقاوي!) الذي حاول تصحيح المسار الصُّوفي المنحدر والمتآكل، وبخاصة داخل التراث الشاذلي في المغرب (على الأقل!)، وقد أخذ الدرقاوي التصوُّف عن شيخه أبو الحسن علي بن عبد الرحمن الجمّال الفاسي (ت ١٧٧٩م)، والذي كان ضحيَّةً للظروف التي لم يكن له سيطرة عليها !.

وأصبحت فرقة الدرقاويِّ معروفةً (بعد أن تطورت إلى حركة سياسية صوفيَّة)، وساءت سمعتها في المجتمع المغربي، سيما بعد مهاجمة أتباعه (وعلى رأسهم أحد

مقدميه، وهو عبد القادر بن شريف) للأتراك في أوران (من ١٨٠٥ -١٨٠٨م)، وأصبح الدرقاويُّ منغمساً في النشاط السياسي إلى أذنيه (٢٠١٢).

وعندما أعلن مولاي سليمان معارضته للبدع المستشرية في المجتمع المغربي، قام بتأييد المتمردين على حكم مولاي سليمان، فسجنه السلطان باعتباره شخصاً مثيراً للشغب والفتن، وأطلق سراحه السلطان عبد الرحمن (حكم في الفترة ١٨٢٢- ١٨٥٩م) الذي تشتَّ نظامه فيما بعد بسبب دعوات الدرقاوي المغرضة والمتمردة..

وقد انتشرت الدرقاويَّة بعد وفاة شيخها المؤسس في كافة أنحاء المغرب، وانبثقت عنها طرقٌ كثيرة منها البوزياديَّة التي أسسها محمد بن أحمد البوزيادي (ت ١٨١٤م) تلميذ الدرقاوي، والذي حظي بدعم الفرنسيين في الأعياد والمواسم والمناسبات.

أما تلميذ البوزيادي فكان أحمد بن محمد بن عجيبة (ت ١٨٠٩م)، شارح الحكم!.

(٢٠١٢) الطرق الصوفية في الإسلام، سبنسر ترمنجهام (ص ١٨٠).

وعن محمد بن الحبيب البوزيادي انبثقت الطريقة العلويَّة في (مستغانم= أوران Loran) بالجزائر، والتي أسسها الحوَّاء (= المولع بالحيَّات) أحمد مصطفى العلاوي (ت ١٩٣٤م)، الذي كان مشغوفاً بالخوارق والكرامات، فالتحق بالعيسويَّة (=طريقة تشتهر بالسحر والشعبذة، ومؤسسها هو محمد بن عيسى المختار (ت ١٥٢٤م).

وبرع العلاوي في ضرب الشيش وفعل الخوارق!!، التي منعها الإمام محمد الخامس في العام (١٩٢٧م !)، فانتقل إلى البوزيادي الذي أرشده إلى ترك علوم التوحيد والفقه، وحثَّه على التأمل الذاتي، وأرشده إلى الذكر في المقبرة ليلاً حتى يحصل على الإشراق!.

سافر العلاوي إلى الأسطارة بالهند ليتعلم المذاهب الصوفية الحديثة (غير المغربية)، وكان فرقته الصوفية موضع نظر الفرنسيين واهتمامهم ودعمهم!، لأنها فرقة (تنويرية) ترتبط بالحركات الفلسفية والباطنية!، ومن ثمَّ أصبح نقيباً ومرشداً في الطريقة البوزيَّاديَّة في العام (١٩١٨م)، وخرج العلاوي بطريقته لينشرها في الآفاق.

وقد نشطت طريقة العلاوي وامتدت داخل أنحاء الجزائر وخارجها، لتصل إلى المغرب، وتونس، والشام، واليمن، وبريطانيا، وفرنسا، وبعض بلدان أوروبا، أما

داخل الجزائر فكادت أن تبتلع الطرق الصُّوفية الأخرى، وقد خطط ابن عليوة أن تُزاحم طريقته طريقة الرحمانية في بلاد القبائل، فأيده المستعمر في ذلك، سيما بعدما تبيَّن له أن "الرحمانية" لا يؤمن جانبها في القبائل! (٢٠١٣) .

وقد نال العلاويُّ حظَّه من الزجر والتأديب؛ حينما شرع الإمام عبد الحميد بن باديس (رئيس جمعية العلماء المسلمين بالجزائر) في الردِّ عليه عندما كتب العلاوي أبياتاً من الشِّعر العامي يُخاطب فيها الرَّسول ﷺ، بما لا يليق! (٢٠١٤) .

فكان ردُّ ابن باديس مُفصَّلاً للحال التي يجب أن يكون فيها المؤمن مع الرسول ﷺ، وقد نالت من التقريظ والعناية من العلماء الجزائريين والتونسيين، والمغاربة، ما ملأ قلب ابن عليوة وأنصاره غيظاً، فدبروا لابن باديس مكيدةً للسطو والاغتيال على يد أحد أتباع الطريقة العليوية في (٩/ جمادى الآخرة/ ١٣٤٥هـ، الموافق ١٤/ ديسمبر/ ١٩٢٦، ونجى الله الإمام من هذا الاعتداء الأثيم، الذي تمَّ باتفاق ابن عليوة مع الإدارة الفرنسية الاستعمارية!.(٢٠١٥)

(٢٠١٣) انظر: الصراع بين السنة والبدعة، أحمد حماني (ص ٦٢).

(٢٠١٤) انظر: الصراع بين السنة والبدعة، أحمد حماني (ص ٩٥).

(٢٠١٥) انظر: الصراع بين السنة والبدعة، أحمد حماني (ص ٩٩).

وعلى إثر هذه الجريمة البشعة، كتبت جريدة المنوّه عنها، تقول: "السيد ابن باديس رجلٌ متنوِّر، مسلمٌ عاملٌ بنصِّ القرآن، تتبع أطوار تلك الدعوة (العليوية)، وقابل بالغضب والنكير أعمال ابن عليوة المنافية للأخلاق، وأقدم على إظهار مساوئه لإخوانه في الدين"[٢٠١٦].

فهذا هو موقف الحركات الصُّوفيَّة من العلماء المخلصين الصادقين، فحسب الشيخ ابن باديس رحمه الله من المجد أنه أحيا أُمَّةً تعاقبت عليها الأحداث والأغيار، وديناً لابسته المحدثات والبدع، ولساناً أكلته الرطانات الأجنبية، وتاريخاً غطَّى عليه النسيان، ومجداً أضاعه ورثة السُّوء، وفضائل قتلتها رذائل الغرب..!

وكذلك قام ابن باديس بالرد على الطرق الصُّوفيَّة، وانحرافاتهم العقدية والفكرية، على الرغم من علمه، بأنَّ السلطات الفرنسية كانت تقف خلفهم، تؤيدهم بالمال والمناصب ![٢٠١٧] .

(٢٠١٦) انظر: الصراع بين السنة والبدعة، أحمد حماني (ص ٩٩).

(٢٠١٧) عبد الحميد بن باديس العالم الرباني والزعيم السياسي، مازن صباح مطلقاني (ص ١٦٨).

ومما أدخله ابن عليوة على طريقة شيخه البوزيادي هو اعتناقه لمبدأ الحلول ووحدة الوجود، وزعمه في أشعاره العامية أنه "هو الله"، وأنه "ليس سواه"، وأُثر عنه بيته الشهير:

فتشت عليك يا لله ... لقيت روحي أنا الله (٢٠١٨).

وفي عام (١٩٢٠ م) نشر العلاوي ديوانه المطبوع في تونس، وأعلن فيه بمذهبه هذا، وكرر هذا المعنى في كثيرٍ من أشعاره، كما جاء فيه أقوال مما يؤذي رسول الله ﷺ، ولما سئل عنها ابن عليوة، اعتذر عنها بأنه رأى رسول الله ﷺ وهو في "سكرة" من سكراته! وأنه تقدم منه في ذلةٍ وخضوع، فوجد منه ترفعاً وتذللاً، فقال فيه تلك الأبيات، وفيها يتهدد رسول الله ﷺ ويتوعده أنه إن مات بالشوق إليه، فلا عذر له يُنجيه! وأنه سيحاكمه إلى الله وينتصر عليه! وفي عبس التي تهدده ﷺ ما يساعد عليه! وزعم أنها "شطحة" من شطحاته!

ولما رفعت هذه الأبيات إلى الشيخ عبد الحميد، وسُئل عن حكم من يقولها؟ وهل يصحُّ أن يُوجَّه إلى رسول الله ﷺ مثلها ؟ فتردد في الجواب أولاً، ثم استخار الله، وكتب في الرد على صاحبها، رسالةً علمية صغيرة الحجم، غزيرة العلم،

(٢٠١٨) انظر: الصراع بين السنة والبدعة، أحمد حماني (ص ٦٢- ٦٣).

عنوانها: "جواب سؤال عن سوء مقال"، ولما انتهى من تحرير الجواب، في شهر ذي الحجة (١٣٤٠ هـ/ ١٩٢٢ م) وأرسل إلى كبار علماء تونس والجزائر والمغرب، فاطلعوا عليها، ووافقوا على ما جاء فيها، وضللوا من فاه بمثل هذا الكلام، ومن هؤلاء العلماء في تونس: الشيخ محمد النخلي، والشيخ بلحسن النجار، والشيخ الطاهر بن عاشور، والشيخ محمد الصادق النيفر، والشيخ معاوية التميمي، ومن الجزائر الشيخ شعيب بن علي التلمساني، والشيخ مولود بن الموهوب القسنطيني، ومن علماء المغرب: الشيخ العابد بن أحمد بن سودة، والشيخ محمد بن العربي، والشيخ عبد القادر بن محمد بن عبد القادري، كما قرظها غير هؤلاء في الصحف والمجلات كمجلة الفتح القاهرية [٢٠١٩].

وكانت صدمةً عنيفةً أصابت طريقة العليوية وشيخها، وشككت في عقيدته، ونبهت جمهور الأمة إلى ما يبثه، حتى اضطروا إلى تأليف كتاب جمعوا فيه الشهادات من العلماء والقضاة والمفاتي والنواب والمجالس والأعيان بصحة إسلام الشيخ وسلامة عقيدته، ولكنه مع ذلك لم يسحب ديوانه من الرواج، وتركه في

(٢٠١٩) انظر: الصراع بين السنة والبدعة، أحمد حماني (ص ٦٢- ٦٣).

السوق، وفيه من الضلال والقول بالحلول ووحدة الوجود ومن سوء القول أضعاف ما جاء في حق الرسول ﷺ، وما زال به ذلك حتى الآن..![٢٠٢٠] .

وتأسست الصحافة الوطنية؛ فتوالت الحملات على الخرافات والأباطيل، وعلى رواج الدعوة إلى مذهب الباطنية، وما فيها من القول بالحلول ووحدة الوجود، واشترك في الكتابة فحول العلماء، والكتاب، والمفكرين من الجزائر وتونس والمغرب، وكان من أشد الكتاب عنفاً "بيضاوي"، فحاولوا أن يعرفوا من هو ؟ فأبت إدارة الشهاب أن تكشف للعليويين اسمه، فقرروا أن ينفذوا وعيدهم في زعيم المصلحين، وإمامهم الشيخ "عبد الحميد بن باديس"[٢٠٢١] .

وهكذا عقد "العلاويون" اجتماعاً لهم بمستغانم، وقرروا أن يغتالوا الشيخ ابن باديس، وأرسلوا إليه "فدائياً!!" منهم يُدعى "ممين" أو "ميمان" –محمد الشريف من دوار الجعافرة –بلدية "مجانة" دائرة برج "بوعريريج" ولاية "سطيف" اليوم، فسافر لأداء مهمته الكريهة من مستغانم على بُعد نحو (٣٠٠) كيلو متر غربي العاصمة، وركب القطار من الجزائر بتذكرة ذهاب وإياب، فوصل إلى قسنطينة، وشرع –مع اثنين آخرين، أو ثلاثة من أعوانه–بترصد الشيخ والتحقق في معرفة

(٢٠٢٠) انظر: الصراع بين السنة والبدعة، أحمد حماني (ص ٦٣).

(٢٠٢١) انظر: الصراع بين السنة والبدعة، أحمد حماني (ص ٦٣).

مسكنه وتحركاته وأوقاته، ثم أقدم مساء (٩ جمادى الآخرة ١٣٤٥ هـ) الموافق (١٤ ديسمبر ١٩٢٦ م) على محاولته الآثمة، فأصابه بضربتين على رأسه وصدغه من هراوة، فأدماه، وحاول أن يسُلَّ موسى من نوع "بوسعادي" ليُجهز عليه، ولكن الله سبحانه نجاه منه، وأبطل كيده (٢٠٢٢).

لقد هزت هذه المحاولة جميع الأوساط، وفضحت مدبريها فضيحةً لا مثيل لها، وكانت بحقٍّ بداية فصلٍ جيد في انتصار الإصلاح والسنة، وانهزام التعصُّب، والبدعة، والباطنية.

والحقُّ أن هذه الحادثة أثمرت ثروة أدبية من النثر والشعر، والمباحث العلمية والدينية الراقية، ورغم التأثير الذي أحدثته في زمنها هذه الحادثة وما قيل فيها من النثر ومن الشعر -لا في الجزائر فحسب، ولكن في المغرب وتونس أيضاً -فقد بقيت مغمورةً، مطويةً بين صفحات الصحف والمجلات، وها قد مرَّ على حدوثها ما يقرب من ستين عاماً، ولا يكاد يُعرف عن تفاصيلها أحدٌ من المهتمين بتاريخ نهضتنا الثقافية والوطنية في الجزائر شيئاً.

(٢٠٢٢) انظر: الصراع بين السنة والبدعة، أحمد حماني، تحت عنوان "السطو بالأستاذ ابن باديس" (ص ٦٤).

ومن حقِّ جيلنا الحاضر، وأجيالنا المقبلة، وكل باحثٍ عن الحقيقة أن يطلعوا على أحداث تاريخهم بالتدقيق، ويعرفوا ما بذل أسلافهم من جهدٍ وبلاء، وعرق ودماء، حتى وصلنا إلى ما نحن عليه اليوم.

يقول حماني: "وقد عدنا إلى أعداد جريدة الشهاب (٤٥ -٤٦) الصادرة في السنوات (٢٦- ٢٧- ١٩٢٨ م/ ١٣٤٧ هـ) في ذل الزمن، ومنها نقلنا صفحات نثرية وشعرية مما حفَّ بهذه الحادثة، ودعمناها بفصولٍ جديدة، وتعاليق مُفيدة، تزيد النصوص والأحداث بياناً حتى لا تقتصر قراءتها على مجرد الاطلاع، بل تتجاوز ذلك إلى الاستفادة، وإثراء المعلومات بالنسبة للطلبة" [٢٠٢٣].

وقامت حركة صوفيَّة مناوئة لجمعية علماء الجزائر، أسموها (جمعيَّة علماء السُّنَّة)، لتحارب العلم والإسلام، باسم السُّنَّة!![٢٠٢٤] .

وهذا الأمر دفع الشيخ محمد البشير إبراهيمي أن يقول: "إننا علمنا حق العلم بعد التروي والتثبت، ودراسة أحوال الأمة ومناشئ أمراضها؛ أن هذه الطرق المبتدعة

(٢٠٢٣) انظر: الصراع بين السنة والبدعة، أحمد حماني، (ص ٦٥).

(٢٠٢٤) عبد الحميد بن باديس العالم الرباني والزعيم السياسي، مازن صباح مطلقاني (ص ١١٣).

في الإسلام هي سبب تفرق المسلمين، ونعلم أننا حين نقاومها نقاوم كل شر". (٢٠٢٥)

وقد أفرز الحقد الصُّوفي سُمَّه، عندما حاول أتباع العلاوي بالاتفاق مع الطرقية اغتيال الإمام ابن باديس في العام (١٣٤٥هـ)، وكانوا يلقبونه، بـ"ابن إبليس!" (٢٠٢٦).

ويذكر أنَّ الطرق الصوُّفيَّة دخلت بلاد المغرب العربي في بدايات القرن السادس عشر الميلادي، وازداد أتباعها في النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي، وبداية القرن التاسع، وأهم هذه الطرق هي: القادرية، والرحمانية، والتجانيَّة، والشاذلية، والدرقاويَّة، والعلاوية (٢٠٢٧).

وإذا رجعنا إلى أصول دعوة جمعية العلماء المسلمين بالجزائر؛ لوجدنا أنها تنصُّ على أنَّ "اعتقاد تصرُّف أحدٍ من الخلق مع الله في شيء ما؛ شركٌ، وضلالٌ،

(٢٠٢٥) موسوعة مواقف السلف في العقيدة والمنهج والتربية، محمد بن عبد الرحمن المغراوي (٩/ ٤٦٧).

(٢٠٢٦) موسوعة مواقف السلف، في العقيدة والسلوك والمنهج، محمد بن عبد الرحمن المغراوي (٩/ ٢٦٦).

(٢٠٢٧) نشأة المرابطين والطرق الصوفية، وأثرهما في الجزائر خلال العهد العثماني، مختار فيلالي (ص ٥١).

ومِنهُ اعتقاد الغوثِ والديوان، وبناء القِبابِ على القبور، ووقد السُّرجِ عليها، والذبح عندها لأجلها، والاستغاثة بأهلها، ضلالٌ من أعمال الجاهليَّة، ومضاهاةٌ لأعمال المشركين، ومن فعله جَهلاً، يُعلَّم وهو فاسق، ومَن أقرَّه ممن ينتسب إلى العلم فهو ضالٌ مُضلٌّ، والأوضاعُ الصُّوفيَّةُ بدعةٌ، لم يعرفها السَّلف، ومبناها كلُّها على الغلوِّ في الشيخ، والتحيُّز لأتباع الشيخ، وخدمة دار الشَّيخِ، وأولاد الشَّيخ إلى ما هنالك من استغلالٍ، وإذلالٍ وإعانةٍ لأهلِ الإذلال والاستغلال. ومن تجميد للعقولِ، وإماتةٍ للهممِ، وقتلٍ للشُّعوبِ، وغير ذلك من الشُّرور."[٢٠٢٨] .

كذلك الطريقة (الكتَّانيَّة) التي أسسها محمد بن عبد الوهاب الكتاني (ت ١٨٥٠م تقريباً) تلميذ الدرقاوي، وقد طورها حفيده (الذي حمل نفس الاسم) في العام (١٨٩٠م)، وشهدت توسعاً كبيراً في عهد مولاي عبد العزيز، ولكن مولاي رافد عامل أصحاب هذه الطرق بخشونة أدَّت إلى وفاة الحفيد، وأغلقت زواياهم، واختفت هذه الفرقة تقريباً، وأعيد تكوينها في العام (١٩١٨م تقريباً) بتوجيه من عبد الحيِّ الكتانيّ..!

(٢٠٢٨) عبد الحميد بن باديس، مازن مطلقاني، ملحق رقم [٢]، البنود (١٤، ١٥، ١٦)، (ص ٢٠٥).

واشتهرت طريقة الدرقاويّ بلبس المرقعات والخروق البالية والسبح، والدروشة المتجولة التي ترجع إلى الدرقاويِّ نفسه (فقد كان درويشاً متجولاً)، وكان يُفسح المجال للنساء أيضاً، ففي العام (١٩٤٢م)، كان لديه ثمانية حلقات تقودها سيدات في مراكش!.

٢. التيجانيَّة: بقيادة أحمد بن محمد بن المختار التيجانيّ (ت ١٢٣٠هـ/ ١٨١٥م) في المغرب (الذي ادَّعى التقاءه برسول الله ﷺ بين اليقظة والمنام، وأخذه الطريقة وأورادها عنه!)، ويبدو أنَّه وصل إلى مرحلة "قطب الأقطاب!" في الصحراء، بعد مشاكل مضنية مع السلطات التركيَّة، وقد استقبله بحفاوة مولاي سليمان (الذي حكم في الفترة ما بين ١٧٩٣– ١٨٢٢م)، ويبدو أن سليمان كان بحاجة إلى التقرُّب من الصُّوفيَّة (كأداة!)؛ لتدعيم وضعه ضد الأتراك في أوران وتلمسان..

وكان علماء المالكية في المغرب يؤيدون دعوة الشيخ مُحمَّد بن عبد الوهاب في محاربة القبوريَّة والأوليائيَّة، الأمر الذي دفع مولاي سليمان أن يصيغ موضوعاً مطولاً عن انتهاك بعض الصُّوفيَّة لحرمات السُّنة!، فاضطر التيجاني للإذعان للسلطة القائمة (في الظاهر على الأقل!).. ولا شكَّ أن المغاربة تأثروا بدعوة الشيخ محمد

بن عبد الوهاب، ولكن بقيت النزعة الشريفية والمرابطيَّة اللتين كانتا مستمرتين في الاتجاه السُّنِّي المغربي...[٢٠٢٩]

٣. الإدريسية، بقيادة أحمد بن إدريس بن محمد الفاسيّ الذي توجَّه إلى مكة (كمصلح ديني!) في العام (١٨١٨م)، وبعد قيامه بمحاولات شاقة لإقناع العلماء في تلك المنطقة تأييده في منهجه الجديد في الجمع بين التصوُّف (الباطني!) والدِّين، باء بالفشل، وحكم على نفسه بالهرطقة (والتخريف!)، فعارضه كثيرٌ من العلماء، وجادلوه، وردُّوا عليه، وكانت حياته معرضةً للخطر، ولذا اضطر مكرهاً على الفرار من مكة في العام (١٨٢٧م) إلى "زبيد"، ثم إلى "عسير" الذي تعاطف أهلها معه، فتركوه في سلام، شريطة أن لا ينفث سمومه بينهم، وتوفي سنة (١٨٣٧م)...

ويبدو أنَّ يقظة ابن إدريس جاءت متأخرة تماماً، ومحاولاته الجمع بين الجانب الباطنيّ للتصوُّف، والجانب التشريعي الحرفيّ، باءت بالفشل..

(٢٠٢٩) تأثر الدعوات الإصلاحية بدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، د. وهبة الزحيلي (ص ٣٢٤).

ولذا قام باتهامات للمبالغات التي أفسدت الطرق الصُّوفيَّة، في محاولة لتلطيف الأجواء المشحونة والمشتعلة، ولكنَّ الشيخ محمد بن عبد الوهاب كان أكثر يقظةً لحقيقة الصُّوفيَّة، ويعلم أن الأمر أكبر من مجرد تصريحات جوفاء داخل حدود الحرم؛ وأنَّ القضية هي العقيدة الإسلاميَّة النقيَّة!..

وبعد وفاة ابن إدريس، ظهرت الحركة السنوسية (المنبثقة عن حركة ابن إدريس) بقيادة محمد بن علي السنوسي (ت ١٩٥٩م) المولود بوهران في الجزائر، وكان السنوسي قد عاش وسط الدعوة الوهابيَّة، وتتلمذ على علمائها في مكة، ولكنَّ ولاءه لابن إدريس لم يتغيَّر، وقد حاول الاقتراب من شرفاء مكة (الطبقة المكيَّة الحاكمة تحت حماية الأنظمة الخديوية أو العثمانيَّة) واستقطابهم، وادَّعى أنَّ طريقته شاملة لكلِّ الطرق الأخرى، في تنافس (غير شريف!) بينه وبين محمد عثمان الميرغني (مؤسس الطريقة الميرغنية)، حيث أنَّ جذورها ضاربة في مكة، الأمر الذي دفع السنوسي لمغادرة مكة في العام (١٨٤٠م) !.

وكانت الطوائف الصُّوفيَّة أشبه ما تكون بالولايات المتناحرة فيما بينها، لبسط النفوذ والسيطرة، واكتساب الإتباع والمريدين، وبخاصة في الطبقات العليا والمؤثرة، وكان أمامها تحديان كبيران، وهما الولاء للدولة العثمانيَّة الضعيفة

والمفككة (والتي ربما تعرض بعض الطرق إلى التنكيل والمنع)، والدعوة الوهابيَّة (التي تحارب أصول وقواعد المنهج الصُّوفي).

اتجه محمد بن علي السنوسي إلى الصحراء، بعيداً عن مراكز التجمع والمدن، ملتمساً الأناس البسطاء، الذين سرعان ما يدينون له بالولاء والإتباع، خاصَّة وأنَّ لديهم استعداداً لتشريف الأولياء، واتصل سنده الشاذلي بأحمد بن يوسف الصالح، عن أحمد زروق الفاسي،

وكان لأتباعه في ليبيا يدٌ طولى في مقاومة الاحتلال الإيطالي، وقد استطاعت إيطاليا إفساد جميع الطوائف الصوفية في إفريقية، واستمالة شيوخها بالرشوة إلا الطريقة السنوسية.

وكان علماء الحركة السنوسية يُحاربون العقائد الفاسدة بين القبائل في الصحراء الكبرة، ويُرشدون الناس إلى حرمة الغلو في تقديس المشايخ والأحياء والأموات، ولا تأذن لأتباعها أن يذكروا ميتاً عند قبره بغير الدعاء له والترحم عليه [٢٠٣٠].

ولا ننسى الدور المتخاذل الذي قام به محمد علي باشا ربيب الفرنسيين، وراعي التصوُّف والقبورية في بلاد مصر، حينما قام بضرب أول حركة إسلامية في

(٢٠٣٠) الحركة السنوسية في ليبيا، د. علي الصلابي (١/ ١١٢).

المشرق الإسلامي، وهي حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، والتي وصلت جيوشه إلى الدرعية، فدمرتها تدميراً، أضف إلى ذلك محاربته للدولة العثمانية في وقتٍ كانت الدولة العثمانية فيه هدفاً لمؤامرات أهل الكفر وكيدهم، ففرَّق المسلمين، وحَملهم على أخذ حضارة الغرب الأخذ الأعمى، أفلا يحقُّ لمن يدرس تاريخ هذا الرجل أن يرتاب في أمره؟! كيف وقد قدَّم للمستعمر الفرنسي خدمات فكرية واجتماعية لا تقدر ولا توصف !! ومن سوء حظِّ المسلمين أن كان هذا الرجل الخطير في مصر، ولمصر ما لها من مكانةٍ ودورٍ في ريادة العالم العربي والإسلامي.(٢٠٣١)

وعندما كانت ألسنة كذَّابِي المتصوفة وأذنابهم، تسبُّ وتعلن الوهابيَّة، وتطعن في عرضها، وعقيدتها، كانت ألسنة شيوخ الكذب والنفاق الصُّوفية تلهج بالتسبيح باسم الشريف حسين وأولاده الذي اقتطع بخداع أخيه الشريف أهم منطقة حربية غنية من أرض الحجاز، وجعلها تحت سلطة الإنكليز، وهو يُجبر أهل البلاد التي تولّى إمارتها على إقرار المعاهدة المخزية التي عقدها معهم، وكذلك خرست

(٢٠٣١) انظر: الابتعاث ومخاطره، د. محمد الصباغ، المكتب الإسلامي، ط ٢، ١٩٨٣م، (ص ٢٩).

ألسنتهم يوم أن كان رئيس حكومة سوريا الحالية، وخادم فرنسا فيها: السيد تاج الدين الحُسيني! يتاجر بالدِّين والدماء والأرض!!.[٢٠٣٢]

وقد بيَّن الشيخ محمد رشيد رضا، سياسة الشغب، والدموية العمياء التي ينتهجها شيعة العراق مع حكومتها في العراق الحديث؛ فيقول: "فما من يوم إلا والحرب قائمة على ساقها، فكم ألجأوا الحكومة إلى خسائر أموال ونفوس، وجميع القبائل الذين ترفَّضُوا هم أعدى الناس لدولة الإسلام، وفي أحد الأسابيع ورد خبرٌ عن هجوم جمعٍ منهم على شطرة المنتفق، وقاموا بقتل جمع من الضباط، وعدداً كثيراً من الأفراد. وحروبهم في العمارة شهيرة، وكذلك في قبائل الديوانية، والنجف، والسماوة، وكربلاء، لم يزالوا قائمين على ساق الحرب مع الحكومة، واختلال العراق دائماً إنما هو من الأرفاض! فقد تهرَّى أديمهم من سُمِّ ضلالهم، ولم يزالوا يفرحون بنكبات المسلمين، حتَّى أنهم اتخذوا يوم انتصار الروس على المسلمين عيداً سعيداً !!.. وأهل إيران زيَّنوا بلادهم فرحاً وسروراً بذلك...

(٢٠٣٢) السنة والشيعة، لمحمد رشيد رضا (ص ٥١).

ومن الجدير بالذكر أنَّ الدولة العثمانيَّة هي التي أثارت عصبية الشيعة عليها بحروبها لدولة إيران!.. ولو بسطنا القول في هذا الباب، وذكرنا حروبهم ومخازيهم؛ لاستوجب إفراد مجلد كبير، والمنكر لذلك كالمنكر للشمس الضحى!.[٢٠٣٣]

وللأسف الشديد، فإن تحرك هؤلاء كان في مسار التحريض البشع، والدعوة لزيادة الأعضاء في الطرق (الحشد المنظم!)، مع الحفاظ على الطقوس والشعائر والأذكار والموالد في مراكز التجمُّع والالتقاء، وقد أثَّرت حركة الصحوة (الغير مسبوقة) في مناهج الصُّوفيَّة وطرق التدريب عندهم، حيث احتاجوا إلى تبرير كل عبادة يقومون بها، وربما غلب على كتاباتهم (حالة من اللاوعي!) المتمثلة في الردود السخيفة والساذجة، والتي تحتاج إلى تبرير إضافي وجديد!..

وقد بدأ التصوُّف بعد هزيمته النكراء في ميدان السياسة، يتجه نحو التفكير الحزبي، حتى في طريقة انتفاخ أوداج أصحابها، والتشدق والتعصب الكاملين على أعداء التصوُّف !.

بالإضافة إلى وضع بعضهم مناهج خاصَّة مزوَّرة على الدين والتاريخ، ونصب رموز مُعينة متمثلة في أقطاب وشيوخ وأشخاص يوالون عليها ويُعادون عليها، وإلزام

(٢٠٣٣) السنة والشيعة، لمحمد رشيد رضا (ص ٥٤– ٥٥).

المنتسب إلى تلك الطرق ببيعة خاصة، تقضي على المريد أن لا يخرج في كليته عن الإطار العام للطريقة أو المذهب الصوفي، والطاعة المطلقة للشيخ باعتباره القسِّ الإسلامي الكبير، والخبير الديني الأول، فتكون ركيزة النظر لدى زعماء الطرق ومنظّريها أن الإسلام وجميع تعاليمه محصورة في هذا المنهج، وبالتالي يلزمهم من ذلك الطعن في كل من خالف هذه الطريقة ومنهجها الموضوع على الإسلام، وإن كان المخالف على حق، فيحط من قدره، ويشاع عنه بأنه ضيّق الأفق، قاصر الثقافة، لا يعرف.

وللصوفيَّة في العصر الحاضر خطر كبير، وسعي غير حميد لنشر باطلهم، والدعوة إليه، من خلال:

١. الطرق الصوفية المنتشرة حول العالم، والتي تبثُّ أفكارهم ومعتقداتهم ليل نهار، على المنابر وفي الإعلام، وتستقطب السُّذَّج من الناس بالمال والطعام والمناصب، ولها نشاط واضح في طباعة كتب التصوف الغالية ككتب الشعراني، وابن عربي، وابن الفارض، وغيرهم.

٢. دعوتهم إلى التسامح ووحدة الأديان، وهو ما صرَّح به عارفوهم المتقدمين، والمتأخرين، كابن الفارض، الذي دعا إلى:

وإن نارَ بالتنزيل محرابُ مسجدٍ .... فقد بارَ بالإنجيلِ هيكلَ بيعةِ

وأسفارُ توراةِ الكليمِ لقومه .... يُناجي بها الأحبارُ في كُلِّ ليلةِ

وإن خرَّ للأحجارِ في البَدءِ عاكفٌ .... فلا وجه للإنكارِ بالعصبيَّةِ

وما زاغت الأبصارُ عن كُلِّ ملَّةٍ ... ما راغت الأفكارُ من كُلِّ نحلةٍ[٢٠٣٤]

ولا شكَّ أن القول بإسلاميَّة التصوُّف مردودٌ من الناحية العقديَّة والتاريخية، وقد ظهر ذلك في الصراع المستمر بين الصُّوفيَّة والفقهاء حتَّى يومنا هذا، والصُّوفيَّة مهما بلغ عددهم، فإنهم قلةٌ بين أفراد المجتمع الإسلاميِّ الممتد، وتمرُّ الطوائف الصُّوفيَّة بدورات طبيعية متسلسلة، تبدأ من الانتشار، والتوسُّع، ومن ثمَّ الركود، والتدهور (في مرحلة فقدان السيطرة المركزيَّة) على فروع الطائفة، وحتى النهاية والموت!..

وفي المقابل يمكننا الاستفادة من التصوُّف النظري، بعيداً عن المفاهيم المغلوطة، واللغة الباطنيَّة، بل و بإمكاننا إعادة صياغة منهاج متكامل في (الأخلاق)، يستند إلى كتاب الله ﷻ، وسُنَّةِ رسول الله ﷺ، ودفن كل ما له بالطرقيَّة

(٢٠٣٤) انظر: ديوان ابن الفارض (ص ١١٤).

والكلام الذي لا طائل تحته، والعودة إلى الحقائق الصحيحة، وترك البدع والهرطقة، والقول على الله بلا علم، ولا هدى، ولا كتاب منير!.

ولا أدري كيف استطاع هؤلاء المتصوفة تصديق خيالات لا استقرار لها ولا ثبات، واشتغالهم بقضايا لا طائل تحتها أو ورائها، وكيف تركوا المعين الذي لا ينضب إيماناً ومعرفةً وذوقاً ثمَّ استقلوا بأنفسهم في صحراء الوحدة الحزينة، التي يجب أن يقضوا فيها بقيَّة حياتهم، في حال الروح الكالح، الذي يفقد فيه القلب بريق النُّور، ودفء الوحي، ونحُّوا أنفسهم عن بحر الهداية، إلى ظلماتٍ لا طاقة لهم بها، وعندها لن يجد أملاً يرجوه من جود الله، ولن يتعلق برجاءٍ يقربه من رحمة الله، وينقطع في بحر الظلمات دون نور الوصال الذي طالما تمنَّاه، وتغنَّى بليلاه..!.

إن الصوفيون لم يتذوقوا طعم السعادة الكامنة التي تنبعث من قلب المؤمن الصادق نوراً شفافاً يمتدُّ إلى أفق السماء، ويملأه حباً وإيماناً ومعرفةً بالله سبحانه وبأسمائه وصفاته، تجعله أحياناً يسبح مع الشمس الساطعة في عمق المجرات، أو يسري مع نور القمر الساطع في بحر الظلمات، فجعلوا دائرتهم مع دائرة الكتاب والسُّنَّة سواء، في عالم من المُثل والشطحات، بينما تركوا الوحيين اللذان يفيضان بالإشراق الحقيقي، والنُّور الإلهي المتلألئ روعةً وجمالاً وحُسناً!

ومن خلال دراسة التجربة الصوفية ورجالاتها، والتدقيق الكبير في الأحداث والموضوعات التي تناولوها، استطعنا الخلوص إلى خصائص المذهب الصُّوفي، ومعرفة البنية التركيبية لهذا المذهب، وتحليله إلى عناصره الأوليَّة، بناءً على قاعدة: العلم حاكم على التجربة، وما أضمرته النفوس فالزمان كفيلٌ ببيانه، ونظر المتأخر أعمق وأوسع من نظر المتقدم؛ لأن المتأخرين ضبطوا الروايات، وجمعوا أشتات المتفرق، وبنو حقيقة معتقدهم بناءً على مقولات أئمتهم، وضلال شيوخهم

والواجب على طوائف المتصوفة في هذه الأزمان المتأخرة أن تفيء إلى دين الله ﷻ، وتعود إلى النبع الإسلاميِّ الصَّافي، وتُعلن انقيادها الكامل والحقيقي لمحمد ﷺ، فإنَّ التصوُّف لم يعد مخالفةً للسُّنَّةِ فحسب، بل أصبح منهاجاً معادياً لمنهج الإسلام، له دعاته، وطرقه، وأساليبه، وقد رأينا كيف استمدت هذه الطائفة تعليمها من أهل الكتاب والوثنيين، وأهل فارس، وفلاسفة اليونان، ثم تطورت جيلاً بعد جيل في مدارك المخالفة والهوى والمعصية، وكما قيل: البدع تكون في أولها شبراً، ثُمَّ تكثر حتى تصير ذراعاً، وأميالاً وفراسخ، وآخرها شرٌّ من أولها !.

إن الحقيقة الصادمة التي يجب أن يصدقها كل أحد؛ هي أنَّ الصُّوفيَّة مذهبٌ طائفيٌّ واحد، وعقيدته هي وحدة الوجود الفلسفية، ولا يعرف ذلك إلا السالكون في المراتب المتقدمة، وينفرد هؤلاء (بالتقية!)، بينما الآخرون مشغولون

بظاهرة الولائيَّة، وعقيدة إرضاء الجمهور، التي وظفوها في النيل من بعض معاصريهم، من أهل الاتحاد والحلول المغمورين، أما القسط الأكبر من الشتم والسَّبِّ فكان من حظ علماء أهل السُّنَّةِ والجماعة.

وإننا في زمنٍ كثرت فيه البدع، وقلَّ المنكرون لها، فلا عجب أن يقوم من جهلة المتصوفة من يدَّعي أنه على الحقِّ، وأنهم المُتَّبعونَ لرسول الله ﷺ، وهذه تُقية ما فيها مرية، وما أحسن ما قيل:

ليس التُّقى هذي التُّقِيَّةِ ... هذا النفاقُ وما سواه المُنكَرُ

ولا يزال بين ظهرانينا قومٌ رضوا بضحضاح من المعرفة، فكان نصيبهم من بحر العلم نضبة، ولكنهم يتجشئوون من غير شِبَع، فيحسبهم الجاهل عمالقة؛ لأنهم يُحسنون فنَّ العرض، وما أسرع ما تنطفئ جذوة هذا المذهب، وهؤلاء إنما يقطع دابرهم العقيدة السلفيَّة النقيَّة، وإثبات المباينة بين الخالق والمخلوق، وإثبات تعيُّنه منفصلاً عن المخلوق، تُرفع إليه الأيدي بالدعاء، وإليه كان معراج الأنبياء.

* خلاصة البحث:

١. أن التصوُّف بدأ في العراق، ولم يُعرف في الحجاز، ولا مصر، ولا الشام، والسبب في ذلك قرب تلك البلاد من بلاد فارس، وأن أخطاء العُبَّاد، والنُسَّاك وتنطعهم جُمعت كُلُّها في قالب التصوُّف العربي.

٢. أن العقيدة الصُّوفيَّة بدأت بنفاق "الجنيد"، الذي حافظ على عقيدة التصوُّف من ضغط الفقهاء، الذي كان إبان قوته.

٣. أن الصوفية في القرن الثالث الهجري وما بعده، ابتعدوا عن العلم وأهله، بل ورموهم بالألقاب المنفرة، فصارت (الحقيقة، وعلم الباطن، والوصول) لهم، أما الرسوم والمظاهر لغيرهم!.[٢٠٣٥]

٤. أن "الغزالي" كان له دورٌ كبير في عقد الصلح بين الإسلام والتصوُّف، وبه أضحى التصوُّف (إسلاميَّاً) من الدرجة الأولى، وتحول الإنكار على التصوُّف إلى إنكار على أشخاص الصُّوفيَّة، وأسهم الغزاليُّ نفسه لحماية الطَّريق الصُّوفيّ.

(٢٠٣٥) ينظر موقفهم من العلم وأهله، عند ابن الجوزي في كتابه (تلبيس إبليس ص ٣٨٩- ٤٠١).

٥. ثم جاءت المرحلة الثانية قبيل العصر المملوكي على يد "ابن عربي الحاتمي"، الذي أعلن بصراحة بعدما كان الغزالي يرمز لها رمزاً، فأعلن عقيدة (وحدة الوجود) أو الوحدة الكاملة بين الله والعالم.

٦. ورأينا كيف ظهرت الطرق الصوفية وانتشرت مع بدايات القرن السادس الهجري، وأبرزها القادرية، المنسوبة لعبد القادر الجيلاني (ت ٥٦١هـ)، كما ظهر أبو الحسن الشاذلي (ت ٦٥٦هـ)، وهو من أصحاب ابن عربي، وظهرت الرفاعية وطرق أخرى كثيرة.

٧. ووجدنا في القرن السابع والثامن والتاسع، أنه لم يظهر أي جديد فيما يتعلق بتطور تلك الطرق، ولم يكن هناك أية إضافة على نظرياتهم في المعرفة والسلوك، سوى شرح كتب أصحابهم القدماء، والدفاع عنهم، وظهرت كتب التراجم الصوفية.

٨. وهكذا القرون المتأخرة من العاشر إلى الرابع عشر، ظلت قنواتهم راكدة، ولكن ظهرت ألقاب جديدة مثل لقب (شيخ السجادة)، و(شيخ مشايخ الطرق الصوفية)، و(المجلس الصوفي الأعلى)، و

٩. وقد عرضنا جزءاً كبيراً للعقيدة الدينية في العصر المملوكي، وكيف أنها تبعت ابن عربي، وسيطر عليها أتباعه، ومع ذلك فالصراع بينهم وبين الفقهاء لم يهدأ، بل

ثار الفقهاء ثورتين: ثورة في القرن الثامن بزعامة ابن تيمية، وفي القرن التاسع بزعامة البقاعي، وكل ما هدفا إليه هو مجرد التمسُّك بما كان عليه الجنيد من قبل، وهو الالتزام بما جاء في الكتاب والسُّنَّة!!، مع أن الجنيد كان يقول ذلك تقيةً وخوفاً من القتل، ورأينا كيف أجهض التصوُّف المسيطر على العصر حركة الفقيهين.

٨. ورأينا كيف سيطر التصوُّف على العصر المملوكي (العصر الذهبي للتصوُّف)، الذي طغت فيه عقيدة تقديس الأشياخ (والتماس البركة!)، وترسخ لدى الناس أن مبدأ التصوُّف قرينٌ للإسلام، فالخروج على التصوُّف يعني الخروج على الإسلام، وبالرغم من ذلك، فإن ثورة الفقهاء ضد ابن عربي وأتباعه لم تنقطع.

١٠. وأن العصر المملوكي أتاح الفرصة أمام الصُّوفية للإعلان عن عقيدتها الاتحادية بصراحة؛ كالتلمساني، والمنبجي، واليافعي، وزكريا الأنصاري، ومحمد الصُّوفي (شيخ الشعراني)، ثم أشياخ الطرق الصُّوفيَّة: البدوي، والشاذلي، والدُّسوقي.

٧. وأن الشعراني جاء في (القرن العاشر) لترسيخ مبدأ التصوُّف على حساب الفقه، مع احتقاره لأوباش الصُّوفيَّة وغوغائهم، وطلبه لرؤوس الاتحادية المعاصرين له، وبذلك خفَّ الإنكار على الصُّوفيَّة، وطريقة الشعراني في الذبِّ عن التصوُّف إما

بالتأويل، أو نفي نسبة الأقول لقائليها، وظهور طائفة من الفقهاء الذين نافقوا التصوُّف، لأنه الغالب والمسيطر، بمثل ما فعل الجنيد سابقاً حين أبطن التصوُّف وأظهر الفقه.

١١. ثم جاء المتحللون من الإسلام في نهاية العصر المملوكي ومن أبرزهم: الباجريقي، والبققي، وابن اللبان، وآخرون، وكلهم بدأوا بالشطح الصُّوفي، واستغلوا الحرية التي يُقرِّها المجتمع؛ كي يتطاول بما شاء على الله تعالى ودينه ورسله وأنبيائه.

١٢. وأن الصُّوفيَّة نجحوا في المحافظة على عقائدهم في جميع المراحل منذ النشأة وحتى الظهور والانتشار، وحتى في عصور الإنكار استطاعوا أن يبطنوا التصوُّف بما عندهم من نفاق، وأن كل مرحلة تكون أصرح وأوضح من سابقتها، فالجنيد قال بوحدة الوجود، وتابعه الغزالي، ثم أعلنها ابن عربي، والذي اختلف بينهم هو الأسلوب، الذي ينحصر بين نفاق الجنيد، ومراوغة الغزالي، وصراحة ابن عربي.

١٣. حرص الصُّوفيَّة على استغلال الشكل الإسلامي، ومصادر التشريع، في محاولة إيجاد آيات قرآنية، وأحاديث نبويَّة، تكون سبباً في تذويب الفوارق بين الإسلام

والتصوُّف، ولذلك حرص ابن عربي على تفسير القرآن الكريم، ليوافق عقيدته، وأكثر من الاستشهاد بالأحاديث الموضوعة، على أن هذه الأحاديث الزائفة أصبحت ذائعة الصيت، ومتداولة بين عموم المسلمين بفضل الصُّوفية.

١٤. وقد يحسُّ القارئ العادي الذي يُحسن الظن بالصّوُفيَّة ببعض التحرج من الكشف عن حقيقة الصُّوفيَّة وكلامهم، ويتهيب عن الخوض فيها مراعاةً لما درج عليه الناس من تقديس التصوُّف ورجاله، وهذا الموقف العام يُعدُّ امتداداً لما درج عليه النَّاس مع بداية العصر المملوكي.

١٥. ورأينا كيف نزع متأخروهم النزعة الفلسفية، التي ساقتهم الأوهام القديمة، التي لا تلزم الإسلام ولا المسلمين، وهي ظنيات، إن تضافرت، فستكون نتائجها محتملة.

خاتمة

لقد وقفنا من هؤلاء المتصوفة على ما هو قذى في جفن الدين، ونكتةٌ سوداء في تاريخنا العظيم، نبذناهم في الله نبذ النواء، وأقصيناهم حيثُ يُقصى الغواة، وأبغضناهم في الله كما أنا نُحبُّ المؤمنين في الله، وقلنا لهم: اللهم إن دينك هو الحق اليقين، وأولياؤك هم الموصوفون بالمتقين، وهؤلاء قد صُرفوا عن آياتك، وعميت بصائرهم عن بيناتك، فباعد بين أسفارهم، وألحق بهم أشياعهم، حيث كانوا وأنصارهم!

ولم يكن لنا مجالُ الإلمام بالسيف، ولكننا نملك الألسنة، التي نوقظ بحدِّها كُلَّ غافلٍ وتعيس، اتبع سننهم، وارتضى لنفسه الهوان والضياع، وقد خرج عن الجادة مطروداً مغلوباً، فنرثي له ولدينه، فاحذروا وفقكم الله هذه الشرذمة على إيمانكم، وأعراضكم، وأبدانكم، وليس لكم من غلوائهم سوى الجوع والمرض والفقر، ذلك وعد الشيطان وهم أولياؤه.

أما وعد الرحمن فهو النصر والظفر والغلبة، يعدكم به لعلكم تتقون!

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾ (هود: ١١٣).

وقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ (آل عمران: ٢٢).

وإنه لأمر مؤسف والله، وبليةٌ من أعظم البلايا التي نشهدها في واقع المسلمين، أن نرى هؤلاء المتصوفة على هذه البدع المشؤومة، وهي من غير شك من الأسباب الكبرى في تأخر المسلمين وضعفهم وانحطاطهم، ومحال أن تتغير هذه الحال إلا إذا غيروا ما بأنفسهم من الجمود والتصوف وعلم الكلام، وعادوا إلى هدى الله الحق المتمثل في الكتاب والسنة، والذي توضحه الدعوة السُّنيَّةُ السلفية الغراء.

أ. محمد ناهض عبد السّلام حنُّونة

غزَّة –فلسطين

الفهرست:

المصادر والمراجع:

١. أبو حنيفة: حياته، وعصره، وآراؤه، وفقهه، الشيخ محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، الطبعة الثانية، ١٩٤٧م.

٢. أبو حنيفة النعمان (إمام الأئمة الفقهاء)، سلسلة أعلام المسلمين (٥)، وهبي سليمان غاوجي، دار القلم –دمشق، الطبعة الخامسة، ١٩٩٣م.

٣. أبو عبد الله الشيعي (مؤسس الدولة الفاطمية)، د. علي حسني الخربوطلي، المطبعة الفنية الحديثة –القاهرة، ١٩٧٢م.

٤. أحمد بن حنبل (إمام أهل السنة)، تأليف: عبد الغني الدقر، دار القلم – دمشق، الطبعة الرابعة، ١٩٩٩م.

٥. أحمد بن حنبل، حياته، عصره، آراؤه، وفقهه، للشيخ محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، الطبعة الثانية، ١٩٤٧ م.

٦. اختيار الأولى في شرح حديث اختصام الملأ الأعلى، للإمام زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي، تحقيق وتعليق: جاسم الفهيد الدوسري، مكتبة دار الأقصى –الكويت، الطبعة الأولى، ١٩٨٥م.

٧. إخوان الصفا، فلسفتهم وغايتهم، د. فؤاد معصوم، دار الهدى للثقافة والنشر –دمشق، سوريا، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م.

٨. أربع رسائل في التصوف، لأبي القاسم القشيري، تحقيق: د. قاسم السامرائي، مطبوعات المجمع العلمي العراقي (المجلدين: السابع عشر والثامن عشر)، ١٩٦٩م.

٩. الإمام الغزالي بين مادحيه وقادحيه، د. يوسف القرضاوي، حولية كلية الشريعة، والدراسات الإسلامية، جامعة قطر، العدد الخامس، ١٩٨٧م.

١٠. الإمام جلال الدين السيوطي (معلمة العلوم الإسلامية)، تأليف إياد خالد الطباع، دار القلم –دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م.

١١. الأبعاد الصوفية في الإسلام، وتاريخ التصوُّف، الأستاذة: آنا ماري شيمل –مستشرقة ألمانية–، منشورات الجمل، ترجمة: محمد إسماعيل السيد، ورضا حامد قطب، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦م.

١٢. الأستاذ محمد بن أحمد الفرغل، تأليف خادم ضريح الفرغل: محمد حسن محمد شباب، مطبعة التقدم التجارية، لا يوجد رقم، ولا تاريخ للطبعة.

١٣. الإمام مالك بن أنس، (إمام دار الهجرة)، عبد الغني الدِّقر، دار القلم– دمشق، الطبعة الثالثة، ١٩٩٨م.

١٤. الإمام محمد بن عبد الوهاب (دعوته وسيرته)، الشيخ عبد الله بن عبد العزيز بن باز، محاضرة ألقاها حينما كان نائباً لرئيس الجامعة الإسلامية، بالمدينة المنورة، عام ١٣٨٥هـ، كتاب الكتروني، تقديم،: محمد عطية سالم، لا يوجد رقم ولا تاريخ للطبعة.

١٥. الأمير والدرويش، ترانيم صوفية، أحمد بهجت، دار الهدى، ومكتبة عابث الإلكترونية.

١٦. البدوي ليس جاسوساً ولا شيعياً، د. جودة محمد أبو اليزيد مهدي، الدار الجودية، القاهرة –مصر، كتاب منشور، لا يوجد رقم، ولا تاريخ للطبعة.

١٧. التدين الصُّوفي في طبعته النسوية، ورهان النوع الاجتماعي، "لالة ميمونة رمز الصلاح الأنثوي"، بحث محكم صادر عن مؤسسة "مؤمنون بلا حدود"، للباحث: مُراد جدِّي، كتاب الكتروني، ١٦– نوفمبر، ٢٠١٦م.

١٨. التصوُّف الإسلامي العربي، د. عبد اللطيف الطيباوي، دار القصر، الجامعة الأمريكية–بيروت، ١٩٣٨م.

١٩. التصوُّف الإسلامي الطريق والرجال، د. فيصل بدير عون، كلية الآداب، جامعة عين شمس– القاهرة، ١٩٨٣م، مكتبة سعيد رأفت– القاهرة.

٢٠. التصوف البوذي والتحليل النفسي، د. ت. سوزوكي (أستاذ الفلسفة البوذية في جامعة "أوتاي" في "كيوتر")، ترجمة: ثائر ديب، وتقديم: وفيق خنسة، دار الحوار، سوريا– اللاذقية، الطبعة الثانية، ٢٠٠٧م.

٢١. التصوف: المنشأ والمصدر، إحسان إلهي ظهير، طبع قومي پريس، لوئرمَال– لاهور، الطبعة الأولى، ١٩٨٦م.

٢٢. التصوُّف في الجزائر خلال القرنين السادس والسابع الهجريين (١٢ و ١٣ الميلادي)، نشأته، ودوره، الطاهر بونابي، رسالة ماجستير، دار الهدى، عين مليلة– الجزائر، ٢٠٠٠م.

٢٣. التصوف في القرنين الثاني والثالث الهجريين، وموقف الفقهاء الأربعة منه، رسالة دكتوراة– قسم العقيدة، كلية الدعوة وأصول الدين– جامعة أم القرى، أبو الخير تراسون، بإشراف: د. عبد العزيز المرشدي، ٢٠٠٢م.

٢٤. التصوف في مرآة معاصرة، ليلى قرزوان، ومحمد زمري، قسم الأدب العربي، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان –الجزائر، مجلة جامعة النجاح، المجلد (٢٧: ٣)، ٢٠١٣م.

٢٥. التصوف من إشكالية الفهم إلى تيه الممارسة، الأستاذ عيد علاوي، مجلة المخبر، العدد الثامن، أبحاث في اللغة والأدب الجزائري، جامعة محمد خيضر، بسكرة –الجزائر، ٢٠١٢م، (ص ١٢٧ وما بعدها).

٢٦. التصوُّف والبدعة في المغرب، طائفة العكاكزة في القرنين السادس عشر والسابع عشر، تأليف عبد الله نجمي، رسالة ماجستير رقم ٤٧، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية –الرباط، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م.

٢٧. التوسل: أنواعه وأحكامه، للإمام محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع –الرياض، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م.

٢٨. العالم الكبير والمربي الشهير عبد القادر الجيلاني، د. علي محمد الصلابي، مؤسسة القاهرة، اقرأ –مصر، ط ١، ٢٠٠٧ م.

٢٩. العقائد الدينية في مصر المملوكيَّة، بين الإسلام والتصوُّف، د. أحمد صبحي منصور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، تاريخ المصريين: ١٨٦/ ٢٠٠٠م.

٣٠. الغنية لطالبي طريق الحقِّ عز وجل، للإمام عبد القادر بن موسى بن عبد الله الجيلاني، تحقيق أبو عبد الرحمن صلاح بن محمد عويضة، دار الكتب العلمية، بيروت –لبنان، ط ١، ١٩٩٧م.

٣١. الحركة الصوفية في بلاد الشام خلال الحروب الصليبية، رياض صالح علي حشيش، رسالة ماجستير، ٢٠٠٥م، مكتبة الجامعة الإسلامية –غزة.

٣٢. الحيوان، عمرو بن عثمان الجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، دار مصطفى البابي الحلبي للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٩٦٥م.

٣٣. الطرق الصوفية في طرابلس الشام، د. غادة المقدم، من موسوعة تاريخ العرب والعالم (ص ٩٤ –١٠٩)، بحث منشور، لا توجد سنة طبع.

٣٤. السر الجليل في خواص حسبنا الله ونعم الوكيل، المسمى بـ(الجواهر المصونة واللآلئ المكنونة)، مكتبة الجمهورية المصرية، كتاب منشور، ولا يوجد تاريخ نشر.

٣٥. السنة والشيعة (أو الوهابية والرافضة)، لمحمد رشيد رضا، الطبعة الثانية، دار المنار –القاهرة، **١٩٤٧**م.

٣٦. السياسة والفراسة في تدبير الرئاسة (سر الأسرار)، لأرسطاليس، تقديم سامي سلمان الأعور، دار العلوم العربية– لبنان، الطبعة الأولى، **١٩٩٥**م.

٣٧. السيد أحمد البدوي، ليس جاسوساً، ولا شيعياً، أ. د. جودة محمد أبو اليزيد المهدي، الدار الجودية، كتاب الكتروني، **١٤٢٥** هـ، ليس فيه رقم، ولا تاريخ للطبعة.

٣٨. السيد البدوي، دراسة نقدية، د. عبد الله صابر، كتاب الكتروني منشور، لا يوجد رقم، ولا تاريخ للطبعة.

٣٩. الشافعي، حياته وعصره، آراؤه وفقهه، الإمام محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي– دمشق، الطبعة الثانية، **١٩٧٨**م.

٤٠. الشعراوي يبوح بأسراره الروحية في رحاب السيدة نفيسة، أ. سعيد أبو العينين، لا يوجد طبعة، ولا سنة طباعة.

٤١. الشيخ عبد القادر الجيلاني، الإمام الزاهد القدوة، تأليف الدكتور عبد الرزاق الكيلاني، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٩٤م.

٤٢. الشيخ عبد القادر الجيلاني، وآراؤه الاعتقادية والصوفية، عرض ونقد في ضوء عقيدة أهل السنة والجماعة، تأليف: د. سعيد بن مسفر القحطاني [رسالة علمية لنيل درجة الدكتوراة من كلية أصول الدين –بجامعة أم القرى]، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض– السعودية، ط١، ١٤١٨ هـ.

٤٣. الشيخ محمد بن عبد الوهاب، حياته ودعوته في الرؤية الاستشراقية (دراسة نقدية): تأليف: الدكتور ناصر بن إبراهيم بن عبد الله التويم، أستاذ الثقافة الإسلامية المشارك بكلية الشريعة بالرياض. كتاب الكتروني منشور، لا يوجد تاريخ أو رقم للطبعة.

٤٤. الشيخ محمد بن عبد الوهاب، عقيدته السلفية، ودعوته الإصلاحية، وثناء العلماء عليه، أحمد بن حجر آل بن علي (قاضي المحكمة الشرعية بقطر)، تقديم: عبد العزيز بن باز، كتاب الكتروني، لا يوجد رقم، ولا تاريخ للطبعة.

٤٥. الصلوات الحجيرية، فتحي سعيد الحجيري الشاذلي، تقريظ: فرَّاج محمود الأرمنتي، كتاب الكتروني، مركز كُوم أُمبو–أسوان، ١٤٢١هـ.

٤٦. الصوفية في ميزان الكتاب والسنة، محمد جميل زينو، (المدرس بدار الحديث الخيرية بمكة المكرمة)، كتاب الكتروني، دار المحمدي للنشر والتوزيع –مكة، ولا رقم طبعة.

٤٧. الطريقة العلاوية في الجزائر ومكانتها الدينية والاجتماعية (١٩٠٩ – ١٩٣٤ م)، إعداد: غزالة بو غانم. إشراف الدكتور. عبد الكريم بو صفصاف، رسالة الكترونية منشورة، مقدمة لنيل درجة الماجستير، بجامعة (منتوري)، قسنطينة –كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية –قسم التاريخ والآثار.

٤٨. الفرق الصوفية في الإسلام، سبنسر ترمنجهام، ترجمة: د. عبد القادر البحراوي، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٤م.

٤٩. القلائد والجواهر في مناقب الشيخ عبد القادر؛ تأليف: محمد بن يحيى التادني الحنبلي، وبهامشه فتوح الغيب للجيلاني، طبع على نفقة عبد الحميد أحمد حنفي، مصر –طبعة قديمة، لا يوجد رقم طبعة، ولا تاريخ نشر.

٥٠. القول المبين في التحذير من كتاب إحياء علوم الدين، للشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ، تحقيق: عبد العزيز بن عبد الله آل حمد، دار المنار للنشر والتوزيع، السعودية – الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.

٥١. اللاهوت الصوفي حسب القديس غرغيسوس النِّيصي (٣٣٥– ٣٩٤ م)، الأب الدكتور: تيودور حلاق، الراهب الباسيلي الشويري، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م، المكتبة البوليسية، مقال في مجلة "المسَّرة" الأعداد (٨٣٢– ٨٣٧)، العدد (٢٤) من سلسلة الفكر المسيحي بين الأمس واليوم.

٥٢. النقول الشرعية في الرد على الوهابية، الشيخ حسن الشطي الحلبي، تحقيق: بسام عميقة، كتاب الكتروني، دار غار حراء– سوريا– دمشق، ١٩٩٧م.

٥٣. بشائر الخيرات في الصلاة على سيد السادات، عبد القادر الجيلاني، كتاب الكتروني، طبع بالمغرب، لا يوجد تاريخ للطبع، ولا رقم للطبعة.

٥٤. تأييد الحقيقة العلية وتشييد الطريقة الشاذلية، لجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، تحقيق: د. عاصم إبراهيم الكيالي الشاذلي الدرقاوي، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦م.

٥٥. تاريخ فلاسفة الإسلام، لمحمد لطفي جمعة، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة– مصر، كتاب الكتروني، ٢٠١٢م.

٥٦. تبييض الصحيفة بمناقب أبي حنيفة، لجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، تحقيق: محمود محمد حسن نصّار، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٩٠م.

٥٧. تحريم آلات الطرب، محمد ناصر الدين الألباني، مؤسسة الريان، بيروت –لبنان، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٥ م.

٥٨. تصوُّف الشيعة، نظرة إلى حياة السيد حيدر الآملي وعقائده، تأليف محمد جواد جوهري، المؤسسة الدولية للمطالعات والأبحاث الشرقية (مهر)، طهران –إيران، الطبعة الأولى، ١٩٩٩ م.

٥٩. تيارات الفكر الإسلامي، د. محمد عمارة، دار الشروق –القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٩٧م.

٦٠. تعاليم المتصوفين، حضرت عنايت خان (Hazrat Inayat Khan)، ترجمة: إبراهيم إستنابولي، دار الفرقد –دمشق، سوريا، الطبعة الثانية، ٢٠٠٨م.

٦١. جمع المقال في إثبات كرامات الأولياء في الحياة وبعد الانتقال (عشر رسائل كاملة)، جمع وتحقيق: أحمد فريد المزيدي، تقريظ: أحمد بن محمد القادري النبوي، أ. د. جودة محمد أبو اليزيد المهدي –أستاذ التفسير بالأزهر الشريف –دار الآثار الإسلامية –بيربلي –سيرلانكا، ط١، ٢٠٠٦م.

٦٢. جهود علماء السلف في القرن السادس الهجري في الرد على الصوفية تأليف الدكتور: محمد بن أحمد بن علي الجوير، رسالة مُقدمة لنيل درجة الدكتوراة في العقيدة والمذاهب المعاصرة، سلسلة الرشد للرسائل الجامعية (١٠١)، مكتبة الرشيد "ناشرون –"المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣ م.

٦٣. حاشية الباجوري على شرح العلامة ابن قاسم الغزي، على متن الشيخ أبي شجاع، ضبطه وصححه محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت –لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٩٩ م.

٦٤. حقائق عن التصوُّف، عبد القادر عيسى، الطبعة الخامسة، ١٩٦١م، موقع الطريقة الشاذلية الدرقاوية (.(www.shazly.com).

٦٥. حكم الغناء في مذهب المالكية، تأليف أبو سفيان مصطفى باحو السلاوي المغربي، الطبعة الثانية، كتاب الكتروني –جريدة السبيل، ٢٠٠٧ م.

٦٦. حقيقة السنة والبدعة (= الأمر بالاتباع والنهي عن الابتداع)؛ عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت ٩١١ هـ)، تحقيق: ذيب بن مصري بن ناصر القحطاني، مطابع الرشيد، ١٤٠٩ هـ.

٦٧. حياة السيد أحمد البدوي، محمد محمود إبراهيم، مطبعة دار التأليف – مصر، ١٩٤١م، كتاب الكتروني، منشور، ومطبوع، تصحيح: أ. محمود محمد بركة، لا يوجد تاريخ ولا رقم للطبعة.

٦٨. دراسات في التصوف، إحسان إلهي ظهير، الطبعة الأولى، دار الإمام المجدد، القاهرة –مصر، ٢٠٠٥م.

٦٩. دليل الفالحين طرق رياض الصالحين، محمد علي بن محمد علان الشافعي، اعتنى به: جمال شيحا، دار المعرفة، بيروت –لبنان، الطبعة الرابعة، ٢٠٠٤ م.

٧٠. رجال الفكر والدعوة في الإسلام، أبو الحسن علي الحسني الندوي، تقديم: د. مصطفى السباعي، ود. مصطفى الخن، دار ابن كثير، ط ٣، ٢٠٠٤ م.

٧١. روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات، تأليف العلامة الميرزا محمد باقر الموسوي الخوانساري، عنيت بنشره مكتبة إسماعيليان، طهران/ ناصر خسرو –پاساژ مجيدي/ قم –خيا بان ارم، ١٣٩٠هـ.

٧٢. زيادات حقائق التفسير، لأبي عبد الرحمن السلمي، ت: جيرهارد بوورينغ، نشرت بإشراف كلية الآداب والعلوم الإنسانية، في جامعة القديس يوسف، دار المشرق، بيروت –لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٩٥م.

٧٣. صفحات مكثفة من تاريخ التصوف الإسلامي، د. مصطفى كامل الشيبي، دار المناهل، بيروت –لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م.٧. عبادة القبور عند غلاة الصُّوفية، عرض ونقد، عبير نعيم سعيد الدهشان، رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية، ٢٠١٣م.

٧٤. شرح الأنفاس الروحانية لأئمة السلف الصوفية، أبو ثابت محمد بن عبد الملك الديلمي (٥٨٩هـ)، تحقيق: أحمد فريد المزيدي، تقريظ: أحمد محمد القادري، دار الآثار الإسلامية –بريبلي –سيرلانكا، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧م.

٧٥. شرح حديث جبريل المعروف بـ"الإيمان الأوسط"، لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحرَّاني، دراسة وتحقيق الدكتور علي بخيت الزهراني، رسالة دكتوراة، دار ابن الجوزي.

٧٦. عبد الحميد بن باديس، (العالم الرباني والزعيم السياسي)، سلسلة أعلام المسلمين (٢٨)، تأليف: مازن صبَّاح مطلقاني، دار القلم –دمشق، الطبعة الثانية، ١٩٩٩م.

٧٧. عوارف المعارف، للشهاب عمر السهروردي (ت ٦٣٢هـ)، ت: أ. د/ أحمد عبد الرحيم السايح، والمستشار/ توفيق علي وهبة، مكتبة الثقافة الدينية –القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦م.

٧٨. قراءة في الاستراتيجية الغربية لحرب الإسلام، د. محمد يسري إبراهيم، دار اليُسر، الطبعة الثانية، ٢٠١١ م.

٧٩. قصة الحلاج وما جرى له مع أهل بغداد، تحقيق سعيد عبد الفتاح، المكتبة الأزهريَّة للتراث –القاهرة، ٢٠٠٠م.

٨٠. قضية التصوف –المدرسة الشاذلية، الدكتور عبد الحليم محمود، دار المعارف –القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٩٩م.

٨١. قطر الولي في حديث الولي أو (ولاية الله والطريق إليها)، تأليف محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (المتوفى: ١٢٥٠هـ)، تحقيق الدكتور إبراهيم هلال، دار الكتب الحديثة، مصر –القاهرة، كتاب منشور.

٨٢. قواعد التصوُّف، أحمد بن محمد البرنسي المغربي (زرّوق)، ضبط وتعليق: أحمد بيروتي، دار البيروتي، سوريا –دمشق، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤م.

٨٣. مالك حياته، وعصره، وآرائه، محمد أبو زهرة، الطبعة الأولى، مكتبة الاعتماد مصر، ١٩٩٩م.

٨٤. متصوفة بغداد في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي)، عمر سليم عبد القادر التل، بحث استكمالي لنيل درجة الماجستير في التاريخ، دار المأمون للنشر والتوزيع –المملكة الأردنية الهاشمية، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩م.

٨٥. مجموعة من الأوراد، ورد (الصبح، والستار، والعشاء، ومصباح الظلام، والمضرية)، جمع: د. حسن بن سائد السيد عبد الرحمن بادِنجِكيِّ الحسيني، كتاب الكتروني، لا يوجد دار نشر، ولا رقم طبعة، ٢٠١٦م.

٨٦. مجلس الخضر عليه السلام، فاطمة علي الجعفر –كاتبة شيعية–، القدس للطباعة والنشر –الكويت، الطبعة الثالثة، ١٤٢٨ هـ.

٨٧. محاضرات في النصرانية؛ لمحمد أبو زهرة، طبعة الرئاسة العامة للإفتاء بالمملكة العربية السعودية– الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٤ هـ.

٨٨. مختصر العلو للعلي الغفار؛ للإمام الذهبي، اختصره الإمام الألباني، المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٩٨١م.

٨٩. مصادر التصوف، رفعة العنزي، رسالة ماجستير، إشراف: د. إبراهيم الفارس، جامعة الملك سعود، رسالة منشورة، لا يوجد تاريخ للنشر.

٩٠. مصباح الهداية إلى الخلافة والولاية، آية الله الخميني، تقديم السيد: أحمد الفهري، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت –لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦م.

٩١. مقدمة في فلسفة الإسلام، للدكتور عمر محمد التومي الشيباني، الدار العربية للكتب –ليبيا، ط الأولى، ٢٠٠٥م.

٩٢. مناقب السيد البدوي، المسماة "الجواهر السنية والكرامات الأحمدية"، تأليف عبد الصمد (راعي الحضرة الأحمدية)، تحقيق وتعليق: د. أحمد عبد الرحيم السايح، والمستشار علي توفيق وهبة، الناشر: مكتبة الثقافة الدينية – القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧م.

٩٣. مناقب الشافعي؛ لأحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: السيد أحمد صقر، مكتبة دار التراث– القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٧٠م.

٩٤. مناقب الإمام الشافعي أو "المنهاج القويم في بيان مناقب الإمام الشافعي رضي الله عنه"، تأليف أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسين الرازي، تحقيق: د. أحمد حجازي السقا، مكتبة الكليات الأزهرية، الطبعة الأولى، ١٩٨٦م.

٩٥. نشأة البدع الصُّوفيَّة، د. فهد بن سليمان الفهيد، كتاب الكتروني، لا يوجد تاريخ للنشر، ولا اسم مطبعة، ولا رقم للطبعة.

٩٦. ليس من الإسلام، الشيخ محمد الغزالي، كتاب إلكتروني، دار الشروق، الطبعة السادسة، لا يوجد تاريخ للنشر.